تيسير التفسير
(١)

تيسير
تفسير الميزان

تيسير تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي
مع الاحتفاظ بكل محتوياته

٩

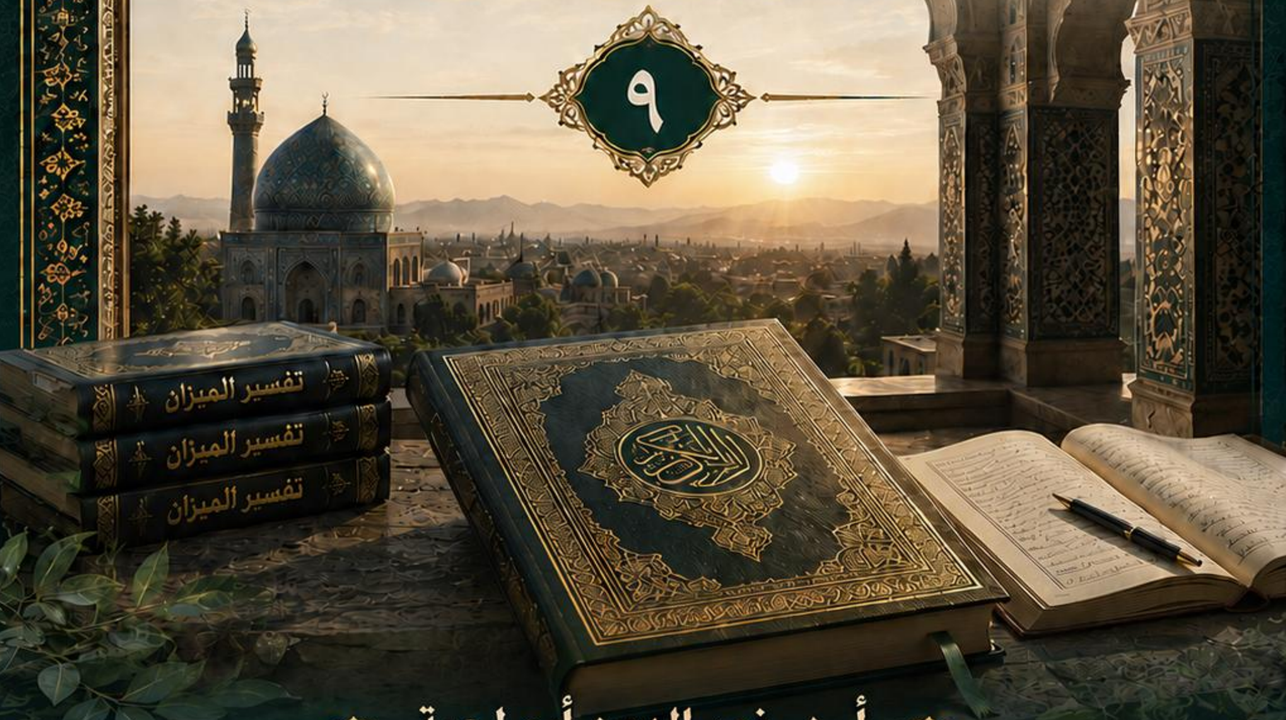

أ. د. نور الدين أبو لحية

دار الأنـوار
للنشر والتوزيع

تيسير تفسير الميزان

تيسير تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي مع الاحتفاظ بكل محتوياته

٩

أ. د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الأولى: ١٤٤٨ هـ - ٢٠٢٦ م

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات	٧
سورة الكهف (تتمة)	٧
٣٤. موسى يسير إلى مجمع البحرين:	٧
٣٥. نسيان الحوت واتخاذ سبيله في البحر:	١٠
٣٦. موسى يلقى العبد الصالح:	١١
٣٧. طلب موسى الصحبة والتعلم واشتراط الصبر:	١٢
٣٨. خرق السفينة وإنكار موسى:	١٥
٣٩. قتل الغلام وتذكير العبد بالصبر:	١٦
٤٠. إقامة الجدار دون أجر وفراق موسى والعبد:	١٧
٤١. تأويل خرق السفينة لحمايتها من الغاصب:	١٩
٤٢. تأويل قتل الغلام خوفاً من كفره وطغيانه:	١٩
٤٣. تأويل إقامة الجدار لحفظ كنز اليتيمين:	٢٠
٤٤. قصة ذي القرنين وتمكينه في الأرض:	٢٣
٤٥. ذو القرنين عند مغرب الشمس ومطلعها:	٢٨
٤٦. ذو القرنين والسد بين يأجوج ومأجوج:	٣٣
٤٧. بناء السد من الحديد والنحاس المذاب:	٣٤
٤٨. السد رحمة حتى يأتي وعد الله:	٣٦
٤٩. النفخ في الصور وحشر الناس وعرض جهنم:	٣٧
٥٠. الكافرون ظنوا أن يتخذوا عباد الله من دونه أولياء:	٣٨
٥١. الأخسرون أعمالاً الذين ضل سعيهم في الدنيا:	٤٠
٥٢. جنات الفردوس وخلود المؤمنين فيها:	٤٣
٥٣. لو كان البحر مداداً لكلمات الله لنفد:	٤٤
٥٤. محمد بشر يُوحى إليه:	٤٦
سورة مريم	٤٩
مقاصد السورة ومحتوياتها:	٤٩
مقاطع السورة ونظمها:	٥٠

١. دعاء زكريا الخفي والبشارة بيحيى: ٥٢
٢. آية الله في خلق يحيى والأمر بالتسبيح: ٥٩
٣. أمر يحيى بأخذ الكتاب بقوة وإيتاؤه الحكمة والسلام عليه: ٦٢
٤. قصة مريم ورسالة الروح وبشارة الغلام الزكي: ٦٧
٥. عجب مريم من الحمل: ٧١
٦. حمل مريم ومخاضها عند النخلة: ٧١
٧. طمأنة الله لمريم: ٧٢
٨. إتيان مريم قومها واتهامهم لها: ٧٥
٩. نطق المسيح في المهد وإعلانه العبودية والنبوة والبركة: ٧٦
١٠. إثبات الحق في المسيح وتنزيه الله عن الولد: ٨٠
١١. تحذير الظالمين من يوم الحسرة والإنذار به: ٨٢
١٢. دعوة إبراهيم لأبيه إلى التوحيد: ٨٤
١٣. رفض الأب وتهديده بالرجم وهجر إبراهيم واستغفاره: ٨٧
١٤. هبة الله لإبراهيم إسحاق ويعقوب وجعلهما أنبياء: ٩٠
١٥. إخلاص موسى ورسالته ومناجاته عند الطور وهبة هارون: ٩١
١٦. صدق إسماعيل في الوعد وأمره أهله بالصلاة والزكاة: ٩٢
١٧. صدق إدريس ورفعه مكانا عليا: ٩٣
١٨. الأنبياء الذين أنعم الله عليهم وسجودهم وبكاؤهم: ٩٤
١٩. تحذير الخلف الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات: ٩٨
٢٠. وعد التائبين بالجنة ونعيمها والسلام فيها: ١٠٠
٢١. تنزل الملائكة بأمر الله والأمر بعبادته والصبر: ١٠١
٢٢. إنكار الإنسان للبعث، ونسيانه لخلقه: ١٠٥
٢٣. حشر الكافرين والشياطين وإحضارهم حول جهنم: ١٠٧
٢٤. ورود جميع الناس جهنم ثم نجاة المتقين منها: ١٠٨
٢٥. تفاخر الكفار بالمقام ورد الله بإهلاك القرون قبلهم: ١١٣
٢٦. إمهال الضالين وزيادة المهتدين هدى والباقيات الصالحات: ١١٤
٢٧. تهديد الكافر الذي ادعى المال والولد وكذّب بالآيات: ١١٧
٢٨. اتخاذ الكفار آلهة للاعتزاز بها وخذلانهم يوم القيامة: ١٢٠

٢٩. تسليط الشياطين على الكافرين لإغوائهم: ١٢٢
٣٠. نهي النبي عن العجلة وإحصاء الله لأجل الكافرين: ١٢٣
٣١. حشر المتقين إلى الرحمن وسوق المجرمين لجهنم وحرمانهم الشفاعة: ١٢٣
٣٢. تفطر السموات من دعاوى المشركين: ١٢٦
٣٣. وعد الصالحين بالمودة في قلوب الناس: ١٢٧
٣٤. تيسير القرآن للتبشير والإنذار وإهلاك القرون السابقة: ١٢٩
سورة طه ١٣١
مقاصد السورة ومحتوياتها: ١٣١
مقاطع السورة ونظمها: ١٣١
١. تنزيل القرآن تذكرة لمن يخشى لا للتعب والمشقة: ١٣٣
٢. استواء الرحمن على العرش وملكه لكل ما في الكون: ١٣٧
٣. علم الله بالسر والجهر وإثبات الأسماء الحسنى: ١٣٩
٤. قصة موسى ورؤيته النار: ١٤٣
٥. نداء الله لموسى في الوادي المقدس وأمره بالعبادة وإقامة الصلاة: ١٤٣
٦. معجزة العصا واليد البيضاء وآيات الله الكبرى: ١٤٩
٧. أمر موسى بالذهاب إلى فرعون ودعاؤه واستعانته بهارون: ١٥١
٨. استجابة الله لدعاء موسى وتذكيره بنعمته وإلقائه في التابوت: ١٥٦
٩. نجاة موسى من الغم بعد قتل النفس ومكثه في مدين: ١٥٩
١٠. اصطفاء الله لموسى لنفسه: ١٦١
١١. أمر موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون بالقول اللين: ١٦٢
١٢. خوف موسى وهارون من طغيان فرعون وطمأنة الله لهما: ١٦٤
١٣. رسالة موسى وهارون إلى فرعون بإرسال بني إسرائيل والتحذير من العذاب: ١٦٥
١٤. سؤال فرعون عن الله وجواب موسى: ١٦٧
١٥. سؤال فرعون عن القرون الأولى وجواب موسى: ١٧١
١٦. جعل الله الأرض مهاداً وإنزال الماء وإخراج النباتات: ١٧٣
١٧. خلق الإنسان من الأرض وإعادته إليها وإخراجه منها: ١٧٥
١٨. إراءة فرعون الآيات كلها وتكذيبه: ١٧٥
١٩. موعد يوم الزينة وتحذير موسى من الافتراء على الله: ١٧٦

٢٠. تنازع آل فرعون في أمرهم وإسرارهم وتآمرهم على موسى وهارون: ١٧٨
٢١. إلقاء السحرة لعصيهم وحبالهم وتخيل أنها تسعى: ١٨٠
٢٢. خوف موسى ثم طمأنته وأمره بإلقاء العصا لتلقف ما صنعوا: ١٨١
٢٣. إيمان السحرة وسجودهم وتهديد فرعون لهم بالصلب: ١٨٣
٢٤. إيثار السحرة لله على فرعون وطلبهم المغفرة: ١٨٤
٢٥. مصير المجرم في جهنم ومصير المؤمن في الجنات العلى: ١٨٧
٢٦. أمر الله لموسى بالإسراء ببني إسرائيل وإغراق فرعون وجنوده: ١٨٨
٢٧. تذكير بني إسرائيل بنعم الله ونهيهم عن الطغيان: ١٨٩
٢٨. عجلة موسى إلى ربه وتركه قومه خلفه: ١٩٤
٢٩. فتنة قوم موسى بعبادة العجل وإضلال السامري لهم: ١٩٥
٣٠. رجوع موسى غضبان ومؤاخذته قومه على إخلاف الموعد: ١٩٥
٣١. قصة العجل الذي أخرجه السامري وتحذير هارون: ١٩٦
٣٢. مؤاخذة موسى لهارون واعتذار هارون بالخوف من التفرق: ١٩٧
٣٣. السامري والقبضة من أثر الرسول: ١٩٨
٣٤. عقاب السامري: ١٩٩
٣٥. إحراق العجل ونسفه في اليم وإعلان التوحيد: ٢٠٠
٣٦. أنباء السابقين وتحذير المعرضين من حمل الوزر يوم القيامة: ٢٠١
٣٧. النفخ في الصور وحشر المجرمين: ٢٠٢
٣٨. مصير الجبال يوم القيامة: ٢٠٣
٣٩. اتباع الناس للداعي وخشوع الأصوات وعدم نفع الشفاعة: ٢٠٤
٤٠. خضوع الوجوه للحي القيوم وخيبة من حمل ظلماً: ٢٠٦
٤١. أمان الصالحين من الظلم والهضم: ٢٠٧
٤٢. إنزال القرآن عربياً للوعيد والتذكير: ٢٠٧
٤٣. النهي عن العجلة بالقرآن قبل إتمام الوحي والدعاء بزيادة العلم: ٢٠٨
٤٤. العهد إلى آدم ونسيانه وعدم عزمه: ٢١٠
٤٥. أمر الملائكة بالسجود لآدم وإباء إبليس وتحذير آدم من عداوته: ٢١٣
٤٦. نعيم الجنة لآدم أمان: ٢١٥
٤٧. وسوسة الشيطان لآدم بالأكل من الشجرة وتوبته واجتباء ربه له: ٢١٥

٤٨. الهبوط من الجنة والعداوة بين بني آدم ووعد الله بالهداية لمن اتبعه:	٢١٨
٤٩. حشر المعرض عن ذكر الله أعمى ومواجهته بالنسيان والعذاب الأشد:	٢٢١
٥٠. الاعتبار بإهلاك القرون السابقة والمسير في مساكنهم:	٢٢٣
٥١. أمر النبي بالصبر على أذى الكفار والتسبيح في الأوقات المختلفة:	٢٢٤
٥٢. النهي عن مد العين إلى متاع الدنيا الزائل:	٢٢٨
٥٣. الأمر بالصلاة والصبر عليها والوعد بالرزق والعاقبة للمتقين:	٢٣٠
٥٤. طلب الكفار الآية:	٢٣١
٥٥. التربص والانتظار لمعرفة أصحاب الصراط المستقيم:	٢٣٢
سورة الأنبياء	٢٣٤
مقاصد السورة ومحتوياتها:	٢٣٤
مقاطع السورة ونظمها:	٢٣٤
١. اقتراب الحساب وغفلة الناس وإعراضهم واستهزاؤهم:	٢٣٦
٢. تكذيب الكفار للنبي واتهامهم له وطلبهم الآيات:	٢٤٢
٣. إرسال الرسل وإنجاء المؤمنين وإهلاك المسرفين:	٢٤٣
٤. إنزال الكتاب فيه ذكر الناس ودعوتهم للتعقل:	٢٤٥
٥. قصم القرى الظالمة وإنشاء قوم آخرين وندمهم عند حلول البأس:	٢٤٦
٦. خلق السماوات والأرض بالحق لا للهو واللعب:	٢٤٧
٧. قذف الحق على الباطل وزهوق الباطل:	٢٥٠
٨. عبادة من في السماوات والأرض وتسبيحهم الله الواحد:	٢٥٣
٩. تحدي المشركين بالبرهان وإثبات التوحيد في رسالات الأنبياء:	٢٦١
١٠. رد قول المشركين وبيان أن الملائكة عباد مكرمون:	٢٦٣
١١. رتق السماوات والأرض وفتقهما وجعل الماء أصل الحياة:	٢٦٦
١٢. جعل الله الرواسي في الأرض والفجاج سبلًا ليهتدوا:	٢٦٩
١٣. جعل الله السماء سقفاً محفوظاً وإعراض الناس عن آياتها:	٢٦٩
١٤. خلق الليل والنهار والشمس والقمر وكل في فلك يسبحون:	٢٦٩
١٥. نفي الخلود عن البشر وذكر الموت والابتلاء والمرجع:	٢٧٠
١٦. استهزاء الكفار بالنبي واتخاذه هزواً وكفرهم بالرحمن:	٢٧٣
١٧. خلق الإنسان من عجل وتحذير المستعجلين بالآيات:	٢٧٥

١٨. سؤال الكفار عن موعد العذاب ورد الله بأنه يأتيهم بغتة: ٢٧٥
١٩. الاستهزاء بالرسل السابقين وحلول العذاب بالمستهزئين: ٢٧٧
٢٠. الحفظ الإلهي والمعرضون عن عن ذكر ربهم: ٢٧٧
٢١. عجز آلهة الكفار عن نصر أنفسهم وتمتيع الله لهم: ٢٧٧
٢٢. نقص الأرض من أطرافها: ٢٧٨
٢٣. إنذار النبي بالوحي: ٢٧٩
٢٤. وضع الموازين القسط يوم القيامة: ٢٧٩
٢٥. إيتاء موسى وهارون الفرقان والضياء والذكر للمتقين: ٢٨٠
٢٦. إيتاء إبراهيم رشده وحواره مع قومه في عبادة التماثيل: ٢٨١
٢٧. عزم إبراهيم على كيد الأصنام وتكسيرها: ٢٨٣
٢٨. مواجهة إبراهيم لقومه وإثبات عجز الأصنام: ٢٨٥
٢٩. إلقاء إبراهيم في النار ونجاته منها: ٢٨٧
٣٠. نجاة إبراهيم ولوط وهبة إسحاق ويعقوب وجعلهم أئمة: ٢٩٠
٣١. إيتاء لوط الحكم والعلم ونجاته من القرية الخبيثة: ٢٩٣
٣٢. استجابة دعاء نوح ونجاته وأهله وإغراق المكذبين: ٢٩٣
٣٣. قصة داود وسليمان في حكم الحرث وإيتاؤهما الحكم والعلم: ٢٩٤
٣٤. تسخير الجبال والطير مع داود وتعليمه صنعة الدروع: ٢٩٧
٣٥. تسخير الريح العاصفة لسليمان: ٢٩٨
٣٦. تسخير الشياطين لسليمان: ٢٩٨
٣٧. دعاء أيوب عند الضر واستجابة الله له: ٢٩٩
٣٨. ذكر إسماعيل وإدريس وذي الكفل: ٢٩٩
٣٩. قصة ذي النون ودعاؤه في الظلمات: ٢٩٩
٤٠. دعاء زكريا واستجابة الله: ٣٠١
٤١. قصة مريم ونفخ الروح فيها: ٣٠٣
٤٢. الأمة الواحدة والربوبية والعبادة: ٣٠٣
٤٣. تفرق الناس في أمرهم ورجوعهم إلى الله وجزاء المؤمنين: ٣٠٤
٤٤. القرية والهلاك والرجوع: ٣٠٦
٤٥. فتح يأجوج ومأجوج وانسلالهم من كل حدب: ٣٠٨

٤٦. اقتراب الوعد الحق: ٣٠٨
٤٧. بيان أن ما يعبد من دون الله حصب جهنم وخلود الكفار فيها: ٣٠٩
٤٨. إبعاد الذين سبقت لهم الحسنى عن النار: ٣١٢
٤٩. طي السماء كطي السجل وإعادة الخلق كما بدأ: ٣١٣
٥٠. كتابة الله في الزبور أن الأرض يرثها عباده الصالحون: ٣١٥
٥١. إرسال النبي رحمة للعالمين: ٣١٧
٥٢. التوحيد ودعوة الناس للإسلام: ٣١٧
٥٣. الفتنة والمتاع والزوال: ٣١٨
٥٤. دعاء النبي بالحكم بالحق والاستعانة بالرحمن: ٣١٩
سورة الحج ٣٢٠
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٣٢٠
مقاطع السورة ونظمها: ٣٢٠
١. هول زلزلة القيامة: ٣٢٢
٢. الجدال بغير علم واتباع الشيطان: ٣٢٤
٣. مراحل خلق الإنسان وإثبات البعث: ٣٢٦
٤. رحلة العمر من الطفولة إلى أرذل العمر: ٣٢٨
٥. إحياء الأرض بالماء: ٣٢٩
٦. الحق والإحياء والقدرة والبعث: ٣٣٠
٧. الجدال والضلال والخزي والعذاب: ٣٣٣
٨. العبادة على حرف والفتنة والخسران: ٣٣٥
٩. وعد المؤمنين بجنات النعيم: ٣٣٦
١٠. الظن والكيد والآيات والهداية: ٣٣٧
١١. الفصل بين الأمم يوم القيامة: ٣٣٩
١٢. سجود الكون لله ومشيئته في الإهانة: ٣٤١
١٣. عذاب الكافرين بالحميم والنار والمقامع: ٣٤٣
١٤. نعيم المؤمنين في الجنات: ٣٤٥
١٥. تحريم الصد عن المسجد الحرام: ٣٤٦
١٦. إبراهيم وتطهير البيت والأذان بالحج: ٣٤٨

١٧. منافع الحج وذكر الله وإطعام الفقراء:	٣٥٠
١٨. إتمام المناسك والوفاء بالنذور والطواف:	٣٥٣
١٩. تعظيم حرمات الله واجتناب الأوثان والزور:	٣٥٥
٢٠. الحنيفية وتعظيم الشعائر والتقوى:	٣٥٦
٢١. المنسك والتوحيد والمخبتون:	٣٥٨
٢٢. البدن والذكر والأكل والإطعام:	٣٥٩
٢٣. اللحوم والدماء والتقوى والتكبير:	٣٦٠
٢٤. دفاع الله عن المؤمنين وعداوة الخائنين:	٣٦١
٢٥. الإذن بالقتال للذين ظلموا ونصر الله لهم:	٣٦٢
٢٦. التمكين في الأرض وإقامة الدين:	٣٦٥
٢٧. سنن الله في إهلاك المكذبين وعمى القلوب:	٣٦٦
٢٨. استعجال الكفار العذاب:	٣٦٨
٢٩. النذير والمغفرة والجحيم:	٣٧٠
٣٠. الرسل والشيطان والنسخ والإحكام:	٣٧٠
٣١. العلم بالحق يورث الإيمان وإخبات القلب:	٣٧٤
٣٢. الكفار والشك في الساعة:	٣٧٥
٣٣. المهاجرون في سبيل الله والرزق الحسن والمدخل المرضي:	٣٧٧
٣٤. العدل في العقاب ونصر المظلوم وعفو الله:	٣٧٨
٣٥. الليل والنهار والحق والباطل:	٣٧٩
٣٦. تسخير الأرض والفلك وإمساك السماء برأفة الله:	٣٨١
٣٧. الله والإحياء والإماتة:	٣٨١
٣٨. المناسك والجدال والهدى والعلم:	٣٨٢
٣٩. الآيات والمنكرون:	٣٨٤
٤٠. عجز المعبودين عن خلق ذباب وضعف الطالب والمطلوب:	٣٨٥
٤١. اصطفاء الرسل من الملائكة والناس:	٣٨٦
٤٢. الركوع والسجود والجهاد في الله:	٣٨٨
سورة المؤمنون	٣٩٢
مقاصد السورة ومحتوياتها:	٣٩٢

مقاطع السورة ونظمها: ٣٩٢
١. فلاح المؤمنين بخشوعهم في الصلاة: ٣٩٤
٢. الإعراض عن اللغو وإيتاء الزكاة: ٣٩٧
٣. حفظ الفروج عن الحرام: ٣٩٨
٤. رعاية الأمانات والعهود والمحافظة على الصلوات: ٤٠١
٥. وراثة الفردوس والخلود فيه: ٤٠٢
٦. مراحل خلق الإنسان والموت والبعث: ٤٠٢
٧. خلق السموات السبع وإنزال الماء وإخراج الجنات: ٤٠٦
٨. شجرة الزيتون المباركة من طور سيناء: ٤٠٧
٩. في الأنعام عبرة وفوائد والحمل على الفلك: ٤٠٧
١٠. قصة نوح ودعوته وصنع الفلك وإنجائه: ٤٠٨
١١. إهلاك المكذبين بالصيحة وجعلهم غثاء: ٤١٢
١٢. تتابع الرسل وتكذيب الأمم وإهلاكهم: ٤١٥
١٣. موسى وهارون إلى فرعون واستكبارهم وهلاكهم: ٤١٦
١٤. موسى والكتاب وعيسى وأمه آية: ٤١٦
١٥. أمر الرسل بأكل الطيبات وعمل الصالحات والتقوى: ٤١٧
١٦. تقطّع الأمم وفرح كل حزب بما لديه: ٤١٨
١٧. خشية المؤمنين وإيمانهم وإخلاصهم ومسارعتهم للخيرات: ٤١٩
١٨. التكليف والكتاب والعدل: ٤٢٢
١٩. القلوب والغمرة والأعمال القبيحة: ٤٢٤
٢٠. إهلاك المترفين بالعذاب وجأرهم واستكبارهم: ٤٢٤
٢١. التدبر والحق والجنون والإعراض: ٤٢٥
٢٢. اتباع الحق لأهواء الناس يفسد الكون: ٤٢٧
٢٣. الأجر والرزق والخير: ٤٢٩
٢٤. الصراط المستقيم والناكبون عنه: ٤٣٠
٢٥. العذاب الشديد والاستكانة: ٤٣١
٢٦. السمع والأبصار والأفئدة والحشر: ٤٣٣
٢٧. البعث والأساطير والربوبية: ٤٣٥

٢٨. الحق والكذب والتنزيه: ٤٤١
٢٩. الدعاء والدفع والاستعاذة: ٤٤٤
٣٠. الموت والرجعة والبرزخ والبعث: ٤٤٥
٣١. النفخ في الصور والموازين والفلاح والخسران: ٤٤٨
٣٢. المؤمنون والساخرون منهم والجزاء الإلهي: ٤٥١
٣٣. اللبث والبعث والخلق: ٤٥٢
٣٤. الملك الحق والتوحيد والاستغفار: ٤٥٤
سورة النور ٤٥٦
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٤٥٦
مقاطع السورة ونظمها: ٤٥٦
١. السورة والفرض والآيات البينات: ٤٥٨
٢. حد الزنا وإشهاد طائفة من المؤمنين: ٤٥٩
٣. الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة: ٤٦٠
٤. حد القذف ورد الشهادة وتوبة القاذف: ٤٦٣
٥. حكم اللعان والشهادات الخمس ودرء العذاب: ٤٦٥
٦. حادثة الإفك وعذاب المتولي كبرها: ٤٦٨
٧. حسن الظن وإحضار الشهداء وإثبات الكذب: ٤٧٠
٨. فضل الله ورحمته لعباده: ٤٧١
٩. الاستهانة بقول البهتان مع أنه عند الله عظيم: ٤٧١
١٠. وعظ الله وبيان الآيات: ٤٧٢
١١. عذاب الذين يحبون إشاعة الفاحشة وفضل الله ورأفته: ٤٧٢
١٢. اجتناب خطوات الشيطان والتحذير من الفحشاء والمنكر: ٤٧٣
١٣. أمر أولي الفضل بالعفو والصفح رجاء مغفرة الله: ٤٧٤
١٤. لعنة قاذفي المحصنات وشهادة الأرجل والألسنة عليهم: ٤٧٥
١٥. الخبيثات للخبيثين والطيبات للطيبين: ٤٧٧
١٦. الاستئناس والتسليم عند دخول البيوت: ٤٧٨
١٧. الإذن بالدخول والرجوع إن قيل ارجعوا: ٤٨٠
١٨. دخول البيوت غير المسكونة التي فيها متاع: ٤٨٠

١٩. أمر المؤمنين بغض البصر وحفظ الفروج:	٤٨١
٢٠. غض البصر وحفظ الفروج وضرب الخمر على الجيوب:	٤٨٣
٢١. محارم النساء ومن يجوز إبداء الزينة لهم:	٤٨٤
٢٢. عدم ضرب الأرجل لإبداء الزينة والتوبة إلى الله:	٤٨٥
٢٣. أمر الأولياء بتزويج الأيامى والصالحين واستعفاف الفقراء:	٤٨٥
٢٤. مكاتبة العبيد وإعانتهم والنهي عن إكراه الفتيات على البغاء:	٤٨٦
٢٥. إنزال الآيات المبينات والموعظة للمتقين:	٤٨٨
٢٦. الله نور السموات والأرض ومثل نوره:	٤٨٨
٢٧. بيوت الله المرفوعة وصفات عمّارها:	٤٩٥
٢٨. أعمال الكفار كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء:	٥٠٠
٢٩. ظلمات البحر اللجي ومن لم يجعل الله له نوراً:	٥٠٢
٣٠. تسبيح من في السموات والأرض والطير:	٥٠٣
٣١. تسيير السحاب وإنزال البرق وتقلب الليل والنهار:	٥٠٦
٣٢. خلق كل دابة وتنوع مشيها:	٥٠٧
٣٣. إنزال الآيات المبينات والهداية إلى صراط مستقيم:	٥٠٩
٣٤. الإيمان والتولي ومرض القلب:	٥٠٩
٣٥. السمع والطاعة والفلاح:	٥١٣
٣٦. حلف المنافقين ومرضى القلوب كذبا على الطاعة:	٥١٤
٣٧. طاعة الله والرسول والتبليغ المبين:	٥١٥
٣٨. وعد الله بالاستخلاف والتمكين والأمن بدل الخوف:	٥١٦
٣٩. إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول والرحمة:	٥١٩
٤٠. الاستئذان في العورات الثلاث:	٥٢٠
٤١. القواعد من النساء والعفاف:	٥٢٣
٤٢. إباحة الأكل من بيوت الأقارب والأصدقاء:	٥٢٣
٤٣. إباحة الأكل جميعاً أو أشتاتاً:	٥٢٥
٤٤. التسليم والتحية المباركة عند دخول البيوت:	٥٢٦
٤٥. المؤمنون يستأذنون النبي للأمر الجامع والاستغفار:	٥٢٧
٤٦. مخالفة أمر الرسول والفتنة والعذاب:	٥٢٨

٤٧. ملك الله للسموات والأرض وعلمه بما يعملون: ٥٢٩
سورة الفرقان ٥٣١
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٥٣١
مقاطع السورة ونظمها: ٥٣١
١. تنزيل الفرقان للإنذار والملك والتقدير الإلهي: ٥٣٣
٢. عجز الآلهة المزعومة عن الخلق والموت والحياة: ٥٣٧
٣. ردّ افتراءات الكفار وإثبات الوحي الإلهي: ٥٣٨
٤. استنكار المعاندين لبشرية الرسول: ٥٤١
٥. الأمثال والضلال والجنات والقصور: ٥٤٣
٦. عذاب السعير لمن كذّب بالساعة: ٥٤٥
٧. جنّة الخلد جزاء المتقين ووعد الله الصادق: ٥٤٧
٨. حشر المشركين وبراءة من عبدوهم منهم: ٥٤٩
٩. بشرية الرسل والفتنة: ٥٥٢
١٠. استكبار المشركين وحرمانهم من البشرى يوم اللقاء: ٥٥٤
١١. حبوط أعمال الكفار يوم القيامة: ٥٥٧
١٢. حسن مستقرّ أهل الجنة ومقيلهم: ٥٥٨
١٣. تشقق السماء ونزول الملائكة: ٥٥٩
١٤. ندامة الظالم يوم القيامة وخذلان الشيطان: ٥٦٠
١٥. شكوى الرسول من هجر القرآن: ٥٦٢
١٦. جعل الله لكل نبي عدواً وكفايته بالهداية والنصر: ٥٦٣
١٧. تنزيل القرآن مفرّقاً لتثبيت الفؤاد وترتيله: ٥٦٣
١٨. ردّ الله لكل مثل بالحق والأحسن تفسيراً: ٥٦٩
١٩. سوء منقلب من يُحشرون على وجوههم إلى جهنم: ٥٦٩
٢٠. إرسال موسى وهارون وتدمير المكذّبين: ٥٧١
٢١. إغراق قوم نوح وجعلهم آية للمتقين: ٥٧٢
٢٢. تدمير عاد وثمود وأصحاب الرسّ والقرون: ٥٧٢
٢٣. الاعتبار بالقرى التي عذبت وإنكار البعث: ٥٧٥
٢٤. استهزاء الكفار بالرسول وجزاؤهم: ٥٧٥

٢٥. اتخاذ الهوى إلهاً والضلال: ٥٧٦
٢٦. آية الظل والشمس: ٥٧٧
٢٧. جعل الليل لباساً والنوم سباتاً والنهار نشوراً: ٥٧٩
٢٨. تصريف القرآن للذكرى وجهاد الكافرين بالقرآن: ٥٨١
٢٩. مرج البحرين وجعل البرزخ: ٥٨٢
٣٠. خلق البشر من الماء وجعل النسب والصهر: ٥٨٢
٣١. عبادة ما لا ينفع ولا يضر: ٥٨٣
٣٢. إرسال الرسول مبشراً ونذيراً ودعوته إلى سبيل ربه: ٥٨٤
٣٣. التوكل على الحي الذي لا يموت والتسبيح بحمده: ٥٨٦
٣٤. خلق السموات والأرض واستواء الرحمن على العرش: ٥٨٧
٣٥. جعل البروج والسراج والقمر المنير والليل والنهار: ٥٨٩
٣٦. مشي عباد الرحمن بهدوء والردّ على الجاهلين بسلام: ٥٩١
٣٧. قيام عباد الرحمن بالليل: ٥٩٢
٣٨. استعاذة عباد الرحمن من عذاب جهنم: ٥٩٢
٣٩. إنفاق عباد الرحمن القوام بين الإسراف والتقتير: ٥٩٢
٤٠. تحريم الشرك والقتل والزنا وعقابها الأليم: ٥٩٣
٤١. التوبة والإيمان والعمل الصالح وتبديل السيئات: ٥٩٤
٤٢. اجتناب عباد الرحمن الزور واللغو: ٥٩٧
٤٣. خشوع عباد الرحمن لآيات الله: ٥٩٨
٤٤. طلب عباد الرحمن الأزواج والذرية وأن يكونوا للمتقين إماماً: ٥٩٨
٤٥. عباد الرحمن والجزاء العظيم: ٥٩٩
٤٦. الدعاء والتكذيب واللزام: ٥٩٩
سورة الشعراء ٦٠٢
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٦٠٢
مقاطع السورة ونظمها: ٦٠٢
١. آيات الكتاب المبين وحرص النبي على إيمان قومه: ٦٠٤
٢. تكذيب المعاندين واستهزاؤهم: ٦٠٦
٣. نداء موسى ورسالته إلى فرعون واستعانته بهارون: ٦٠٧

٤. حوار فرعون مع موسى حول النعمة والجريمة: ٦١٠
٥. جدال فرعون في ربوبية الله واتهامه لموسى بالجنون: ٦١٦
٦. تهديد فرعون لموسى وطلبه الآية: ٦٢٢
٧. جمع السحرة ووعدهم بالأجر والتقريب: ٦٢٤
٨. إلقاء السحرة وتلقف عصا موسى لما يأفكون: ٦٢٥
٩. إيمان السحرة وتهديد فرعون وصلبهم وإيمانهم: ٦٢٥
١٠. إخراج موسى بني إسرائيل وإغراق فرعون وجنوده: ٦٢٦
١١. إدراك فرعون لموسى ويقينه بهداية ربه: ٦٢٧
١٢. انفلاق البحر وإنجاء موسى وإغراق فرعون وجنوده: ٦٢٨
١٣. حوار إبراهيم مع قومه حول عبادة الأصنام: ٦٢٩
١٤. إعلان إبراهيم البراءة من الأصنام وتوحيد الرب: ٦٣٢
١٥. دعاء إبراهيم: ٦٣٤
١٦. تقريب الجنة للمتقين وبروز الجحيم للغاوين: ٦٤٠
١٧. اختصام أهل النار وندمهم وتمنّي الكرة: ٦٤١
١٨. قصة نوح ودعوته وتكذيب قومه وإغراقهم: ٦٤٣
١٩. قصة هود مع عاد وهلاكهم: ٦٤٧
٢٠. قصة صالح مع ثمود وهلاكهم: ٦٥١
٢١. قصة لوط وتكذيب قومه وهلاكهم: ٦٥٤
٢٢. قصة شعيب مع أصحاب الأيكة وهلاكهم: ٦٥٧
٢٣. تنزيل القرآن بالروح الأمين على قلب النبي: ٦٥٩
٢٤. لو نزل القرآن على أعجمي لما آمنوا به: ٦٦٤
٢٥. القرآن والقلب والعذاب البغتة: ٦٦٥
٢٦. التمتع لسنين ثم مجيء العذاب لا يغني عنهم شيئاً: ٦٦٧
٢٧. إهلاك القرى بعد إنذارها وعدل الله: ٦٦٨
٢٨. النهي عن الشرك وإنذار العشيرة وخفض الجناح: ٦٧٠
٢٩. البراءة من أعمال الكافرين والتوكل على الله: ٦٧٥
٣٠. تنزل الشياطين على كل أفاك أثيم: ٦٧٦
٣١. اتباع الغاوين للشعراء وضلالهم في كل وادٍ: ٦٧٧

٣٢. استثناء الشعراء المؤمنين من الغواية: ٦٧٩

٣٣. سوء منقلب الظالمين: ٦٧٩

سورة الكهف (تتمة)

٣٤. موسى يسير إلى مجمع البحرين:

المقطع [٣٤] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٣٧»:

١. ﴿وَإِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً﴾:

أ. الظرف متعلق بمقدر، والجملة معطوفة على ما عطف عليه التذكيرات الثلاثة المذكورة سابقا، وقوله: ﴿لا أَبْرَحُ﴾ بمعنى لا أزال وهو من الأفعال الناقصة حذف خبره إيجازا لدلالة قوله: ﴿حَتَّى أَبْلُغَ﴾ عليه والتقدير لا أبرح أمشي أو أسير، ومجمع البحرين قيل: هو الذي ينتهي إليه بحر الروم من الجانب الشرقي وبحر الفرس من الجانب الغربي، والحقب الدهر والزمان وتنكيره يدل على وصف محذوف والتقدير حقبا طويلا.

ب. والمعنى، والله أعلم، واذكر إذ قال موسى لفتاه لا أزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي دهرا طويلا.

٢. وضع هنا مبحثا حول [قصة موسى والخضر]، خلاصته:

أ. قصة موسى والخضر في القرآن: أوحى الله إلى موسى أن هناك عبداً من عباده عنده من العلم ما ليس عند موسى، وأنه في مجمع البحرين حيث يحيى الحوت الميت، فذهب موسى مع فتاه، ونسيا الحوت عند الصخرة فحيي ووقع في البحر، ثم رجعا فوجدا الخضر، طلب موسى أن يتبعه، فاشترط الخضر أن لا يسأله عن شيء حتى يحدث له منه ذكراً، فخرق السفينة، وقتل الغلام، وأقام الجدار، فأنكر موسى كل مرة، ثم بين له الخضر تأويل ما فعل.

ب. الخضر عليه السلام: لم يرد ذكره في القرآن إلا في هذه القصة، ولم تذكر أوصافه إلا في قوله: ﴿عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾، اختلف في كونه نبياً أم لا، فالروايات تارة تقول إنه نبي مرسل، وتارة تقول إنه كان عالماً ولم يكن نبياً، والآيات لا تخلو عن ظهور في كونه نبياً.

ج. الخضر حي: يظهر من أخبار متفرقة عن أئمة أهل البيت أنه حي لم يمت بعد، وليس بعزيز على

الله أن يعمر بعض عباده عمراً طويلاً، ووردت أسباب لذلك: أنه ابن آدم لصلبه ونسيء له في أجله، أو أن آدم دعا له بالبقاء، أو أنه شرب من عين الحياة في رحلة ذي القرنين، لكن هذه أخبار آحاد غير قطعية.

د. كثرت القصص والحكايات والروايات في الخضر بما لا يعول عليها ذو لب، كرواية أنه على منبر بين البحرين، ورواية أنه دل في البحر أياماً، ورواية أنه من زمان داود، وهذه كلها نوادر لا يعتمد عليها.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير البرهان، عن ابن بابويه بإسناده عن جعفر بن محمد بن عمارة عن أبيه عن جعفر بن محمد عليه السلام في حديث: أن موسى لما كلمه الله تكليما، وأنزل عليه التوراة، وكتب له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء، وجعل آية في يده وعصاه، وفي الطوفان والجراد والقمل، والضفادع والدم وفلق البحر، وغرق الله فرعون وجنوده عملت البشرية فيه حتى قال في نفسه: ما أرى الله عز وجل خلق خلقا أعلم مني، فأوحى الله إلى جبرئيل: أدرك عبدي قبل أن يهلك، وقل له: أن عند ملتقى البحرين رجلا عابدا فاتبعه وتعلم منه، فهبط جبرئيل على موسى بما أمره به ربه عز وجل، فعلم موسى أن ذلك لما حدثته به نفسه، فمضى هو وفتاه يوشع بن نون، حتى انتهيا إلى ملتقى البحرين، فوجدا هناك الخضر يعبد الله عز وجل كما قال الله في كتابه: ﴿فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا، وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ الحديث.

• أقول: والحديث طويل يذكر فيه صحبته للخضر وما جرى بينهما مما ذكره الله في كتابه في القصة.

• وروى القصة العياشي في تفسيره، بطريقين والقمي في تفسيره، بطريقين مسندا ومرسلا، ورواه في الدر المنثور، بطرق كثيرة من أرباب الجوامع كالبخاري ومسلم والنسائي والترمذي وغيرهم عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ.

• والأحاديث متفقة في معنى ما نقلناه من صدر حديث محمد بن عمارة، وفي أن الحوت الذي حملاه حي عند الصخرة واتخذ سبيله في البحر سربا لكنها تختلف في أمور كثيرة إضافتها إلى ما في القرآن من أصل القصة.

• منها ما يتحصل من رواية ابن بابويه والقمي: أن مجمع البحرين من أرض الشامات وفلسطين، بقرينة ذكرهما أن القرية التي ورداها هي الناصرة، التي تنسب إليها النصارى، وفي بعضها أن الأرض كانت

آذربيجان: وهو يوافق ما في الدر المنثور عن السدي: أن البحرين هما الكر والرس حيث يصبان في البحر، وأن القرية كانت تسمى باجروان وكان أهلها لئاما وروي عن أبي: أنه إفريقية، وعن القرظي أنه طنجة، وعن قتادة أنه ملتقى بحر الروم وفارس.

• ومنها ما في بعض الروايات أن الحوت كان مشويا وفي أكثرها أنه كان مملوحا.

• ومنها ما في مرسلة القمي وروايات الشيخين والنسائي والترمذي وغيرهم: أنه كانت عند الصخرة عين الحياة، حتى في رواية مسلم وغيره أن الماء كان ماء الحياة، من شرب منه خلد ولا يقاربه شيء ميت، إلا حي فلما نزلا ومس الحوت الماء حي، الحديث وفي غيرها أن فتى موسى توضأ من الماء فقطرت منه قطرة على الحوت فحي، وفي غيرها أنه شرب منه ولم يكن له ذلك فأخذه الخضر وطابقه في سفينة وتركها في البحر فهو بين أمواجها حتى تقوم الساعة وفي بعضها أنه كانت عند الصخرة عين الحياة التي كان يشرب منها الخضر وبقية الروايات خالية عن ذكرها.

• ومنها ما في رواية الصحاح الأربع وغيرها: أن الحوت سقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سربا، فأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق الحديث، وفي بعض هذه الروايات أن موسى بعد ما رجع أبصر أثر الحوت فأخذ أثر الحوت يمشيان على الماء حتى انتهيا إلى جزيرة من جزائر العرب، وفي حديث الطبري عن ابن عباس في القصة: فرجع يعني موسى حتى أتى الصخرة فوجد الحوت فجعل الحوت يضرب في البحر ويتبعه موسى يقدم عصاه يفرج بها عنه الماء ويتبع الحوت وجعل الحوت لا يمس شيئا من البحر إلا يبس حتى يكون صخرة، الحديث وبعضها خال عن ذلك.

• ومنها ما في أكثرها أن موسى لقي الخضر عند الصخرة، وفي بعضها أنه ذهب من سرب الحوت أو على الماء حتى وجده في جزيرة من جزائر البحر، وفي بعضها وجده على سطح الماء جالسا أو متكئا.

• ومنها اختلافها في أن الفتى هل صحبهما أو تركاه وذهبا.

• ومنها اختلافها في كيفية خرق السفينة وفي كيفية قتل الغلام وفي كيفية إقامة الجدار وفي الكنز الذي تحته لكن أكثر الروايات أنه كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه مواعظ، وفي الأب الصالح فظاهر أكثرها أنه أبوهما الأقرب، وفي بعضها أنه أبوهما العاشر وفي بعضها السابع، وفي بعضها بينهما وبينه سبعون أبا وفي بعضها كان بينهما وبينه سبعمائة سنة، إلى غير ذلك من جهات الاختلاف.

٣٥. نسيان الحوت واتخاذ سبيله في البحر:

المقطع [٣٥] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦١-٦٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٣٩»:

١. ﴿فَلَمَّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِما نَسِيا حُوتَهُما فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً﴾:

أ. الظاهر أن قوله: ﴿مَجْمَعَ بَيْنِهِما﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف وأصله بين البحرين الموصوف بأنه مجمعهما.

ب. ﴿نَسِيا حُوتَهُما﴾ الآيتان التاليتان تدلان على أنه كان حوتا مملوحا أو مشويا حملاه ليرتزقا به في المسير ولم يكن حيا وإنما حي هناك واتخذ سبيله في البحر ورآه الفتى وهو حي يغوص في البحر ونسي أن يذكر ذلك لموسى ونسي موسى أن يسأله عنه أين هو؟ وعلى هذا فمعنى ﴿نَسِيا حُوتَهُما﴾ بنسبة النسيان إليهما معا: نسيا حال حوتهما فموسى نسي كونه في المكتل فلم يتفقده والفتى نسيه إذ لم يخبر موسى بعجيب ما رأى من أمره، هذا ما ذكروه.

ج. واعلم أن الآيات غير صريحة في حياة الحوت بعد ما كان ميتا بل ظاهر قوله: ﴿نَسِيا حُوتَهُما﴾ وكذا قوله: ﴿نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ أن يكونا وضعاه في مكان من الصخرة مشرف على البحر فيسقط في البحر أو يأخذه البحر بمد ونحوه فيغيب فيه ويغور في أعماقه بنحو عجيب كالدخول في السرب ويؤيده ما في بعض الروايات أن العلامة كانت هي افتقاد الحوت لا حياته والله أعلم.

٢. ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً﴾ السرب المسلك والمذهب والسرب والنفق الطريق المحفور في الأرض لا نفاذ فيه كأنه شبه السبيل الذي اتخذه الحوت داخل الماء بالسرب الذي يسلكه السالك فيغيب فيه.

٣. ﴿فَلَمَّا جاوَزا قالَ لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً﴾ قال في المجمع: (النصب والوصب والتعب نظائر، وهو الوهن الذي يكون عن كد)، والمراد بالغداء ما يتغدى به وفيه دلالة على أن ذلك كان في النهار، والمعنى: ولما جاوزا مجمع البحرين أمر موسى فتاه أن يأتي بالغداء وهو الحوت الذي

حملاه ليتغديا به ولقد لقيا من سفرهما تعبا.

٤. ﴿قالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾:

أ. يريد حال بلوغهم مجمع البحرين ومكثهم هناك فقد كانت الصخرة هناك والدليل عليه قوله: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ﴾ وقد ذكر في ما مر أنه كان بمجمع البحرين، يقول لموسى: لا غداء عندنا نتغدى به فإن غداءنا وهو الحوت حي ودخل البحر وذهب حينما بلغنا مجمع البحرين وأوينا إلى الصخرة التي كانت هناك وإني نسيت أن أخبرك بذلك.

ب. فقوله: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ يذكره حال أويهما إلى الصخرة ونزولهما عندها ليستريحا قليلا، وقوله: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ أي نسيت حال الحوت التي شاهدتها منه فلم أذكرها لك، والدليل على هذا المعنى، كما قيل، قوله: ﴿وَما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ فإن ﴿أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ بدل من ضمير ﴿أَنْسانِيهُ﴾

ج. والتقدير (وما أنساني ذكر الحوت لك إلا الشيطان فهو لم ينس نفس الحوت وإنما نسي أن يذكر حاله التي شاهد منه لموسى.

د. ولا ضير في نسبة الفتى نسيانه إلى تصرف من الشيطان بناء على أنه كان يوشع بن نون النبي والأنبياء في عصمة إلهية من الشيطان لأنهم معصومون مما يرجع إلى المعصية وأما مطلق إيذاء الشيطان فيما لا يرجع إلى معصية فلا دليل يمنعه قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ﴾ [ص: ٤١]

٥. ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً﴾:

أ. أي اتخاذا عجبا فعجبا وصف قام مقام موصوفه على المفعولية المطلقة، وقيل: إن قوله: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ﴾ قول الفتى وقوله: ﴿عَجَباً﴾ من قول موسى، والسياق يدفعه.

ب. واعلم أن ما تقدم من الاحتمال في قوله: ﴿نَسِيا حُوتَهُما﴾ جار هاهنا والله أعلم.

٣٦. موسى يلقى العبد الصالح:

المقطع [٣٦] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٤ـ٦٥]،

وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٤١»:

١. ﴿قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً﴾:

أ. البغي الطلب، والارتداد العود على بدء، والمراد بالآثار آثار أقدامهما، والقصص اتباع الأثر والمعنى قال موسى: ذلك الذي وقع من أمر الحوت هو الذي كنا نطلبه فرجعا على آثارهما يقصانها قصصا ويتبعانها اتباعا.

ب. ﴿ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا﴾ يكشف عن أن موسى كان مأمورا من طريق الوحي أن يلقى العالم في مجمع البحرين وكان علامة المحل الذي يجده ويلقاه فيه ما وقع من أمر الحوت إما خصوص قضية حياته وذهابه في البحر أو بنحو الإبهام والعموم كفقد الحوت أو حياته أو عود الميت حيا ونحو ذلك، ولذلك لما سمع موسى من فتاه ما سمع من أمر الحوت قال ما قال، ورجعا إلى المكان الذي فارقاه فوجدا عبدا.

٢. ﴿فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا﴾ كل نعمة فإنها رحمة منه تعالى لخلقه لكن منها ما تتوسط فيه الأسباب الكونية وتعمل فيه كالنعم الظاهرية بأنواعها، ومنها ما لا يتوسط فيه شيء منها كالنعم الباطنية من النبوة والولاية بشعبها ومقاماتها، وتقييد الرحمة بقوله: ﴿مِنْ عِنْدِنا﴾ الظاهر في أنها من موهبته لا صنع لغيره فيها يعطي أنها من القسم الثاني أعني النعم الباطنية ثم اختصاص الولاية بحقيقتها به تعالى كما قال: ﴿فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ [الشورى: ٩]، وكون النبوة مما للملائكة الكرام فيه عمل كالوحي ونحوه يؤيد أن يكون المراد بقوله: ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا﴾ حيث جيء بنون العظمة ولم يقل: من عندي هو النبوة دون الولاية، وبهذا يتأيد تفسير من فسر الكلمة بالنبوة والله أعلم.

٣. وأما قوله: ﴿وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ فهو أيضا كالرحمة التي من عنده علم لا صنع فيه للأسباب العادية كالحس والفكر حتى يحصل من طريق الاكتساب والدليل على ذلك قوله: (من لدنا) فهو علم وهبي غير اكتسابي يختص به أولياءه وآخر الآيات يدل على أنه كان علما بتأويل الحوادث.

٣٧. طلب موسى الصحبة والتعلم واشتراط الصبر:

المقطع [٣٧] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾

[الكهف: ٦٦-٧٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٤٢»:

١. ﴿قالَ لَهُ مُوسى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾ الرشد خلاف الغي وهو إصابة الصواب، وهو في الآية مفعول له أو مفعول به، والمعنى قال له موسى هل أتبعك اتباعا مبنيا على هذا الأساس وهو أن تعلمني مما علمت لأرشد به أو تعلمني مما علمت أمرا ذا رشد.

٢. ﴿قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾:

أ. نفي مؤكد لصبره عليه السلام على شيء مما يشاهده منه في طريق التعليم والدليل عليه تأكيد الكلام بأن، وإيراد الصبر نكرة في سياق النفي الدال على إرادة العموم، ونفي الصبر بنفي الاستطاعة التي هي القدرة فهو آكد من أن يقال: لن تصبر، وإيراد النفي بلن ولم يقل: لا تصبر وللفعل توقف على القدرة فهو نفي الفعل بنفي أحد أسبابه ثم نفي الصبر بنفي سبب القدرة عليه وهو إحاطة الخبر والعلم بحقيقة الواقعة وتأويلها حتى يعلم أنها يجب أن تجري على ما جرت عليه.

ب. وقد نفى صبره على مظاهر علمه من الحوادث حيث قال: ﴿لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ﴾ ولم ينف صبره على نفس علمه فلم يقل: لن تصبر على ما أعلمه ولن تتحمله ولم يتغير عليه موسى عليه السلام حينما أخبره بتأويل ما رأى منه وإنما تغير عليه عند مشاهدة نفس أفعاله التي أراه إياها في طريق التعليم، فللعلم حكم ولمظاهره حكم ونظير ذلك أن موسى عليه السلام لما رجع من الميقات إلى قومه وشاهد أنهم عبدوا العجل من بعده امتلأ غيظا وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه وقد كان الله أخبره بذلك وهو في الميقات فلم يأت بشيء من ذلك وقول الله أصدق من الحس والقصة في سورة الأعراف.

ج. فقوله: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ﴾ إخبار بأنه لا يطيق الطريق الذي يتخذه في تعليمه أن اتبعه لا أنه لا يتحمل العلم.

٣. ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾ الخبر العلم وهو تمييز والمعنى لا يحيط به خبرك.

٤. ﴿قالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ صابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾ وعده الصبر لكن قيده بالمشية فلم يكذب إذ لم يصبر، وقوله: ﴿وَلا أَعْصِي﴾ عطف على ﴿صابِراً﴾ لما فيه من معنى الفعل فعدم المعصية الذي وعده أيضا مقيد بالمشية ولم يخلف الوعد إذ لم ينتهي بنهيه عن السؤال.

٥. ﴿قالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾:

أ. الظاهر أن ﴿مِنْهُ﴾ متعلق بقوله: ﴿ذِكْراً﴾ وإحداث الذكر من الشيء الابتداء به من غير سابقة والمعنى فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء تشاهده من أمري تشق عليك مشاهدته حتى أبتدئ أنا بذكر منه، وفيه إشارة إلى أنه سيشاهد منه أمورا تشق عليه مشاهدتها وهو سيبينها له لكن لا ينبغي لموسى أن يبتدئه بالسؤال والاستخبار بل ينبغي أن يصبر حتى يبتدئه هو بالإخبار.

ب. وقد أتى موسى عليه السلام من الخلق والأدب البارع الحري بالمتعلم المستفيد قبال الخضر، على ما تحكيه هذه الآيات، بأمر عجيب وهو كليم الله موسى بن عمران الرسول النبي أحد أولي العزم صاحب التوراة.

ج. فكلامه موضوع على التواضع من أوله إلى آخره، وقد تأدب معه أولا فلم يورد طلبه منه التعليم في صورة الأمر بل في صورة الاستفهام هضما لنفسه، وسمي مصاحبته اتباعا منه له، ثم لم يورد التعليم في صورة الاشتراط بل قال: على أن تعلمن.، ثم عد نفسه متعلما، ثم أعظم قدر علمه إذ جعله منتسبا إلى مبدإ غير معلوم لم يعينه باسم أو نعت فقال: ﴿عُلِّمْتَ﴾ ولم يقل: تعلم، ثم مدحه بقوله: ﴿رُشْداً﴾ ثم جعل ما يتعلمه بعض علمه فقال: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ ولم يقل: ما علمت ثم رفع قدره إذ جعل ما يشير عليه به أمرا يأمره وعد نفسه لو خالفه فيما يأمر عاصيا ثم لم يسترسل معه بالتصريح بالوعد بل كنى عنه بمثل قوله: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ صابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾

د. وقد تأدب الخضر معه إذ لم يصرح بالرد أولا بل أشار إليه بنفي استطاعته على الصبر ثم لما وعده موسى بالصبر إن شاء الله لم يأمره بالاتباع بل خلى بينه وبين ما يريد فقال: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي﴾ ثم لم ينهه عن السؤال نهيا مطلقا في صورة المولوية المحضة بل علقه على اتباعه فقال: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي﴾ حتى يفيد أنه لا يقترح عليه بالنهي بل هو أمر يقتضيه الاتباع.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، عن محمد بن علي بن بلال عن يونس في كتاب كتبوه إلى الرضا عليه السلام: يسألونه عن العالم الذي أتاه موسى أيهما كان أعلم؟ وهل يجوز أن يكون على موسى حجة في وقته؟ فكتب في الجواب: أتى موسى العالم فأصابه في جزيرة من جزائر البحر، إما جالسا وإما متكئا فسلم عليه موسى فأنكر السلام، إذ كان الأرض ليس بها سلام، قال: من أنت؟ قال: أنا موسى بن عمران، قال: أنت موسى

بن عمران الذي كلمه الله تكليما؟ قال: نعم، قال: فما حاجتك؟ قال: جئت لتعلمني مما علمت رشدا، قال: إني وكلت بأمر لا تطيقه، ووكلت بأمر لا أطيقه الحديث.

• أقول: وهذا المعنى مروي في أخبار أخر من طرق الفريقين.

ب. أخرج الحاكم وصححه عن أبي أن النبي ﷺ قال: لما لقي موسى الخضر جاء طير فألقى منقاره في الماء، فقال الخضر لموسى: تدري ما يقول هذا الطائر؟ قال: وما يقول؟ قال: يقول: ما علمك وعلم موسى في علم الله، إلا كما أخذ منقاري من الماء.

• أقول: وقصة هذا الطائر وارد في أغلب روايات القصة.

ج. وفي تفسير العياشي، عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان موسى أعلم من الخضر.

د. وفيه، عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان وصي موسى يوشع بن نون، وهو فتاه الذي ذكره في كتابه.

هـ. وفيه، عن عبد الله بن ميمون القداح عن أبي عبد الله عن أبيه عليه السلام قال: بينما موسى قاعد في ملإ من بني إسرائيل إذ قال له رجل: ما أرى أحدا أعلم بالله منك، قال موسى: ما أرى فأوحى الله إليه بلى عبدي الخضر، فسأل السبيل إليه وكان له الحوت آية إن افتقده، وكان من شأنه ما قص الله.

• أقول: وينبغي أن يحمل اختلاف الروايات في علمهما على اختلاف نوع العلم.

٣٨. خرق السفينة وإنكار موسى:

المقطع [٣٨] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف: ٧١-٧٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٤٤»:

١. ﴿فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا رَكِبا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَها قالَ أَخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾ الإمر بكسر الهمزة الداهية العظيمة، وقوله: ﴿فَانْطَلَقَا﴾ تفريع على ما تقدمه، والمنطلقان هما موسى والخضر وهو ظاهر في أن موسى لم يصحب فتاه في سيره مع الخضر، واللام في قوله: ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ للغاية فإن الغرق

وإن كان عاقبة للخرق ولم يقصده الخضر البتة لكن العاقبة الضرورية ربما تؤخذ غاية مقصودة ادعاء لوضوحها كما يقال: أتفعل كذا لتهلك نفسك؟ والمعنى ظاهر.

٢. ﴿قالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ إنكار لسؤال موسى وتذكير لما قاله من قبل: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ﴾

٣. ﴿قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً﴾ الرهق الغشيان بالقهر والإرهاق التكليف، والمعنى لا تؤاخذني بنسياني الوعد وغفلتي عنه ولا تكلفني عسرا من أمري، وربما يفسر النسيان بمعنى الترك، والأول أظهر والكلام اعتذار على أي حال.

٣٩. قتل الغلام وتذكير العبد بالصبر:

المقطع [٣٩] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٤ـ٧٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٤٤»:

١. ﴿فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ قالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً﴾ في الكلام بعض الحذف للإيجاز والتقدير: فخرجا من السفينة وانطلقا.

٢. وفي قوله: ﴿حَتَّى إِذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ قالَ﴾ ﴿فَقَتَلَهُ﴾ معطوف على الشرط بفاء التفريع و﴿قالَ﴾ جزاء ﴿إِذا﴾ على ما هو ظاهر الكلام: وبذلك يظهر أن العمدة في الكلام ذكر اعتراض موسى لا ذكر القتل، ونظيرته الآية اللاحقة ﴿فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿قالَ لَوْ شِئْتَ﴾ بخلاف الآية السابقة: ﴿فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا رَكِبا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَها قالَ﴾ فإن جزاء ﴿إِذا﴾ فيها ﴿خَرَقَها﴾ وقوله: ﴿قالَ﴾ كلام مفصول مستأنف.

٣. وعلى هذا فالآيات مسرودة في صورة قصة واحدة اعترض فيها موسى على الخضر عليه السلام ثلاث مرات واحدة بعد أخرى لا في صورة ثلاث قصص اعترض فيها ثلاث اعتراضات كأنه قيل: وقع كذا وكذا فاعترض عليه ثم اعترض ثم اعترض فالقصة قصة اعتراضاته فهي واحدة لا قصة أعمال هذا واعتراضات ذاك حتى تكون ثلاثا.

٤. ومن هنا يتبين وجه الفرق بين الآيات الثلاث حيث جعل ﴿خَرَقَها﴾ جواب إذا في الآية الأولى، ولم يجعل ﴿فَقَتَلَهُ﴾ و﴿فَوَجَدا﴾ أو ﴿فَأَقامَهُ﴾ جوابا في الثانية والثالثة بل جزءا من الشرط معطوفا عليه فافهم ذلك.

٥. ﴿أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً﴾ الزكية الطاهرة، والمراد طهارتها من الذنوب لعدم البلوغ كما يشعر به قوله: ﴿غُلاماً﴾ والاستفهام للإنكار، والقائل موسى.

٦. ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي بغير قتل منها لنفس قتلا مجوزا لقتلها قصاصا وقودا فإن غير البالغ لا يتحقق منه القتل الموجب للقصاص، وربما استفيد من قوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أنه كان شابا بالغا، ولا دلالة في إطلاق الغلام عليه على عدم بلوغه لأن الغلام يطلق على البالغ وغيره فالمعنى أقتلت بغير قصاص نفسا بريئة من الذنوب المستوجبة للقتل؟ إذ لم يظهر لهما من الغلام شيء يستوجبه.

٧. ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً﴾ أي منكرا يستنكره الطبع ولا يعرفه المجتمع وقد عد خرق السفينة إمرا أي داهية يستعقب مصائب لم يقع شيء منها بعد وقتل النفس نكرا أو منكرا وهو أفظع وأفجع عند الناس من الخرق الذي يستوجب عادة هلاك النفوس لكن لا بالمباشرة فعلا.

٨. ﴿قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ معناه ظاهر وزيادة ﴿لَكَ﴾ نوع تقريع له أنه لم يصغ إلى وصيته وإيماء إلى كونه كأنه لم يسمع قوله له أول مرة: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ أو سمعه وحسب أنه لا يعنيه بل يقصد به غيره كأنه يقول: إنما عنيت بقولي: إنك لن تستطيع.، إياك دون غيرك.

٩. ﴿قالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً﴾ الضمير في ﴿بَعْدَها﴾ راجع إلى هذه المرة أو المسألة أي إن سألتك بعد هذه المرة أو هذه المسألة فلا تصاحبني أي يجوز لك أن لا تصاحبني.

١٠. ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً﴾ أي بلغت عذرا ووجدته كائنا ذلك من لدني إذ بلغ عذرك النهاية من عندي.

٤٠. إقامة الجدار دون أجر وفراق موسى والعبد:

المقطع [٤٠] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا

قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٧-٧٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٤٦»:

١. ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها﴾ الكلام في قوله: ﴿فَانْطَلَقا﴾ ﴿فَأَبَوْا﴾ ﴿فَوَجَدا﴾ ﴿فَأَقامَهُ﴾ كالكلام في قوله في الآية السابقة: ﴿فَانْطَلَقا﴾ ﴿فَقَتَلَهُ﴾

٢. ﴿اسْتَطْعَما أَهْلَها﴾:

أ. صفة لقرية ولم يقل: (استطعماهم) لرداءة قولنا: قرية استطعماهم بخلاف مثل قولنا: أتى قرية على إرادة أتى أهل قرية لأن للقرية نصيبا من الإتيان فيجوز وضعها موضع أهلها مجازا بخلاف الاستطعام لأنه لأهلها خاصة، وعلى هذا فليس قوله: ﴿أَهْلَها﴾ من وضع الظاهر موضع المضمر.

ب. ولم يقل: حتى إذا أتيا قرية استطعما أهلها لأن القرية كانت تتمحض حينئذ في معناها الحقيقي والغرض العمدة، كما عرفت، متعلق بالجزاء أعني قوله: ﴿قالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ وفيه ذكر أخذ الأجر وهو إنما يكون من أهلها لا منها فقوله: ﴿أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ دليل على أن إقامة الجدار كانت بحضور من أهل القرية وهو الذي أغنى أن يقال: لو شئت لاتخذت عليه منهم أو من أهلها أجرا فافهم ذلك.

ج. والمراد بالاستطعام طلب الطعام بالإضافة ولذا قال: ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما﴾ وقوله: ﴿فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ الانقضاض السقوط، وإرادة الانقضاض مجاز عن الإشراف على السقوط والانهدام، وقوله: ﴿فَأَقامَهُ﴾ أي أثبته الخضر بإصلاح شأنه ولم يذكر سبحانه كيف أقامه؟ بنحو خرق العادة أم ببناء أو ضرب دعامة؟ غير أن قول موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ مشعر بأنه كان بعمل غير خارق فإن المعهود من أخذ الأجر، ما كان على العاديات.

٣. ﴿قالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ تخذ وأخذ بمعنى واحد، وضمير ﴿عَلَيْهِ﴾ للإقامة المفهومة من ﴿فَأَقامَهُ﴾ وهو مصدر جائز الوجهين، والسياق يشهد أنهما كانا جائعين فذكره موسى أخذ الأجرة على عمله إذ لو كان أخذ أجرا أمكنهما أن يشتريا به شيئا من الطعام يسدان به جوعهما.

٤. ﴿قالَ هذا فِراقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾ الإشارة بهذا إلى قول موسى أي هذا القول سبب فراق بيني وبينك أو إلى الوقت أي هذا الوقت وقت فراق بيني وبينك كما قيل،

ويمكن أن تكون الإشارة إلى نفس الفراق، والمعنى هذا الفراق قد حضر كأنه كان أمرا غائبا فحضر عند قول موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ﴾ وقوله: ﴿بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ ولم يقل بيننا للتأكيد، وإنما قال الخضر هذا القول بعد الاعتراض الثالث لأن موسى كان قبل ذلك يعتذر إليه كما في الأول أو يستمهله كما في الثاني، وأما الفراق بعد الاعتراض الثالث فقد أعذره موسى فيه إذ قال بعد الاعتراض الثاني: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ والباقي ظاهر.

٤١. تأويل خرق السفينة لحمايتها من الغاصب:

المقطع [٤١] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٨-٧٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٤٧»:

١. ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ﴾ شروع في تفصيل ما وعد إجمالا بقوله: ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ إلخ وقوله: ﴿أَنْ أَعِيبَها﴾ أي أجعلها معيبة وهذه قرينة على أن المراد بكل سفينة كل سفينة غير معيبة.

٢. ﴿وَكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ﴾:

أ. وراء بمعنى الخلف وهو الظرف المقابل للظرف الآخر الذي يواجهه الإنسان ويسمى قدام وأمام لكن ربما يطلق على الظرف الذي يغفل عنه الإنسان وفيه من يريده بسوء أو مكروه وإن كان قدامه أو فيه ما يعرض عنه الإنسان أو فيه ما يشغل الإنسان بنفسه عن غيره كأن الإنسان ولى وجهه إلى جهة تخالف جهته قال تعالى: ﴿فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ﴾ [المؤمنون: ٧]، وقال: ﴿وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، وقال: ﴿وَاللهُ مِنْ وَرائِهِمْ﴾ [البروج: ٢٠]

ب. ومحصل المعنى: أن السفينة كانت لعدة من المساكين يعملون بها في البحر ويتعيشون به وكان هناك ملك جبار أمر بغصب السفن فأردت بخرقها أن أحدث فيها عيبا فلا يطمع فيها الجبار ويدعها لهم.

٤٢. تأويل قتل الغلام خوفاً من كفره وطغيانه:

المقطع [٤٢] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨٠-٨١]،

وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٤٧»:

١. ﴿وَأَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَكُفْراً﴾ الأظهر من سياق الآية وما سيأتي من قوله: ﴿وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ أن يكون المراد بالخشية التحذر عن رأفة ورحمة مجازا لا معناه الحقيقي الذي هو التأثر القلبي الخاص المنفي عنه تعالى وعن أنبيائه كما قال: ﴿وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وأن يكون المراد بقوله: ﴿أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَكُفْراً﴾ أن يغشيهما ذلك أي يحمل والديه على الطغيان والكفر بالإغواء والتأثير الروحي لمكان حبهما الشديد له لكن قوله في الآية التالية: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾ لا تخلو من تأييد لكون ﴿طُغْياناً وَكُفْراً﴾ تميزين عن الإرهاق أي وصفين للغلام دون أبويه.

٢. ﴿فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾:

أ. المراد بكونه خيرا منه زكاة كونه خيرا منه صلاحا وإيمانا بقرينة مقابلته الطغيان والكفر في الآية السابقة، وأصل الزكاة فيما قيل الطهارة، والمراد بكونه أقرب منه رحما كونه أوصل للرحم والقرابة فلا يرهقهما، وأما تفسيره بكونه أكثر رحمة بهما فلا يناسبه قوله: ﴿أَقْرَبَ﴾ منه تلك المناسبة، وهذا، كما عرفت، يؤيد كون المراد من قوله: ﴿يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَكُفْراً﴾ في الآية السابقة إرهاقه إياهما بطغيانه وكفره لا تكليفه إياهما الطغيان والكفر وإغشاؤهما ذلك.

ب. والآية، على أي حال، تلوح إلى أن إيمان أبويه كان ذا قدر عند الله ويستدعي ولدا مؤمنا صالحا يصل رحمهما وقد كان المقضي في الغلام خلاف ذلك فأمر الله الخضر بقتله ليبدلهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام: في قوله: ﴿فَخَشِينا﴾ خشي إن أدرك الغلام أن يدعو أبويه إلى الكفر، فيجيبانه من فرط حبهما له.

ب. وفيه، عن عثمان عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله: ﴿فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾ قال: إنه ولدت لهما جارية فولدت غلاما فكان نبيا.

- أقول: وفي أكثر الروايات أنها ولد منها سبعون نبيا والمراد ثبوت الواسطة.

٤٣. تأويل إقامة الجدار لحفظ كنز اليتيمين:

المقطع [٤٣] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٤٨»:

١. ﴿وَأَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما وَكانَ أَبُوهُما صالِحاً﴾:

أ. لا يبعد أن يستظهر من السياق أن المدينة المذكورة في هذه الآية غير القرية التي وجدا فيها الجدار فأقامه، إذ لو كانت هي هي لم يكن كثير حاجة إلى ذكر كون الغلامين اليتيمين فيها فكان العناية متعلقة بالإشارة إلى أنهما ومن يتولى أمرهما غير حاضرين في القرية.

ب. وذكر يتم الغلامين ووجود كنز لهما تحت الجدار ولو انقض لظهر وضاع وكون أبيهما صالحا كل ذلك توطئة وتمهيد لقوله: ﴿فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَيَسْتَخْرِجا كَنزَهُما﴾ وقوله: ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ تعليل للإرادة.

ج. فرحمته تعالى سبب لإرادة بلوغهما واستخراجهما كنزهما، وكان يتوقف على قيام الجدار فأقامه الخضر، وكان سبب انبعاث الرحمة صلاح أبيهما وقد عرض أن مات وأيتم الغلامين وترك كنزا لهما.

د. وقد طال البحث في التوفيق بين صلاح أبيهما ووجود كنز لهما تحت الجدار الظاهر في كون أبيهما هو الكانز له بناء على ذم الكنز كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ الله فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤]

هـ. لكن الآية لا تتعرض بأكثر من أن تحته كنز لهما من غير دلالة على أن أباهما هو الذي دفنه وكنزه، على أن وصف أبيهما بالصلاح دليل على كون هذا الكنز أيا ما كان أمرا غير مذموم على تقدير تسليم كون الكانز هو الأب، على أن من الجائز أن يكون أبوهما الصالح كنزه لهما لتأويل يسوغه فما هو بأعظم من خرق السفينة وقتل النفس المحترمة الواردين في القصة وقد جوزهما التأويل بأمر إلهي وهنا بعض روايات ستوافيك في البحث الروائي الآتي إن شاء الله.

و. وفي الآية دلالة على أن صلاح الإنسان ربما ورث أولاده أثرا جميلا وأعقب فيهم السعادة والخير فهذه الآية في جانب الخير نظيرة قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا

عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ٩]

٢. ﴿وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ كناية عن أنه إنما فعل ما فعل عن أمر غيره وهو الله سبحانه لا عن أمر أمرته به نفسه.

٣. ﴿ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾:

أ. أي ما لم تستطع عليه صبرا من اسطاع يسطيع بمعنى استطاع يستطيع وقد تقدم في أول تفسير سورة آل عمران أن التأويل في عرف القرآن هي الحقيقة التي يتضمنها الشيء ويؤول إليها ويبتني عليها كتأويل الرؤيا وهو تعبيرها، وتأويل الحكم وهو ملاكه وتأويل الفعل وهو مصلحته وغايته الحقيقية، وتأويل الواقعة وهو علتها الواقعية وهكذا.

ب. فقوله: ﴿ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ﴾ إشارة منه إلى أن الذي ذكره للوقائع الثلاث وأعماله فيها هو السبب الحقيقي لها لا ما حسبه موسى من العناوين المترائية من أعماله كالتسبب إلى هلاك الناس في خرق السفينة والقتل من غير سبب موجب في قتل الغلام وسوء تدبير المعاش في إقامة الجدار.

ج. وذكر بعضهم: أن من الأدب الجميل الذي استعمله الخضر مع ربه في كلامه أن ما كان من الأعمال التي لا تخلو عن نقص ما نسبه إلى نفسه كقوله: فأردت أن أعيبها وما جاز انتسابه إلى ربه وإلى نفسه أتى فيه بصيغة المتكلم مع الغير كقوله: ﴿فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما﴾، ﴿فَخَشِينا﴾ وما يختص به تعالى لتعلقه بربوبيته وتدبيره ملكه نسبه إليه كقوله: ﴿فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما﴾

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن إسحاق بن عمار قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن الله ليصلح بصلاح الرجل المؤمن ولده وولد ولده، ويحفظه في دويرته ودويرات حوله، فلا يزالون في حفظ الله لكرامته على الله، ثم ذكر الغلامين فقال: ﴿وَكانَ أَبُوهُما صالِحاً﴾ ألم تر أن الله شكر صلاح أبويهما لهما؟

ب. وفيه، عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمد عن آبائه عليهم‌السلام أن النبي ﷺ قال: إن الله ليخلف العبد الصالح بعد موته في أهله وماله، وإن كان أهله أهل سوء، ثم قرأ هذه الآية إلى آخرها ﴿وَكانَ أَبُوهُما صالِحاً﴾

ج. أخرج ابن مردويه عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله يصلح بصلاح الرجل الصالح

ولده وولد ولده، وأهل دويرات حوله، فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم.

• أقول: والروايات في هذا المعنى كثيرة مستفيضة.

د. وفي الكافي، بإسناده عن صفوان الجمال قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل ﴿وَأَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ، وَكانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما﴾ فقال: أما إنه ما كان ذهبا ولا فضة، وإنما كان أربع كلمات: لا إله إلا الله، من أيقن بالموت لم يضحك، ومن أيقن بالحساب لم يفرح قلبه، ومن أيقن بالقدر لم يخش إلا الله.

• أقول: وقد تكاثرت الروايات من طرق الشيعة وأهل السنة أن الكنز الذي كان تحت الجدار كان لوحا مكتوبا فيه الكلمات، وفي أكثرها أنه كان لوحا من ذهب، ولا ينافيه قوله في هذه الرواية: (ما كان ذهبا ولا فضة) لأن المراد به نفي الدينار والدرهم كما هو المتبادر، والروايات مختلفة في تعيين الكلمات التي كانت مكتوبة على اللوح لكن أكثرها متفقة في كلمة التوحيد ومسألتي الموت والقدر.

• وقد جمع في بعضها بين الشهادتين كما رواه في الدر المنثور، عن البيهقي في شعب الإيمان عن علي بن أبي طالب: في قول الله عز وجل: ﴿وَكانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما﴾ قال: كان لوحا من ذهب مكتوب فيه: لا إله إلا الله محمد رسول الله، عجبا لمن يذكر أن الموت حق كيف يفرح؟ وعجبا لمن يذكر أن النار حق كيف يضحك؟ وعجبا لمن يذكر أن القدر حق كيف يحزن؟ وعجبا لمن يرى الدنيا وتصرفها بأهلها حالا بعد حال كيف يطمئن إليها؟

٤٤. قصة ذي القرنين وتمكينه في الأرض:

المقطع [٤٤] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٣-٨٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٥٩»:

١. ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً﴾:

أ. أي يسألونك عن شأن ذي القرنين، والدليل على ذلك جوابه عن السؤال بذكر شأنه لا تعريف شخصه حتى اكتفى بلقبه فلم يتعد منه إلى ذكر اسمه.

ب. والذكر إما مصدر بمعنى المفعول والمعنى قل سأتلو عليكم منه أي من ذي القرنين شيئا

مذكورا، وإما المراد بالذكر القرآن، وقد سماه الله في مواضع من كلامه بالذكر والمعنى قل سأتلو عليكم منه أي من ذي القرنين أو من الله قرآنا وهو ما يتلو هذه الآية من قوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ﴾ إلى آخر القصة، والمعنى الثاني أظهر.

٢. ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾:

أ. التمكين الإقدار يقال: مكنته ومكنت له أي أقدرته فالتمكن في الأرض القدرة على التصرف فيه بالملك كيفما شاء وأراد، وربما يقال: إنه مصدر مصوغ من المكان بتوهم أصالة الميم فالتمكين إعطاء الاستقرار والثبات بحيث لا يزيله عن مكانه أي مانع مزاحم.

ب. والسبب الوصلة والوسيلة فمعنى إيتائه سببا من كل شيء أن يؤتى من كل شيء يتوصل به إلى المقاصد الهامة الحيوية ما يستعمله ويستفيد منه كالعقل والعلم والدين وقوة الجسم وكثرة المال والجند وسعة الملك وحسن التدبير وغير ذلك وهذا امتنان منه تعالى على ذي القرنين وإعظام لأمره بأبلغ بيان، وما حكاه تعالى من سيرته وفعله وقوله المملوءة حكمة وقدرة يشهد بذلك.

٣. ﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾ الإتباع اللحوق أي لحق سببا واتخذ وصلة وسيلة يسير بها نحو مغرب الشمس.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: فلما أخبر رسول الله ﷺ بخبر موسى وفتاه والخضر، قالوا له فأخبرنا عن طائف طاف الأرض: المشرق والمغرب من هو؟ وما قصته؟ فأنزل الله: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ الآيات.

• أقول: وقد تقدم في الكلام على قصة أصحاب الكهف تفصيل هذه الرواية وروي أيضا ما في معناه في الدر المنثور، عن ابن أبي حاتم عن السدي وعن عمر مولى غفرة.

ب. واعلم أن الروايات المروية من طرق الشيعة وأهل السنة عن النبي ﷺ ومن طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليه السلام وكذا الأقوال المنقولة عن الصحابة والتابعين ويعامل معها أهل السنة معاملة الأحاديث الموقوفة في قصة ذي القرنين مختلفة اختلافا عجيبا متعارضة متهافتة في جميع خصوصيات القصة وكافة أطرافها وهي مع ذلك مشتملة على غرائب يستوحش منها الذوق السليم أو يحيلها العقل وينكرها الوجود لا يرتاب الباحث الناقد إذا قاس بعضها إلى بعض وتدبر فيها أنها غير سليمة عن الدس والوضع ومبالغات عجيبة في وصف القصة وأغربها ما روي عن علماء اليهود الذين أسلموا كوهب بن منبه وكعب

الأخبار أو ما يشعر القرائن أنه مأخوذ منهم فلا يجدينا والحال هذه نقلها بالاستقصاء على كثرتها وطولها، وإنما نشير بعض الإشارة إلى وجوه اختلافها، ونقتصر على نقل ما يسلم عن الاختلاف في الجملة.

ج. فمن الاختلاف اختلافها في نفسه فمعظم الروايات على أنه كان بشرا، وقد ورد في بعضها أنه كان ملكا سماويا أنزله الله إلى الأرض وآتاه من كل شيء سببا، وفي خطط المقريزي عن الجاحظ في كتاب الحيوان، أن ذا القرنين كانت أمه آدمية وأبوه من الملائكة.

د. ومن ذلك الاختلاف في سمته ففي أكثر الروايات أنه كان عبدا صالحا أحب الله فأحبه وناصح الله فناصحه، وفي بعضها أنه كان محدثا يأتيه الملك فيحدثه وفي بعضها أنه كان نبيا.

هـ. ومن ذلك الاختلاف في اسمه ففي بعضها أن اسمه عياش، وفي بعضها إسكندر، وفي بعضها مرزيا بن مرزبة اليوناني من ولد يونن بن يافث بن نوح، وفي بعضها مصعب بن عبد الله من قحطان وفي بعضها صعب بن ذي المراثد أول التبابعة وكأنه التبع أبو كرب، وفي بعضها عبد الله بن ضحاك بن معد إلى غير ذلك وهي كثيرة.

و. ومن ذلك الاختلاف في وجه تسميته بذي القرنين:

• ففي بعضها أنه دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه الأيمن فغاب عنهم زمانا ثم جاءهم ودعاهم إلى الله ثانيا فضربوه على قرنه الأيسر فغاب عنهم زمانا ثم آتاه الله الأسباب فطاف شرق الأرض وغربها فسمي بذلك ذا القرنين، وفي بعضها أنهم قتلوه بالضربة الأولى ثم أحياه الله فجاءهم ودعاهم فضربوه وقتلوه ثانيا ثم أحياه الله ورفعه إلى السماء الدنيا ثم أنزله إلى الأرض وآتاه من كل شيء سببا.

• وفي بعضها أنه نبت له بعد الإحياء الثاني قرنان في موضعي الشجتين وسخر الله له النور والظلمة ثم لما نزل إلى الأرض سار فيها ودعا إلى الله وكان يزأر كالأسد ويبرق ويرعد قرناه وإذا استكبر عن دعوته قوم سلط عليهم الظلمة فأعيتهم حتى اضطروا إلى إجابتها.

• وفي بعضها أنه كان له قرنان في رأسه وكان يتعمم عليهما يواريهما بذلك وهو أول من تعمم وقد كان يخفيهما عن الناس ولم يكن يطلع على ذلك أحد إلا كاتبه وقد نهاه أن يخبر به أحدا فضاق صدر الكاتب بذلك فأتى الصحراء فوضع فمه بالأرض ثم نادى ألا إن للملك قرنين فأنبت الله من كلمته قصبتين فمر بهما راع فأعجبهما فقطعهما واتخذهما مزمارا فكان إذا زمر خرج من القصبتين: ألا إن للملك قرنين فانتشر

ذلك في المدينة فأرسل إلى الكاتب واستنطقه وهدده بالقتل إن لم يصدق فقص عليه القصة فقال ذو القرنين هذا أمر أراد الله أن يبديه فوضع العمامة عن رأسه.

• وقيل: سمي ذا القرنين لأنه ملك قرني الأرض وهما المشرق والمغرب وقيل: لأنه رأى في المنام أنه أخذ بقرني الشمس فعبر له بملك الشرق والغرب وسمي بذي القرنين، وقيل: لأنه كان له عقيصتان في رأسه، وقيل لأنه ملك الروم وفارس، وقيل: لأنه كان له في رأسه شبه قرنين، وقيل لأنه كان على تاجه قرنان من الذهب إلى غير ذلك مما قيل.

ز. ومن ذلك اختلافها في سيره إلى المغرب والمشرق وفيه أشد الاختلاف فقد روي أنه سخر له السحاب فكان يركب السحاب ويسير في الأرض غربا وشرقا، وروي أنه بلغ جبل قاف وهو جبل أخضر محيط بالدنيا منه خضرة السماء، وروي أنه طلب عين الحياة فأشير عليه أنها في الظلمات فدخلها وفي مقدمته الخضر فلم يرزق ذو القرنين أن يشرب منها وشرب الخضر واغتسل منها فكان له البقاء المؤبد وفي هذه الروايات أن الظلمات في جانب المشرق.

ح. ومن ذلك اختلافها في موضع السد الذي بناها ففي بعضها أنه في المشرق وفي بعضها أنه في الشمال، وقد بلغ من مبالغة بعض الروايات أن ذكرت أن طول السد وهو مسافة ما بين الجبلين مائة فرسخ وعرضه خمسون فرسخا وارتفاعه ارتفاع الجبلين وقد حفر له أساسا حتى بلغ الماء وقد جعل حشوه الصخور وطينه النحاس ثم علاه بزبر الحديد والنحاس المذاب وجعل خلاله عرقا من نحاس أصفر فصار كأنه برد محبر.

ط. ومن ذلك اختلافها في وصف يأجوج ومأجوج فروي أنهم من الترك ومن ولد يافث بن نوح كانوا يفسدون في الأرض فضرب السد دونهم، وروي أنهم من غير ولد آدم وفي عدة من الروايات أنهم قوم ولود لا يموت الواحد منهم من ذكر أو أنثى حتى يولد له ألف من الأولاد وأنهم أكثر عددا من سائر البشر حتى عدوا في بعض الروايات تسعة أضعاف البشر، وروي أنهم من الشدة والبأس بحيث لا يمرون ببهيمة أو سبع أو إنسان إلا افترسوه وأكلوه ولا على زرع أو شجر إلا رعوه ولا على ماء نهر إلا شربوه ونشفوه، وروي أنهم أمتان كل منهما أربع مائة ألف أمة كل أمة لا يحصي عددهم إلا الله سبحانه، وروي أنهم طوائف ثلاث فطائفة كالأرز وهو شجر طوال، وطائفة يستوي طولهم وعرضهم: أربعة أذرع في أربعة

أذرع وطائفة وهم أشدهم للواحد منهم أذنان يفترش بإحداهما ويلتحف بالأخرى يشتو في إحداهما لابسا له وهي وبرة ظهرها وبطنها ويصيف في الأخرى وهي زغبة ظهرها وبطنها، وهم صلب على أجسادهم من الشعر ما يواريها، وروي أن الواحد منهم شبر أو شبران أو ثلاثة، وروي أن الذين كانوا يقاتلونهم كان وجوههم وجوه الكلاب.

ي. ومن ذلك اختلافها في زمان ملكه ففي بعضها أنه كان بعد نوح، وروي أنه كان في زمن إبراهيم ومعاصره وقد حج البيت ولقيه وصافحه وهي أول مصافحة على وجه الأرض، وروي أنه كان في زمن داود.

ك. ومن ذلك اختلافها في مدة ملكه فروي ثلاثون سنة وروي اثنتا عشرة سنة إلى غير ذلك من جهات الاختلاف التي يعثر عليها من راجع أخبار القصة من جوامع الحديث وخاصة الدر المنثور، والبحار، والبرهان، ونور الثقلين.

ل. وفي كتاب كمال الدين، بإسناده عن الأصبغ بن نباتة قال: قام ابن الكواء إلى علي عليه السلام وهو على المنبر، فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن ذي القرنين أنبيا كان أم ملكا؟ وأخبرني عن قرنيه أمن ذهب أم من فضة؟ فقال له: لم يكن نبيا ولا ملكا، ولم يكن قرناه من ذهب ولا فضة ولكن كان عبدا، أحب الله فأحبه الله ونصح الله فنصحه الله، وإنما سمي ذا القرنين لأنه دعا قومه إلى الله عز وجل، فضربوه على قرنه فغاب عنهم حينا، ثم عاد إليهم فضرب على قرنه الآخر، وفيكم مثله.

• أقول: الظاهر أن (الملك) في الرواية بفتح اللام لا بكسرها لاستفاضة الروايات عنه وعن غيره عليه السلام بملك ذي القرنين فنفيه عليه السلام أن يكون ذو القرنين نبيا أو ملكا بفتح اللام إنكار منه لصحة ما ورد عن النبي ﷺ في بعض الروايات أنه كان نبيا وفي بعضها الآخر أنه كان ملكا من الملائكة وبه كان يقول عمر بن الخطاب كما تقدمت الإشارة إليه.

• وقوله: (وفيكم مثله) أي مثل ذي القرنين في شجتيه يشير عليه السلام إلى نفسه فإنه أصيب بضربة من عمرو بن عبد ود وبضربة من عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله فاستشهد بها، ولرواية مستفيضة عنه عليه السلام روته عنه الشيعة وأهل السنة بألفاظ مختلفة، وأبسط ألفاظها ما أوردناه، وقد لعبت به يد النقل بالمعنى فأظهرته في صور عجيبة وبلغ بها التحريف غايته.

م. أخرج ابن مردويه عن سالم بن أبي الجعد قال: سئل علي عن ذي القرنين أنبي هو؟ فقال سمعت نبيكم (ص) يقول: هو عبد ناصح الله فنصحه.

٤٥. ذو القرنين عند مغرب الشمس ومطلعها:

المقطع [٤٥] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٨٦-٩١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٦٠»:

١. ﴿حَتَّى إذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَها قَوْماً﴾:

أ. تدل ﴿حَتَّى﴾ على فعل مقدر وتقديره (فسار حتى إذا بلغ) والمراد بمغرب الشمس آخر المعمورة يومئذ من جانب الغرب بدليل قوله: ﴿وَوَجَدَ عِنْدَها قَوْماً﴾

ب. وذكروا أن المراد بالعين الحمئة العين ذات الحمأة وهي الطين الأسود وأن المراد بالعين البحر فربما تطلق عليه، وأن المراد بوجدان الشمس تغرب في عين حمئة موقف على ساحل بحر لا مطمع في وجود بر وراءه فرأى الشمس كأنها تغرب في البحر لمكان انطباق الأفق عليه قيل: وينطبق هذه العين الحمئة على المحيط الغربي وفيه الجزائر الخالدات التي كانت مبدأ الطول سابقا ثم غرقت.

ج. وقرئ (في عين حامية) أي حارة، وينطبق على النقاط القريبة من خط الاستواء من المحيط الغربي المجاورة لإفريقية ولعل ذا القرنين في رحلته الغربية بلغ سواحل إفريقية.

٢. ﴿قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً﴾:

أ. القول المنسوب إليه تعالى في القرآن يستعمل في الوحي النبوي وفي الإبلاغ بواسطة الوحي كقوله تعالى: ﴿وَقُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ﴾ [البقرة: ٣٥] وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ [البقرة: ٥٨]، ويستعمل في الإلهام الذي ليس من النبوة كقوله: ﴿وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]

ب. وبه يظهر أن قوله: ﴿قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ لا يدل على كونه نبيا يوحى إليه لكون قوله تعالى أعم

من الوحي المختص بالنبوة ولا يخلو قوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ﴾ حيث أورد في سياق الغيبة بالنسبة إليه تعالى من إشعار بأن مكالمته كانت بتوسط نبي كان معه فملكه نظير ملك طالوت في بني إسرائيل بإشارة من نبيهم وهدايته.

٣. ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً﴾:

أ. أي إما أن تعذب هؤلاء القوم وإما أن تتخذ فيهم أمرا ذا حسن، فحسنا مصدر بمعنى الفاعل قائم مقام موصوفه أو هو وصف للمبالغة، وقد قيل: إن في مقابلة العذاب باتخاذ الحسن إيماء إلى ترجيحه والكلام ترديد خبري بداعي الإباحة فهو إنشاء في صورة الإخبار، والمعنى لك أن تعذبهم ولك أن تعفو عنهم كما قيل، لكن الظاهر أنه استخبار عما سيفعله بهم من سياسة أو عفو، وهو الأوفق بسياق الجواب المشتمل على التفصيل بالتعذيب والإحسان ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ إذ لو كان قوله: ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ﴾ حكما تخييريا لكان قوله: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ تقريرا له وإيذانا بالقبول ولا كثير فائدة فيه.

ب. ومحصل المعنى: استخبرناه ما ذا تريد أن تفعل بهم من العذاب والإحسان وقد غلبتهم واستوليت عليهم؟ فقال: نعذب الظالم منهم ثم يرد إلى ربه فيعذبه العذاب النكر، ونحسن إلى المؤمن الصالح ونكلفه بما فيه يسر.

ج. ولم يذكر المفعول في قوله: ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ﴾ بخلاف قوله: ﴿إِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً﴾ لأن جميعهم لم يكونوا ظالمين، وليس من الجائز تعميم العذاب لقوم هذا شأنهم بخلاف تعميم الإحسان لقوم فيهم الصالح والطالح.

٤. ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذاباً نُكْراً﴾:

أ. النكر والمنكر غير المعهود أي يعذبه عذابا لا عهد له به، ولا يحتسبه ويترقبه.

ب. وقد فسر الظلم بالإشراك، والتعذيب بالقتل فمعنى ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ أما من أشرك ولم يرجع عن شركه فسوف نقتله، وكأنه مأخوذ من مقابلة ﴿مَنْ ظَلَمَ﴾ بقوله: ﴿مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً﴾ لكن الظاهر من المقابلة أن يكون المراد بالظالم أعم ممن أشرك ولم يؤمن بالله أو آمن ولم يشرك لكنه لم يعمل صالحا بل أفسد في الأرض، ولولا تقييد مقابله بالإيمان لكان ظاهر الظلم هو الإفساد من غير نظر إلى الشرك لأن المعهود من سيرة الملوك إذا عدلوا أن يطهروا أرضهم من فساد المفسدين، وكذا لا دليل على

تخصيص التعذيب بالقتل.

٥. ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى﴾ ﴿صالِحاً﴾ وصف أقيم مقام موصوفه وكذا الحسنى، و﴿جَزاءً﴾ حال أو تمييز أو مفعول مطلق والتقدير: وأما من آمن وعمل عملا صالحا فله المثوبة الحسنى حال كونه مجزيا أو من حيث الجزاء أو نجزيه جزاء.

٦. ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً﴾ اليسر بمعنى الميسور وصف أقيم مقام موصوفه والظاهر أن المراد بالأمر الأمر التكليفي وتقدير الكلام وسنقول له قولا ميسورا من أمرنا أي نكلفه بما يتيسر له ولا يشق عليه.

٧. ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾:

أ. أي ثم هيأ سببا للسير فسار نحو المشرق حتى إذا بلغ الصحراء من الجانب الشرقي فوجد الشمس تطلع على قوم بدويين لم نجعل لهم من دونها سترا.

ب. والمراد بالستر ما يستتر به من الشمس، وهو البناء واللباس أو خصوص البناء أي كانوا يعيشون على الصعيد من غير أن يكون لهم بيوت يأوون إليها ويستترون بها من الشمس وعراة لا لباس عليهم، وإسناد ذلك إلى الله سبحانه في قوله: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ﴾ إلخ إشارة إلى أنهم لم يتنبهوا بعد لذلك ولم يتعلموا بناء البيوت واتخاذ الخيام ونسج الأثواب وخياطتها.

٨. ﴿كَذلِكَ وَقَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً﴾:

أ. الظاهر أن قوله: ﴿كَذلِكَ﴾ إشارة إلى وصفهم المذكور في الكلام، وتشبيه الشيء بنفسه مبنيا على دعوى المغايرة يفيد نوعا من التأكيد، وقد قيل في المشار إليه بذلك وجوه أخر بعيدة عن الفهم.

ب. ﴿وَقَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً﴾ الضمير لذي القرنين، والجملة حالية والمعنى أنه اتخذ وسيلة السير وبلغ مطلع الشمس ووجد قوما كذا وكذا في حال أحاط فيها علمنا وخبرنا بما عنده من عدة وعدة وما يجريه أو يجري عليه، والظاهر أن إحاطة علمه تعالى بما عنده كناية عن كون ما اختاره وأتى به بهداية من الله وأمر، فما كان يرد ولا يصدر إلا عن هداية يهتدي بها وأمر يأتمره كما أشار إلى مثل هذا المعنى عند ذكر مسيره إلى المغرب بقوله: ﴿قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾

ج. فالآية أعني قوله: ﴿وَقَدْ أَحَطْنا﴾ في معناها الكنائي نظيرة قوله: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا

وَوَحْينا﴾ [هود: ٣٧]، وقوله: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦]، وقوله: ﴿وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ﴾ [الجن: ٢٨]

د. وقيل: إن الآية لإفادة تعظيم أمره وأنه لا يحيط بدقائقه وجزئياته إلا الله أو لتهويل ما قاساه ذو القرنين في هذا المسير وأن ما تحمله من المصائب والشدائد في علم الله لم يكن ليخفى عليه، أو لتعظيم السبب الذي أتبعه، وما قدمناه أوجه.

٩. أحاديث وآثار:

أ. وفي احتجاج الطبرسي، عن الصادق عليه السلام في حديث طويل: وفيه قال السائل أخبرني عن الشمس أين تغيب؟ قال: إن بعض العلماء قال: إذا انحدرت أسفل القبة دار بها الفلك، إلى بطن السماء صاعدة أبدا إلى أن تنحط إلى موضع مطلعها، يعني أنها تغيب في عين حمئة، ثم تخرق الأرض راجعة إلى موضع مطلعها، فتحير تحت العرش حتى يؤذن لها بطلوع، ويسلب نورها كل يوم وتتجلل نورا أحمر.

• أقول: قوله: (إذا انحدرت أسفل القبة، إلى قوله: مطلعها) بيان لسير الشمس من حين غروبها إلى إبان طلوعها في مدارها السماوي على ما تفرضه هيئة بطليموس الدائرة في تلك الأعصار المبنية على سكون الكرة الأرضية وحركة الأجرام السماوية حولها، ولذا نسبه عليه السلام إلى بعض العلماء.

• وقوله: (يعني أنها تغيب في عين حمئة ثم تخرق الأرض راجعة إلى موضع مطلعها) من كلام بعض رواة الخبر لا من كلامه عليه السلام فالراوي لقصور منه في الفهم فسر قوله تعالى: ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ بسقوط القرص في العين وغيبوبته فيها ثم سبحه فيها كالسمكة في الماء وخرقه الأرض حتى يبلغ المطلع ثم ذهابه إلى تحت العرش وهو على زعمه سماء فوق السماوات السبع أو جسم نوراني كأعظم ما يكون موضوع فوق السماء السابعة ومكثه هناك حتى يؤذن له في الطلوع فيكسى نورا أحمر ويطلع.

• والراوي يشير بقوله: (فتحير تحت العرش حتى يؤذن لها إلخ إلى رواية أخرى مأثورة عن النبي ﷺ أن الملائكة تذهب بالشمس بعد غروبها فتوقفها تحت العرش وهي مسلوبة النور فتمكث هناك وهي لا تدري ما تؤمر به غدا حتى تكسى نورا وتؤمر بالطلوع، الرواية، وقد ارتكب فهمه في تفسير العرش هناك نظير ما ارتكبه في تفسير الغروب هاهنا فزاد عن الحق بعدا على بعد.

• ولم يرد تفسير العرش في كتاب ولا سنة قابلة للاعتماد بالفلك التاسع أو بجسم نوراني علوي كهيئة السرير التي اختلقها فهمه وقد قدمنا معظم روايات العرش في أوائل الجزء الثامن من هذا الكتاب.

• وفي التسمية أعني قوله: (قال بعض العلماء بعض الإشارة إلى أن هذا القول لم يكن مرضيا عنده عليه السلام ومع ذلك لم يسعه أن يسمح بحق القول في المسألة كيف؟ وإذا ساقتهم سذاجة الفهم في فرضية سهلة التصور عند أهله في تلك الأعصار هذا المساق فما ظنك بهم لو ألقي إليهم ما لا يصدقه ظاهر حسهم ولا يسعه ظرف فكرهم.

ب. أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عثمان بن أبي حاضر: أن ابن عباس ذكر له أن معاوية بن أبي سفيان، قرأ الآية التي في سورة الكهف (تغرب في عين حامية) قال ابن عباس: فقلت لمعاوية: ما نقرؤها إلا حمئة، فسأل معاوية عبد الله بن عمر وكيف تقرؤه؟ فقال عبد الله: كما قرأتها، قال ابن عباس: فقلت لمعاوية: في بيتي نزل القرآن، فأرسل إلى كعب فقال له: أين تجد الشمس تغرب في التوراة؟ فقال له كعب: سل أهل العربية فإنهم أعلم بها، وأما أنا فإني أجد الشمس تغرب في التوراة في ماء وطين، وأشار بيده إلى المغرب، قال ابن أبي حاضر: لو أني عندكما أيدتك بكلام تزداد به بصيرة في حمئة، قال ابن عباس: وما هو؟ قلت: فيما نأثر قول تبع، فيما ذكر به ذا القرنين في كلفه بالعلم واتباعه إياه:

قد كان ذو القرنين عمر مسلما...ملكا تدين له الملوك وتحشد

فأتى المشارق والمغارب يبتغي...أسباب ملك من حكيم مرشد

فرأى مغيب الشمس عند غروبها...في عين ذي خلب وثأط حرمد

فقال ابن عباس: ما الخلب؟ قلت: الطين بكلامهم، قال: فما الثأط؟ قلت: الحمأة، قال: فما الحرمد؟ قلت: الأسود، فدعا ابن عباس غلاما فقال له: اكتب ما يقول هذا الرجل.

• أقول: والحديث لا يلائم ما ذهبوا إليه من تواتر القراءات تلك الملائمة وعن التيجان لابن هشام الحديث وفيه أن ابن عباس أنشد هذه الأشعار لمعاوية وأن معاوية سأله عن معنى الخلب والثأط والحرمد قال: الخلب الحمأة والثأط ما تحتها من الطين والحرمد ما تحته من الحصى والحجر، وقد أورد القصيدة، وهذا الاختلاف يؤذن بشيء في الرواية.

ج. في تفسير العياشي، عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً﴾ قال: لم يعلموا صنعة البيوت.

د. وفي تفسير القمي: في الآية قال: لم يعلموا صنعة الثياب.

٤٦. ذو القرنين والسد بين يأجوج ومأجوج:

المقطع [٤٦] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٢-٩٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٦٣»:

١. ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ السد الجبل وكل حاجز يسد طريق العبور وكأن المراد بهما الجبلان.

٢. ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً﴾ أي قريبا منهما، وقوله: ﴿لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ كناية عن بساطتهم وسذاجة فهمهم، وربما قيل: كناية عن غرابة لغتهم وبعدها عن اللغات المعروفة عندهم، ولا يخلو عن بعد.

٣. ﴿قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ﴾ الظاهر أن القائلين هم القوم الذين وجدهم من دون الجبلين، ويأجوج ومأجوج جيلان من الناس كانوا يأتونهم من وراء الجبلين فيغيرون عليهم ويعمونهم قتلا وسببا ونهبا والدليل عليه السياق بما فيه من ضمائر أولي العقل وعمل السد بين الجبلين وغير ذلك.

٤. ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً﴾ الخرج ما يخرج من المال ليصرف في شيء من الحوائج عرضوا عليه أن يعطوه مالا على أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدا يمنع من تجاوزهم وتعديهم عليهم.

٥. وضع هنا مبحثا حول [قصة ذي القرنين]، خلاصته:

أ. قصة ذي القرنين في القرآن لم تذكر اسمه ولا زمانه ولا نسبه، واكتفت بذكر ثلاث رحلات: إلى المغرب (غروب الشمس في عين حمئة)، وإلى المشرق (طلوع الشمس على قوم لا ستر لهم)، وإلى بين السدين (بناء السد على يأجوج ومأجوج)

ب. من مشخصات ذي القرنين: أنه كان مؤمناً بالله واليوم الآخر، متديناً بدين الحق، ملكاً عظيماً آتاه الله من كل شيء سبباً، جمع خير الدنيا (الملك العظيم) وخير الآخرة (العدل والرفق)، وبنى السد بين

جبلين باستخدام زبر الحديد والقطر.

ج. اختلف المؤرخون والمفسرون في شخصية ذي القرنين: فقيل هو الإسكندر المقدوني (وهو قول ضعيف لأنه كان وثنياً، والتاريخ لا يذكر أنه بنى سداً)، وقيل هو أحد ملوك حمير اليمنيين (وهم من العرب العاربة، وكانوا يلقبون بـ (ذي)، وورد ذكرهم في أشعار العرب)، وقيل هو كورش الملك الفارسي (وهو الأقرب انطباقاً على الآيات، فقد كان موحداً، عادلاً، سار إلى المغرب والمشرق، وبنى سداً في مضيق داريال بين جبال قفقاز)

د. يأجوج ومأجوج هما أمم كانت قاطنة في أقاصي شمال آسيا، وقد ورد ذكرهم في التوراة (كجوج ومأجوج) وفي رؤيا يوحنا، وهم أمة حربية معروفة بالمغازي والغارات، ويرجح أنهم المغول أو أسلافهم.

هـ. موقع السد: ادعي وجوده في عدة مواضع: حائط الصين (لكنه ليس بين جبلين، ولم يستعمل فيه حديد وقطر)، وسد باب الأبواب (ولم يستعمل فيه حديد)، وسد داريال في قفقاز (وهو الأقرب انطباقاً، لأنه بين جبلين، واستعمل فيه الحديد، وهو الفتحة الرابطة بين جنوب آسيا وشمالها)

و. يأجوج ومأجوج في آخر الزمان: وعد الله بجعل السد دكاء (أي ذليلاً أو مدكوكاً) فيخرجون ويفسدون في الأرض، والمراد بذلك تقدم وسائل النقل والاتصال التي تجعل السد غير مانع، أو اندثار السد بمرور الزمن.

٤٧. بناء السد من الحديد والنحاس المذاب:

المقطع [٤٧] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٥-٩٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٦٤»:

١. ﴿قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾:

أ. أصل ﴿مَكَّنِّي﴾ مكنني ثم أدغمت إحدى النونين في الأخرى، والردم السد وقيل السد القوي، وعلى هذا فالتعبير بالردم في الجواب وقد سألوه سدا إجابة ووعد بما هو فوق ما استدعوه وأملوه.

ب. ﴿قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ استغناء من ذي القرنين عن خرجهم الذي عرضوه عليه على

أن يجعل لهم سدا يقول: ما مكنني فيه وأقرني عليه ربي من السعة والقدرة خير من المال الذي تعدونني به فلا حاجة لي إليه.

٢. ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ القوة ما يتقوى به على الشيء والجملة تفريع على ما يتحصل من عرضهم وهو طلبهم منه أن يجعل لهم سدا، ومحصل المعنى أما الخرج فلا حاجة لي إليه، وأما السد فإن أردتموه فأعينوني بما أتقوى به على بنائه كالرجال وما يستعمل في بنائه، وقد ذكر منها زبر الحديد والقطر والنفخ بالمنافخ، أجعل لكم سدا قويا، وبهذا المعنى يظهر أن مرادهم بما عرضوا عليه من الخرج الأجر على عمل السد.

٣. ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾:

أ. الزبر بالضم فالفتح جمع زبرة كغرف وغرفة وهي القطعة، و﴿ساوى﴾ بمعنى سوى على ما قيل وقرئ (سوى) و﴿الصَّدَفَيْنِ﴾ تثنية الصدف وهو أحد جانبي الجبل ذكر بعضهم أنه لا يقال إلا إذا كان هناك جبل آخر يوازيه بجانبه فهو من الأسماء المتضائفة كالزوج والضعف وغيرهما والقطر النحاس أو الصفر المذاب وإفراغه صبه على الثقب والخلل والفرج.

ب. ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ أي أعطوني إياها لأستعملها في السد وهي من القوة التي استعانهم فيها، ولعله خصها بالذكر ولم يذكر الحجارة وغيرها من لوازم البناء لأنها الركن في استحكام بناء السد فجملة ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ بدل البعض من الكل من جملة ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أو الكلام بتقدير قال، وهو كثير في القرآن.

٤. ﴿حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قالَ انْفُخُوا﴾ في الكلام إيجاز بالحذف والتقدير فأعانوه بقوة وآتوه ما طلبه منهم فبنى لهم السد ورفعه حتى إذا سوى بين الصدفين قال: انفخوا.

٥. ﴿قالَ انْفُخُوا﴾ الظاهر أنه من الإعراض عن متعلق الفعل للدلالة على نفس الفعل والمراد نصب المنافخ على السد لإحماء ما وضع فيه من الحديد وإفراغ القطر على خلله وفرجه.

٦. ﴿حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً قالَ﴾ في الكلام حذف وإيجاز، والتقدير فنفخ حتى إذا جعله أي المنفوخ فيه أو الحديد نارا أي كالنار في هيئته وحرارته فهو من الاستعارة.

٧. ﴿قالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾ أي آتوني قطرا أفرغه وأصبه عليه ليسد بذلك خلله ويصير السد

به مصمتا لا ينفذ فيه نافذ.

٨. ﴿فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ اسطاع واستطاع واحد، والظهور العلو والاستعلاء، والنقب الثقب، قال الراغب في المفردات: (النقب في الحائط والجلد كالثقب في الخشب) وضمائر الجمع ليأجوج ومأجوج، وفي الكلام حذف وإيجاز، والتقدير فبنى السد فما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوه لارتفاعه وما استطاعوا أن ينقبوه لاستحكامه.

٩. أحاديث وآثار:

أ. وفي تفسير العياشي، عن المفضل قال: سألت الصادق عليه السلام عن قوله: ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾ قال: التقية (فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا) إذا عملت بالتقية لم يقدروا لك على حيلة، وهو الحصن الحصين، وصار بينك وبين أعداء الله سدا لا يستطيعون له نقبا.

ب. وفيه، أيضا عن جابر عنه عليه السلام في الآية قال: التقية.

• أقول: الروايتان من الجري وليستا بتفسير.

٤٨. السد رحمة حتى يأتي وعد الله:

المقطع [٤٨] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٦٥»:

١. ﴿قالَ هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ الدكاء الدك وهو أشد الدق مصدر بمعنى اسم المفعول، وقيل: المراد الناقة الدكاء وهي التي لا سنام لها وهو على هذا من الاستعارة والمراد به خراب السد كما قالوا.

٢. ﴿قالَ هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ أي قال ذو القرنين، بعد ما بنى السد، هذا أي السد رحمة من ربي أي نعمة ووقاية يدفع به شر يأجوج ومأجوج عن أمم من الناس.

٣. ﴿فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾:

أ. في الكلام حذف وإيجاز والتقدير وتبقى هذه الرحمة إلى مجيء وعد ربي فإذا جاء وعد ربي جعله مدكوكا وسوى به الأرض.

ب. والمراد بالوعد إما وعد منه تعالى خاص بالسد أنه سيندك عند اقتراب الساعة فيكون هذا

ملحمة أخبر بها ذو القرنين، وإما وعده تعالى العام بقيام الساعة الذي يدك الجبال ويخرب الدنيا، وقد أكد القول بجملة ﴿وَكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾

٤٩. النفخ في الصور وحشر الناس وعرض جهنم:

المقطع [٤٩] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩-١٠١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٦٦»:

١. ﴿وَتَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾:

أ. ظاهر السياق أن ضمير الجمع للناس ويؤيده رجوع ضمير ﴿فَجَمَعْناهُمْ﴾ إلى الناس قطعا لأن حكم الجمع عام.

ب. وفي قوله: ﴿بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ استعارة، والمراد أنهم يضطربون يومئذ من شدة الهول اضطراب البحر باندفاع بعضه إلى بعض فيرتفع من بينهم النظم ويحكم فيهم الهرج والمرج ويعرض عنهم ربهم فلا يشملهم برحمته، ولا يصلح شأنهم بعنايته.

ج. فالآية بمنزلة التفصيل للإجمال الذي في قول ذي القرنين: ﴿فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ ونظيره قوله تعالى في موضع آخر: ﴿حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧]، وهي على أي حال من الملاحم.

د. وقد بان مما مر أن الترك في الآية بمعناه المتبادر منه وهو خلاف الأخذ ولا موجب لما ذكره بعضهم: (أن الترك بمعنى الجعل وهو من الأضداد)

هـ. والآية من كلام الله سبحانه وليست من تمام كلام ذي القرنين والدليل عليه تغيير السياق من الغيبة إلى التكلم مع الغير الذي هو سياق كلامه السابق ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ﴾ ﴿قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾، ولو كان من تمام كلام ذي القرنين لقيل: وترك بعضهم على حذاء قوله: ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾

٢. ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ هي النفخة الثانية التي فيها الإحياء بدليل قوله: ﴿فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً وَعَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً﴾

٣. ﴿الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً﴾ تفسير للكافرين وهؤلاء هم الذين ضرب الله بينهم وبين ذكره سدا حاجزا، وبهذه المناسبة تعرض لحالهم بعد ذكر سد يأجوج ومأجوج، فجعل أعينهم في غطاء عن ذكره وأخذ استطاعة السمع عن آذانهم فانقطع الطريق بينهم وبين الحق وهو ذكر الله، فإن الحق إنما ينال إما من طريق البصر بالنظر إلى آيات الله سبحانه والاهتداء إلى ما تدل عليه وتهدي إليه، وإما من طريق السمع باستماع الحكمة والموعظة والقصص والعبر، ولا بصر لهؤلاء ولا سمع.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن الأصبغ بن نباتة عن علي عليه السلام: ﴿وَتَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ يعني يوم القيامة.

• أقول: ظاهر الآية بحسب السياق أنه من أشراط الساعة، ولعله المراد بيوم القيامة فربما تطلق على ظهور مقدماتها.

ب. وفيه، عن محمد بن حكيم قال: كتبت رقعة إلى أبي عبد الله عليه السلام فيها: أتستطيع النفس المعرفة؟ قال: فقال لا فقلت: يقول الله: ﴿الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي، وَكانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً﴾ قال: هو كقوله: ﴿ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَما كانُوا يُبْصِرُونَ﴾ قلت: فعابهم؟ قال: لم يعبهم بما صنع هو بهم ولكن عابهم بما صنعوا، ولو لم يتكلفوا لم يكن عليهم شيء.

• أقول: يعني أنهم تسببوا لهذا الحجاب فرجع إليهم تبعته.

ج. وفي تفسير القمي: في الآية قال: كانوا لا ينظرون إلى ما خلق الله، من الآيات والسماوات والأرض.

• أقول: وفي العيون، عن الرضا عليه السلام: تطبيق الآية على منكري الولاية وهو من الجري.

٥٠. الكافرون ظنوا أن يتخذوا عباد الله من دونه أولياء:

المقطع [٥٠] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبادِي مِنْ دُونِي أَوْلِياءَ إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٦٧»:

١. ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبادِي مِنْ دُونِي أَوْلِياءَ﴾:

أ. الاستفهام للإنكار قال في المجمع: (معناه أفحسب الذين جحدوا توحيد الله أن يتخذوا من دوني أربابا ينصرونهم ويدفعون عقابي عنهم قال: ويدل على هذا المحذوف قوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلاً﴾)

ب. وهناك وجه ثان منقول عن ابن عباس وهو أن المعنى أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا من دوني آلهة وأنا لا أغضب لنفسي عليهم ولا أعاقبهم.

ج. ووجه ثالث: وهو أن ﴿أَنْ يَتَّخِذُوا﴾ مفعول أول لحسب بمعنى ظن ومفعوله الثاني محذوف، والتقدير أفحسب الذين كفروا اتخاذهم عبادي من دوني أولياء نافعا لهم أو دافعا للعقاب عنهم، والفرق بين هذا الوجه والوجهين السابقين أن ﴿أَنْ﴾ وصلته قائمة مقام المفعولين فيهما والمحذوف بعض الصلة فيهما بخلاف الوجه الثالث فأن وصلته فيه مفعول أول لحسب، والمفعول الثاني محذوف.

د. ووجه رابع: وهو أن يكون أن وصلته سادة مسد المفعولين وعناية الكلام متوجهة إلى إنكار كون الاتخاذ اتخاذا حقيقة على معنى أن ذلك ليس من الاتخاذ في شيء إذ الاتخاذ إنما يكون من الجانبين والمتخذون متبرئون منهم لقولهم: ﴿سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ﴾

هـ. والوجوه الأربعة مترتبة في الوجاهة وأوجهها أولها وسياق هذه الآيات يساعد عليه فإن هذه الآيات بل عامة آيات السورة مسوقة لبيان أنهم فتنوا بزينة الحياة الدنيا واشتبه عليهم الأمر فاطمأنوا إلى ظاهر الأسباب فاتخذوا غيره تعالى أولياء من دونه فهم يظنون أن ولايتهم تكفيهم وتنفعهم وتدفع عنهم الضر والحال أن ما سيلقونه بعد النفخ والجمع يناقض ذلك فالآية تنكر عليهم هذا الظن والحسبان بعد ما كان مآل أمرهم ذلك، ثم إن إمكان قيام أن وصلته مقام مفعولي حسب وقد ورد في كلامه تعالى كثيرا كقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الجاثية: ٢١] وغيره يغني عن تقدير مفعول ثان محذوف وقد منع عنه بعض النحاة، وتؤيده الآيات التالية: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً﴾ وكذا القراءة المنسوبة إلى علي عليه السلام وعدة منهم، أفحسب بسكون السين وضم الباء والمعنى أفاتخاذ عبادي من دوني أولياء كاف لهم.

و. والمراد بالعباد في قوله: ﴿أَنْ يَتَّخِذُوا عِبادِي مِنْ دُونِي أَوْلِياءَ﴾ كل من يعبده الوثنيون من

الملائكة والجن والكملين من البشر، وأما ما ذكره المفسرون أن المراد بهم المسيح عليه السلام والملائكة ونحوهم من المقربين دون الشياطين لأن الأكثر في مثل هذا اللفظ ﴿عِبادِي﴾ أن تكون الإضافة لتشريف المضاف، ففيه أولا أن المقام لا يناسب التشريف، وهو ظاهر، وثانيا أن قيد ﴿مِنْ دُونِي﴾ في الكلام صريح في أن المراد بالذين كفروا هم الوثنيون الذين لا يعبدون الله مع الاعتراف بألوهيته وإنما يعبدون الشركاء الشفعاء؟ وأما أهل الكتاب مثلا النصارى في اتخاذهم المسيح وليا فإنهم لا ينفون ولاية الله بل يثبتون الولايتين معا ثم يعدونهما واحدا فافهم ذلك فالحق أن قوله: ﴿عِبادِي﴾ لا يعم المسيح ومن كان مثله من البشر بل يختص بآلهة الوثنيين والمراد بقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الوثنيون فحسب.

٢. ﴿إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلاً﴾ أي شيئا يتمتعون به عند أول نزولهم الدار الآخرة شبه الدار الآخرة بالدار ينزلها الضيف وجهنم بالنزل الذي يكرم به الضيف النزيل لدى أول وروده، ويزيد هذا التشبيه لطفا وجمالا ما سيأتي بعد آيتين أنهم لا يقام لهم وزن يوم القيامة فكأنهم لا يلبثون دون أن يدخلوا النار، وفي الآية من التهكم ما لا يخفى، وكأنما قوبل به ما سيحكى من تهكمهم في الدنيا بقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا آياتِي وَرُسُلِي هُزُواً﴾

٥١. الأخسرون أعمالاً الذين ضل سعيهم في الدنيا:

المقطع [٥١] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٩٨»:

١. ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً﴾:

أ. ظاهر السياق أن الخطاب للمشركين وهو مسوق سوق الكناية وهم المعنيون بالتوصيف وسيقترب من التصريح في قوله: ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقائِهِ﴾ فالمنكرون للنبوة والمعاد هم المشركون.

ب. قيل: ولم يقل: بالأخسرين عملا، مع أن الأصل في التمييز أن يأتي مفردا والمصدر شامل للقليل والكثير للإيذان بتنوع أعمالهم وقصد شمول الخسران لجميعها.

٢. ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾:

أ. إنباء بالأخسرين أعمالا وهم الذين عرض في الآية السابقة على المشركين أن ينبئهم بهم ويعرفهم إياهم فعرفهم بأنهم الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وضلال السعي خسران ثم عقبه بقوله: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ وبذلك تم كونهم أخسرين.

ب. بيان ذلك: أن الخسران والخسار في المكاسب والمساعي المأخوذة لغاية الاسترباح إنما يتحقق إذا لم يصب الكسب والسعي غرضه وانتهى إلى نقص في رأس المال أو ضيعة السعي وهو المعبر عنه في الآية بضلال السعي كأنه ضل الطريق فانتهى به السير إلى خلاف غرضه، والإنسان ربما يخسر في كسبه وسعيه لعدم تدرب في العمل أو جهل بالطريق أو لعوامل أخر اتفاقية وهي خسران يرجى زواله فإن من المرجو أن يتنبه به صاحبه ثم يستأنف العمل فيتدارك ما ضاع منه ويقضي ما فات، وربما يخسر وهو يذعن بأنه يربح، ويتضرر وهو يعتقد أن ينتفع لا يرى غير ذلك وهو أشد الخسران لا رجاء لزواله.

ج. ثم الإنسان في حياته الدنيا لا شأن له إلا السعي لسعادته ولا هم له فيما وراء ذلك فإن ركب طريق الحق وأصاب الغرض وهو حق السعادة فهو، وإن أخطأ الطريق وهو لا يعلم بخطئه فهو خاسر سعيا لكنه مرجو النجاة، وإن أخطأ الطريق وأصاب غير الحق وسكن إليه فصار كلما لاح له لائح من الحق ضربت عليه نفسه بحجاب الإعراض وزينت له ما هو فيه من الاستكبار وعصبية الجاهلية فهو أخسر عملا وأخيب سعيا لأنه خسران لا يرجى زواله ولا مطمع في أن يتبدل يوما سعادة، وهو قوله تعالى في تفسير الأخسرين أعمالا: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾

د. وحسبانهم عملهم حسنا مع ظهور الحق وتبين بطلان أعمالهم لهم إنما هو من جهة انجذاب نفوسهم إلى زينات الدنيا وزخارفها وانغمارهم في الشهوات فيحبسهم ذلك عن الميل إلى اتباع الحق والإصغاء إلى داعي الحق ومنادي الفطرة قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦] فاتباعهم هوى أنفسهم ومضيهم على ما هم عليه من الإعراض عن الحق عنادا واستكبارا والانغمار في شهوات النفس ليس إلا رضى منهم بما هم عليه واستحسانا منهم لصنعهم.

٣. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ تعريف ثان وتفسير بعد تفسير للأخسرين أعمالا،

والمراد بالآيات، على ما يقتضيه إطلاق الكلمة، آياته تعالى في الآفاق والأنفس وما يأتي به الأنبياء والرسل من المعجزات لتأييد رسالتهم فالكفر بالآيات كفر بالنبوة، على أن النبي نفسه من الآيات، والمراد بلقاء الله الرجوع إليه وهو المعاد، فآل تعريف الأخسرين أعمالا إلى أنهم المنكرون للنبوة والمعاد وهذا من خواص الوثنيين.

٤. ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً﴾ وجه حبط أعمالهم أنهم لا يعملون عملا لوجه الله ولا يريدون ثواب الدار الآخرة وسعادة حياتها ولا أن الباعث لهم على العمل ذكر يوم الحساب وقد مر كلام في الحبط في مباحث الأعمال في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

٥. ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً﴾ تفريع على حبط أعمالهم والوزن يوم القيامة بثقل الحسنات على ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [الأعراف: ٩]، وإذ لا حسنة للحبط فلا ثقل فلا وزن.

٦. ﴿ذلِكَ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آياتِي وَرُسُلِي هُزُواً﴾ الإشارة إلى ما أورده من وصفهم واسم الإشارة خبر لمبتدإ محذوف والتقدير: الأمر ذلك أي حالهم ما وصفناه وهو تأكيد وقوله: ﴿جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ كلام مستأنف ينبئ عن عاقبة أمرهم، وقوله: ﴿بِما كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آياتِي وَرُسُلِي هُزُواً﴾ في معنى بما كفروا وازدادوا كفرا باستهزاء آياتي ورسلي.

٧. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن مردويه عن أبي الطفيل قال: سمعت علي بن أبي طالب وسأله ابن الكوا، فقال: من ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً﴾ قال: فجرة قريش.

ب. وفي تفسير العياشي، عن إمام بن ربعي قال: قال ابن الكوا إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: أخبرني عن قول الله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿صُنْعاً﴾ قال: أولئك أهل الكتاب كفروا بربهم، وابتدعوا في دينهم فحبطت أعمالهم وما أهل النهر منهم ببعيد.

• أقول: وروي أنهم النصارى، القمي عن أبي جعفر عليه السلام والطبرسي في الاحتجاج، عن علي عليه السلام: أنهم أهل الكتاب وفي الدر المنثور، عن ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي خميصة عبد الله بن قيس عن علي عليه السلام: أنهم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في السواري.

• والروايات جميعا من قبيل الجري، والآيتان واقعتان في سياق متصل وجه الكلام فيه مع المشركين، والآية الثالثة ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ الآية وهي تفسير الثانية أوضح انطباقا على الوثنيين منها على غيرهم كما مر فما عن القمي في تفسيره في ذيل الآية أنها نزلت في اليهود وجرت في الخوارج ليس بصواب.

٥٢. جنات الفردوس وخلود المؤمنين فيها:

المقطع [٥٢] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧-١٠٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٤٠١»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾:

أ. الفردوس يذكر ويؤنث قيل: هي البستان بالرومية، وقيل: الكرم بالنبطية وأصله فرداسا، وقيل: جنة الأعناب بالسريانية، وقيل الجنة بالحبشية، وقيل: عربية وهي الجنة الملتفة بالأشجار والغالب عليه الكرم.

ب. وقد استفاد بعضهم من عده جنات الفردوس نزلا وقد عد سابقا جهنم للكافرين نزلا أن وراء الجنة والنار من الثواب والعقاب ما لم يوصف بوصف وربما أيده أمثال قوله تعالى: ﴿لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] وقوله: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، وقوله: ﴿وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾

٢. ﴿خالِدِينَ فِيها لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلاً﴾ البغي الطلب، والحول التحول، والباقي ظاهر.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير البرهان، عن محمد بن العباس بإسناده عن الحارث عن علي عليه السلام قال: لكل شيء ذروة وذروة الجنة الفردوس، وهي لمحمد وآل محمد ﷺ.

ب. أخرج البخاري ومسلم وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة.

ج. وفي المجمع: روى عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين

كما بين السماء والأرض، الفردوس أعلاها درجة، منها تفجر أنهار الجنة الأربعة، فإذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس.

• أقول: وفي هذا المعنى روايات أخر.

د. في تفسير القمي، عن جعفر بن أحمد عن عبيد الله بن موسى عن الحسن بن علي بن أبي حمزة عن أبيه عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قال: قلت قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ قال: نزلت في أبي ذر وسلمان والمقداد وعمار بن ياسر، جعل الله لهم جنات الفردوس نزلا أي مأوى ومنزلا.

• أقول: وينبغي أن يحمل على الجري أو المراد نزولها في المؤمنين حقا وإنما ذكر الأربعة لكونهم من أوضح المصاديق وإلا فالسورة مكية وسلمان ممن آمن بالمدينة، على أن سند الحديث لا يخلو عن وهن.

٥٣. لو كان البحر مداداً لكلمات الله لنفد:

المقطع [٥٣] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٤٠٣»:

١. الآية:

أ. بيان مستقل لسعة كلمات الله تعالى وعدم قبولها النفاد، وليس من البعيد أن تكون نازلة وحدها لا في ضمن آيات السورة لكنها لو كانت نازلة في ضمن آياتها كانت مرتبطة بجميع ما بحثت عنه السورة.

ب. وذلك أن السورة أشارت في أولها إلى أن هناك حقائق إلهية وذكرت أولا في تسلية النبي ﷺ عن حزنه من إعراضهم عن الذكر أن عامتهم في رقدة عن التنبه لها وسيستيقظون عن نومتهم، وأورد في ذلك قصة أصحاب الكهف ثم ذكر بأمور أورد في ذيلها قصة موسى والخضر حيث شاهد موسى عنه أعمالا ذات تأويل لم يتنبه لتأويلها وأغفله ظاهرها عن باطنها حتى بينها له الخضر فسكن عند ذلك قلقه ثم أورد قصة ذي القرنين والسد الذي ضربه بأمر من الله في وجه المفسدين من يأجوج ومأجوج فحجزهم عن ورود ما وراءه والإفساد فيه.

ج. فهذه، كما ترى، أمور تحتها حقائق وأسرار وبالحقيقة كلمات تكشف عن مقاصد إلهية وبيانات

تنبئ عن خبايا يدعو الذكر الحكيم الناس إليها، والآية، والله أعلم، تنبئ أن هذه الأمور وهي كلماته تعالى المنبئة عن مقاصده لا تنفد والآية في وقوعها بعد استيفاء السورة ما استوفتها من البيان بوجه مثل قول القائل وقد طال حديثه: ليس لهذا الحديث منتهى فلنكتف بها أوردناه.

٢. ﴿قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي﴾

أ. الكلمة تطلق على الجملة كما تطلق على المفرد ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ﴾ الآية [آل عمران: ٦٤] وقد استعملت كثيرا في القرآن الكريم فيما قاله الله وحكم به كقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقوله: ﴿كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٣٣]، وقوله: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ١٩] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة جدا.

ب. ومن المعلوم أنه تعالى لا يتكلم بشق الفم وإنما قوله فعله وما يفيضه من وجود كما قال: ﴿إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] وإنما تسمى كلمة لكونها آية دالة عليه تعالى ومن هنا سمي المسيح كلمة في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ﴾ [النساء: ١٧١]

ج. ومن هنا يظهر أنه ما من عين يوجد أو واقعة تقع إلا وهي من حيث كونها آية دالة عليه كلمة منه إلا أنها خصت في عرف القرآن بما دلالته ظاهرة لا خفاء فيها ولا بطلان ولا تغير كما قال: ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ [ص: ٨٤] وقال: ﴿ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق: ٢٩] وذلك كالمسيح عليه السلام وموارد القضاء المحتوم.

د. ومن هنا يظهر أن حمل الكلمات في الآية على معلوماته أو مقدوراته تعالى أو مواعده لأهل الثواب والعقاب إلى غير ذلك مما ذكره المفسرون غير سديد.

هـ. فقوله: ﴿قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي﴾ أي فرقمت الكلمات وأثبتت من حيث دلالتها بذاك البحر المأخوذ مدادا لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي.

٣. ﴿وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾:

أ. أي ولو أمددناه ببحر آخر لنفد أيضا قبل أن تنفد كلمات ربي.

ب. وذكر بعضهم: (أن المراد بمثله جنس المثل لا مثل واحد، وذلك لأن المثل كلما أضيف إلى

الأصل لم يخرج عن التناهي، وكلماته يعني معلوماته غير متناهية والمتناهي لا يضبط غير المتناهي)

ج. وما ذكره حق لكن لا لحديث التناهي واللاتناهي وإن كانت الكلمات غير متناهية بل لأن الحقائق المدلول عليها والكلمات من حيث دلالتها غالبة على المقادير كيف؟ وكل ذرة من ذرأت البحر وإن فرض ما فرض لا تفي بثبت دلالة نفسها في مدى وجودها على ما تدل عليه من جماله وجلاله تعالى فكيف إذا أضيف إليها غيرها؟

د. وفي تكرار ﴿الْبَحْرُ﴾ في الآية بلفظه وكذا ﴿رَبِّي﴾ وضع الظاهر موضع المضمر والنكتة فيه التثبيت والتأكيد وكذا في تخصيص الرب بالذكر وإضافته إلى ضمير المتكلم مع ما فيه من تشريف المضاف إليه.

٤. أحاديث وآثار: في تفسير القمي، بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام: في الآية قال: أخبرك أن كلام الله ليس له آخر ولا غاية ولا ينقطع أبدا.

• أقول: في تفسيره الكلمات بالكلام تأييد لما قدمناه.

٥٤. محمد بشر يُوحى إليه:

المقطع [٥٤] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٤٠٥»:

١. ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ واحِدٌ﴾:

أ. القصر الأول قصره ﷺ في البشرية المماثلة لبشرية الناس لا يزيد عليهم بشيء ولا يدعيه لنفسه قبال ما كانوا يزعمون أنه إذا ادعى النبوة فقد ادعى كينونة إلهية وقدرة غيبية ولذا كانوا يقترحون عليه بما لا يعلمه إلا الله ولا يقدر عليه إلا الله لكنه ﷺ نفى ذلك كله بأمر الله عن نفسه ولم يثبت لنفسه إلا أنه يوحى إليه.

ب. والقصر الثاني قصر الإله الذي هو إلههم في إله واحد وهو التوحيد الناطق بأن إله الكل إله واحد.

٢. ﴿فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ﴾:

أ. مشتمل على إجمال الدعوة الدينية وهو العمل الصالح لوجه الله وحده لا شريك له وقد فرعه على رجاء لقاء الرب تعالى وهو الرجوع إليه إذ لولا الحساب والجزاء لم يكن للأخذ بالدين والتلبس بالاعتقاد والعمل موجب يدعو إليه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ﴾ [ص: ٢٦]

ب. وقد رتب على الاعتقاد بالمعاد العمل الصالح وعدم الإشراك بعبادة الرب لأن الاعتقاد بالوحدانية مع الإشراك في العمل متناقضان لا يجتمعان فالإله تعالى لو كان واحدا فهو واحد في جميع صفاته ومنها المعبودية لا شريك له فيها.

ج. وقد رتب الأخذ بالدين على رجاء المعاد دون القطع به لأن احتماله كاف في وجوب التحذر منه لوجوب دفع الضرر المحتمل، وربما قيل: إن المراد باللقاء لقاء الكرامة وهو مرجو لا مقطوع به.

د. وقد فرع رجاء لقاء الله على قوله: ﴿أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ﴾ لأن رجوع العباد إلى الله سبحانه من تمام معنى الألوهية فله تعالى كل كمال مطلوب وكل وصف جميل ومنها فعل الحق والحكم بالعدل وهما يقتضيان رجوع عباده إليه والقضاء بينهم قال تعالى: ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]

٣. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن مندة وأبو نعيم في الصحابة، وابن عساكر من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدق، فذكر بخير ارتاح له، فزاد في ذلك لمقالة الناس فلامه الله فنزل في ذلك ﴿فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً، وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾

• أقول: وورد نحو منه في عدة روايات أخر من غير ذكر الاسم وينبغي أن يحمل على انطباق الآية على المورد فمن المستبعد أن ينزل خاتمة سورة من السور لسبب خاص بنفسها.

ب. وفيه، عن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في الآية قال النبي ﷺ: إن ربكم يقول: أنا خير شريك، فمن أشرك معي في عمله أحدا من خلقي، تركت العمل كله له، ولم أقبل إلا ما كان لي خالصا، ثم قرأ النبي

ﷺ: ﴿فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً، وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾

ج. وفي تفسير العياشي، عن علي بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال الله تبارك وتعالى: أنا خير شريك، من أشرك بي في عمله لم أقبله إلا ما كان لي خالصا.

د. قال العياشي: وفي رواية أخرى عنه عليه السلام قال: إن الله يقول: أنا خير شريك، من عمل لي ولغيري فهو لمن عمل له دوني.

هـ. أخرج أحمد وابن أبي الدنيا وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي عن شداد بن أوس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من صلى يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدق يرائي فقد أشرك، ثم قرأ ﴿فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ﴾ الآية.

و. وفي تفسير العياشي، عن زرارة وحمران عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام قالا: لو أن عبدا عمل عملا يطلب به رحمة الله والدار الآخرة، ثم أدخل فيه رضا أحد من الناس كان مشركا.

• أقول: والروايات في هذا الباب من طرق الشيعة وأهل السنة فوق حد الإحصاء والمراد بالشرك فيها الشرك الخفي غير المنافي لأصل الإيمان بل لكماله قال تعالى: ﴿وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] فالآية تشمله بباطنها لا بتنزيلها.

ز. أخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي حكيم قال: قال رسول الله ﷺ: لو لم ينزل على أمتي إلا خاتمة سورة الكهف لكفتهم.

• أقول: تقدم وجهه في البيان السابق.

سورة مريم

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٣٤] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. غرض السورة على ما ينبئ عنه قوله تعالى في آخرها: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً﴾ إلخ، هو التبشير والإنذار، غير أنه ساق الكلام في ذلك سوقاً بديعاً:

• فأشار أولاً إلى قصة زكريا ويحيى، وقصة مريم وعيسى، وقصة إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وقصة موسى وهارون، وقصة إسماعيل، وقصة إدريس، وما خصهم به من نعمة الولاية كالنبوة والصدق والإخلاص.

• ثم ذكر أن هؤلاء الذين أنعم عليهم كان المعروف من حالهم الخضوع والخشوع لربهم، لكن أخلافهم أعرضوا عن ذلك وأهملوا أمر التوجه إلى ربهم واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غياً ويضل عنهم الرشد، إلا أن يتوب منهم تائب ويرجع إلى ربه، فإنه يلحق بأهل النعمة.

ب. ثم ذكر نبذة من هفوات أهل الغي وتحكماتهم: كنفي المعاد، وقولهم: ﴿اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً﴾، وعبادتهم الأصنام، وما يلحقهم بذلك من النكال والعذاب.

ج. فالبيان في السورة أشبه شيء ببيان المدعى بإيراد أمثلته، كأنه قيل: إن فلاناً وفلاناً وفلاناً الذين كانوا أهل الرشد والموهبة، كانت طريقتهم الانقلاع عن شهوات النفس والتوجه إلى ربهم، وسبيلهم الخضوع والخشوع إذا ذكروا بآيات ربهم، فهذا طريق الإنسان إلى الرشد والنعمة، لكن أخلافهم تركوا هذا الطريق بالإعراض عن صالح العمل، والإقبال على مذموم الشهوة، ولا يؤديهم ذلك إلا إلى الغي خلاف الرشد، ولا يقرهم إلا على باطل القول كنفي الرجوع إلى الله وإثبات الشركاء لله وسد طريق الدعوة، ولا يهديهم إلا إلى النكال والعذاب.

د. فالسورة كما ترى تفتتح بذكر أمثلة، ثم تعقبها باستخراج المعنى الكلي المطلوب بيانه، وذلك قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآيات.

هـ. فالسورة تقسم الناس إلى ثلاث طوائف: الذين أنعم الله عليهم من النبيين وأهل الاجتباء

والهدى، وأهل الغي، والذين تابوا وآمنوا وعملوا صالحاً وهم ملحقون بأهل النعمة والرشد، ثم تذكر ثواب التائبين المسترشدين وعذاب الغاوين وهم قرناء الشياطين وأولياؤهم.

و. والسورة مكية بلا ريب، تدل على ذلك مضامين آياتها، وقد نقل على ذلك اتفاق المفسرين.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٥] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر قصة زكريا ودعائه ربه طلباً للولد، واستجابة الله له بغلام اسمه يحيى، وإيتاءه الحكم صبياً، ووصاياه بالكتاب والصلاة والزكاة والبر.

٢. الآيات [١٦ ـ ٤٠]:

أ. انتقال من قصة يحيى إلى قصة عيسى عليه السلام، وبين القصتين شبه تام:

- فولادتهما على خرق العادة.
- وقد أوتي عيسى الرشد والنبوة وهو صبي كيحيى.
- وقد أخبر أنه بر بوالدته وليس بجبار شقي، وأن السلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً، كما أخبر الله عن يحيى عليه السلام بذلك.

ب. إلى غير ذلك من وجوه الشبه، وقد صدق يحيى بعيسى وآمن به.

٣. الآيات [٤١ ـ ٥٠]:

أ. تشير الآيات إلى نبذة من قصة إبراهيم عليه السلام، وهي محاجته أباه في أمر الأصنام بما آتاه الله من الهدى الفطري والمعرفة اليقينية.

ب. واعتزاله إياه وقومه وآلهتهم، فوهب الله له إسحاق ويعقوب، وخصه بكلمة باقية في عقبه، وجعل له ولأعقابه ذكراً جميلاً باقياً مدى الدهر.

٤. الآيات [٥١ ـ ٥٧] ذكر جمع آخرين من الأنبياء وشيء من موهبة الرحمة التي خصهم الله بها، وهم موسى وهارون وإسماعيل وإدريس عليه السلام.

٥. الآيات [٥٨ ـ ٦٣]:

أ. قد تقدم في الكلام على غرض السورة أن الذي يستفاد من سياقها بيان أن عبادته تعالى ـ وهو دين التوحيد ـ هو دين أهل السعادة والرشد من الأنبياء والأولياء، وأن التخلف عن سبيلهم بإضاعة

الصلاة واتباع الشهوات اتباع سبيل الغي، إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً.

ب. فالآيات وخاصة الثلاث الأول منها تتضمن حاق غرض السورة، وقد أوردته في صورة الاستنباط من القصص المسرودة فيما تقدم من الآيات، وهذا مما تمتاز به هذه السورة من سائر سور القرآن الطوال، فإنما يشار في سائر السور إلى أغراضها بالتلويح في مفتتح السورة ومختتمها ببراعة الاستهلال وحسن الختام لا في وسطها.

٦. الآيات [٦٤ ـ ٦٥] الآيتان معترضتان بين آيات السورة وسياقهما:

أ. يشهد بأنهما من كلام ملك الوحي بوحي قرآني من الله سبحانه، فإن النظم نظم قرآني بلا ريب، وبذلك يتأيد ما ورد بطرق مختلفة من طرق أهل السنة ورواه في مجمع البيان أيضاً عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ استبطأ نزول جبريل، فسأله عن ذلك فأجابه بوحي من الله تعالى: ﴿وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآيتين.

ب. وقد تكلف جمع في بيان اتصال الآيتين بالآيات السابقة:

• فقال بعضهم: إن التقدير: هذا وقال جبريل: وما نتنزل إلا بأمر ربك.

• وقال آخرون: إنهما متصلتان بقول جبريل لمريم المنقول سابقاً: ﴿إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا﴾ الآية.

• وذكر قوم أن قوله: ﴿وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ من كلام المتقين حين يدخلون الجنة، فالتقدير: وقال المتقون وما نتنزل الجنة إلا بأمر ربك، وقيل غير ذلك.

• وهي جميعاً وجوه ظاهرة السخافة يأباها السياق ولا يقبلها النظم البليغ، لا حاجة إلى الاشتغال ببيان وجوه فسادها، وسيأتي في ذيل البحث في الآية الثانية وجه آخر للاتصال.

٧. الآيات [٦٦ ـ ٧٢]:

أ. عود إلى ما قبل قوله: ﴿وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الآيتين، ومضى في الحديث السابق، وهو كالتذنيب لقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ بذكر بعض ما تفوهوا به عن غيهم، وقد خص بالذكر قول لهم في المعاد وآخر في النبوة وآخر في المبدإ.

ب. ففي هذه الآيات أعني قوله: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسانُ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا﴾ وهي

سبع آيات، ذكر استبعادهم للبعث والجواب عنه، وذكر الإشارة إلى ما لقولهم هذا من التبعة والوبال.

٨. الآيات [٧٣ ـ ٨٠]:

أ. هذا هو الفصل الثاني من كلماتهم المنقولة عنهم، وهو ردهم الدعوة النبوية بأنها لا تنفع في حسن حال المؤمنين بها شيئاً، ولو كانت حقة لجلبت إليهم زهرة الحياة الدنيا التي فيها سعادة العيش من أبنية رفيعة وأمتعة نفيسة وجمال وزينة.

ب. فالذي هم عليه من الكفر وقد جلب لهم خير الدنيا خير مما عليه المؤمنون، وقد غشيهم رثاثة الحال وفقد المال وعسرة العيش، فكفرهم هو الحق الذي ينبغي أن يؤثر دون الإيمان الذي عليه المؤمنون.

ج. وقد أجاب الله عن قولهم بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنا﴾ إلخ، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ﴾ إلخ، ثم عقب ذلك ببيان حال بعض من اغتر بقولهم.

٩. الآيات [٨١ ـ ٩٦] هذا هو الفصل الثالث مما نقل عنهم، وهو شركهم بالله باتخاذ الآلهة وقولهم: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً﴾ سبحانه، والجواب عن ذلك.

١٠. الآيات [٩٧ ـ ٩٨]:

أ. الآيتان ختام السورة، يذكر سبحانه فيهما تنزيل حقيقة القرآن ـ وهي أعلى من أن تنالها أيدي الأفهام العادية أو يمسه غير المطهرين ـ إلى مرتبة الذكر بلسان النبي ﷺ.

ب. ويذكر أن الغاية من هذا التيسير أن يبشر به المتقين من عباده، وينذر به قوماً لُدّاً خصماء، ثم لخص إنذارهم بتذكير هلاك من هلك من القرون السابقة عليهم.

١. دعاء زكريا الخفي والبشارة بيحيى:

المقطع [١] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كهيعص ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ١ـ٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٧»:

١. ﴿كهيعص﴾:

أ. قد تقدم في تفسير أول سورة الأعراف أن السور القرآنية المصدرة بالحروف المقطعة لا تخلو من ارتباط بين مضامينها وبين تلك الحروف فالحروف المشتركة تكشف عن مضامين مشتركة.

ب. ويؤيد ذلك ما نجده من المناسبة والمجانسة بين هذه السورة وسورة ص في سرد قصص الأنبياء، وسيوافيك بحث جامع إن شاء الله في روابط مقطعات الحروف ومضامين السور التي صدرت بها، وكذا ما بين السور المشتركة في بعض هذه الحروف كهذه السورة وسورة يس وقد اشتركتا في الياء، وهذه السورة وسورة الشورى وقد اشتركتا في العين.

٢. ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ ظاهر السياق أن الذكر خبر لمبتدء محذوف والمصدر بمعنى المفعول، والمال بحسب التقدير: هذا خبر رحمة ربك المذكور، والمراد بالرحمة استجابته سبحانه دعاء زكريا على التفصيل الذي قصة بدليل قوله تلوا: ﴿إِذْ نادى رَبَّهُ﴾

٣. ﴿إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا﴾:

أ. الظرف متعلق بقوله: ﴿رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ والنداء والمناداة الجهر بالدعوة خلاف المناجاة، ولا ينافيه توصيفه بالخفاء لإمكان الجهر بالدعوة في خلاء من الناس لا يسمعون معه الدعوة، ويشعر بذلك قوله الآتي: ﴿فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ﴾

ب. وقيل: إن العناية في التعبير بالنداء أنه تصور نفسه بعيدا منه تعالى بذنوبه وأحواله السيئة كما يكون حال من يخاف عذابه.

٤. ﴿قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ تمهيد لما سيسأله وهو قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ وقد قدم قوله: ﴿رَبِّ﴾ للاسترحام في مفتتح الدعاء، والتأكيد بإن للدلالة على تحققه بالحاجة، والوهن هو الضعف ونقصان القوة وقد نسبه إلى العظم لأنه الدعامة التي يعتمد عليها البدن في حركته وسكونه، ولم يقل: العظام مني ولا عظمي للدلالة على الجنس وليأتي بالتفصيل بعد الإجمال.

٥. ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾ الاشتعال انتشار شواظ النار ولهيبها في الشيء المحترق قال في المجمع: (وقوله: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾ من أحسن الاستعارات والمعنى اشتعل الشيب في الرأس وانتشر، كما ينتشر شعاع النار، وكان المراد بالشعاع الشواظ واللهيب.

٦. ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾:

أ. الشقاوة خلاف السعادة، وكان المراد بها الحرمان من الخير وهو لازم الشقاوة أو هو هي، وقوله: ﴿بِدُعائِكَ﴾ متعلق بالشقي والباء فيه للسببية أو بمعنى في والمعنى وكنت سعيدا بسبب دعائي إياك كلما دعوتك استجبت لي من غير أن تشقيني وتحرمني، أو لم أكن محروما خائبا في دعائي إياك عودتني الإجابة إذا دعوتك والتقبل إذا سألتك، والدعاء على أي حال مصدر مضاف إلى المفعول.

ب. وقيل: إن ﴿بِدُعائِكَ﴾ مصدر مضاف إلى الفاعل، والمعنى لم أكن بدعوتك إياي إلى العبودية والطاعة شقيا متمردا غير مطيع بل عابدا لك مخلصا في طاعتك والمعنى الأول أظهر.

ج. وفي تكرار قوله: ﴿رَبِّ﴾ ووضعه متخللا بين اسم كان وخبره في قوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ من البلاغة ما لا يقدر بقدر، ونظيره قوله: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾

٧. ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً﴾ تتمة التمهيد الذي قدمه لدعائه، والمراد بالموالي العمومة وبنو العم، وقيل: الكلالة وقيل: العصبة، وقيل: بنو العم فحسب، وقيل: الورثة، وكيف كان فهم غير الأولاد من صلب والمراد خفت فعل الموالي من ورائي أي بعد موتي وكان عليه السلام يخاف أن يموت بلا عقب من نسله فيرثوه، وهو كناية عن خوفه أن يموت بلا عقب.

٨. ﴿وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً﴾:

أ. العاقر المرأة التي لا تلد يقال: امرأة عاقر لا تلد ورجل عاقر لا يولد له ولد، وفي التعبير بقوله: ﴿وَكانَتِ امْرَأَتِي﴾ دلالة على أن امرأته على كونها عاقرا جازت حين الدعاء سن الولادة.

ب. وظاهر عدم تكرار أن في قوله: ﴿وَكانَتِ امْرَأَتِي﴾ أن الجملة حالية ومجموع الكلام أعني قوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ﴾ إلى قوله: ﴿عاقِراً﴾ فصل واحد أريد به أن كون امرأتي عاقرا اقتضى أن أخاف الموالي من ورائي وبعد وفاتي، فمجموع ما مهده للدعاء يئول إلى فصلين أحدهما أن الله سبحانه عوده الاستجابة مدى عمره حتى شاخ وهرم والآخر أنه خاف الموالي بعد موته من جهة عقر امرأته، ويمكن تصوير الكلام فصولا ثلاثة بأخذ كل من شيخوخته وعقر امرأته فصلا مستقلا.

٩. ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ لأهمية ما أورده في تفسير الآية الكريمة، ولعلاقتها بالكثير من المباحث، فقد وضعنا ما ذكره في تفسيرها المفصل ضمن الجزء الخاص بالبحوث التفسيرية، وقد عنوناه بـ [تحقيق معنى قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي﴾

وبيان المراد بالوراثة في دعاء زكريا عليه السلام]، خلاصته:

أ. بيان أن دعاء زكريا عليه السلام كان طلباً للولد الصالح، بدليل قوله في سورة آل عمران: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾، وأن قوله: ﴿يَرِثُنِي﴾ قرينة على أن المراد بالولي هو الولد.

ب. إثبات أن المراد بالوراثة في الآية هو وراثة المال، لا وراثة النبوة أو العلم أو الكرامة، لأن الوراثة المالية هي المتبادرة من اللفظ وهي التي تصلح لتكون قرينة على إرادة الولد.

ج. توضيح أن طلب الولد والاهتمام بالإرث ليس دليلاً على التعلق بالدنيا، بل هو من الفطرة الإنسانية التي أقرتها الشرائع، وقد ورد في القرآن طلب الأولاد من الأنبياء كإبراهيم وغيره.

د. الرد على من زعم أن زكريا طلب ولداً ليرث النبوة أو العلم، وبيان أن النبوة لا تورث، وأن ذلك لا يلائم سياق الدعاء ودواعيه.

هـ. بيان أن الداعي لزكريا إلى طلب الولد هو ما شاهده من كرامة مريم عند الله، فأحب أن يرزق ولداً مثلها في العبادة والكرامة، لا مجرد مشاهدة الثمرة في غير موسمها.

و. الرد على القول بأن الإرث المالي لا يليق بمقام الأنبياء، وبيان أن الأنبياء بشر لهم أموال ويورثونها، كما ورد في قصة داود وسليمان وغيرهما.

١٠. ﴿يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾:

أ. في الكلام حذف إيجازا، والتقدير: (فاستجبنا له وناديناه يا زكريا إنا نبشرك)

ب. وقد ورد في سورة الأنبياء في القصة: ﴿فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وفي سورة آل عمران: ﴿فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى﴾ [آل عمران: ٣٩]

ج. وتشهد آية آل عمران على أن قوله: ﴿يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ إلخ، كان وحيا بتوسط الملائكة فهو قوله تعالى أدته الملائكة إلى زكريا، وذلك في قوله ثانيا: ﴿قالَ كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ إلخ، أظهر.

د. وفي الآية دلالة على أن الله سبحانه هو الذي سماه يحيى، وهو قوله: ﴿اسْمُهُ يَحْيى﴾ وأنه لم يسم بهذا الاسم قبله أحد، وهو قوله: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي شريكا في الاسم.

هـ. وليس من البعيد أن يراد بالسمي المثل على حد ما سيأتي من قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾: [الآية: ٦٥] من السورة ويشهد عليه أن الله سبحانه نعته في كلامه بنعوت لم

ينعت به أحدا من أنبيائه وأوليائه قبله كقوله فيما سيأتي: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ وقوله: ﴿وَسَيِّداً وَحَصُوراً﴾ [آل عمران: ٣٩]، وقوله: ﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾، والمسيح عليه السلام وإن شاركه في هذه النعوت وهما ابنا الخالة لكن ولادته بعد ولادة يحيى عليه السلام.

١١. وضع هنا مبحثا حول [قصة زكريا عليه السلام]، خلاصته:

أ. وصف الله زكريا عليه السلام في القرآن بالنبوة والوحي، ووصفه في أول سورة مريم بالعبودية، وذكره في سورة الأنعام في عداد الأنبياء والصالحين والمجتبين ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ والمهديين.

ب. لم يذكر من أخباره في القرآن إلا دعاؤه لطلب الولد واستجابته، وذلك بعدما رأى من أمر مريم في عبادتها وكرامتها عند الله ما رأى.

ج. تكفل زكريا مريم بعد وفاة أبيها عمران، وكان يدخل عليها المحراب فيجد عندها رزقاً من عند الله، فعند ذلك دعا ربه أن يهب له ذرية طيبة، وكان شيخاً فانياً وامرأته عاقراً.

د. استجيب له، ونادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب يبشرونه بيحيى، فسأل آية، فقيل له: آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً، وكان كذلك، وأصلح الله له زوجه فولدت يحيى.

هـ. لم يذكر القرآن مآل أمره، لكن وردت أخبار متكاثرة من طرق العامة والخاصة أن قومه قتلوه، وذلك أنه هرب منهم والتجأ إلى شجرة فانفرجت له، فدخل جوفها، فدلهم الشيطان عليه، فنشروا الشجرة بالمنشار فقتلوه، وسبب قتله أنهم اتهموه في أمر مريم وحبلها بالمسيح، وقيل غير ذلك.

١٢. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام: أنه قال في دعائه: أسألك يا كهيعص.

ب. وفي المعاني، بإسناده عن سفيان بن سعيد الثوري عن الصادق عليه السلام في حديث قال: وكهيعص معناه أنا الكافي الهادي، الولي العالم الصادق الوعد.

• أقول: وروى فيه أيضا ما يقرب منه عن محمد بن عمارة عنه عليه السلام، وروى في الدر المنثور، عن ابن عباس في قوله: ﴿كهيعص﴾ قال: كبير هاد، أمين عزيز صادق، وفي لفظ، كاف بدل كبير، وروى عنه أيضا بطرق أخر: كريم هاد حكيم عليم صادق وروي عن ابن مسعود وغيره ذلك، ومحصل الروايات، كما ترى، أن الحروف المقطعة مأخوذة من أوائل الأسماء الحسنى على اختلافها كالكاف من الكافي أو الكبير

أو الكريم وهكذا غير أنه لا يتم في الياء فقد أخذ في الروايات من الولي أو الحكيم أو العزيز كما في بعضها، وروي فيه، عن أم هانئ عن رسول الله ﷺ: أن معناها كاف هاد عالم صادق، وقد أهمل في الحديث حرف الياء، وقد تقدم في بيان الآية بعض الإشارة.

ج. وفي تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ يقول: لم يكن دعائي خائبا عندك.

د. وفي المجمع في قوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ﴾ قيل: هم العمومة وبنو العم عن أبي جعفر عليه السلام، وقرأ علي بن الحسين ومحمد بن علي الباقر عليه السلام: ﴿وَإِنِّي خِفَّتُ الْمَوالِيَ﴾ بفتح الخاء وتشديد الفاء وكسر التاء.

• أقول: وبه قرأ جمع من الصحابة والتابعين.

هـ. وفي الإحتجاج، روى عبد الله بن الحسن بإسناده عن آبائه عليهم‌السلام: أنه لما أجمع أبو بكر على منع فاطمة فدك، وبلغها ذلك جاءت إليه وقالت له: يا ابن أبي قحافة أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئا فريا، أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم؟ إذ يقول فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ الحديث.

• أقول: مضمون الرواية مروي بطرق من الشيعة وغيرهم، واستدلالها عليه السلام مبني على كون المراد بالوراثة في الآية وراثة المال، وقد تقدم الكلام في ذلك في بيان الآية، وقد ورد من طرق أهل السنة بعض ما يدل على ذلك ففي الدر المنثور، عن عدة من أصحاب الجوامع عن الحسن أن رسول الله ﷺ قال: يرحم الله أخي زكريا ما كان عليه من ورثة، ويرحم الله أخي لوطا، إن كان يأوي إلى ركن شديد، وروي فيه، أيضا عن الفاريابي عن ابن عباس قال": كان زكريا لا يولد له فسأل ربه فقال: (رب هب ﴿لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾)، قال: يرثني مالي ويرث من آل يعقوب النبوة.

• وقال في روح المعاني: (مذهب أهل السنة أن الأنبياء عليهم‌السلام لا يرثون مالا، ولا يورثون لما صح عندهم من الأخبار، وقد جاء أيضا ذلك من طريق الشيعة فقد روى الكليني في الكافي، عن أبي البختري عن أبي عبد الله جعفر الصادق أنه قال: إن العلماء ورثة الأنبياء، وذلك أن الأنبياء لم يورثوا درهما ولا دينارا، وإنما ورثوا أحاديث من أحاديثهم، فمن أخذ بشيء منها فقد أخذ بحظ وافر، وكلمة إنما مفيدة

للحصر قطعا باعتراف الشيعة، والوراثة في الآية محمولة على ما سمعت، ولا نسلم كونها حقيقة لغوية في وراثة المال بل هي حقيقة فيما يعم وراثة العلم والمنصب والمال، وإنما صارت لغلبة الاستعمال في عرف الفقهاء مختصة بالمال كالمنقولات العرفية، ولو سلمنا أنها مجاز في ذلك فهو مجاز متعارف مشهور خصوصا في استعمال القرآن المجيد بحيث يساوي الحقيقة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا﴾، وقوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتابَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ للهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾ ﴿وَللهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ قولهم: لا داعي إلى الصرف عن الحقيقة، قلنا: الداعي متحقق وهي صيانة قول المعصوم عن الكذب ودون تأويله خرط القتاد، والآثار الدالة على أنهم يورثون المال لا يعول عليها عند النقاد، وزعم البعض أنه لا يجوز حمل الوراثة هنا على وراثة النبوة لئلا يلغو قوله: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ قد قدمنا ما يعلم منه ما فيه، وزعم أن كسبية الشيء تمنع من كونه موروثا ليس بشيء فقد تعلقت الوراثة بما ليس بكسبي في كلام الصادق، ومن ذلك أيضا ما رواه الكليني في الكافي، عن أبي عبد الله قال: إن سليمان ورث داود، وإن محمدا ﷺ ورث سليمان عليه السلام، فإن وراثة النبي سليمان لا يتصور، أن تكون وراثة غير العلم والنبوة ونحوهما)

● وللبحث جهة كلامية ترجع إلى أمر فدك وهي من قرى خيبر وقد كانت في يد فاطمة بنت رسول الله ﷺ فانتزعها من يدها الخليفة الأول استنادا إلى حديث رواها عن النبي ﷺ: أن الأنبياء لا يورثون مالا، وما تركوه صدقة، وقد طالت المشاجرة فيه بين متكلمي الشيعة وأهل السنة وهو نوع بحث خارج عن غرض هذا الكتاب فلا نتعرض له، وجهة تفسيرية يهمنا التعرض لها لتعلقها بمدلول قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾

● أما قوله: وقد جاء ذلك أيضا من طريق الشيعة، فالرواية في ذلك غير منحصرة فيما نقله عن الصادق عليه السلام بل روي ما في مضمونها عن النبي ﷺ أيضا من طريقهم، ومعناه، على ما يسبق إلى ذهن كل سامع، أن الأنبياء ليس من شأنهم أن يهتموا بجمع المال وتركه لمن خلفهم من الورثة وإنما الذي من شأنهم أن يتركوا لمن خلفهم الحكمة، وهذا معنى سائغ واستعمال شائع لا سبيل إلى دفعه.

● وأما قوله: ولا نسلم كونها حقيقة لغوية في وراثة المال إلى آخر ما ذكره فليس الكلام في كونه حقيقة لغوية في شيء أو مجازا مشهورا أو غير مشهور ولا إصرار على شيء من ذلك، وإنما الكلام في أن الوراثة سواء كانت حقيقة في وراثة المال مجازا في مثل العلم والحكمة أو حقيقة مشتركة بين ما يتعلق بالمال وما يتعلق بمثل العلم والحكمة تحتاج في إرادة وراثة العلم والحكمة إلى قرينة صارفة أو معينة وسياق الآية وسائر آيات القصة في سورتي آل عمران والأنبياء والقرائن الحافة بها تأبى إرادة وراثة العلم ونحوه من لفظة يرثني فضلا أن يصرف عنها أو يعينها على ما قدمنا توضيحه في بيان الآية.

● نعم لا يصح تعلق الوراثة بالنبوة على ما يتحصل من تعليم القرآن أنها موهبة إلهية لا تقبل الانتقال والتحول، ولا ريب أن الترك والانتقال مأخوذ في مفهوم الوراثة كوراثة المال والملك والمنصب والعلم ونحو ذلك ولذا لم يرد استعمال الوراثة في النبوة والرسالة في كتاب ولا سنة.

● وأما قوله: (قلنا الداعي متحقق وهي صيانة قول المعصوم عن الكذب) ففيه اعتراف بأن لا قرينة على إرادة غير المال من لفظة يرثني من جهة سياق الآيات بل الأمر بالعكس وإنما اضطرهم إلى الحمل المذكور حفظ ظاهر الحديث لصحته عندهم وفيه أنه لا معنى لتوقف كلامه تعالى في الدلالة الاستعمالية على قرينة منفصلة وخاصة من غير كلامه تعالى وخاصة مع احتفاف الكلام بقرائن مخالفة، وهذا غير تخصيص روايات الأحكام وتقييدها لعمومات آيات الأحكام ومطلقاتها، فإن ذلك تصرف في محصل المراد من الخطاب لا في دلالة اللفظ بحسب الاستعمال.

● على أنه لا معنى لحجية أخبار الآحاد في غير الأحكام الشرعية التي ينحصر فيها الجعل التشريعي لا سيما مع مخالفة الكتاب وهذه كلها أمور مبينة في علم الأصول.

● وأما قوله: (قد قدمنا ما يعلم منه ما فيه) يشير إلى أخذ قوله: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ تأكيدا لقوله: ﴿وَلِيًّا يَرِثُنِي﴾ أي في النبوة أو أخذ قوله: ﴿رَضِيًّا﴾، بمعنى المرضي عند الناس دفعا للغو الكلام وقد قدمنا في بيان الآية ما يعلم منه ما فيه.

٢. آية الله في خلق يحيى والأمر بالتسبيح:

المقطع [٢] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٨-١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٧»:

١. ﴿قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾:

أ. قال الراغب: (الغلام الطار الشارب يقال: غلام بين الغلومة والغلومية، قال تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ﴾، قال: واغتلم الغلام: إذا بلغ حد الغلمة)

ب. وقال في المجمع: (العتي والعسي بمعنى يقال: عتا يعتو عتوا وعتيا وعسا يعسو عسوا وعسيا فهو عات وعاس إذا غيره طول الزمان إلى حال اليبس والجفاف)، وبلوغ العتي كناية عن بطلان شهوة النكاح وانقطاع سبيل الإيلاد.

ج. واستفهامه عليه السلام عن كون الغلام مع عقر امرأته وبلوغه العتي مع ذكره الأمرين في ضمن دعائه إذ قال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾، مبني على استعجاب البشرى واستفسار خصوصياتها دون الاستبعاد والإنكار فإن من بشر بما لا يتوقعه لتوفر الموانع وفقدان الأسباب تضطرب نفسه بادئ ما يسمعها فيأخذ في السؤال عن خصوصيات ما بشر به ليطمئن قلبه ويسكن اضطراب نفسه وهو مع ذلك على يقين من صدق ما بشر به فإن الخطورات النفسانية ربما لا تنقطع مع وجود العلم والإيمان وقد تقدم نظيره في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى قالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلى وَلكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]

٢. ﴿قالَ كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾ جواب عما استفهمه واستفسره لتطيب به نفسه، ويسكن جأشه، وضمير قال راجع إليه تعالى، وقوله: ﴿كَذلِكَ﴾ مقول القول وهو خبر مبتدإ محذوف والتقدير (هو كذلك) أي الأمر واقع على ما أخبرناك به في البشرى لا ريب فيه.

٣. ﴿قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾:

أ. مقول ثان لقال الأول، وهو بمنزلة التعليل لقوله: ﴿كَذلِكَ﴾ يرتفع به أي استعجاب فلا يتخلف عن إرادته مراد وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن، فخلق غلام من رجل بالغ في الكبر وامرأة عاقر هين سهل عليه.

ب. وقد وقع التعبير عن هذا الاستفهام والجواب في سرد القصة من سورة آل عمران بقوله: ﴿قالَ

رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عاقِرٌ قالَ كَذلِكَ اللهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠]، فقوله: ﴿قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ هاهنا يحاذي قوله هناك: ﴿اللهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ﴾ وهو يؤيد ما قدمناه من المعنى، وقوله هاهنا: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾ بيان لبعض مصاديق الخلق الذي يرفع به الاستعجاب.

ج. وفي الآية وجوه أخر تعرضوا لها: منها أن قوله: ﴿كَذلِكَ﴾ متعلق بقال الثاني ومجموع الجملة هو الجواب والمراد أمر ربك بذلك وقضى كذلك، وقوله: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ مقول آخر للقول أو أنه جيء به على سبيل الحكاية.

د. ومنها أن الخطاب في قوله: ﴿قالَ رَبُّكَ﴾ للنبي ﷺ لا لزكريا عليه السلام وتلك وجوه لا يساعد عليها السياق.

٤. ﴿قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا﴾:

أ. قد تقدم في القصة من سورة آل عمران أن إلقاء البشرى إلى زكريا كان بتوسط الملائكة ﴿فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى﴾، وهو عليه السلام إنما سأل الآية ليتميز به الحق من الباطل فتدله على أن ما سمعه من النداء وحي ملكي لا إلقاء شيطاني ولذلك أجيب بآية إلهية لا سبيل للشيطان إليها وهو أن لا ينطلق لسانه ثلاثة أيام إلا بذكر الله سبحانه فإن الأنبياء معصومون بعصمة إلهية ليس للشيطان أن يتصرف في نفوسهم.

ب. فقوله: ﴿قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ سؤال لآية مميزة، وقوله: ﴿قالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا﴾ إجابة ما سأل، وهو أن يعتقل لسانه ثلاثة أيام من غير ذكر الله وهو سوي أي صحيح سليم من غير مرض وآفة.

ج. فالمراد بعدم تكليم الناس عدم القدرة على تكليمهم، من قبيل إطلاق اللازم وإرادة الملزوم كناية، والمراد بثلاث ليال ثلاث ليال بأيامها وهو شائع في الاستعمال فكان عليه السلام يذكر الله بفنون الذكر ولا يقدر على تكليم الناس إلا رمزا وإشارة، والدليل على ذلك كله قوله تعالى في القصة من سورة آل عمران: ﴿قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ﴾ [آل عمران: ٤١]

٥. ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قال في المجمع: (وسمي المحراب محرابا لأن المتوجه إليه في صلاته كالمحارب للشيطان على صلاته، والأصل فيه مجلس الأشراف الذي يحارب دونه ذبا عن أهله، وقال: الإيحاء إلقاء المعنى إلى النفس في خفية بسرعة، وأصله من قولهم: الوحي الوحي أي الإسراع الإسراع) ومعنى الآية ظاهر.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن زكريا لما دعا ربه أن يهب له ذكرا، فنادته الملائكة بما نادته به أحب أن يعلم، أن ذلك الصوت من الله أوحى إليه، أن آية ذلك أن يمسك لسانه عن الكلام ثلاثة أيام، قال: لما أمسك لسانه ولم يتكلم، علم أنه لا يقدر على ذلك إلا الله، الحديث.

ب. وفي تفسير النعماني، بإسناده عن الصادق عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام حين سألوه عن معنى الوحي فقال: منه وحي النبوة ومنه وحي الإلهام ومنه وحي الإشارة، وساقه إلى أن قال وأما وحي الإشارة فقوله عز وجل: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ، فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي أشار إليهم كقوله تعالى: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً﴾

٣. أمر يحيى بأخذ الكتاب بقوة وإيتاؤه الحكمة والسلام عليه:

المقطع [٣] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٢-١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٨»:

١. ﴿يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ﴾:

أ. قد تكرر في كلامه تعالى ذكر أخذ الكتاب بقوة والأمر به كقوله: ﴿فَخُذْها بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وقوله: ﴿خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا ما فِيهِ﴾ [البقرة: ٦٣]، وقوله: ﴿خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة: ٩٣] إلى غير ذلك من الآيات، والسابق إلى الذهن من سياقها أن المراد من أخذ الكتاب بقوة التحقق بما فيه من المعارف والعمل بما فيه من الأحكام بالعناية والاهتمام.

ب. وفي الكلام حذف وإيجاز رعاية للاختصار، والتقدير: فلما وهبنا له يحيى قلنا له: يا يحيى خذ الكتاب بقوة في جانبي العلم والعمل، وبهذا المعنى يتأيد أن يكون المراد بالكتاب التوراة أو هي وسائر كتب الأنبياء فإن الكتاب الذي كان يشتمل على الشريعة يومئذ هو التوراة.

٢. ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً﴾:

أ. فسر الحكم بالفهم وبالعقل وبالحكمة وبمعرفة آداب الخدمة وبالفراسة الصادقة وبالنبوة، لكن المستفاد من مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [الجاثية: ١٦]، وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام: ٨٩]، وغيرهما من الآيات أن الحكم غير النبوة، فتفسير الحكم بالنبوة ليس على ما ينبغي، وكذا تفسيره بمعرفة آداب الخدمة أو بالفراسة الصادقة أو بالعقل إذ لا دليل من جهة اللفظ ولا من جهة المعنى على شيء من ذلك.

ب. نعم ربما يستأنس من مثل قوله: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وقوله: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢] والحكمة بناء نوع من الحكم، أن المراد بالحكم العلم بالمعارف الحقة الإلهية وانكشاف ما هو تحت أستار الغيب بالنسبة إلى الأنظار العادية ولعله إليه مرجع تفسير الحكم بالفهم، وعلى هذا يكون المعنى إنا أعطيناه العلم بالمعارف الحقيقية وهو صبي لم يبلغ الحلم بعد.

٣. ﴿وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا﴾:

أ. معطوف على الحكم أي وأعطيناه حنانا من لدنا والحنان: العطف والإشفاق، قال الراغب: (ولكون الإشفاق لا ينفك من الرحمة عبر عن الرحمة بالحنان في قوله تعالى: ﴿وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا﴾ ومنه قيل: الحنان المنان وحنانيك إشفاقا بعد إشفاق.

ب. وفسر الحنان في الآية بالرحمة ولعل المراد بها النبوة أو الولاية كقول نوح عليه السلام: ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ [هود: ٢٨]، وقول صالح: ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ [هود: ٦٣]

ج. وفسر بالمحبة ولعل المراد بها محبة الناس له على حد قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ [طه: ٣٩]، أي كان لا يراه أحد إلا أحبه.

د. وفسر بتعطفه على الناس ورحمته ورقته عليهم فكان رءوفا بهم ناصحا لهم يهديهم إلى الله

ويأمرهم بالتوبة ولذا سمي في العهد الجديد بيوحنا المعمد.

هـ. وفسر بحنان الله عليه كان إذا نادى ربه لباه الله سبحانه على ما في الخبر فيدل على أنه كان لله سبحانه حنان خاص به على ما يفيده تنكير الكلمة.

و. والذي يعطيه السياق وخاصة بالنظر إلى تقييد الحنان بقوله: ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾ والكلمة إنما تستعمل فيما لا مجرى فيه للأسباب الطبيعية العادية أو لا نظر فيه إليها، أن المراد به نوع عطف وانجذاب خاص إلهي بينه وبين ربه غير مألوف، وبذلك يسقط التفسير الثاني والثالث ثم تعقبه بقوله: ﴿زَكَاةً﴾ والأصل في معناه النمو الصالح، وهو لا يلائم المعنى الأول كثير ملائمة فالمراد به إما حنان من الله سبحانه إليه بتولي أمره والعناية بشأنه وهو ينمو عليه، وإما حنان وانجذاب منه إلى ربه فكان ينمو عليه، والنمو نمو الروح.

ز. ومن هنا يظهر وهن ما قيل: إن المراد بالزكاة البركة ومعناها كونه مباركا نفاعا معلما للخير، وما قيل: إن المراد به الصدقة، والمعنى وآتيناه الحكم حال كونه صدقة نتصدق به على الناس أو المعنى أنه صدقة من الله على أبويه أو المعنى أن الحكم المؤتى صدقة من الله عليه وما قيل: إن المراد بالزكاة الطهارة من الذنوب.

٤. ﴿وَكَانَ تَقِيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا﴾:

أ. التقي صفة مشبهة من التقوى مثال واوي وهو الورع عن محارم الله والتجنب عن اقتراف المناهي المؤدي إلى عذاب الله، والبر بفتح الباء صفة مشبهة من البر بكسر الباء وهو الإحسان، والجبار قال في المجمع: (الذي لا يرى لأحد عليه حقا وفيه جبرية وجبروت، والجبار من النخل ما فات اليد)، فيئول معناه إلى أنه المستكبر المستعلي الذي يحمل الناس ما أراد ولا يتحمل عنهم، ويؤيده تعقيبه بالعصي فإنه صفة مشبهة من العصيان والأصل في معناه الامتناع.

ب. ومن هنا يظهر أن الجمل الثلاث مسوقة لبيان جوامع أحواله بالنسبة إلى الخالق والمخلوق، فقوله: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ حاله بالنسبة إلى ربه، وقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ حاله بالنسبة إلى والديه، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا﴾ حاله بالنسبة إلى سائر الناس، فكان رءوفا رحيما بهم ناصحا متواضعا لهم يعين ضعفاءهم ويهدي المسترشدين منهم، وبه يظهر أيضا أن تفسير بعضهم لقوله: ﴿عَصِيًّا﴾ بقوله: أي عاصيا لربه ليس على ما ينبغي.

٥. ﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾:

أ. السلام قريب المعنى من الأمن، والذي يظهر من موارد استعمالها في الفرق بينهما أن الأمن خلو المحل مما يكرهه الإنسان ويخاف منه والسلام كون المحل بحيث كل ما يلقاه الإنسان فيه فهو يلائمه من غير أن يكرهه ويخاف منه.

ب. وتنكير السلام لإفادة التفخيم أي سلام فخيم عليه مما يكرهه في هذه الأيام الثلاثة التي كل واحد منها مفتتح عالم من العوالم التي يدخلها الإنسان ويعيش فيها فسلام عليه يوم ولد فلا يمسه مكروه في الدنيا يزاحم سعادته، وسلام عليه يوم يموت، فسيعيش في البرزخ عيشة نعيمة، وسلام عليه يوم يبعث حيا فيحيا فيها بحقيقة الحياة ولا نصب ولا تعب.

ج. وقيل: إن تقييد البعث بقوله: ﴿حَيًّا﴾ للدلالة على أنه سيقتل شهيدا لقوله تعالى في الشهداء: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]

د. واختلاف التعبير في قوله: ﴿وُلِدَ﴾ ﴿يَمُوتُ﴾ ﴿يُبْعَثُ﴾ لتمثيل أن التسليم في حال حياته عليه السلام.

٦. وضع هنا مبحثا حول [قصة يحيى عليه السلام]، خلاصته:

أ. أثنى الله على يحيى عليه السلام في القرآن ثناءً جميلاً، فوصفه بأنه مصدق بكلمة من الله (تصديقه بنبوة المسيح)، وأنه كان سيداً، وحصوراً (لا يأتي النساء)، ونبياً من الصالحين، ومن المجتبين ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ والمهديين، وأن الله سماه يحيى ولم يجعل له من قبل سمياً، وأمره بأخذ الكتاب بقوة، وآتاه الحكم صبياً، وسلم عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً.

ب. ولد يحيى لأبويه على خرق العادة، فقد كان أبوه زكريا شيخاً فانياً وأمه عاقراً، فرزقهما الله يحيى وهما آيسان من الولد، أخذ بالرشد والعبادة والزهد في صغره، وآتاه الله الحكم صبياً، وتجرد للتنسك والزهد فلم يتزوج قط.

ج. كان معاصراً لعيسى بن مريم، وصدق نبوته، وكان سيداً في قومه، يجتمع إليه الناس فيعظهم ويدعوهم إلى التوبة والتقوى حتى استشهد.

د. لم يرد في القرآن مقتله، لكن ورد في الأخبار أن سبب قتله أنه نهاه ملك بني إسرائيل عن امرأة

بغي كان يأتيها، فأضمرت المرأة عداوته وطلبت من الملك رأسه، فأمر به فذبح، وفي بعض الأخبار أن التي طلبت رأسه كانت ابنة أخي الملك، وكان يريد أن يتزوج بها فنهاه يحيى عن ذلك.

هـ. الإنجيل يذكر قصة زكريا ويحيى بتفاصيل مشابهة للقرآن في الجوهر، لكنه يضيف تفاصيل عن معمودية يحيى، ووعظه للجموع، وسبب حبسه وقتله على يد هيرودوس بسبب هيروديا امرأة أخيه، وتفاصيل رقصة ابنة هيروديا وطلبها رأس يحيى على طبق.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: عن معمر قال: إن الصبيان قالوا ليحيي: اذهب بنا نلعب قال: ما للعب خلقنا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾: وروي ذلك عن أبي الحسن الرضا عليه السلام.

• أقول: وروي في الدر المنثور، هذا المعنى عن ابن عساكر عن معاذ بن جبل مرفوعا، وروي أيضا ما في معناه عن ابن عباس عن النبي ﷺ.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن علي بن أسباط قال: رأيت أبا جعفر عليه السلام وقد خرج إلي فأجدت النظر إليه، وجعلت أنظر إلى رأسه ورجليه، لأصف قامته لأصحابنا بمصر، فبينا أنا كذلك حتى قعد فقال: يا علي إن الله احتج في الإمامة بمثل ما احتج به في النبوة، فقال: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ فقد يجوز أن يؤتى الحكمة وهو صبي، ويجوز أن يؤتى الحكمة وهو ابن أربعين سنة.

• أقول: وفي الرواية تفسير الحكم بالحكمة فتؤيد ما قدمناه.

ج. أخرج عبد الرزاق وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة: (في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا﴾ قال: كان سعيد بن المسيب يقول: قال النبي ﷺ: ما من أحد يلقى الله يوم القيامة، إلا ذا ذنب إلا يحيى بن زكريا، قال قتادة: وقال الحسن: قال النبي ﷺ: ما أذنب يحيى بن زكريا قط، ولا هم بامرأة.

د. وفيه: أخرج أحمد والحكيم الترمذي في نوادر الأصول والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: ما من أحد من ولد آدم، إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة إلا يحيى بن زكريا، لم يهم بخطيئة ولم يعملها.

• أقول: وهذا المعنى مروي من طرق أهل السنة بألفاظ مختلفة وينبغي تخصيص الجميع بأهل العصمة من الأنبياء والأئمة وإن كانت آبية عنه ظاهرا لكن الظاهر أن ذلك ناشئ من سوء تعبير الرواة لابتلائهم بالنقل بالمعنى وتوغلهم فيه، وبالجملة الأخبار في زهد يحيى عليه السلام كثيرة فوق الإحصاء، وكان عليه السلام، على ما فيها، يأكل العشب ويلبس الليف وبكى من خشية الله حتى اتخذت الدموع مجرى في وجهه.

هـ. وفيه: أخرج ابن عساكر عن قرة قال: ما بكت السماء على أحد إلا على يحيى بن زكريا والحسين بن علي، وحمرتها بكاؤها.

• أقول: وروى هذا المعنى في المجمع: عن الصادق عليه السلام: وفي آخره: وكان قاتل يحيى ولد زنا، وقاتل الحسين ولد زنا.

و. أخرج الحاكم وابن عساكر عن ابن عباس قال: أوحى الله إلى محمد ﷺ: إني قتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفا، وإني قاتل بابن ابنتك سبعين ألفا وسبعين ألفا.

ز. وفي الكافي، بإسناده عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت: فما عنى بقوله في يحيى: ﴿وَحَناناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكاةً﴾؟ قال تحنن الله، قلت: فما بلغ من تحنن الله عليه؟ قال: كان إذا قال: يا رب قال الله عز وجل: لبيك يا يحيى، الحديث.

ح. وفي عيون الأخبار، بإسناده إلى ياسر الخادم قال: سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول: إن أوحش ما يكون هذا الخلق في ثلاث مواطن: يوم يولد ويخرج من بطن أمه فيرى الدنيا، ويوم يموت فيعاين الآخرة وأهلها، ويوم يبعث فيرى أحكاما لم يرها في دار الدنيا، وقد سلم الله عز وجل على يحيى في هذه الثلاثة المواطن، وآمن روعته فقال: ﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾، وقد سلم عيسى بن مريم على نفسه في هذه الثلاثة المواطن، فقال: ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾

٤. قصة مريم ورسالة الروح وبشارة الغلام الزكي:

المقطع [٤] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ

بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٦-١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٤»:

١. ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا﴾:

أ. المراد بالكتاب القرآن أو السورة فهي جزء من الكتاب وجزء الكتاب كتاب والاحتمالان من حيث المآل واحد فلا كثير جدوى في إصرار بعضهم على تقديم الاحتمال الثاني وتعيينه.

ب. والنبذ، على ما ذكره الراغب، طرح الشيء الحقير الذي لا يعبأ به يقال نبذه إذا طرحه مستحقرا له غير معتن به، والانتباذ الاعتزال من الناس والانفراد.

ج. ومريم هي ابنة عمران أم المسيح عليه السلام، والمراد بمريم نبأ مريم وقوله: ﴿إِذِ﴾ ظرف له، وقوله: ﴿انْتَبَذَتْ﴾ إلى آخر القصة تفصيل المظروف الذي هو نبأ مريم، والمعنى واذكر يا محمد في هذا الكتاب نبأ مريم حين اعتزلت من أهلها في مكان شرقي، وكأنه شرقي المسجد.

٢. ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا﴾:

أ. الحجاب ما يحجب الشيء ويستره عن غيره، وكأنها اتخذت الحجاب من دون أهلها لتنقطع عنهم وتعتكف للعبادة كما يشير إليه قوله: ﴿كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً﴾ [آل عمران: ٣٧] وقد مر الكلام في تفسير الآية.

ب. وقيل: إنها كانت تقيم المسجد حتى إذا حاضت خرجت منها وأقامت في بيت زكريا حتى إذا طهرت عادت إلى المسجد فبينما هي في مشرفة لها في ناحية الدار وقد ضربت بينها وبين أهلها حجابا لتغتسل إذ دخل عليها جبرائيل في صورة شاب أمرد سوي الخلق فاستعاذت بالله منه.

• وفيه أنه لا دليل على هذا التفصيل من جهة اللفظ، وقد عرفت أن آية آل عمران لا تخلو من تأييد للمعنى السابق.

٣. ﴿فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا﴾:

أ. ظاهر السياق أن فاعل ﴿فَتَمَثَّلَ﴾ ضمير عائد إلى الروح فالروح المرسل إليها هو المتمثل لها بشرا سويا ومعنى تمثله لها بشرا ترائيه لها، وظهوره في حاستها في صورة البشر وهو في نفسه روح وليس ببشر.

ب. وإذ لم يكن بشرا وليس من الجن فقد كان ملكا بمعنى الخلق الثالث الذي وصفه الله سبحانه

في كتابه وسماه ملكا، وقد ذكر سبحانه ملك الوحي في كلامه وسماه جبريل بقوله: ﴿مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧] وسماه روحا في قوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢] وقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٤] وسماه رسولا في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠]، فبهذا كله يتأيد أن الروح الذي أرسله الله إليها إنما هو جبريل.

ج. وأما قوله: ﴿إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ إلى أن قال: ﴿قالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قالَ كَذلِكِ اللهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]

د. فتطبيقه على الآيات التي نحن فيها لا يدع ريبا في أن قول الملائكة لمريم ومحاورتهم معها المذكور هناك هو قول الروح لها المذكور هاهنا، ونسبة قول جبريل إلى الملائكة من قبيل نسبة قول الواحد من القوم إلى جماعتهم لاشتراكهم معه في خلق أو سنة أو عادة، وفي القرآن منه شيء كثير كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، والقائل واحد، وقوله: ﴿وَإِذْ قالُوا اللهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]، والقائل واحد.

هـ. وإضافة الروح إليه تعالى للتشريف مع إشعار بالتعظيم، وقد تقدم كلام في معنى الروح في تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ الآية [الإسراء: ٨٥]

و. ومن التفسير الردي قول بعضهم إن المراد بالروح في الآية عيسى عليه السلام وضمير تمثل عائد على جبريل، وهو كما ترى.

ز. ومن القراءة الردية قراءة بعضهم (روحنا) بتشديد النون على أن روحنا اسم الملك الذي أرسل إلى مريم، وهو غير جبريل الروح الأمين، وهو أيضا كما ترى.

٤. وضع هنا مبحثا حول [معنى التمثل في القرآن]، خلاصته:

أ. التمثل لم يرد في القرآن إلا في قصة مريم، حيث تمثل جبريل لها بشراً سوياً، وهو ظهوره لها في صورة بشر مع بقائه على ملكيته في نفسه، لا أنه صار بشراً حقيقة.

ب. التمثل في اللغة هو ظهور الشيء لمن يشاهده في صورة معينة، مع بقاء حقيقته على ما هي عليه، لا صيرورة الشيء شيئاً آخر وانقلاباً إليه.

ج. الإشكالات الواردة على التمثل (كاستحالة تغير الجثة، وارتفاع الوثوق بالحس، وجواز التمثل بصور أخرى، وبطلان التواتر) مردودة، لأن التمثل ليس تغيراً في الذات، بل ظهور في ظرف الإدراك، والحس يدرك الصورة لا الحقيقة الخارجية، والتمثل لا يبطل العلم الحسي لأن العلم بالمحسوس الخارجي حكم فكري لا حس محض.

د. الفرق بين التمثل والسفسطة: أن التمثل يقوم على حقيقة موجودة تظهر للمدرك بصورة تناسب أدوات إدراكه، أما السفسطة فهي الإدراك بلا حقيقة وراءه، وهذا فرق جوهري.

٥. ﴿قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾:

أ. ابتدرت إلى تكليمه لما أدهشها حضوره عندها وهي تحسب أنه بشر هجم عليها لأمر يسوؤها واستعاذت بالرحمن استدرارا للرحمة العامة الإلهية التي هي غاية آمال المنقطعين إليه من أهل القنوت.

ب. واشتراطها بقولها: ﴿إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ من قبيل الاشتراط بوصف يدعيه المخاطب لنفسه أو هو محقق فيه ليفيد إطلاق الحكم المشروط وعليه الوصف للحكم، والتقوى وصف جميل يشق على الإنسان أن ينفيه عن نفسه ويعترف بفقده فيئول المعنى إلى مثل قولنا: إني أعوذ وأعتصم بالرحمن منك إن كنت تقيا ومن الواجب أن تكون تقيا فليردعك تقواك عن أن تتعرض بي وتقصدني بسوء.

ج. فالآية من قبيل خطاب المؤمنين بمثل قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧]، وقوله: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]

د. وربما احتمل في قوله: ﴿إِنْ كُنْتَ﴾ أن تكون إن نافية والمعنى ما كنت تقيا إذ هتكت على ستري ودخلت بغير إذني، وأول الوجهين أوفق بالسياق، والقول بأن التقي اسم رجل طالح أو صالح لا يعبأ به.

٦. ﴿قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا﴾:

أ. جواب الروح لمريم وقد صدر الكلام بالقصر ليفيد أنه ليس ببشر كما حسبته فيزول بذلك روعها ثم يطيب نفسها بالبشرى، والزكي هو النامي نموا صالحا والنابت نباتا حسنا.

ب. ومن لطيف التوافق في هذه القصص الموردة في السورة أنه تعالى ذكر زكريا وأنه وهب له يحيى، وذكر مريم وأنه وهب لها عيسى، وذكر إبراهيم وأنه وهب له إسحاق ويعقوب، وذكر موسى وأنه وهب له هارون عليه السلام.

٥. عجب مريم من الحمل:

المقطع [٥] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢٠ـ٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٤١»:

١. ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾:

أ. مس البشر بقرينة مقابلته للبغي وهو الزنا كناية عن النكاح وهو في نفسه أعم ولذا اكتفى في القصة من سورة آل عمران بقوله: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ والاستفهام للتعجب أي كيف يكون لي ولد ولم يخالطني قبل هذا الحين رجل لا من طريق الحلال بالنكاح ولا من طريق الحرام بالزنا.

ب. والسياق يشهد أنها فهمت من قوله: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً﴾، إنه سيهبه حالا ولذا قالت: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ فنفت النكاح والزنا في الماضي.

٢. ﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ إلخ، أي قال الروح الأمر كذلك أي كما وصفته لك ثم قال: ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، وقد تقدم في قصة زكريا ويحيى عليه السلام توضيح ما للجملتين.

٣. ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ ذكر بعض ما هو الغرض من خلق المسيح على هذا النهج الخارق، وهو معطوف على مقدر أي خلقناه بنفخ الروح من غير أب لكذا وكذا ولنجعله آية للناس بخلقته ورحمة منا برسالته والآيات الجارية على يده وحذف بعض الغرض وعطف بعضه المذكور عليه كثير في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]، وفي هذه الصنعة إيهام أن الأغراض الإلهية أعظم من أن يحيط بها فهم أو يفي بتمامها لفظ.

٤. ﴿وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيًّا﴾ إشارة إلى تحتم القضاء في أمر هذا الغلام الزكي فلا يرد بإباء أو دعاء.

٦. حمل مريم ومخاضها عند النخلة:

المقطع [٦] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٢ـ٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٤٢»:

١. ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيًّا﴾ القصي البعيد أي حملت بالولد فانفرد واعتزلت به مكانا

بعيدا من أهله.

٢. ﴿فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ الإجاءة إفعال من جاء يقال: أجاءه وجاء به بمعنى وهو في الآية كناية عن الدفع والإلجاء، والمخاض والطلق وجع الولادة، وجذع النخلة ساقها، والنسي بفتح النون وكسرها كالوتر والوتر هو الشيء الحقير الذي من شأنه أن ينسى، والمعنى، أنها لما اعتزلت من قومها في مكان بعيد منهم، دفعها وألجأها الطلق إلى جذع نخلة كان هناك لوضع حملها، والتعبير بجذع النخلة دون النخلة مشعر بكونها يابسة غير مخضرة، وقالت استحياء من الناس يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا وشيئا لا يعبأ به منسيا لا يذكر فلم يقع فيه الناس كما سيقع الناس في.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: وروي عن الباقر عليه السلام: أنه يعني جبرئيل تناول جيب مدرعتها فنفخ فيه نفخة، فكمل الولد في الرحم من ساعته، كما يكمل الولد في أرحام النساء تسعة أشهر، فخرجت من المستحم وهي حامل محج مثقل، فنظرت إليها خالتها فأنكرتها، ومضت مريم على وجهها مستحية من خالتها ومن زكريا، وقيل: كانت مدة حملها تسع ساعات: وهذا مروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

• أقول: وفي بعض الروايات أن مدة حملها كانت ستة أشهر.

ب. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿قالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا﴾ الآية، وإنما تمنت الموت، إلى أن قال، وروي عن الصادق عليه السلام: لأنها لم تر في قومها رشيدا ذا فراسة ينزهها من السوء.

٧. طمأنة الله لمريم:

المقطع [٧] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٤ـ٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٤٢»:

١. ﴿فَنادَاها مِنْ تَحْتِها أَلَّا تَحْزَنِي﴾ إلى آخر الآيتين:

أ. ظاهر السياق أن ضمير الفاعل في ﴿فَنادَاها﴾ لعيسى عليه السلام لا للروح السابق الذكر، ويؤيده تقييده بقوله: ﴿مِنْ تَحْتِها﴾ فإن هذا القيد أنسب لحال المولود مع والدته حين الوضع منه لحال

الملك المنادي مع من يناديه، ويؤيده أيضا احتفافه بالضمائر الراجعة إلى عيسى عليه السلام.

ب. وقيل: الضمير للروح وأصلح كون الروح تحتها بأنها كانت حين الوضع في أكمة وكان الروح واقفا تحت الأكمة فناداها من تحتها، ولا دليل على شيء من ذلك من جهة اللفظ.

ج. ولا يبعد أن يستفاد من ترتب قوله: ﴿فَنادَاها﴾ على قوله: ﴿قالَتْ يا لَيْتَنِي﴾، أنها إنما قالت هذه الكلمة حين الوضع أو بعده فعقبها عليه السلام بقوله: لا تخزني.

٢. ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ تسلية لها لما أصابها من الحزن والغم الشديد فإنه لا مصيبة هي أمر وأشق على المرأة الزاهدة المتنسكة وخاصة إذا كانت عذراء بتولا من أن تتهم في عرضها وخاصة إذا كانت من بيت معروف بالعفة والنزاهة في حاضر حاله وسابق عهده وخاصة إذا كانت تهمة لا سبيل لها إلى الدفاع عن نفسها وكانت الحجة للخصم عليها، ولذا أشار أن لا تتكلم مع أحد وتكفل هو الدفاع عنها وتلك حجة لا يدفعها دافع.

٣. ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾:

أ. السري جدول الماء، والسري هو الشريف الرفيع، والمعنى الأول هو الأنسب للسياق، ومن القرينة عليه قوله: بعد: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي﴾ كما لا يخفى.

ب. وقيل: المراد هو المعنى الثاني ومصداقه عيسى عليه السلام، وقد عرفت أن السياق لا يساعد عليه، وعلى أي تقدير الجملة إلى آخر كلامه تطييب لنفس مريم عليه السلام.

٤. ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا﴾ الهز هو التحريك الشديد، ونقل عن الفراء أن العرب تقول: هزه وهز به، والمساقطة هي الإسقاط، وضمير ﴿تُساقِطْ﴾ للنخلة، ونسبة الهز إلى الجذع والمساقطة إلى النخلة لا تخلو من إشعار بأن النخلة كانت يابسة وإنما اخضرت وأورقت وأثمرت رطبا جنيا لساعتها، والرطب هو نضيج البسر، والجني هو المجني وذكر في القاموس، على ما نقل، أن الجني إنما يقال لما جني من ساعته.

٥. ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً﴾ قرار العين كناية عن المسرة يقال: أقر الله عليك أي سرك، والمعنى: فكلي من الرطب الجني الذي تسقط واشربي من السري الذي تحتك وكوني على مسرة من غير أن تحزني، والتمتع بالأكل والشرب من أمارات السرور والابتهاج فإن المصاب في شغل من التمتع بلذيذ الطعام

ومريء الشراب ومصيبته شاغلة، والمعنى: فكلي من الرطب الجني واشربي من السري وكوني على مسرة، مما حباك الله به، من غير أن تحزني، وأما ما تخافين من تهمة الناس ومساءلتهم فالزمي السكوت ولا تكلمي أحدا فأنا أكفيكهم.

٦. ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾:

أ. المراد بالصوم صوم الصمت كما يدل عليه التفريع الذي في قوله: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ وكذا يستفاد من السياق أنه كان أمرا مسنونا في ذلك الوقت ولذا أرسل عذرا إرسال المسلم، والإنسي منسوب إلى الإنس مقابل الجن والمراد به الفرد من الإنسان.

ب. ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ﴾، ما زائدة والأصل إن ترى بشرا فقولي.، والمعنى: إن ترى بشرا وكلمك أو سألك عن شأن الولد فقولي، والمراد بالقول التفهيم بالإشارة فربما يسمى التفهيم بالإشارة قولا، وعن الفراء أن العرب تسمي كل ما وصل إلى الإنسان كلاما بأي طريق وصل ما لم يؤكد بالمصدر فإذا أكد لم يكن إلا حقيقة الكلام.

ج. وليس ببعيد أن يستفاد من قوله: ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً﴾ بمعونة السياق أنه أمرها أن تنوي الصوم لوقتها وتنذره لله على نفسها فلا يكون إخبارا بما لا حقيقة له.

د. ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَ﴾، على أي حال متفرع على قوله: ﴿وَقَرِّي عَيْناً﴾ والمراد لا تكلمي بشرا ولا تجيبي أحدا سألك عن شأني بل ردي الأمر إلي فأنا أكفيك جواب سؤالهم وأدافع خصامهم.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ قيل: ضرب جبرئيل برجله فظهر ماء عذب، وقيل: بل ضرب عيسى برجله فظهرت عين ماء تجري: وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام.

ب. أخرج الطبراني في الصغير وابن مردويه عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ: في قوله: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ قال النهر.

• أقول: وفي رواية أخرى فيه عن ابن عمر عنه ﷺ: أنه نهر أخرجه الله لها لتشرب منه.

ج. وفي الخصال، عن علي عليه السلام من حديث الأربعمائة: ما تأكل الحامل من شيء ولا تتداوى به أفضل من الرطب، قال الله تعالى لمريم: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ، تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا فَكُلِي

وَاشْرَبِي، وَقَرِّي عَيْناً﴾

• أقول: وهذا المعنى مروي في عدة روايات من طرق أهل السنة عن النبي ﷺ ومن طرق الشيعة عن الباقر عليه السلام.

د. وفي الكافي، بإسناده عن جراح المدائني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الصيام ليس من الطعام والشراب وحده، ثم قال: قالت مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً﴾ أي صوما صمتا، وفي نسخة أي صمتا، فإذا صمتم فاحفظوا ألسنتكم وغضوا أبصاركم، ولا تنازعوا ولا تحاسدوا، الحديث.

٨. إتيان مريم قومها واتهامهم لها:

المقطع [٨] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٧-٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٤٤»:

١. ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ قالُوا يا مَرْيَمُ أنى لك هذا لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا﴾ الضميران في ﴿بِهِ﴾ و﴿تَحْمِلُهُ﴾ لعيسى، والاستفهام إنكاري حملهم عليه ما شاهدوه عن عجيب أمرها مع ما لها من سابقة الزهد والاحتجاب وكانت ابنة عمران ومن آل هارون القديس، والفري هو العظيم البديع وقيل: هو من الافتراء بمعنى الكذب كناية عن القبيح المنكر والآية التالية تؤيد المعنى الأول، ومعنى الآية واضح.

٢. ﴿يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ ذكر في المجمع: (أن في المراد من هارون أربعة أقوال: أحدها: أنه كان رجلا صالحا من بني إسرائيل ينسب إليه كل صالح وعلى هذا فالمراد بالأخوة الشباهة ومعنى ﴿يا أُخْتَ هارُونَ﴾ يا شبيهة هارون، والثاني: أنه كان أخاها لأبيها لا من أمها، والثالث: أن المراد به هارون أخو موسى الكليم وعلى هذا فالمراد بالأخوة الانتساب كما يقال: أخو تميم، والرابع: أنه كان رجلا معروفا بالعهر والفساد)، والبغي الزانية، ومعنى الآية ظاهر.

٣. أحاديث وآثار: في كتاب سعد السعود، لابن طاووس من كتاب عبد الرحمن بن محمد الأزدي: وحدثني سماك بن حرب عن المغيرة بن شعبة: أن النبي ﷺ بعثه إلى نجران فقالوا: ألستم تقرءون: ﴿يا أُخْتَ هارُونَ﴾ وبينهما كذا وكذا؟ فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: ألا قلت لهم: إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين منهم.

• أقول: وأورد الحديث في الدر المنثور، مفصلا وفي مجمع البيان، مختصرا عن المغيرة عن النبي ﷺ، ومعنى الحديث أن المراد بهارون في قوله: ﴿يا أُخْتَ هارُونَ﴾ رجل مسمى باسم هارون النبي أخي موسى عليه السلام، ولا دلالة فيه على كونه من الصالحين كما توهمه بعضهم.

٩. نطق المسيح في المهد وإعلانه العبودية والنبوة والبركة:

المقطع [٩] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٢٩-٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٤٥»:

١. ﴿فَأَشارَتْ إِلَيْهِ قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾:

أ. إشارتها إليه إرجاع لهم إليه حتى يجيبهم ويكشف لهم عن حقيقة الأمر، وهو جرى منها على ما أمرها به حينما ولد بقوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ على ما تقدم البحث عنه.

ب. والمهد السرير الذي يهيأ للصبي فيوضع فيه وينوم عليه، وقيل: المراد بالمهد في الآية حجر أمه، وقيل المرباة أي المرجحة، وقيل المكان الذي استقر عليه كل ذلك لأنها لم تكن هيئت له مهدا، والحق أن الآية ظاهرة في ذلك ولا دليل على أنها لم تكن هيئت وقتئذ له مهدا فلعل الناس هجموا عليها وكلموها بعد ما رجعت إلى بيتها واستقرت فيه وهيئت له مهدا أو مرجحة وتسمى أيضا مهدا.

٢. سؤال وإشكال: وقد استشكلت الآية بأن الإتيان بلفظة كان مخل بالمعنى فإن ما يقتضيه المقام هو أن يستغربوا تكليم من هو في المهد صبي لا تكليم من كان في المهد صبيا قبل ذلك فكل من يكلمه الناس من رجل أو امرأة كان في المهد صبيا قبل التكليم بحين ولا استغراب فيه، وأجيب عنه:

أ. أولا أن الزمان الماضي منه بعيد ومنه قريب يلي الحال وإنما يفسد المعنى لو كان مدلول كان في الآية هو الماضي البعيد، وأما لو كان هو القريب المتصل بالحال وهو زمان التكليم فلا محذور فساد فيه، والوجه للزمخشري في الكشاف.

• وفيه أنه وإن دفع الإشكال غير أنه لا ينطبق على نحو إنكارهم فإنهم إنما كانوا ينكرون تكليمه

وتكلمه من جهة أنه صبي في المهد بالفعل لا من جهة أنه كان قبل زمان يسير صبيا في المهد فيكون ﴿كانَ﴾ زائدا مستدركا.

ب. وأجيب عنه ثانيا: بأن قوله: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ﴾ لحكاية الحال الماضية و﴿مَنْ﴾ موصولة والمعنى كيف نكلم الموصوفين بأنهم في المهد أي لم نكلمهم إلى الآن حتى نكلم هذا، وهذا الوجه أيضا للزمخشري في الكشاف.

- وفيه أنه وإن استحسنه غير واحد لكنه معنى بعيد عن الفهم!

ج. وأجيب عنه ثالثا أن كان زائد للتأكيد من غير دلالة على الزمان، و﴿مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ﴾ مبتدأ وخبر، وصبيا حال مؤكدة.

- وفيه أنه لا دليل عليه، على أنه زيادة موجبة للالتباس من غير ضرورة على أنه قيل إن: ﴿كانَ﴾ الزائدة تدل على الزمان وإن لم تدل على الحدث.

د. وأجيب عنه رابعا بأن ﴿مَنْ﴾ في الآية شرطية و﴿كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ شرطها وقوله: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ﴾ في محل الجزاء والمعنى من كان في المهد صبيا لا يمكن تكليمه والماضي في الجملة الشرطية بمعنى المستقبل فلا إشكال.

- وفيه أنه تكلف ظاهر.

هـ. ويمكن أن يقال: إن ﴿كانَ﴾ منعزلة عن الدلالة على الزمان لما في الكلام من معنى الشرط والجزاء فإنه في معنى من كان صبيا لا يمكن تكليمه أو إن كان جيء بها للدلالة على ثبوت الوصف لموصوفه ثبوتا يقضي مضيه عليه وتحققه فيه ولزومه له كقوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً﴾ [الإسراء: ٩٣] أي إن البشرية والرسالة تحققا في فلا يسعني ما لا يسع البشر الرسول، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً﴾ [الإسراء: ٦٣] أي إن النصرة لازمة له بجعلنا لزوم الوصف الماضي لموصوفه ويكون المعنى كيف نكلم صبيا في المهد ممعنا في صباه من شأنه أنه لبث وسيلبث في صباه برهة من الزمان، والله أعلم.

٣. ﴿قالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾:

أ. شروع منه عليه السلام في الجواب ولم يتعرض لمشكلة الولادة التي كانوا يكرون بها على مريم

عليه السلام لأن نطقه على صباه وهو آية معجزة وما أخبر به من الحقيقة لا يدع ريبا لمرتاب في أمره على أنه سلم في آخر كلامه على نفسه فشهد بذلك على نزاهته وأمنة من كل قذارة وخباثة ومن نزاهته طهارة مولده.

ب. وقد بدأ بقوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ﴾ اعترافا بالعبودية لله ليبطل به غلو الغالين وتتم الحجة عليهم، كما ختمه بمثل ذلك إذ يقول: ﴿وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾

ج. وفي قوله: ﴿آتانِيَ الْكِتابَ﴾ إخبار بإعطاء الكتاب والظاهر أنه الإنجيل، وفي قوله: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ إعلام بنبوته، وقد تقدم في مباحث النبوة في الجزء الثاني من الكتاب الفرق بين النبوة والرسالة، فقد كان يومئذ نبيا فحسب ثم اختاره الله للرسالة، وظاهر الكلام أنه كان أوتي الكتاب والنبوة لا أن ذلك إخبار بما سيقع.

٤. ﴿وَجَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا﴾ كونه عليه السلام مباركا أينما كان هو كونه محلا لكل بركة والبركة نماء الخير كان نفاعا للناس يعلمهم العلم النافع ويدعوهم إلى العمل الصالح ويربيهم تربية زاكية ويبرئ الأكمه والأبرص ويصلح القوي ويعين الضعيف.

٥. ﴿وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ﴾، إشارة إلى تشريع الصلاة والزكاة في شريعته، والصلاة هي التوجه العبادي الخاص إلى الله سبحانه والزكاة الإنفاق المالي وهذا هو الذي استقر عليه عرف القرآن كلما ذكر الصلاة والزكاة وقارن بينهما وذلك في نيف وعشرين موضعا فلا يعتد بقول من قال: إن المراد بالزكاة تزكية النفس وتطهيرها دون الإنفاق المالي.

٦. ﴿وَبَرًّا بِوالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا﴾ أي جعلني حنينا رءوفا بالناس ومن ذلك أني بر بوالدتي ولست جبارا شقيا بالنسبة إلى سائر الناس، والجبار هو الذي يحمل الناس ولا يتحمل منهم، ونقل عن ابن عطاء أن الجبار الذي لا ينصح والشقي الذي لا ينتصح.

٧. ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾:

أ. تسليم منه على نفسه في المواطن الثلاثة الكلية التي تستقبله في كونه ووجوده، وقد تقدم توضيحه في آخر قصة يحيى المتقدمة.

ب. نعم بين التسليمتين فرق، فالسلام في قصة يحيى نكرة يدل على النوع، وفي هذه القصة محلى

بلام الجنس يفيد بإطلاقه الاستغراق، وفرق آخر وهو أن المسلم على يحيى هو الله سبحانه وعلى عيسى هو نفسه.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، ومعاني الأخبار، عن أبي عبد الله عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ﴾ قال: نفاعا.

• أقول: ورواه في الدر المنثور، عن أرباب الكتب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ولفظ الحديث: قال النبي قول عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ﴾ قال: جعلني نفاعا للناس أين اتجهت.

ب. أخرج ابن عدي وابن عساكر عن ابن مسعود عن النبي ﷺ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ﴾ قال: معلما ومؤدبا.

ج. وفي الكافي، بإسناده عن بريد الكناسي قال: سألت أبا جعفر عليه السلام أكان عيسى بن مريم حين تكلم في المهد، حجة الله على أهل زمانه؟ فقال: كان يومئذ نبيا حجة لله غير مرسل، أما تسمع لقوله حين قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ الله، آتانِيَ الْكِتابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ، وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا﴾ قلت: فكان يومئذ حجة لله على زكريا في تلك الحال، وهو في المهد؟ فقال: كان عيسى في تلك الحال آية لله، ورحمة من الله لمريم حين تكلم فعبر عنها، وكان نبيا حجة على من سمع كلامه في تلك الحال، ثم صمت فلم يتكلم حتى مضت له سنتان، وكان زكريا الحجة لله عز وجل بعد صمت عيسى بسنتين، ثم مات زكريا فورثه ابنه يحيى الكتاب والحكمة، وهو صبي صغير أما تسمع لقوله عز وجل: ﴿يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ فلما بلغ سبع سنين، تكلم بالنبوة والرسالة حين أوحى الله إليه، فكان عيسى الحجة على يحيى وعلى الناس أجمعين، وليس تبقى الأرض يا أبا خالد، يوما واحدا بغير حجة لله على الناس، منذ يوم خلق الله آدم عليه السلام وأسكنه الأرض، الحديث.

د. وفيه، بإسناده عن صفوان بن يحيى قال: قلت للرضا عليه السلام قد كنا نسألك قبل أن يهب الله لك أبا جعفر، فكنت تقول: يهب الله لي غلاما فقد وهب الله لك، فقر عيوننا فلا أرانا الله يومك، فإن كان كون فإلى من؟ فأشار بيده إلى أبي جعفر عليه السلام وهو قائم بين يديه: فقلت: جعلت فداك هذا ابن ثلاث سنين قال: وما يضره من ذلك شيء، قد قام عيسى بالحجة وهو ابن ثلاث سنين.

• أقول: ويقرب منه ما في بعض آخر من الروايات.

هـ. وفيه، بإسناده عن معاوية بن وهب قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن أفضل ما يتقرب به العباد إلى ربهم، وأحب ذلك إلى الله عز وجل ما هو؟ فقال: ما أعلم شيئا بعد المعرفة أفضل من هذه الصلاة، ألا ترى أن العبد الصالح عيسى بن مريم قال: ﴿وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا﴾

و. وفي عيون الأخبار، بإسناده عن الصادق عليه السلام في حديث: ومنها عقوق الوالدين لأن الله عز وجل جعل العاق، جبارا شقيا في قوله حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا﴾

• أقول: ظاهر الرواية أنه عليه السلام أخذ قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا﴾ عطف تفسير لقوله: ﴿وَبَرًّا بِوالِدَتِي﴾

١٠. إثبات الحق في المسيح وتنزيه الله عن الولد:

المقطع [١٠] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ للهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٤-٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٤٨»:

١. ﴿ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ الظاهر أن هذه الآية والتي تليها معترضتان، والآية الثالثة: ﴿وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ من تمام قول عيسى عليه السلام.

٢. ﴿ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ الإشارة فيه إلى مجموع ما قص من أمره وشرح من وصفه أي ذلك الذي ذكرنا كيفية ولادته وما وصفه هو للناس من عبوديته وإيتائه الكتاب وجعله نبيا هو عيسى بن مريم.

٣. ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾:

أ. منصوب بمقدر أي أقول قول الحق، وقوله: ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي يشكون أو يتنازعون، وصف لعيسى، والمعنى: ذلك عيسى بن مريم الذي يشكون أو يتنازعون فيه.

ب. وقيل: المراد بقول الحق كلمة الحق وهو عيسى عليه السلام لأن الله سبحانه سماه كلمته في قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١] وقوله: ﴿يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥]، وقوله:

﴿بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ﴾ [آل عمران: ٣٩]، وعليه فقول الحق منصوب على المدح، ويؤيد المعنى الأول قوله تعالى في هذا المعنى في آخر القصة من سورة آل عمران: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٦٠]

٤. ﴿ما كانَ للهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾:

أ. نفي وإبطال لما قالت به النصارى من بنوة المسيح، وقوله: ﴿إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ﴾ حجة أقيمت على ذلك، وقد عبر بلفظ القضاء للدلالة على ملاك الاستحالة.

ب. وذلك أن الولد إنما يراد للاستعانة به في الحوائج، والله سبحانه غني عن ذلك لا يتخلف مراد عن إرادته إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون.

ج. وأيضا الولد هو أجزاء من وجود الوالد يعزلها ثم يربيها بالتدريج حتى يصير فردا مثله، والله سبحانه غني عن التوسل في فعله إلى التدريج ولا مثل له بل ما أراده كان كما أراده من غير مهلة وتدريج من غير أن يماثله، وقد تقدم نظير هذا المعنى في تفسير قوله: ﴿وَقالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحانَهُ﴾، الآية: [البقرة: ١١٦] في الجزء الأول من الكتاب.

٥. ﴿وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾:

أ. معطوف على قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ﴾ وهو من قول عيسى عليه السلام، ومن الدليل عليه وقوع الآية بعينها في المحكي من دعوته قومه في قصته من سورة آل عمران، ونظيره في سورة الزخرف حيث قال: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥]

ب. فلا وجه لما احتمله بعضهم أن الآية استئناف وابتداء كلام من الله سبحانه أو أمر منه للنبي ﷺ أن يقول: إن الله ربي و(ربكم) على أن سياق الآيات أيضا لا يساعد على شيء من الوجهين فهو من كلام عيسى عليه السلام ختم كلامه بالاعتراف بالمربوبية كما بدأ كلامه بالشهادة على العبودية ليقطع به دابر غلو الغالين في حقه ويتم الحجة عليهم.

٦. ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾:

أ. الأحزاب جمع حزب وهو الجمع المنقطع في رأيه عن غيره فاختلاف الأحزاب هو قول كل منهم

فيه عليه السلام خلاف ما يقوله الآخرون، وإنما قال: ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ لأن فيهم من ثبت على الحق، وربما قيل ﴿مِنْ﴾ زائدة والأصل اختلف الأحزاب بينهم، وهو كما ترى.

ب. والويل كلمة تهديد تفيد تشديد العذاب، والمشهد مصدر ميمي بمعنى الشهود: هذا.

ج. وقد تقدم الكلام في تفصيل قصص المسيح عليه السلام وكليات اختلافات النصارى فيه في الجزء الثالث من الكتاب.

١١. تحذير الظالمين من يوم الحسرة والإنذار به:

المقطع [١١] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٣٨ـ٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٥٠»:

١. ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾:

أ. أي ما أسمعهم وأبصرهم بالحق يوم يأتوننا ويرجعون إلينا وهو يوم القيامة فيتبين لهم وجه الحق فيما اختلفوا فيه كما حكى اعترافهم به في قوله: ﴿رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]

ب. وأما الاستدراك الذي في قوله: ﴿لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ فهو لدفع توهم أنهم إذا سمعوا وأبصروا يوم القيامة وانكشف لهم الحق سيهتدون فيسعدون بحصول المعرفة واليقين فاستدرك أنهم لا ينتفعون بذلك ولا يهتدون بل الظالمون اليوم في ضلال مبين لظلمهم.

ج. وذلك أن اليوم يوم جزاء لا يوم عمل فلا يواجهون اليوم إلا ما قدموه من العمل وأثره وما اكتسبوه في أمسهم ليومهم وأما أن يستأنفوا يوم القيامة عملا يتوقعون جزاءه غدا فليس لليوم غد، وبعبارة أخرى هؤلاء قد رسخت فيهم ملكة الضلال في الدنيا وانقطعوا عن موطن الاختيار بحلول الموت فليس لهم إلا أن يعيشوا مضطرين على ما هيئوا لأنفسهم من الضلال لا معدل عنه فلا ينفعهم انكشاف الحق وظهور الحقيقة.

د. وذكر بعضهم أن المراد بالآية أمر النبي ﷺ أن يسمع القوم ويبصرهم ببيان أنهم يوم يحضرون للحساب والجزاء سيكونون في ضلال مبين، وهو وجه سخيف لا ينطبق على الآية البتة.

٢. ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾:

أ. ظاهر السياق أن قوله: ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ بيان لقوله: ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ ففيه إشارة إلى أن الحسرة إنما تأتيهم من ناحية قضاء الأمر والقضاء إنما يوجب الحسرة إذا كان بحيث يفوت به عن المقضي عليه ما فيه قرة عينه وأمنية نفسه ومخ سعادته الذي كان يقدر حصوله لنفسه ولا يرى طيبا للعيش دونه لتعلق قلبه به وتوله فيه، ومعلوم أن الإنسان لا يرضى لفوت ما هذا شأنه وإن احتمل في سبيل حفظه أي مكروه إلا أن يصرفه عنه الغفلة فيفرط في جنبه ولذلك عقب الكلام بقوله: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾

ب. فالمعنى، والله أعلم، وخوفهم يوما يقضى فيه الأمر فيتحتم عليهم الهلاك الدائم فينقطعون عن سعادتهم الخالدة التي فيها قرة أعينهم فيتحسرون عليها حسرة لا تقدر بقدر إذ غفلوا في الدنيا فلم يسلكوا الصراط الذي يهديهم ويوصلهم إليها بالاستقامة وهو الإيمان بالله وحده وتنزيهه عن الولد والشريك.

ج. وفيما قدمناه كفاية عن تفاريق الوجوه التي أوردوها في تفسير الآية والله الهادي.

٣. ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْها وَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ﴾:

أ. قال الراغب في المفردات: (الوراثة والإرث انتقال قنية إليك عن غيرك من غير عقد ولا ما يجري مجرى العقد وسمي بذلك المنتقل عن الميت، إلى أن قال، ويقال: ورثت مالا عن زيد وورثت زيدا)

ب. والآية، كأنها، تثبيت ونوع تقريب لقوله في الآية السابقة: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ فالمعنى وهذا القضاء سهل يسير علينا فإنا نرث الأرض وإياهم وإلينا يرجعون ووراثة الأرض أنهم يتركونها بالموت فيبقى لله تعالى ووراثة من عليها أنهم يموتون فيبقى ما بأيديهم لله سبحانه، وعلى هذا فالجملتان ﴿نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْها﴾ في معنى جملة واحدة (نرث عنهم الأرض)

ج. ويمكن أن نحمل الآية على معنى أدق من ذلك وهو أن يراد أن الله سبحانه هو الباقي بعد فناء كل شيء فهو الباقي بعد فناء الأرض يملك عنها ما كانت تملكه من الوجود وآثار الوجود وهو الباقي بعد فناء الإنسان يملك ما كان يملكه كما قصر الملك لنفسه في قوله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وقوله: ﴿وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ وَيَأْتِينا فَرْداً﴾ [مريم: ٨٤]

د. ويرجع معنى هذه الوراثة إلى رجوع الكل وحشرهم إليه تعالى فيكون قوله: ﴿وَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ﴾ عطف تفسير وبمنزلة التعليل للجملة الثانية أو لمجموع الجملتين بتغليب أولي العقل على غيرهم أو لبروز

كل شيء يومئذ أحياء عقلاء، وهذا الوجه أسلم من شبهة التكرار اللازم للوجه الأول فإن الكلام عليه نظير أن يقال ورثت مال زيد وزيدا.

هـ. واختتام الكلام على قصة عيسى عليه السلام بهذه الآية لا يخلو عن مناسبة فإن وراثته تعالى من الحجج على نفي الولد فإن الولد إنما يراد ليكون وارثا لوالده فالذي يرث كل شيء في غنى عن الولد.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: وروى مسلم في الصحيح بالإسناد عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، قيل: يا أهل الجنة فيشرفون وينظرون، وقيل: يا أهل النار فيشرفون وينظرون، فيجاء بالموت كأنه كبش أملح فيقال لهم: تعرفون الموت؟ فيقولون: هذا وكل قد عرفه، قال: فيقدم فيذبح ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت: قال: فذلك قوله: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ الآية، قال: ورواه أصحابنا عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام ثم جاء في آخره: فيفرح أهل الجنة فرحا، لو كان أحد يومئذ ميتا لماتوا فرحا، ويشهق أهل النار شهقة، لو كان أحد ميتا لماتوا.

• أقول: وروى هذا المعنى غير مسلم من أرباب الجوامع كالبخاري والترمذي والنسائي والطبري وغيرهم عن أبي سعيد وأبي هريرة وابن مسعود وابن عباس.

ب. وفي تفسير القمي: وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ قال: كل شيء خلقه الله يرثه الله يوم القيامة.

• أقول: وهذا هو المعنى الثاني من معنيي الآية المتقدمة في تفسيرها.

١٢. دعوة إبراهيم لأبيه إلى التوحيد:

المقطع [١٢] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤١ـ٤٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٥٦»:

١. ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا﴾:

أ. الظاهر أن الصديق اسم مبالغة من الصدق فهو الذي يبالغ في الصدق فيقول ما يفعل ويفعل ما يقول لا مناقضة بين قوله وفعله، وكذلك كان إبراهيم عليه السلام قال بالتوحيد في عالم وثني وهو وحده فحاج أباه وقومه وقاوم ملك بابل وكسر الآلهة وثبت على ما قال حتى ألقي في النار ثم اعتزلهم وما يعبدون كما وعد أباه أول يوم فوهب الله له إسحاق ويعقوب إلى آخر ما عده تعالى من مواهبه.

ب. وقيل: إن الصديق اسم مبالغة للتصديق، ومعناه: أنه كان كثير التصديق للحق يصدقه بقوله وفعله، وهذا المعنى وإن وافق المعنى الأول بحسب المال لكن يبعده ندرة مجيء صيغة المبالغة من المزيد فيه.

ج. والنبي على وزن فعيل مأخوذ من النبإ سمي به النبي لأنه عنده نبأ الغيب بوحي من الله، وقيل: هو مأخوذ من النبوة بمعنى الرفعة سمي به لرفعة قدره.

٢. ﴿إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾:

أ. ظرف لإبراهيم حيث إن المراد بذكره وذكر نبئه وقصته كما تقدم نظيره في قوله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ﴾ وأما قول من قال بكونه ظرفا لقوله: ﴿صِدِّيقاً﴾ أو قوله: ﴿نَبِيًّا﴾ فهو تكلف يستبشعه الطبع السليم.

ب. وقد نبه إبراهيم أباه فيما ألقى إليه من الخطاب أولا أن طريقه الذي يسلكه بعبادة الأصنام لغو باطل، وثانيا أن له من العلم ما ليس عنده فليتبعه ليهديه إلى طريق الحق لأنه على خطر من ولاية الشيطان.

ج. فقوله: ﴿يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ﴾، إنكار توبيخي لعبادته الأصنام وقد عدل من ذكر الأصنام إلى ذكر أوصافها ﴿ما لا يَسْمَعُ﴾، ليشير إلى الدليل في ضمن إلقاء المدلول ويعطي الحجة في طي المدعى وهو أن عبادة الأصنام لغو باطل من وجهين:

• أحدهما: أن العبادة إظهار الخضوع وتمثيل التذلل من العابد للمعبود فلا يستقيم إلا مع علم المعبود بذلك، والأصنام جمادات مصورة فاقدة للشعور لا تسمع ولا تبصر فعبادتها لغو لا أثر لها، وهذا هو الذي أشار إليه بقوله: ﴿لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ﴾

• وثانيهما: أن العبادة والدعاء ورفع الحاجة إلى شيء إنما ذلك ليجلب للعابد نفعا أو يدفع عنه ضررا فيتوقف ولا محالة على قدرة في المعبود على ذلك، والأصنام لا قدرة لها على شيء فلا تغني عن عابدها

شيئا بجلب نفع أو دفع ضرر فعبادتها لغو لا أثر لها، وهذا هو الذي أشار إليه بقوله: ﴿وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾

د. وقد تقدم في تفسير سورة الأنعام أن هذا الذي كان يخاطبه إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿يا أَبَتِ﴾ لم يكن والده وإنما كان عمه أو جده لأمه أو زوج أمه بعد وفاة والده فراجع.

هـ. والمعروف من مذهب النحاة في لفظ (يا أبت) أن التاء عوض من ياء المتكلم ومثله (يا أمت) ويختص التعويض بالنداء فلا يقال مثلا قال أبت وقالت أمت.

٣. ﴿يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا﴾:

أ. لما بين له بطلان عبادته للأصنام ولغويتها وكان لازم معناه أنه سألك طريق غير سوي عن جهل نبهه أن له علما بهذا الشأن ليس عنده وعليه أن يتبعه حتى يهديه إلى صراط، وهو الطريق الذي لا يضل سالكه لوضوحه، سوي هو في غفلة من أمره، ولذا نكره إذ قال: ﴿أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا﴾ ولم يقل: أهدك الصراط السوي كأنه يقول: إذ كنت تسلك صراطا ولا محالة من سلوكه فلا تسلك هذا الصراط غير السوي بجهالة بل اتبعني أهدك صراطا سويا فإني لذو علم بهذا الشأن.

ب. وفي قوله: ﴿قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ﴾ دليل على أنه أوتي العلم بالحق قبل دعوته ومحاجته هذه وفيه تصديق ما قدمناه في قصته عليه السلام من سورة الأنعام أنه أوتي العلم بالله ومشاهدة ملكوت السماوات والأرض قبل أن يلقى أباه وقومه ويحاجهم.

ج. والمراد بالهداية في قوله: ﴿أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا﴾ الهداية بمعنى إراءة الطريق دون الإيصال إلى المطلوب فإنه شأن الإمام ولم يجعل إماما، بعد وقد فصلنا القول في هذا المعنى في تفسير قوله تعالى: ﴿قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً﴾ [البقرة: ١٣٤]

٤. ﴿يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا﴾:

أ. الوثنيون يرون وجود الجن، وإبليس من الجن، ويعبدون أصنامهم كما يعبدون أصنام الملائكة والقديسين من البشر، غير أنه ليس المراد بالنهي النهي عن العبادة بهذا المعنى إذ لا موجب لتخصيص الجن من بين معبوديهم بالنهي عن عبادتهم بل المراد بالعبادة الطاعة كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ﴾ الآية: [يس: ٦٠]، فالنهي عن عبادة الشيطان نهي عن طاعته فيما يأمر به ومما

يأمر به عبادة غير الله.

ب. لما دعاه إلى اتباعه ليهديه إلى صراط سوي أراد أن يحرضه على الاتباع بقلعه عما هو عليه فنبهه على أن عبادة الأصنام ليست مجرد لغو لا يضر ولا ينفع بل هي في معرض أن تورد صاحبها مورد الهلاك وتدخله تحت ولاية الشيطان التي لا مطمع بعدها في صلاح وفلاح ولا رجاء لسلامة وسعادة.

ج. وذلك أن عبادتها، والمستحق للعبادة هو الله سبحانه لكونه رحمانا تنتهي إليه كل رحمة، والتقرب إليها إنما هي من الشيطان وتسويله، والشيطان عصي للرحمن لا يأمر بشيء فيه رضاه وإنما يوسوس بما فيه معصيته المؤدية إلى عذابه وسخطه والعكوف على معصيته وخاصة في أخص حقوقه وهي عبادته وحده، فيه مخافة أن ينقطع عن العاصي رحمته وهي الهداية إلى السعادة وينزل عليه عذاب الخذلان فلا يتولى الله أمره فيكون الشيطان هو مولاه وهو ولي الشيطان وهو الهلاك.

د. فمعنى الآيتين، والله أعلم، يا أبت لا تطع الشيطان فيما يأمرك به من عبادة الأصنام لأن الشيطان عصي مقيم على معصية الله الذي هو مصدر كل رحمة ونعمة فهو لا يأمر إلا بما فيه معصيته والحرمان عن رحمته، وإنما أنهاك عن معصيته في طاعة الشيطان لأني أخاف يا أبت أن يأخذك شيء من عذاب خذلانه وينقطع عنك رحمته فلا يبقى لتولي أمرك إلا الشيطان فتكون وليا للشيطان والشيطان مولاك.

هـ. وقد ظهر مما تقدم:

• أولا: أن المراد بالعبادة في قوله: ﴿لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ﴾ عبادة الطاعة، ولوصف الشيطان، ومعناه الشرير، دخل في الحكم.

• وثانيا: وجه تبديل اسم الجلالة من وصف الرحمن في موضعين فإن لوصف الرحمة المطلقة دخلا في الحكمين فإن كونه تعالى مصدرا لكل رحمة ونعمة هو الموجب لقبح الإصرار على معصيته والمصحح للنهي عن طاعة من يقيم على عصيانه، وكذا مصدريته لكل رحمة هو الباعث على الخوف من عذابه الذي يلازم إمساك الرحمة وغشيان النقمة والشقوة.

• وثالثا: أن المراد بالعذاب هو الخذلان، أو ما هو بمعناه كإمساك الرحمة وترك الإنسان ونفسه، وما ذكره بعضهم أن المراد به العذاب الأخروي لا يساعد عليه السياق.

١٣. رفض الأب وتهديده بالرجم وهجر إبراهيم واستغفاره:

المقطع [١٣] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٦-٤٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٥٩»:

١. ﴿قالَ أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾:

أ. الرغبة عن الشيء نقيض الرغبة فيه كما في المجمع: (والانتهاء: الكف عن الفعل بعد النهي، والرجم: الرمي بالحجارة، والمعروف من معناه القتل برمي الحجارة، والهجر هو الترك والمفارقة، والملي: الدهر الطويل)

ب. وفي الآية تهديد لإبراهيم بأخزى القتل وأذله وهو الرجم الذي يقتل به المطرودون، وفيها طرد آزر لإبراهيم عن نفسه.

٢. ﴿قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا﴾:

أ. الحفي على ما ذكره الراغب: (البر اللطيف وهو الذي يتتبع دقائق الحوائج فيحسن ويرفعها واحدا بعد واحد، يقال: حفا يحفو حفي وحفوة، وإحفاء السؤال والإحفاء فيه: الإلحاح والإمعان فيه)

ب. قابل إبراهيم عليه السلام أباه فيما أساء إليه وهدده وفيه سلب الأمن عنه من قبله بالسلام الذي فيه إحسان وإعطاء أمن، ووعده أن يستغفر له ربه وأن يعتزلهم وما يدعون من دون الله كما أمره أن يهجره مليا.

ج. أما السلام فهو من دأب الكرام قابل به جهالة أبيه إذ هدده بالرجم وطرده لكلمة حق قالها، قال تعالى: ﴿وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً﴾ [الفرقان: ٧٢]، وقال: ﴿وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً﴾ [الفرقان: ٦٣]، وأما ما قيل: إنه كان سلام توديع وتحية مفارقة وهجرة امتثالا لقوله: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ ففيه أنه اعتزله وقومه بعد مدة غير قصيرة.

د. وأما استغفاره لأبيه وهو مشرك فظاهر قوله: ﴿يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا﴾ إنه عليه السلام لم يكن وقتئذ قاطعا بكونه من أولياء الشيطان أي مطبوعا على قلبه بالشرك جاحدا معاندا للحق عدوا لله سبحانه ولو كان قاطعا لم يعبر بمثل قوله: ﴿إِنِّي أَخافُ﴾ بل كان

يحتمل أن يكون جاهلا مستضعفا لو ظهر له الحق اتبعه، ومن الممكن أن تشمل الرحمة الإلهية لأمثال هؤلاء قال تعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً فَأُولئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُوراً﴾ [النساء: ٩٩]، فاستعطفه عليه السلام بوعد الاستغفار ولم يحتم له المغفرة بل أظهر الرجاء بدليل قوله: ﴿إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا﴾ وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤]

هـ. ويؤيد ما ذكر قوله تعالى: ﴿ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ، وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، فتبريه بعد تبين عداوته دليل على أنه كان قبل ذلك عند الموعدة يرجو أن يكون غير عدو لله مع كونه مشركا، وليس ذلك إلا الجاهل غير المعاند.

و. ويؤيد هذا النظر قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ إلى أن قال: ﴿لا يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]

٣. ومما قيل في توجيه استغفاره لأبيه وهو مشرك:

أ. أنه وعده الاستغفار واستغفر له بمقتضى العقل فإن العقل لا يأبى عن تجويزه وإنما منع منه النقل ولم يثبت يومئذ المنع عنه شرعا ثم لما حرم ذلك في شرعه تبرأ منه.

- وفيه: أنه لا ينطبق على آيات القصة كما يظهر بالتأمل فيما قدمناه.

ب. ومنها: أن معنى استغفاره كان مشروطا بتوبته وإيمانه، وهو كما ترى.

ج. ومنها: أن معنى ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ سأدعو الله أن لا يعذبك في الدنيا، وهو كسابقه تقييد من غير مقيد.

د. ومنها: أنه وعد الدعاء بالمسبب وهو بالاستلزام وعد للدعاء بالسبب فمعنى سأسأل الله أن يغفر لك، سأسأله أن يوفقك للتوبة ويهديك للإيمان فيغفر لك، ويمكن أن يجعل طلب المغفرة كناية عن طلب توفيق التوبة والهداية إلى الإيمان.

• وهذا وإن كان أعدل الوجوه لكنه لا يخلو عن بعد لأن في الكلام استعطافا وهو بطلب المغفرة أنسب منه بطلب التوفيق والهداية، تأمل فيه.

٤. ونظير دعائه لأبيه دعاؤه لعامة المشركين في قوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]

٥. ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسى أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ وعد باعتزالهم والابتعاد منهم ومن أصنامهم ليخلو بربه ويخلص الدعاء له رجاء أن لا يكون بسبب دعائه شقيا وإنما أخذ بالرجاء لأن هذه الأسباب من الدعاء والتوجه إلى الله ونحوه ليست بأسباب موجبة عليه تعالى شيئا بل الإثابة والإسعاد ونحوه بمجرد التفضل منه تعالى، على أن الأمور بخواتمها ولا يعلم الغيب إلا الله فعلى المؤمن أن يسير بين الخوف والرجاء.

٦. ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ إلى آخر الآيتين، لعل الاقتصار على ذكر إسحاق لتعلق الغرض بذكر توالي النبوة في الشجرة الإسرائيلية ولذلك عقب إسحاق بذكر يعقوب فإن في نسله جما غفيرا من الأنبياء، ويؤيد ذلك أيضا قوله: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا﴾

٧. ﴿وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا﴾ من الممكن أن يكون المراد به الإمامة كما وقع في قوله: ﴿وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنا صالِحِينَ وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا﴾ [الأنبياء: ٧٣]، أو التأييد بروح القدس كما يشير إليه قوله: ﴿وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ﴾ الآية: [الأنبياء: ٧٣] على ما سيجيء من معناه أو مطلق الولاية الإلهية.

٨. ﴿وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ اللسان، على ما ذكروا، هو الذكر بين الناس بالمدح أو الذم وإذا أضيف إلى الصدق فهو الثناء الجميل الذي لا كذب فيه، والعلي هو الرفيع والمعنى وجعلنا لهم ثناء جميلا صادقا رفيع القدر.

١٤. هبة الله لإبراهيم إسحاق ويعقوب وجعلهما أنبياء:

المقطع [١٤] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٩-٥٠]، لم يفسر الآية الكريمة، ومعناها واضح، وهو:

١ . يخبر الله تعالى أن إبراهيم عليه السلام لما هجر قومه وما يعبدونه من الأصنام، وآثر عبادة الله وحده، وهب الله له إسحاق ويعقوب، وجعل كلًا منهما نبيًا، وأعطاهم من الرحمة النبوية والبركة، وجعل لهم ذكرًا حسنًا وثناءً عاليًا في الأجيال المتأخرة، فلا يُذكر إبراهيم إلا ويُذكر معه إسحاق ويعقوب بالخير.

٢ . وهي تشير إلى:

أ. أن الهجران في الله، وترك عبادة ما سواه، سبب لحصول البركات والذرية الصالحة والنبوة.

ب. أن نعمة النبوة من أعظم الهبات، وهي لا تُنال إلا بالاصطفاء الإلهي والطهارة والصدق.

ج. أن من ثمرات الإخلاص لله: الذكر الحسن والثناء الجميل بين الناس، فهو من أجَلِّ العطايا.

د. أن الرحمة الإلهية تشمل من اعتزل الباطل وأقبل على الحق، فيُبارك له في ذريته وعمله.

هـ. أن حسن الذكر في الدنيا من علامات قبول العبد عند ربه، وهو فضل من الله يهبه لمن يشاء.

١٥ . إخلاص موسى ورسالته ومناجاته عند الطور وهبة هارون:

المقطع [١٥] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥١-٥٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٦٢»:

١ . ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾ قد تقدم معنى المخلص بفتح اللام وأنه الذي أخلصه الله لنفسه فلا نصيب لغيره تعالى فيه لا في نفسه ولا في عمله، وهو أعلى مقامات العبودية، وتقدم أيضا الفرق بين الرسول والنبي.

٢ . ﴿وَنادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْناهُ نَجِيًّا﴾:

أ. الأيمن: صفة لجانب أي الجانب الأيمن من الطور، وفي المجمع: (النجي بمعنى المناجي كالجليس والضجيع.

ب. وظاهر أن تقريبه عليه السلام كان تقريبا معنويا وإن كانت هذه الموهبة الإلهية في مكان وهو الطور ففيه كان التكليم، ومثاله من الحس أن ينادي السيد العزيز عبده الذليل فيقربه من مجلسه حتى يجعله نجيا يناجيه ففيه نيل ما لا سبيل لغيره إليه.

٣ . ﴿وَوَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا﴾ إشارة إلى إجابة ما دعا به موسى عند ما أوحى إليه

لأول مرة في الطور إذ قال: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٣٢]

١٦. صدق إسماعيل في الوعد وأمره أهله بالصلاة والزكاة:

المقطع [١٦] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤-٥٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٦٣»:

١. ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ﴾:

أ. اختلفوا في ﴿إِسْمَاعِيلَ﴾ هذا فقال الجمهور هو إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن، وإنما ذكر وحده ولم يذكر مع إسحاق ويعقوب اعتناء بشأنه، وقيل: هو غيره، وهو إسماعيل بن حزقيل من أنبياء بني إسرائيل، ولو كان هو ابن إبراهيم لذكر مع إسحاق ويعقوب.

ب. ويضعف ما وجه به قول الجمهور: أنه استقل بالذكر اعتناء بشأنه، أنه لو كان كذلك لكان الأنسب ذكره بعد إبراهيم وقبل موسى عليه السلام لا بعد موسى.

٢. ﴿وَكانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ وَكانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾:

أ. المراد بأهله خاصته من عترته وعشيرته وقومه كما هو ظاهر اللفظ، وقيل: المراد بأهله أمته وهو قول بلا دليل.

ب. والمراد بكونه عند ربه مرضيا كون نفسه مرضية دون عمله كما ربما فسره به بعضهم فإن إطلاق اللفظ لا يلائم تقييد الرضا بالعمل.

٣. وضع هنا مبحثا حول [قصة إسماعيل صادق الوعد]، خلاصته:

أ. لم ترد قصة إسماعيل بن حزقيل النبي في القرآن إلا في هاتين الآيتين على أحد التفسيرين، وقد أثنى الله عليه بجميل الثناء: وصفه بصادق الوعد، وآمراً بالمعروف، ومرضياً عند ربه، ورسولاً نبياً.

ب. الروايات تؤكد أنه ليس إسماعيل بن إبراهيم، بل نبي من الأنبياء بعثه الله إلى قومه، فأخذوه وسلخوا فروة رأسه ووجهه، فقال له ملك: (مرني بما شئت)، فقال: (لي أسوة بما يصنع بالأنبياء)

ج. سبب تسميته ﴿صَادِقَ الْوَعْدِ﴾: أنه وعد رجلاً فجلس له حولاً ﴿سَنَةٍ﴾ ينتظره حتى رجع،

وهذا هو أعلى مراتب الوفاء بالوعد، حيث أخذ بإطلاق القول وأقام حتى وإن طال الزمان.

د. الوفاء بالوعد له مراتب، وأعلاها أن لا يلقي الإنسان من القول إلا ما في وسعه أن يصدقه بالفعل، ثم إذا لفظ لم يصرفه عن إتمام الكلمة أي صارف، وقد ورد أن النبي ﷺ وعد بعض أصحابه بمكة أن ينتظره عند الكعبة، فمضى الرجل ونسي، فبقي النبي ثلاثة أيام ينتظره.

١٧. صدق إدريس ورفعه مكانا عليا:

المقطع [١٧] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٦ـ٥٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٦٣»:

١. ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا﴾ قالوا: إن إدريس النبي كان اسمه أخنوخ وهو من أجداد نوح عليه السلام على ما ذكر في سفر التكوين من التوراة، وإنما اشتهر بإدريس لكثرة اشتغاله بالدرس.

٢. ﴿وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا﴾:

أ. من الممكن أن يستفاد من سياق القصص المسرودة في السورة وهي تعد مواهب النبوة والولاية وهي مقامات إلهية معنوية أن المراد بالمكان العلي الذي رفع إليه درجة من درجات القرب إذ لا مزية في الارتفاع المادي والصعود إلى أقاصي الجو البعيدة أينما كان.

ب. وقيل: إن المراد بذلك، كما ورد به الحديث، أن الله رفعه إلى بعض السماوات وقبضه هناك، وفيه إراءة آية خارقة وقدرة إلهية بالغة وكفى بها مزية.

٣. وضع هنا مبحثا حول [قصة إدريس النبي عليه السلام]، خلاصته:

أ. لم يذكر إدريس عليه السلام في القرآن إلا في آيتين: سورة مريم (وصفه بالصدّيق والنبي، ورفعه مكاناً علياً)، وسورة الأنبياء (وصفه بالصبر والصالحين، وإدخاله في الرحمة)، وقد أثنى الله عليه ثناءً جميلاً.

ب. الروايات الواردة في قصته متنوعة: منها ما يذكر قصته مع الملك الجبار وخروجه إلى الكهف ودعائه على قومه، ومنها ما يذكر قصة رفعه إلى السماء ولقائه بملك الموت، ومنها ما يذكر أنه أول من خط بالقلم وأول من خاط.

ج. الروايات التي تذكر رفعه إلى السماء ولقاءه ملك الموت وتعلقه بالجنة، هي روايات إسرائيلية

لعبت بها أيدي الوضع، وتدفعها الموازين العلمية والأصول المسلمة من الدين (كنزاهة الملائكة عن الذنب)

د. إدريس يسمى أيضاً (هرمس) عند الحكماء، و(خنوخ) عند العبرانيين، اختلفوا في مولده: فقيل ولد بمصر، وقيل ببابل، وهو أول من استخرج الحكمة وعلم النجوم، وأول من خط بالقلم، وأول من خاط، وقد علمه الله منطق الناس باثنين وسبعين لساناً، وقرر قواعد المدنية والسياسة.

هـ. قصة إدريس تدل على أنه من أقدم أئمة العلم الذين ساقوا العالم الإنساني إلى ساحة التفكر الاستدلالي والإمعان في البحث عن المعارف الإلهية، أو هو أولهم عليه السلام.

١٨. الأنبياء الذين أنعم الله عليهم وسجودهم وبكاؤهم:

المقطع [١٨] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٧٣»:

١. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾:

أ. الإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى المذكورين قبل الآية في السورة وهم زكريا ويحيى ومريم وعيسى وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس عليه السلام.

ب. وقد تقدمت الإشارة إليه من سياق آيات السورة وأن القصص الموردة فيها أمثلة، وأن هذه الآية واللتين بعدها نتيجة مستخرجة منها، ولازم ذلك أن يكون قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ مشيرا إلى أصحاب القصص بأعيانهم مبتدأ، وقوله: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ صفة له، وقوله: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾، خبرا له فهذا هو الذي يهدي إليه التدبر في السياق، ولو أخذ قوله: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ خبرا لقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ فقوله: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾، خبر له بعد خبر لكنه لا يلائم غرض السورة تلك الملاءمة.

ج. وقد أخبر الله سبحانه أنه أنعم عليهم وأطلق القول فيهم ففيه دلالة على أنهم قد غشيتهم النعمة الإلهية من غير نقمة وهذا هو معنى السعادة فليست السعادة إلا النعمة من غير نقمة فهؤلاء أهل السعادة والفلاح بتمام معنى الكلمة وقد أخبر تعالى عنهم أنهم أصحاب الصراط المستقيم المصون سالكه عن الغضب والضلال إذ قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الحمد: ٧]، وهم في أمن واهتداء لقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، فأصحاب الصراط المستقيم المصونون عن الغضب والضلال ولم يلبسوا إيمانهم بظلم في أمن من كل خطر يهدد الإنسان تهديدا فهم سعداء في سلوكهم سبيل الحياة التي سلكوها والسبيل التي سلكوها، هي سبيل السعادة.

٢. ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ من فيه للتبعيض وعديله قوله الآتي: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنا وَاجْتَبَيْنا﴾ على ما سيأتي توضيحه، وقد جوز المفسرون كون (من) بيانية وأنت خبير بأن ذلك لا يلائم كون ﴿أُولئِكَ﴾ مشيرا إلى المذكورين من قبل، لأن النبيين أعم، اللهم إلا أن يكون إشارة إليهم بما هم أمثلة لأهل السعادة ويكون المعنى أولئك المذكورون وأمثالهم الذين أنعم الله عليهم هم النبيون ومن هدينا واجتبينا.

٣. ﴿مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ في معنى الصفة للنبيين ومن فيه للتبعيض أي من النبيين الذين هم بعض ذرية آدم، وليس بيانا للنبيين لاختلال المعنى بذلك.

٤. ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ﴾ معطوف على قوله: ﴿مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ والمراد بهم المحمولون في سفينة نوح عليه السلام وذريتهم وقد بارك الله عليهم، وهم من ذرية نوح لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]

٥. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَإِسْرائِيلَ﴾:

أ. معطوف كسابقه على قوله: ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ﴾

ب. وقد قسم الله تعالى الذين أنعم عليهم من النبيين على هذه الطوائف الأربع أعني ذرية آدم ومن حمله مع نوح وذرية إبراهيم وذرية إسرائيل وقد كان ذكر كل سابق يغني عن ذكر لاحقه لكون ذرية إسرائيل من ذرية إبراهيم والجميع ممن حمل مع نوح والجميع من ذرية آدم عليه السلام.

٦. ولعل الوجه فيه الإشارة إلى نزول نعمة السعادة وبركة النبوة على نوع الإنسان كرة بعد كرة فقد ذكر ذلك في القرآن الكريم في أربعة مواطن لطوائف أربع:

أ. أحدها: لعامة بني آدم حيث قال: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩]

ب. والثاني: ما في قوله تعالى: ﴿قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَعَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨]، والثالث ما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَإِبْراهِيمَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦]، والرابع ما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦]

٧. فهذه مواعد أربع بتخصيص نوع الإنسان بنعمة النبوة وموهبة السعادة، وقد أشير إليها في الآية المبحوث عنها بقوله: ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَإِسْرائِيلَ﴾، وقد ذكر في القصص السابقة من كل من الذراري الأربع كإدريس من ذرية آدم، وإبراهيم من ذرية من حمل مع نوح، وإسحاق ويعقوب من ذرية إبراهيم، وزكريا ويحيى وعيسى وموسى وهارون وإسماعيل، على ما استظهرنا، من ذرية إسرائيل.

٨. ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنا وَاجْتَبَيْنا﴾:

أ. معطوف على قوله: ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ وهؤلاء غير النبيين من الذين أنعم الله عليهم فإن هذه النعمة غير خاصة بالنبيين ولا منحصرة فيهم بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً﴾ [النساء: ٦٩] وقد ذكر الله سبحانه بين من قص قصته مريم عليه السلام معتنيا بها إذ قال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ﴾ وليست من النبيين فالمراد بقوله: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنا وَاجْتَبَيْنا﴾ غير النبيين من الصديقين والشهداء والصالحين لا محالة، وكانت مريم من الصديقين لقوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥]

ب. ومما تقدم من مقتضى السياق يظهر فساد قول من جعل ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنا وَاجْتَبَيْنا﴾ معطوفا على قوله: ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ مع أخذ من للبيان، وأورد عليه بعضهم أيضا بأن ظاهر العطف المغايرة فيحتاج إلى أن يقال: المراد ممن جمعنا له بين النبوة والهداية والاجتباء للكرامة وهو خلاف الظاهر، وفيه منع كون ظاهر العطف المغايرة مصداقا وإنما هو المغايرة في الجملة ولو بحسب الوصف والبيان.

ج. ونظيره قول من قال بكونه معطوفا على قوله: ﴿مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ ومن للتبعيض وقد اتضح وجه

فساده مما قدمناه.

د. ونظيره قول من قال: إن قوله: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنا﴾ استئناف من غير عطف فقد تم الكلام عند قوله: ﴿إِسْرائِيلَ﴾ ثم ابتدأ فقال: وممن هدينا واجتبينا من الأمم قوم إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا فحذف المبتدأ لدلالة الكلام عليه، والوجه منسوب إلى أبي مسلم المفسر، وفيه أنه تقدير من غير دليل، على أن في ذلك إفساد غرض على ما يشهد به السياق إذ الغرض منها بيان طريقة أولئك العباد المنعم عليهم وأنهم كانوا خاضعين لله خاشعين له وأن أخلافهم أعرضوا عن طريقتهم وأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وهذا لا يتأتى إلا بكون قوله: ﴿إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ﴾ خبرا لقوله: ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ وأخذ قوله: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنا﴾ استئنافا مقطوعا عما قبله إفساد للغرض المذكور من رأس.

٩. ﴿إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا﴾:

أ. السجد جمع ساجد والبكي على فعول جمع باكي والجملة خبر للذين في صدر الآية ويحتمل أن يكون الخرور سجدا وبكيا كناية عن كمال الخضوع والخشوع فإن السجدة ممثل لكمال الخضوع والبكاء لكمال الخشوع والأنسب على هذا أن يكون المراد بالآيات وتلاوتها ذكر مطلق ما يحكي شأنا من شئونه تعالى.

ب. وأما قول القائل إن المراد بتلاوة الآيات قراءة الكتب السماوية مطلقا أو خصوص ما يشتمل على عذاب الكفار والمجرمين، أو أن المراد بالسجود الصلاة أو سجدة التلاوة أو أن المراد بالبكاء البكاء عند استماع الآيات أو تلاوتها فكما ترى.

ج. فمعنى الآية، والله أعلم، أولئك المنعم عليهم الذين بعضهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وبعضهم من أهل الهداية والاجتباء خاضعون للرحمن خاشعون إذا ذكر عندهم وتليت آياته عليهم.

د. ولم يقل: كانوا إذا تتلى عليهم لأن العناية في المقام متعلقه ببيان حال النوع من غير نظر إلى ماضي الزمان ومستقبله بل بتقسيمه إلى سلف صالح وخلف طالح وثالث تاب وآمن وعمل صالحا وهو ظاهر.

١٠. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: (في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنا وَاجْتَبَيْنا﴾ الآية، وروي عن علي بن الحسين عليه

السلام أنه قال: نحن عنينا بها)

• أقول: وعن مناقب ابن شهرآشوب، عنه عليه السلام مثله، وقد اتضح معنى الحديث بما قدمناه في تفسير الآية فإن المراد بالجملة أهل الهداية والاجتباء من غير النبيين وهم عليه السلام منهم كما ذكر الله سبحانه مريم منهم وليست بنبية.

ب. قال في روح المعاني: وروى بعض الإمامية عن علي بن الحسين أنه قال: (نحن عنينا بهؤلاء القوم، ولا يخفى أن هذا خلاف الظاهر جدا وحال روايات الإمامية لا يخفى على أرباب التميز)، وقد تبين خطؤه مما تقدم والذي أوقعه في ذلك أخذه قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ معطوفا على قوله: ﴿مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ وقوله: ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ بيانا لقوله: ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ﴾، فانحصر ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ في النبيين فاضطر إلى القول بأن الآية لا تشمل غير النبيين وهو يرى أن الله ذكر فيمن ذكر مريم بنت عمران وليست بنبية.

١٩. تحذير الخلف الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات:

المقطع [١٩] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٧٨»:

١. ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾:

أ. قالوا: الخلف بسكون اللام البدل السيئ وبفتح اللام ضده وربما يعكس على ندرة، وضياع الشيء فساده أو افتقاده بسبب ما كان ينبغي أن يتسلط عليه يقال: أضاع المال إذا أفسده بسوء تدبيره أو أخرجه من يده بصرفه فيما لا ينبغي صرفه فيه، والغي خلاف الرشد وهو إصابة الواقع وهو قريب المعنى من الضلال خلاف الهدى وهو ركوب الطريق الموصل إلى الغاية المقصودة.

ب. فقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ أي قام مقام أولئك الذين أنعم الله عليهم وكانت طريقتهم الخضوع والخشوع لله تعالى بالتوجه إليه بالعبادة قوم سوء أضاعوا ما أخذوه منهم من الصلاة والتوجه العبادي إلى الله سبحانه بالتهاون فيه والإعراض عنه، واتبعوا الشهوات الصارفة لهم عن المجاهدة في الله والتوجه إليه.

ج. ومن هنا يظهر أن المراد بإضاعة الصلاة إفسادها بالتهاون فيها والاستهانة بها حتى ينتهي إلى

أمثال اللعب بها والتغيير فيها والترك لها بعد الأخذ والقبول فما قيل: إن المراد بإضاعة الصلاة تركها ليس بسديد إذ لا يسمى ترك الشيء من رأس إضاعة له والعناية في الآية متعلقه بأن الدين الإلهي انتقل من أولئك السلف الصالح بعدهم إلى هؤلاء الخلف الطالح فلم يحسنوا الخلافة وأضاعوا ما ورثوه من الصلاة التي هي الركن الوحيد في العبودية واتبعوا الشهوات الصارفة عن الحق.

٢. ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أي جزاء غيهم على ما قيل فهو كقوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً﴾ ومن الممكن أن يكون المراد به نفس الغي بفرض الغي غاية للطريق التي يسلكونها وهي طريق إضاعة الصلاة واتباع الشهوات فإذ كانوا يسلكون طريقا غايتها الغي فسيلقونه إذا قطعوها إما بانكشاف غيهم لهم يوم القيامة حيث ينكشف لهم الحقائق أو برسوخ الغي في قلوبهم وصيرورتهم من أولياء الشيطان كما قال: ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]، وكيف كان فهو استعارة بالكناية لطيفة.

٣. أحاديث وآثار:

أ. أخرج أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ وتلا هذه الآية ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ فقال: يكون خلف من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا، ثم يكون خلف يقرءون القرآن لا يعدو تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر.

ب. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿أَضاعُوا الصَّلاةَ﴾ وقيل: أضاعوها بتأخيرها عن مواقيتها من غير أن تركوها أصلا، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

• أقول: وروى في الكافي، ما في معناه بإسناده عن داود بن فرقد عنه عليه السلام، وروي ذلك من طرق أهل السنة عن ابن مسعود وعدة من التابعين.

ج. وعن جوامع الجامع، وفي روح المعاني: في قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ﴾ عن علي عليه السلام، من بنى الشديد وركب المنظور ولبس المشهور.

د. أخرج ابن مردويه من طريق نهشل عن الضحاك عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: الغي واد في جهنم.

• أقول: وفي روايات أخرى أن الغي وأثام نهران في جهنم، وهذا على تقدير صحة الحديث ليس بتفسير آخر كما زعمه أكثر المفسرين بل بيان لما سيئول إليه الغي بحسب الجزاء، ونظيره ما ورد أن الويل بئر في جهنم وأن طوبى شجرة في الجنة، إلى غير ذلك من الروايات.

٢٠. وعد التائبين بالجنة ونعيمها والسلام فيها:

المقطع [٢٠] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٠-٦٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٧٨»:

١. ﴿إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً﴾ استثناء من الآية السابقة فهؤلاء الراجعون إلى الله سبحانه ملحقون بأولئك الذين أنعم الله عليهم وهم معهم لا منهم كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً﴾ [النساء: ٦٩]

٢. ﴿فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ من وضع المسبب موضع السبب والأصل فأولئك يوفون أجرهم، والدليل على ذلك قوله بعده: ﴿وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً﴾ فإنه من لوازم توفية الأجر لا من لوازم دخول الجنة.

٣. ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ العدن الإقامة ففي تسميتها به إشارة إلى خلودها لداخليها، والوعد بالغيب هو الوعد بما ليس تحت إدراك الموعود له، وكون الوعد مأتيا عدم تخلفه، قال في المجمع: (والمفعول هنا بمعنى الفاعل لأن ما أتيته فقد أتاك وما أتاك فقد أتيته يقال: أتيت خمسين سنة وأتت علي خمسون سنة، وقيل: إن الموعود الجنة والجنة يأتيها المؤمنون)

٤. ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلَّا سَلاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ عدم سمع اللغو من أخص صفات الجنة وقد ذكره الله سبحانه وامتن به في مواضع من كلامه وسنفصل القول فيه إن شاء الله في موضع يناسبه، واستثناء السلام منه استثناء منفصل، والسلام قريب المعنى من الأمن، وقد تقدم الفرق بينهما، فقولك: أنت مني في أمن معناه لا تلقى مني ما يسوءك، وقولك: سلام مني عليك معناه كل ما تلقاه مني لا يسوءك، وإنما يسمعون السلام من الملائكة ومن رفقائهم في الجنة، قال تعالى حكاية عن الملائكة ﴿سَلامٌ

عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال: ﴿فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٩١]

٥. ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ الظاهر أن إتيان الرزق بكرة وعشيا كناية عن تواليه من غير انقطاع.

٦. ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا﴾ الإرث والوراثة هو أن ينتقل مال أو ما يشبهه من شخص إلى آخر بعد ترك الأول له بموت أو جلاء أو نحوهما، وإذ كانت الجنة في معرض العطاء لكل إنسان بحسب الوعد الإلهي المشروط بالإيمان والعمل الصالح فاختصاص المتقين بها بعد حرمان غيرهم عنها بإضاعة الصلاة واتباع الشهوات وراثة المتقين، ونظير هذه العناية ما في قوله تعالى: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقوله: ﴿وَقالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤]، والآية، كما ترى، جمعت بين الإيراث والأجر.

٢١. تنزل الملائكة بأمر الله والأمر بعبادته والصبر:

المقطع [٢١] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٤ـ٦٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٨١»:

١. ﴿وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ التنزل هو النزول على مهل وتؤدة فإن تنزل مطاوع نزل يقال: نزله فتنزل والنفي والاستثناء يفيدان الحصر فلا يتنزل الملائكة إلا بأمر من الله كما قال: ﴿لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]

٢. ﴿لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا وَما بَيْنَ ذلِكَ﴾:

أ. يقال: كذا قدامه وأمامه وبين يديه والمعنى واحد غير أن قولنا: بين يديه إنما يطلق فيما كان بقرب منه وهو مشرف عليه له فيه نوع من التصرف والتسلط فظاهر قوله: ﴿ما بَيْنَ أَيْدِينا﴾ أن المراد به ما نشرف عليه مما هو مكشوف علينا مشهود لنا: وظاهر قوله: ﴿وَما خَلْفَنا﴾ بالمقابلة ما هو غائب عنا مستور علينا.

ب. وعلى هذا فلو أريد بقوله: ﴿ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا وَما بَيْنَ ذلِكَ﴾ المكان شمل بعض المكان الذي أمامهم والمكان الذي هم فيه وجميع المكان الذي خلفهم ولم يشمل كل مكان، وكذا لو أريد به الزمان شمل الماضي كله والحال والمستقبل القريب فقط وسياق قوله: ﴿لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا وَما بَيْنَ ذلِكَ﴾،

ينادي بالإحاطة ولا يلائم التبعيض.

ج. فالوجه حمل ﴿ما بَيْنَ أَيْدِينا﴾ على الأعمال والآثار المتفرعة على وجودهم التي هم قائمون بها متسلطون عليها، وحمل ﴿ما خَلْفَنا﴾ على ما هو من أسباب وجودهم مما تقدمهم وتحقق قبلهم، وحمل ﴿ما بَيْنَ ذلِكَ﴾ على وجودهم أنفسهم وهو من أبدع التعبير وألطفه وبذلك تتم الإحاطة الإلهية بهم من كل جهة لرجوع المعنى إلى أن الله تعالى هو المالك لوجودنا وما يتعلق به وجودنا من قبل ومن بعد.

د. ولقد اختلفت كلماتهم في تفسير هذه الجملة:

- فقيل: المراد بما بين أيدينا ما هو قدامنا من الزمان المستقبل وبما خلفنا الماضي وبما بين ذلك الحال.
- وقيل: ما بين أيدينا ما قبل الإيجاد من الزمان، وما خلفنا ما بعد الموت إلى استمرار الآخرة وما بين ذلك هو مدة الحياة.
- وقيل: ما بين الأيدي الدنيا إلى النفخة الأولى وما خلفهم هو ما بعد النفخة الثانية وما بين ذلك ما بين النفختين وهو أربعون سنة.
- وقيل: ما بين أيديهم الآخرة وما خلفهم الدنيا.
- وقيل: ما بين أيديهم ما قبل الخلق وما خلفهم ما بعد الفناء وما بين ذلك ما بين الدنيا والآخرة.
- وقيل: ما بين أيديهم ما بقي من أمر الدنيا وما خلفهم ما مضى منه وما بين ذلك ما هم فيه.
- وقيل: المعنى ابتداء خلقنا ومنتهى آجالنا ومدة حياتنا.
- وقيل: ما بين أيديهم السماء وما خلفهم الأرض وما بين ذلك ما بينهما.
- وقيل: بعكس ذلك.
- وقيل: ما بين أيديهم المكان الذي ينتقلون إليه وما خلفهم المكان الذي ينتقلون منه وما بين ذلك المكان الذي هم فيه.
- وتشترك الأقوال الثلاثة الأخيرة في أن الماءات عليها مكانية كما يشترك السبعة في أن الماءات عليها زمانية وهناك قول بكون الآية تعم الزمان والمكان فهذه أحد عشر قولا ولا دليل على شيء منها مع ما فيها من قياس الملك على الإنسان والوجه ما قدمناه.

هـ. فقوله: ﴿لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا وَما بَيْنَ ذلِكَ﴾ يفيد إحاطة ملكه تعالى بهم ملكا حقيقيا لا

يجري فيه تصرف غيره ولا إرادة من سواه إلا عن إذن منه ومشية وإذ لا معصية للملائكة فلا تفعل فعلا إلا عن أمره ومن بعد إذنه ولا تريد إلا ما أراده الله فلا يتنزل ملك إلا بأمر ربه.

و. وقد تقرر بهذا البيان أن قوله: ﴿لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا وَما بَيْنَ ذلِكَ﴾ في مقام التعليل لقوله: ﴿وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ وأن قوله: ﴿وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ والنسي فعول من النسيان، من تمام التعليل أي أنه تعالى لا ينسى شيئا من ملكه حتى يختل بإهماله أمر التدبير فلا يأمر بالنزول حينما يجب فيه النزول أو يأمر به حينما لا يجب وهكذا وكان هذا هو وجه العدول في الآية عن إثبات العلم أو الذكر إلى نفي النسيان.

ز. وقيل المعنى وما كان ربك نسيا أي تاركا لأنبيائه أي ما كان عدم النزول إلا لعدم الأمر به ولم تكن عن تركه تعالى لك وتوديعه إياك.

• وفيه أنه وإن وافق ما تقدم من سبب النزول بوجه لكن يبقى معه التعليل بقوله: ﴿لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا﴾، ناقصا وينقطع قوله: ﴿رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما﴾ عما تقدمه كما سيتضح.

٣. ﴿رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ صدر الآية أعني قوله: ﴿رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما﴾ تعليل لقوله في الآية السابقة ﴿لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا﴾ أي كيف لا يملك ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وكيف يكون نسيا وهو تعالى رب السماوات والأرض وما بينهما؟ ورب الشيء هو مالكه، المدبر لأمره، فملكه وعدم نسيانه مقتضى ربوبيته.

٤. ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ﴾ تفريع على صدر الآية والمعنى إذا كنا لا نتنزل إلا بأمر ربك وقد نزلنا عليك هذا الكلام المتضمن للدعوة إلى عبادته فالكلام كلامه والدعوة دعوته فاعبده وحده واصطبر لعبادته فليس هناك من يسمى ربا غير ربك حتى لا تصطبر على عبادة ربك وتنتقل إلى عبادة ذلك الغير الذي يسمى ربا فتكتفي بعبادته عن عبادة ربك أو تشرك به وربما قيل: إن الجملة تفريع على قوله: ﴿رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أو على قوله: ﴿وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي لم ينسك ربك فاعبده.، والوجهان كما ترى.

٥. وقد بان بهذا التقرير أمور:

أ. أحدها: أن قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ من تمام البيان المقصود بقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ﴾ وهو في مقام التعليل له.

ب. والثاني: أن المراد بالسمي المشارك في الاسم والمراد بالاسم هو الرب لأن مقتضى بيان الآية ثبوت الربوبية المطلقة له تعالى على كل شيء فهو يقول: هل تعلم من اتصف بالربوبية فسمي لذلك ربا حتى تعدل عنه إليه فتعبده دونه، وبذلك يظهر عدم استقامة عامة ما قيل في معنى السمي في الآية فقد قيل: إن المراد بالسمي المماثل مجازا، وقيل: السمي بمعنى الولد وقيل: هو بمعناه الحقيقي غير أن المراد بالاسم الذي لا مشاركة فيه هو رب السماوات والأرض وقيل: هو اسم الجلالة، وقيل: هو الإله، وقيل: هو الرحمن، وقيل: هو الإله الخالق الرازق المحيي المميت القادر على الثواب والعقاب.

ج. والثالث: أن النكتة في إضافة الرب إلى ضمير الخطاب وتكراره في الآية الأولى إذ قال: بأمر ربك وقال: وما كان ربك ولم يقل: ربنا هي التوطئة لما في ذيل الكلام من توحيد الرب ففي قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ إشارة إلى أن ربنا الذي نتنزل عن أمره هو ربك فالدعوة دعوته فاعبده، ويمكن أن تكون هذه هي النكتة فيما في مفتتح السورة إذ قال: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ لأن الآيات كما نبهنا عليه ذات سياق واحد لغرض واحد.

د. والرابع: أن قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ﴾ مسوق لتوحيد العبادة وليس أمرا بالعبادة وأمرا بالثبات عليها وإدامتها إلا من جهة الملازمة فافهم ذلك.

٦. ويمكن أن يستفاد من التفريع:

أ. أنه تأكيد للبيان الذي يتضمنه السياق السابق على هاتين الآيتين وبذلك يظهر اتصالهما بالآيات السابقة عليهما من غير أن تؤخذا معترضتين من كل جهة.

ب. فكان ملك الوحي لما تنزل عليه ﷺ بالسورة وأوحى إليه الآيات الثلاث والستين منها وهي مشتملة على دعوة كاملة إلى الدين الحنيف خاطبه ﷺ بأنه لم يتنزل وليس يتنزل بما تنزل به من عند نفسه بل عن أمر من ربه وبرسالة من عنده فالكلام كلامه والدعوة دعوته وهو رب النبي ورب كل شيء فليعبده وحده فليس هناك رب آخر يعدل عنه إليه فالآيتان مما أوحي إلى ملك الوحي ليلقيه إلى النبي ﷺ تثبيتا له وتأكيدا للآيات السابقة.

ج. وهذا نظير أن يرسل ملك رسولا بكتاب من عنده أو رسالة إلى بعض عماله فيأتيه الرسول ثم إذا قرأ الكتاب أو أدى الرسالة قال للعامل: إني ما جئتك من عند نفسي بل بأمر من الملك وإشارة منه

والكتاب كتابه والرسالة قوله وحكمه وهو مليكك ومليك عامة من في المملكة فاسمع له وأطع وأقم على ذلك فليس هناك مليك غيره حتى تعدل عنه إليه.

د. فكلام هذا الرسول تأكيد لكلام الملك وإذا فرض أن الملك، هو الذي أمره أن يعقب رسالته بهذا الكلام كان الكلام كلاما للرسول ورسالة أيضا عن قبل الملك وكلامه.

هـ. وغير خفي عليك أن هذا الوجه أوفق بالآيتين وأوضح انطباقا عليهما مما تذكره روايات سبب النزول على ما فيها من الاختلاف والوهن.

٧. عود إلى ما قبل قوله: ﴿وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الآيتين ومضى في الحديث السابق وهو كالتذنيب لقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ بذكر بعض ما تفوهوا به عن غيهم وقد خص بالذكر قول لهم في المعاد وآخر في النبوة وآخر في المبدإ، ففي هذه الآيات أعني قوله: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسانُ﴾ إلى قوله: ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا﴾ وهي سبع آيات ذكر استبعادهم للبعث والجواب عنه وذكر الإشارة إلى ما لقولهم هذا من التبعة والوبال.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن مالك الجهني قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾ قال: فقال: لا مقدرا ولا مكتوبا.

ب. وفي المحاسن، بإسناده عن حمران قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله: ﴿أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ﴾ الآية، قال: لم يكن في كتاب ولا علم.

• أقول: المراد بالحديثين أنه لم يكن في كتاب ولا علم من كتب المحو والإثبات ثم أثبته الله حين أراد كونه وأما اللوح المحفوظ فلا يعزب عنه شيء بنص القرآن.

٢٢. إنكار الإنسان للبعث، ونسيانه لخلقه:

المقطع [٢٢] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٦-٦٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٨٧»:

١. ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسانُ أَإِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾:

أ. إنكار للبعث في صورة الاستبعاد، وهو قول الكفار من الوثنيين ومن يلحق بهم من منكري الصانع بل مما يميل إليه طبع الإنسان قبل الرجوع إلى الدليل، قيل: ولذلك نسب القول إلى الإنسان حينما كان مقتضى طبع الكلام أن يقال: ويقول الكافر، أو: ويقول الذين كفروا، وفيه أنه لا يلائم قوله الآتي: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ إلى قوله: ﴿صِلِيًّا﴾

ب. وليس ببعيد أن يكون المراد بالإنسان القائل ذلك هو الكافر المنكر للبعث وإنما عبر بالإنسان لكونه لا يترقب منه ذلك وقد جهزه الله تعالى بالإدراك العقلي وهو يذكر أن الله خلقه من قبل ولم يك شيئا، فليس من البعيد أن يعيده ثانيا فاستبعاده مستبعد منه، ولذا كرر لفظ الإنسان حيث أخذ في الجواب قائلا: ﴿أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾ أي أنه إنسان لا ينبغي له أن يستبعد وقوع ما شاهد وقوع مثله وهو غير ناسية.

ج. ولعل التعبير بالمضارع في قوله: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسانُ﴾ للإشارة إلى استمرار هذا الاستبعاد بين المنكرين للمعاد والمرتابين فيه.

٢. ﴿أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾ الاستفهام للتعجيب والاستبعاد ومعنى الآية ظاهر وقد أخذ فيها برفع الاستبعاد بذكر وقوع المثل ليثبت به الإمكان، فالآية نظيرة قوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إلى أن قال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١]

٣. سؤال وإشكال: فإن قيل: الاحتجاج بوقوع المثل إنما ينتج إمكان المثل والمطلوب في إثبات المعاد هو رجوع الإنسان بشخصه وعينه لا بمثله فإن مثل الشيء غيره، والجواب:

أ. إن هذه الآيات بصدد إثبات رجوع الأجساد والمخلوق منها ثانيا مثل المخلوق أولا وشخصية الشخص الإنساني بنفسه لا ببدنه فإذا خلق البدن ثانيا وتعلقت به النفس كان شخص الإنسان الدنيوي بعينه وإن كان البدن وهو جزء الإنسان بالقياس إلى البدن الدنيوي مثلا لا عينا وهذا كما أن شخصية الإنسان ووحدته محفوظة في الدنيا مدى عمره مع تغير البدن وتبدله بتغير أجزائه وتبدلها حالا بعد حال والبدن في الحال الثاني غيره في الحال الأول لكن الإنسان باق في الحالين على وحدته الشخصية لبقاء نفسه بشخصها.

ب. وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿وَقالُوا أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ إلى أن قال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١] أي إنكم مأخوذون من أبدانكم محفوظون لا تضلون ولا تفتقدون.

٢٣. حشر الكافرين والشياطين وإحضارهم حول جهنم:

المقطع [٢٣] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّياطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا﴾ [مريم: ٦٨-٧٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٨٨»:

١. ﴿فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّياطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾:

أ. الجثي في أصله على فعول جمع جاثي وهو البارك على ركبتيه، ونسب إلى ابن عباس أنه جمع جثوة وهو المجتمع من التراب والحجارة، والمراد أنهم يحضرون زمرا وجماعات متراكما بعضهم على بعض، وهذا المعنى أنسب للسياق.

ب. وضمير الجمع في ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ و﴿لَنُحْضِرَنَّهُمْ﴾ للكفار، والآية إلى تمام ثلاث آيات متعرضة لحالهم يوم القيامة وهو ظاهر وربما قيل: إن الضميرين للناس أعم من المؤمن والكافر كما أن ضمير الخطاب في قوله الآتي: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها﴾ كذلك وفيه أن لحن الآيات الثلاث وهو لحن السخط والعذاب يأبى ذلك.

ج. والمراد بقوله: ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّياطِينَ﴾ جمعهم خارج القبور مع أوليائهم من الشياطين لأنهم لعدم إيمانهم غاوون كما قال: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ والشياطين أولياؤهم قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]، أو المراد حشرهم مع قرنائهم من الشياطين كما قال: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ.، حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ، وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩]

د. والمعنى: فأقسم بربك لنجمعنهم، يوم القيامة، وأولياءهم أو قرناءهم من الشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم لإذاقة العذاب وهم باركون على ركبهم من الذلة أو وهم جماعات وزمرة زمرة.

هـ. وفي قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ التفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة ولعل النكتة فيه ما تقدم في قوله: ﴿بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ ونظيره قوله الآتي: ﴿كانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً﴾

٢. ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا﴾:

أ. النزع هو الاستخراج، والشيعة الجماعة المتعاونون على أمر أو التابعون لعقيدة والعتي على فعول مصدر بمعنى التمرد في العصيان والظاهر أن قوله: ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا﴾ جملة استفهامية وضع موضع مفعول لننزعن للدلالة على العناية بالتعيين والتمييز فهو نظير قوله: ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧]

ب. والمعنى: ثم لنستخرجن من كل جماعة متشكلة أشدهم تمردا على الرحمن وهم الرؤساء وأئمة الضلال، وقيل المعنى لنستخرجن الأشد ثم الأشد حتى يحاط بهم.

ج. وفي قوله: ﴿عَلَى الرَّحْمنِ﴾ التفات والنكتة تلويح أن تمردهم عظيم لكونه تمردا على من شملت رحمته كل شيء وهم لم يلقوا منه إلا الرحمة والتمرد على من هذا شأنه عظيم.

٣. ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا﴾ الصلي في الأصل على فعول مصدر يقال صلي النار يصلاها صليا وصليا إذا قاسى حرها فالمعنى ثم أقسم لنحن أعلم بمن أولى بالنار مقاساة لحرها أي إن الأمر في دركات عذابهم ومراتب استحقاقهم لا يشتبه علينا.

٢٤. ورود جميع الناس جهنم ثم نجاة المتقين منها:

المقطع [٢٤] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١-٧٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٩٠»:

١. ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا﴾:

أ. الخطاب للناس عامة مؤمنيهم وكافريهم بدليل قوله في الآية التالية: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ والضمير في ﴿وارِدُها﴾ للنار، وربما قيل: إن الخطاب للكفار المذكورين في الآيات الثلاث الماضية وفي الكلام التفات من الغيبة إلى الحضور وفيه أن سياق الآية التالية يأبى ذلك.

ب. والورود خلاف الصدور وهو قصد الماء على ما يظهر من كتب اللغة قال الراغب في المفردات:

(الورود أصله قصد الماء ثم يستعمل في غيره يقال: وردت الماء أرده، ورودا فأنا وارد والماء مورود، وقد أوردت الإبل الماء قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ﴾ والورد الماء المرشح للورود، والورد خلاف الصدر، والورد يوم الحمى إذا وردت، واستعمل في النار على سبيل الفظاعة قال تعالى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ ﴿إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾ ﴿أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ﴾ ﴿ما وَرَدُوها﴾ والوارد الذي يتقدم القوم فيسقي لهم قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ﴾ أي ساقيهم من الماء المورود)

ج. وإلى ذلك استند من قال من المفسرين إن الناس إنما يحضرون النار ويشرفون عليها من غير أن يدخلوها واستدلوا عليه بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]، وقوله: ﴿فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلى دَلْوَهُ﴾ [يوسف: ١٩]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها﴾ [الأنبياء: ١٠٢]

- وفيه أن استعماله في مثل قوله: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ﴾ وقوله: ﴿فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ﴾ في الحضور بعلاقة الإشراف لا ينافي استعماله في الدخول على نحو الحقيقة كما ادعي في آيات أخرى، وأما قوله: ﴿أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها﴾ فمن الجائز أن يكون الإبعاد بعد الدخول كما يستظهر من قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها﴾، وأن يحجب الله بينهم وبين أن يسمعوا حسيسها إكراما لهم كما حجب بين إبراهيم وبين حرارة النار إذ قال للنار: ﴿كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ﴾

د. وقال آخرون ولعلهم أكثر المفسرين بدلالة الآية على دخولهم النار استنادا إلى مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها﴾ [الأنبياء: ٩٩]، وقوله في فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨]، ويدل عليه قوله في الآية التالية: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا﴾ أي نتركهم باركين على ركبهم وإنما يقال نذر ونترك فيها إذا كان داخلا مستقرا في المحل قبل الترك ثم أبقي على ما هو عليه ولعدة من الروايات الواردة في تفسير الآية، وهؤلاء بين من يقول بدخول عامة الناس فيها ومن يقول بدخول غير المتقين مدعيا أن قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ بمعنى منهم على حد قوله: ﴿وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً، إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً﴾ [الدهر: ٢٢]، هذا ولكن لا يلائمه سياق قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الآية.

- وفيه أن كون الورود في مثل قوله: ﴿لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها﴾ بمعنى الدخول ممنوع بل

الأنسب كونه بمعنى الحضور والإشراف فإنه أبلغ كما هو ظاهر وكذا في قوله: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ فإن شأن فرعون وهو من أئمة الضلال هو أن يهدي قومه إلى النار وأما إدخالهم فيها فليس إليه.

• وأما قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها﴾ فالآية دالة على كونهم داخلين فيها بدليل قوله: ﴿نَذَرُ﴾ لكن دلالتها على كونهم داخلين غير كون قوله: ﴿وارِدُها﴾ مستعملا في معنى الدخول وكذا تنجية المتقين لا تستلزم كونهم داخلين فيها فإن التنجية كما تصدق مع إنقاذ من دخل المهلكة تصدق مع إبعاد من أشرف على الهلاك وحضر المهلكة من ذلك.

• وأما الروايات فإنما وردت في شرح الواقعة لا في تشخيص ما استعمل فيه لفظ ﴿وارِدُها﴾ في الآية فالاستدلال بها على كون الورود بمعنى الدخول ساقط.

هـ. سؤال وإشكال: فإن قلت: لم لا يجوز أن يكون المراد شأنية الدخول والمعنى: ما من أحد منكم إلا من شأنه أن يدخل النار وإنما ينجو من ينجو بإنجاء الله على حد قوله: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً﴾ [النور: ٢١]؟ والجواب:

• معناه كون الورود مقتضى طبع الإنسان من جهة أن ما يناله من خير وسعادة فمن الله ولا يبقى له من نفسه إلا الشر والشقاء لكن ينافيه ما في ذيل الآية من قوله: ﴿كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا﴾ فإنه صريح في أن هذا الورود بإيراد من الله وبقضائه المحتوم لا باقتضاء من طبع الأشياء.

• والحق أن الورود لا يدل على أزيد من الحضور والإشراف عن قصد، على ما يستفاد من كتب اللغة، فقوله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها﴾ إنما يدل على القصد والحضور والإشراف، ولا ينافي دلالة قوله في الآية التالية: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا﴾ على دخولهم جميعا أو دخول الظالمين خاصة فيها بعد ما وردوها.

٢. ﴿كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا﴾ ضمير كان للورود أو للجملة السابقة باعتبار أنه حكم، والحتم والجزم والقطع بمعنى واحد أي هذا الورود أو الحكم كان واجبا عليه تعالى مقضيا في حقه وإنما قضى ذلك نفسه على نفسه إذ لا حاكم يحكم عليه.

٣. ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا﴾:

أ. قد تقدمت الإشارة إلى أن قوله: ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها﴾ يدل على كون الظالمين داخلين فيها ثم

يتركون على ما كانوا عليه، وأما تنجية الذين اتقوا فلا تدل بلفظها على كونهم داخلين إذ التنجية ربما تحققت بدونه اللهم إلا أن يستظهر ذلك من ورود اللفظين مقترنين في سياق واحد.

ب. وفي التعبير بلفظ الظالمين إشارة إلى علية الوصف للحكم.

٤. ومعنى الآيتين: ما من أحد منكم، متق أو ظالم، إلا وهو سيرد النار كان هذا الإيراد واجبا مقضيا على ربك ثم ننجي الذين اتقوا منها ونترك الظالمين فيها لظلمهم باركين على ركبهم.

٥. وضع هنا مبحثا حول [معنى وجوب الفعل وجوازه وعدم جوازه على الله سبحانه]، خلاصته:«الميزان: ١٤/ ٩٤»:

أ. لله تعالى الملك المطلق على الأشياء، فهو يملك كل شيء ملكاً مطلقاً غير مقيد بحال أو زمان، وله أن يتصرف فيما يشاء بما يشاء من غير أن يستعقب ذلك قبحاً أو ذماً، لأن القبح والذم يلحقان الفاعل إذا أتى بما لا يملكه، والله مالك مطلق لا يتقيد بتصرف دون تصرف.

ب. الملك المطلق لله هو ملك تكويني (كون كل شيء قائماً به) وملك تشريعي (انتهاء الأمر والنهي إليه)، وهذا الملك المطلق يستلزم أن لا يوجب عليه غيره شيئاً، ولا يحرم أو يجوز عليه، لأنه يستلزم كونه مملوكاً لغيره، وهو محال.

ج. ما يسمى (وجوباً) على الله في التشريع هو وجوب تشريعي وضعه الله على نفسه، وهو راجع إليه تعالى، فهو الموجب على نفسه لا غير، وهذا لا ينافي ملكه المطلق، أما الوجوب التكويني فهو ضرورة ترتب المعلولات على عللها، وهو غير الوجوب التشريعي.

د. العقل في أحكامه على الله (كوجوب العدل وعدم جواز الظلم) هو عقل عملي، وأحكامه اعتبارية لا تحقق لها في الخارج، فالحكم فيه فعل قائم بالعقل مجعول له، لا أمر قائم بنفسه يحكيه العقل، أما العقل النظري فمدركاته حقائق ثابتة في نفسها، وليس له حكم وقضاء عليها.

هـ. تبين من البحث: أن له ملكاً مطلقاً في التكوين والتشريع، وأن ما يوجبه على نفسه تشريعاً هو من سنته التكوينية التي يريد بها أموراً عنونها العقل بالعدل، وينفي عنها أموراً عنونها بالظلم، والوجوب التكويني ليس وجوباً اعتبارياً، والقول بأن القدرة متساوية النسبة إلى الفعل والترك مع الحكمة موجب للتناقض.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي بإسناده عن الحسين بن أبي العلاء عن أبي عبد الله عليه السلام: في قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها﴾ قال: أما تسمع الرجل يقول: وردنا بني فلان، فهو الورود ولم يدخله.

ب. وفي المجمع: عن السدي قال: سألت مرة الهمداني عن هذه الآية، فحدثني أن عبد الله بن مسعود حدثهم عن رسول الله ﷺ، قال: يرد الناس النار ثم يصدرون بأعمالهم، فأولهم كلمع البرق ثم كمر الريح ثم كحضر الفرس، ثم كالراكب ثم كشد الرجل ثم كمشيه.

ج. وفيه، وروى أبو صالح غالب بن سليمان عن كثير بن زياد عن أبي سمية قال: اختلفنا في الورود فقال قوم: لا يدخلها مؤمن، وقال آخرون: يدخلونها جميعا، ثم ينجي الله الذين اتقوا فلقيت جابر بن عبد الله، فسألته فأومأ بإصبعيه إلى أذنيه وقال: صمتا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: الورود الدخول لا يبقى بر ولا فاجر حتى يدخلها، فتكون على المؤمنين بردا وسلاما، كما كانت على إبراهيم، حتى أن للنار، أو قال: لجهنم، ضجيجا من بردها، ثم ينجي الله الذين اتقوا، ويذر الظالمين فيها جثيا.

• أقول: والرواية من التفسير غير أن سندها ضعيف بالجهالة.

د. وفيه: وروي مرفوعا عن يعلى بن منبه عن رسول الله ﷺ قال: تقول النار للمؤمن يوم القيامة: جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي.

هـ. وفيه: وروي عن النبي ﷺ: أنه سئل عن المعنى فقال: إن الله يجعل النار كالسمن الجامد، ويجمع عليها الخلق ثم ينادي المنادي، أن خذي أصحابك وذري أصحابي، فو الذي نفسي بيده، لهي أعرف بأصحابها من الوالدة بولدها.

• أقول: والروايات الأربع الأخيرة رواها في الدر المنثور، عن عدة من أرباب الكتب والجوامع،، غير أنه لم يذكر في الرواية الثانية، فيما عندنا من نسخة الدر المنثور،، قوله: الورود الدخول.

و. أخرج أبو نعيم في الحلية، عن عروة بن الزبير قال: لما أراد ابن رواحة الخروج إلى أرض مؤتة من الشام، أتاه المسلمون يودعونه فبكى فقال: أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة لكم، ولكني سمعت رسول الله قرأ هذه الآية ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا﴾ فقد علمت أني وارد النار، ولا أدري كيف الصدور بعد الورود؟

• اعلم أن ظاهر بعض الروايات السابقة أن ورود الناس النار هو جوازهم منها فينطبق على روايات الصراط وفيها أنه جسر ممدود على النار يؤمر بالعبور عليها البر والفاجر فيجوزه الأبرار ويسقط فيها الفجار، وعن الصدوق في الاعتقاد، أنه حمل الآية عليه.

• وقال في مجمع البيان: (وقيل: إن الفائدة في ذلك يعني ورود النار ما روي في بعض الأخبار: أن الله تعالى لا يدخل أحدا الجنة حتى يطلعه على النار، وما فيها من العذاب ليعلم تمام فضل الله عليه، وكمال فضله وإحسانه إليه، فيزداد لذلك فرحا وسرورا بالجنة ونعيمها، ولا يدخل أحدا النار، حتى يطلعه على الجنة وما فيها من أنواع النعيم والثواب، ليكون ذلك زيادة عقوبة له، وحسرة على ما فاته من الجنة ونعيمها)

٢٥. تفاخر الكفار بالمقام ورد الله بإهلاك القرون قبلهم:

المقطع [٢٥] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾ [مريم: ٧٣-٧٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٩٩»:

١. ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِم آياتُنا﴾ المقام اسم مكان من القيام فهو المسكن، والندي هو المجلس وقيل خصوص مجلس المشاورة، ومعنى ﴿قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أنهم خاطبوهم فاللام للتبليغ كما قيل، وقيل: تفيد معنى التعليل أي قالوا لأجل الذين آمنوا أي لأجل إغوائهم وصرفهم عن الإيمان، والأول أنسب للسياق كما أن الأنسب للسياق أن يكون ضمير عليهم راجعا إلى الناس أعم من الكفار والمؤمنين دون الكفار فقط حتى يكون قوله: ﴿قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من قبيل وضع الظاهر موضع المضمر.

٢. ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾:

أ. أي للاستفهام والفريقان هما الكفار والمؤمنون، وكان مرادهم أن الكفار هم خير مقاما وأحسن نديا من المؤمنين الذين كان الغالب عليهم العبيد والفقراء لكنهم أوردوه في صورة السؤال وكنوا عن الفريقين لدعوى أن المؤمنين عالمون بذلك يجيبون بذلك لو سئلوا من غير تردد وارتياب.

ب. والمعنى: وإذا تتلى على الناس، وهم الفريقان الكفار والمؤمنون، آياتنا وهي ظاهرات في حجتها واضحات في دلالتها لا تدع ريبا لمرتاب، قال فريق منهم وهم الذين كفروا للفريق الآخر وهم الذين

آمنوا: أي هذين الفريقين خير من جهة المسكن وأحسن من حيث المجلس، ولا محالة هم الكفار، يريدون أن لازم ذلك أن يكونوا هم سعداء في طريقتهم وملتهم إذ لا سعادة وراء التمتع بأمتعة الحياة الدنيا فالحق ما هم عليه.

٣. ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَرِءْياً﴾:

أ. القرن: الناس المقترنون في زمن واحد، والأثاث: متاع البيت، قيل: لا يطلق إلا على الكثير ولا واحد له من لفظه، والرئي بالكسر فالسكون: ما رئي من المناظر، نقل في مجمع البيان، عن بعضهم: (أنه اسم لما ظهر وليس بالمصدر وإنما المصدر الرأي والرؤية يدل على ذلك قوله: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ فالرأي: الفعل، والرئي: المرئي كالطحن والطحن والسقي والسقي والرمي والرمي)

ب. ولما احتج الكفار على المؤمنين في حقية ملتهم وبطلان الدعوة النبوية التي آمن به المؤمنون بأنهم خير مقاما وأحسن نديا في الدنيا وقد فاتهم أن للإنسان حياة خالدة أبدية لا منتهى لها وإنما سعادته في سعادتها والأيام القلائل التي يعيش فيها في الدنيا لا قدر لها قبال ما لا نهاية له ولا أنها تغني عنه شيئا.

ج. على أن هذه التمتعات الدنيوية لا تحتم له السعادة ولا تقيه من غضب الله إن حل به يوما وما هو من الظالمين ببعيد فليسوا في أمن من سخط الله ولا طيب في عيش يهدده الهلاك ولا في نعمة كانت في معرض النقمة والخيبة.

د. أشار إلى الجواب عنه بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ﴾ والظاهر أن الجملة حالية وكم خبرية لا استفهامية، والمعنى: أنهم يتفوهون بهذه الشبهة الواهية، نحن خير منكم مقاما وأحسن نديا، استخفافا للمؤمنين والحال أنا أهلكنا قرونا كثيرة قبلهم هم أحسن من حيث الأمتعة والمناظر،، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٠٠»

هـ. وقد نقل سبحانه نظير هذه الشبهة عن فرعون وعقبه بحديث غرقه وهلاكه، قال: ﴿وَنادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ؟ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ، فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ﴾ إلى أن قال: ﴿فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦]

٢٦. إمهال الضالين وزيادة المهتدين هدى والباقيات الصالحات:

المقطع [٢٦] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ [مريم: ٧٥ـ٧٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٠١»:

١. ﴿قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا﴾:

أ. لفظة كان في قوله: ﴿مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ﴾ تدل على استمرارهم في الضلالة لا مجرد تحقق ضلالة ما، وبذلك يتم التهديد بمجازاتهم بالإمداد والاستدراج الذي هو إضلال بعد الضلال.

ب. ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ صيغة أمر غائب ويئول معناه إلى أن من الواجب على الرحمن أن يمده مدا، فإن أمر المتكلم مخاطبه أن يأمره بشيء معناه إيجاب المتكلم ذلك على نفسه.

ج. والمد والأمداد واحد لكن ذكر الراغب في المفردات: (أن أكثر ما جاء الأمداد في المحبوب والمد في المكروه والمراد أن من استقرت عليه الضلالة واستمر هو عليها، والمراد به الكفار كناية، فقد أوجب الله على نفسه أن يمده بما منه ضلالته كالزخارف الدنيوية في مورد الكلام فينصرف بذلك عن الحق حتى يأتيه أمر الله من عذاب أو ساعة بالمفاجاة والمباهتة فيظهر له الحق عند ذلك ولن ينتفع به.

د. فقوله: ﴿حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ﴾، دليل على أن هذا المد خذلان في صورة إكرام والمراد به أن ينصرف عن الحق واتباعه بالاشتغال بزهرة الحياة الدنيا الغارة فلا يظهر له الحق إلا في وقت لا ينتفع به وهو وقت نزول البأس أو قيام الساعة، كما قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ﴾ [غافر: ٨٥]، وقال: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً﴾ [الأنعام: ١٥٨]

هـ. وفي إرجاع ضمير الجمع في قوله: ﴿رَأَوْا ما يُوعَدُونَ﴾ إلى ﴿مَنْ﴾ رعاية جانب معناه كما أن في إرجاع ضمير الإفراد في قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ﴾ إليه رعاية جانب لفظه.

٢. ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً﴾ قوبل به قولهم السابق: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أما مكانهم حين يرون العذاب، والظاهر أن المراد به عذاب الدنيا، فحيث يحل بهم عذاب الله وقد كان مكان صناديد قريش المتلو عليهم الآيات حين نزول العذاب، قليب بدر التي ألقيت

فيها أجسادهم وأما مكانهم يوم يرون الساعة فالنار الخالدة التي هي دار البوار، وأما ضعف جندهم فلأنه لا عاصم لهم اليوم من الله ويعود كل ما هيئوه لأنفسهم من عدد وعدة سدى لا أثر له.

٣. ﴿وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً﴾:

أ. الباقيات الصالحات الأعمال الصالحة التي تبقى محفوظة عند الله وتستعقب جميل الشكر وعظيم الأجر وقد وعد الله بذلك في مواضع من كلامه.

ب. والثواب جزاء العمل قال في المفردات: (أصل الثوب رجوع الشيء إلى حالته الأولى التي كان عليها أو إلى الحالة المقدرة المقصودة بالفكرة، إلى أن قال، والثواب ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله فيسمى الجزاء ثوابا تصورا أنه هو، إلى أن قال، والثواب يقال في الخير والشر لكن الأكثر المتعارف في الخير) والمرد اسم مكان من الرد والمراد به الجنة.

ج. والآية من تمام البيان في الآية السابقة فإن الآية السابقة تبين حال أهل الضلالة وتذكر أن الله سيمدهم فهم يعمهون في ضلالتهم منصرفين عن الحق معرضين عن الإيمان لاعبين بما عندهم من شواغل الحياة الدنيا حتى يفاجئهم العذاب أو الساعة وتنكشف لهم حقيقة الأمر من غير أن ينتفعوا به وهؤلاء أحد الفريقين في قولهم: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً﴾

د. وهذه الآية تبين حال الفريق الآخر وهم المؤمنون وأن الله سبحانه يمد المهتدين منهم وهم المؤمنون بالهدى فيزيدهم هدى على هداهم فيوفقون للأعمال الباقية الصالحة وهي خير أجرا وخير دارا وهي الجنة ودائم نعيمها فما عند المؤمنين من أمتعة الحياة وهي النعيم المقيم خير مما عند الكافرين من الزخارف الغارة الفانية.

هـ. وفي قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ إشارة إلى أن الحكم بخيرية ما للمؤمنين من ثواب ومرد حكم إلهي لا يخطئ ولا يغلط البتة.

و. وهاتان الآيتان، كما ترى، جواب ثان عن حجة الكفار أعني قولهم: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾

٤. اعلم أنه ورد في ذيل قوله: ﴿وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ﴾ الآية أخبار عن النبي وأئمة أهل البيت عليهم أفضل الصلاة وقد أشرنا إليها في الجزء الثالث عشر من الكتاب في بحث روائي في ذيل [الآية: ٤٦]

من سورة الكهف.

٢٧. تهديد الكافر الذي ادعى المال والولد وكذّب بالآيات:

المقطع [٢٧] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٧٧ـ٨٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٠٣»:

١. ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا وَقالَ لَأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلَداً﴾:

أ. كما أن سياق الآيات الأربع السابقة يعطي أن الحجة الفاسدة المذكورة قول بعض المشركين ممن تلي عليه القرآن فقال ما قال دحضا لكلمة الحق واستغواء واستخفافا للمؤمنين كذلك سياق هذه الآيات الأربع وقد افتتحت بكلمة التعجيب واشتملت بقول يشبه القول السابق واختتمت بما يناسبه من الجواب يعطي أن بعض الناس ممن آمن بالنبي ﷺ أو كان في معرض ذلك بعد ما سمع قول الكفار مال إليهم ولحق بهم قائلا لأوتين مالا وولدا يعني في الدنيا باتباع ملة الشرك كان في الإيمان بالله شؤما وفي اتخاذ الآلهة ميمنة، فرده الله سبحانه بقوله: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾

ب. وأما ما ذكره الأكثر بالبناء على ما ورد من سبب النزول أن الجملة قول أحد المتعرقين في الشرك من قريش خاطب به خباب بن الأرت حين طالبه دينا كان له عليه، وأن معنى الجملة لأوتين مالا وولدا في الجنة فأؤدي ديني فشيء لا يلائم سياق الآيات إذ من المعلوم أن المشركين ما كانوا مذعنين بالبعث أصلا، فقوله لأوتين مالا وولدا إذا بعثت وعند ذلك أؤدي ديني لا يحتمل إلا الاستهزاء والتهكم ولا معنى لرد الاستهزاء بالاحتجاج كما هو صريح قوله: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾ ونظير هذا القول في السقوط ما نقل عن أبي مسلم المفسر أن الآية عامة فيمن له هذه الصفة.

ج. فقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا﴾ مسوق للتعجيب، وكلمة ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ كلمة تعجيب وقد فرعه بفاء التفريع على ما تقدمه من قولهم: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ لأن كفر هذا القائل وقوله: ﴿لَأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلَداً﴾ من سنخ كفرهم ومبني على قولهم للمؤمنين لا خير عند هؤلاء وسعادة الحياة وعزة الدنيا ونعمتها ولا خير إلا ذلك عند الكفار وفي ملتهم.

د. ومن هنا يظهر أن لقوله: ﴿وَقالَ لَأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلَداً﴾ نوع ترتب على قوله: ﴿كَفَرَ بِآياتِنا﴾ وأنه

إنما كفر بآيات الله زاعما أن ذلك طريقة ميمونة مباركة تجلب لسالكها العزة والقدرة وترزقه الخير والسعادة في الدنيا وقد أقسم بذلك كما يشهد به لام القسم ونون التأكيد في قوله: ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾

٢. ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾ رد سبحانه عليه قوله: (لأوتين مالا وولدا بكفري) بأنه رجم بالغيب لا طريق له إلى العلم فليس بمطلع على الغيب حتى يعلم بأنه سيؤتى بكفره ما يأمله ولا بمتخذ عهدا عند الله حتى يطمئن إليه في ذلك، وقد جيء بالنفي في صورة الاستفهام الإنكاري.

٣. ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا﴾:

أ. كلا كلمة ردع وزجر وذيل الآية دليل على أنه سبحانه يرد بها ما يتضمنه قول هذا القائل من ترتب إيتاء المال والولد على الكفر بآيات الله ومحصله أن الذي يترتب على قوله هذا ليس هو إيتاء المال والولد فإن لذلك أسبابا أخر بل هو مد العذاب على كفره ورجمه فهو يطلب بما يقول في الحقيقة عذابا ممدودا يتلو بعضه بعضا لأنه هو تبعة قوله لا إيتاء المال والولد وسنكتب قوله ونرتب عليه أثره الذي هو مد العذاب فالآية نظيرة قوله: ﴿فَلْيَدْعُ نادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]

ب. ومن هنا يظهر أن الأقرب أن يكون المراد من كتابة قوله تثبيته ليترتب عليه أثره لا كتابته في صحيفة عمله ليحاسب عليه يوم القيامة كما فسره به أرباب التفسير، على أن قوله الآتي: ﴿وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ﴾ لا يخلو على قولهم من شائبة التكرار من غير نكتة ظاهرة.

٤. ﴿وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ وَيَأْتِينا فَرْداً﴾:

أ. المراد بوراثة ما يقول أنه سيموت ويفنى ويترك قوله: لأوتين بكفري مالا وولدا، وقد كان خطيئة لازمة له لزوم المال للإنسان محفوظة عند الله كأنه مال ورثه بعده ففي الكلام استعارة لطيفة.

ب. ﴿وَيَأْتِينا فَرْداً﴾ أي وحده وليس معه شيء مما كان ينتصر به ويركن إليه بحسب وهمه فمحصل الآية أنه سيأتينا وحده وليس معه إلا قوله الذي حفظناه عليه فنحاسبه على ما قال ونمد له من العذاب مدا.

ج. هذا ما يقتضيه البناء على كون قوله في أول الآيات ﴿لَأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلَداً﴾ ناظرا إلى الإيتاء في الدنيا، وأما بناء على كونه ناظرا إلى الإيتاء في الآخرة كما اختاره الأكثر فمعنى الآيات كما فسروها تعجب من الذي كفر بآياتنا وهو عاص بن وائل أو وليد بن المغيرة وقال: أقسم لأوتين إذا بعثت مالا وولدا في

الجنة، أعلم الغيب حتى يعلم أنه في الجنة؟، وقيل: أنظر في اللوح المحفوظ، أم اتخذ عند الرحمن عهدا بقول لا إله إلا الله حتى يدخل به الجنة، وقيل: أقدم عملا صالحا كلا وليس الأمر كما قال، سنكتب ما يقول بأمر الحفظة أن يثبتوه في صحيفة عمله ونمد له من العذاب مدا ونرثه ما يقول أي ما عنده من المال والولد بإهلاكنا إياه وإبطالنا ملكه ويأتينا أي يأتي الآخرة فردا ليس عنده شيء من مال وولد وعدة وعدد.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنا، وَقالَ لَأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلَداً﴾ إنه العاص بن وائل بن هشام القرشي ثم السهمي، وكان أحد المستهزءين، وكان لخباب بن الأرت على العاص بن وائل حق، فأتاه يتقاضاه فقال له العاص: ألستم تزعمون أن في الجنة الذهب والفضة والحرير؟ قال: بلى، قال: فموعد ما بيني وبينك الجنة، فو الله لأوتين فيها خيرا مما أوتيت في الدنيا.

ب. أخرج أحمد والبخاري ومسلم وسعيد بن منصور وعبد بن حميد والترمذي والبيهقي في الدلائل وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلا قينا وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه فقال: لا والله لا أقضيك، حتى تكفر بمحمد فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد، حتى تموت ثم تبعث، قال: فإني إذا مت، ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد فأعطيك، فأنزل الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينا فَرْداً﴾

• أقول: وروى أيضا ما يقرب منه عن الطبراني عن خباب، وأيضا عن سعيد بن منصور عن الحسن عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ولم يسم خبابا وأيضا عن ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس عن رجال من الصحابة.

• وقد تقدم أن الروايات لا تنطبق على سياق الآيات فإن الروايات صريحة في أن الكلمة إنما صدرت عن العاص بن وائل على سبيل الاستهزاء والسخرية على أن النقل القطعي أيضا يؤيد أن المشركين لم يكونوا قائلين بالبعث والنشور.

• ثم الآيات تأخذ في رد كلمته بالاحتجاج ولو كانت كلمة استهزاء من غير جد لم يكن للاحتجاج عليها معنى إذ الاحتجاج لا يستقيم إلا على قول جدي وإلا كان هزلا فالروايات على صراحتها في كونها

كلمة استهزاء لا تنطبق على الآية.

• ولو حمل على وجه بعيد على أنه إنما قال: ﴿لَأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلَداً﴾ على وجه الإلزام والتبكيت لخباب من غير أن يعتقده لا على وجه الاستهزاء! لم يكن لذكر الولد مع المال وجه وكفاه أن يقول لأوتين مالا مع أن في بعض هذه الروايات أنه قال لخباب: إنكم تزعمون أنكم ترجعون إلى مال وولد ولم يعهد من مسلمي صدر الإسلام شيوع القول بأن في الجنة توالدا وتناسلا ولا وقعت في شيء من القرآن إشارة إلى ذلك، هذا أولا، ولم يكن للقسم والتأكيد البالغ في قوله: ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ وجه إذ الإلزام والتبكيت لا حاجة فيه إلى تأكيد، وهذا ثانيا، ولم يكن لإطلاق الإيتاء في قوله: ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ من دون أن يقيده بالجنة أو الآخرة دفعا للبس نكتة ظاهرة، وهذا ثالثا، ولم يصلح للرد عليه وإبطاله إلا قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ﴾ إلى آخر الآيتين، وأما قوله: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾ فغير وارد عليه البتة إذ الإلزام والتبكيت لا يتوقف على العلم بصدق ما يلزم به حتى يتوقف عن منشإ علمه بل يجامع غالبا العلم بالكذب وإنما على التزام الخصم الذي يراد إلزامه به أو بما يستلزمه، وهذا رابعا.

٢٨. اتخاذ الكفار آلهة للاعتزاز بها وخذلانهم يوم القيامة:

المقطع [٢٨] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٠٧»:

١. ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾:

أ. هؤلاء الآلهة هم الملائكة والجن والقديسون من الإنس وجبابرة الملوك فإن أكثرهم كانوا يرون الملك قداسة سماوية.

ب. ومعنى كونهم لهم عزا كونهم شفعاء لهم يقربونهم إلى الله بالشفاعة فينالون بذلك العزة في الدنيا ينجر إليهم الخير ولا يمسهم الشر، ومن فسر كونهم لهم عزا بشفاعتهم لهم في الآخرة خفي عليه أن المشركين لا يقولون بالبعث.

٢. ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾:

أ. الضد بحسب اللغة المنافي الذي لا يجتمع مع الشيء، وعن الأخفش أن الضد يطلق على الواحد

والجمع كالرسول والعدو وأنكر ذلك بعضهم ووجه إطلاق الضد في الآية وهو مفرد على الآلهة وهي جمع بأنها لما كانت متفقة في عداوة هؤلاء والكفر بعبادتهم كانت في حكم الواحد وصح بذلك إطلاق المفرد عليها.

ب. وظاهر السياق أن ضميري ﴿سَيَكْفُرُونَ﴾ و﴿يَكُونُونَ﴾ للآلهة وضميري ﴿بِعِبادَتِهِمْ﴾ و﴿عَلَيْهِمْ﴾ للمشركين المتخذين للآلهة والمعنى: سيكفر الآلهة بعبادة هؤلاء المشركين ويكون الآلهة حال كونهم على المشركين لا لهم، ضدا لهم يعادونهم ولو كانوا لهم عزا لثبتوا على ذلك دائما وقد وقع ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ﴾ [النحل: ٨٦]، وأوضح منه قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ، إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]

ج. وربما احتمل أن يكون بالعكس من ذلك أي سيكفر المشركون بعبادة الآلهة ويكونون على الآلهة ضدا كما في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا وَاللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، ويبعده أن ظاهر السياق أن يكون ﴿ضِدًّا﴾ وقد قوبل به ﴿عِزًّا﴾ في الآية السابقة، وصفا للآلهة دون المشركين ولازم ذلك أن يكون الآلهة الذين هم الضد هم الكافرين بعبادة المشركين نظرا إلى خصوص ترتب الضمائر.

د. على أن التعبير المناسب لهذا المعنى أن يقال: سيكفرون بهم على حد ما يقال: كفر بالله، ولا يقال: كفر بعبادة الله.

هـ. والمراد بكفر الآلهة يوم القيامة بعبادتهم وكونهم عليهم ضدا هو ظهور حقيقة الأمر يومئذ فإن شأن يوم القيامة ظهور الحقائق فيه لأهل الجمع لا حدوثها ولو لم تكن الآلهة كافرين بعبادتهم في الدنيا ولا عليهم ضدا بل بدا لهم ذلك يوم القيامة لم تتم حجة الآية فافهم ذلك، وعلى هذا المعنى يترتب قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ على قوله: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ﴾

٣. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن عبد الأعلى مولى آل سام قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام قول الله عز

وجل: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ قال: ما هو عندك؟ قلت: عد الأيام قال، الآباء والأمهات يحصون ذلك ولكنه عدد الأنفاس.

ب. وفي نهج البلاغة، من كلامه عليه السلام: نفس المرء خطاه إلى أجله.

ج. وفيه، قال عليه السلام: كل معدود متنقص وكل متوقع آت.

د. أخرج عبد بن حميد عن أبي جعفر محمد بن علي: في قوله: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ قال: كل شيء حتى النفس.

• أقول: وهي أشمل الروايات ولا يبعد أن يستفاد منها أن ذكر النفس في الروايات من قبيل ذكر المثال.

٢٩. تسليط الشياطين على الكافرين لإغوائهم:

المقطع [٢٩] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٠٩»:

١. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾:

أ. الأز والهز بمعنى واحد وهو التحريك بشدة وإزعاج والمراد تهييج الشياطين إياهم إلى الشر والفساد وتحريضهم على اتباع الباطل وإضلالهم بالتزلزل عن الثبات والاستقامة على الحق.

ب. ولا ضير في نسبة إرسال الشياطين إليه تعالى بعد ما كان على طريق المجازاة فإنهم كفروا بالحق فجازاهم الله بزيادة الكفر والضلال ويشهد بذلك قوله: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ولو كان إضلالا ابتدائيا لقيل: (عليهم) من غير أن يوضع الظاهر موضع المضمر.

ج. والآية وهي مصدرة بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ المفيد معنى الاستشهاد مسوقة لتأييد ما ذكر في الآية السابقة من كون آلهتهم عليهم ضدا، فإن تهييج الشياطين إياهم للشر والفساد واتباع الباطل معاداة وضدية والشياطين وهم من الجن من جملة آلهتهم ولو لم يكن هؤلاء الآلهة عليهم ضدا ما دعوهم إلى ما فيه هلاكهم وشقاؤهم.

د. فالآية بمنزلة أن يقال: هؤلاء الآلهة الذين يحسبونهم لأنفسهم عزا هم عليهم ضد وتصديق ذلك أن الشياطين وهم من آلهتهم يحركونهم بإزعاج نحو ما فيه شقاؤهم وليسوا مع ذلك مطلقي العنان

بل إنما هو بإذن من الله يسمى إرسالا وعلى هذا فالآية متصلة بسابقتها وهو ظاهر.

هـ. وجعل صاحب روح المعاني، هذه الآية مترتبة على مجموع الآيات من قوله: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ ومتصلة به وأطنب في بيان كيفية الاتصال بما لا يجدي نفعا وأفسد بذلك سياق الآيات واتصال ما بعد هذه الآية بما قبلها.

٣٠. نهي النبي عن العجلة وإحصاء الله لأجل الكافرين:

المقطع [٣٠] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١١٠»:

أ. العد هو الإحصاء والعد يفني المعدود وينفده وبهذه العناية قصد به إنفاد أعمارهم والانتهاء إلى آخر أنفاسهم كأن أنفاسهم الممدة لأعمارهم مذخورة بعددها عند الله فينفدها بإرسالها واحدا بعد آخر حتى تنتهي وهو اليوم الموعود عليهم.

ب. وإذ كان مدة بقاء الإنسان هي مدة بلائه وامتحانه كما ينبئ عنه قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٧] كان العد بالحقيقة عدا للأعمال المثبتة في صحيفة العمر، ليتم بذلك بنية الحياة الأخروية الخالدة ويستقصي للإنسان ما يلتئم به عيشه هناك من نعم أو نقم فكما أن مكث الجنين في الرحم مدة يتم به خلقه جسمه كذلك مكث الإنسان في الدنيا لأن يتم به خلقة نفسه وإن يعد الله ما قدر له من العطية ويستقصيه.

ج. وعلى هذا فلا ينبغي للإنسان أن يستعجل الموت لكافر طالح لأن مدة بقائه مدة عد سيئاته ليحاسب عليها ويعذب بها ولا لمؤمن صالح لأن مدة بقائه مدة عد حسناته ليثاب بها ويتنعم والآية لا تقيد العد وإن فهم من ظاهرها في بادئ النظر عد الأنفاس أو الأيام.

د. وكيف كان فقوله: ﴿فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ تفريع على ما تقدم، وقوله: ﴿إِنَّما نَعُدُّ﴾ تعليل له وهو في الحقيقة علة التأخير ومحصل المعنى إذ كان هؤلاء لا ينتفعون باتخاذ الآلهة وكانوا هم وآلهتهم منتهين إلينا غير خارجين من سلطاننا ولا مسيرهم في طريقهم بغير إذننا فلا تعجل عليهم بالقبض أو بالقضاء ولا يضيق صدرك عن تأخير ذلك إنما نعد لهم أنفاسهم أو أعمالهم عدا.

٣١. حشر المتقين إلى الرحمن وسوق المجرمين لجهنم وحرمانهم الشفاعة:

المقطع [٣١] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٥-٨٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١١٠»:

١. ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً﴾:

أ. الوفد هم القوم الواردون لزيارة أو استنجاز حاجة أو نحو ذلك ولا يسمون وفدا إلا إذا كانوا ركبانا وهو جمع واحده وافد.

ب. وربما استفيد من مقابلة قوله في هذه الآية ﴿إِلَى الرَّحْمنِ﴾ قوله في الآية التالية: ﴿إِلى جَهَنَّمَ﴾ أن المراد بحشرهم إلى الرحمن حشرهم إلى الجنة وإنما سمي حشرا إلى الرحمن لأن الجنة مقام قربه تعالى فالحشر إليها حشر إليه، ومعنى الآية ظاهر.

٢. ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾ فسر الورد بالعطاش وكأنه مأخوذ من ورود الماء أي قصده ليشرب ولا يكون ذلك إلا عن عطش فجعل بذلك الورد كناية عن العطاش، وفي تعليق السوق إلى جهنم بوصف الاجرام إشعار بالعلية ونظيره تعليق الحشر إلى الرحمن في الآية السابقة بوصف التقوى، ومعنى الآية ظاهر.

٣. ﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾:

أ. وهذا جواب ثان عن اتخاذهم الآلهة للشفاعة وهو أن ليس كل من يهوى الإنسان شفاعته فاتخذه إلها ليشفع له يكون شفيعا بل إنما يملك الشفاعة بعهد من الله ولا عهد إلا لآحاد من مقربي حضرته، قال تعالى: ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]

ب. وقيل: المراد أن المشفع لهم لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا والعهد هو الإيمان بالله والتصديق بالنبوة، وقيل: وعده تعالى له بالشفاعة كما في الأنبياء والأئمة والمؤمنين والملائكة على ما في الأخبار، وقيل: هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن يتبرأ من الحول والقوة وأن لا يرجو إلا الله، والوجه الأول هو الأوجه وهو بالسياق أنسب.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في محاسن البرقي، بإسناده عن حماد بن عثمان وغيره عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله عز

وجل: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً﴾ قال يحشرون على النجائب.

ب. وفي تفسير القمي، بإسناده عن عبد الله بن شريك العامري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سأل علي عليه السلام رسول الله ﷺ عن تفسير قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً﴾ قال: يا علي الوفد لا يكون إلا ركبانا، أولئك رجال اتقوا الله عز وجل فأحبهم واختصهم، ورضي أعمالهم فسماهم الله متقين، الحديث.

• أقول: ثم روى القمي حديثا آخر طويلا يذكر ﷺ فيه تفصيل خروجهم من قبورهم وركوبهم من نوق الجنة ووفودهم إلى الجنة ودخولهم فيها وتنعمهم بما رزقوا من نعمها.

ج. عن ابن مردويه عن علي عن النبي ﷺ: في الآية قال: أما والله ما يحشرون على أقدامهم ولا يساقون سوقا، ولكنهم يؤتون بنوق من الجنة، لم تنظر الخلائق إلى مثلها رحالها الذهب، وأزمتها الزبرجد فيقعدون عليها، حتى يقرعوا باب الجنة.

• أقول: وروى أيضا هذا المعنى عن ابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن علي عن النبي ﷺ في حديث طويل يصف فيه ركوبهم ووفودهم ودخولهم الجنة، واستقرارهم فيها وتنعمهم من نعمها، ورواه فيه عن عدة من أرباب الجوامع عن علي عليه السلام.

د. وفي الكافي، بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت: قوله: ﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾ قال: إلا من دان بولاية أمير المؤمنين والأئمة من بعده، فهو العهد عند الله.

• أقول: وروى في الدر المنثور، عن ابن عباس عن النبي ﷺ: أن من أدخل على مؤمن سرورا فقد سرني، ومن سرني فقد اتخذ عند الله عهدا، الحديث، وروى عن أبي هريرة عنه ﷺ: أن المحافظة على العهد هو المحافظة على الصلوات الخمس، وهنا روايات أخر من طرق الخاصة والعامة قريبة مما أوردناه ويستفاد من مجموعها أن العهد المأخوذ عند الله اعتقاد حق أو عمل صالح ينجي المؤمن يوم القيامة وأن ما ورد في الروايات من قبيل المصاديق المتفرقة.

• واعلم أيضا أن الروايات السابقة مبنية على كون المراد ممن يملك الشفاعة في الآية هو الذي ينال الشفاعة أو الأعم من الشفعاء والمشفوع لهم، وأما لو كان المراد هم الشفعاء فالأخبار أجنبية منها.

٣٢. تفطر السموات من دعاوى المشركين:

المقطع [٣٢] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١١١»:

١. ﴿وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً﴾ من قول الوثنيين وبعض خاصتهم، وإن قال ببنوة الآلهة أو بعضهم لله سبحانه تشريفا أو تجليلا لكن عامتهم وبعض خاصتهم، في مقام التعليم، قال بذلك تحقيقا بمعنى الاشتقاق من حقيقة اللاهوت واشتمال الولد على جوهرة والده، وهذا هو المراد بالآية والدليل عليه التعبير بالولد دون الابن، وكذا ما في قوله: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى تمام ثلاث آيات من الاحتجاج على نفيه.

٢. ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا﴾:

أ. إلى تمام ثلاث آيات، الإد بكسر الهمزة: الشيء المنكر الفظيع، والتفطر الانشقاق، والخرور السقوط، والهد الهدم.

ب. والآيات في مقام إعظام الذنب وإكبار تبعته بتمثيله بالمحسوس يقول: لقد أتيتم بقولكم هذا أمرا منكرا فظيعا تكاد السماوات يتفطرن وينشققن منه وتنشق الأرض وتسقط الجبال على السهل سقوط انهدام إن دعوا للرحمن ولدا.

٣. ﴿وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً﴾:

أ. المراد بإتيان كل منهم عبدا له توجه الكل إليه ومثوله بين يديه في صفة المملوكية المحضة فكل منهم مملوك له لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا وذلك أمر بالفعل ملازم له ما دام موجودا، ولذا لم يقيد الإتيان في الآية بالقيامة بخلاف ما في الآية الرابعة.

ب. والمراد بإحصائهم وعدهم تثبيت العبودية لهم فإن العبيد إنما تتعين لهم أرزاقهم وتتبين وظائفهم والأمور التي يستعملون فيها بعد الإحصاء وعدهم وثبتهم في ديوان العبيد وبه تسجل عليهم العبودية.

ج. والمراد بإتيانه له يوم القيامة فردا إتيانه يومئذ صفر الكف لا يملك شيئا مما كان يملكه بحسب ظاهر النظر في الدنيا وكان يقال: إن له حولا وقوة ومالا وولدا وأنصارا ووسائل وأسبابا إلى غير ذلك فيظهر يومئذ إذ تتقطع بهم الأسباب أنه فرد ليس معه شيء يملكه وأنه كان عبدا بحقيقة معنى العبودية لم يملك قط ولن يملك أبدا فشأن يوم القيامة ظهور الحقائق فيه.

د. ويظهر بما تقدم أن الذي تتضمنه الآيات من الحجة على نفي الولد حجة واحدة ومحصلها أن كل من في السماوات والأرض عبد لله مطيع له في عبوديته ليس له من الوجود وآثار الوجود إلا ما آتاه الله فأخذه هو ممتثلا لأمره تابعا لإرادته من غير أن يملك من ذلك شيئا، وليس من عبوديتها هذا فحسب بل الله أحصاهم وعدهم فسجل عليهم العبودية وأثبت كلا في موضعه وسخره مستعملا له فيما يريده منه فكان شاهدا لعبوديته، وليس هذا المقدار فحسب بل سيأتيه كل منهم فردا لا يملك شيئا ولا يصاحبه شيء ويظهر بذلك حقيقة عبوديتهم للكل فيشهدون ذلك وإذا كان هذا حال كل من في السموات والأرض فكيف يمكن أن يكون بعضهم ولدا لله واجدا لحقيقة اللاهوت مشتقا من جوهرتها، وكيف تجتمع الألوهية والفقر؟

هـ. وأما انتهاء وجود الأشياء إليه تعالى وحده كما تضمنته الآية الأولى فمما لا يرتاب فيه مثبتو الصانع سواء في ذلك الموحدون والمشركون وإنما الاختلاف في كثرة المعبود ووحدته وكثرة الرب بمعنى المدبر ولو بالتفويض وعدمها.

٣٣. وعد الصالحين بالمودة في قلوب الناس:

المقطع [٣٣] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١١٣»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾:

أ. الود والمودة المحبة وفي الآية وعد جميل منه تعالى أنه سيجعل للذين آمنوا وعملوا الصالحات مودة في القلوب ولم يقيده بما بينهم أنفسهم ولا بغيرهم ولا بدنيا ولا بآخره أو جنة فلا موجب لتقييد بعضهم ذلك بالجنة وآخرين بقلوب الناس في الدنيا إلى غير ذلك.

ب. وقد ورد في أسباب النزول، من طرق الشيعة وأهل السنة أن الآية نزلت في علي عليه السلام،

وفي بعضها ما ورد من طرق أهل السنة أنها نزلت في مهاجري الحبشة وفي بعضها غير ذلك وسيجيء في البحث الروائي الآتي.

ج. وعلى أي حال فعموم لفظ الآية في محله، والظاهر أن الآية متصلة بقوله السابق: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾

٢. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، بإسناده عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام: قلت: قوله عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا﴾ قال: ولاية أمير المؤمنين، هي الود الذي ذكره الله.

- أقول: ورواه في الكافي، بإسناده عن أبي بصير عنه عليه السلام.

ب. أخرج ابن مردويه والديلمي عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ لعلي قل: اللهم اجعل لي عندك عهدا، واجعل لي عندك ودا واجعل لي في صدور المؤمنين مودة، فأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ، سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا﴾ قال: فنزلت في علي.

ج. أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت في علي بن أبي طالب ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ، سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا﴾ قال: محبة في قلوب المؤمنين.

د. وفي المجمع: (في الآية: قيل فيه أقوال: أحدها أنها خاصة في علي، فما من مؤمن إلا وفي قلبه محبة لعلي عليه السلام، عن ابن عباس وفي تفسير أبي حمزة الثمالي: حدثني أبو جعفر الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: قل: اللهم اجعل لي عندك عهدا، واجعل لي في قلوب المؤمنين ودا، فقالهما فنزلت هذه الآية: وروى نحوه عن جابر بن عبد الله.

- أقول: قال في روح المعاني: الظاهر أن الآية على هذا مدنية، وأنت خبير بأن لا دلالة في شيء من الأحاديث على وقوع القصة في المدينة أصلا.

هـ. أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عبد الرحمن بن عوف: أنه لما هاجر إلى المدينة وجد في نفسه على فراق أصحابه بمكة، منهم شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلف فأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ، سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا﴾

• أقول: صريح الحديث كون الآية مدنية ويدفعه اتفاق الكل على كون السورة بجميع آياتها مكية وقد تقدم في أول السورة.

و. أخرج الحكيم الترمذي وابن مردويه عن علي قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ ما هو؟ قال: المحبة في قلوب المؤمنين والملائكة المقربين، يا علي إن الله أعطى المؤمن ثلاثا: المقة والمحبة والحلاوة والمهابة في صدور الصالحين.

• أقول: المقة المحبة وفي معناه بعض روايات أخر من طرق أهل السنة مبنية على عموم لفظ الآية وهو لا ينافي خصوص مورد النزول.

٣٤. تيسير القرآن للتبشير والإنذار وإهلاك القرون السابقة:

المقطع [٣٤] من سورة مريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٧-٩٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١١٦»:

١. ﴿فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا﴾:

أ. التيسير وهو التسهيل ينبئ عن حال سابقة ما كان يسهل معها تلاوته ولا فهمه وقد أنبأ سبحانه عن مثل هذه الحالة لكتابه في قوله: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]، فأخبر أنه لو أبقاه على ما كان عليه عنده، وهو الآن كذلك، من غير أن يجعله عربيا مقروا لم يرج أن يعقله الناس وكان كما كان عليا حكيما أي آبيا متعصيا أن يرقى إليه أفهامهم وينفذ فيه عقولهم.

ب. ومن هنا يتأيد أن معنى تيسيره بلسانه تنزيله على اللسان العربي الذي كان هو لسانه ﷺ فتنبئ الآية أنه تعالى يسره بلسانه ليتيسر له التبشير والإنذار.

ج. وربما قيل: إن معنى تيسيره بلسانه إجراؤه على لسانه بالوحي واختصاصه بوحي الكلام الإلهي ليبشر به وينذر، وهذا وإن كان في نفسه وجها عميقا لكن الوجه الأول مضافا إلى تأيده بالآيات السابقة وأمثالها أنسب وأوفق بسياق آيات السورة.

٢. ﴿وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا﴾ المراد قومه، ﷺ واللد جمع ألد من اللدد وهو الخصومة.

٣. ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً﴾ الإحساس هو الإدراك بالحس، والركز هو الصوت، قيل: والأصل في معناه الحس، ومحصل المعنى أنهم وإن كانوا خصماء مجادلين لكنهم غير معجزي الله بخصامهم فكم أهلكنا قبلهم من قرن فبادوا فلا يحس منهم أحد ولا يسمع لهم صوت.

سورة طه

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٥٥] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. غرض السورة التذكرة من طريق الإنذار، تغلب فيها آيات الإنذار والتخويف على آيات التبشير غلبة واضحة، فقد اشتملت على قصص تختتم بهلاك الطاغين والمكذبين لآيات الله، وتضمنت حججاً بينة تلزم العقول على توحيده تعالى والإجابة لدعوة الحق، وتنتهي إلى بيان ما سيستقبل الإنسان من أهوال الساعة ومواقف القيامة وسوء حال المجرمين وخسران الظالمين.

ب. وقد افتتحت الآيات ـ على ما يلوح من السياق ـ بما فيه نوع تسلية للنبي ﷺ أن لا يتعب نفسه الشريفة في حمل الناس على دعوته التي يتضمنها القرآن، فلم ينزل ليتكلف به، بل هو تنزيل إلهي يذكر الناس بالله وآياته رجاء أن تستيقظ غريزة خشيتهم فيتذكروا فيؤمنوا به ويتقوا، فليس عليه إلا التبليغ فحسب، فإن خشوا وتذكروا وإلا غشيتهم غاشية عذاب الاستئصال، أو ردوا إلى ربهم فأدركهم وبال ظلمهم وفسقهم، ووفيت لهم أعمالهم من غير أن يكونوا معجزين لله سبحانه بطغيانهم وتكذيبهم.

ج. وسياق آيات السورة يعطي أن تكون مكية، وفي بعض الآثار أن قوله: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى ما يَقُولُونَ﴾ الآية مدنية، وفي بعضها الآخر أن قوله: ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ﴾ الآية مدنية، ولا دليل على شيء من ذلك من ناحية اللفظ.

د. ومن غرر الآيات في السورة قوله تعالى: ﴿اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٨] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر أن القرآن نزل لتذكير المؤمنين، وتصف عظمة الله الرحمن الذي له ما في السماوات والأرض، وتذكر أنه يعلم السر وأخفى.

٢. الآيات [٩ ـ ٤٨]:

أ. شروع في قصة موسى عليه السلام، وقد ذكرت في السورة فصول أربعة منها:

- اختيار موسى للرسالة في جبل طور في وادي طوى، وأمره بدعوة فرعون.

• ثم دعوته بشركة من أخيه فرعون إلى التوحيد وإرسال بني إسرائيل معه، وإقامته الحجة وإيتاؤه المعجزة.

• ثم خروجه مع بني إسرائيل من مصر، وتعقيب فرعون وغرقه، ونجاة بني إسرائيل.

• ثم عبادة بني إسرائيل العجل، وما انتهى إليه أمرهم وأمر السامري وعجله.

ب. وقد تعرضت الآيات التي نقلناها للفصل الأول منها.

ج. ووجه اتصال القصة بما قبلها أنها تذكرة بالتوحيد ووعيد بالعذاب، فالقصة تبتدئ بوحي التوحيد وتنتهي بقول موسى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية، وتذكر هلاك فرعون وطرد السامري، وقد ابتدأت الآيات السابقة بأن القرآن المشتمل على الدعوة الحقة تذكرة لمن يخشى، وانتهت إلى مثل قوله: ﴿اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾

٣. الآيات [٤٩ ـ ٧٩] فصل آخر من قصة موسى عليه السلام، يذكر فيه خبر ذهاب موسى وهارون عليه السلام إلى فرعون وتبليغهما رسالة ربهما في نجاة بني إسرائيل، وقد فصل في الآيات خبر ذهابهما إليه وإظهارهما آيات الله، ومقابلة السحرة وظهور الحق وإيمان السحرة، وأشير إجمالاً إلى إسراء بني إسرائيل وشق البحر، واتباع فرعون لهم بجنوده وغرقهم.

٤. الآيات [٨٠ ـ ٩٨]:

أ. الفصل الأخير من قصة موسى عليه السلام الموردة في السورة، يعد سبحانه فيه جُملًا من مننه على بني إسرائيل كإنجائهم من عدوهم، ومواعدتهم جانب الطور الأيمن، وإنزال المن والسلوى عليهم، ويختمه بذكر قصة السامري وإضلاله القوم بعبادة العجل، وللقصة اتصال بمواعدة الطور.

ب. وهذا الجزء من الفصل ـ وفيه بيان تعرض بني إسرائيل لغضبه تعالى ـ هو المقصود بالأصالة من هذا الفصل، ولذا فصل فيه القول ولم يبين غيره إلا بإشارة وإجمال.

٥. الآيات [٩٩ ـ ١١٤] تذييل لقصة موسى بآيات متضمنة للوعيد، يذكر فيها من أهوال يوم القيامة لغرض الإنذار.

٦. الآيات [١١٥ ـ ١٢٦]:

أ. قصة دخول آدم وزوجه الجنة وخروجهما منها بوسوسة من الشيطان، وقضائه تعالى عند ذلك

بتشريع الدين وسعادة من اتبع الهدى وشقاء من أعرض عن ذكر الله.

ب. وقد وردت القصة في هذه السورة بأوجز لفظ وأجمل بيان، وعمدة العناية فيها، كما يشهد به تفصيل ذيلها، متعلقة ببيان ما حكم به من تشريع الدين والجزاء بالثواب والعقاب، ويؤيده أيضاً التفريع بعدها بقوله: ﴿وَكَذلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآياتِ رَبِّهِ﴾، نعم للقصة تعلق ما أيضاً من جهة ذكرها توبة آدم بقوله فيما تقدم: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى﴾

ج. والقصة، كما يظهر من سياقها في هذه السورة وغيرها مما ذكرت فيها كالبقرة والأعراف، تمثل حال الإنسان بحسب طبعه الأرضي المادي:

• فقد خلقه الله سبحانه في أحسن تقويم وغمره في نعمه التي لا تحصى، وأسكنه جنة الاعتدال، ومنعه عن تعديه بالخروج إلى جانب الإسراف باتباع الهوى والتعلق بسراب الدنيا، ونسيان جانب الرب تعالى بترك عهده إليه وعصيانه واتباع وسوسة الشيطان الذي يزين له الدنيا ويصور له ويخيل إليه أنه لو تعلق بها ونسي ربه اكتسب بذلك سلطاناً على الأسباب الكونية يستخدمها ويستذل بها كل ما يتمناه من لذائذ الحياة، وأنها باقية له وهو باق لها.

• حتى إذا تعلق بها ونسي مقام ربه، ظهرت له سوآت الحياة ولاحت له مساوئ الشقاء بنزول النوازل وخيانة الدهر ونكول الأسباب وتولي الشيطان عنه، فطفق يخصف عليه من ظواهر النعم يستدرك بموجود نعمة مفقود أخرى، ويميل من عذاب إلى ما هو أشد منه، ويعالج الداء المؤلم بآخر أكثر منه ألماً، حتى يؤمر بالخروج من جنة النعمة والكرامة إلى مهبط الشقاء والخيبة.

• فهذه هي التي مثلت لآدم عليه السلام إذ أدخله الله الجنة وضرب له بالكرامة حتى آل أمره إلى ما آل، إلا أن واقعته عليه السلام كانت قبل تشريع أصل الدين، وجنته جنة برزخية ممثلة في عيشة غير دنيوية، فكان النهي لذلك إرشادياً لا مولوية، ومخالفته مؤدية إلى أمر قهري ليس بجزاء تشريعي، كما تقدم تفصيله في تفسير سورتي البقرة والأعراف.

٧. الآيات [١٢٧ ـ ١٣٥] متفرقات من وعيد ووعد وحجة وحكم وتسلية للنبي ﷺ، متفرعة على ما تقدم في السورة.

١. تنزيل القرآن تذكرة لمن يخشى لا للتعب والمشقة:

المقطع [١] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ [طه: ١-٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١١٩»:

١. ﴿طه ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى﴾:

أ. طه حرفان من الحروف المقطعة افتتحت بهما السورة كسائر الحروف المقطعة التي افتتحت بها سورها نحو ﴿الم الر﴾ ونظائرهما وقد نقل عن جماعة من المفسرين في معنى الحرفين أمور ينبغي أن يجل البحث التفسيري عن إيرادها والغور في أمثالها، وسنلوح إليها في البحث الروائي الآتي إن شاء الله تعالى.

ب. والشقاوة خلاف السعادة قال الراغب: (والشقاوة كالسعادة من حيث الإضافة فكما أن السعادة في الأصل ضربان: سعادة أخروية وسعادة دنيوية ثم السعادة الدنيوية ثلاثة أضرب: سعادة نفسية وبدنية وخارجية كذلك الشقاوة على هذه الأضرب، إلى أن قال، قال بعضهم: قد يوضع الشقاء موضع التعب نحو شقيت في كذا، وكل شقاوة تعب، وليس كل تعب شقاوة فالتعب أعم من الشقاوة)، فالمعنى ما أنزلنا القرآن لتتعب نفسك في سبيل تبليغه بالتكلف في حمل الناس عليه.

٢. ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّماواتِ الْعُلى﴾:

أ. التذكرة هي إيجاد الذكر فيمن نسي الشيء وإذ كان الإنسان ينال حقائق الدين الكلية بفطرته كوجوده تعالى وتوحده في وجوب وجوده وألوهيته وربوبيته والنبوة والمعاد وغير ذلك كانت أمورا مودعة في الفطرة غير أن إخلاد الإنسان إلى الأرض وإقباله إلى الدنيا واشتغاله بما يهواه من زخارفها اشتغالا لا يدع في قلبه فراغا أنساه ما أودع في فطرته وكان إلقاء هذه الحقائق إلفاتا لنفسه إليها وتذكرة له بها بعد نسيانها.

ب. ومن المعلوم أن ذلك إعراض وإنما سمي نسيانا بنوع من العناية وهو اشتراكهما في الأثر وهو عدم الاعتناء بشأنه فلا بد في دفع هذا النسيان الذي أوجبه اتباع الهوى والانكباب على الدنيا من أمر ينتزع النفس انتزاعا ويدفعها إلى الإقبال إلى الحق دفعا وهو الخشية والخوف من عاقبة الغفلة ووبال الاسترسال حتى تقع التذكرة موقعها وتنفع في اتباع الحق صاحبها.

ج. وبما تقدم من البيان يظهر وجه تقييد التذكرة بقوله: ﴿لِمَنْ يَخْشى﴾ وأن المراد بمن يخشى من

كان في طبعه ذلك بأن كان مستعدا لظهور الخشية في قلبه لو سمع كلمة الحق حتى إذا بلغت إليه التذكرة ظهرت في باطنه الخشية فآمن واتقى.

د. والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾ استثناء منقطع، على ما قالوا، والمعنى ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب به نفسك ولكن ليكون مذكرا يتذكر به من من شأنه أن يخشى فيخشى فيؤمن بالله ويتقي.

هـ. فالسياق على رسله يستدعي كون ﴿تَذْكِرَةً﴾ مصدرا بمعنى الفاعل ومفعولا له لقوله: ﴿ما أَنْزَلْنا﴾ كما يستدعي كون قوله: ﴿تَنْزِيلاً﴾ بمعنى اسم المفعول حالا من ضمير ﴿تَذْكِرَةً﴾ الراجع إلى القرآن، والمعنى ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب به نفسك ولكن لتذكر الخاشعين بكلام إلهي منزل من عنده.

٣. ﴿تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّماواتِ الْعُلى﴾ العلى جمع عليا مؤنث أعلى كفضلى وفضل، واختيار خلق الأرض والسماوات صلة للموصول وبيانا لإبهام المنزل لمناسبته معنى التنزيل الذي لا يتم إلا بعلو وسفل يكونان مبدأ ومنتهى لهذا التسيير، وقد خصصا بالذكر دون ما بينهما إذ لا غرض يتعلق بما بينهما وإنما الغرض بيان مبدإ التنزيل ومنتهاه بخلاف قوله: ﴿لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما﴾ إذ الغرض بيان شمول الملك للجميع.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: في قوله: ﴿ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى﴾ وروي أن النبي ﷺ كان يرفع إحدى رجليه في الصلاة ليزيد تعبه، فأنزل الله تعالى: ﴿طه ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى﴾ وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام:

• أقول: ورواه في الدر المنثور، عن عبد بن حميد وابن المنذر عن الربيع بن أنس وأيضا عن ابن مردويه عن ابن عباس.

ب. وفي تفسير القمي، بإسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام قالا: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام على أصابع رجليه، حتى تورم فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿طه﴾ بلغة طي يا محمد ﴿ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى، إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى﴾

• أقول: وروى ما في معناه في الكافي، بإسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام وفي الاحتجاج عن موسى بن جعفر عن آبائه عن علي عليه السلام، وروى هذا المعنى أيضا في الدر المنثور، عن

ابن المنذر وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس.

ج. أخرج ابن مردويه عن علي قال: لما نزل على النبي ﷺ: ﴿يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ قام الليل كله حتى تورمت قدماه، فجعل يرفع رجلا ويضع رجلا فهبط عليه جبريل، فقال: ﴿طه﴾ يعني الأرض بقدميك يا محمد ﴿ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى﴾ وأنزل ﴿فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾

• أقول: والمظنون المطابق للاعتبار أن تكون هذه الرواية هي الأصل في القصة بأن يكون النبي ﷺ قام على قدميه في الصلاة حتى تورمت قدماه ثم جعل يرفع قدما ويضع أخرى أو قام على صدور قدميه أو أطراف أصابعه فذكر في كل من الروايات بعض القصة سببا للنزول وإن كان لفظ بعض الروايات لا يساعد على ذلك كل المساعدة.

• نعم يبقى على الرواية أمران:

● أحدهما: أن في انطباق الآيات بما لها من السياق على القصة خفاء.

● وثانيهما: ما في الرواية من قوله: (فقال طه يعني الأرض بقدميك يا محمد) ونظيره ما مر في رواية القمي (فأنزل الله: ﴿طه﴾ بلغة طي يا محمد ﴿ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى﴾) ومعناه أن طه جملة كلامية مركبة من فعل أمر من وطأ يطأ ومفعوله ضمير تأنيث راجع إلى الأرض، أي طإ الأرض وضع قدميك عليها ولا ترفع إحداهما وتضع الأخرى.

• فيرد عليه حينئذ أن هذا الذيل لا ينطبق على صدر الرواية فإن مفاد الصدر أنه ﷺ كان يرفع رجلا ويضع أخرى في الصلاة إثر تورم قدميه يتوخى به أن يسكن وجع قدمه التي كان يرفعها فيستريح هنيئة ويشتغل بربه من غير شاغل يشغله وعلى هذا فرفع الكلفة والتعب عنه ﷺ على ما يناسب الحال إنما هو بأن يؤمر بتقليل الصلاة أو بتخفيف القيام لا بوضع القدمين على الأرض حتى يزيد ذلك في تعبه ويشدد وجعه فلا يلائم قوله: ﴿طه﴾ قوله: ﴿ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى﴾ ولعل قوله: (يعني الأرض بقدميك) من كلام الراوي والنقل بالمعنى.

• على أنه مغاير للقراءات المأثورة البانية على كون ﴿طه﴾ حرفين مقطعتين لا معنى وضعي لهما كسائر الحروف المقطعة التي صدرت بها عدة من السور القرآنية.

• وذكر قوم منهم أن معنى ﴿طه﴾ يا رجل ثم قال بعضهم: إنه لغة نبطية وقيل: حبشية، وقيل:

عبرانية، وقيل: سريانية، وقيل: لغة عكل، وقيل: لغة عك، وقيل: هو لغة قريش، واحتمل الزمخشري أن يكون لغة عك وأصله يا هذا قلبت الياء طاء وحذفت ذا تخفيفا فصارت طاها، وقيل: معناه يا فلان، وقرأ قوم طه بفتح الطاء وسكون الهاء كأنه أمر من وطأ يطأ والهاء للسكت وقيل: إنه من أسماء الله ولا عبرة بشيء من هذه الأقوال ولا جدوى في إمعان البحث عنها.

• نعم ورد عن أبي جعفر عليه السلام كما في روح المعاني، وعن أبي عبد الله عليه السلام كما عن معاني الأخبار، بإسناده عن الثوري: أن طه اسم من أسماء النبي ﷺ كما ورد في روايات أخرى: أن يس من أسمائه وروى الاسمين معا في الدر المنثور، عن ابن مردويه عن سيف عن أبي جعفر.

• وإذ كانت تسمية سماوية ما كان ﷺ يدعى ولا يعرف به قبل نزول القرآن ولا أن لطه معنى وصفيا في اللغة ولا معنى لتسميته بعلم ارتجالي لا معنى له إلا الذات مع وجود اسمه واشتهاره به وكان الحق في الحروف المقطعة في فواتح السور أنها تحمل معاني رمزية ألقاها الله إلى رسوله، وكانت سورة طه مبتدئة بخطاب النبي ﷺ ﴿طه ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ﴾ إلخ كما أن سورة يس كذلك ﴿يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ بخلاف سائر السور المفتتحة بالحروف المقطعة وظاهر ذلك أن يكون المعنى المرموز إليه بمقطعات فاتحتي هاتين السورتين أمرا راجعا إلى شخصه ﷺ متحققا به بعينه فكان وصفا لشخصيته الباطنة مختصا به فكان اسما من أسمائه ﷺ فإذا أطلق عليه وقيل: طه أو يس كان المعنى من خوطب بطة أو يس ثم صار علما بكثرة الاستعمال.

• هذا ما تيسر لنا من توجيه الرواية فيكون بابه باب التسمي بمثل تأبط شرا ومن قبيل قوله:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا...إذا أضع العمامة تعرفوني

يريد أنا ابن من كثر فيه قول الناس: جلا جلا حتى سمي جلا.

٢. استواء الرحمن على العرش وملكه لكل ما في الكون:

المقطع [٢] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ [طه: ٥ـ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٢٠»:

١. ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾:

أ. استئناف يذكر فيه مسألة توحيد الربوبية التي هي مخ الغرض من الدعوة والتذكرة وذلك في أربع آيات ﴿الرَّحْمنُ﴾ إلى قوله: ﴿لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾

ب. وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ﴾ [الأعراف: ٤]، أن الاستواء على العرش كناية عن الاحتواء على الملك والأخذ بزمام تدبير الأمور وهو فيه تعالى، على ما يناسب ساحة كبريائه وقدسه، ظهور سلطنته على الكون واستقرار ملكه على الأشياء بتدبير أمورها وإصلاح شئونها.

ج. فاستواؤه على العرش يستلزم إحاطة ملكه بكل شيء وانبساط تدبيره على الأشياء سماويها وأرضيها جليلها ودقيقها خطيرها ويسيرها، فهو تعالى رب كل شيء المتوحد بالربوبية إذ لا نعني بالرب إلا المالك للشيء المدبر لأمره، ولذلك عقب حديث الاستواء على العرش بحديث ملكه لكل شيء وعلمه بكل شيء وذلك في معنى التعليل والاحتجاج على الاستواء المذكور.

د. ومعلوم أن ﴿الرَّحْمنُ﴾ وهو مبالغة من الرحمة التي هي الإفاضة بالإيجاد والتدبير وهو يفيد الكثرة أنسب بالنسبة إلى الاستواء من سائر الأسماء والصفات ولذلك اختص من بينها بالذكر.

هـ. وقد ظهر بما تقدم أن ﴿الرَّحْمنُ﴾ مبتدأ خبره ﴿اسْتَوى﴾ و﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ متعلق بقوله: ﴿اسْتَوى﴾ والمراد بيان الاستواء على العرش وهذا هو المستفاد أيضا من سائر الآيات فقد تكرر فيها حديث الاستواء على العرش كقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣]، وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ [السجدة: ٤]، وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٤]، إلى غير ذلك.

و. وبذلك يتبين فساد ما نسب إلى بعضهم أن قوله: ﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ﴾ مبتدأ وخبر ثم قوله: ﴿اسْتَوى﴾ فعل فاعله ﴿ما فِي السَّماواتِ﴾ وقوله: ﴿لَهُ﴾ متعلق بقوله: ﴿اسْتَوى﴾ والمراد باستواء كل شيء له تعالى جريها على ما يوافق إرادته وانقيادها لأمره.

ز. وقد أشبعنا الكلام في معنى العرش في ذيل [الآية: ٥٤] من سورة الأعراف في الجزء الثامن من الكتاب، وسيأتي بعض ما يختص بالمقام في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

٢. ﴿لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَما تَحْتَ الثَّرى﴾:

أ. الثرى على ما قيل: هو التراب الرطب أو مطلق التراب، فالمراد بها تحت الثرى ما في جوف الأرض دون التراب ويبقى حينئذ لما في الأرض ما على بسيطها من أجزائها وما يعيش فيها مما نعلمه ونحس به كالإنسان وأصناف الحيوان والنبات وما لا نعلمه ولا نحس به.

ب. وإذا عم الملك ما في السماوات والأرض ومن ذلك أجزاؤهما عم نفس السماوات والأرض فليس الشيء إلا نفس أجزائه.

ج. وقد بين في هذه الآية أحد ركني الربوبية وهو الملك، فإن معنى الربوبية كما تقدم آنفا هو الملك والتدبير.

٣. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى الاستواء على العرش في ضوء الروايات والمناهج التفسيرية]، خلاصته:

أ. بيان أن الاستواء في الآيات الكريمة يعني الاستيلاء على الملك والتدبير، كما ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام، لا الجلوس أو الاستقرار المكاني.

ب. إثبات أن العرش ليس سريراً مادياً، بل هو مقام التدبير الإلهي ومنبع الأحكام الجارية في النظام الكوني، وهو من مراتب العلم الخارج من الذات.

ج. توضيح المنهج الصحيح في تفسير المتشابهات: إرجاعها إلى المحكمات، وإثبات أصل المعنى المجرد عن شوائب النقص والإمكان، ونفي ما تنفيه المحكمات.

د. نقد منهج المفوضة الذين اكتفوا بالنفي دون الإثبات، وبيان أن طريقة أهل البيت عليهم السلام هي الجمع بين الإثبات والنفي معاً.

هـ. نقد منهج المؤولة الذين حملوا الآيات على خلاف ظاهرها، وبيان أن ذلك لا مسوغ له، وأن رد المتشابه إلى المحكم ليس من التأويل المذموم في شيء.

و. بيان أن الروايات التي تجسم العرش وتصفه بصفات الأجسام لا يصح الأخذ بها، لأنها أخبار آحاد لا تصلح في المعارف الاعتقادية، وتخالف المحكمات القرآني.

٣. علم الله بالسر والجهر وإثبات الأسماء الحسنى:

المقطع [٣] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه: ٧-٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٢٣»:

١. ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾:

أ. الجهر بالقول: رفع الصوت به، والإسرار خلافه، قال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ [الملك: ١٣]، والسر هو الحديث المكتوم في النفس، وقوله: ﴿وَأَخْفَى﴾ أفعل التفضيل من الخفاء على ما يعطيه سياق الترقي في الآية ولا يصغي إلى قول من قال: إن ﴿أَخْفَى﴾ فعل ماض فاعله ضمير راجع إليه تعالى، والمعنى: أنه يعلم السر وأخفى علمه، هذا، وفي تنكير ﴿أَخْفَى﴾ تأكيد للخفاء.

ب. وذكر الجهر بالقول في الآية أولا ثم إثبات العلم بما هو أدق منه وهو السر والترقي إلى أخفى يدل على أن المراد إثبات العلم بالجميع، والمعنى: وإن تجهر بقولك وأعلنت ما تريده، وكأن المراد بالقول ما في الضمير من حيث إن ظهوره إنما هو بالقول غالبا، أو أسررته في نفسك وكتمته أو كان أخفى من ذلك بأن كان خفيا حتى عليك نفسك فإن الله يعلمه.

ج. فالأصل ترديد القول بين المجهور به والسر وأخفى وإثبات العلم بالجميع ثم وضع إثبات العلم بالسر وأخفى موضع الترديد الثاني والجواب إيجازا، فدل على الجواب في شقي الترديد معا وعلى معنى الأولوية بأوجز بيان كأنه قيل: وإن تسأل عن علمه بما تجهر به من قولك فهو يعلمه وكيف لا يعلمه؟ وهو يعلم السر وأخفى منه فهو في الكلام من لطيف الصنعة.

د. وذكر بعضهم أن المراد بالسر ما أسررته من القول إلى غيرك ولم ترفع صوتك به، والمراد بأخفى منه ما أخطرته ببالك هذا والذي ذكره حق في الإسرار لكن القول لا يسمى سرا إلا من جهة كتمانه في النفس فالمعول على ما قدمناه من المعنى.

هـ. وكيف كان فالآية تثبت علمه تعالى بكل شيء ظاهر أو خفي فهي في ذكر العلم عقيب الاستواء على العرش نظيرة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ الآية: [الحديد: ٤]، ومعلوم أن علمه تعالى بما يجري في ملكه ويحدث في مستقر سلطانه من الحوادث يستلزم رضاه بذلك وإذنه وبنظر آخر مشيئته لهذا النظام الجاري وهذا هو التدبير.

و. فالآية تثبت عموم التدبير كما أن الآية السابقة كانت تثبت عموم الملك ومجموع مدلوليهما هو

الملك والتدبير وذلك معنى الربوبية المطلقة فالآيتان في مقام التعليل تثبت بهما ربوبيته تعالى المطلقة.

٢. ﴿اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾:

أ. بمنزلة النتيجة لما تقدم من الآيات ولذلك كان الأنسب أن يكون اسم الجلالة خبرا لمبتدإ محذوف والتقدير هذا المذكور في الآيات السابقة هو الله لا إله إلا هو.، وإن كان الأقرب بالنظر إلى استقلال الآية وجامعيتها في مضمونها أن يكون اسم الجلالة مبتدأ وقوله: ﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبره، وقوله: ﴿لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾ خبرا بعد خبر.

ب. وكيف كان فقوله: ﴿اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ يمكن أن يعلل بما ثبت في الآيات السابقة من توحده تعالى بالربوبية المطلقة ويمكن أن يعلل بقوله بعده: ﴿لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾:

• أما الأول فلأن معنى الإله في كلمة التهليل إما المعبود وإما المعبود بالحق فمعنى الكلام الله لا معبود حق غيره أو لا معبود بالحق موجود غيره والمعبودية من شئون الربوبية ولواحقها فإن العبادة نوع تمثيل وترسيم للعبودية والمملوكية وإظهار للحاجة إليه فمن الواجب أن يكون المعبود مالكا لعابده مدبرا أمره أي ربا له وإذ كان تعالى رب كل شيء لا رب سواه فهو المعبود لا معبود سواه.

• وأما الثاني فلأن العبادة لأحد ثلاث خصال إما رجاء لما عند المعبود من الخير فيعبد طمعا في الخير الذي عنده لينال بذلك، وإما خوفا مما في الإعراض عنه وعدم الاعتناء بأمره من الشر وإما لأنه أهل للعبادة والخضوع.

ج. والله سبحانه هو المالك لكل خير لا يملك شيء شيئا من الخير إلا ما ملكه هو إياه وهو المالك مع ذلك لما ملكه والقادر على ما عليه أقدره وهو المنعم المفضل المحيي الشافي الرازق الغفور الرحيم الغني العزيز وله كل اسم فيه معنى الخير فهو سبحانه المستحق للعبادة رجاء لما عنده من الخير دون غيره.

د. والله سبحانه هو العزيز القاهر الذي لا يقوم لقهره شيء وهو المنتقم ذو البطش شديد العقاب لا شر لأحد عند أحد إلا بإذنه فهو المستحق لأن يعبد خوفا من غضبه لو لم يخضع لعظمته وكبريائه.

هـ. والله سبحانه هو الأهل للعبادة وحده لأن أهلية الشيء لأن يخضع له لنفسه ليس إلا لكمال فالكمال وحده هو الذي يخضع عنده النقص الملازم للخضوع وهو إما جمال تنجذب إليه النفس انجذابا أو جلال يخر عنده اللب ويذهب دونه القلب وله سبحانه كل الجمال وما من جمال إلا وهو آية لجماله، وله

سبحانه كل الجلال وكل ما دونه آيته، فالله سبحانه لا إله إلا هو ولا معبود سواه لأنه له الأسماء الحسنى.

و. ومعنى ذلك أن كل اسم هو أحسن الأسماء التي هي نظائره له تعالى، توضيح ذلك أن توصيف الاسم بالحسن يدل على أن المراد به ما يسمى في اصطلاح الصرف صفة كاسم الفاعل والصفة المشبهة دون الاسم بمعنى علم الذات لأن الأعلم إنما شأنها الإشارة إلى الذوات والاتصاف بالحسن أو القبح من شأن الصفات باشتمالها على المعاني كالعادل والظالم والعالم والجاهل، فالمراد بالأسماء الحسنى الألفاظ الدالة على المعاني الوصفية الجميلة البالغة في الجمال كالحي والعليم والقدير، وكثيرا ما يطلق التسمية على التوصيف، قال تعالى: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي صفوهم.

ز. ويدل على ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، أي يميلون من الحق إلى الباطل فيطلقون عليه من الأسماء ما لا يليق بساحة قدسه.

ح. فالمراد بالأسماء الحسنى ما دل على معان وصفية كالإله والحي والعليم والقدير دون اسم الجلالة الذي هو علم الذات، ثم الأسماء تنقسم إلى قبيحة كالظالم والجائر والجاهل، وإلى حسنة كالعادل والعالم، والأسماء الحسنة تنقسم إلى ما فيه كمال ما وإن كان غير خال عن شوب النقص والإمكان نحو صبيح المنظر ومعتدل القامة وجعد الشعر وما فيه الكمال من غير شوب كالحي والعليم والقدير بتجريد معانيها عن شوب المادة والتركيب وهي أحسن الأسماء لبراءتها عن النقص والعيب وهي التي تليق أن تجري عليه تعالى ويتصف بها.

ط. ولا يختص ذلك منها باسم دون اسم بل كل اسم أحسن فله تعالى لمكان الجمع المحلى باللام المفيد للاستغراق في قوله تعالى: ﴿لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾ وتقديم الخبر يفيد الحصر فجميعها له وحده.

ي. ومعنى كونها له تعالى أنه تعالى يملكها لذاته والذي يوجد منها في غيره فهو بتمليك منه تعالى على حسب ما يريد كما يدل عليه سوق الآيات الآتية سوق الحصر كقوله: ﴿هُوَ الْحَيُّ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٦٥]، وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤] وقوله: ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]، وقوله: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقوله: ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾ [النساء: ١٣٩]، وقوله: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِما شاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، إلى غير ذلك.

ك. ولا محذور في تعميم ملكه بالنسبة إلى جميع أسمائه وصفاته حتى ما كان منها عين ذاته كالحي والعليم والقدير وكالحياة والعلم والقدرة فإن الشيء ربما ينسب إلى نفسه بالملك كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي﴾ [المائدة: ٢٥]

٤. قصة موسى ورؤيته النار:

المقطع [٤] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: ٩-١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٣٦»:

١. ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسى﴾ الاستفهام للتقرير والحديث، القصة.

٢. ﴿إِذْ رَأى ناراً فَقالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً﴾:

أ. المكث اللبث، والإيناس إبصار الشيء أو وجدانه وهو من الأنس خلاف النفور ولذا قيل: إنه إبصار شيء يؤنس به فيكون إبصارا قويا، والقبس بفتحتين هو الشعلة المقتبسة على رأس عود ونحوه والهدى مصدر بمعنى اسم الفاعل أو مضاف إليه لمضاف مقدر أي ذا هداية، والمراد، على أي حال، من قام به الهداية.

ب. وسياق الآية وما يتلوها يشهد أنه كان في منصرفه من مدين إلى مصر ومعه أهله وهم بالقرب من وادي طوى في طور سيناء في ليلة شاتية مظلمة وقد ضلوا الطريق إذ رأى نارا فرأى أن يذهب إليها فإن وجد عندها أحدا سأله الطريق وإلا أخذ قبسا من النار ليضرموا به نارا فيصطلوا بها.

ج. وفي قوله: ﴿فَقالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ إشعار بل دلالة على أنه كان مع أهله غيره كما أن في قوله: ﴿إِنِّي آنَسْتُ ناراً﴾ مع ما يشتمل عليه من التأكيد والتعبير بالإيناس دلالة على أنه إنما رآها هو وحده وما كان يراها غيره من أهله ويؤيد ذلك قوله أيضا أولا: ﴿إِذْ رَأى ناراً﴾، وكذا قوله: ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ﴾ يدل على أن في الكلام حذفا والتقدير امكثوا لأذهب إليها لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هاديا نهتدي بهداه.

٥. نداء الله لموسى في الوادي المقدس وأمره بالعبادة وإقامة الصلاة:

المقطع [٥] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ

فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طه: ١١-١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٣٩»:

١. ﴿فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ يا مُوسى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ إلى قوله: ﴿طُوىً﴾:

أ. طوى اسم لواد بطور وهو الذي سماه الله سبحانه بالواد المقدس، وهذه التسمية والتوصيف هي الدليل على أن أمره بخلع النعلين إنما هو لاحترام الوادي أن لا يداس بالنعل ثم تفريع خلع النعلين مع ذلك على قوله: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ يدل على أن تقديس الوادي إنما هو لكونه حظيرة لقرب وموطن الحضور والمناجاة فيئول معنى الآية إلى مثل قولنا نودي يا موسى ها أنا ذا ربك وأنت بمحضر مني وقد تقدس الوادي بذلك فالتزم شرط الأدب واخلع نعليك.

ب. وعلى هذا النحو يقدس ما يقدس من الأمكنة والأزمنة كالكعبة المشرفة والمسجد الحرام وسائر المساجد والمشاهد المحترمة في الإسلام والأعياد والأيام المتبركة فإنما ذلك قدس وشرف اكتسبته بالانتساب إلى واقعة شريفة وقعت فيها أو نسك وعبادة مقدسة شرعت فيها وإلا فلا تفاضل بين أجزاء المكان ولا بين أجزاء الزمان.

ج. ولما سمع موسى عليه السلام قوله تعالى: ﴿يا مُوسى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ فهم من ذلك فهم يقين أن الذي يكلمه هو ربه والكلام كلامه وذلك أنه كان وحيا منه تعالى وقد صرح تعالى بقوله: ﴿وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ﴾ [الشورى: ٥١]، أن لا واسطة بينه تعالى وبين من يكلمه من حجاب أو رسول إذا كان تكليم وحي وإذ لم يكن هناك أي واسطة مفروضة لم يجد الموحى إليه مكلما لنفسه ولا توهمه إلا الله ولم يجد الكلام إلا كلامه ولو احتمل أن يكون المتكلم غيره أو الكلام كلام غيره لم يكن تكليما ليس بين الإنسان وبين ربه غيره.

د. وهذا حال النبي والرسول في أول ما يوحى إليه بالنبوة والرسالة لم يختلجه شك ولا اعترضه ريب في أن الذي يوحي إليه هو الله سبحانه من غير أن يحتاج إلى إعمال نظر أو التماس دليل أو إقامة حجة ولو افتقر إلى شيء من ذلك كان اكتسابا بواسطة القوة النظرية لا تلقيا من الغيب من غير توسط واسطة.

٢. سؤال وإشكال: فإن قلت: قوله تعالى في القصة في موضع آخر من كلامه: ﴿وَنادَيْناهُ مِنْ جانِبِ

الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْناهُ نَجِيًّا﴾ وقوله في موضع آخر: ﴿مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ يثبت الحجاب في تكليمه عليه السلام، والجواب:

أ. نعم لكن ثبوت الحجاب أو الرسول في مقام التكليم لا ينافي تحقق التكليم بالوحي فإن الوحي كسائر أفعاله تعالى لا يخلو من واسطة وإنما يدور الأمر مدار التفات المخاطب الذي يتلقى الكلام فإن التفت إلى الواسطة التي تحمل الكلام واحتجب بها عنه تعالى كان الكلام رسالة أرسل إليه بملك مثلا ووحيا من الملك، وإن التفت إليه تعالى كان وحيا منه وإن كان هناك واسطة لا يلتفت إليها، ومن الشاهد على ما ذكرنا قوله في الآية التالية خطابا لموسى: ﴿فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى﴾ فسماه وحيا، وقد أثبت في سائر كلامه فيه الحجاب.

ب. وبالجملة قوله: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾، تنبيه لموسى على أن الموقف موقف الحضور ومقام المشافهة وقد خلى به وخصه من نفسه بمزيد العناية، ولذا قيل: إني أنا ربك، ولم يقل: أنا الله أو أنا رب العالمين، ولذا أيضا لم يلزم من قوله ثانيا: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ﴾ تكرار، لأن الأول تخلية للمقام من الأغيار لإلقاء الوحي، والثاني من الوحي.

ج. وفي قوله: ﴿نُودِيَ﴾ حيث طوي ذكر الفاعل ولم يقل: ناديناه أو ناداه الله من اللطف ما لا يقدر بقدر، وفيه تلويح أن ظهور هذه الآية لموسى كان على سبيل المفاجاة.

٣. ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى﴾:

أ. الاختيار مأخوذ من الخير، وحقيقته أن يتردد أمر الفاعل مثلا بين أفعال يجب أن يرجح واحدا منها ليفعله فيميز ما هو خيرها ثم يبني على كونه خيرا من غيره فيفعله، فبناؤه على كونه خيرا من غيره هو اختيار فالاختيار دائما لغاية هو غرض الفاعل من فعله.

ب. فاختياره تعالى لموسى إنما هو لغاية إلهية وهي إعطاء النبوة والرسالة ويشهد بذلك قوله على سبيل التفريع على الاختيار ﴿فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى﴾ فقد تعلقت المشية الإلهية ببعث إنسان يتحمل النبوة والرسالة وكان موسى في علمه تعالى خيرا من غيره وأصلح لهذا الغرض فاختاره عليه السلام.

٤. ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ على ما يعطيه السياق من قبيل إصدار الأمر بنبوته ورسالته فهو إنشاء لا إخبار، ولو كان إخبارا لقيل: وقد اخترتك لكنه إنشاء الاختيار للنبوة والرسالة بنفس هذه الكلمة ثم لما

تحقق الاختيار بإنشائه فرع عليه الأمر بالاستماع للوحي المتضمن لنبوته ورسالته فقال: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحى﴾ والاستماع لما يوحى الإصغاء إليه.

٥. ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾:

أ. هذا هو الوحي الذي أمر عليه السلام بالاستماع له في إحدى عشرة آية تشتمل على النبوة والرسالة معا أما النبوة ففي هذه الآية والآيتين بعدها، وأما الرسالة فتؤخذ من قوله: ﴿وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى﴾ وتنتهي في قوله: ﴿اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى﴾ وقد نص تعالى أنه كان رسولا نبيا معا في قوله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥١]

ب. وقد ذكر في الآيات الثلاث المشتملة على النبوة الركنان معا وهما ركن الاعتقاد وركن العمل، وأصول الاعتقاد ثلاثة التوحيد والنبوة والمعاد وقد ذكر منها التوحيد والمعاد وطوي عن النبوة لأن الكلام مع النبي نفسه وأما ركن العمل فقد لخص على ما فيه من التفصيل في كلمة واحدة هي قوله: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ فتمت بذلك أصول الدين وفروعه في ثلاث آيات.

ج. فقوله: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا﴾ عرف المسمى بالاسم بنفسه حيث قال: إنني أنا الله ولم يقل: إن الله هو أنا لأن مقتضى الحضور أن يعرف وصف الشيء بذاته لا ذاته بوصفه كما قال إخوة يوسف لما عرفوه: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذا أَخِي﴾ واسم الجلالة وإن كان علما للذات المتعالية لكنه يفيد معنى المسمى بالله إذ لا سبيل إلى الذات المقدسة فكأنه قيل: أنا الذي يسمى (الله) فالمتكلم حاضر مشهود والمسمى باسم (الله) كأنه مبهم أنه من هو؟ فقيل أنا ذاك على أن اسم الجلالة علم بالغلبة لا يخلو من أصل وصفي.

د. ﴿لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ كلمة التوحيد مرتبة على قوله: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ﴾ لفظا لترتبها عليه حقيقة فإنه إذا كان هو الذي منه يبدأ كل شيء وبه يقوم وإليه يرجع فلا ينبغي أن يخضع خضوع العبادة إلا له فهو الإله المعبود بالحق لا إله غيره ولذا فرع على ذلك الأمر بعبادته حيث قال: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾

٦. ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾:

أ. خص الصلاة بالذكر، وهو من باب ذكر الخاص بعد العام اعتناء بشأنه، لأن الصلاة أفضل عمل يمثل به الخضوع العبودي ويتحقق بها ذكر الله سبحانه تحقق الروح بقالبه.

ب. وعلى هذا المعنى فقوله: ﴿لِذِكْرِي﴾ من إضافة المصدر إلى مفعوله واللام للتعليل وهو متعلق بأقم محصله أن: حقق ذكرك لي بالصلاة، كما يقال: كل لتشبع واشرب لتروي وهذا هو المعنى السابق إلى الذهن من مثل هذا السياق.

ج. وقد تكاثرت الأقوال في قوله: ﴿لِذِكْرِي﴾ فقيل: إنه متعلق بأقم كما تقدم وقيل: بالصلاة، وقيل: بقوله: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ ثم اللام قيل: للتعليل، وقيل للتوقيت والمعنى أقم الصلاة عند ذكري أو عند ذكرها إذا نسيتها أو فاتت منك فهي كاللام في قوله: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨]

د. ثم الذكر قيل: المراد به الذكر اللفظي الذي تشتمل عليه الصلاة، وقيل الذكر القلبي الذي يقارنها ويتحقق بها أو يترتب عليها ويحصل بها حصول المسبب عن سببه أو الذكر الذي قبلها، وقيل: المراد الأعم من القلبي والقالبي.

هـ. ثم الإضافة:

- قيل: إنها من إضافة المصدر إلى مفعوله، وقيل: من إضافة المصدر إلى فاعله والمراد صل لأن أذكرك بالثناء والإثابة أو المراد صل لذكري إياها في الكتب السماوية وأمري بها.
- وقيل: إنه يفيد قصر الإقامة في الذكر، والمعنى: أقم الصلاة لغرض ذكري لا لغرض آخر غير ذكري كثواب ترجوه أو عقاب تخافه، وقيل: لا قصر.
- وقيل: إنه يفيد قصر المضاف في المضاف إليه، والمراد: أقم الصلاة لذكري خاصة من غير أن ترائي بها أو تشوبها بذكر غيري، وقيل: لا دلالة على ذلك من جهة اللفظ وإن كان حقا في نفسه.
- وقيل: المراد بالذكر ذكر الصلاة أي أقم الصلاة عند تذكرها أو لأجل ذكرها والكلام على تقدير مضاف والأصل لذكر صلاتي أو على أن ذكر الصلاة سبب لذكر الله فأطلق المسبب وأريد به السبب إلى غير ذلك والوجوه الحاصلة بين غث وسمين، والذي يسبق إلى الفهم هو ما قدمناه.

٧. ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى﴾ تعليل لقوله في الآية السابقة: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ ولا يناقض ذلك كون ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ متفرعا على كلمة التوحيد المذكورة قبله لأن وجوب عبادته تعالى وإن كان بحسب نفسه متفرعا على توحده لكنه لا يؤثر أثرا لولا ثبوت يوم يجزى فيه الإنسان بما عمله ويتميز فيه المحسن من المسيء والمطيع من العاصي فيكون التشريع لغوا والأمر والنهي سدى لا

أثر لها، ولذلك كانت مقضية قضاء حتما وتكرر في كلامه تعالى نفي الريب عنها.

٨. ﴿أَكادُ أُخْفِيها﴾:

أ. ظاهر إطلاق الإخفاء أن المراد يقرب أن أخفيها وأكتمها فلا أخبر عنها أصلا حتى يكون وقوعها أبلغ في المباغتة وأشد في المفاجاة ولا تأتي إلا فجأة كما قال تعالى: ﴿لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧]، أو يقرب أن لا أخبر بها حتى يتميز المخلصون من غيرهم فإن أكثر الناس إنما يعبدونه تعالى رجاء في ثوابه أو خوفا من عقابه جزاء للطاعة والمعصية، وأصدق العمل ما كان لوجه الله لا طمعا في جنة أو خوفا من نار ولو أخفي وكتم يوم الجزاء تميز عند ذلك من يأتي بحقيقة العبادة من غيره.

ب. وقيل: معنى أكاد أخفيها أقرب من أن أكتمها من نفسي وهو مبالغة في الكتمان إذا أراد أحدهم المبالغة في كتمان شيء، قال: كدت أخفيه من نفسي أي فكيف أظهره لغيري؟ وعزي إلى الرواية.

٩. ﴿لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى﴾ متعلق بقوله: ﴿آتِيَةٌ﴾ والمعنى واضح.

١٠. ﴿فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها وَاتَّبَعَ هَواهُ فَتَرْدى﴾:

أ. الصد الصرف، والردى الهلاك، والضميران في ﴿عَنْها﴾ و﴿بِها﴾ للساعة، ومعنى الصد عن الساعة الصرف عن ذكرها بما لها من الشأن وهو أنها يوم تجزى فيه كل نفس بما تسعى، وكذا معنى عدم الإيمان بها هو الكفر بها بما لها من الشأن.

ب. ﴿وَاتَّبَعَ هَواهُ﴾ كعطف التفسير بالنسبة إلى قوله: ﴿مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها﴾ أي إن عدم الإيمان بها مصداق اتباع الهوى وإذ كان مع ذلك صالحا للتعليل أفاد الكلام علية الهوى لعدم الإيمان بها، واستفيد من ذلك بالالتزام أن الإيمان بالساعة هو الحق المخالف للهوى والمنجي من الردى.

ج. فمحصل معنى الآية أنه إذا كانت الساعة آتية والجزاء واقعا فلا يصرفنك عن الإيمان بها وذكرها بما لها من الشأن الذين اتبعوا أهواءهم فصاروا يكفرون بها ويعرضون عن عبادة ربهم فلا يصرفنك عنها حتى تنصرف فتهلك.

د. ولعل الإتيان في قوله: ﴿وَاتَّبَعَ هَواهُ﴾ بصيغة الماضي مع كون المعطوف عليه بصيغة المضارع للتلويح إلى علية اتباع الهوى لعدم الإيمان.

١١. أحاديث وآثار:

أ. في الفقيه: سئل الصادق عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ، إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً﴾ قال: كانتا من جلد حمار ميت.

• أقول: ورواه أيضا في تفسير القمي، مرسلا ومضمرا، وروى هذا المعنى في الدر المنثور، عن عبد الرزاق والفاريابي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن علي، وقد ورد ذلك في بعض الروايات، وسياق الآية يعطي أن الخلع لاحترام الموقف.

ب. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ قيل: معناه أقم الصلاة متى ذكرت أن عليك صلاة، كنت في وقتها أم لم تكن، عن أكثر المفسرين:، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام، ويعضده ما رواه أنس عن النبي ﷺ قال: من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها، لا كفارة لها غير ذلك:، رواه مسلم في الصحيح.

• أقول: والحديث مروي بطرق أخرى مسندة وغير مسندة عن النبي ﷺ من طرق أهل السنة وعن الصادقين عليه السلام من طرق الشيعة.

٦. معجزة العصا واليد البيضاء وآيات الله الكبرى:

المقطع [٦] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ [طه: ١٧ـ٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٤٣»:

١. ﴿وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى﴾:

أ. شروع في وحي الرسالة وقد تم وحي النبوة في الآيات الثلاث الماضية والاستفهام للتقرير، سئل عليه السلام عما في يده اليمنى وكانت عصاه، ليسميها ويذكر أوصافها فيتبين أنها جماد لا حياة له حتى يأخذ تبديلها حية تسعى مكانه في نفسه عليه السلام.

ب. والظاهر أن المشار إليه بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ العودة أو الخشبة، ولولا ذلك لكان من حق الكلام أن يقال: وما ذلك بجعل المشار إليه هو الشيء لمكان التجاهل بكونها عصا وإلا لم يستقم الاستفهام كما في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّي هذا أَكْبَرُ﴾ [الأنعام: ٧٨]

ج. ويمكن أن تكون الإشارة بتلك إلى العصا لكن لا بداعي الاطلاع على اسمها وحقيقتها حتى يلغو الاستفهام بل بداعي أن يذكر ما لها من الأوصاف والخواص ويؤيده ما في كلام موسى عليه السلام من الإطناب بذكر نعوت العصا وخواصها فإنه لما سمع السؤال عما في يمينه وهي عصا لا يرتاب فيها فهم أن المطلوب ذكر أوصافها فأخذ يذكر اسمها ثم أوصافها وخواصها، وهذه طريق معمولة فيما إذا سئل عن أمر واضح لا يتوقع الجهل به ومن هذا الباب يوجه قوله تعالى: ﴿الْقارِعَةُ مَا الْقارِعَةُ وَما أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤]، وقوله: ﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ٣]

٢. ﴿قالَ هِيَ عَصايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى﴾:

أ. العصا معروفة وهي من المؤنثات السماعية، والتوكي والاتكاء على العصا الاعتماد عليها، والهش هو خبط ورق الشجرة وضربه بالعصا لتساقط على الغنم فيأكله، والمآرب جمع مأربة مثلثة الراء وهي الحاجة، والمراد بكون مآربه فيها تعلق حوائجه بها من حيث إنها وسيلة رفعها، ومعنى الآية ظاهر، وإطنابه عليه السلام بالإطالة في ذكر أوصاف العصا وخواصها قيل: لأن المقام وهو مقام المناجاة والمسارة مع المحبوب يقتضي ذلك لأن مكالمة المحبوب لذيذة ولذا ذكر أولا أنه عصاه ليرتب عليه منافعها العامة وهذه هي النكتة في ذكر أنها عصاه.

ب. وقد قدمنا في ذيل الآية السابقة وجها آخر لهذا الاستفهام وجوابه وليس الكلام عليه من باب الإطناب وخاصة بالنظر إلى جمعه سائر منافعها في قوله: ﴿وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى﴾

٣. ﴿قالَ أَلْقِها يا مُوسى﴾ إلى قوله: ﴿سِيرَتَهَا الْأُولى﴾:

أ. السيرة الحالة والطريقة وهي في الأصل بناء نوع من السير كجلسة لنوع من الجلوس.

ب. أمر سبحانه موسى أن يلقي عصاه عن يمينه وهو قوله: ﴿قالَ أَلْقِها يا مُوسى﴾ فلما ألقى العصا صارت حية تتحرك بجد وجلادة وذلك أمر غير مترقب من جماد لا حياة له وهو قوله: ﴿فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى﴾ وقد عبر تعالى عن سعيها في موضع آخر من كلامه بقوله: ﴿رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ﴾ [القصص: ٣١]، وعبر عن الحية أيضا في موضع آخر بقوله: ﴿فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧]، [الشعراء: ٣٢] والثعبان: الحية العظيمة.

٤. ﴿قالَ خُذْها وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا﴾ أي حالتها ﴿الْأُولى﴾ وهي أنها عصا فيه دلالة على خوفه عليه السلام مما شاهده من حية ساعية وقد قصه تعالى في موضع آخر إذ قال: ﴿فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ﴾ [القصص: ٣١]، والخوف وهو الأخذ بمقدمات التحرز عن الشر غير الخشية التي هي تأثر القلب واضطرابه فإن الخشية رذيلة تنافي فضيلة الشجاعة بخلاف الخوف والأنبياء عليهم السلام يجوز عليهم الخوف دون الخشية كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]

٥. ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرى﴾:

أ. الضم الجمع، والجناح جناح الطائر واليد والعضد والإبط ولعل المراد به المعنى الأخير ليئول إلى قوله في موضع آخر: ﴿أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ والسوء كل رداءة وقبح قيل: كني به في الآية عن البرص والمعنى أجمع يدك تحت إبطك أي أدخلها في جيبك تخرج بيضاء من غير برص أو حالة سيئة أخرى.

ب. ﴿آيَةً أُخْرى﴾ حال من ضمير تخرج وفيه إشارة إلى أن صيرورة العصا حية آية أولى واليد البيضاء آية أخرى وقال تعالى في ذلك: ﴿فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ﴾ [القصص: ٣٢]

٦. ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى﴾ اللام للتعليل والجملة متعلقة بمقدر كأنه قيل: أجرينا ما أجرينا على يدك لنريك بعض آياتنا الكبرى.

٧. أمر موسى بالذهاب إلى فرعون ودعاؤه واستعانته بهارون:

المقطع [٧] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٢٤-٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٤٥»:

١. ﴿اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى﴾ هذا هو أمر الرسالة وكانت الآيات السابقة: ﴿وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ مقدمة له.

٢. ﴿قالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً﴾ الآيات، وهي إحدى عشرة آية:

أ. متن ما سأله موسى عليه السلام ربه حين سجل عليه حكم الرسالة وهي بظاهرها مربوطة بأمر رسالته لأنه أحوج ما يكون إليها في تبليغ الرسالة إلى فرعون وملئه وإنجاء بني إسرائيل وإدارة أمورهم لا في أمر النبوة.

ب. ويؤيد ذلك أنه لم يسأل بعد إتمام أمر النبوة في الآيات الثلاث السابقة بل إنما بادر إلى ذلك بعد ما ألقي إليه قوله: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ وهو أمر الرسالة.

ج. نعم الآيات الأربع الأول: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾، لا يخلو من ارتباط في الجملة بأمر النبوة وهي تلقي عقائد الدين وأحكامه العملية عن ساحة الربوبية.

د. فقوله: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ والشرح البسط والجملة من الاستعارة التخييلية والاستعارة بالكناية كأن صدر الإنسان وقد استكن فيه القلب وعاء يعي ما يرد عليه من طريق المشاهدة والإدراك ثم يختزن فيه السر وإذا كان أمرا عظيما يشق على الإنسان أو هو فوق طاقته ضاق عنه الصدر فلم يسعه واحتاج إلى انشراح حتى يسعه.

هـ. وقد استعظم موسى ما سجل عليه ربه من أمر الرسالة وقد كان على علم بما عليه أمة القبط من الشوكة والقوة وعلى رأس هذه الأمة المتجبرة فرعون الطاغي الذي كان ينازع الله في ربوبيته وينادي أنا ربكم الأعلى، وكان يذكر ما عليه بنو إسرائيل من الضعف والإسارة بين آل فرعون ثم الجهل وانحطاط الفكر، وكان كأنه يرى ما ستجره إليه هذه الدعوة من الشدائد والمصائب ويشاهد ما سيعقبه تبليغ هذه الرسالة من الفظائع والفجائع وهو رجل قليل التحمل سريع الانقلاب في ذات الله ينكر الظلم ويأبى الضيم كما يشهد به قصة قتله القبطي واستقائه في ماء مدين وفي لسانه، وهو السلاح الوحيد لمن أراد الدعوة والتبليغ، عقدة ربما منعته بيان ما يريد بيانه.

و. فلذلك سأل ربه حل هذه المشكلات فسأل أولا أن يوسع صدره لما يحمله ربه من أعباء الرسالة ولما ستستقبله من العظائم والشدائد في مسيره في الدعوة فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾

ز. ثم قال: ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ وهو الأمر الذي قلده من الرسالة ولم يسأله تعالى أن يخفف في رسالته ويتنزل بعض التنزل عما أمره به أولا فيقنع بما هو دونه فتصير رسالة يسيرة في نفسها بعد ما كانت خطيرة وإنما سأل أن يجعلها على ما بها من العسر والخطر يسيرة بالنسبة إليه هينة عنده والدليل على ذلك

قوله: ﴿وَيَسِّرْ لِي﴾

ح. ووجه الدلالة أن قوله: ﴿لِي﴾ والمقام هذا المقام يفيد الاختصاص فيؤدي ما هو معنى قولنا: ويسر لي، وأنا الذي أوقفتني هذا الموقف وقلدتني ما قلدتني أمري الذي قلدتنيه ومن المعلوم أن مقتضى هذا السؤال تيسير الأمر بالنسبة إليه لا تيسيره في نفسه، ونظير الكلام يجري في قوله: ﴿اشْرَحْ لِي﴾ فمعناه اشرح لي وأنا الذي أمرتني بالرسالة وقبالها شدائد ومكاره ﴿صَدْرِي﴾ حتى لا يضيق إذا ازدحمت علي ودهمتني، ولو قيل: رب اشرح صدري ويسر أمري فاتت هذه النكتة.

ط. ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ سؤال له آخر يرجع إلى عقدة من لسانه والتنكير في ﴿عُقْدَةً﴾ للدلالة على النوعية فله وصف مقدر وهو الذي يلوح من قوله: ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ أي عقدة تمنع من فقه قولي.

٣. ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هارُونَ أَخِي﴾:

أ. سؤال له آخر وهو رابع الأسئلة وآخرها، والوزير فعيل من الوزر بالكسر فالسكون بمعنى الحمل الثقيل سمي الوزير وزيرا لأنه يحمل ثقل حمل الملك، وقيل: من الوزر بفتحتين بمعنى الجبل الذي يلتجأ إليه سمي به لأن الملك يلتجئ إليه في آرائه وأحكامه.

ب. وبالجملة هو يسأل ربه أن يجعل له وزيرا من أهله ويبينه أنه هارون أخي وإنما يسأل ذلك لأن الأمر كثير الجوانب متباعد الأطراف لا يسع موسى أن يقوم به وحده بل يحتاج إلى وزير يشاركه في ذلك فيقوم ببعض الأمر فيخفف عنه فيما يقوم به هذا الوزير ويكون مؤيدا لموسى فيما يقوم به موسى وهذا معنى قوله، وهو بمنزلة التفسير لجعله وزيرا ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾

ج. فمعنى قوله: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ سؤال إشراك في أمر كان يخصه وهو تبليغ ما بلغه من ربه بادي مرة فهو الذي يخصه ولا يشاركه فيه أحد سواه ولا له أن يستنيب فيه غيره وأما تبليغ الدين أو شيء من أجزائه بعد بلوغه بتوسط النبي فليس مما يختص بالنبي بل هو وظيفة كل من آمن به ممن يعلم شيئا من الدين وعلى العالم أن يبلغ الجاهل وعلى الشاهد أن يبلغ الغائب ولا معنى لسؤال إشراك أخيه معه في أمر لا يخصه بل يعمه وأخاه وكل من آمن به من الإرشاد والتعليم والبيان والتبليغ فتبين أن معنى إشراكه في أمره أن يقوم بتبليغ بعض ما يوحى إليه من ربه عنه وسائر ما يختص به من عند الله كافتراض الطاعة

وحجية الكلمة.

د. وأما الإشراك في النبوة خاصة بمعنى تلقي الوحي من الله سبحانه فلم يكن موسى يخاف على نفسه التفرد في ذلك حتى يسأل الشريك وإنما كان يخاف التفرد في التبليغ وإدارة الأمور في إنجاء بني إسرائيل وما يلحق بذلك، وقد نقل ذلك عن موسى نفسه في قوله: ﴿وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي﴾ [القصص: ٣٤]

هـ. على أنه صح من طرق الفريقين أن النبي ﷺ دعا بهذا الدعاء بألفاظه في حق علي عليه السلام ولم يكن نبيا.

٤. ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً﴾:

أ. ظاهر السياق وقد ذكر في الغاية تسبيحهما معا وذكرهما معا أن الجملة غاية لجعل هارون وزيرا له إذ لا تعلق لتسبيحهما معا وذكرهما معا بمضامين الأدعية السابقة وهي شرح صدره وتيسير أمره وحل عقدة من لسانه ويترتب على ذلك أن المراد بالتسبيح والذكر تنزيههما معا لله سبحانه وذكرهما له بين الناس علنا لا في حال خلوتهما أو في قلبيهما سرا إذ لا تعلق لذلك أيضا بجعله وزيرا بل المراد أن يسبحاه ويذكراه معا بين الناس في مجامعهم ونواديهم وأي مجلس منهم حلا فيه وحضرا فتكثر الدعوة إلى الإيمان بالله ورفض الشركاء.

ب. وبذلك يرجع ذيل السياق إلى صدره كأنه يقول: إن الأمر خطير وقد غر هذا الطاغية وملأه وأمته عزهم وسلطانهم ونشب الشرك والوثنية بأعراقه في قلوبهم وأنساهم ذكر الله من أصله وقد امتلأت أعين بني إسرائيل بما يشاهدونه من عزة فرعون وشوكة ملئه واندهشت قلوبهم من سطوة آل فرعون وارتاعت نفوسهم من سلطتهم فنسوا الله ولا يذكرون إلا الطاغية، فهذا الأمر أمر الرسالة والدعوة في نجاحه ومضيه في حاجة شديدة إلى تنزيهك بنفي الشريك كثيرا وإلى ذكرك بالربوبية والألوهية بينهم كثيرا ليتبصروا فيؤمنوا وهذا أمر لا أقوى عليه وحدي فاجعل هارون وزيرا لي وأيدني به وأشركه في أمري كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا لعل السعي ينجع والدعوة تنفع.

ج. وبهذا البيان يظهر وجه تعلق هذه الغاية أعني قوله: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ﴾، بما تقدمه.

• وثانيا: وجه ورود قوله: ﴿كَثِيراً﴾ مرتين وأنه ليس من التكرار في شيء إذ كل من التسبيح والذكر

يجب أن يكون في نفسه كثيرا، ولو قيل كي نسبحك ونذكرك كثيرا أفاد كثرتها مجتمعين وهو غير مراد.

• وثالثا: وجه تقديم التسبيح على الذكر فإن المراد بالتسبيح تنزيهه تعالى عن الشريك بدفع ألوهية الآلهة من دون الله وإبطال ربوبيتها لتقع الدعوة إلى الإيمان بالله وحده، وهو المراد بالذكر، موقعها، فالتسبيح من قبيل دفع المانع المتقدم على تأثير المقتضي، وقد ذكر لهذه الخصوصيات وجوه أخر مذكورة في المطولات لا جدوى فيها ولا في نقلها.

٥. ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً﴾ هو بظاهره تعليل كالحجة على قوله: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً﴾ إلخ، أي أنك كنت بصيرا بي وبأخي منذ خلقتنا وعرفتنا نفسك وتعلم أنا لم نزل نعبدك بالتسبيح والذكر ساعيين مجدين في ذلك فإن جعلته وزيرا لي وأيدتني به وأشركته في أمري تم أمر الدعوة وسبحناك كثيرا وذكرناك كثيرا، والمراد بقوله: ﴿بِنا﴾ على هذا هو وأخوه، ويمكن أن يكون المراد بالضمير في ﴿بِنا﴾ أهله، والمعنى: أنك كنت بصيرا بنا أهل البيت أنا أهل تسبيح وذكر فإن جعلت هارون أخي، وهو من أهلي، وزيرا لي سبحناك كثيرا وذكرناك كثيرا، وهذا الوجه أحسن من سابقه لأنه يفي ببيان النكتة في ذكر الأهل في قوله السابق: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هارُونَ أَخِي﴾ أيضا فافهم ذلك.

٦. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن مردويه والخطيب وابن عساكر عن أسماء بنت عميس قالت: رأيت رسول الله ﷺ بإزاء ثبير وهو يقول: أشرق ثبير أشرق ثبير، اللهم إني أسألك بما سألك أخي موسى، أن تشرح لي صدري، وأن تيسر لي أمري، وأن تحل عقدة من لساني يفقهوا قولي، واجعل لي وزيرا من أهلي عليا أخي اشدد به أزرى، وأشركه في أمري كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا، إنك كنت بنا بصيرا.

• أقول: وروي قريبا من هذا المعنى عن السلفي عن الباقر عليه السلام وروي أيضا في المجمع عن ابن عباس عن أبي ذر عن النبي ﷺ قريبا منه.

ب. وقال في روح المعاني، بعد إيراد الحديث المذكور ما لفظه: (ولا يخفى أنه يتعين هنا حمل الأمر على أمر الإرشاد والدعوة إلى الحق ولا يجوز حمله على النبوة ولا يصح الاستدلال به على خلافة علي كرم الله وجهه بعد النبي ﷺ بلا فصل، ومثله: فيما ذكر ما صح من قوله عليه السلام له، حين استخلفه في غزوة تبوك على أهل بيته (أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي)

• قلت: أما الاستدلال بالحديث أو بحديث المنزلة على خلافته عليه السلام بلا فصل فالبحث فيه خارج عن غرض الكتاب وإنما نبحث عن المراد بقوله ﷺ في دعائه لعلي عليه السلام: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ طبقا لدعاء موسى عليه السلام المحكي في الكتاب العزيز فإن له مساسا بها فهمه ﷺ من لفظ الآية والحديث صحيح مؤيد بحديث المنزلة المتواتر.

• فمراده ﷺ بالأمر في قوله: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ ليس هو النبوة قطعا لنص حديث المنزلة باستثناء النبوة، وهو الدليل القاطع على أن مراد موسى بالأمر في قوله: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ ليس هو النبوة وإلا بقي قول النبي ﷺ: ﴿أَمْرِي﴾ بلا معنى يفيده.

• وليس المراد بالأمر هو مطلق الإرشاد والدعوة إلى الحق، كما ذكره، قطعا لأنه تكليف يقوم به جميع الأمة ويشاركه فيه غيره وحجة الكتاب والسنة قائمة فيه كأمثال قوله تعالى: ﴿قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقوله ﷺ، وقد رواه العامة والخاصة ـ: فليبلغ الشاهد الغائب، وإذا كان أمرا مشتركا بين الجميع فلا معنى لسؤال إشراك علي فيه.

• على أن الإضافة في قوله: ﴿أَمْرِي﴾ تفيد الاختصاص فلا يصدق على ما هو مشترك بين الجميع، ونظير الكلام يجري في قول موسى المحكي في الآية.

• نعم التبليغ الابتدائي وهو تبليغ الوحي لأول مرة أمر يختص بالنبي فليس له أن يستنيب لتبليغ أصل الوحي رجلا آخر، فالإشراك فيه إشراك في أمره وفي قول موسى ما يشهد بذلك إذ يقول: ﴿وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي﴾ إذ ليس المراد بتصديقه إياه أن يقول: صدق أخي بل أن يوضح ما أبهم من كلامه ويفصل ما أجمل ويبلغ عنه بعض الوحي الذي كان عليه أن يبلغه.

• فهذا النوع من التبليغ وما معه من آثار النبوة كافتراض الطاعة مما يختص بالنبي والإشراك فيها إشراك في أمره، فهذا المعنى هو المراد بالأمر في دعائه ﷺ وهو المراد أيضا مضافة إليه النبوة في دعاء موسى.

• وقد تقدم ما يتعلق بهذا البحث في تفسير أول سورة براءة في حديث بعث النبي ﷺ عليا بآيات أول براءة إلى مكة بعد عزل أبي بكر عنها استنادا إلى ما أوحي إليه أنه لا يبلغها عنك إلا أنت أو رجل منك، في الجزء التاسع من الكتاب.

٨. استجابة الله لدعاء موسى وتذكيره بنعمته وإلقائه في التابوت:

المقطع [٨] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه: ٣٦ـ٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٤٩»:

١. ﴿قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى﴾ إجابة لأدعيته جميعا وهو إنشاء نظير ما مر من قوله: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى﴾

٢. ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى﴾ إلى قوله: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ﴾:

أ. يذكره تعالى بمن آخر له عليه قبل أن يختاره للنبوة والرسالة ويؤتي سؤله وهو منه عليه حينما تولد فقد كان بعض الكهنة أخبر فرعون أن سيولد في بني إسرائيل مولود يكون بيده زوال ملكه فأمر فرعون بقتل كل مولود يولد فيهم فكانوا يقتلون المواليد الذكور حتى إذا ولد موسى أوحى الله إلى أمه أن لا تخاف وترضعه فإذا خافت عليه من عمال فرعون وجلاوزته تقذفه في تابوت فتقذفه في النيل فيلقيه اليم إلى الساحل حيال قصر فرعون فيأخذه فيتخذه ابنا له وكان لا عقب له ولا يقتله ثم إن الله سيرده إليها، ففعلت كما أوحي إليها فلما جرى التابوت بجريان النيل أرسلت بنتا لها وهي أخت موسى أن تجس أخباره فكانت تطوف حول قصر فرعون حتى وجدت نفرا يطلبون بأمر فرعون مرضعا ترضع موسى فدلتهم أخت موسى على أمها فاسترضعوها له فأخذت ولدها وقرت به عينها وصدق الله وعده وقد عظم منه على موسى.

ب. فقوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى﴾ امتنان بما صنعه به أول عمره وقد تغير السياق من التكلم وحده إلى التكلم بالغير لأن المقام مقام إظهار العظمة وهو ينبئ عن ظهور قدرته التامة بتخييب سعي فرعون الطاغية وإبطال كيده لإخماد نور الله ورد مكره إليه وتربية عدوه في حجره، وأما موقف نداء موسى وتكليمه إذ قال: ﴿يا مُوسى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ فسياق التكلم وحده أنسب له.

٣. ﴿إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى﴾:

أ. المراد به الإلهام وهو نوع من القذف في القلب في يقظة أو نوم، والوحي في كلامه تعالى لا ينحصر

في وحي النبوة كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، وأما وحي النبوة فالنساء لا يتنبأن ولا يوحى إليهن بذلك قال تعالى: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى﴾ [يوسف: ١٠٩] وقوله: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ هو مضمون ما أوحي إلى أم موسى و﴿أَنِ﴾ للتفسير، وقيل: مصدرية متعلق بأوحي والتقدير أوحي بأن اقذفيه، وقيل: مصدرية والجملة بدل من: ﴿ما يُوحى﴾

ب. والتابوت الصندوق وما يشبهه والقذف الوضع والإلقاء وكأن القذف الأول في الآية بالمعنى الأول والقذف الثاني بالمعنى الثاني ويمكن أن يكونا معا بالمعنى الثاني بعناية أن وضع الطفل في التابوت وإلقاءه في اليم إلقاء وطرح له من غير أن يعبأ بحاله، واليم البحر: وقيل: البحر العذب، والساحل شاطئ البحر وجانبه من البر، والصنع والصنيعة الإحسان.

٤. ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ﴾ أمر عبر به إشارة إلى تحقق وقوعه ومفاده أنا أمرنا اليم بذلك أمرا تكوينيا فهو واقع حتما مقضيا، وكذا قوله: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي﴾ وهو جزاء مترتب على هذا الأمر.

٥. ومعنى الآيتين إذ أوحينا وألهمنا أمك بما يوحى ويلهم وهو أن ضعيه، أو ألقيه، في التابوت وهو الصندوق فألقيه في اليم والبحر وهو النيل فمن المقضي من عندنا أن يلقيه البحر بالساحل والشاطئ يأخذه عدو لي وعدو له وهو فرعون لأنه كان يعادي الله بدعوى الألوهية ويعادي موسى بقتله الأطفال وكان طفلا هذا ما أوحيناه إلى أمك.

٦. ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي﴾:

أ. ظاهر السياق أن هذا الفصل إلى قوله: ﴿وَلا تَحْزَنَ﴾ فصل ثان تال للفصل السابق متمم له والمجموع بيان للمن المشار إليه بقوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى﴾

ب. فالفصل الأول يقص الوحي إلى أمه بقذفه في التابوت ثم في البحر لينتهي إلى فرعون فيأخذه عدو الله وعدوه والفصل الثاني يقص إلقاء المحبة عليه لينصرف فرعون عن قتله ويحسن إليه حتى ينتهي الأمر إلى رجوعه إلى أمه واستقراره في حجرها لتقر عينها ولا تحزن وقد وعدها الله ذلك كما قال في سورة القصص: ﴿فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ [القصص: ١٣]، ولازم هذا المعنى كون الجملة أعني قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ﴾، معطوفا على قوله: ﴿أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ﴾

ج. ومعنى إلقاء محبة منه عليه كونه بحيث يحبه كل من يراه كأن المحبة الإلهية استقرت عليه فلا

يقع عليه نظر ناظر إلا تعلقت المحبة بقلبه وجذبته إلى موسى، ففي الكلام استعارة تخييلية وفي تنكير المحبة إشارة إلى فخامتها وغرابة أمرها.

د. واللام في قوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ للغرض، والجملة معطوفة على مقدر والتقدير ألقيت عليك محبة مني لأمور كذا وكذا وليحسن إليك على عيني أي بمرأى مني فإني معك أراقب حالك ولا أغفل عنك لمزيد عنايتي بك وشفقتي عليك، وربما قيل: إن المراد بقوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ الإحسان إليه بإرجاعه إلى أمه وجعل تربيته في حجرها.

هـ. وكيف كان فهذا اللسان وهو لسان كمال العناية والشفقة يناسب سياق التكلم وحده ولذا عدل إليه من لسان التكلم بالغير.

٧. ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ﴾:

أ. الظرف، على ما يعطيه السياق، متعلق بقوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾ والمعنى: وألقيت عليك محبة مني يحبك كل من يراك لكذا وكذا وليحسن إليك بمرأى مني وتحت مراقبتي في وقت تمشي أختك لتجوس خبرك وترى ما يصنع بك فتجد عمال فرعون يطلبون مرضعا ترضعك فتقول لهم، والاستقبال في الفعل لحكاية الحال الماضية، عارضة عليهم: هل أدلكم على من يكفله بالحضانة والإرضاع فرددناك إلى أمك كي تسر ولا تحزن.

ب. ﴿فَرَجَعْنَاكَ﴾ بصيغة المتكلم مع الغير رجوع إلى السياق السابق وهو التكلم بالغير وليس بالتفات.

٩. نجاة موسى من الغم بعد قتل النفس ومكثه في مدين:

المقطع [٩] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٥١»:

١. ﴿وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِ﴾:

أ. إشارة إلى من أو منن أخرى ملحقة بالمنن السابقين وهو قصة قتله عليه السلام القبطي وائتمار الملإ أن يقتلوه وفراره من مصر وتزوجه هناك ببنت شعيب النبي وبقاؤه عنده بين أهل مدين عشر سنين

أجيرا يرعى غنم شعيب، والقصة مفصلة مذكورة في سورة القصص.

ب. فقوله: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْساً﴾ هو قتله القبطي بمصر، وقوله: ﴿فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ وهو ما كان يخافه أن يقتله الملأ من آل فرعون فأخرجه الله إلى أرض مدين فلما أحضره شعيب وورد عليه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين.

٢. ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾ أي ابتليناك واختبرناك ابتلاء واختبارا، قال الراغب من المفردات: (أصل الفتن إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، واستعمل في إدخال الإنسان النار، قال: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ أي عذابكم، قال: وتارة يسمون ما يحصل عنه العذاب فتنة فيستعمل فيه نحو قوله: ﴿أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ وتارة في الاختبار، نحو: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾ وجعلت الفتنة كالبلاء في أنهما تستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء وهما في الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالا وقد قال فيهما: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾)

٣. ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ متفرع على الفتنة، وقوله: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يا مُوسى﴾ لا يبعد أن يستفاد من السياق أن المراد بالقدر هو المقدر وهو ما حصله من العلم والعمل عن الابتلاءات الواردة عليه في نجاته من الغم بالخروج من مصر ولبثه في أهل مدين.

٤. وعلى هذا فمجموع قوله: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ﴾ إلى قوله: ﴿يا مُوسى﴾ من واحد وهو أنه ابتلي ابتلاء بعد ابتلاء حتى جاء على قدر وهو ما اكتسبه من فعلية الكمال.

٥. سؤال وإشكال: وربما أجيب عن الاستشكال في عد الفتن من المن والجواب:

أ. بأن الفتن هاهنا بمعنى التخليص كتخليص الذهب بالنار.

ب. وربما أجيب بأن كونه منا باعتبار الثواب المترتب على ذلك.

ج. والوجهان مبنيان على فصل قوله: ﴿فَلَبِثْتَ﴾ إلى آخر الآية عما قبله:

• ولذا قال بعضهم: إن المراد بالفتنة هو ما قاساه موسى من الشدة بعد خروجه من مصر إلى أن استقر في مدين لمكان فاء التفريع في قوله: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ الدال على تأخر اللبث عن الفتنة زمانا، وفيه أن الفاء إنما تدل على التفرع فحسب وليس من الواجب أن يكون تفرعا زمانيا دائما.

• وقال بعضهم: إن القدر بمعنى التقدير والمراد ثم جئت إلى أرض مصر على ما قدرنا ثم اعترض

على أخذ القدر بمعنى المقدار بأن المعروف من القدر بهذا المعنى هو ما كان بسكون الدال لا بفتحها وفيه أن القدر والقدر بسكون الدال وفتحها، كما صرحوا به كالنعل والنعل بمعنى واحد، على أن القدر بمعنى المقدار كما قدمناه، أكثر ملاءمة للسياق أو متعين، وذكر لمجيئه على مقدار بعض معان أخر وهي سخيفة لا جدوى فيها، وختم ذكر المن بنداء موسى عليه السلام زيادة تشريف له.

١٠. اصطفاء الله لموسى لنفسه:

المقطع [١٠] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٥٤»:

١. ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾:

أ. الاصطناع افتعال من الصنع بمعنى الإحسان، على ما ذكروا، يقال: صنعه أي أحسن إليه واصطنعه أي حقق إحسانه إليه وثبته فيه، ونقل عن القفال أن معنى الاصطناع أنه يقال: اصطنع فلان فلانا إذا أحسن إليه حتى يضاف إليه فيقال: هذا صنيع فلان وخريجه.

ب. وعلى هذا يئول معنى اصطناعه إياه إلى إخلاصه تعالى إياه لنفسه ويظهر موقع قوله: ﴿لِنَفْسِي﴾ أتم ظهور وأما على المعنى الأول فالأنسب بالنظر إلى السياق أن يكون الاصطناع مضمنا معنى الإخلاص، والمعنى على أي حال وجعلتك خالصا لنفسي فيما عندك من النعم فالجميع مني وإحساني ولا يشاركني فيك غيري فأنت لي مخلصا وينطبق ذلك على قوله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً﴾ [مريم: ٥١]

ج. ومن هنا يظهر أن قول بعضهم: المراد بالاصطناع الاختيار، ومعنى اختياره لنفسه جعله حجة بينه وبين خلقه كلامه كلامه ودعوته دعوته وكذا قول بعضهم إن المراد بقوله: ﴿لِنَفْسِي﴾ لوحيي ورسالتي، وقول آخرين: لمحبتي، كل ذلك من قبيل التقييد من غير مقيد.

د. ويظهر أيضا أن اصطناعه لنفسه منظوم في سلك المنن المذكورة بل هو أعظم النعم ومن الممكن أن يكون معطوفا على قوله: ﴿جِئْتَ عَلى قَدَرٍ﴾ عطف تفسير.

هـ. والاعتراض على هذا المعنى بأن توسيط النداء بينه وبين المنن المذكورة لا يلائم كونه منظوما في سلكها، على ما ذكر الفخر الرازي في تفسيره،، فالأولى جعله تمهيدا لإرساله إلى فرعون مع شركة من

أخيه في أمره، وفيه أن توسيط النداء لا ينحصر وجهه فيما ذكر فلعل الوجه فيه تشريفه بمزيد اللطف وتقريبه من موقف الأنس ليكون ذلك تمهيدا للالتفات ثانيا من التكلم بالغير إلى التكلم وحده بقوله: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾

١١. أمر موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون بالقول اللين:

المقطع [١١] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٢-٤٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٥٤»:

١. ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيا فِي ذِكْرِي﴾:

أ. تجديد للأمر السابق خطابا لموسى وحده في قوله: ﴿اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى﴾ بتغيير ما فيه بإلحاق أخي موسى به لتغير ما في المقام بإيتاء سؤال موسى أن يشرك هارون في أمره فوجه الخطاب ثانيا إليهما معا.

ب. وأمرهما أن يذهبا بآياته ولم يؤت وقتئذ إلا آيتين وعد جميل بأنه مؤيد بغيرهما وسيؤتاه حين لزومه، وأما القول بأن المراد هما الآيتان والجمع ربما يطلق على الاثنين، أو أن كلا من الآيتين ينحل إلى آيات كثيرة مما لا ينبغي الركون إليه.

٢. ﴿وَلا تَنِيا فِي ذِكْرِي﴾ نهي عن الوني وهو الفتور، والأنسب للسياق السابق أن يكون المراد بالذكر الدعوة إلى الإيمان به تعالى وحده لا ذكره بمعنى التوجه إليه قلبا أو لسانا كما قيل.

٣. ﴿اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى﴾:

أ. جمعهما في الأمر ثانيا فخاطب موسى وهارون معا وكذلك في النهي الذي قبله في قوله: ﴿وَلا تَنِيا﴾ وقد مهد لذلك بإلحاق هارون بموسى في قوله: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ﴾ وليس ببعيد أن يكون نقلا لمشافهة أخرى وتخاطب وقع بينه تعالى وبين رسوليه مجتمعين أو متفرقين بعد ذاك الموقف ويؤيده سياق قوله بعد: ﴿قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا﴾

ب. والمراد بقوله: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً﴾ المنع من أن يكلماه بخشونة وعنف وهو من أوجب آداب الدعوة.

٤. ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾:

أ. رجاء لتذكره أو خشيته وهو قائم بمقام المحاورة لا به تعالى العالم بما سيكون، والتذكر مطاوعة التذكير فيكون قبولا والتزاما لما تقتضيه حجة المذكر وإيمانه به والخشية من مقدمات القبول والإيمان فمآل المعنى لعله يؤمن أو يقرب من ذلك فيجيبكم إلى بعض ما تسألانه.

ب. واستدل بعض من يرى قبول إيمان فرعون حين الغرق على إيمانه بالآية استنادا إلى أن (لعل) من الله واجب الوقوع كما نسب إلى ابن عباس وقدماء المفسرين فالآية تدل على تحتم وقوع أحد الأمرين التذكر أو الخشية وهو مدار النجاة.

ج. وفيه أنه ممنوع ولا تدل عسى ولعل في كلامه تعالى إلا على ما يدل عليه في كلام غيره وهو الترجي غير أن معنى الترجي في كلامه لا يقوم به، تعالى عن الجهل وتقدس وإنما يقوم بالمقام بمعنى أن من وقف هذا الموقف واطلع على أطراف الكلام فهم أن من المرجو أن يقع كذا وكذا وأما في كلام غيره فربما قام الترجي بنفس المتكلم وربما قام بمقام التخاطب.

د. وقال الإمام الرازي في تفسيره، إنه لا يعلم سر إرساله تعالى إلى فرعون مع علمه بأنه لا يؤمن إلا الله، ولا سبيل في المقام وأمثاله إلى غير التسليم وترك الاعتراض:

• وهو عجيب فإنه إن كان المراد بسر الإرسال وجه صحة الأمر بالشيء مع العلم باستحالة وقوعه في الخارج فاستحالة وقوع الشيء أو وجوب وقوعه إنما ذلك حال الفعل بالقياس إلى علته التامة التي هي الفاعل وسائر العوامل الخارجة عنه في وجوده والأمر لا يتعلق بالفعل من حيث حاله بالقياس إلى جميع أجزاء علته التامة وإنما يتعلق به من جهة حاله بالقياس إلى الفاعل الذي هو أحد أجزاء علته التامة ونسبة الفعل وعدمه إليه بالإمكان دائما لكونه علة ناقصة لا تستوجب وجود الفعل ولا عدمه فالإرسال والدعوة وكذا الأمر صحيح بالنسبة إلى فرعون لكون الإجابة والائتمار بالنسبة إليه نفسه اختيارية ممكنة وإن كانت بالنسبة إليه مع انضمام سائر العوامل المانعة مستحيلة ممتنعة، هذا جواب القائلين بالاختيار، وأما المجبرة، وهو منهم، فالشبهة تسري عندهم إلى جميع موارد التكاليف لعموم الجبر وقد أجابوا عنها على زعمهم بأن التكليف صوري يترتب عليه تمام الحجة وقطع المعذرة.

• وإن كان المراد بسر الإرسال مع العلم بأنه لا يؤمن الفائدة المترتبة عليه بحيث يخرج بها عن

اللغوية فالدعوة الحقة كما تؤثر أثرها في قوم بتكميلهم في جانب السعادة كذلك تؤثر أثرها في آخرين بتكميل شقائهم، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً﴾ [الإسراء: ٨٢]، ولو ألغي التكميل في جانب الشقاء لغا الامتحان فيه فلم تتم الحجة فيه، ولا انقطع العذر، ولو لم تتم الحجة في جانب وانتقضت لم تنجع في الجانب الآخر وهو ظاهر.

٥. أحاديث وآثار: في العلل، بإسناده عن ابن أبي عمير قال: قلت لموسى بن جعفر عليه السلام: أخبرني عن قول الله عز وجل لموسى ﴿اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً، لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى﴾ فقال: أما قوله: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً﴾ أي كنياه وقولا له: يا أبا مصعب وكان كنية فرعون أبا مصعب الوليد بن مصعب، أما قوله: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى﴾ فإنما قال، ليكون أحرص لموسى على الذهاب، وقد علم الله عز وجل أن فرعون، لا يتذكر ولا يخشى إلا عند رؤية البأس، ألا تسمع الله عز وجل يقول: ﴿حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ، قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ، وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾؟ فلم يقبل الله إيمانه وقال: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾

- أقول: وروى صدر الحديث في الدر المنثور، عن ابن أبي حاتم عن علي، وتفسير القول اللين بالتكنية من قبيل ذكر بعض المصاديق لضرورة أنه لا ينحصر فيه.
- وروى ذيل الحديث أيضا في الكافي، بإسناده عن عدي بن حاتم عن علي عليه السلام وفيه تأييد ما قدمنا أن لعل مستعملة في الآية للترجي.

١٢. خوف موسى وهارون من طغيان فرعون وطمأنة الله لهما:

المقطع [١٢] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٥-٤٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٥٦»:

١. ﴿قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى﴾:

أ. الفرط التقدم والمراد به بقرينة مقابلته الطغيان أن يعجل بالعقوبة ولا يصبر إلى إتمام الدعوة وإظهار الآية المعجزة، والمراد بأن يطغى أن يتجاوز حده في ظلمه فيقابل الدعوة بتشديد عذاب بني إسرائيل والاجتراء على ساحة القدس بما كان لا يجترئ عليه قبل الدعوة ونسبة الخوف إليهما لا بأس بها كما تقدم الكلام فيها في تفسير قوله تعالى: ﴿قالَ خُذْها وَلا تَخَفْ﴾

ب. سؤال وإشكال: واستشكل على الآية بأن قوله تعالى في موضع آخر لموسى في جواب سؤاله إشراك أخيه في أمره قال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما﴾ [القصص: ٣٥]، يدل على إعطاء الأمن لهما في موقف قبل هذا الموقف لقوله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ فلا معنى لإظهارهما الخوف بعد ذلك، وأجيب:

• بأن خوفهما قبل كان على أنفسهما بدليل قول موسى هناك، ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤]، والذي في هذه الآية خوف منهما على الدعوة كما تقدم.

• على أن من الجائز أن يكون هذا الخوف المحكي في الآية هو خوف موسى قبل في موقف المناجاة وخوف هارون بعد بلوغ الأمر إليه فالتقطا وجمعا معا في هذا المورد، وقد تقدم احتمال أن يكون قوله: ﴿اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ﴾ إلى آخر الآيات، حكاية كلامهما في غير موقف واحد.

٢. ﴿قالَ لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى﴾:

أ. أي لا تخافا من فرطه وطغيانه إنني حاضر معكما أسمع ما يقال وأرى ما يفعل فأنصركما ولا أخذلكما فهو تأمين بوعد النصرة، فقوله: ﴿لا تَخافا﴾ تأمين، وقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى﴾ تعليل للتأمين بالحضور والسمع والرؤية، وهو الدليل على أن الجملة كناية عن المراقبة والنصرة وإلا فنفس الحضور والعلم يعم جميع الأشياء والأحوال.

ب. وقد استدل بعضهم بالآية على أن السمع والبصر صفتان زائدتان على العلم بناء على أن قوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُما﴾ دال على العلم ولو دل ﴿أَسْمَعُ وَأَرى﴾ عليه أيضا لزم التكرار وهو خلاف الأصل، وهو من أوهن الاستدلال:

• أما أولا: فلما عرفت أن مفاد ﴿إِنَّنِي مَعَكُما﴾ هو الحضور والشهادة وهو غير العلم.

• وأما ثانيا: فلقيام البراهين اليقينية على عينية الصفات الذاتية وهي الحياة والقدرة والعلم والسمع والبصر بعضها لبعض والمجموع للذات، ولا ينعقد مع اليقين ظهور لفظي ظني مخالف البتة.

• وأما ثالثا: فلأن المسألة من أصول المعارف لا يركن فيها إلى غير العلم، فتتميم الدليل بمثل أصالة عدم التكرار كما ترى.

١٣. رسالة موسى وهارون إلى فرعون بإرسال بني إسرائيل والتحذير من العذاب:

المقطع [١٣] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه: ٤٧ـ٤٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٥٧»:

١. ﴿فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ﴾:

أ. جدد أمرهما بالذهاب إلى فرعون بعد تأمينهما ووعدهما بالحفظ والنصر وبين تمام ما يكلفان به من الرسالة وهو أن يدعوا فرعون إلى الإيمان وإلى رفع اليد عن تعذيب بني إسرائيل وإرسالهم معهما فكلما تحول حال في المحاورة جدد الأمر حسب ما يناسبه وهو قوله أولا لموسى: ﴿اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى﴾، ثم قوله ثانيا لما ذكر أسئلته وأجيب إليها: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ﴾ ﴿اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى﴾، ثم قوله لما ذكرا خوفهما وأجيبا بالأمن: ﴿فَأْتِياهُ فَقُولا﴾، وفيه تفصيل ما عليهما أن يقولا له.

ب. فقوله: ﴿فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ﴾ تبليغ أنهما رسولا الله، وفي قوله بعد: ﴿وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى﴾، دعوته إلى بقية أجزاء الإيمان.

٢. ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ﴾ تكليف فرعي متوجه إلى فرعون.

٣. ﴿قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ استناد إلى حجة تثبت رسالتهما وفي تنكير الآية سكوت عن العدد وإشارة إلى فخامة أمرها وكبر شأنها ووضوح دلالتها.

٤. ﴿وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى﴾ كالتحية للوداع يشار به إلى تمام الرسالة ويبين به خلاصة ما تتضمنه الدعوة الدينية وهو أن السلامة منبسط على من اتبع الهدى والسعادة لمن اهتدى فلا يصادف في مسير حياته مكروها يكرهه لا في دنيا ولا في عقبى.

٥. ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ في مقام التعليل لسابقه أي إنما نسلم على المهتدين فحسب لأن الله سبحانه أوحي إلينا أن العذاب وهو خلاف السلام على من كذب بآيات الله، أو بالدعوة الحقة التي هي الهدى، وتولى وأعرض عنها.

٦. وفي سياق الآيتين:

أ. من الاستهانة بأمر فرعون وبما تزين به من زخارف الدنيا وتظاهر به من الكبر والخيلاء ما لا يخفى، فقد قيل: ﴿فَأْتِياهُ﴾ ولم يقل: اذهبا إليه وإتيان الشيء أقرب مساسا به من الذهاب إليه ولم يكن إتيان

فرعون وهو ملك مصر وإله القبط بذاك السهل الميسور، وقيل: ﴿فَقُولا﴾ ولم يقل: فقولا له كأنه لا يعتني به، وقيل: ﴿إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ﴾ و﴿بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ فقرع سمعه مرتين بأن له ربا وهو الذي كان ينادي بقوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى﴾، وقيل: ﴿وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى﴾ ولم يورد بالخطاب إليه، ونظيره قوله: ﴿أَنَّ الْعَذابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ من غير خطاب.

ب. وهذا كله هو الأنسب تجاه ما يلوح من لحن قوله تعالى: ﴿لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى﴾ من كمال الإحاطة والعزة والقدرة التي لا يقوم لها شيء.

ج. وليس مع ذلك فيما أمرا أن يخاطباه به من قولهما: ﴿إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآيتين خشونة في الكلام وخروج عن لين القول الذي أمرا به أولا فإن ذلك حق القول الذي لا مناص من قرعه سمع فرعون من غير تملق ولا احتشام وتأثر من ظاهر سلطانه الباطل وعزته الكاذبة.

١٤. سؤال فرعون عن الله وجواب موسى:

المقطع [١٤] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٤٩-٥٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٦٤»:

١. ﴿قالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى﴾:

أ. حكاية لمحاورة موسى وفرعون وقد علم مما نقله تعالى من أمره تعالى لهما أن يذهبا إلى فرعون ويدعواه إلى التوحيد ويكلماه في إرسال بني إسرائيل معهما، ما قالا له فهو محذوف وما نقل من كلام فرعون جوابا دال عليه.

ب. ويظهر مما نقل من كلام فرعون إنه علم بتعريفهما أنهما معا داعيان شريكان في الدعوة غير أن موسى هو الأصل في القيام بها وهارون وزيره ولذا خاطب موسى وحده وسأل عن ربهما معا، وقد وقع في كلمة الدعوة التي أمرا بأن يكلماه بها ﴿إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ إلخ، لفظ ﴿رَبِّكَ﴾ خطابا لفرعون مرتين وهو لا يرى لنفسه ربا بل يرى نفسه ربا لهما ولغيرهما كما قال في بعض كلامه المنقول منه: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، فقوله: ﴿فَمَنْ رَبُّكُما﴾ وكان الحري بالمقام أن يقول فمن ربي الذي تدعيانه ربا لي؟ أو ما يقرب من ذلك، يلوح إلى أنه يتغافل عن كونه سبحانه ربا له كأنه لم

يسمع قولهما ﴿رَبِّكَ﴾ ويسأل عن ربهما الذي هما رسولان من عنده.

ج. وكان من المسلم المقطوع عند الأمم الوثنيين أن خالق الكل حقيقة هي أعلى من أن يقدر بقدر وأعظم من أن يحيط به عقل أو وهم فمن المستحيل أن يتوجه إليه بعبادة أو يتقرب إليه بقربان فلا يؤخذ إلها وربا بل الواجب التوجه إلى بعض مقربي خلقه بالعبادة والقربان ليقرب الإنسان من الله زلفى ويشفع له عنده فهؤلاء هم الآلهة والأرباب وليس الله سبحانه بإله ولا رب وإنما هو إله الآلهة ورب الأرباب فقول القائل: إن لي ربا إنما يعني به أحد الآلهة من دون الله وليس يعني به الله سبحانه ولا يفهم ذلك من كلامه في محاوراتهم.

د. فقول فرعون: ﴿فَمَنْ رَبُّكُما﴾ ليس إنكارا لوجود خالق الكل ولا إنكار أن يكون له إله كما يظهر من قوله: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، وإنما هو طلب منه للمعرفة بحال من اتخذاه إلها وربا من هو غيره؟ وهذا معنى ما تقدم أن فرعون يتغافل في قوله هذا عن دعوتهما إلى الله سبحانه وهما في أول الدعوة فهو يقدر ولو كتقدير المتجاهل أن موسى وأخاه يدعوانه إلى بعض الآلهة التي يتخذ فيما بينهم ربا من دون الله فيسأل عنه، وقد كان من دأب الوثنيين التفنن في اتخاذ الآلهة يتخذ كل منهم من يهواه إلها وربما بدل إلها من إله فتلك طريقتهم وسيأتي قول الملإ: ﴿وَيَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى﴾ نعم، ربما تفوه عامتهم ببعض ما لا يوافق أصولهم كنسبة الخلق والتدبير إلى نفس الأصنام دون أربابها.

هـ. فمحصل مذهبهم أنهم ينزهون الله تعالى عن العبادة والتقرب وإنما يتقربون استشفاعا إليه ببعض خلقه كالملائكة والجن والقديسين من البشر، وكان منهم الملوك العظام عند كثير منهم يرونهم مظاهر لعظمة اللاهوت فيعبدونهم في عرض سائر الآلهة والأرباب وكان لا يمنع ذلك الملك الرب أن يتخذ إلها من الآلهة فيعبده فيكون عابدا لربه معبودا لغيره من الرعية كما كان رب البيت يعبد في بيته عند الروم القديم وكان أكثرهم من الوثنية الصابئة، فقد كان فرعون موسى ملكا متألها وهو يعبد الأصنام وهو الظاهر من خلال الآيات الكريمة.

و. ومن هنا يظهر ما في أقوال كثير من المفسرين في أمره قال في روح المعاني: (ذهب بعضهم إلى أن فرعون كان عارفا بالله تعالى إلا أنه كان معاندا واستدلوا عليه بعدة من الآيات، وبأن ملكه لم يتجاوز القبط ولم يبلغ الشام ألا ترى أن موسى عليه السلام لما هرب إلى مدين قال له شعيب عليه السلام: لا تخف

نجوت من القوم الظالمين فكيف يعتقد أنه إله العالم؟ وبأنه كان عاقلا ضرورة أنه كان مكلفا وكل عاقل يعلم بالضرورة أنه وجد بعد العدم ومن كان كذلك افتقر إلى مدبر فيكون قائلا بالمدبر، ومن الناس من قال: إنه كان جاهلا بالله تعالى بعد اتفاقهم على أن العاقل لا يجوز أن يعتقد في نفسه أنه خالق السماوات والأرض وما بينهما واختلفوا في كيفية جهله، فيحتمل أنه كان دهريا نافيا للصانع أصلا، ولعله كان يقول بعدم احتياج الممكن إلى مؤثر وأن وجود العالم اتفاقي كما نقل عن ذي مقراطيس وأتباعه، ويحتمل أنه كان فلسفيا قائلا بالعلة الموجبة ويحتمل أنه كان من عبدة الكواكب ويحتمل أنه كان من عبدة الأصنام، ويحتمل أنه كان من الحلولية المجسمة، وأما دعاؤه لنفسه بالربوبية فبمعنى أنه يجب على من تحت يده طاعته والانقياد له وعدم الاشتغال بطاعة غيره)

ز. وأنت بالرجوع إلى حاق مذهب القوم تعرف أن شيئا من هذه الأقوال والمحتملات ولا ما استدلوا عليه لا يوافق واقع الأمر.

٢. ﴿قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى﴾:

أ. سياق الآية، وهي واقعة في جواب سؤال فرعون: ﴿فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى﴾ يعطي أن ﴿خَلْقَهُ﴾ بمعنى اسم المصدر والضمير للشيء فالمراد الوجود الخاص بالشيء.

ب. والهداية إراءة الشيء الطريق الموصل إلى مطلوبه أو إيصاله إلى مطلوبه ويعود المعنيان في الحقيقة إلى معنى واحد وهو نوع من إيصال الشيء إلى مطلوبه إما بإيصاله إليه نفسه أو إلى طريقه الموصل إليه، وقد أطلق الهداية من حيث المهدي والمهدي إليه، ولم يسبق في الكلام إلا الشيء الذي أعطي خلقه فالظاهر أن المراد هداية كل شيء، المذكور قبلا، إلى مطلوبه ومطلوبه هو الغاية التي يرتبط بها وجوده وينتهي إليها والمطلوب هو مطلوبه من جهة خلقه الذي أعطيه ومعنى هدايته له إليها تسييره نحوها كل ذلك بمناسبة البعض للبعض.

ج. فيئول المعنى إلى إلقائه الرابطة بين كل شيء بما جهز به في وجوده من القوى والآلات وبين آثاره التي تنتهي به إلى غاية وجوده فالجنين من الإنسان مثلا وهو نطفة مصورة بصورته مجهز في نفسه بقوى وأعضاء تناسب من الأفعال والآثار ما ينتهي به إلى الإنسان الكامل في نفسه وبدنه فقد أعطيت النطفة الإنسانية بما لها من الاستعداد خلقها الذي يخصها وهو الوجود الخاص بالإنسان ثم هديت وسيرت

بما جهزت به من القوى والأعضاء نحو مطلوبها وهو غاية الوجود الإنساني والكمال الأخير الذي يختص به هذا النوع.

د. ومن هنا يظهر معنى عطف قوله: ﴿هَدى﴾ على قوله: ﴿أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ بثم وأن المراد التأخر الرتبي فإن سير الشيء وحركته بعد وجوده رتبة وهذا التأخر في الموجودات الجسمانية تدريجي زماني بنحو.

هـ. وظهر أيضا أن المراد بالهداية الهداية العامة الشاملة لكل شيء دون الهداية الخاصة بالإنسان، وذلك بتحليل الهداية الخاصة وتعميمها بإلقاء الخصوصيات فإن حقيقة هداية الإنسان بإراءته الطريق الموصل إلى المطلوب والطريق رابطة القاصد بمطلوبه فكل شيء جهز بما يربطه بشيء ويحركه نحوه فقد هدي إلى ذلك الشيء فكل شيء مهدي نحو كماله بما جهز به من تجهيز والله سبحانه هو الهادي.

و. فنظام الفعل والانفعال في الأشياء وإن شئت فقل: النظام الجزئي الخاص بكل شيء والنظام العام الجامع لجميع الأنظمة الجزئية من حيث ارتباط أجزائها وانتقال الأشياء من جزء منها إلى جزء مصداق هدايته تعالى وذلك بعناية أخرى مصداق لتدبيره، ومعلوم أن التدبير ينتهي إلى الخلق بمعنى أن الذي ينتهي وينتسب إليه تدبير الأشياء هو الذي أوجد نفس الأشياء فكل وجود أو صفة وجود ينتهي إليه ويقوم به.

ز. فقد تبين أن الكلام أعني قوله: ﴿الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى﴾ مشتمل على البرهان على كونه تعالى رب كل شيء لا رب غيره فإن خلقه الأشياء وإيجاده لها يستلزم ملكه لوجوداتها، لقيامها به، وملك تدبير أمرها.

ح. وعند هذا يظهر أن الكلام على نظمه الطبيعي والسياق جار على مقتضى المقام فإن المقام مقام الدعوة إلى التوحيد وطاعة الرسول وقد أتى فرعون بعد استماع كلمة الدعوة بما حاصله التغافل عن كونه تعالى ربا له، وحمل كلامهما على دعوتهما له إلى ربهما فسأل: من ربكما؟ فكان من الحري أن يجاب بأن ربنا هو رب العالمين ليشملهما وإياه وغيرهم جميعا فأجيب بما هو أبلغ من ذلك فقيل: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى﴾ فأجيب بأنه رب كل شيء وأفيد مع ذلك البرهان على هذا المدعى، ولو قيل: ربنا رب العالمين أفاد المدعى فحسب دون البرهان، فافهم ذلك.

ط. وإنما أثبت في الكلام الهداية دون التدبير مع كون موردهما متحدا كما تقدمت الإشارة إليه لأن المقام مقام الدعوة والهداية، والهداية العامة أشد مناسبة له.

ي. هذا هو الذي يرشد إليه التدبر في الآية الكريمة، وبذلك يعلم حال سائر التفاسير التي أوردت للآية:

• كقول بعضهم: إن المراد بقوله: ﴿خَلْقَهُ﴾ مثل خلقه وهو الزوج الذي يماثل الشيء، والمعنى: الذي خلق لكل شيء زوجا، فيكون في معنى قوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ﴾

• وقول بعضهم: إن المراد بكل شيء أنواع النعم وهو مفعول ثان لأعطى وبالخلق المخلوق وهو مفعول أول لأعطى، والمعنى: الذي أعطى مخلوقاته كل شيء من النعم.

• وقول بعضهم: إن المراد بالهداية الإرشاد والدلالة على وجوده تعالى ووحدته بلا شريك، والمعنى: الذي أعطى كل شيء من الوجود ما يطلبه بلسان استعداده ثم أرشد ودل بذلك على وجود نفسه ووحدته.

• والتأمل فيما مر يكفيك للتنبه على فساد هذه الوجوه فإنما هي معان بعيدة عن السياق وتقييدات للفظ الآية من غير مقيد.

١٥. سؤال فرعون عن القرون الأولى وجواب موسى:

المقطع [١٥] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥١-٥٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٦٩»:

١. ﴿قالَ فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى﴾:

أ. قيل: البال في الأصل بمعنى الفكر ومنه قولهم: خطر ببالي كذا، ثم استعمل بمعنى الحال، ولا يثنى ولا يجمع، وقولهم: بآلات، شاذ.

ب. لما كان جواب موسى عليه السلام مشتملا على معنى الهداية العامة التي لا تتم في الإنسان إلا بنبوة ومعاد إذ لا يستقيم دين التوحيد إلا بحساب وجزاء يتميز به المحسن من المسيء ولا يتم ذلك إلا بتمييز ما يأمر تعالى به مما ينهى عنه وما يرتضيه مما يسخطه، على أن كلمة الدعوة التي أمرا أن يؤدياها إلى فرعون مشتملة على الجزاء صريحا ففي آخرها: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾

والوثنيون منكرون لذلك عدل فرعون عن الكلام في الربوبية، وقد انقطع بما أجاب به موسى، إلى أمر المعاد والسؤال عنه بانيا على الاستبعاد.

ج. فقوله: ﴿فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى﴾ أي ما حال الأمم والأجيال الإنسانية الماضية الذين ماتوا وفنوا لا خبر عنهم ولا أثر كيف يجزون بأعمالهم ولا عامل في الوجود ولا عمل وليسوا اليوم إلا أحاديث وأساطير؟ فالآية نظيرة ما نقل عن المشركين في قوله: ﴿وَقالُوا أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠]، وظاهر الكلام أنه مبني على الاستبعاد من جهة انتفاء العلم بهم وبأعمالهم للموت والفوت كما يشهد به جواب موسى عليه السلام.

٢. ﴿قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى﴾:

أ. أجاب عليه السلام عن سؤاله بإثبات علمه تعالى المطلق بتفاصيل تلك القرون الخالية فقال: ﴿عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي﴾ فأطلق العلم بها فلا يفوته شيء من أشخاصهم وأعمالهم وجعلها عند الله فلا تغيب عنه ولا تفوته، وقد قال تعالى: ﴿وَما عِنْدَ اللهِ باقٍ﴾ ثم قيد ذلك بقوله: ﴿فِي كِتابٍ﴾ وكأنه حال من العلم، ليؤكد به أنه مثبت محفوظ من غير أن يتغير عن حاله وقد نكر الكتاب ليدل به على فخامة أمره من جهة سعة إحاطته ودقتها فلا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

ب. فيئول معنى الكلام إلى أن جزاء القرون الأولى إنما يشكل لو جهل ولم يعلم بها لكنها معلومة لربي محفوظة عنده في كتاب لا يتطرق إليه خطأ ولا تغيير ولا غيبة وزوال.

ج. ﴿لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى﴾ نفي للجهل الابتدائي والجهل بعد العلم على ما نقل عن بعضهم ولكن الظاهر أن الجملة مسوقة لنفي الجهل بعد العلم بقسميه فإن الضلال هو قصد الغاية بسلوك سبيل لا يؤدي إليها بل إلى غيرها فيكون الضلال في العلم هو أخذ الشيء مكان غيره وإنما يتحقق ذلك بتغير المعلوم من حيث هو معلوم عما كانت عليه في العلم أولا، والنسيان خروج الشيء من العلم بعد دخوله فيه فهما معا من الجهل بعد العلم، ونفيه هو المناسب لإثبات العلم أولا فيفيد مجموع الآية أنه عالم بالقرون الأولى ولا سبيل إليه للجهل بعد العلم فيجازيهم على ما علم.

د. ومن هنا يظهر أن قوله: ﴿لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى﴾ من تمام بيان الآية كأنه دفع دخل مقدر كأنما قيل: إنها وإن علم بها يوما فهي اليوم باطلة الذوات معفوة الآثار لا يتميز شيء منها من شيء فأجيب بأن

شيئا منها ومن آثارها وأعمالها لا يختلط عليه تعالى بتغير ضلال ولا يغيب عنه بنسيان، ولذا أوردت الجملة مفصولة غير معطوفة.

هـ. وقد أثبت العلم ونفى الجهل عنه تعالى بعنوان أنه رب لتكون فيه إشارة إلى برهان المدعى وذلك أن فرض الربوبية لا يجامع فرض الجهل بالمربوب إذ فرض ربوبيته المطلقة لكل شيء، والرب هو المالك للشيء المدبر لأمره، يستلزم كون الأشياء مملوكة له قائمة الوجود به من كل جهة وكونها مدبرة له كيفما فرضت فهي معلومة له، ولو فرض شيء منها مجهولا له عن ضلال أو نسيان أو جهل ابتدائي فذلك الشيء أيا ما كان وأينما تحقق مملوك له قائم الوجود به مدبر بتدبيره لا حاجب بينهما ولا فاصل وهو الحضور الذي نسميه علما وقد فرضناه مجهولا أي غائبا عنه هذا خلف.

و. وقد أضاف الرب إلى نفسه في الآية في موضعين ثانيهما من وضع الظاهر موضع المضمر على ما قيل ولم يقل: ﴿رَبُّنَا﴾ كما في الآية السابقة لأن السؤال السابق إنما كان عن ربهما الذي يدعوان إليه فأجيب بما يطابقه فكان معناه بحسب المقام: الرب الذي أدعو أنا وأخي إليه هو كذا وكذا، وأما في هذه الآية فقد سئل عن أمر يرجع إلى القرون الأولى والذي يصفه هو موسى فكان المعنى الرب الذي أصفه عليم بها، والذي يفيد هذا المعنى هو ﴿رَبِّي﴾ لا غير فتأمل فيه فهو لطيف.

ز. والنكتة في ﴿رَبِّي﴾ الثاني هي نظيرة ما في ﴿رَبِّي﴾ الأول وفي كونه من قبيل وضع الظاهر موضع المضمر تأمل لفصل الجملة.

ح. وقد اختلفت أقوال المفسرين في تفسير الآيتين بالوجوه والاحتمالات اختلافا كثيرا أضربنا عن ذكرها لعدم جدوى فيها ومن أعجبها قول كثير منهم أن قول فرعون لموسى: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ سؤال عن تاريخ الأمم الأولى المنقرضة سأل موسى عن ذلك ليصرفه عن ما هو فيه من التكلم في أصول المعارف الإلهية وإقامة البرهان على صريح الحق في مسائل المبدأ والمعاد مما ينكره الوثنية ويشغله بما لا فائدة فيه من تواريخ الأولين وأخبار الماضين، وجواب موسى: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ محصله إرجاع العلم بها إلى الله وأنه من الغيب الذي لا يعلمه إلا علام الغيوب.

١٦. جعل الله الأرض مهاداً وإنزال الماء وإخراج النباتات:

المقطع [١٦] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ

لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ [طه: ٥٣-٥٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٧١»:

١. ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً﴾:

أ. قد عرفت أن لسؤاله ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى؟﴾ ارتباطا بما وصف الله به من الهداية العامة التي منها هداية الإنسان إلى سعادته في الحياة وهي الحياة الخالدة الأخروية وكذا الجواب عنه بقوله: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ مرتبط فقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً﴾ مضى في الحديث عن الهداية العامة وذكر شواهد بارزة من ذلك.

ب. فالله سبحانه أقر الإنسان في الأرض يحيا فيها حياة أرضية ليتخذ منها زادا لحياته العلوية السماوية كالصبي يقر في المهد ويربى لحياة هي أشرف منه وأرقى، وجعل للإنسان فيها سبلا ليتنبه بذلك أن بينه وبين غايته وهو التقرب منه تعالى والدخول في حظيرة الكرامة سبيلا يجب أن يسلكها كما يسلك السبل الأرضية لمآربه الحيوية وأنزل من السماء ماء وهو ماء الأمطار ومنه مياه عيون الأرض وأنهارها وبحارها فأنبت منه أزواجا أي أنواعا وأصنافا متقاربة شتى من نبات يهديكم إلى أكلها ففي ذلك آيات تدل أرباب العقول إلى هدايته وربوبيته تعالى.

ج. فقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً﴾ إشارة إلى قرار الإنسان في الأرض لإدامة الحياة وهو من الهداية، وقوله: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ إشارة إلى مسالك الإنسان التي يسلكها في الأرض لإدراك مآربه وهو أيضا من الهداية، وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ إشارة إلى هداية الإنسان والإنعام إلى أكل النبات لإبقاء الحياة، وفيه هداية السماء إلى الإمطار وماء الأمطار إلى النزول والنبات إلى الخروج.

د. والباء في ﴿بِهِ﴾ للسببية وفيه تصديق السببية والمسببية بين الأمور الكونية، والمراد بكون النبات أزواجا كونها أنواعا وأصنافا متقاربة كما فسره القوم أو حقيقة الازدواج بين الذكور والإناث من النبات وهي من الحقائق التي نبه عليها الكتاب العزيز.

٢. ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ فيه التفات من الغيبة إلى التكلم بالغير، قيل: والوجه فيه ما في هذا الصنع العجيب وإبداع الصور المتشتتة والأزواج المختلفة على ما فيها من تنوع الحياة من ماء

واحد، من العظمة والصنع العظيم لا يصدر إلا من العظيم والعظماء يتكلمون عنهم وعن غيرهم من أعوانهم وقد ورد الالتفات في معنى إخراج النبات بالماء في مواضع من كلامه تعالى كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها﴾ [فاطر: ٢٧]، وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩٩]

٣. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى﴾ النهى جمع نهية بالضم فالسكون: وهو العقل سمي به لنهيه عن اتباع الهوى.

١٧. خلق الإنسان من الأرض وإعادته إليها وإخراجه منها:

المقطع [١٧] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٧٢»:

١. ﴿مِنْها خَلَقْناكُمْ وَفِيها نُعِيدُكُمْ وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى﴾ الضمير للأرض والآية تصف ابتداء خلق الإنسان من الأرض ثم إعادته فيها وصيرورته جزء منها ثم إخراجه منها للرجوع إلى الله ففيها الدورة الكاملة من هداية الإنسان.

١٨. إراءة فرعون الآيات كلها وتكذيبه:

المقطع [١٨] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ [طه: ٥٦-٥٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٧٢»:

١. ﴿وَلَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها فَكَذَّبَ وَأَبى﴾ الظاهر أن المراد بالآيات العصا واليد وسائر الآيات التي أراها موسى فرعون أيام دعوته قبل الغرق كما مر في قوله: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآياتِي﴾ فالمراد جميع الآيات التي أريها وإن لم يؤت بها جميعا في أول الدعوة كما أن المراد بقوله: ﴿فَكَذَّبَ وَأَبى﴾ مطلق تكذيبه وإبائه لا ما أتى به منها في أول الدعوة.

٢. ﴿قالَ أَجِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى﴾ الضمير لفرعون وقد اتهم موسى أولا بالسحر لئلا يلزمه الاعتراف بصدق ما جاء به من الآيات المعجزة وحقية دعوته، وثانيا بأنه يريد إخراج

القبط من أرضهم وهي أرض مصر، وهي تهمة سياسية يريد بها صرف الناس عنه وإثارة أفكارهم عليه بأنه عدو يريد أن يطردهم من بيئتهم ووطنهم بمكيدته ولا حياة لمن لا بيئة له.

٣. ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكاناً سُوىً﴾:

أ. الظاهر كما يشهد به الآية التالية أن الموعد اسم زمان وإخلاف الوعد عدم العمل بمقتضاه، ومكان سوى بضم السين أي واقع المنتصف من المسافة أو مستوي الأطراف من غير ارتفاع وانخفاض قال في المفردات: (ومكان سوى وسواء وسط، ويقال: سواء وسوى وسوى، بضم السين وكسرها، أي يستوي طرفاه، ويستعمل ذلك وصفا وظرفا، وأصل ذلك مصدر)

ب. والمعنى: فأقسم لنأتينك بسحر يماثل سحرك لقطع حجتك وإبطال إرادتك فاجعل بيننا وبينك زمان وعد لا نخلفه في مكان بيننا أو في مكان مستوي الأطراف أو اجعل بيننا وبينك مكانا كذلك.

١٩. موعد يوم الزينة وتحذير موسى من الافتراء على الله:

المقطع [١٩] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ [طه: ٥٩-٦١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٧٣»:

١. ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ الضمير لموسى وقد جعل الموعد يوم الزينة، ويظهر من السياق أنه كان يوما لهم يجري بينهم مجرى العيد، ويظهر من لفظه أنهم كانوا يتزينون فيه ويزينون الأسواق، وحشر الناس، على ما ذكره الراغب، إخراجهم عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها، والضحى وقت انبساط الشمس من النهار.

٢. ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ معطوف على الزينة أو على يوم بتقدير اليوم أو الوقت ونحوه والمعنى قال موسى موعدكم يوم الزينة ويوم حشر الناس في الضحى، وليس من البعيد أن يكون مفعولا معه والمعنى موعدكم يوم الزينة مع حشر الناس في الضحى ويرجع إلى الاشتراط، وإنما اشترط ذلك ليكون ما يأتي به ويأتون به على أعين الناس في ساعة مبصرة.

٣. ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ ظاهر السياق أن المراد بتولي فرعون انصرافه عن مجلس المواعدة للتهيؤ لما واعد، والمراد بجمع كيده جمع ما يكاد به من السحرة وسائر ما يتوسل به إلى تعمية الناس

والتلبيس عليهم ويمكن أن يكون المراد بجمع كيده جمع ذوي كيده بحذف المضاف والمراد بهم السحرة وسائر عماله وأعوانه وقوله: ﴿ثُمَّ أَتى﴾ أي ثم أتى الموعد وحضره.

٤. ﴿قالَ لَهُمْ مُوسى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ وَقَدْ خابَ مَنِ افْتَرى﴾ الويل كلمة عذاب وتهديد، والأصل فيه معنى العذاب ومعنى ويلكم عذبكم الله عذابا، والسحت بفتح السين استيصال الشعر بالحلق والإسحات الاستئصال والإهلاك.

٥. ﴿قالَ لَهُمْ مُوسى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً﴾:

أ. ضمائر الجمع غيبة وخطابا لفرعون وكيده وهم السحرة وسائر أعوانه على موسى عليه السلام وقد مر ذكرهم في الآية السابقة، وأما رجوعها إلى السحرة فقط فلم يسبق لهم ذكر ولا دل عليهم دليل من جهة اللفظ.

ب. وهذا القول من موسى عليه السلام موعظة لهم وإنذار أن يفتروا على الله الكذب، وقد ذكر من افترائهم فيما مر تسمية فرعون الآيات الإلهية سحرا، ورمي الدعوة الحقة بأنها للتوسل إلى إخراجهم من أرضهم ومن الافتراء أيضا السحر لكن افتراء الكذب على الله وهو اختلاق الكذب عليه إنما يكون بنسبة ما ليس من الله إليه، وعد الآية المعجزة سحرا والدعوة الحقة كيدا سياسيا قطع نسبتهما إلى الله وكذا إتيانهم بالسحر قبال المعجزة مع الاعتراف بكونه سحرا لا واقع له فلا يعد شيء منها افتراء على الله.

ج. فالظاهر أن المراد بافتراء الكذب على الله الاعتقاد بأصول الوثنية كألوهية الآلهة وشفاعتها ورجوع تدبير العالم إليها كما فسروا الآية بذلك، وقد عد ذلك افتراء على الله في مواضع من القرآن كقوله: ﴿قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٩]

٦. ﴿فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ﴾ تفريع على النهي أي لا تشركوا بالله حتى يستأصلكم ويهلككم بعذاب بسبب شرككم، وتنكير العذاب للدلالة على شدته وعظمته.

٧. ﴿وَقَدْ خابَ مَنِ افْتَرى﴾ الخيبة اليأس من بلوغ النتيجة المأمولة وقد وضعت الجملة في الكلام وضع الأصل الكلي الذي يتمسك به وهو كذلك فإن الافتراء من الكذب وسببيته سببية كاذبة والأسباب الكاذبة لا تهتدي إلى مسببات حقة وآثار صادقة فنتائجها غير صالحة للبقاء ولا هي تسوق إلى سعادة فليس في عاقبتها إلا الشؤم والخسران فالآية أشمل معنى من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لا

يُفْلِحُونَ﴾ [يونس: ٦٩]، لإثباتها الخيبة في مطلق الافتراء بخلاف الآية الثانية وقد تقدم كلام في أن الكذب لا يفلح في ذيل قوله: ﴿وَجاؤُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨] في الجزء الحادي عشر من الكتاب.

٢٠. تنازع آل فرعون في أمرهم وإسرارهم وتآمرهم على موسى وهارون:

المقطع [٢٠] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ [طه: ٦٢-٦٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٧٤»:

١. ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾:

أ. التنازع قريب المعنى من الاختلاف، من النزع بمعنى جذب الشيء من مقره ليتقلع منه والتنازع يتعدى بنفسه كما في الآية وبفي كقوله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [النساء: ٥٩]

ب. والنجوى الكلام الذي يسار به، وأصله مصدر بمعنى المناجاة وهي المسارة في الكلام، والمثلى مؤنث أمثل كفضلى وأفضل وهو الأقرب الأشبه والطريقة المثلى السنة التي هي أقرب من الحق أو من أمنيتهم وهي سنة الوثنية التي كانت مصر اليوم تدار بها وهي عبادة الآلهة وفي مقدمتها فرعون إله القبط، والإجماع، على ما ذكره الراغب، جمع الشيء عن فكر وترو، والصف جعل الأشياء على خط مستو كالإنسان والأشجار ونحو ذلك ويستعمل مصدرا واسم مصدر وقوله: ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ يحتمل أن يكون مصدرا، وأن يكون بمعنى صافين أي ائتوه باتحاد واتفاق من دون أن تختلفوا وتتفرقوا فتضعفوا وكونوا كيد واحدة عليه.

ج. ويظهر من تفريع قوله: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ على ما في الآية السابقة من قوله: ﴿قالَ لَهُمْ مُوسى﴾ إلخ إن التنازع والاختلاف إنما ظهر بينهم عن موعظة وعظهم بها موسى فأثرت فيهم بعض أثرها ومن شأنها ذلك إذ ليست إلا كلمة حق ما فيها مغمض وكان محصلها أن لا علم لكم بما تدعونه من ألوهية الآلهة وشفاعتها فنسبتكم الشركاء والشفعاء إلى الله افتراء عليه وقد خاب من افترى وهذا برهان واضح لا ستر عليه ولا غبار.

د. ويظهر من قوله الآتي الحاكي لقول السحرة: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ

مِنَ السِّحْرِ﴾ أن الاختلاف إنما ظهر أول ما ظهر بين السحرة ومنهم وربما أشعر قوله الآتي: ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ أن المترددين في مقابلة موسى منهم أو العازمين على ترك مقابلته أصلا كانوا بعض السحرة إن كان الخطاب متوجها إليهم ولعل السياق يساعد على ذلك.

هـ. وكيف كان لما رأى فرعون وأياديه تنازع القوم، وفيه خزيهم وخذلانهم، أسروهم النجوى ولم يكلموهم فيما ألقاه إليهم موسى من الحكمة والموعظة بل عدلوا عن ذلك إلى ما اتهمه فرعون بالسحر وطرح خطة سياسية لإخراج أمة القبط من أرضهم ولا ترضى الأمة بذلك ففيه خروج من ديارهم وأموالهم وسقوط من أوج سعادتهم إلى حضيض الشقاء وهم يرون ما يقاسيه بنو إسرائيل بينهم.

و. وأضافوا إلى ذلك أمرا آخر أمر من الجلاء والخروج من الديار والأموال وهو ذهاب طريقتهم المثلى وسنتهم القومية التي هي ملة الوثنية الحاكمة فيهم قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل وقد اشتد بها عظمهم ونبت عليها لحمهم والعامة تقدس السنن القومية وخاصة ما اعتادت عليها وأذعنت بأنها سنن ظاهرة سماوية، وهذا بالحقيقة إغراء لهم على التثبت والاستقامة على ملة الوثنية لكن لا لأنها دين حق لا شبهة فيه فإن حجة موسى أوضحت فسادها وكشفت عن بطلانها بل بعنوان أنها سنة ملية مقدسة تعتمد عليها مليتهم وتستند إليها شوكتهم وعظمتهم وتعتصم بها حياتهم فلو اختلفوا وتركوا مقابلة موسى واستعلى هو عليهم كان في ذلك فناؤهم بالمرة، فالرأي هو أن يجمعوا كل كيد لهم ثم يدعوا الاختلاف ويأتوا صفا حتى يستعلوا وقد أفلح اليوم من استعلى.

ز. فأكدوا عليهم القول بالتسويل أن يتحدوا ويتفقوا ولا يهنوا في حفظ ملتهم ومدنيتهم ويكروا على عدوهم كرة رجل واحد، وشفع ذلك فرعون بمواعد جميلة وعدهم إياها كما يظهر من قوله تعالى في موضع آخر: ﴿قالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ، قالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٢]، وبأي وجه كان من ترغيب وترهيب حملوهم على أن يثبتوا ويواجهوا موسى بمغالبته.

ح. هذا ما يعطيه التدبر في معنى الآيات بالاستمداد من السياق والقرائن المتصلة والشواهد المنفصلة، وعلى ذلك فقوله: ﴿فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ إشارة إلى اختلافهم إثر موعظة موسى وما أومأ إليه من الحجة.

٢. ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوى﴾ إشارة إلى مسارتهم في أمر موسى واجتهادهم في رفع الاختلاف الناشئ

من استماعهم وعظ موسى عليه السلام، وقوله: ﴿قالُوا إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ﴾، بيان النجوى الذي أسروه فيما بينهم وقد مر توضيح معناه.

٣. ﴿إِنْ هذانِ لَساحِرانِ﴾ القراءة المعروفة (إن) بكسر الهمزة وسكون النون وهي (إن) المشبهة بالفعل خففت فألغيت عن العمل بنصب الاسم ورفع الخبر.

٢١. إلقاء السحرة لعصيهم وحبالهم وتخيل أنها تسعى:

المقطع [٢١] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه: ٦٥-٦٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٧٦»:

١. ﴿قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى﴾:

أ. الحبال جمع حبل والعصي جمع عصا، وقد كان السحرة استعملوها ليصوروا بها في أعين الناس حيات وثعابين أمثال ما كان يظهر من عصا موسى عليه السلام.

ب. وهنا حذف وإيجاز كأنه قيل فأتوا الموعد وقد حضره موسى فقيل فما فعلوا؟ فقيل: ﴿قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ﴾ أي عصاك ـ﴿وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى﴾ وهذا تخيير منهم لموسى بين أن يبدأ بالإلقاء أو يصبر حتى يلقوا ثم يأتي بما يأتي﴿قالَ موسى: بَلْ أَلْقُوا﴾ فأخلى لهم الظرف كي يأتوا بما يأتون به وهو معتمد على ربه واثق بوعده من غير قلق واضطراب وقد قال له ربه فيما قال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى﴾

٢. ﴿فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى﴾:

أ. فيه حذف، والتقدير: فألقوا وإذا حبالهم وعصيهم إلخ، وإنما حذف لتأكيد المفاجاة كأنه عليه السلام لما قال لهم: بل ألقوا، لم يلبث دون أن شاهد ما شاهد من غير أن يتوسط هناك إلقاؤهم الحبال والعصي.

ب. والذي خيل إلى موسى خيل إلى غيره من الناظرين من الناس كما ذكره في موضع آخر: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف: ١١٦]، غير أنه ذكر هاهنا موسى من بينهم وكان ذلك ليكون تمهيدا لما في الآية التالية.

٢٢. خوف موسى ثم طمأنته وأمره بإلقاء العصا لتلقف ما صنعوا:

المقطع [٢٢] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٧-٦٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٧٧»:

١. ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى﴾:

أ. قال الراغب في المفردات: (الوجس الصوت الخفي، والتوجس التسمع، والإيجاس وجود ذلك في النفس، قال: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ فالوجس هو حالة تحصل من النفس بعد الهاجس لأن الهاجس مبتدأ التفكير ثم يكون الواجس الخاطر)

ب. فإيجاس الخيفة في النفس إحساسها فيها ولا يكون إلا خفيفا خفيا لا يظهر أثره في ظاهر البشرة ويتبع وجوده في النفس ظهور خاطر سوء فيها من غير إذعان بما يوجبه من تحذر وتحرز وإلا لظهر أثره في ظاهر البشرة وعمل الإنسان قطعا، وإلى ذلك يومئ تنكير الخيفة كأنه قيل: أحس في نفسه نوعا من الخوف لا يعبأ به، ومن العجيب قول بعضهم: إن التنكير للتفخيم وكان الخوف عظيما وهو خطأ ولو كان كذلك لظهر أثره في ظاهر بشرته ولم يكن لتقييد الخيفة بكونها في نفسه وجه.

ج. فظهر أن الخيفة التي أوجسها في نفسه كانت إحساسا آنيا لها نظيرة الخاطر الذي عقبها فقد خطرت بقلبه عظمة سحرهم وأنه بحسب التخيل مماثل أو قريب من آيته فأوجس الخيفة من هذا الخطور وهو كنفس الخطور لا أثر له.

د. وقيل: إنه خاف أن يلتبس الأمر على الناس فلا يميزوا بين آيته وسحرهم للتشابه فيشكوا ولا يؤمنوا ولا يتبعوه ولم يكن يعلم بعد أن عصاه ستلقف ما يأفكون.

• وفيه أن ذلك ينافي اطمئنانه بالله ووثوقه بأمره وقد قال له ربه قبل ذلك: ﴿بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥]

هـ. وقيل: إنه خاف أن يتفرق الناس بعد رؤية سحرهم ولا يصبروا إلى أن يلقي عصاه فيدعي التساوي ويخيب السعي.

• وفيه: أنه خلاف ظاهر الآية فإن ظاهر تفريع قوله: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً﴾، على قوله: ﴿فَإِذا

حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾، أنه إنما خاف ما خيل إليه من سحرهم لا أنه خاف تفرق الناس قبل أن يتبين الأمر بإلقاء العصا، ولو خاف ذلك لم يسمح لهم بأن يلقوا حبالهم وعصيهم أولا، على أن هذا الوجه لا يلائم قوله تعالى في تقوية نفسه عليه السلام: ﴿قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى﴾ ولقيل: لا تخف لا ندعهم يتفرقون حتى تلقي العصا.

و. وكيفما كان يظهر من إيجاسه عليه السلام خيفة في نفسه أنهم أظهروا للناس من السحر ما يشابه آيته المعجزة أو يقرب منه وإن كان ما أتوا به سحرا لا حقيقة له وما أتى به آية معجزة ذات حقيقة وقد استعظم الله سحرهم إذ قال: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، ولذا أيده الله هاهنا بما لا يبقى معه لبس لناظر البتة وهو تلقف العصا جميع ما سحروا به.

٢. ﴿قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى﴾ إلى قوله: ﴿حَيْثُ أَتى﴾ نهي بداعي التقوية والتأييد وقد علله بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى﴾ فالمعنى: أنك فوقهم من كل جهة وإذا كان كذلك لم يضرك شيء من كيدهم وسحرهم فلا موجب لأن تخاف.

٣. ﴿وَأَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا﴾:

أ. أمر بإلقاء العصا لتكون حية وتلقف ما صنعوا بالسحر والتعبير عن العصا بما في يمينك من ألطف التعبير وأعمقه فإن فيه إشارة إلى أن ليس للشيء من الحقيقة إلا ما أراد الله فإن أراد لما في اليمين أن يكون عصا كان عصا وإن أراد أن يكون حية كان حية فما له من نفسه شيء ثم التعبير عن حياتهم وثعابينهم بقوله: ﴿ما صَنَعُوا﴾ يشير إلى أن المغالبة واقعة بين تلك القدرة المطلقة التي تتبعها الأشياء في أساميها وحقائقها وبين هذا الصنع البشري الذي لا يعدو أن يكون كيدا باطلا وكلمة الله هي العليا والله غالب على أمره فلا ينبغي له أن يخاف.

ب. وفي هذه الجملة أعني قوله: ﴿وَأَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا﴾ بيان لكونه عليه السلام أعلى بحسب ظاهر الحس كما أن في ذيله بيانا لكونه أعلى بحسب الحقيقة إذ لا حقيقة للباطل فمن كان على الحق فلا ينبغي له أن يخاف الباطل على حقه.

٤. ﴿إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى﴾ تعليل بحسب اللفظ لقوله: ﴿تَلْقَفْ ما

صَنَعُوا﴾ و﴿ما﴾ مصدرية أو موصولة وبيان بحسب الحقيقة لكونه عليه السلام أعلى لأن ما معهم كيد ساحر لا حقيقة له وما معه آية معجزة ذات حقيقة والحق يعلو ولا يعلى عليه.

٥. ﴿وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى﴾:

أ. بمنزلة الكبرى لقوله: ﴿إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ﴾ فإن الذي يناله الساحر بسحره خيال من الناظرين باطل لا حقيقة له ولا فلاح ولا سعادة حقيقية يظفر بها في أمر موهوم لا واقع له.

ب. فقوله: ﴿وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى﴾ نظير قوله: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤] ﴿وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٨]، وغيرهما والجميع من فروع ﴿إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً﴾ [الإسراء: ٨١] ﴿وَيَمْحُ اللهُ الْباطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ﴾ [الشورى: ٢٤]، فلا يزال الباطل يزين أمورا ويشبهها بالحق ولا يزال الحق يمحوه ويلقف ما أظهره لوهم الناظرين سريعا أو بطيئا فمثل عصا موسى وسحر السحرة يجري في كل باطل يبدو وحق يلقفه ويزهقه، وقد تقدم في تفسير قوله: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها﴾ [الرعد: ١٧]، كلام نافع في المقام.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في نهج البلاغة، قال عليه السلام: لم يوجس موسى خيفة على نفسه، بل أشفق من غلبة الجهال ودول الضلال.

- أقول: معناه ما قدمناه في تفسير الآية.

ب. أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جندب بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: إذا أخذتم الساحر فاقتلوه، ثم قرأ: ﴿وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى﴾، قال: لا يأمن حيث وجد.

- أقول: وفي انطباق المعنى المذكور في الحديث على الآية بما لها من السياق خفاء.

٢٣. إيمان السحرة وسجودهم وتهديد فرعون لهم بالصلب:

المقطع [٢٣] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٠-٧١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٧٩»:

١. ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسى﴾:

أ. في الكلام حذف وإيجاز والتقدير فألقى ما في يمينه فتلقف ما صنعوا فألقي السحرة وفي التعبير بقوله: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ﴾ بالبناء للمفعول دون أن يقال: فسجد السحرة إشارة إلى إذلال القدرة الإلهية لهم وغشيان الحق بظهوره إياهم بحيث لم يجدوا بدا دون أن يخروا على الأرض سجدا كأنهم لا إرادة لهم في ذلك وإنما ألقاهم ملق غيرهم دون أن يعرفوه من هو؟

ب. وقولهم: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسى﴾ شهادة منهم بالإيمان وإنما أضافوه تعالى إلى موسى وهارون ليكون فيه الشهادة على ربوبيته تعالى ورسالة موسى وهارون معا وفصل قوله: ﴿قالُوا﴾ من غير عطف لكونه كالجواب لسؤال مقدر كأنه قيل: فما قالوا فقيل: قالوا.

٢. ﴿قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ الكبير الرئيس وقطع الأيدي والأرجل من خلاف أن يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى والتصليب تكثير الصلب وتشديده كالتقطيع الذي هو تكثير القطع وتشديده والجذوع جمع جذع وهو ساقة النخل.

٣. ﴿آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ تهديد من فرعون للسحرة حيث آمنوا والجملة استفهامية محذوفة الأداة والاستفهام للإنكار أو خبرية مسوقة لتقرير الجرم، وقوله: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ رمي لهم بتوطئة سياسية على المجتمع القبطي في أرض مصر كأنهم تواطئوا مع رئيسهم أن يتنبأ موسى فيدعو أهل مصر إلى الله ويأتي في ذلك بسحر فيستنصروا بالسحرة حتى إذا حضروه واجتمعوا على مغالبته تخاذلوا وانهزموا عنه وآمنوا واتبعتهم العامة فذهبت طريقتهم المثلى من بينهم وأخرج من لم يؤمن منهم قال تعالى في موضع آخر: ﴿إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها﴾ [الأعراف: ١٢٣]، وإنما رماهم بهذا القول تهييجا للعامة عليهم كما رمى موسى عليه السلام بمثله في أول يوم.

٤. ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ﴾ إيعاد لهم وتهديد بالعذاب الشديد ولم يذكر تعالى في كلامه أنجز فيهم ذلك أم لا؟

٢٤. إيثار السحرة لله على فرعون وطلبهم المغفرة:

المقطع [٢٤] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا

أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقى﴾ [طه: ٧٢-٧٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٨٠»:

١. ﴿قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَالَّذِي فَطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا﴾:

أ. كلام بليغ في منطوقه بالغ في مفهومه بعيد في معناه رفيع في منزلته يغلي ويفور علما وحكمة فهؤلاء قوم كانوا قبل ساعة وقد ملأت هيبة فرعون وأبهته قلوبهم وأذلت زينات الدنيا وزخارفها التي عنده، وليست إلا أكاذيب خيال وأباطيل وهم، نفوسهم يسمونه ربا أعلى ويقولون حينما ألقوا حبالهم وعصيهم: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ﴾ فما لبثوا دون أن ظهرت لهم آيات الحق فبهرت أبصارهم فطاحت عند ذلك ما كانوا يرون لفرعون من عزة وسلطان ولما عنده من زينة الدنيا وزخرفها من قدر ومنزلة وغشيت قلوبهم فأزالت منها رذيلة الجبن والملق واتباع الهوى والتوله إلى سراب زينة الحياة الدنيا ومكنت فيها التعلق بالحق والدخول تحت ولاية الله والاعتزاز بعزته فلا يريدون إلا ما أراده الله ولا يرجون إلا الله ولا يخافون إلا الله عز اسمه.

ب. يظهر ذلك كله بالتدبر في المحاورة الجارية بين فرعون وبينهم إذا قيس بين القولين ففرعون في غفلة من مقام ربه لا يرى إلا نفسه ويضيف إليه أنه رب القبط وله ملك مصر وله جنود مجندة، وله ما يريد وله ما يقضي وليست في نظر الحق والحقيقة إلا دعاوي وقد غره جهله إلى حيث يرى أن الحق تبع باطله والحقيقة خاضعة مطيعة لدعواه فيتوقع أن لا تمس نفوس الناس، وفي جبلتها الفهم والقضاء، بشعورها وإدراكها الجبلي شيئا إلا بعد إذنه، ولا يذعن قلوبهم ولا توقن بحق إلا عن إجازته وهو قوله للسحرة: ﴿آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ ويرى أن لا حقيقة للإنسان إلا هذه البنية الجسمانية التي تعيش ثم تفسد وتفنى وأن لا سعادة له إلا نيل هذه اللذائذ المادية الفانية، وذلك قوله: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى﴾ وليتدبر في آخر كلامه.

ج. وأما هؤلاء المؤمنون وقد أدركهم الحق وغشيهم فأصفاهم وأخلصهم لنفسه فهم يرون ما يعده فرعون حقيقة من أمتعة الحياة الدنيا من مالها ومنزلتها سرابا خياليا وزينة غارة باطلة، وأنهم إذا خيروا بينه وبين ما آمنوا به فقد خيروا بين الحق والباطل والحقيقة والسراب، وحاشا أهل اليقين أن يشكوا في يقينهم أو يقدموا الباطل على الحق والسراب على الحقيقة وهم يشهدون ذلك شهادة عيان وذلك قولهم:

﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ﴾ أي لن نختارك ﴿عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَالَّذِي فَطَرَنا﴾ فليس مرادهم به إيثار شخص بما هو جسد إنساني ذو روح بل ما معه مما كان يدعيه أنه يملكه من الدنيا العريضة بمالها ومنالها.

د. وما كان يهددهم به فرعون من القتل الفجيع والعذاب الشديد وقطع دابر الحياة الدنيا وهو يرى أن ليس للإنسان إلا الحياة التي فيها وفيها سعادته وشقاؤه فإنهم يرون الأمر بالعكس من ذلك وأن للإنسان حياة خالدة أبدية لا قدر عندها لهذه الحياة المعجلة الفانية إن سعد فيها فلا عليه أن يشقى في حياته الدنيا وإن شقي فيها فلا ينفعه شيء.

هـ. وعلى ذلك فلا يهابون أن يخسروا في حياتهم الدنيا الداثرة إذا ربحوا في الحياة الأخرى الخالدة، وذلك قولهم لفرعون، وهو جواب تهديده إياهم بالقتل ﴿فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا﴾ ثم الآيات التالية الحاكية لتتمة كلامهم مع فرعون تعليل وتوضيح لقولهم: ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَالَّذِي فَطَرَنا﴾

و. وفي قولهم: ﴿ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ﴾ تلويح إلى أنهم عدوا ما شاهدوه من أمر العصا آيات عديدة كصيرورتها ثعبانا وتلقفها الحبال والعصي ورجوعها ثانيا إلى حالتها الأولى، ويمكن أن يكون ﴿مِنَ﴾ للتبعيض فيفيد أنهم شاهدوا آية واحدة وآمنوا بأن لله آيات أخرى كثيرة ولا يخلو من بعد.

٢. ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقى﴾:

أ. الخطايا جمع خطيئة وهي قريبة معنى من السيئة وقوله: ﴿وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ﴾ معطوف على ﴿خَطايانا﴾ و﴿مِنَ السِّحْرِ﴾ بيان له والمعنى وليغفر لنا السحر الذي أكرهتنا عليه وفيه دلالة على أنهم أكرهوا عليه إما حين حشروا إلى فرعون من خلال ديارهم وإما حين تنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى فحملوا على المقابلة والمغالبة.

ب. وأول الآية تعليل لقولهم: ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ﴾ أي إنما اخترنا الله الذي فطرنا عليك وآمنا به ليغفر لنا خطايانا والسحر الذي أكرهتنا عليه، وذيل الآية: ﴿وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقى﴾ من تمام البيان وبمنزلة التعليل لصدرها كأنه قيل: وإنما آثرنا غفرانه على إحسانك لأنه خير وأبقى، أي خير من كل خير وأبقى من كل باق، لمكان الإطلاق، فلا يؤثر عليه شيء وفي هذا الذيل نوع مقابلة لما في ذيل كلام فرعون: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى﴾

ج. وقد عبروا عنه تعالى أولا بالذي فطرنا، وثانيا بربنا، وثالثا بالله:

• أما الأول فلأن كونه تعالى فاطرا لنا أي مخرجا لنا عن كتم العدم إلى الوجود ويتبعه انتهاء كل خير حقيقي إليه وأن ليس عند غيره إذا قوبل به إلا سراب البطلان منشأ كل ترجيح والمقام مقام الترجيح بينه تعالى وبين فرعون.

• وأما الثاني فلأن فيه إخبارا عن الإيمان به وأمس صفاته تعالى بالإيمان والعبودية صفة ربوبيته المتضمنة لمعنى الملك والتدبير.

• وأما الثالث فلأن ملاك خيرية الشيء الكمال وعنده تعالى جميع صفات الكمال القاضية بخيريته المطلقة فناسب التعبير بالعلم الدال على الذات المستجمعة لجميع صفات الكمال، وعلى هذا فالكلام في المقامات الثلاثة على بساطته ظاهرا مشتمل على الحجة على المدعى والمعنى بالحقيقة: لن نؤثرك على الذي فطرنا، لأنه فطرنا وإنا آمنا بربنا لأنه ربنا والله خير لأنه الله عز اسمه.

٢٥. مصير المجرم في جهنم ومصير المؤمن في الجنات العلى:

المقطع [٢٥] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ [طه: ٧٤-٧٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٨٣»:

١. ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى﴾ تعليل لجعل غفران الخطايا غاية للإيمان بالله أي لأن من لم يغفر خطاياه كان مجرما ومن يأت ربه مجرما.

٢. ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى﴾:

أ. الدرجة، على ما ذكره الراغب، هي المنزلة لكن يعتبر فيها الصعود كدرجات السلم وتقابلها الدركة فهي المنزلة حدورا ولذا يقال درجات الجنة ودركات النار، والتزكي هو التنمي بالنماء الصالح والمراد به أن يعيش الإنسان باعتقاد حق وعمل صالح.

ب. والآيتان تصفان ما يستتبعه الإيمان والعمل الصالح كما كانت الآية السابقة تصف ما يستتبعه الاجرام الحاصل بكفر أو معصية والآيات الثلاث الواصفة لتبعة الاجرام والإيمان ناظرة إلى وعيد فرعون

ووعده لهم فقد أوعدهم فرعون على إيمانهم لموسى بالقطع والصلب وادعى أنه أشد العذاب وأبقاه فقابلوه بأن للمجرم عند ربه جهنم لا يموت فيها ولا يحيى لا يموت فيها حتى ينجو من مقاساة ألم عذابها لكن منتهى عذاب الدنيا الموت وفيه نجاة المجرم المعذب، ولا يحيى فيها إذ ليس فيها شيء مما تطيب به الحياة ولا خير مرجوا فيها حتى يقاسى العذاب في انتظاره.

ج. ووعدهم قبل ذلك المنزلة بجعلهم من مقربيه والأجر كما حكى الله تعالى: ﴿قالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ قالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٤] فقابلوا ذلك بأن من يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك، وفي الإشارة البعيدة تفخيم شأنهم، لهم الدرجات العلى، وهذا يقابل وعد فرعون لهم بالتقريب، جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ذلك جزاء من تزكى، بالإيمان والعمل الصالح وهذا يقابل وعده لهم بالأجر.

٢٦. أمر الله لموسى بالإسراء ببني إسرائيل وإغراق فرعون وجنوده:

المقطع [٢٦] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه: ٧٧-٧٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٨٤»:

١. ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً﴾:

أ. الإسراء السير بالليل والمراد بعبادي بنو إسرائيل وقوله: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً﴾ قيل المراد الضرب بالعصا كما يدل عليه كلامه تعالى في غير هذا الموضع وأن ﴿طَرِيقاً﴾ مفعول به لأضرب على الاتساع وهو مجاز عقلي والأصل اضرب البحر ليكون لهم طريقا)، ويمكن أن يكون المراد بالضرب البناء والإقامة من باب ضربت الخيمة وضربت القاعدة.

ب. واليبس، على ما ذكره الراغب، المكان الذي كان فيه ماء ثم ذهب، والدرك بفتحتين تبعة الشيء، وفي نسبة الغشيان إلى ما الموصولة المبهمة وجعله صلة لها أيضا من تمثيل هول الموقف ما لا يخفى، قيل: وفي قوله: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَما هَدى﴾ تكذيب لقول فرعون لقومه فيما خاطبهم: ﴿وَما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ﴾ [غافر: ٢٩]، وعلى هذا فقوله: ﴿وَما هَدى﴾ ليس تأكيدا وتكرارا لمعنى قوله: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾

٢٧. تذكير بني إسرائيل بنعم الله ونهيهم عن الطغيان:

المقطع [٢٧] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٠-٨٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٨٦»:

١. ﴿يا بَنِي إِسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْناكُم مِنْ عَدُوِّكُمْ﴾ كأن الكلام بتقدير القول أي قلنا يا بني إسرائيل وقوله: ﴿قَدْ أَنْجَيْناكُم مِنْ عَدُوِّكُمْ﴾ المراد به فرعون أغرقه الله وأنجى بني إسرائيل منه بعد طول المحنة.

٢. ﴿وَواعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ﴾ بنصب أيمن على أنه صفة جانب ولعل المراد بهذه المواعدة مواعدة موسى أربعين ليلة لإنزال التوراة وقد مرت القصة في سورة البقرة وغيرها وكذا قصة إنزال المن والسلوى.

٣. ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ﴾ إباحة في صورة الأمر وإضافة الطيبات إلى ﴿ما رَزَقْناكُمْ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف إذ لا معنى لأن ينسب الرزق إلى نفسه ثم يقسمه إلى طيب وغيره كما يؤيده قوله في موضع آخر: ﴿وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ﴾ [الجاثية: ١٦]

٤. ﴿وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ ضمير فيه راجع إلى الأكل المتعلق بالطيبات وذلك بكفران النعمة وعدم أداء شكره كما قالوا: ﴿يا مُوسى لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعامٍ واحِدٍ فَادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِها وَقِثَّائِها وَفُومِها وَعَدَسِها وَبَصَلِها﴾ [البقرة: ٦١]

٥. ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أي يجب غضبي ويلزم من حل الدين يحل من باب ضرب إذا وجب أداؤه، والغضب من صفاته تعالى الفعلية مصداقه إرادته تعالى إصابة المكروه للعبد بتهيئة الأسباب لذلك عن معصية عصاها.

٦. ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى﴾ أي سقط من الهوي بمعنى السقوط وفسر بالهلاك.

٧. ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى﴾:

أ. وعد بالرحمة المؤكدة عقيب الوعيد الشديد ولذا وصف نفسه بكثرة المغفرة فقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾ ولم يقل: وأنا غافر أو سأغفر.

ب. والتوبة وهي الرجوع كما تكون عن المعصية إلى الطاعة كذلك تكون من الشرك إلى التوحيد، والإيمان أيضا كما يكون بالله كذلك يكون بآيات الله من أنبيائه ورسله وكل حكم جاءوا به من عند الله تعالى، وقد كثر استعمال الإيمان في القرآن في كل من المعنيين كما كثر استعمال التوبة في كل من المعنيين المذكورين وبنو إسرائيل كما تلبسوا بمعاصي فسقوا بها كذلك تلبسوا بالشرك كعبادة العجل وعلى هذا فلا موجب لصرف الكلام عن ظاهر إطلاقه في التوبة عن الشرك والمعصية جميعا والإيمان بالله وآياته وكذلك إطلاقه بالنسبة إلى التائبين والمؤمنين من بني إسرائيل وغيرهم وإن كان بنو إسرائيل مورد الخطاب فإن الصفات الإلهية كالمغفرة لا تختص بقوم دون قوم.

ج. فمعنى الآية، والله أعلم، وإني لكثير المغفرة لكل إنسان تاب وآمن سواء تاب عن شرك أو عن معصية وسواء آمن بي أو بآياتي من رسلي، أو ما جاءوا به من أحكامي بأن يندم على ما فعل ويعمل عملا صالحا بتبديل المخالفة والتمرد فيما عصى فيه بالطاعة فيه وهو المحقق لأصل معنى الرجوع من شيء وقد مر تفصيل القول فيه في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ﴾ [النساء: ١٧]، في الجزء الرابع من الكتاب.

د. وأما قوله: ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ فالاهتداء يقابل الضلال كما يشهد به قوله تعالى: ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقوله: ﴿لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، فهل المراد أن لا يضل في نفس ما تاب فيه بأن يعود إلى المعصية ثانيا فيفيد أن التوبة عن ذنب إنما تنفع بالنسبة إلى ما اقترفه قبل التوبة ولا تكفي عنه لو عاد إليه ثانيا أو المراد أن لا يضل في غيره فيفيد أن المغفرة إنما تنفعه بالنسبة إلى المعصية التي تاب عنها وبعبارة أخرى إنما تنفعه نفعا تاما إذا لم يضل في غيره من الأعمال، أو المراد ما يعم المعنيين؟

هـ. ظاهر العطف بثم أن يكون المراد هو المعنى الأول فيفيد معنى الثبات والاستقامة على التوبة فيعود إلى اشتراط الإصلاح الذي هو مذكور في عدة من الآيات كقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٩] [النور: ٥]

و. لكن يبقى على الآية بهذا المعنى أمران:

- أحدهما نكتة التعبير بالغفار بصيغة المبالغة الدالة على الكثرة فما معنى كثرة مغفرته تعالى لمن اقترف ذنبا واحدا ثم تاب؟

• وثانيهما أن لازمها أن يكون من خالف حكما من أحكامه كافرا به وإن اعترف بأنه من عند الله وإنما يعصيه اتباعا للهوى لا ردا للحكم اللهم إلا أن يقال إن الآية لاشتمالها على قوله: ﴿تابَ وَآمَنَ﴾ إنما تشمل المشرك أو الراد لحكم من أحكام الله وهو كما ترى.

ز. فيمكن أن يقال: إن المراد بالتوبة والإيمان التوبة من الشرك والإيمان بالله كما أن المعنيين هما المرادان في أغلب المواضع من كلامه التي ذكر التوبة والإيمان فيها معا، وعلى هذا كان المراد من قوله: ﴿وَعَمِلَ صالِحاً﴾ الطاعة لأحكامه تعالى بالائتمار لأوامره والانتهاء عن نواهيه، ويكون معنى الآية أن من تاب من الشرك وآمن بالله وأتى بما كلف به من أحكامه فإني كثير المغفرة لسيئاته أغفر له زلة بعد زلة فتكثر المغفرة لكثرة مواردها.

ح. وقد ذكر تعالى نظير المعنى وهو مغفرة السيئات في قوله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، فقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً﴾ ينطبق على آية النساء ويبقى فيه شرط زائد يقيد حكم المغفرة وهو مدلول قوله: ﴿ثُمَّ اهْتَدى﴾ وهو الاهتداء إلى الطريق ويظهر أن المغفرة إنما يسمح بها للمؤمن العامل بالصالحات إذا قصد ذلك من طريقه ودخل عليه من بابه.

ط. ولا نجد في كلامه تعالى ما يقيد الإيمان بالله والعمل الصالح في تأثيره وقبوله عند الله إلا الإيمان بالرسول بمعنى التسليم له وطاعته في خطير الأمور ويسيرها وأخذ الدين عنه وسلوك الطريق التي يخطها واتباعه من غير استبداد وابتداع يئول إلى اتباع خطوات الشيطان وبالجملة ولايته على المؤمنين في دينهم ودنياهم فقد شرع الله تعالى ولايته وفرض طاعته وأوجب الأخذ عنه والتأسي به في آيات كثيرة جدا لا حاجة إلى إيرادها ولا مجال لاستقصائها فالنبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

ي. وكان جل بني إسرائيل على إيمانهم بالله سبحانه وتصديقهم رسالة موسى وهارون متوقفين في ولايتهما أو كالمتوقف كما هو صريح عامة قصصهم في كتاب الله ولعل هذا هو الوجه في وقوع الآية ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى﴾ بعد نهيهم عن الطغيان وتخويفهم من غضب الله.

ك. فقد تبين أن المراد بالاهتداء في الآية على ما يهدي إليه سائر الآيات هو الإيمان بالرسول باتباعه في أمر الدين والدنيا وبعبارة أخرى هو الاهتداء إلى ولايته.

ل. وبذلك يظهر حال ما قيل في تفسير قوله: ﴿ثُمَّ اهْتَدى﴾ فقد قيل: الاهتداء لزوم الإيمان

والاستمرار عليه ما دامت الحياة، وقيل: أن لا يشك ثانيا في إيمانه، وقيل: الأخذ بسنة النبي وعدم سلوك سبيل البدعة، وقيل: الاهتداء هو أن يعلم أن لعمله ثوابا يجزى عليه، وقيل: هو تطهير القلب من الأخلاق الذميمة، وقيل: هو حفظ العقيدة من أن تخالف الحق في شيء فإن الاهتداء بهذا الوجه غير الإيمان وغير العمل، والمطلوب على جميع هذه الأقوال تفسير الاهتداء بمعنى لا يرجع إلى الإيمان والعمل الصالح غير أن الذي ذكروه لا دليل على شيء من ذلك.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في التوحيد، بإسناده إلى حمزة بن الربيع عمن ذكره قال: كنت في مجلس أبي جعفر عليه السلام، إذ دخل عليه عمرو بن عبيد فقال له: جعلت فداك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى﴾ ما ذلك الغضب؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: هو العقاب يا عمرو، إنه من زعم أن الله عز وجل زال من شيء إلى شيء، فقد وصفه صفة مخلوق، إن الله عز وجل لا يستفزه شيء ولا يغيره.

• أقول: وروى ما في معناه الطبرسي في الاحتجاج مرسلا.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: إن الله تبارك وتعالى لا يقبل إلا العمل الصالح، ولا يقبل الله إلا الوفاء بالشروط والعهود، فمن وفى لله بشرطه واستعمل ما وصف في عهده، نال ما عنده واستكمل وعده، إن الله تبارك وتعالى أخبر العباد بطرق الهدى، وشرع لهم فيها المنار، وأخبرهم كيف يسلكون؟ فقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى﴾ وقال: ﴿إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ فمن اتقى الله فيما أمره، لقي الله مؤمنا بما جاء به محمد ﷺ.

ج. وفي المجمع: (قال أبو جعفر عليه السلام: ﴿ثُمَّ اهْتَدى﴾ إلى ولايتنا أهل البيت، فو الله لو أن رجلا عبد الله عمره ما بين الركن والمقام، ثم مات، ولم يجيء بولايتنا لأكبه الله في النار على وجهه، رواه الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده وأورده العياشي في تفسيره، بعدة طرق.

• أقول: ورواه في الكافي، بإسناده عن سدير عنه عليه السلام وفي تفسير القمي، بإسناده عن الحارث بن عمر عنه عليه السلام وفي مناقب ابن شهرآشوب، عن أبي الجارود وأبي الصباح الكناسي عن الصادق عليه السلام وعن أبي حمزة عن السجاد عليه السلام: مثله ولفظه: إلينا أهل البيت.

• والمراد بالولاية في الحديث ولاية أمر الناس في دينهم ودنياهم وهي المرجعية في أخذ معارف

الدين وشرائعه وفي إدارة أمور المجتمع، وقد كانت للنبي ﷺ كما ينص عليه الكتاب في أمثال قوله: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ ثم جعلت لعترته أهل بيته بعده في الكتاب بمثل آية الولاية وبما تواتر عنه ﷺ من حديث الثقلين وحديث المنزلة ونظائرهما.

• والآية وإن وقعت بين آيات خوطب بها بنو إسرائيل وظاهرها ذلك لكنها غير مقيدة بشيء يخصها بهم ويمنع جريانها في غيرهم فهي جارية في غيرهم كما تجري فيهم أما جريانها فيهم فلأن لموسى بما كان إماما في أمته كان له من سنخ هذه الولاية ما لغيره من الأنبياء فعلى أمته أن يهتدوا به ويدخلوا تحت ولايته، وأما جريانها في غيرهم فلأن الآية عامة غير خاصة بقوم دون قوم فهي تهدي الناس في زمن الرسول ﷺ إلى ولايته وبعده إلى ولاية الأئمة من أهل بيته عليه السلام فالولاية سنخ واحد لها معناها إلى أي من نسبت.

• إذ عرفت ما تقدم ظهر لك سقوط ما ذكره الآلوسي في تفسير روح المعاني، فإنه بعد ما نقل رواية مجمع البيان، السابقة عن أبي جعفر عليه السلام قال: (وأنت تعلم أن ولايتهم وحبهم مما لا كلام عندنا في وجوبه لكن حمل الاهتداء في الآية على ذلك مع كونها حكاية لما خاطب الله تعالى به بني إسرائيل في زمان موسى عليه السلام مما يستدعي القول بأنه عز وجل أعلم بني إسرائيل بأهل البيت وأوجب عليهم ولايتهم إذ ذاك ولم يثبت ذلك في صحيح الأخبار)

• والذي أوقعه فيما وقع فيه تفسيره الولاية بمعنى المحبة ثم أخذه الآية خاصة ببني إسرائيل حتى استنتج المعنى الذي ذكره وليست الولاية في آياتها وأخبارها بمعنى المحبة وإنما هي ملك التدبير والتصرف في الأمور الذي من شئونه لزوم الاتباع وافتراض الطاعة وهو الذي يدعيه أئمة أهل البيت لأنفسهم وأما المحبة فهي معنى توسعي للولاية بمعناها الحقيقي ومن لوازمها العادية وهي التي تدل عليه بالمطابقة أدلة مودة ذي القربى من آية أو رواية.

• ولولاية أهل البيت عليه السلام معنى آخر ثالث وهو أن يلي الله أمر عبده فيكون هو المدبر لأموره والمتصرف في شئونه لإخلاصه في العبودية وهذه الولاية هي لله بالأصالة فهو الولي لا ولي غيره وإنما تنسب إلى أهل البيت عليه السلام لأنهم السابقون الأولون من الأمة في فتح هذا الباب وهي أيضا من التوسع في النسبة كما ينسب الصراط المستقيم في كلامه تعالى إليه بالأصالة وإلى الذين أنعم الله عليهم

من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بنوع من التوسع.

• فتلخص أن الولاية في حديث المجمع، بمعنى ملك التدبير وأن الآية الكريمة عامة جارية في غير بني إسرائيل كما فيهم وأنه عليه السلام إنما فسر الاهتداء إلى الولاية من جهة الآية في هذه الأمة وهو المعنى المتعين.

٢٨. عجلة موسى إلى ربه وتركه قومه خلفه:

المقطع [٢٨] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٣-٨٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٩٠»:

١. ﴿وَما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى﴾:

أ. حكاية مكالمة وقعت بينه تعالى وبين موسى عليه السلام في ميعاد الطور الذي نزلت عليه فيه التوراة كما قص في سورة الأعراف تفصيلا.

ب. وظاهر السياق أنه سؤال عن السبب الذي أوجب لموسى أن يستعجل عن قومه فيحضر ميعاد الطور قبلهم كأنه كان المترقب أن يحضروا الطور جميعا فتقدم عليهم موسى في الحضور وخلفهم فقيل له: ﴿وَما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى﴾ فقال: ﴿هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِي﴾ أي إنهم لسائرون على أثري وسيلحقون بي عن قريب ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى﴾ أي والسبب في عجلي هو أن أحصل رضاك يا رب.

ج. والظاهر أن المراد بالقوم وقد ذكر أنهم على أثره هم السبعون رجلا الذين اختارهم لميقات ربه، فإن ظاهر تخليفه هارون على قومه بعده وسائر جهات القصة وقوله بعد: ﴿أَفَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ أنه لم يكن من القصد أن يحضر بنو إسرائيل كلهم الطور.

د. وهذا الخطاب يمكن أن يخاطب به موسى عليه السلام في بدء حضوره في ميعاد الطور كما يمكن أن يخاطب في أواخر عهده به فإن السؤال عن العجل غير نفس العجل الذي يقارن المسير واللقاء وإذا لم يكن السؤال في بدء الورود والحضور استقام قوله بعد: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾، بناء على أن الفتنة كانت بعد استبطائهم غيبة موسى على ما في الآثار ولا حاجة إلى تمحلاتهم في توجيه الآيات.

٢٩. فتنة قوم موسى بعبادة العجل وإضلال السامري لهم:

المقطع [٢٩] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٩٠»:

أ. الفتنة الامتحان والاختبار ونسبة الإضلال إلى السامري، وهو الذي سبك العجل وأخرجه لهم فعبدوه وضلوا، لأنه أحد أسبابه العاملة فيه.

ب. والفاء في قوله: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ للتعليل يعلل به ما يفهم من سابق الكلام فإن المفهوم من قول موسى: ﴿هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي﴾ أن قومه على حسن حال لم يحدث فيهم ما يوجب قلقا فكأنه قيل: لا تكن واثقا على ما خلفتهم فيه فإنا قد فتناهم فضلوا.

ج. ﴿قَوْمَكَ﴾ من وضع الظاهر موضع المضمر ولعل المراد غير المراد به في الآية السابقة بأن يكون ما هاهنا عامة القوم وما هناك السبعون رجلا الذين اختارهم موسى للميقات.

٣٠. رجوع موسى غضبان ومؤاخذته قومه على إخلاف الموعد:

المقطع [٣٠] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ [طه: ٨٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٩٠»:

أ. الغضبان صفة مشبهة من الغضب، وكذا الأسف من الأسف بفتحتين وهو الحزن وشدة الغضب، والموعد الوعد، وإخلافهم موعده هو تركهم ما وعدوه من حسن الخلافة بعده حتى يرجع إليهم، ويؤيده قوله في موضع آخر: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾

ب. والمعنى: فرجع موسى إلى قومه والحال أنه غضبان شديد الغضب، أو حزين، وأخذ يلومهم على ما فعلوا، قال يا قوم ألم يعدكم ربك وعدا حسنا، وهو أن ينزل عليهم التوراة فيها حكم الله وفي الأخذ بها سعادة دنياهم وأخراهم، أو وعده تعالى أن ينجيهم من عدوهم ويمكنهم في الأرض ويخصهم بنعمه العظام ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ وهو مدة مفارقة موسى إياهم حتى يكونوا آيسين من رجوعه فيختل النظم بينهم ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فطغوتم بالكفر به بعد الإيمان وعبدتم العجل ﴿فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ وتركتم ما وعدتموني من حسن الخلافة بعدي.

ج. وربما قيل في معنى قوله: ﴿فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ بعض معان أخر، كقول بعضهم إن إخلافهم موعده أنه أمرهم أن يلحقوا به فتركوا المسير على أثره، وقول بعضهم هو أنه أمرهم بطاعة هارون بعده إلى أن يرجع إليهم فخالفوه إلى غير ذلك.

٣١. قصة العجل الذي أخرجه السامري وتحذير هارون:

المقطع [٣١] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه: ٨٧ـ٩١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٩٢»:

١. ﴿قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا﴾:

أ. الملك بالفتح فالسكون مصدر ملك يملك وكأن المراد بقولهم: ﴿ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا﴾ ما خالفناك ونحن نملك من أمرنا شيئا، كما قيل، ومن الممكن أن يكون المراد أنا لم نصرف في صوغ العجل شيئا من أموالنا حتى نكون قاصدين لهذا الأمر متعمدين فيه ولكن كنا حاملين لأثقال من حلي القوم فطرحناها فأخذها السامري وألقاها في النار فأخرج العجل.

ب. والأوزار جمع وزر وهو الثقل، والزينة الحلي كالعقد والقرط والسوار والقذف والإلقاء والنبذ متقاربة معناها الطرح والرمي.

ج. ومعنى قوله: ﴿وَلكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً﴾ لكن كانت معنا أثقال من زينة القوم ولعل المراد به قوم فرعون، فطرحناها فكذلك ألقى السامري، ألقى ما طرحناها في النار أو ألقى ما عنده كما ألقينا ما عندنا مما حملنا، فأخرج العجل.

٢. ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى فَنَسِيَ﴾:

أ. في لفظ الإخراج دلالة على أن كيفية صنع العجل كانت خفية على الناس في غير مرأى منهم حتى فاجأهم بإظهاره وإراءته، والجسد هو الجثة التي لا روح فيه فلا يطلق الجسد على ذي الروح البتة، وفيه دليل على أن العجل لم يكن له روح ولا فيه شيء من الحياة، والخوار بضم الخاء صوت العجل.

ب. وربما أخذ قوله: ﴿فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ﴾ إلخ كلاما مستقلا إما من كلام الله سبحانه باختتام كلام القوم في قولهم: ﴿فَقَذَفْناها﴾ وإما من كلام القوم وعلى هذا فضمير ﴿قالُوا﴾ لبعض القوم وضمير ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ﴾ لبعض آخر كما هو ظاهر.

ج. وضمير ﴿فَنَسِيَ﴾ قيل: لموسى والمعنى قالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي موسى إلهه هذا وهو هنا وذهب يطلبه في الطور وقيل: الضمير للسامري والمراد به نسيانه تعالى بعد ذكره والإيمان به أي نسي السامري ربه فأتى بما أتى وأضل القوم.

د. وظاهر قوله: ﴿فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى﴾ حيث نسب القول إلى الجمع أنه كان مع السامري في هذا الأمر من يساعده.

٣. ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً﴾ توبيخ لهم حيث عبدوه وهم يرون أنه لا يرجع قولا بأن يستجيب لمن يدعوه، ولا يملك لهم ضرا فيدفعه عنهم ولا نفعا بأن يجلبه ويوصله إليهم، ومن ضروريات عقولهم أن الرب يجب أن يستجيب لمن دعاه لدفع ضر أو لجلب نفع وأن يملك الضر والنفع لمربوبه.

٤. ﴿وَلَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ تأكيد لتوبيخهم وزيادة تقرير لجرمهم، والمعنى: أنهم مضافا إلى عدم تذكرهم بما تذكرهم به ضرورة عقولهم وعدم انتهائهم عن عبادة العجل إلى البصر والعقل لم يعتنوا بما قرعهم من طريق السمع أيضا، فلقد قال لهم نبيهم هارون إنه فتنة فتنوا به وإن ربهم الرحمن عز اسمه وإن من الواجب عليهم أن يتبعوه ويطيعوا أمره، فردوا على هارون قائلين: لن نبرح ولن نزال عليه عاكفين أي ملازمين لعبادته حتى يرجع إلينا موسى فنرى ما ذا يقول فيه وما ذا يأمرنا به.

٣٢. مؤاخذة موسى لهارون واعتذار هارون بالخوف من التفرق:

المقطع [٣٢] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٢-٩٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٩٣»:

١. ﴿قالَ يا هارُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾:

أ. رجع عليه السلام بعد تكليم القوم في أمر العجل إلى تكليم أخيه هارون إذ هو أحد المسئولين الثلاثة في هذه المحنة استخلفه عليهم وأوصاه حين كان يوادعه قائلا: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾

ب. وكأن قوله: ﴿مَنَعَكَ﴾ مضمن معنى دعاك أي ما دعاك، إلى أن لا تتبعن مانعا لك عن الاتباع أو ما منعك داعيا لك إلى عدم اتباعي فهو نظير قوله: ﴿قالَ ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]

ج. والمعنى: قال موسى معاتبا لهارون: ما منعك عن اتباع طريقتي وهو منعهم عن الضلال والشدة في جنب الله أفعصيت أمري أن تتبعني ولا تتبع سبيل المفسدين؟

٢. ﴿قالَ يَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي﴾

أ. ﴿يَا بْنَ أُمَّ﴾ أصله يا ابن أمي وهي كلمة استرحام واسترآف قالها لإسكات غضب موسى.

ب. ويظهر من قوله: ﴿لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي﴾ إنه أخذ بلحيته ورأسه غضبا ليضربه كما أخبر به في موضع آخر: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠]

٣. ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ تعليل لمحذوف يدل عليه اللفظ ومحصله لو كنت مانعتهم عن عبادة العجل وقاومتهم بالغة ما بلغت لم يطعني إلا بعض القوم وأدى ذلك إلى تفرقهم فرقتين: مؤمن مطيع، ومشرك عاص، وكان في ذلك إفساد حال القوم بتبديل اتحادهم واتفاقهم الظاهر تفرقا واختلافا وربما انجر إلى قتال وقد كنت أمرتني بالإصلاح إذ قلت لي: ﴿أَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فخشيت أن تقول حين رجعت وشاهدت ما فيه القوم من التفرق والتحزب: فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي، هذا ما اعتذر به هارون وقد عذره موسى ودعا له ولنفسه كما في سورة الأعراف بقوله: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١]

٣٣. السامري والقبضة من أثر الرسول:

المقطع [٣٣] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قالَ فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه: ٩٥-٩٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٩٤»:

١. ﴿قالَ فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ﴾ رجوع منه عليه السلام بعد الفراغ من تكليم أخيه إلى تكليم السامري وهو أحد المسئولين الثلاثة وهو الذي أضل القوم، والخطب: الأمر الخطير الذي يهمك، يقول: ما هذا الأمر العظيم الذي جئت به؟

٢. ﴿قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ لأهمية ما أورده في تفسير الآية الكريمة، ولعلاقتها بالكثير من المباحث، فقد وضعنا ما ذكره في تفسيرها المفصل ضمن الجزء الخاص بالبحوث التفسيرية، وقد عنوناه بـ [تحقيق معنى قصة السامري والعجل في ضوء القرآن والروايات]، خلاصته:

أ. بيان أن تفسير قصة السامري بالروايات التي تذكر أن التراب المأخوذ من أثر جبريل كان له خاصية الإحياء أو التكوين يخالف نص القرآن الذي يصف العجل بأنه (جَسَدٌ) أي جثة بلا روح.

ب. إثبات أن الروايات الواردة في القصة أخبار آحاد لا تصلح لتفسير الآيات القرآنية في غير الأحكام، خاصةً مع مخالفتها للكتاب.

ج. توضيح أن ﴿الرَّسُولَ﴾ في الآية قد يكون موسى عليه السلام، و﴿أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ يعني سنته وشريعته التي نبذها السامري، لا تراب حافر فرس جبريل.

د. بيان أن ﴿سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ تشير إلى أن السامري ابتدع هذه الفتنة من نفسه، وأن خوار العجل كان صناعياً لا روحياً، وهو ما يناسب وصفه بـ (جَسَدٌ)

هـ. نقد الروايات التي تذكر عروج جبريل بموسى إلى السماء وأخذ التراب من تحت حافر الفرس، وبيان أنها لا تتفق مع سياق القصة في القرآن.

و. توضيح أن الإضلال المنسوب إلى الله في الروايات هو إضلال مجازاة، وليس إضلالاً ابتدائياً، وأنه من قبيل قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾

٣٤. عقاب السامري:

المقطع [٣٤] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ [طه: ٩٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٩٧»:

١. ﴿قالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ﴾:

أ. هذه مجازاة له من موسى عليه السلام بعد ثبوت الجرم.

ب. فقوله: ﴿قالَ فَاذْهَبْ﴾ قضاء بطرده عن المجتمع بحيث لا يخالط القوم ولا يمس أحدا ولا يمسه أحد بأخذ أو عطاء أو إيواء أو صحبة أو تكليم وغير ذلك من مظاهر الاجتماع الإنساني وهو من أشق أنواع العذاب، وقوله: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ﴾ ومحصله أنه تقرر وحق عليك أن تعيش فردا ما دمت حيا، كناية عن تحسره المداوم من الوحدة والوحشة.

ج. وقيل: إنه دعاء من موسى عليه وأنه ابتلي إثر دعائه بمرض عقام لا يقترب منه أحد إلا حمي حمى شديدة فكان يقول لمن اقترب منه: لا مساس لا مساس، وقيل: ابتلي بوسواس فكان يتوحش ويفر من كل من يلقاه وينادي لا مساس وهو وجه حسن لو صح الخبر.

٢. ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ ظاهره أنه إخبار عن هلاكه في وقت عينه الله وقضاه قضاء محتوما ويحتمل الدعاء عليه، وقيل: المراد به عذاب الآخرة.

٣. ﴿وَانْظُرْ إِلى إِلهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾ قال في المجمع: (يقال: نسف فلان الطعام إذا ذرأه بالمنسف ليطير عنه قشوره)

٣٥. إحراق العجل ونسفه في اليم وإعلان التوحيد:

المقطع [٣٥] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٧-٩٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ١٩٨»:

١. ﴿وَانْظُرْ إِلى إِلهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً﴾ أي ظللت ودمت عليه عاكفا لازما، وفيه دلالة على أنه كان اتخذه إلها له يعبده.

٢. ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾ أي أقسم لنحرقنه بالنار ثم لنذرينه في البحر ذروا، وقد استدل بحديث إحراقه على أنه كان حيوانا ذا لحم ودم ولو كان ذهبا لم يكن لإحراقه معنى، وهذا يؤيد تفسير الجمهور السابق أنه صار حيوانا ذا روح بإلقاء التراب المأخوذ من أثر جبريل عليه، لكن الحق أنه إنما يدل على أنه لم يكن ذهبا خالصا لا غير، وقد احتمل بعضهم أن يكون لنحرقنه من حرق الحديد إذا برده بالمبرد، والمعنى: لنبردنه بالمبرد ثم لنذرين برادته في البحر وهذا أنسب.

٣. ﴿إِنَّما إِلٰهُكُمُ اللهُ الَّذِي لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾:

أ. الظاهر أنه من تمام كلام موسى عليه السلام يخاطب به السامري وبني إسرائيل وقد قرر بكلامه هذا توحده تعالى في ألوهيته فلا يشاركه فيها غيره من عجل أو أي شريك مفروض، وهو بسياقه من لطيف الاستدلال فقد استدل فيه بأنه تعالى هو الله على أنه لا إله إلا هو وبذلك على أنه لا غير إلههم.

ب. قيل: وفي قوله: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ دلالة على أن المعدوم يسمى شيئا لكونه معلوما وفيه مغالطة فإن مدلول الآية أن كل ما يسمى شيئا فقد وسعه علمه لا أن كل ما وسعه علمه فهو يسمى شيئا والذي ينفع المستدل هو الثاني دون الأول.

٣٦. أنباء السابقين وتحذير المعرضين من حمل الوزر يوم القيامة:

المقطع [٣٦] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ٩٩-١٠١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٠٨»:

١. ﴿كَذٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً﴾ الظاهر أن الإشارة إلى خصوصية قصة موسى والمراد بما قد سبق الأمور والحوادث الماضية والأمم الخالية أي على هذا النحو قصصنا قصة موسى وعلى شاكلته نقص عليك من أخبار ما قد مضى من الحوادث والأمم.

٢. ﴿وَقَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً﴾ المراد به القرآن الكريم أو ما يشتمل عليه من المعارف المتنوعة التي يذكر بها الله سبحانه من حقائق وقصص وعبر وأخلاق وشرائع وغير ذلك.

٣. ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً﴾ ضمير ﴿عَنْهُ﴾ للذكر والوزر الثقل والإثم والظاهر بقرينة الحمل إرادة المعنى الأول وتنكيره للدلالة على عظم خطره، والمعنى: من أعرض عن الذكر فإنه يحمل يوم القيامة ثقلا عظيم الخطر ومر الأثر، شبه الإثم من حيث قيامه بالإنسان بالثقل الذي يحمله الإنسان وهو شاق عليه فاستعير له اسمه.

٤. ﴿خالِدِينَ فِيهِ وَساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلاً﴾ المراد من خلودهم في الوزر خلودهم في جزائه وهو العذاب بنحو الكناية والتعبير في ﴿خالِدِينَ﴾ بالجمع باعتبار معنى قوله: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ كما أن التعبير في ﴿أَعْرَضَ﴾ و﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ﴾ باعتبار لفظه، فالآية كقوله: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ

خالِدِينَ فِيها أَبَداً﴾ [الجن: ٢٣]، ومع الغض عن الجهات اللفظية فقوله: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً خالِدِينَ فِيهِ﴾ من أوضح الآيات دلالة على أن الإنسان إنما يعذب بعمله ويخلد فيه وهو تجسم الأعمال.

٥. ﴿وَساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلاً﴾ ساء من أفعال الذم كبئس، والمعنى: وبئس الحمل حملهم يوم القيامة، والحمل بكسر الحاء وفتحها واحد، غير أن ما بالكسر هو المحمول في الظاهر كالمحمول على الظهر وما بالفتح هو المحمول في الباطن كالولد في البطن.

٣٧. النفخ في الصور وحشر المجرمين:

المقطع [٣٧] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢ـ١٠٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٠٩»:

١. ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾:

أ. ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ﴾ بدل من يوم القيامة في الآية السابقة، ونفخ في الصور كناية عن الإحضار والدعوة ولذا أتبعه فيما سيأتي بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ﴾ [الآية: ١٠٨] من السورة.

ب. والزرق جمع أزرق من الزرقة وهي اللون الخاص، وعن الفراء أن المراد بكونهم زرقا كونهم عميا لأن العين إذا ذهب نورها أزرق ناظرها وهو معنى حسن ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً﴾ [الإسراء: ٩٧]

ج. وقيل: المراد زرقة أبدانهم من التعب والعطش، وقيل: زرقة عيونهم لأن أسوأ ألوان العين وأبغضها عند العرب زرقتها، وقيل: المراد به كونهم عطاشا لأن العطش الشديد يغير سواد العين ويريها كالأزرق وهي وجوه غير مرضية.

٢. ﴿يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا يَوْماً﴾ التخافت تكليم القوم بعضهم بعضا بخفض الصوت وذلك من أهل المحشر لهول المطلع، وقوله: ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً﴾ بيان لكلامهم الذي يتخافتون فيه، ومعنى الجملة على ما يعطيه السياق: يقولون ما لبثتم في الدنيا قبل الحشر إلا عشرة أيام، يستقلون لبثهم فيها بقياسه إلى ما يلوح لهم من حكم الخلود والأبدية.

٣. ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً﴾ أي لنا إحاطة علمية بجميع ما يقولون في تقرير لبثهم إذ يقول أمثلهم طريقة أي الأقرب منهم إلى الصدق إن لبثتم في الأرض إلا يوما وإنما كان قائل هذا القول أمثل القوم طريقة وأقربها إلى الصدق لأن اللبث المحدود الأرضي لا مقدار له إذا قيس من اللبث الأبدي الخالد، وعده يوما وهو أقل من العشرة أقرب إلى الواقع من عده عشرة، والقول مع ذلك نسبي غير حقيقي وحقيقة القول فيه ما حكاه سبحانه في قوله: ﴿وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦]، وسيجيء استيفاء البحث في معنى هذا اللبث في تفسير الآية إن شاء الله تعالى.

٣٨. مصير الجبال يوم القيامة:

المقطع [٣٨] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢١٠»:

١. ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلا أَمْتاً﴾ تدل الآية على أنهم سألوه ﷺ عن حال الجبال يوم القيامة فأجيب عنه بالآيات.

٢. ﴿فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً﴾ أي يذروها ويثيرها فلا يبقى منها في مستقرها شيء، وقوله: ﴿فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً﴾ القاع الأرض المستوية والصفصف الأرض المستوية الملساء، والمعنى فيتركها أرضا مستوية ملساء لا شيء عليها، وكأن الضمير للأرض باعتبار أنها كانت جبالا، وقوله: ﴿لا تَرى فِيها عِوَجاً وَلا أَمْتاً﴾ قيل: العوج ما انخفض من الأرض والأمت ما ارتفع منها، والخطاب للنبي ﷺ والمراد كل من له أن يرى والمعنى لا يرى راء فيها منخفضا كالأودية ولا مرتفعا كالروابي والتلال.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: قيل إن رجلا من ثقيف سأل النبي ﷺ: كيف تكون الجبال مع عظمها يوم القيامة؟ فقال: إن الله يسوقها بأن يجعلها كالرمال، ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها.

• أقول: وروى هذا المعنى في الدر المنثور، عن ابن المنذر عن ابن جريح ولفظه: قالت قريش: يا محمد كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة؟ فنزلت: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ﴾ الآية

ب. وفي تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿لا تَرى فِيها عِوَجاً وَلا أَمْتاً﴾ قال: الأمت: الارتفاع، والعوج: الحزون والذكوات.

٣٩. اتباع الناس للداعي وخشوع الأصوات وعدم نفع الشفاعة:

المقطع [٣٩] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١٠٨-١١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢١١»:

١. ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً﴾:

أ. نفي العوج إن كان متعلقا بالاتباع، بأن يكون ﴿لا عِوَجَ لَهُ﴾ حالا عن ضمير الجمع وعامله يتبعون، فمعناه أن ليس لهم إذا دعوا إلا الاتباع محضا من غير أي توقف أو استنكاف أو تثبط أو مساهلة فيه لأن ذلك كله فرع القدرة والاستطاعة أو توهم الإنسان ذلك لنفسه وهم يعاينون اليوم أن الملك والقدرة لله سبحانه لا شريك له قال تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وقال: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾ [البقرة: ١٦٥]

ب. وإن كان متعلقا بالداعي كان معناه أن الداعي لا يدع أحدا إلا دعاه من غير أن يهمل أحدا بسهو أو نسيان أو مساهلة في الدعوة.

ج. لكن تعقيب الجملة بقوله: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ﴾ يناسب المعنى الأول فإن ارتفاع الأصوات عند الدعوة والإحضار إنما يكون للتمرد والاستكبار عن الطاعة والاتباع.

٢. ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً﴾ قال الراغب: (الهمس الصوت الخفي وهمس الأقدام أخفى ما يكون من صوتها قال تعالى: ﴿فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً﴾)، والخطاب في قوله: ﴿فَلا تَسْمَعُ﴾ للنبي ﷺ والمراد كل سامع يسمع والمعنى وانخفضت الأصوات لاستغراقهم في المذلة والمسكنة لله فلا يسمع السامع إلا صوتا خفيا.

٣. ﴿يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ نفي نفع الشفاعة كناية عن أن القضاء بالعدل والحكم الفصل على حسب الوعد والوعيد الإلهيين جار نافذ يومئذ من غير أن يسقط جرم

مجرم أو يغمض عن معصية عاص لمانع يمنع منه فمعنى نفع الشفاعة تأثيرها.

٤. ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾:

أ. الاستثناء يدل على أن العناية في الكلام متعلقة بنفي الشفعاء لا بتأثير الشفاعة في المشفوع لهم والمراد الإذن في الكلام للشفاعة كما يبينه قوله بعده: ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ فإن التكلم يومئذ منوط بإذنه تعالى، قال: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود: ١٠٥] وقال: ﴿لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقالَ صَواباً﴾ [النبأ: ٣٨]، وقد مر القول في معنى الإذن في التكلم في تفسير سورة هود في الجزء العاشر من الكتاب.

ب. وأما كون القول مرضيا فمعناه أن لا يخالطه ما يسخط الله من خطإ أو خطيئة قضاء لحق الإطلاق ولا يكون ذلك إلا ممن أخلص الله سريرته من الخطإ في الاعتقاد والخطيئة في العمل وطهر نفسه من رجس الشرك والجهل في الدنيا أو من ألحقه بهم فإن البلاء والابتلاء اليوم مع السرائر قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ﴾ وللبحث ذيل طويل سيمر بك بعضه إن شاء الله تعالى.

٥. ﴿يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾:

أ. إن كان ضمائر الجمع في الآية راجعة إلى ﴿مَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ باعتبار معناه كان المراد أن مرضي قولهم لا يخفى على الله فإن علمه محيط بهم وهم لا يحيطون به علما فليس في وسعهم أن يغروه بقول مزوق غير مرضي.

ب. وإن كانت راجعة إلى المجرمين فالآية تصف علمه تعالى بهم في موقف الجزاء وهو ما بين أيديهم وقبل أن يحضروا الموقف في الدنيا حيا أو ميتا وهو ما خلفهم فهم محاطون لعلمه ولا يحيطون به علما فيجزيهم بما فعلوا وقد عنت وجوههم للحي القيوم فلا يستطيعون ردا لحكمه وعند ذلك خيبتهم، وهذا الاحتمال أنسب لسياق الآيات.

٦. أحاديث وآثار: في الكافي، أحمد بن إدريس عن محمد بن عبد الجبار عن صفوان بن يحيى قال: سألني أبو قرة المحدث أن أدخله إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام، فاستأذنته في ذلك فأذن لي فدخل عليه، فسأله عن الحلال والحرام والأحكام، حتى بلغ سؤاله إلى التوحيد، فقال أبو قرة: إنا روينا أن الله قسم الرؤية والكلام بين نبيين، فقسم الكلام لموسى ولمحمد الرؤية، فقال أبو الحسن عليه السلام: فمن المبلغ

عن الله إلى الثقلين من الجن والإنس ﴿لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ﴾ ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾؟ أليس محمد؟ قال بلى، قال: كيف يجيء رجل إلى الخلق جميعا، فيخبرهم أنه جاء من عند الله، وأنه يدعوهم إلى الله بأمر الله فيقول: ﴿لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ﴾ ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ثم يقول: أنا رأيته بعيني وأحطت به علما، وهو على صورة البشر؟ أما تستحيون، ما قدرت الزنادقة أن ترميه بهذا أن يكون يأتي من عند الله بشيء، ثم يأتي بخلافه من وجه آخر، إلى قوله: وقد قال الله: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ فإذا رأته الأبصار، فقد أحاط به العلم ووقعت المعرفة، فقال أبو قرة: فتكذب بالروايات؟ فقال أبو الحسن عليه السلام إذا كانت الروايات مخالفة للقرآن كذبتها، وما أجمع المسلمون عليه أنه لا يحاط به علما، ولا تدركه الأبصار وليس كمثله شيء.

٤٠. خضوع الوجوه للحي القيوم وخيبة من حمل ظلماً:

المقطع [٤٠] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢١٣»:

١. ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾:

أ. العنوة هي الذلة قبال قهر القاهر وهي شأن كل شيء دون الله سبحانه يوم القيامة بظهور السلطنة الإلهية كما قال: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهَّ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، فلا يملك شيء شيئا بحقيقة معنى الكلمة وهو الذلة والمسكنة على الإطلاق وإنما نسبت العنوة إلى الوجوه لأنها أول ما تبدو وتظهر في الوجوه، ولازم هذه العنوة أن لا يمنع حكمه ولا نفوذه فيهم مانع ولا يحول بينه وبين ما أراد بهم حائل.

ب. واختير من أسمائه الحي القيوم لأن مورد الكلام الأموات أحيوا ثانيا وقد تقطعت عنهم الأسباب اليوم والمناسب لهذا الظرف من صفاته حياته المطلقة وقيامه بكل أمر.

٢. ﴿وَقَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً﴾ بيان لجزائهم أما قوله: ﴿وَقَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾ فالمراد بهم المجرمون غير المؤمنين فلهم الخيبة بسوء الجزاء لا كل من حمل ظلما ما أي ظلم كان من مؤمن أو كافر فإن المؤمن لا يخيب يومئذ بالشفاعة، ولو كان المراد العموم وأن كل من حمل ظلما ما فهو خائب فالمراد بالخيبة الخيبة من السعادة التي يضادها ذلك الظلم دون الخيبة من السعادة مطلقا.

٤١. أمان الصالحين من الظلم والهضم:

المقطع [٤١] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢١٣»:

١. وأما قوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فهو بيان استطرادي لحال المؤمنين الصلحاء جيء به لاستيفاء الأقسام وتتميم القول في الفريقين الصلحاء والمجرمين، وقد قيد العمل الصالح بالإيمان لأن الكفر يحبط العمل الصالح بمقتضى آيات الحبط، والهضم هو النقص، ومعنى الآية ظاهر.

٢. وقد تم باختتام هذه الآية بيان إجمال ما يجري عليهم يوم الجزاء من حين يبعثون إلى أن يجزوا بأعمالهم فقد ذكر إحضارهم بقوله: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ أولا ثم حشرهم وقرب ذلك منهم حتى أنه يرى أمثلهم طريقة أنهم لبثوا في الأرض يوما واحدا بقوله: ﴿يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ ثانيا، ثم تسطيح الأرض لاجتماعهم عليها بقوله: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ﴾، ثالثا، ثم طاعتهم واتباعهم الداعي للحضور بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ﴾، رابعا، ثم عدم تأثير الشفاعة لإسقاط الجزاء بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ﴾ خامسا، ثم إحاطة علمهم بحالهم من غير عكس وهي مقدمة للحساب والجزاء بقوله: ﴿يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ﴾ سادسا، ثم سلطانه عليهم وذلتهم عنده ونفوذ حكمه فيهم بقوله: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ سابعا، ثم الجزاء بقوله: ﴿وَقَدْ خابَ﴾ ثامنا، وبهذا يظهر وجه ترتب الآيات وذكر ما ذكر فيها.

٤٢. إنزال القرآن عربياً للوعيد والتذكير:

المقطع [٤٢] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [طه: ١١٣-١١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢١٣»:

١. ﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾ ظاهر سياقها أن الإشارة بكذلك إلى خصوصيات بيان الآيات، و﴿قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾ حال من الضمير في ﴿أَنْزَلْناهُ﴾ والتصريف، هو التحويل من حال إلى حال، والمعنى وعلى ذلك النحو من البيان المعجز أنزلنا الكتاب

والحال أنه قرآن مقرو عربي وأتينا فيه ببعض ما أوعدناهم في صورة بعد صورة،، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢١٣»

٢. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾ قد أورد فيما تقدم من قوله: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى﴾ الذكر مقابلا للخشية ويستأنس منه أن المراد بالاتقاء هاهنا هو التحرز من المعاداة واللجاج الذي هو لازم الخشية باحتمال الضرر دون الاتقاء المترتب على الإيمان بإتيان الطاعات واجتناب المعاصي، ويكون المراد بإحداث الذكر لهم حصول التذكر فيهم وتتم المقابلة بين الذكر والتقوى من غير تكلف، والمعنى، والله أعلم، لعلهم يتحرزون المعاداة مع الحق لحصول الخشية في قلوبهم باحتمال الخطر لاحتمال كونه حقا أو يحدث لهم ذكرا للحق فيعتقدوا به.

٣. ﴿فَتَعالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾:

أ. تسبيح وتنزيه له عن كل ما لا يليق بساحة قدسه، وهو يقبل التفرع على إنزال القرآن وتصريف الوعيد فيه لهداية الناس والتفرع عليه وعلى ما ذكر قبله من حديث الحشر والجزاء وهذا هو الأنسب نظرا إلى انسلاك الجميع في سلك واحد وهو أنه تعالى ملك يتصرف في ملكه بهداية الناس إلى ما فيه صلاح أمرهم ثم إحضارهم وجزائهم على ما عملوا من خير أو شر.

ب. فتعالى الله الذي يملك كل شيء ملكا مطلقا لا مانع من تصرفه ولا معقب لحكمه يرسل الرسل وينزل الكتب لهداية الناس وهو من شئون ملكه ثم يبعثهم بعد موتهم ويحضرهم فيجزيهم على ما عملوا وقد عنوا للحي القيوم وهذا أيضا من شئون ملكه فهو الملك في الأولى والآخرة وهو الحق الثابت على ما كان لا يزول عما هو عليه.

ج. ويمكن أن يتفرع على جميع ما تقدم من قصة موسى وما فرع عليها إلى هنا ويكون بمنزلة ختم ذلك بالتسبيح والاستعظام.

٤٣. النهي عن العجلة بالقرآن قبل إتمام الوحي والدعاء بزيادة العلم:

المقطع [٤٣] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢١٤»:

١. ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾:

أ. السياق يشهد بأن في الكلام تعرضا لتلقي النبي ﷺ وحي القرآن، فضمير ﴿وَحْيُهُ﴾ للقرآن، وقوله: ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾ نهي عن العجل بقراءته، ومعنى قوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ من قبل أن يتم وحيه من ملك الوحي.

ب. فيفيد أن النبي ﷺ كان إذا جاءه الوحي بالقرآن يعجل بقراءة ما يوحى إليه قبل أن يتم الوحي فنهى عن أن يعجل في قراءته قبل انقضاء الوحي وتمامه فيكون الآية في معنى قوله تعالى في موضع آخر: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٨]

ج. ويؤيد هذا المعنى قوله بعد: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ فإن سياق قوله: لا تعجل به وقل رب زدني، يفيد أن المراد هو الاستبدال أي بدل الاستعجال في قراءة ما لم ينزل بعد، طلبك زيادة العلم ويئول المعنى إلى أنك تعجل بقراءة ما لم ينزل بعد لأن عندك علما به في الجملة لكن لا تكتف به واطلب من الله علما جديدا بالصبر واستماع بقية الوحي.

د. وهذه الآية مما يؤيد ما ورد من الروايات أن للقرآن نزولا دفعة واحدة غير نزوله نجوما على النبي ﷺ فلو لا علم ما منه بالقرآن قبل ذلك لم يكن لعجله بقراءة ما لم ينزل منه بعد معنى.

هـ. وقيل: المراد بالآية ولا تعجل بقراءة القرآن لأصحابك وإملائه عليهم من قبل أن يتبين لك معانيه، وأنت خبير بأن لفظ الآية لا تعلق له بهذا المعنى.

و. وقيل: المراد ولا تسأل إنزال القرآن قبل أن يقضي الله وحيه إليك، وهو كسابقه غير منطبق على لفظ الآية.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾ الآية، قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه القرآن، بادر بقراءته قبل تمام نزول الآية، والمعنى: فأنزل الله ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أي يفرغ من قراءته ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾

• أقول: وروى هذا المعنى في الدر المنثور، عن ابن أبي حاتم عن السدي: إلا أن فيه أنه ﷺ كان يفعل ذلك خوفا من النسيان وأنت تعلم أن نسيان الوحي لا يلائم عصمة النبوة.

ب. أخرج الفاريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن الحسن قال: لطم رجل

امرأته فجاءت إلى النبي ﷺ تطلب قصاصا، فجعل النبي ﷺ بينهما القصاص، فأنزل الله ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾، فوقف النبي ﷺ حتى نزلت ﴿الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ﴾ الآية.

• أقول: والحديث لا يخلو من شيء فلا الآية الأولى بمضمونها تنطبق على المورد ولا الثانية، وقد سبق البحث عن كليهما.

ج. وفي المجمع: روت عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: إذا أتى علي يوم لا أزداد فيه علما يقربني إلى الله، فلا بارك الله لي في طلوع شمسه.

• أقول: والحديث لا يخلو من شيء وكيف يظن بالنبي ﷺ أن يدعو على نفسه في أمر ليس إليه، ولعل في الرواية تحريفا من جهة النقل بالمعنى.

٤٤. العهد إلى آدم ونسيانه وعدم عزمه:

المقطع [٤٤] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢١٨»:

١. ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾:

أ. المراد بالعهد الوصية وبهذا المعنى يطلق على الفرامين والدساتير العهود، والنسيان معروف وربما يكنى به عن الترك لأنه لازمه إذ الشيء إذا نسي ترك، والعزم القصد الجازم إلى الشيء قال تعالى: ﴿فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وربما أطلق على الصبر ولعله لكون الصبر أمرا شاقا على النفوس فيحتاج إلى قصد أرسخ وأثبت فسمي الصبر باسم لازمه قال تعالى: ﴿إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾

ب. فالمعنى وأقسم لقد وصينا آدم من قبل فترك الوصية ولم نجد له قصدا جازما إلى حفظها أو صبرا عليها والعهد المذكور، على ما يظهر من قصته عليه السلام في مواضع من كلامه تعالى، هو النهي عن أكل الشجرة، بمثل قوله: ﴿لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، [الأعراف: ١٩]

٢. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ قال: فيما نهاه عنه من أكل الشجرة.

ب. وفي تفسير العياشي، عن جميل بن دراج عن بعض أصحابنا عن أحدهما عليهماالسلام قال: سألته كيف أخذ الله آدم بالنسيان؟ فقال: إنه لم ينس وكيف ينسى وهو يذكره ويقول له إبليس: ﴿ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ، إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ﴾

• أقول: وهذا قول من قال في الآية بأن النسيان بمعناه الحقيقي وأن آدم نسي النهي عند الأكل حقيقة ولم يكن له عزم على المعصية أصلا، رد عليه السلام ذلك بمخالفة الكتاب، وبه يظهر ضعف ما رواه في روضة الكافي بإسناده عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى عهد إلى آدم أن لا يقرب هذه الشجرة، فلما بلغ الوقت الذي كان في علم الله أن يأكل منها، نسي فأكل منها، وهو قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾

• وهذا القول منسوب إلى ابن عباس والأصل فيه ما رواه في الدر المنثور، عن الزبير بن بكار في الموفقيات عن ابن عباس قال: سألت عمر بن الخطاب عن قول الله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ قال: كان رجال من المهاجرين في أنسابهم شيء فقالوا يوما: والله لوددنا أن الله أنزل قرآنا في نسبنا، فأنزل الله ما قرأت، ثم قال لي: إن صاحبكم هذا، يعني علي بن أبي طالب إن ولي زهد، ولكني أخشى عجب نفسه أن يذهب به، قلت: يا أمير المؤمنين إن صاحبنا من قد علمت والله ما نقول: إنه غير ولا عدل ولا أسخط رسول الله ﷺ أيام صحبته، فقال: ولا في بنت أبي جهل وهو يريد أن يخطبها على فاطمة؟ قلت: قال الله في معصية آدم عليه السلام: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ وصاحبنا لم يعزم على إسخاط رسول الله ﷺ، ولكن الخواطر التي لم يقدر أحد على دفعها عن نفسه، وربما كانت من الفقيه في دين الله العالم بأمر الله، فإذا نبه عليها رجع وأناب فقال: يا ابن عباس من ظن أنه يرد بحوركم، فيغوص فيها معكم حتى يبلغ قعرها فقد ظن عجزا، فقد بنى حجته على كون المراد بالعزم العزم على المعصية ولازمه كون المراد بالنسيان معناه الحقيقي، فآدم لم يذكر العهد حين الأكل ولا عزم على المعصية فلم يعص ربه، وقد تقدم أنه مخالف لقوله: ﴿قالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ﴾ على أن الآية بالمعنى الذي ذكره لا تناسب سياق الآيات السابقة عليها ولا اللاحقة، ومن الحري أن يجل ابن عباس وهو هو عن أن ينسب إليه هذا القول.

• وأما ما وقع في الحديث من سخط رسول الله ﷺ على علي عليه السلام في إرادته خطبة بنت أبي

جهل على فاطمة عليه السلام فإشارة إلى ما في صحيح البخاري، وصحيح مسلم، بعدة طرق عن المسور بن مخرمة ولفظ بعضها: أن علي بن أبي طالب خطب بنت أبي جهل، وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فلما سمعت بذلك فاطمة أتت النبي ﷺ فقالت له: إن قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علي ناكحا ابنة أبي جهل، قال المسور: فقام النبي ﷺ فسمعته حين تشهد، ثم قال: أما بعد فإني أنكحت أبا العاص بن الربيع، فحدثني فصدقني وأن فاطمة مضغة مني، وإنما أكره أن يفتنوها، وإنها والله لا تجتمع بنت رسول الله، وبنت عدو الله عند رجل واحد أبدا، قال: فترك علي الخطبة.

• والإمعان في التأمل فيما يتضمنه الحديث يوجب سوء الظن به فإن فيه طعنا صريحا في النبي ﷺ فلو كان ما يتضمنه حقا كانت السخطة منه ﷺ نزعة جاهلية من غير مجوز يجوزها له فبما ذا كان يسخط عليه؟ أبقوله تعالى: ﴿فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ﴾ الآية، وهو عام لم ينسخ ولم يخصص بآية أخرى خاصة بها؟ أم بشيء من السنة يخصص الآية بفاطمة عليه السلام ويشرع فيها خاصة حكما شخصيا بالتحريم فلم يثبت ولم يبلغ قبل ذلك، وفي لفظ الحديث دلالة على ذلك أم أن نفس هذا القول بيان وتبليغ فلم يبين ولم يبلغ قبل ذلك ولا بأس بمخالفة الحكم قبل بلوغه ولا معصية فيها، فما معنى سخطه ﷺ على من لم يأت بمعصية ولا عزم عليها، وساحته ﷺ منزهة من هذه الشيم الجاهلية، وكأن بعض رواة الحديث أراد به الطعن في علي عليه السلام فطعن في النبي ﷺ من حيث لا يشعر.

• على أنه يناقض الروايات القطعية الدالة على نزاهة ساحة علي عليه السلام من المعصية كخبر الثقلين وخبر المنزلة وخبر علي مع الحق والحق مع علي، إلى غير ذلك.

ج. وفي الكافي، والعلل، مسندا عن جابر بن يزيد عن أبي جعفر عليه السلام: في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ، فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ قال: عهد إليه في محمد والأئمة من ولده فترك، ولم يكن له عزم فيهم أنه هكذا، وإنما سموا أولي العزم لأنهم عهد إليهم في محمد، والأوصياء من بعده والمهدي وسيرته، فأجمع عزمهم أن ذلك كذلك والإقرار به.

• أقول: والرواية ملخصة من حديث مفصل رواه في الكافي، عن محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد عن داود العجلي عن زرارة عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام يذكر فيه بدء خلق الإنسان ثم إشهاد الناس على أنفسهم في عالم الذر وأخذ الميثاق من آدم عليه السلام ومن أولي العزم من الرسل بالربوبية

والنبوة والولاية وإقرار أولي العزم على ذلك وتوقف آدم عليه السلام وعدم عزمه على الإقرار وإن لم يجحد ثم تطبيق قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ﴾ الآية، عليه.

• والمعنى المذكور في الرواية من بطن القرآن أرجع فيه الأحكام إلى حقيقتها والعهود إلى تأويلها وهو الولاية الإلهية، وليس من تفسير لفظ الآية في شيء، والدليل على أنه ليس بتفسير أن الآيات، وهي اثنتا عشرة آية، تقص قصة واحدة ولو حملت الآية الأولى على هذا المعنى تفسيرا لم يبق في الآيات ما يدل على النهي عن أكل الشجرة وهو ركن القصة عليه يعتمد الباقي، ولا يغني عنه قوله: ﴿فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ﴾، وهو ظاهر، ولم يذكر النهي المذكور في سورة متقدمة نزولا على هذه السورة حتى يحال إليه وسورتا الأعراف والبقرة المذكور فيهما النهي المذكور متأخرتان نزولا عن هذه السورة كما سيجيء الإشارة إليه إن شاء الله.

• وبالجملة فهو من البطن دون التفسير وإن ورد في بعض الروايات في صورة التفسير كرواية جابر السابقة ولعله مما اشتبه على بعض رواة الحديث فأورده على هذه الصورة وقد بلغ الأمر في بعض الروايات إلى أن جعل ما ذكره الإمام من المعنى جزءا من الآية فصارت من أخبار التحريف كما في المناقب، عن الباقر عليه السلام: وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ كلمات في محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين، والأئمة من ذريتهم) كذا نزلت على محمد ﷺ.

• ونظير هذه الروايات روايات أخر وقع فيها تطبيق قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ﴾ ﴿عَنْ ذِكْرِي﴾ على ولاية أهل البيت عليه السلام وهي من روايات الجري دون التفسير كما توهم.

٤٥. أمر الملائكة بالسجود لآدم وإباء إبليس وتحذير آدم من عداوته:

المقطع [٤٥] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى﴾ [طه: ١١٦-١١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢١٩»:

١. ﴿وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى﴾ معطوف على مقدر والتقدير اذكر عهدنا إليه واذكر وقتا أمرنا الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس حتى يظهر أنه نسي ولم يعزم على حفظ الوصية، وقوله: ﴿أَبى﴾ جواب سؤال مقدر تقديره ما ذا فعل إبليس؟ فقيل: أبى.

٢. ﴿فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى﴾ تفريع على إباء إبليس عن السجدة أي فلما أبى قلنا إرشادا لآدم إلى ما فيه صلاح أمره ونصحا: إن هذا الآبي عن السجدة، إبليس، عدو لك ولزوجك.

٣. ﴿فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ﴾ توجيه نهي إبليس عن إخراجهما من الجنة إلى آدم كناية عن نهيه عن طاعته أو عن الغفلة عن كيده والاستهانة بمكره أي لا تطعه أو لا تغفل عن كيده وتسويله حتى يتسلط عليكما ويقوى على إخراجكما من الجنة وإشقائكما.

٤. وقد ذكر الإمام الرازي في تفسيره وجوها لسبب عداوة إبليس لآدم وزوجه وهي وجوه سخيفة لا فائدة في الإطناب بنقلها، والحق أن السبب فيها هو طرده من حضرة القرب ورجمه وجعل اللعن عليه إلى يوم القيامة كما يظهر من قوله لعنه الله على ما حكاه الله: ﴿قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]، وقوله: ﴿قالَ أَرَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٢]، ومعلوم أن تكريم آدم عليه هو تكريم نوع الإنسان عليه كما أن أمره بالسجدة له كان أمرا بالسجدة لنوع الإنسان فأصل السبب هو تقدم الإنسان وتأخر الشيطان ثم الطرد واللعن.

٥. ﴿فَتَشْقى﴾:

أ. تفريع على خروجهما من الجنة والمراد بالشقاء التعب أي فتتعب إن خرجتما من الجنة وعشتما في غيرها وهو الأرض عيشة أرضية لتهاجم الحوائج وسعيك في رفعها كالحاجة إلى الطعام والشراب واللباس والمسكن وغيرها.

ب. والدليل على أن المراد بالشقاء التعب الآيتان التاليتان المشيرتان إلى تفسيره: (﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَلا تَعْرى وَأَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَلا تَضْحى﴾

ج. وهو أيضا دليل على أن النهي إرشادي ليس في مخالفته إلا الوقوع في المفسدة المترتبة على نفس الفعل وهو تعب السعي في رفع حوائج الحياة واكتساب ما يعاش به وليس بمولوي تكون نفس مخالفته مفسدة يقع فيها العبد وتستتبع مؤاخذة أخروية.

د. على أنك عرفت أنه عهد قبل تشريع أصل الدين الواقع عند الأمر بالخروج من الجنة والهبوط

إلى الأرض.

هـ. وأما إفراد قوله: ﴿فَتَشْقى﴾ ولم يقل فتشقيا بصيغة التثنية فلأن العهد إنما نزل على آدم عليه السلام وكان التكليم متوجها إليه، ولذلك جيء بصيغة الإفراد في جميع ما يرجع إليه كقوله: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ ﴿فَتَشْقى﴾ ﴿أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَلا تَعْرى﴾ ﴿لا تَظْمَؤُا فِيها وَلا تَضْحى﴾ ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ﴾ ﴿وَعَصى﴾ ﴿ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ﴾ نعم جيء بلفظ التثنية فيما لا غنى عنه كقوله: ﴿عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما﴾ ﴿فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما﴾ ﴿وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما﴾ ﴿قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ فتدبر فيه.

و. وقيل إن إفراد: ﴿فَتَشْقى﴾ من جهة أن نفقة المرأة على المرء ولذا نسب الشقاء وهو التعب في اكتساب المعاش إلى آدم وفيه، أن الآيتين التاليتين لا تلائمان ذلك ولو كان كما قال لقيل: إن لكما أن لا تجوعا إلخ، وقيل: إن الإفراد لرعاية الفواصل وهو كما ترى.

٤٦. نعيم الجنة لآدم أمان:

المقطع [٤٦] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [طه: ١١٨-١١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٢٢»:

أ. يقال: ضحى يضحى كسعى يسعى ضحوا وضحيا إذا أصابته الشمس أو برز لها وكأن المراد بعدم الضحو أن ليس هناك أثر من حرارة الشمس حتى تمس الحاجة إلى الاكتنان في مسكن يقي من الحر والبرد.

ب. وقد رتبت الأمور الأربعة على نحو اللف والنشر المرتب لرعاية الفواصل والأصل في الترتيب أن لا تجوع فيها ولا تظمأ ولا تعرى ولا تضحى.

٤٧. وسوسة الشيطان لآدم بالأكل من الشجرة وتوبته واجتباء ربه له:

المقطع [٤٧] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢٠-١٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٢٢»:

١. ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلى﴾:

أ. الشيطان هو الشرير لقب به إبليس لشرارته، والمراد بشجرة الخلد الشجرة المنهية والبلى صيرورة الشيء خلقا خلاف الجديد.

ب. والمراد بشجرة الخلد شجرة يعطي أكلها خلود الحياة، والمراد بملك لا يبلى سلطنة لا تتأثر عن مرور الدهور واصطكاك المزاحمات والموانع فيئول المعنى إلى نحو قولنا هل أدلك على شجرة ترزق بأكل ثمرتها حياة خالدة وملكا دائما فليس قوله: ﴿لا يَبْلى﴾ تكرارا لإفادة التأكيد كما قيل.

ج. والدليل على ما ذكره ما في سورة الأعراف في هذا المعنى من قوله: ﴿ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ﴾) [الأعراف: ٢٠] ولا منافاة بين جمع خلود الحياة ودوام الملك هاهنا بواو الجمع وبين الترديد بينهما في سورة الأعراف لإمكان أن يكون الترديد هناك لمنع الخلو لا لمنع الجمع، أو يكون الجمع هاهنا باعتبار الاتصاف بهما جميعا والترديد هناك باعتبار تعلق النهي كأنه قيل: إن في هذه الشجرة صفتين وإنما نهاكما ربكما عنها إما لهذه، أو لهذه أو إنما نهاكما ربكما عنها أن لا تخلدا في الجنة مع ملك خالد أو أن لا تخلدا بناء على أن الملك الخالد يستلزم حياة خالدة فافهم ذلك وكيف كان فلا منافاة بين الترديد في آية والجمع في أخرى.

٢. ﴿فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ تقدم تفسيره في سورة الأعراف.

٣. ﴿وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى﴾:

أ. الغي خلاف الرشد الذي هو بمعنى إصابة الواقع وهو غير الضلال الذي هو الخروج من الطريق، والهدى يقابلهما ويكون بمعنى الإرشاد إذا قابل الغي كما في الآية التالية وبمعنى إراءة الطريق، أو الإيصال إلى المطلوب بتركيب الطريق إذا قابل الضلال فليس من المرضي تفسير الغي في الآية بمعنى الضلال.

ب. ومعصية آدم، ربه كما أشرنا إليه آنفا وقد تقدم تفصيله، إنما هي معصية أمر إرشادي لا مولوي والأنبياء عليهم‌السلام معصومون من المعصية والمخالفة في أمر يرجع إلى الدين الذي يوحى إليهم من جهة تلقيه فلا يخطئون، ومن جهة حفظه فلا ينسون ولا يحرفون، ومن جهة إلقائه إلى الناس وتبليغه لهم

قولا فلا يقولون إلا الحق الذي أوحي إليهم وفعلا فلا يخالف فعلهم قولهم ولا يقترفون معصية صغيرة ولا كبيرة لأن في الفعل تبليغا كالقول، وأما المعصية بمعنى مخالفة الأمر الإرشادي الذي لا داعي فيه إلا إحراز المأمور خيرا أو منفعة من خيرات حياته ومنافعها بانتخاب الطريق الأصلح كما يأمر وينهى المشير الناصح نصحا فإطاعته ومعصيته خارجتان من مجرى أدلة العصمة وهو ظاهر.

ج. وليكن هذا معنى قول القائل إن الأنبياء عليهمالسلام على عصمتهم يجوز لهم ترك الأولى ومنه أكل آدم عليه السلام من الشجرة والآية من معارك الآراء وقد اختلفت فيها التفاسير على حسب اختلاف مذاهبهم في عصمة الأنبياء وكل يجر النار إلى قرصته.

٤. ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدى﴾:

أ. الاجتباء، كما تقدم مرارا، بمعنى الجمع على طريق الاصطفاء ففيه جمعه تعالى عبده لنفسه لا يشاركه فيه أحد وجعله من المخلصين بفتح اللام، وعلى هذا المعنى يتفرع عليه قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدى﴾، كأنه كان ذا أجزاء متفرقة متشتتة فجمعها من هنا وهناك إلى مكان واحد ثم تاب عليه ورجع إليه وهداه وسلك به إلى نفسه.

ب. وإنما فسرنا قوله: ﴿هَدى﴾ وهو مطلق بهدايته إلى نفسه بقرينة الاجتباء، ولا ينافي مع ذلك إطلاق الهداية لأن الهداية إليه تعالى أصل كل هداية ومحتدها، نعم يجب تقييد الهداية بما يكون في أمر الدين من اعتقاد حق وعمل صالح، والدليل عليه تفريع الهداية في الآية على الاجتباء، فافهم ذلك.

ج. وعلى هذا فلا يرد على ما قدمنا أن ظاهر وقوع هذه الهداية بعد ذكر تلك الغواية أن يكون نوع تلك الغواية مرفوعا عنه وإذ كانت غواية في أمر إرشادي فالآية تدل على إعطاء العصمة له في موارد الأمر المولوية والإرشادية جميعا وصونه عن الخطإ في أمر الدين والدنيا معا.

د. ووجه عدم الورود أن ظاهر تفرع الهداية على الاجتباء كونه مهديا إلى ما كان الاجتباء له والاجتباء إنما يتعلق بما فيه السعادة الدينية وهو قصر العبودية في الله سبحانه فالهداية أيضا متعلقة بذلك وهي الهداية التي لا واسطة فيها بينه تعالى وبين العبد المهدي ولا تتخلف أصلا كما قال: ﴿فَإِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، والهداية إلى منافع الحياة أيضا وإن كانت راجعة إليه تعالى لكنها مما تتخلل الأسباب فيها بينها وبينه تعالى والأسباب ربما تخلفت، فافهم ذلك.

٤٨. الهبوط من الجنة والعداوة بين بني آدم ووعد الله بالهداية لمن اتبعه:

المقطع [٤٨] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٣ـ١٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٢٣»:

١. ﴿قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ تقدم تفسير مثله في سورتي البقرة والأعراف، وفي قوله: ﴿قالَ اهْبِطا﴾ التفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة والإفراد ولعل الوجه فيه اشتمال الآية على القضاء والحكم وهو مما يختص به تعالى قال: ﴿وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ [غافر: ٢٠]، وقال: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِّ﴾ [يوسف: ٦٧]

٢. ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى﴾:

أ. في الآية قضاء منه تعالى متفرع على الهبوط ولذا عطف بفاء التفريع، وأصل قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ فإن يأتكم زيد عليه ما ونون التأكيد للإشارة إلى وقوع الشرط كأنه قيل: إن يأتكم مني هدى، وهو لا محالة آت، فمن اتبع.

ب. وفي قوله: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ﴾ نسبة الاتباع إلى الهدى على طريق الاستعارة بالكناية، وأصله: من اتبع الهادي الذي يهدي بهداي.

٣. ﴿فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى﴾ أي لا يضل في طريقه ولا يشقى في غايته التي هي عاقبة أمره، وإطلاق الضلال والشقاء يقضي بنفي الضلال والشقاء عنه في الدنيا والآخرة جميعا وهو كذلك فإن الهدى الإلهي هو الدين الفطري الذي دعا إليه بلسان أنبيائه، ودين الفطرة هو مجموع الاعتقادات والأعمال التي تدعو إليها فطرة الإنسان وخلقته بحسب ما جهز به من الجهازات، ومن المعلوم أن سعادة كل شيء هو ما تستدعيه خلقته بما لها من التجهيز لا سعادة له وراءه، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]

٤. ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى﴾:

أ. قال الراغب: (العيش الحياة المختصة بالحيوان وهو أخص من الحياة لأن الحياة يقال في الحيوان وفي الباري تعالى وفي الملك ويشتق منه المعيشة لما يتعيش منه، قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي

الْحَيَاةِ الدُّنْيا﴾ ﴿مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾)، والضنك هو الضيق من كل شيء ويستوي فيه المذكر والمؤنث، يقال: مكان ضنك ومعيشة ضنك وهو في الأصل مصدر ضنك يضنك من باب شرف يشرف أي ضاق.

ب. ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ يقابل قوله في الآية السابقة: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ﴾ وكان مقتضى المقابلة أن يقال: (ومن لم يتبع هداي) وإنما عدل عنه إلى ذكر الإعراض عن الذكر ليشير به إلى علة الحكم لأن نسيانه تعالى والإعراض عن ذكره هو السبب لضنك العيش والعمى يوم القيامة، وليكون توطئة وتمهيدا لما سيذكر من نسيانه تعالى يوم القيامة من نسيه في الدنيا.

ج. والمراد بذكره تعالى أما المعنى المصدري فقوله: ﴿ذِكْرِي﴾ من إضافة المصدر إلى مفعوله أو القرآن أو مطلق الكتب السماوية كما يؤيده قوله الآتي: ﴿أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها﴾ أو الدعوة الحقة وتسميتها ذكرا لأن لازم اتباعها والأخذ بها ذكره تعالى.

٥. ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾:

أ. أي ضيقة وذلك أن من نسي ربه وانقطع عن ذكره لم يبق له إلا أن يتعلق بالدنيا ويجعلها مطلوبه الوحيد الذي يسعى له ويهتم بإصلاح معيشته والتوسع فيها والتمتع منها، والمعيشة التي أوتيها لا تسعه سواء كانت قليلة أو كثيرة لأنه كلما حصل منها واقتناها لم يرض نفسه بها وانتزعت إلى تحصيل ما هو أزيد وأوسع من غير أن يقف منها على حد فهو دائما في ضيق صدر وحنق مما وجد متعلق القلب بما وراءه مع ما يهجم عليه من الهم والغم والحزن والقلق والاضطراب والخوف بنزول النوازل وعروض العوارض من موت ومرض وعاهة وحسد حاسد وكيد كائد وخيبة سعي وفراق حبيب.

ب. ولو أنه عرف مقام ربه ذاكرا غير ناس أيقن أن له حياة عند ربه لا يخالطها موت وملكا لا يعتريه زوال وعزة لا يشوبها ذلة وفرحا وسرورا ورفعة وكرامة لا تقدر بقدر ولا تنتهي إلى أمد وأن الدنيا دار مجاز وما حياتها في الآخرة إلا متاع فلو عرف ذلك قنعت نفسه بما قدر له من الدنيا ووسعه ما أوتيه من المعيشة من غير ضيق وضنك.

ج. وقيل: المراد بالمعيشة الضنك عذاب القبر وشقاء الحياة البرزخية بناء على أن كثيرا من المعرضين عن ذكر الله ربما نالوا من المعيشة أوسعها وألقت إليهم أمور الدنيا بأزمتها فهم في عيشة وسيعة سعيدة.

• وفيه أنه مبني على مقايسة معيشة الغني من معيشة الفقير بالنظر إلى نفس المعيشتين والإمكانات

التي فيهما ولا يتعلق نظر القرآن بهما من هذه الجهة البتة، وإنما تبحث الآيات فيهما بمقايسة المعيشة المضافة إلى المؤمن وهو مسلح بذكر الله والإيمان به من المعيشة المضافة إلى الكافر الناسي لربه المتعلق النفس بالحياة الدنيا الأعزل من الإيمان ولا ريب أن للمؤمن حياة حرة سعيدة يسعه ما أكرمه ربه به من معيشة وإن كانت بالعفاف والكفاف أو دون ذلك، وليس للمعرض عن ذكر ربه إلا عدم الرضا بما وجد والتعلق بما وراءه.

• نعم عذاب القبر من مصاديق المعيشة الضنك بناء على كون قوله: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ متعرضا لبيان حالهم في الدنيا وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى﴾ لبيان حالهم في الآخرة والبرزخ من أذناب الدنيا.

د. وقيل: المراد بالمعيشة الضنك عذاب النار يوم القيامة، وبقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُ﴾ إلخ، ما قبل دخول النار.

• وفيه أن إطلاق قوله: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ ثم تقييد قوله: ﴿وَنَحْشُرُهُ﴾ بيوم القيامة لا يلائمه وهو ظاهر.

• نعم لو أخذ أول الآية مطلقا يشمل معيشة الدنيا والآخرة جميعا وآخرها لتقيده بيوم القيامة مختصا بالآخرة كان له وجه.

٦. أحاديث وآثار:

أ. هناك روايات وقع فيها تطبيق قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ﴾ ﴿عَنْ ذِكْرِي﴾ على ولاية أهل البيت عليه السلام وهي من روايات الجري دون التفسير كما توهم.

ب. أخرج ابن أبي شيبة والطبراني وأبو نعيم في الحلية وابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: من اتبع كتاب الله، هداه الله من الضلالة في الدنيا ووقاه سوء الحساب يوم القيامة، وذلك أن الله يقول: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ﴾ ﴿فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى﴾

• أقول: الحديث ينزل قوله تعالى: ﴿فَلا يَضِلُّ﴾ على الدنيا وقوله: ﴿وَلا يَشْقى﴾ على الآخرة فيؤيد ما تقدم في تفسير الآية.

ج. وفي المجمع: في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾: وقيل: هو عذاب القبر: عن ابن مسعود وأبي سعيد الخدري والسدي، ورواه أبو هريرة مرفوعاً.

٤٩. حشر المعرض عن ذكر الله أعمى ومواجهته بالنسيان والعذاب الأشد:

المقطع [٤٩] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٢٤-١٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٢٦»:

١. ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ أي بحيث لا يهتدي إلى ما فيه سعادته وهو الجنة والدليل على ذلك ما يأتي في الآيتين التاليتين.

٢. ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً﴾:

أ. يسبق إلى الذهن أن عمى يوم القيامة يتعلق ببصر الحس فإن الذي يسأل عنه هو ذهاب البصر الذي كان له في الدنيا وهو بصر الحس دون بصر القلب الذي هو البصيرة، فيشكل عليه ظاهر ما دل على أن المجرمين يبصرون يوم القيامة أهوال اليوم وآيات العظمة والقهر كقوله تعالى: ﴿إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ [السجدة: ١٢]، وقوله: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ [الإسراء: ١٤]، ولذلك ذكر بعضهم أنهم يحشرون أولا مبصرين ثم يعمون، وبعضهم أنهم يحشرون مبصرين ثم عميا ثم مبصرين.

ب. وهذا قياس أمور الآخرة وأحوالها بما لها من نظير في الدنيا وهو قياس مع الفارق فإن من الظاهر المسلم من الكتاب والسنة أن النظام الحاكم في الآخرة غير النظام الحاكم في الدنيا الذي نألفه من الطبيعة وكون البصير مبصرا لكل مبصر والأعمى غير مدرك لكل ما من شأنه أن يرى كما هو المشهود في النظام الدنيوي لا دليل على عمومه للنظام الأخروي فمن الجائز أن يتبعض الأمر هناك فيكون المجرم أعمى لا يبصر ما فيه سعادة حياته وفلاحه وفوزه بالكرامة وهو يشاهد ما يتم به الحجة عليه وما يفزعه من أهوال القيامة وما يشتد به العذاب عليه من النار وغيرها، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]

٣. ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾:

أ. الآية جواب سؤال السائل: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً﴾ والإشارة في قوله: ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ﴾ إلى حشره أعمى المذكور في السؤال، وفي قوله: ﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ﴾ إلى معنى قوله: ﴿أَتَتْكَ

آياتُنا فَنَسِيتَها﴾ والمعنى قال: كما حشرناك أعمى أتتك آياتنا فنسيتها وكما أتتك آياتنا فنسيتها ننساك اليوم أي إن حشرك اليوم أعمى وتركك لا تبصر شيئا مثل تركك آياتنا في الدنيا كما يترك الشيء المنسي وعدم اهتدائك بها مثل تركنا لك اليوم وعدم هدايتك بجعلك بصيرا تهتدي إلى النجاة، وبعبارة أخرى إنما جازيناك في هذا اليوم بمثل ما فعلت في الدنيا كما قال تعالى: ﴿وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها﴾ [الشورى: ٤٠]

ب. وقد سمى الله سبحانه معصية المجرمين وهم المعرضون عن ذكره التاركون لهداه نسيانا لآياته، ومجازاتهم بالإعماء يوم القيامة نسيانا منه لهم وانعطف بذلك آخر الكلام إلى أوله وهو معصية آدم التي سماها نسيانا لعهده إذ قال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ فكأن قصة جنة آدم بما لها من الخصوصيات كانت مثالا من قبل يمثل به ما سيجري على بنيه من بعده إلى يوم القيامة فيمثل بنهيه عن اقتراب الشجرة الدعوة الدينية والهدى الإلهي بعده، وبمعصيته التي كانت نسيانا للعهد معاصي بنيه التي هي نسيان لذكره تعالى وآياته المذكرة، وإنما الفرق أن ابتلاء آدم كان قبل تشريع الشرائع فكان النهي المتوجه إليه إرشاديا وما ابتلي به من المخالفة من قبيل ترك الأولى بخلاف الأمر في بنيه.

٤. ﴿وَكَذلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآياتِ رَبِّهِ وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقى﴾ الإسراف التجاوز عن الحد والظاهر أن الواو في قوله: ﴿وَكَذلِكَ﴾ للاستيناف، والإشارة إلى ما تقدم من مؤاخذة من أعرض عن ذكر الله ونسي آيات ربه فإنه تجاوز منه عن حد العبودية وكفر بآيات ربه فجزاؤه جزاء من نسي آيات ربه وتركها بعد ما عهد إليه معرضا عن ذكره.

٥. ﴿وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقى﴾ أي من عذاب الدنيا وذلك لكونه محيطا بباطن الإنسان كظاهره ولكونه دائما لا يزول.

٦. أحاديث وآثار: في الكافي، بإسناده عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: من مات وهو صحيح موسر، لم يحج فهو ممن قال الله عز وجل: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى﴾ قال: قلت: سبحان الله أعمى؟ قال: نعم أعماه الله عن طريق الحق.

• أقول: وروى مثله القمي في تفسيره مسندا عن معاوية بن عمار والصدوق في من لا يحضره الفقيه، مرسلا عنه عن أبي عبد الله عليه السلام، والرواية في تخصيصها عمى يوم القيامة بطريق الحق وهو طريق النجاة والسعادة تؤيد ما تقدم في تفسير الآية.

٥٠. الاعتبار بإهلاك القرون السابقة والمسير في مساكنهم:

المقطع [٥٠] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ [طه: ١٢٨-١٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٣٢»:

١. ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ﴾، الظاهر أن ﴿يَهْدِ﴾ مضمن معنى يبين، والمعنى أفلم يبين لهم طريق الاعتبار والإيمان بالآيات كثرة إهلاكنا القرون التي كانوا قبلهم وهم يمشون في مساكنهم كما كانت تمر أهل مكة في أسفارهم بمساكن عاد بأحقاف اليمن ومساكن ثمود وأصحاب الأيكة بالشام ومساكن قوم لوط بفلسطين ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى﴾ أي أرباب العقول.

٢. ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ مقتضى السياق السابق أن يكون ﴿لِزاماً﴾ بمعنى الملازمة وهما مصدرا لازم يلازم، والمراد بالمصدر معنى اسم الفاعل وعلى هذا فاسم كان هو الضمير الراجع إلى الهلاك المذكور في الآية السابقة، وأن قوله: ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ معطوف على ﴿كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾ والتقدير ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان الهلاك ملازما لهم إذ أسرفوا ولم يؤمنوا بآيات ربهم، واحتمل بعضهم أن يكون لزام اسم آلة كحزام وركاب وآخرون أن يكون جمع لازم كقيام جمع قائم والمعنيان لا يلائمان السياق كثيرا.

٣. ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾:

أ. تكررت هذه الكلمة منه سبحانه في حق بني إسرائيل وغيرهم في مواضع من كلامه كقوله: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ١٩] [هود: ١١٠] [فصلت: ٤٥]، وقد غياها بالأجل المسمى في قوله: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤]، وقد تقدم في تفسير سورتي يونس وهود أن المراد بها الكلمة التي قضي بها عند إهباط آدم إلى الأرض بمثل قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤]

ب. فالناس آمنون من الهلاك وعذاب الاستئصال على إسرافهم وكفرهم ما بين استقرارهم في الأرض وأجلهم المسمى إلا أن يجيئهم رسول فيقضي بينهم، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ

رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧] وإليه يرجع عذاب الاستئصال عن الآيات المقترحة إذا لم يؤمن بها بعد ما جاءت وهذه الأمة حالهم حال سائر الأمم في الأمن من عذاب الاستئصال بوعد سابق من الله، وأما القضاء بينهم وبين النبي ﷺ فقد أخره الله إلى أمد كما تقدم استفادته من قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾ الآية من سورة يونس.

ج. واحتمل بعضهم أن يكون المراد بالكلمة وعدا خاصا بهذه الأمة بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة وقد مر في تفسير سورة يونس أن ظاهر الآيات خلافه نعم يدل كلامه تعالى على تأخيره إلى أمد كما تقدم.

د. ونظيره في الفساد قول الآخرين إن المراد بالكلمة قضاء عذاب أهل بدر منهم بالسيف والأجل المسمى لباقي كفار مكة وهو كما ترى.

٤. ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾:

أ. قد تقدم في تفسير أول سورة الأنعام أن الأجل المسمى هو الأجل المعين بالتسمية الذي لا يتخطى ولا يتخلف كما قال تعالى: ﴿ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الحجر: ٥]، وذكر بعضهم أن المراد بالأجل المسمى يوم القيامة، وقال آخرون إن الأجل المسمى هو الكلمة التي سبقت من الله فيكون عطف الأجل على الكلمة من عطف التفسير، ولا معول على القولين لعدم الدليل.

ب. فمحصل معنى الآية أنه لولا أن الكلمة التي سبقت من ربك، وفي إضافة الرب إلى ضمير الخطاب إعزاز وتأييد للنبي ﷺ، تقضي بتأخير عذابهم والأجل المسمى يعين وقته في ظرف التأخير لكان الهلاك ملازما لهم بمجرد الإسراف والكفر.

ج. ومن هنا يظهر أن مجموع الكلمة التي سبقت والأجل المسمى سبب واحد تام لتأخير العذاب عنهم لا أن كل واحد منهما سبب مستقل في ذلك كما اختاره كثير منهم.

٥١. أمر النبي بالصبر على أذى الكفار والتسبيح في الأوقات المختلفة:

المقطع [٥١] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٣٤»:

١. ﴿فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها﴾، يأمره بالصبر على ما يقولون ويفرعه على ما تقدم كأنه قيل: إذا كان من قضاء الله أن يؤخر عذابهم ولا يعاجلهم بالانتقام على ما يقولون فلا يبقى لك إلا أن تصبر راضيا على ما قضاه الله من الأمر وتنزهه عما يقولونه من كلمة الشرك ويواجهونك به من السوء، وتحمده على ما تواجهه من آثار قضائه فليس إلا الجميل فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك لعلك ترضى.

٢. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي نزهه متلبسا بحمده والثناء عليه فإن هذه الحوادث التي يشق تحملها والصبر عليها لها نسبة إلى فواعلها وليست إلا سيئة يجب تنزيهه تعالى عنها ولها نسبة بالإذن إليه تعالى وهي بهذه النسبة جميلة لا يترتب عليها إلا مصالح عامة يصلح بها النظام الكوني ينبغي أن يحمد الله ويثني عليه بها.

٣. ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها﴾ ظرفان متعلقان بقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾

٤. ﴿وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ الجملة نظيرة قوله: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، والآناء على أفعال جمع إني أو إنو بكسر الهمزة بمعنى الوقت و﴿مِنْ﴾ للتبعيض والجار والمجرور متعلق بقوله: ﴿فَسَبِّحْ﴾ دال على ظرف في معناه متعلق بالفعل والتقدير وبعض آناء الليل سبح فيها.

٥. ﴿وَأَطْرافَ النَّهارِ﴾ منصوب بنزع الخافض على ما ذكروا معطوف على قوله: ﴿وَمِنْ آناءِ﴾ والتقدير وسبح في أطراف النهار وهل المراد بأطراف النهار ما قبل طلوع الشمس وما قبل غروبها، أو غير ذلك؟ اختلفت فيه كلمات المفسرين وسنشير إليه.

٦. وما ذكر في الآية من التسبيح مطلق لا دلالة فيها من جهة اللفظ على أن المراد به الفرائض اليومية من الصلوات وإليه مال بعض المفسرين لكن أصر أكثرهم على أن المراد بالتسبيح الصلاة:

أ. تبعا لما روي عن بعض القدماء كقتادة وغيره، قالوا: إن مجموع الآية يدل على الأمر بالصلوات الخمس اليومية فقوله: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ صلاة الصبح، وقوله: ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِها﴾ صلاة العصر وقوله: ﴿وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ﴾ صلاتا المغرب والعشاء، وقوله: ﴿وَأَطْرافَ النَّهارِ﴾ صلاة الظهر.

ب. ومعنى كونها في أطراف النهار مع أنها في منتصفه بعد الزوال أنه لو نصف النهار حصل نصفان: الأول والأخير وصلاة الظهر في الجزء الأول من النصف الثاني فهي في طرف النصف الأول لأن

آخر النصف الأول ينتهي إلى جزء يتصل بوقتها، وفي طرف النصف الثاني لأنه يبتدئ من جزء هو وقتها فوقتها على وحدته طرف للنصف الأول باعتبار وطرف للنصف الثاني باعتبار فهو طرفان اثنان اعتبارا.

ج. وأما إطلاق الأطراف، بصيغة الجمع، على وقتها وإنما هو طرفان اعتبارا فباعتبار أن الجمع قد يطلق على الاثنين وإن كان الأشهر الأعرف كون أقل الجمع في اللغة العربية ثلاثة، وقيل: المراد بالنهار الجنس فهو في نهر لكل فرد منها طرفان فيكون أطرافا، وقد طال البحث بينهم حول التوجيه اعتراضا وجوابا، لكن الإنصاف أن أصل التوجيه تعسف بعيد من الفهم فالذوق السليم، بعد اللتيا والتي، يأبى أن يسمي وسط النهار أطراف النهار بفروض واعتبارات وهمية لا موجب لها في مقام التخاطب من أصلها ولا أمرا يرتضيه الذوق ولا يستبشعه.

د. وأما من قال: إن المراد بالتسبيح والتحميد غير الفرائض من مطلق التسبيح والحمد إما بتذكر تنزيهه والثناء عليه تعالى قلبا وإما بقول مثل سبحان الله والحمد لله لسانا`أو الأعم من القلب واللسان فقالوا: المراد بما قبل طلوع الشمس وما قبل غروبها وآناء الليل الصبح والعصر وأوقات الليل وأطراف النهار الصبح والعصر.

هـ. وأما لزوم إطلاق الأطراف وهو جمع على الصبح والعصر وهما اثنان فقد أجابوا عنه بمثل ما تقدم في القول السابق من اعتبار أقل الجمع اثنين، وأما لزوم التكرار بذكر تسبيح الصبح والعصر مرتين فقد التزم به بعضهم قائلا إن ذلك للتأكيد وإظهار مزيد العناية بالتسبيح في الوقتين، ويظهر من بعضهم أن المراد بالأطراف الصبح والعصر ووسط النهار.

و. وأنت خبير بأنه يرد عليه نظير ما يرد على الوجه السابق بتفاوت يسير، والإشكال كله ناش من ناحية قوله: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهارِ﴾ من جهة انطباقه على وسط النهار أو الصبح والعصر.

ز. والذي يمكن أن يقال إن قوله: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهارِ﴾ مفعول معه وليس بظرف بتقدير في وإن لم يذكره المفسرون على ما أذكر، والمراد بأطراف النهار ما قبل طلوع الشمس وما قبل غروبها بالنظر إلى كونهما وقتين ذوي سعة لكل منهما أجزاء كل جزء منها طرف بالنسبة إلى وسط النهار فيصح أن يسميا أطراف النهار كما يصح أن يسميا طرفي النهار وذلك كما يسمى ما قبل طلوع الشمس أول النهار باعتبار وحدته وأوائل النهار باعتبار تجزيه إلى أجزاء، ويسمى ما قبل غروبها آخر النهار، وأواخر النهار.

ح. فيئول معنى الآية إلى مثل قولنا: (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وهي أطراف النهار، وبعض أوقات الليل سبح فيها مع أطراف النهار التي أمرت بالتسبيح فيها.

ط. سؤال وإشكال: فإن قلت: كيف يستقيم كون ﴿أَطْرافَ النَّهارِ﴾ مفعولا معه وهو ظرف للتسبيح بتقدير في نظير ظرفية ﴿آناءِ اللَّيْلِ﴾ له؟ والجواب:

• آناء الليل ليس ظرفا بلفظه كيف؟ وهو مدخول من ولا معنى لتقدير في معه وإنما يدل به على الظرف، ومعنى ﴿وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ وبعض آناء الليل سبح فيه، فليكن ﴿وَأَطْرافَ النَّهارِ﴾ كذلك، والمعنى مع أطراف النهار التي تسبح فيها والظرف في كلا الجانبين مدلول عليه مقدر، هذا.

• فلو قلنا: إن المراد بالتسبيح في الآية غير الصلوات المفروضة كان المراد التسبيح في أجزاء من أول النهار وأجزاء من آخره وأجزاء من الليل بمعية أجزاء أول النهار وآخره ولم يلزم محذور التكرار ولا محذور إطلاق لفظ الجمع على ما دون الثلاثة، وهو ظاهر.

• ولو قلنا إن المراد بالتسبيح في الآية الفرائض اليومية كانت الآية متضمنة للأمر بصلاة الصبح وصلاة العصر وصلاتي المغرب والعشاء فحسب نظير الأمر في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤]، ولعل التعبير عن الوقتين في الآية المبحوث عنها بأطراف النهار للإشارة إلى سعة الوقتين.

٧. ولا ضير في اشتمال الآية على أربع من الصلوات الخمس اليومية فإن السورة، كما سنشير إليه، من أوائل السور النازلة بمكة وقد دلت الأخبار المستفيضة التي رواها العامة والخاصة أن الفرائض اليومية إنما شرعت خمسا في المعراج كما ذكرت في سورة الإسراء النازلة بعد المعراج خمسا في قوله: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، فلعل التي شرعت من الفرائض اليومية حين نزول سورة طه وكذا سورة هود، وهما قبل سورة الإسراء نزولا، كانت هي الأربع ولم تكن شرعت صلاة الظهر بعد بل هو ظاهر الآيتين: آية طه وآية هود، ومعلوم أنه لا يرد على هذا الوجه ما كان يرد على القول بكون المراد بالتسبيح الصلوات الخمس وانطباق أطراف النهار على وقت صلاة الظهر وهو وسط النهار، هذا.

٨. ﴿لَعَلَّكَ تَرْضى﴾:

أ. السياق السابق وقد ذكر فيه إعراضهم عن ذكر ربهم ونسيانهم آياته وإسرافهم في أمرهم وعدم إيمانهم ثم ذكر تأخير الانتقام منهم وأمره بالصبر والتسبيح والتحميد يقضي أن يكون المراد بالرضا الرضا بقضاء الله وقدره، والمعنى: فاصبر وسبح بحمد ربك ليحصل لك الرضا بما قضى الله سبحانه فيعود إلى مثل معنى قوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾

ب. والوجه فيه أن تكرار ذكره تعالى بتنزيه فعله عن النقص والشين وذكره بالثناء الجميل والمداومة على ذلك يوجب أنس النفس به وزيادته وزيادة الأنس بجمال فعله ونزاهته توجب رسوخه فيها وظهوره في نظرها وزوال الخطورات المشوشة للإدراك والفكر، والنفس مجبولة على الرضا بما تحبه ولا تحب غير الجميل المنزه عن القبح والشين فإدامة ذكره بالتسبيح والتحميد تورث الرضا بقضائه.

ج. وقيل: المراد لعلك ترضى بالشفاعة والدرجة الرفيعة عند الله، وقيل: لعلك ترضى بجميع ما وعدك الله به من النصر وإعزاز الدين في الدنيا والشفاعة والجنة في الآخرة.

٩. أحاديث وآثار:

أ. أخرج الطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن جرير عن النبي ﷺ: في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ قال: قبل طلوع الشمس صلاة الصبح، وقبل غروبها صلاة العصر.

ب. وفي تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرافَ النَّهارِ﴾ قال: بالغداة والعشي.

• أقول: وهو يؤيد ما قدمناه.

ج. وفي الكافي، بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: ﴿وَأَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى﴾؟ قال: يعني تطوع بالنهار.

• أقول: وهو مبني على تفسير التسبيح بمطلق الصلاة أو بمطلق التسبيح.

٥٢. النهي عن مد العين إلى متاع الدنيا الزائل:

المقطع [٥٢] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٣٨»:

١. ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾، مد العين مد نظرها وإطالته ففيه مجاز عقلي ثم مد النظر وإطالته إلى شيء كناية عن التعلق به وحبه والمراد بالأزواج، كما قيل، الأصناف من الكفار أو الأزواج من النساء والرجال منهم ويرجع إلى البيوتات وتنكير الأزواج للتقليل وإظهار أنهم لا يعبأ بهم.

٢. ﴿زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ بمنزلة التفسير لقوله: ﴿ما مَتَّعْنا بِهِ﴾ وهو منصوب بفعل مقدر والتقدير نعني به، أو جعلنا لهم، زهرة الحياة الدنيا وهي زينتها وبهجتها، والفتنة الامتحان والاختبار، وقيل: المراد بها العذاب لأن كثرة الأموال والأولاد نوع عذاب من الله لهم كما قال: ﴿وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥]

٣. ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقى﴾ المراد به بقرينة مقابلته لما متعوا به من زهرة الحياة الدنيا هو رزق الآخرة وهو خير وأبقى، والمعنى: لا تطل النظر إلى زينة الحياة الدنيا وبهجتها التي متعنا بها أصنافا أو أزواجا معدودة منهم لنمتحنهم فيما متعنا به، والذي سيرزقك ربك في الآخرة خير وأبقى.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآية: قال أبو عبد الله عليه السلام: لما نزلت هذه الآية استوى رسول الله ﷺ جالسا، ثم قال: من لم يتعز بعزاء الله، تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، ومن اتبع بصره ما في أيدي الناس طال همه، ولم يشف غيظه، ومن لم يعرف أن لله عليه نعمة، لا في مطعم ولا في مشرب قصر أجله ودنا عذابه.

ب. أخرج ابن أبي شيبة وابن راهويه والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والخرائطي في مكارم الأخلاق وأبو نعيم في المعرفة عن أبي رافع قال: أضاف النبي ﷺ ضيفا ولم يكن عند النبي ﷺ ما يصلحه، فأرسلني إلى رجل من اليهود أن بعنا، أو أسلفنا دقيقا إلى هلال رجب فقال لا إلا برهن، فأتيت النبي ﷺ فقال: أما والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض، ولو أسلفني أو باعني لأديت إليه، أذهب بدرعي الحديد فلم أخرج من عنده، حتى نزلت هذه الآية ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ﴾ كأنه يعزيه عن الدنيا.

• أقول: ومضمون الآية وخاصة ذيلها لا يلائم القصة.

٥٣. الأمر بالصلاة والصبر عليها والوعد بالرزق والعاقبة للمتقين:

المقطع [٥٣] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٣٩»:

١. ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْها لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى﴾:

أ. الآية ذات سياق يلتئم بسياق سائر آيات السورة فهي مكية كسائرها على أنا لم نظفر بمن يستثنيها ويعدها مدنية، وعلى هذا فالمراد بقوله: ﴿أَهْلَكَ﴾ بحسب انطباقه على وقت النزول خديجة زوج النبي ﷺ وعلي عليه السلام وكان من أهله وفي بيته أو هما وبعض بنات النبي ﷺ.

ب. فقول بعضهم: إن المراد به أزواجه وبناته وصهره علي، وقول آخرين: المراد به أزواجه وبناته وأقرباؤه من بني هاشم والمطلب، وقول آخرين: جميع متبعيه من أمته غير سديد، نعم لا بأس بالقول الأول من حيث جري الآية وانطباقها لا من حيث مورد النزول فإن الآية مكية ولم يكن له ﷺ بمكة من الأزواج غير خديجة عليه السلام.

٢. ﴿لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ ظاهر المقابلة بين الجملتين أن المراد سؤاله تعالى الرزق لنفسه وهو كناية عن أنا في غنى منك وأنت المحتاج المفتقر إلينا فيكون في معنى قوله: ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ، ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ، إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨]، وأيضا هو من جهة تذييله بقوله: ﴿وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى﴾ في معنى قوله: ﴿لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، فتفسيرهم سؤال الرزق بسؤال الرزق للخلق أو لنفس النبي ﷺ ليس بسديد.

٣. ﴿وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى﴾ تقدم البحث فيه كرارا.

٤. ولا يبعد أن يستفاد من الآية من جهة قصر الأمر بالصلاة في أهله مع ما في الآيتين السابقتين من أمره ﷺ في نفسه بالصلوات الأربع اليومية والصبر والنهي عن أن يمد عينيه فيما متع به الكفار أن السورة نزلت في أوائل البعثة أو خصوص الآية، وفيما روي عن ابن مسعود أن سورة طه من العتاق الأول.

٥. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن مردويه وابن عساكر وابن النجار عن أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ

بِالصَّلاةِ﴾ كان النبي ﷺ يجيء إلى باب علي ثمانية أشهر يقول: الصلاة رحمكم الله، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت، ويطهركم تطهيرا.

• أقول: ورواه في مجمع البيان، عن الخدري وفيه تسعة أشهر مكان ثمانية أشهر، وروى هذا المعنى في العيون، في مجلس الرضا مع المأمون عنه، عليه السلام ورواه القمي أيضا في تفسيره، مرفوعا، والتقييد بتسعة أشهر مبني على ما شاهده الراوي لا على تحديد أصل إتيانه ﷺ والشاهد عليه ما رواه الشيخ في الأمالي، بإسناده عن أبي الحميراء قال: شهدت النبي ﷺ أربعين صباحا، يجيء إلى باب علي وفاطمة فيأخذ بعضادتي الباب، ثم يقول: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، الصلاة يرحمكم الله، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت، ويطهركم تطهيرا.

• وظاهر الرواية كون الآية مدنية ولم يذكر ذلك أحد فيما أذكر ولعل المراد بيان إتيانه ﷺ الباب في المدينة عملا بالآية ولو كانت نازلة بمكة وإن كان بعيدا من اللفظ وفي رواية القمي التي أومأنا إليها ما يؤيد هذا المعنى ففيها: فلم يزل يفعل ذلك كل يوم إذا شهد المدينة حتى فارق الدنيا، وحديث أمره أهل بيته بالصلاة مروي بطرق أخرى أيضا غير ما مرت الإشارة إليه.

ب. أخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن المنذر والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في شعب الإيمان، بسند صحيح عن عبد الله بن سلام قال: كان النبي ﷺ إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق، أمرهم بالصلاة وتلا ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ﴾ الآية.

• أقول: وروى هذا المعنى أيضا عن أحمد في الزهد، وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان، عن ثابت عنه ﷺ، وفيه دلالة على التوسع في معنى التسبيح في الآية.

٥٤. طلب الكفار الآية:

المقطع [٥٤] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ [طه: ١٣٣-١٣٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٤٠»:

١. ﴿وَقالُوا لولا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى﴾:

أ. حكاية قول مشركي مكة وإنما قالوا هذا تعريضا للقرآن أنه ليس بآية دالة على النبوة فليأتنا بآية

كما أرسل الأولون والبينة الشاهد المبين أو البين وقيل هو البيان.

ب. وكيف كان فقوهم: ﴿لَوْلا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ تحضيض بداعي إهانة القرآن وتعجيز النبي ﷺ باقتراح آية معجزة أخرى، وقوله: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ﴾، جواب عنه ومعناه:

• على الوجه الأول من معنيي البينة أولم تأتهم بينة وشاهد يشهد على ما في الصحف الأولى، وهي التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية، من حقائق المعارف والشرائع ويبينها وهو القرآن وقد أتى به رجل لا عهد له بمعلم يعلمه ولا ملقن يلقنه ذلك.

• وعلى الوجه الثاني: أولم يأتهم بيان ما في الصحف الأولى من أخبار الأمم الماضين الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات المعجزة فأتوا بها وكان إتيانها سببا لهلاكهم واستئصالهم لما لم يؤمنوا بها بعد إذ جاءتهم فلم لا ينتهون عن اقتراح آية بعد القرآن؟ ولكل من المعنيين نظير في كلامه تعالى.

٢. ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزى﴾:

أ. الظاهر أن ضمير ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ للبينة، في الآية السابقة، باعتبار أنها القرآن، والمعنى: ولو أنا أهلكناهم لإسرافهم وكفرهم بعذاب من قبل أن تأتيهم البينة لم تتم عليهم الحجة ولكانت الحجة لهم علينا ولقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك وهي التي تدل عليها البينة من قبل أن نذل بعذاب الاستئصال ونخزى.

ب. وقيل الضمير للرسول المعلوم من مضمون الآية السابقة بشهادة قولهم: ﴿لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً﴾ وهو قريب من جهة اللفظ والمعنى الأول من جهة المعنى ويؤيده قوله: ﴿فَنَتَّبِعَ آياتِكَ﴾ ولم يقل فنتبع رسولك.

٥٥. التربص والانتظار لمعرفة أصحاب الصراط المستقيم:

المقطع [٥٥] من سورة طه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدى﴾ [طه: ١٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٤٠»:

١. ﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدى﴾ التربص الانتظار، والصراط السوي الطريق المستقيم.

٢. وقوله: ﴿كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ﴾ أي كل منا ومنكم متربص منتظر فنحن ننتظر ما وعده الله لنا فيكم وفي تقدم دينه وتمام نوره وأنتم تنتظرون بنا الدوائر لتبطلوا الدعوة الحقة وكل منا ومنكم يسلك سبيلا إلى مطلوبه فتربصوا وانتظروا وفيه تهديد فستعلمون أي طائفة منا ومنكم أصحاب الطريق المستقيم الذي يوصله إلى مطلوبه ومن الذين اهتدوا إلى المطلوب وفيه ملحمة وإخبار بالفتح.

سورة الأنبياء

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٥٣] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. غرض السورة الكلام حول النبوة، بانيا ذلك على التوحيد والمعاد، فتفتتح بذكر اقتراب الحساب وغفلة الناس عن ذلك، وإعراضهم عن الدعوة الحقة التي تتضمن الوحي السماوي، فهي ملاك حساب يوم الحساب.

ب. وتنتقل من هناك إلى موضوع النبوة واستهزاء الناس بنبوة النبي ﷺ ورميهم إياه بأنه بشر ساحر، بل ما أتى به أضغاث أحلام، بل مفتر، بل شاعر! فترد ذلك بذكر أوصاف الأنبياء الماضين الكلية إجمالاً، وأن النبي لا يفقد شيئاً مما وجدوه، ولا ما جاء به يغاير شيئاً مما جاءوا به.

ج. ثم تذكر قصص جماعة من الأنبياء تأييداً لما تقدم من الإجمال، وهم: موسى وهارون، وإبراهيم وإسحاق ويعقوب، ولوط، ونوح، وداود وسليمان، وأيوب، وإسماعيل، وإدريس، وذا الكفل، وذا النون، وزكريا ويحيى وعيسى.

د. ثم تتخلص إلى ذكر يوم الحساب وما يلقاه المجرمون والمتقون فيه، وأن العاقبة للمتقين، وأن الأرض يرثها عباده الصالحون.

هـ. ثم تذكر أن إعراضهم عن النبوة إنما هو لإعراضهم عن التوحيد، فتقيم الحجة على ذلك كما تقيمها على النبوة، والغلبة في السورة للوعيد على الوعد، وللإنذار على التبشير.

و. والسورة مكية بلا خلاف فيها، وسياق آياتها يشهد بذلك.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٥] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر اقتراب حساب الناس وهم غافلون، وتهديد المعرضين بالعذاب، وتذكر أن ما في السماوات والأرض ملك لله، وأن الرسل أرسلوا بالحق، وأن من يكفر بها فقد استكبر، وتذكر أنهم لو علموا ما ينتظرهم لتوبوا، وتذكر صراخهم حين نزل بهم العذاب.

٢. الآيات [١٦ ـ ٣٣]:

أ. أول الآيات يوجه عذاب القرى الظالمة بنفي اللعب عن الخلقة، وأن الله لم يله بإيجاد السماء والأرض وما بينهما، حتى يكونوا مخلين بأهوائهم يفعلون ما يشاءون ويلعبون كيفما أرادوا من غير أن يحاسبوا على أعمالهم.

ب. بل إنما خلقوا ليرجعوا إلى ربهم فيحاسبوا فيجازوا على حسب أعمالهم، فهم عباد مسئولون، إن تعدوا عن طور العبودية أوخذوا بما تقتضيه الحكمة الإلهية، وإن الله لبالمرصاد.

ج. وإذ كان هذا البيان بعينه حجة على المعاد، انتقل الكلام إليه وأقيمت الحجة عليه، فيثبت بها المعاد، وفي ضوئه النبوة، لأن النبوة من لوازم وجوب العبودية، وهو من لوازم ثبوت المعاد، فالآيتان الأوليان كالرابط بين السياق المتقدم والمتأخر.

د. والآيات تشتمل على بيان بديع لإثبات المعاد، وقد تعرض فيها لنفي جميع الاحتمالات المنافية للمعاد، كما ستعرف.

٣. الآيات [٣٤ ـ ٤٧]:

أ. من تتمة الكلام حول النبوة، يذكر فيها بعض ما قاله المشركون في النبي ﷺ: كقولهم: سيموت فنتخلص منه ونستريح، وقولهم استهزاءً به: ﴿أَهذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾، وقولهم استهزاءً بالبعث والقيامة التي أنذروا بها: ﴿مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾

ب. وفيها جواب أقاويلهم، وإنذار وتهديد لهم، وتسلية للنبي ﷺ.

٤. الآيات [٤٨ ـ ٧٧]:

أ. لما استوفى الكلام في النبوة بانيا لها على المعاد، عقبه بالإشارة إلى قصص جماعة من أنبيائه الكرام الذين بعثهم إلى الناس وأيدهم بالحكمة والشريعة، وأنجاهم من أيدي ظالمي أممهم.

ب. وفي ذلك تأييد لما مر في الآيات من حجة التشريع، وإنذار وتخويف للمشركين، وبشرى للمؤمنين.

ج. وقد عد فيها من الأنبياء: موسى وهارون، وإبراهيم ولوطاً وإسحاق ويعقوب، ونوحاً، وداود وسليمان، وأيوب، وإسماعيل، وإدريس، وذا الكفل، وذا النون، وزكريا ويحيى وعيسى، سبعة عشر نبياً.

د. وقد ذكر في الآيات المنقولة سبعة منهم، فذكر أولاً موسى وهارون، وعقبهما بإبراهيم وإسحاق

ويعقوب ولوط وهم قبلهما، ثم عقبهم بنوح وهو قبلهم.

٥. الآيات [٧٨ ـ ٩١] تذكر الآيات جماعة آخرين من الأنبياء: وهم داود وسليمان، وأيوب، وإسماعيل، وإدريس، وذا الكفل، وذا النون، وزكريا ويحيى وعيسى عليه السلام، ولم يراع في ذكرهم الترتيب بحسب الزمان، ولا الانتقال من اللاحق إلى السابق كما في الآيات السابقة، وقد أشار سبحانه إلى شيء من نعمه العظام على بعضهم، واكتفى في بعضهم بمجرد ذكر الاسم.

٦. الآيات [٩٢ ـ ١١٢]:

أ. في الآيات رجوع إلى أول الكلام، فقد بين فيما تقدم أن للبشر إلهاً واحداً، وهو الذي فطر السماوات والأرض، فعليهم أن يعبدوه من طريق النبوة وإجابة دعوتها، ويستعدوا بذلك لحساب يوم الحساب.

ب. ولم تندب النبوة إلا إلى دين واحد، وهو دين التوحيد، كما دعا إليه موسى من قبل، ومن قبله إبراهيم، ومن قبله نوح، ومن جاء بعد موسى وقبل نوح ممن أشار الله سبحانه إلى أسمائهم ونبذة مما أنعم به عليهم كأيوب وإدريس وغيرهما.

ج. فالبشر ليس إلا أمة واحدة، لها رب واحد هو الله عز اسمه، ودين واحد هو دين التوحيد، يعبد فيه الله وحده، قطعت به الدعوة الإلهية، لكن الناس تقطعوا أمرهم بينهم وتشتتوا في أديانهم، واختلقوا لهم آلهة دون الله وأدياناً غير دين الله، فاختلف بذلك شأنهم، وتباينت غاية مسيرهم في الدنيا والآخرة.

د. أما في الآخرة، فإن الصالحين منهم سيشكر الله سعيهم ولا يشاهدون ما يسوؤهم، ولن يزالوا في نعمة وكرامة، وأما غيرهم فإلى العذاب والعقاب.

هـ. وأما في الدنيا، فإن الله وعد الصالحين منهم أن يورثهم الأرض، ويجعل لهم عاقبة الدار، والطالحون إلى هلاك ودمار وخسران وسعي وبوار.

١. اقتراب الحساب وغفلة الناس وإعراضهم واستهزاؤهم:

المقطع [١] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنبياء: ١-٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٤٥»:

١. ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾:

أ. الاقتراب افتعال من القرب واقترب وقرب بمعنى واحد غير أن اقترب أبلغ لزيادة بنائه ويدل على مزيد عناية بالقرب، ويتعدى القرب والاقتراب بمن وإلى يقال: قرب أو اقترب زيد من عمرو أو إلى عمرو والأول يدل على أخذ نسبة القرب من عمرو والثاني على أخذها من زيد لأن الأصل في معنى من ابتداء الغاية كما أن الأصل في معنى إلى انتهاؤها.

ب. ومن هنا يظهر أن اللام في ﴿لِلنَّاسِ﴾ بمعنى إلى لا بمعنى (ملأن المناسب للمقام أخذ نسبة الاقتراب من جانب الحساب لأنه الذي يطلب الناس بالاقتراب منهم والناس في غفلة معرضون.

ج. والمراد بالحساب، وهو محاسبة الله سبحانه أعمالهم يوم القيامة، نفس الحساب لا زمانه بنحو التجوز أو بتقدير الزمان وإن أصر بعضهم عليه ووجهه بعض آخر بأن الزمان هو الأصل في القرب والبعد وإنما ينسب القرب والبعد إلى الحوادث الواقعة فيه بتوسطه.

د. وذلك لأن الغرض في المقام متعلق بتذكره نفس الحساب لتعلقه بأعمال الناس إذ كانوا مسئولين عن أعمالهم فكان من الواجب في الحكمة أن ينزل عليهم ذكر من ربهم ينبههم على ما فيه مسئوليتهم، ومن الواجب عليهم أن يستمعوا له مجدين غير لاعبين ولا لاهية قلوبهم نعم لو كان الكلام مسوقا لبيان أهوال الساعة وما أعد من العذاب للمجرمين كان الأنسب التعبير بيوم الحساب أو تقدير الزمان ونحو ذلك.

هـ. والمراد بالناس الجنس وهو المجتمع البشري الذي كان أكثرهم مشركين يومئذ لا المشركون خاصة وإن كان ما ذكر من أوصافهم كالغفلة والإعراض والاستهزاء وغيرها أوصاف المشركين فليس ذلك من نسبة حكم البعض إلى الكل مجازا بل من نسبة حكم المجتمع إلى نفسه حقيقة ثم استثناء البعض الذي لا يتصف بالحكم كما يلوح إليه أمثال قوله: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وقوله: ﴿فَأَنْجَيْناهُمْ وَمَنْ نَشاءُ﴾ على ما هو دأب القرآن في خطاباته الاجتماعية من نسبة الحكم إلى المجتمع ثم استثناء الأفراد غير المتصفة به.

و. وبالجملة فرق بين أخذ المجتمع موضوعا للحكم واستثناء أفراد منه غير متصفة به وبين أخذ أكثر الأفراد موضوع الحكم ثم نسبة حكمه إلى الكل مجازا وما نحن فيه من القبيل الأول دون الثاني.

ز. وقد وجه بعضهم اقتراب الحساب للناس بأن كل يوم يمر على الدنيا تصير أقرب إلى الحساب منها بالأمس، وقيل: الاقتراب إنما هو بعناية كون بعثته ﷺ في آخر الزمان كما قال ﷺ: بعثت أنا والساعة كهاتين، وأما الوجه السابق فإنما يناسب اللفظ الدال على الاستمرار دون الماضي الدال على الفراغ من تحققه ونظيره أيضا توجيهه بأن الاقتراب لتحقق الوقوع فكل ما هو آت قريب.

٢. ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾:

أ. ذلك أنهم تعلقوا بالدنيا واشتغلوا بالتمتع فامتلأت قلوبهم من حبها فلم يبق فيها فراغ يقع فيها ذكر الحساب وقوعا تتأثر به حتى أنهم لو ذكروا لم يذكروا وهو الغفلة فإن الشيء كما يكون مغفولا عنه لعدم تصوره من أصله قد يكون مغفولا عنه لعدم تصوره كما هو حقه بحيث تتأثر النفس به.

ب. وبهذا يظهر الجواب عن الإشكال بأن الجمع بين الغفلة وهي تلازم عدم التنبه للشيء والإعراض وهو يستلزم التنبه له جمع بين المتنافيين، ومحصل الجواب أنهم في غفلة عن الحساب لعدم تصورهم إياه كما هو حقه وهم معرضون عنه لاشتغالهم عن لوازم العلم بخلافها.

ج. وأجاب عنه الزمخشري بما لفظه: وصفهم بالغفلة مع الإعراض على معنى أنهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون في عاقبتهم ولا يتفطنون لما يرجع إليه خاتمة أمرهم مع اقتضاء عقولهم أنه لا بد من جزاء للمحسن والمسيء، وإذا قرعت لهم العصا ونبهوا عن سنة الغفلة وفطنوا لذلك بما يتلى عليهم من الآيات والنذر أعرضوا وسدوا أسماعهم ونفروا)

د. والفرق بينه وبين ما وجهنا به أنه أخذ الإعراض في طول الغفلة لا في عرضه، والإنصاف أن ظاهر الآية اجتماعهما لهم في زمان واحد، لا ترتب الوصفين زمانا.

هـ. ودفع بعضهم الإشكال بأخذ الإعراض بمعنى الاتساع فالمعنى وهم متسعون في غفلة، وآخرون بأخذ الغفلة بمعنى الإهمال ولا تنافي بين الإهمال والإعراض، والوجهان من قبيل الالتزام بما لا يلزم، والمعنى: اقترب للناس حساب أعمالهم والحال أنهم في غفلة مستمرة أو عظيمة معرضون عنه باشتغالهم بشواغل الدنيا وعدم التهيؤ له بالتوبة والإيمان والتقوى.

٣. ﴿ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾:

أ. الآية بمنزلة التعليل لقوله: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ إذ لو لم يكونوا في غفلة معرضين لم يلعبوا

ولم يتلهوا عند استماع الذكر الذي لا ينبههم إلا على ما يهمهم التنبه له ويجب عليهم التهيؤ له، ولذلك جيء بالفصل من غير عطف.

ب. والمراد بالذكر ما يذكر به الله سبحانه من وحي إلهي كالكتب السماوية ومنها القرآن الكريم، والمراد بإتيانه لهم نزوله على النبي وإسماعه وتبليغه، ومحدث بمعنى جديد وهو معنى إضافي وهو وصف ذكر فالقرآن مثلا ذكر جديد أتاهم بعد الإنجيل والإنجيل كان ذكرا جديدا أتاهم بعد التوراة وكذلك بعض سور القرآن وآياته ذكر جديد أتاهم بعد بعض.

٤. ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ﴾:

أ. استثناء مفرغ عن جميع أحوالهم و﴿اسْتَمَعُوهُ﴾ حال و﴿هُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ﴿لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ حالان من ضمير الجمع في ﴿اسْتَمَعُوهُ﴾ فهما حالان متداخلتان.

ب. واللعب فعل منتظم الأجزاء لا غاية له إلا الخيال كلعب الأطفال واللهو اشتغالك عما يهمك يقال: ألهاه كذا أي شغله عما يهمه ولذلك تسمى آلات الطرب آلات اللهو وملاهي، واللهو من صفة القلب ولذلك قال: ﴿لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ فنسبه إلى قلوبهم.

ج. ومعنى الآية: وما يأتيهم، بالنزول والبلوغ، ذكر جديد من ربهم في حال من الأحوال إلا والحال أنهم لاعبون لاهية قلوبهم فاستمعوه فيها أي إن إحداث الذكر وتجديده لا يؤثر فيهم ولا أثرا قليلا ولا يمنعهم عن الاشتغال بلعب الدنيا عما وراءها وهذا كناية عن أن الذكر لا يؤثر فيهم في حال لا أن جديدة لا يؤثر وقديمه يؤثر وهو ظاهر.

د. واستدل بظاهر الآية على كون القرآن محدثا غير قديم، وأولها الأشاعرة بأن توصيف الذكر بالمحدث من جهة نزوله وهو لا ينافي قدمه في نفسه وظاهر الآية عليهم وللكلام تتمة نوردها في بحث مستقل.

٥. وضع هنا مبحثا حول [معنى حدوث الكلام وقدمه]، خلاصته:

أ. الكلام بما هو كلام أمر وضعي اعتباري، لا تحقق له في الخارج من ظرف الدعوى والاعتبار، وإنما المتحقق في الخارج هو الأصوات التي جعلت علائم بالوضع والاعتبار، ولذلك لا يتصف الكلام بشيء من الحدوث والبقاء (لأنها من شئون الحقائق الخارجية)، ولا بالقدم (لأن الكلام مؤلف من حروف

مترتبة متدرجة، والقدم لا يتصور فيه تقدم وتأخر)

ب. الكلام ليس فعلاً ولا صفة للمتكلم حقيقة، لأنه أمر اعتباري، نعم الأصوات المؤلفة هي أفعال خارجية للمتصوت بها، وتعد فعلاً للمتكلم بنوع من التوسع، ثم يؤخذ عن نسبته إلى الفاعل وصف له (وهو التكلم والتكليم)

ج. يمكن تحليل الكلام من جهة غرضه (الكشف عن المعاني المكنونة في الضمير)، فيعود أمراً حقيقياً، وحينئذ فكل معلول كلام لعلته لكشفه بوجوده عن كمالها المكنون، وصفات الشيء الذاتية كلام له يكشف به عن مكنون ذاته.

د. بناء على هذا التحليل، فالقرآن إن أريد به الآيات المتلوة (كلام دال على معانٍ ذهنية) فهو ليس بحادث ولا قديم بحسب الحقيقة، وإن أريد به ما في علم الله من معانيها الحقة فهو قديم بقدم علم الله به، وعلم الله بكل شيء قديم بقدم ذاته.

هـ. البحث عن قدم القرآن وحدوثه لا جدوى فيه، لأن القائل بالقدم إن أراد الأصوات المؤلفة فهو مكابر، وإن أراد علم الله به فلا موجب لعد الكلام صفة ثبوتية أخرى وراء العلم، بل علم الله بكل شيء قديم، ولو صح عد كل ما ينطبق على صفات الله صفة ثبوتية لم ينحصر العدد.

و. ما ورد في القرآن من ﴿كَلَامَ اللَّهِ﴾ ظاهر في المعنى الأول (الكلام اللفظي)، كقوله: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾، وقوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾، وأما القول بالكلام النفسي القائم بالنفس، فإن أريد به معنى الكلام اللفظي أو صورته العلمية، فهو راجع إلى العلم، وإن أريد به معنى آخر فلسنا نعرفه في نفوسنا.

٦. ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾:

أ. الإسرار يقابل الإعلان فإسرار النجوى هو المبالغة في كتمان القول وإخفائه فإن إسرار القول يفيد وحدة معنى النجوى فإضافته إلى النجوى تفيد المبالغة.

ب. وضمير الفاعل في ﴿أَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ راجع إلى الناس غير أنه لما لم يكن الفعل فعلا لجميعهم ولا لأكثرهم فإن فيهم المستضعف ومن لا شغل له به وإن كان منسوبا إلى الكل من جهة ما في مجتمعهم من الغفلة والإعراض أوضح النسبة بقوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فهو عطف بيان دل به على أن النجوى إنما كان في الذين ظلموا منهم خاصة.

٧. ﴿هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾:

أ. هو الذي تناجوا به، وقد كانوا يصرحون بتكذيب النبي ﷺ ويعلنون بأنه بشر وأن القرآن سحر من غير أن يخفوا شيئا من ذلك لكنهم إنما أسروه في نجواهم إذ كان ذلك منهم شورى يستشير بعضهم فيه بعضا ما ذا يقابلون به النبي ﷺ ويجيبون عما يسألهم من الإيمان بالله وبرسالته؟ فما كان يسعهم إلا كتمان ما يذكر فيما بينهم وإن كانوا أعلنوا به بعد الاتفاق على رد الدعوة.

ب. وقد اشتمل نجواهم على قولين قطعوا عليهما أو ردوهما بطريق الاستفهام الإنكاري وهما قوله: ﴿هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ وقد اتخذوه حجة لإبطال نبوته وهو أنه كما تشاهدونه، وقد أتوا باسم الإشارة دون الضمير فقالوا: هل هذا؟ ولم يقولوا: هل هو؟ للدلالة على العلم به بالمشاهدة، بشر مثلكم لا يفارقكم في شيء يختص به فلو كان ما يدعيه من الاتصال بالغيب والارتباط باللاهوت حقا لكان عندكم مثله لأنكم بشر مثله، فإذ ليس عندكم من ذلك نبأ فهو مثلكم لا خبر عنده فليس بنبي كما يدعي.

ج. وقولهم: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ وهو متفرع بفاء التفريع على نفي النبوة بإثبات البشرية فيرجع المعنى إلى أنه لما لم يكن نبيا متصلا بالغيب فالذي أتاكم به مدعيا أنه آية النبوة ليس بآية معجزة من الله بل سحر تعجزون عن مثله، ولا ينبغي لذي بصر سليم أن يذعن بالسحر ويؤمن بالساحر.

٨. ﴿قالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾:

أ. أي أنه تعالى محيط علما بكل قول سرا أو جهرا وفي أي مكان وهو السميع لأقوالكم العليم بأفعالكم فالأمر إليه وليس لي من الأمر شيء.

ب. والآية حكاية قول النبي ﷺ لهم لما أسروا النجوى وقطعوا على تكذيب نبوته ورمي آيته وهو كتابه بالسحر وفيها إرجاع الأمر وإحالته إلى الله سبحانه كما في غالب الموارد التي اقترحوا عليه فيها الآية وكذلك سائر الأنبياء كقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الملك: ٢٦]، وقوله: ﴿قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ [الأحقاف: ٢٣]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [العنكبوت: ٥٠]

٩. أحاديث وآثار:

أ. في الاحتجاج، روي عن صفوان بن يحيى قال: قال أبو الحسن الرضا عليه السلام لأبي قرة

صاحب شبرمة: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان وكل كتاب أنزل، كان كلام الله أنزله للعالمين نورا وهدى، وهي كلها محدثة وهي غير الله حيث يقول: ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾ وقال: ﴿ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ والله أحدث الكتب كلها التي أنزلها، فقال أبو قرة: فهل تفنى؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: أجمع المسلمون على أن ما سوى الله فعل الله، والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان فعل الله، ألم تسمع الناس يقولون: رب القرآن؟ وأن القرآن يقول يوم القيامة: يا رب هذا فلان، وهو أعرف به منه، قد أظمأت نهاره وأسهرت ليله فشفعني فيه؟ وكذلك التوراة والإنجيل والزبور كلها محدثة مربوبة، أحدثها من ليس كمثله شيء لقوم يعقلون، فمن زعم أنهن لم يزلن فقد أظهر أن الله ليس بأول قديم ولا واحد، وأن الكلام لم يزل معه وليس له بدء، الحديث.

ب. وفي تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ قال: من التلهي.

٢. تكذيب الكفار للنبي واتهامهم له وطلبهم الآيات:

المقطع [٢] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٥ـ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٥٢»:

١. ﴿بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾:

أ. تدرج منهم في الرمي والتكذيب، فقولهم: أضغاث أحلام أي تخاليط من رؤي غير منظمة رآها فحسبها نبوة وكتابا فأمره أهون من السحر، وقولهم: ﴿بَلِ افْتَراهُ﴾ ترق من سابقه فإن كونه أضغاث أحلام كان لازمه التباس الأمر واشتباهه عليه لكن الافتراء يستلزم التعمد، وقولهم: ﴿بَلْ هُوَ شاعِرٌ﴾ ترق من سابقه من جهة أخرى فإن المفتري إنما يقول عن ترو وتدبر فيه لكن الشاعر إنما يلفظ ما يتخيله ويروم ما يزينه له إحساسه من غير ترو وتدبر فربما مدح القبيح على قبحه وربما ذم الجميل على جماله وربما أنكر الضروري وربما أصر على الباطل المحض، وربما صدق الكذب أو كذب الصدق.

ب. وقولهم: ﴿فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ الكلام متفرع على ما تقدمه والمراد بالأولين الأنبياء الماضون أي إذا كان هذا الذي أتى به وهو يعده آية وهو القرآن أضغاث أحلام أو افتراء أو شعر فليس يتم بذلك دعواه النبوة ولا يقنعنا ذلك فليأتنا بآية كما أتى الأولون من الآيات مثل الناقة والعصا واليد البيضاء.

ج. وفي قوله: ﴿كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ وكان الظاهر من السياق أن يقال: كما أتى بها الأولون إشارة إلى أن الآية من لوازم الإرسال فلو كان رسولا فليقتد بالأولين فيما احتجوا به على رسالتهم.

د. والمشركون من الوثنيين منكرون للنبوة من رأس فقول هؤلاء: فليأتنا بآية كما أرسل الأولون دليل ظاهر على أنهم متحيرون في أمرهم لا يدرون ما يصنعون؟ فتارة يواجهونه بالتهكم وأخرى يتحكمون وثالثة بما يناقض معتقد أنفسهم فيقترحون آية من آيات الأولين وهم لا يؤمنون برسالتهم ولا يعترفون بآياتهم، وفي قولهم: ﴿فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾، مع ذلك وعد ضمني بالإيمان لو أتى بآية من الآيات المقترحة.

٢. ﴿ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾:

أ. رد وتكذيب لما يشتمل عليه قولهم: ﴿فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ من الوعد الضمني بالإيمان لو أتى بشيء مما اقترحوه من آيات الأولين.

ب. ومحصل المعنى على ما يعطيه السياق أنهم كاذبون في وعدهم ولو أنزلنا شيئا مما اقترحوه من آيات الأولين لم يؤمنوا بها وكان فيها هلاكهم فإن الأولين من أهل القرى اقترحوها فأنزلناها فلم يؤمنوا بها فأهلكناهم، وطباع هؤلاء طباع أوليهم في الإسراف والاستكبار فليسوا بمؤمنين فالآية بوجه مثل قوله: ﴿فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [يونس: ٧٤]

ج. وعلى هذا ففي الآية حذف وإيجاز والتقدير نحو من قولنا: ما آمنت قبلهم أهل قرية اقترحوا الآيات فأنزلناها عليهم وأهلكناهم لما لم يؤمنوا بها بعد النزول أفهم يعني مشركي العرب يؤمنون وهم مثلهم في الإسراف فتوصيف القرية بقوله: ﴿أَهْلَكْناها﴾ توصيف بآخر ما اتصفت بها للدلالة على أن عاقبة إجابة ما اقترحوه هي الهلاك لا غير.

٣. إرسال الرسل وإنجاء المؤمنين وإهلاك المسرفين:

المقطع [٣] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٧-٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٥٣»:

١. ﴿وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلَّا رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾:

أ. جواب عما احتجوا به على نفي نبوته ﷺ بقولهم: ﴿هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾، بأن الماضين من الأنبياء لم يكونوا إلا رجالا من البشر فالبشرية لا تنافي النبوة.

ب. وتوصيف ﴿رِجالاً﴾ بقوله: ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ للإشارة إلى الفرق بين الأنبياء وغيرهم ومحصله أن الفرق الوحيد بين النبي وغيره هو أنا نوحي إلى الأنبياء دون غيرهم والوحي موهبة ومن خاص لا يجب أن يعم كل بشر فيكون إذا تحقق تحقق في الجميع وإذا لم يوجد في واحد لم يوجد في الجميع حتى تحكموا بعدم وجدانه عندكم على عدم وجوده عند النبي ﷺ وذلك كسائر الصفات الخاصة التي لا توجد إلا في الواحد بعد الواحد من البشر مما لا سبيل إلى إنكارها.

ج. فالآية تنحل إلى حجتين تقومان على إبطال استدلالهم ببشريته على نفي نبوته:

• إحداهما: نقض حجتهم بالإشارة إلى رجال من البشر كانوا أنبياء فلا منافاة بين البشرية والنبوة.

• والثانية: من طريق الحل وهو أن الفارق بين النبي وغيره ليس وصفا لا يوجد في البشر أو إذا وجد وجد في الجميع بل هو الوحي الإلهي وهو كرامة ومن خاص من الله يختص به من يشاء فالآية بهذا النظر نظيرة قوله: ﴿قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا﴾ إلى أن قال ـ: ﴿قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ﴾ [إبراهيم: ١١]

٢. ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾:

أ. تأييد وتحكيم لقوله: ﴿وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلَّا رِجالاً﴾ أي إن كنتم تعلمون به فهو وإن لم تعلموا فارجعوا إلى أهل الذكر واسألوهم هل كانت الأنبياء الأولون إلا رجالا من البشر؟

ب. والمراد بالذكر الكتاب السماوي وبأهل الذكر أهل الكتاب فإنهم كانوا يشايعون المشركين في عداوة النبي ﷺ وكان المشركون يعظمونهم وربما شاوروهم في أمره وسألوهم عن مسائل يمتحنونه بها وهم القائلون للمشركين على المسلمين: ﴿هؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ [النساء: ٥١]، والخطاب في قوله: ﴿فَسْئَلُوا﴾ للنبي ﷺ وكل من يقرع سمعه هذا الخطاب عالما كان أو جاهلا وذلك لتأييد القول وهو شائع في الكلام.

٣. ﴿وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَما كانُوا خالِدِينَ﴾ إلى قوله: ﴿الْمُسْرِفِينَ﴾ أي هم

رجال من البشر وما سلبنا عنهم خواص البشرية بأن نجعلهم جسدا خاليا من روح الحياة لا يأكل ولا يشرب ولا عصمناهم من الموت فيكونوا خالدين بل هم بشر ممن خلق يأكلون الطعام وهو خاصة ضرورية ويموتون وهو مثل الأكل.

٤ . ﴿ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْناهُمْ وَمَنْ نَشاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾:

أ. عطف على قوله المتقدم: ﴿وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلَّا رِجالاً﴾ وفيه بيان عاقبة إرسالهم وما انتهى إليه أمر المسرفين من أممهم المقترحين عليهم الآيات، وفيه أيضا توضيح ما أشير إليه من هلاكهم في قوله: ﴿مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها﴾ وتهديد للمشركين.

ب. والمراد بالوعد في قوله: ﴿ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ﴾ ما وعدهم من النصرة لدينهم وإعلاء كلمتهم كلمة الحق كما في قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

٥ . ﴿فَأَنْجَيْناهُمْ وَمَنْ نَشاءُ﴾ أي الرسل والمؤمنين وقد وعدهم النجاة كما يدل عليه قوله: ﴿حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣]، والمسرفون هم المشركون المتعدون طور العبودية، والباقي ظاهر.

٦ . أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ من المعنون بذلك؟ قال: نحن، قلت: فأنتم المسئولون؟ قال: نعم، قلت: ونحن السائلون؟ قال: نعم، قلت: فعلينا أن نسألكم؟ قال: نعم، قلت: فعليكم أن تجيبونا؟ قال: لا، ذاك إلينا إن شئنا فعلنا وإن شئنا تركنا ثم قال: هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب.

• أقول: وروى هذا المعنى الطبرسي في مجمع البيان، عن علي وأبي جعفر عليه السلام قال: ويؤيده أن الله تعالى سمى النبي ﷺ ذكرا رسولا.

• وهو من الجري ضرورة أن الآية ليست بخاصة والذكر إما القرآن أو مطلق الكتب السماوية أو المعارف الإلهية وهم على أي حال أهله وليس بتفسير للآية بحسب مورد النزول إذ لا معنى لإرجاع المشركين إلى أهل الرسول أو أهل القرآن وهم خصماؤهم ولو قبلوا منهم لقبلوا من النبي ﷺ نفسه.

٤ . إنزال الكتاب فيه ذكر الناس ودعوتهم للتعقل:

المقطع [٤] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٥٥»:

١. ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾:

أ. امتنان منه تعالى بإنزال القرآن على هذه الأمة، فالمراد بذكرهم الذكر المختص بهم اللائق بحالهم وهو آخر ما تسعه حوصلة الإنسان من المعارف الحقيقية العالية وأقوم ما يمكن أن يجري في المجتمع البشري من الشريعة الحنيفية والخطاب لجميع الأمة.

ب. وقيل: المراد بالذكر الشرف، والمعنى: فيه شرفكم أن تمسكتم به تذكرون به كما فسر به قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، والخطاب لجميع المؤمنين أو للعرب خاصة لأن القرآن إنما نزل بلغتهم وفيه بعد.

٥. قصم القرى الظالمة وإنشاء قوم آخرين وندمهم عند حلول البأس:

المقطع [٥] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١-١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٥٥»:

١. ﴿وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً﴾:

أ. القصم في الأصل الكسر، يقال: قصم ظهره أي كسره، ويكنى به عن الهلاك، والإنشاء الإيجاد، والإحساس الإدراك من طريق الحس، والبأس العذاب، والركض العدو بشدة الوطء، والإتراف التوسعة في النعمة، والحصيد المقطوع ومنه حصاد الزرع، والخمود السكون والسكوت.

ب. والمعنى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنا﴾ وأهلكنا ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أي أهلها ﴿كانَتْ ظالِمَةً﴾ لنفسها بالإسراف والكفر ﴿وَأَنْشَأْنا﴾ وأوجدنا ﴿قَوْماً آخَرِينَ فَلَمَّا أَحَسُّوا﴾ ووجدوا بالحس أي أهل القرية الظالمة ﴿بَأْسَنا﴾ وعذابنا ﴿إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ﴾ ويعدون هاربين كالمنهزمين فيقال لهم توبيخا وتقريعا ﴿لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ من النعم ﴿وَمَساكِنِكُمْ﴾ وإلى مساكنكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ﴾ أي لعل المساكين وأرباب الحوائج يهجمون عليكم بالسؤال فتستكبروا عليهم وتختالوا أو تحتجبوا عنهم وهذا كناية عن

اعتزازهم واستعلائهم وعد المتبوعين أنفسهم أربابا للتابعين من دون الله.

٢. ﴿قالُوا﴾ تندما ﴿يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ فَما زالَتْ تِلْكَ﴾ وهي كلمتهم يا ويلنا المشتملة على الاعتراف بربوبيته تعالى وظلم أنفسهم ﴿دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً﴾ محصودا مقطوعا ﴿خامِدِينَ﴾ ساكنين ساكتين كما تخمد النار لا يسمع لهم صوت ولا يذكر لهم صيت.

٣. وقد وجه قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ﴾ بوجوه أخرى بعيدة من الفهم تركنا التعرض لها.

٤. أحاديث وآثار: في روضة الكافي، كلام لعلي بن الحسين عليه السلام في الوعظ والزهد في الدنيا يقول فيه: ولقد أسمعكم الله في كتابه، ما قد فعل بالقوم الظالمين من أهل القرى قبلكم، حيث قال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً﴾ وإنما عنى بالقرية أهلها حيث يقول: ﴿وَأَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ﴾ فقال عز وجل: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ﴾ يعني يهربون قال: ﴿لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ﴾ ﴿فلما أتاهم العذاب قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ﴾ وأيم الله إن هذه عظة لكم وتخويف، إن اتعظتم وخفتم.

٦. خلق السماوات والأرض بالحق لا للهو واللعب:

المقطع [٦] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦ـ١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٥٨»:

١. ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ﴾:

أ. الآيتان توجهان نزول العذاب على القرى الظالمة التي ذكر الله سبحانه قصمها، وهما بعينهما، على ما يعطيه السياق السابق، حجة برهانية على ثبوت المعاد ثم في ضوئه النبوة وهي الغرض الأصيل من سرد الكلام في السورة.

ب. فمحصل ما تقدم، أن هناك معادا سيحاسب فيه أعمال الناس فمن الواجب أن يميزوا بين الخير والشر وصالح الأعمال وطالحها بهداية إلهية وهي الدعوة الحقة المعتمدة على النبوة ولولا ذلك لكانت الخلقة عبثا وكان الله سبحانه لاعبا لاهيا بها تعالى عن ذلك.

ج. فمقام الآيتين، كما ترى، مقام الاحتجاج على حقية المعاد لتثبت بها حقية دعوة النبوة لأن دعوة النبوة، على هذا، من مقتضيات المعاد من غير عكس.

د. وحجة الآيتين، كما ترى، تعتمد على معنى اللعب واللهو واللعب هو الفعل المنتظم الذي له غاية خيالية غير واقعية كملاعب الصبيان التي لا أثر لها إلا مفاهيم خيالية من تقدم وتأخر وربح وخسارة ونفع وضرر كلها بحسب الفرض والتوهم وإذ كان اللعب بما تنجذب النفس إليه يصرفها عن الأعمال الواقعية فهو من مصاديق اللهو هذا.

هـ. فلو كان خلق العالم المشهود لا لغاية يتوجه إليها ويقصد لأجلها وكان الله سبحانه لا يزال يوجد ويعدم ويحيي ويميت ويعمر ويخرب لا لغاية تترتب على هذه الأفعال ولا لغرض يعمل لأجله ما يعمل بل إنما يفعلها لأجل نفسها ويريد أن يراها واحدا بعد واحد فيشتغل بها دفعا لضجر أو ملل أو كسل أو فرارا من الوحدة أو انطلاقا من الخلوة كحالنا نحن إذا اشتغلنا بعمل نلعب به ونتلهى لندفع به نقصا طرأ علينا وعارضة سوء لا نستطيبها لأنفسنا من ملال أو كلال أو كسل أو فشل ونحو ذلك.

و. فاللعب بنظر آخر لهو، ولذلك نراه سبحانه عبر في الآية الأولى باللعب ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ﴾ ثم بدله، في الآية الثانية التي هي في مقام التعليل لها، لهوا فوضع اللهو مكان اللعب لتتم الحجة.

ز. وتلهيه تعالى بشيء من خلقه محال لأن اللهو لا يتم لهوا إلا برفع حاجة من حوائج اللاهي ودفع نقيصة من نقائصه نفسه فهو من الأسباب المؤثرة، ولا معنى لتأثير خلقه تعالى فيه واحتياجه إلى ما هو محتاج من كل جهة إليه فلو فرض تلهيه تعالى بلهو لم يجز أن يكون أمرا خارجا من نفسه، وخلقه فعله وفعله، خارج من نفسه، بل وجب أن يكون بأمر غير خارج من ذاته.

ح. وبهذا يتم البرهان على أن الله ما خلق السماء والأرض وما بينهما لعبا ولهوا وما أبدعها عبثا ولغير غاية وغرض، وهو قوله: ﴿لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا﴾

ط. وأما اللهو بأمر غير خارج من ذاته فهو وإن كان محالا في نفسه لاستلزامه حاجة في ذاته إلى ما يشغله ويصرفه عما يجده في نفسه فيكون ذاته مركبة من حاجة حقيقية متقررة فيها وأمر رافع لتلك الحاجة، ولا سبيل للنقص والحاجة إلى ذاته المتعالية لكن البرهان لا يتوقف عليه لأنه في مقام بيان أن لا لعب ولا

لهو في فعله تعالى وهو خلقه، وأما أنه لا لعب ولا لهو في ذاته تعالى فهو خارج عن غرض المقام وإنما أشير إلى نفي هذا الاحتمال بالتعبير بلفظة (لو) الدالة على الامتناع ثم أكده بقوله: ﴿إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ﴾ فافهم ذلك.

ي. وبهذا البيان يظهر أن قوله: ﴿لَوْ أَرَدْنا﴾، في مقام التعليل للنفي في قوله: ﴿وَما خَلَقْنَا﴾، وأن قوله: ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾ معناه من نفسنا، وفي مرحلة الذات دون مرحلة الخلق الذي هو فعلنا الخارج من ذاتنا، وأن قوله: ﴿إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ﴾ إشارة استقلالية إلى ما يدل عليه لفظة ﴿لَوْ﴾ في ضمن الجملة فيكون نوعا من التأكيد.

ك. وبهذا البيان يتم البرهان على المعاد ثم النبوة ويتصل الكلام بالسياق المتقدم ومحصله أن للناس رجوعا إلى الله وحسابا على أعمالهم ليجازوا عليها ثوابا وعقابا فمن الواجب أن يكون هناك نبوة ودعوة ليدلوا بها إلى ما يجازون عليه من الاعتقاد والعمل فالمعاد هو الغرض من الخلقة الموجب للنبوة ولو لم يكن معاد لم يكن للخلقة غرض وغاية فكانت الخلقة لعبا ولهوا منه تعالى وهو غير جائز، ولو جاز عليه اتخاذ اللهو لوجب أن يكون بأمر غير خارج من نفسه لا بالخلق الذي هو فعل خارج من ذاته لأن من المحال أن يؤثر غيره فيه ويحتاج إلى غيره بوجه وإذ لم يكن الخلق لعبا فهناك غاية وهو المعاد ويستلزم ذلك النبوة ومن لوازمه أيضا نكال بعض الظالمين إذا ما طغوا وأسرفوا وتوقف عليه إحياء الحق كما يشير إليه قوله بعد: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ﴾

٢. وللقوم في تفسير قوله: ﴿لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ وجوه:

أ. منها ما ذكره في الكشاف، ومحصله أن قوله: ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾ معناه بقدرتنا، فالمعنى: أن لو شئنا اتخاذ اللهو لاتخذناه بقدرتنا لعمومها لكنا لا نشاء وذلك بدلالة ﴿لَوْ﴾ على الامتناع.

• وفيه أن القدرة لا تتعلق بالمحال واللهو، ومعناه ما يشغلك عما يهمك بأي وجه وجه، محال عليه تعالى، على أن دلالة ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾ على القدرة لا تخلو من خفاء.

ب. ومنها قول بعضهم: المراد بقوله: ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾ من عندنا بحيث لا يطلع عليه أحد لأنه نقص فكان ستره أولى.

• وفيه أن ستر النقص إنما هو للخوف من اللائمة عليه وإنما يخاف من لا يخلو من سمة العجز لا من هو على كل شيء قدير فإذ رفع نقصا باللهو فليرفع آخر بما يناسبه، على أنه إن امتنع عليه إظهاره لكونه

نقصا فامتناع أصله عليه لكونه نقصا أقدم من امتناع الإظهار فيئول المعنى إلى أنا لو فعلنا هذا المحال لسترناه عنكم لأن إظهاره محال وهو كما ترى.

ج. ومنها قول بعضهم إن المراد باللهو المرأة والولد والعرب تسمي المرأة لهوا والولد لهوا لأن المرأة والولد يستروح بهما واللهو ما يروح النفس، فالمعنى: لو أردنا أن نتخذ صاحبة وولدا، أو أحدهما، لاتخذناه من المقربين عندنا فهو كقوله: ﴿لَوْ أَرادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ﴾ وقيل: لاتخذناه من المجردات العالية لا من الأجسام والجسمانيات السافلة، وقيل: لاتخذناه من الحور العين، وكيف كان فهو رد على مثل النصارى المثبتين للصاحبة والولد وهما مريم والمسيح عليه السلام.

• وفيه أنه إن صح من حيث اللفظ استلزم انقطاع الكلام عن السياق السابق.

د. ومنها ما عن بعضهم أن المراد بقوله: ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾ من جهتنا، ومعنى الآية: لو أردنا اتخاذ لهو لكان اتخاذ لهو من جهتنا أي لهوا إلهيا أي حكمة اتخذتموها لهوا من جهتكم وهذا عين الجد والحكمة فهو في معنى لو أردناه لامتنع ومحصله أن جهته تعالى لا تقبل إلا الجد والحكمة فلو أراد لهوا صار جدا وحكمة أي يستحيل إرادة اللهو منه تعالى.

• وفيه أنه وإن كان معنى صحيحا في نفسه غير خال من الدقة لكنه غير مفهوم من لفظ الآية كما هو ظاهر.

٣. ﴿إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ﴾ الظاهر أن ﴿أَنْ﴾ شرطية كما تقدمت الإشارة إليه، وعلى هذا فجزاؤه محذوف يدل عليه قوله: ﴿لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ وقال بعضهم: إن ﴿أَنْ﴾ نافية والجملة نتيجة البيان السابق، وعن بعضهم أن إن النافية لا تفارق غالبا اللام الفارقة، وقد ظهر مما تقدم من معنى الآية أن كون إن شرطية أبلغ بحسب المقام من كونها نافية.

٧. قذف الحق على الباطل وزهوق الباطل:

المقطع [٧] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٦٣»:

١. ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾:

أ. القذف الرمي البعيد، والدمغ، على ما في مجمع البيان،، شج الرأس حتى يبلغ الدماغ، يقال:

دمغه يدمغه إذا أصاب دماغه، وزهوق النفس تلفها وهلاكها، يقال: زهق الشيء يزهق أي هلك.

ب. والحق والباطل مفهومان متقابلان، فالحق هو الثابت العين، والباطل ما ليس له عين ثابتة لكنه يتشبه بالحق تشبها فيظن أنه هو حتى إذا تعارضا بقي الحق وزهق الباطل كالماء الذي هو حقيقة من الحقائق، والسراب الذي ليس بالماء حقيقة لكنه يتشبه به في نظر الناظر فيحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا.

ج. وقد عد سبحانه في كلامه أمثلة كثيرة من الحق والباطل فعد الاعتقادات المطابقة للواقع من الحق وما ليس كذلك من الباطل وعد الحياة الآخرة حقا والحياة الدنيا بجميع ما يراه الإنسان لنفسه فيها ويسعى له سعيه من ملك ومال وجاه وأولاد وأعوان ونحو ذلك باطلا وعد ذاته المتعالية حقا وسائر الأسباب التي يغتر بها الإنسان ويركن إليها من دون الله باطلا، والآيات في ذلك كثيرة لا مجال لنقلها في المقام.

د. والذي يستند إليه تعالى بالأصالة هو الحق دون الباطل كما قال: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ [آل عمران: ٦٠]، وقال: ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً﴾ [ص: ٢٧]، وأما الباطل من حيث إنه باطل فليس ينتسب إليه بالاستقامة وإنما هو لازم نقص بعض الأشياء إذا قيس الناقص منها إلى الكامل، فالعقائد الباطلة لوازم نقص الإدراك وسائر الأمور الباطلة لوازم الأمور إذا قيس إلى ما هو أكمل منها، وهي تنتسب إليه تعالى بالإذن بمعنى أن خلقه تعالى الأرض السبخة الصيقلية بحيث يتراءى للناظر في لون الماء وصفائه إذن منه تعالى في أن يتخيل عنده ماء وهو تحقق السراب تحققا تخيليا باطلا.

هـ. ومن هنا يظهر أن لا شيء في الوجود إلا وفيه شوب بطلان إلا الله سبحانه فهو الحق الذي لا يخالطه بطلان ولا سبيل له إليه قال: ﴿أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [النور: ٢٥]

و. ويظهر أيضا أن الخلقة على ما فيها من النظام بامتزاج من الحق والباطل، قال تعالى يمثل أمر الخلقة: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، وتحت هذا معارف جمة.

ز. وقد جرت سنة الله تعالى أن يمهل الباطل حتى إذا اعترض الحق ليبطله ويحل محله قذفه بالحق

فإذا هو زاهق فالاعتقاد الحق لا يقطع دابره وإن قلت حملته أحيانا أو ضعفوا، والكمال الحق لا يهلك من أصله وإن تكاثرت أضداده، والنصر الإلهي لا يتخطى رسله وإن كانوا ربما بلغ بهم الأمر إلى أن استيئسوا وظنوا أنهم قد كذبوا.

ح. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ﴾ فإنه إضراب عن عدم خلق العالم لعبا أو عن عدم إرادة اتخاذ اللهو المدلول عليه بقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً﴾، وفي قوله: ﴿نَقْذِفُ﴾ المفيد للاستمرار دلالة على كونه سنة جارية، وفي قوله: ﴿نَقْذِفُ..، فَيَدْمَغُهُ﴾ دلالة على علو الحق على الباطل، وفي قوله: ﴿فَإِذا هُوَ زاهِقٌ﴾ دلالة على مفاجاة القذف ومباغتته في حين لا يرجى للحق غلب ولا للباطل انهزام، والآية مطلقة غير مقيدة بالحق والباطل في الحجة أو في السيرة والسنة أو في الخلقة فلا دليل على تقييدها بشيء من ذلك.

ط. والمعنى: ما خلقنا العالم لعبا أو لم نرد اتخاذ اللهو بل سنتنا أن نرمي بالحق على الباطل رميا بعيدا فيهلكه فيفاجئه الذهاب والتلف، فإن كان الباطل حجة أو عقيدة فحجة الحق تبطلها، وإن كان عملا وسنة كما في القرى المسرفة الظالمة فالعذاب المستأصل يستأصله ويبطله، وإن كان غير ذلك فغير ذلك.

ي. وقد فسر الآية بعضهم بقوله: لكنا لا نريد اتخاذ اللهو بل شأننا أن نغلب الحق الذي من جملته الجد على الباطل الذي من جملته اللهو، وهو خطأ فإن فيه اعترافا بوجود اللهو ولم يرد في سابق الكلام إلا اللهو المنسوب إليه تعالى الذي نفاه الله عن نفسه فالحق أن الآية لا إطلاق لها بالنسبة إلى الجد واللهو إذ لا وجود للهو حتى تشمله الآية وتشمل ما يقابله.

٢. ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾:

أ. وعيد للناس المنكرين للمعاد والنبوة على ما تقدم من توضيح مقتضى السياق.

ب. ويظهر من الآية حقيقة الرجوع إلى الله تعالى وهو أنه تعالى لا يزال يقذف بالحق على الباطل فيحق الحق ويخلصه من الباطل الذي يشوبه أو يستره حتى لا يبقى إلا الحق المحض وهو الله الحق عز اسمه قال: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥]، فيسقط يومئذ ما كان يظن للأسباب من استقلال التأثير ويزعم لغيره من القوة والملك والأمر كما قال: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقال: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الْواحِدِ

الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وقال: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]، والآيات المشيرة إلى هذا المعنى كثيرة.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في المحاسن، بإسناده عن يونس رفعه قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ليس من باطل يقوم بإزاء حق، إلا غلب الحق الباطل وذلك قول الله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ﴾

ب. وفيه، بإسناده عن أيوب بن الحر قال قال أبو عبد الله عليه السلام: يا أيوب ما من أحد إلا وقد يرد عليه الحق، حتى يصدع قلبه قبله أم تركه، وذلك أن الله يقول في كتابه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ، فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾

• أقول: والروايتان مبنيتان على تعميم الآية.

٨. عبادة من في السماوات والأرض وتسبيحهم الله الواحد:

المقطع [٨] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لَا يَفْتُرُونَ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٦٤»:

١. ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾:

أ. دفع لأحد الاحتمالات المنافية للمعاد في الجملة وهو أن لا يتسلط سبحانه على بعض أو كل الناس فينجو من لا يملكه من الرجوع إليه والحساب والجزاء فأجيب بأن ملكه تعالى عام شامل لجميع من في السماوات والأرض فله أن يتصرف فيها أي تصرف أراد.

ب. ومن المعلوم أن هذا الملك حقيقي من لوازم الإيجاد بمعنى قيام الشيء بسببه الموجد له بحيث لا يعصيه في أي تصرف فيه، والإيجاد يختص بالله سبحانه لا يشاركه فيه غيره حتى عند الوثنيين المثبتين لآلهة أخرى للتدبير والعبادة فكل من في السماوات والأرض مملوك لله لا مالك غيره.

٢. ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ﴾:

أ. قال في مجمع البيان: (الاستحسار الانقطاع عن الإعياء يقال: بعير حسير أي معي، وأصله من قولهم: حسر عن ذراعيه، فالمعنى أنه كشف قوته بإعياء)

ب. والمراد بقوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ المخصوصون بموهبة القرب والحضور وربما انطبق على الملائكة المقربين، وقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ بمنزلة التفسير لقوله: ﴿وَلا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي لا يأخذهم عي وكلال بل يسبحون الليل والنهار من غير فتور، والتسبيح بالليل والنهار كناية عن دوام التسبيح من غير انقطاع.

ج. يصف تعالى حال المقربين من عباده والمكرمين من ملائكته أنهم مستغرقون في عبوديته مكبون على عبادته لا يشغلهم عن ذلك شاغل ولا يصرفهم صارف، وكأن الكلام مسوق لبيان خصوصية مالكيته وسلطنته المذكورة في صدر الآية.

د. وذلك أن السنة الجارية بين الموالي وعبيدهم في الملك الاعتباري أن العبد كلما زاد تقربا من مولاه خفف عنه بالإغماض عن كثير من الوظائف والرسوم الجارية على عامة العبيد، وكان معفوا عن الحساب والمؤاخذة، وذلك لكون الاجتماع المدني الإنساني مبنيا على التعاون بمبادلة المنافع بحسب مساس الحاجة، والحاجة قائمة دائما، والمولى أحوج إلى مقربي عبيده من غيرهم كما أن الملك أحوج إلى مقربي حضرته من غيرهم، فإذا كان انتفاع المولى من عبده المقرب أكثر من غيره فليكن ما يبذله من الكرامة بإزاء منافع خدمته كذلك ولذا يرفع عنه كثير مما يوضع لغيره ويعفي عن بعض ما يؤاخذ به غيره فإنما هي معاملة ومبايعة.

هـ. وهذا بخلاف ملكه تعالى لعبيده فإنه ملك حقيقي مالكه في غنى مطلق عن مملوكه، ومملوكه في حاجة مطلقة إلى مالكه ولا يختلف الحال فيه بالقرب والبعد وعلو المقام ودنوه بل كلما زاد العبد فيه قربا كانت العظمة والكبرياء والعزة والبهاء عنده أظهر والإحساس بذلة نفسه ومسكنتها وحاجتها أكثر ويلزمها الإمعان في خشوع العبودية وخضوع العبادة.

و. فكان قوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ إلخ إشارة إلى أن ملكه تعالى، وقد أشار قبل إلى أنه مقتض للعبادة والحساب والجزاء، على خلاف الملك الدائر في المجتمع الإنساني، فلا يطمعن طامع أن يعفى عنه العمل أو الحساب والجزاء.

ز. ويمكن أن يكون الجملة في مقام الترقي والمعنى له من في السماوات والأرض فعليهم أن يعبدوا وسيحاسبون من غير استثناء حتى أن من عنده من مقربي عباده وكرام ملائكته لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون بل يسبحونه تسبيحا دائما غير منقطع.

ح. وقد تقدم في آخر سورة الأعراف في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ استفادة أن المراد بقوله: ﴿الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أعم من الملائكة المقربين فلا تغفل.

٣. ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾:

أ. الإنشار إحياء الموتى فالمراد به المعاد، وفي الآية دفع احتمال آخر ينافي المعاد والحساب المذكور سابقا وهو الرجوع إلى الله بأن يقال: إن هناك آلهة أخرى دون الله يبعثون الأموات ويحاسبونهم وليس لله سبحانه من أمر المعاد شيء حتى نخافه ونضطر إلى إجابة رسله واتباعهم في دعوتهم بل نعبدهم ولا جناح؟

ب. وتقييد قوله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً﴾ بقوله: ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ قيل: ليشير به إلى أنهم إذا كانوا من الأرض كان حكمهم حكم عامة أهل الأرض من الموت ثم البعث فمن الذي يميتهم ثم يبعثهم؟

ج. ويمكن أن يكون المراد اتخاذ آلهة من جنس الأرض كالأصنام المتخذة من الحجارة والخشب والفلزات فيكون فيه نوع من التهكم والتحقير ويئول المعنى إلى أن الملائكة الذين هم الآلهة عندهم إذا كانوا من عباده تعالى وعباده وانقطع هؤلاء عنهم ويئسوا من ألوهيتهم ليلتجئوا إليهم في أمر المعاد فهل يتخذون أصنامهم وتماثيلهم آلهة من دون الله مكان أرباب الأصنام والتماثيل.

٤. ﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾:

أ. قد تقدم في تفسير سورة هود وتكررت الإشارة إليه بعده أن النزاع بين الوثنيين والموحدين ليس في وحدة الإله وكثرته بمعنى الواجب الوجود الموجود لذاته الموجد لغيره فهذا مما لا نزاع في أنه واحد لا شريك له، وإنما النزاع في الإله بمعنى الرب المعبود والوثنيون على أن تدبير العالم على طبقات أجزائه مفوضة إلى موجودات شريفة مقربين عند الله ينبغي أن يعبدوا حتى يشفعوا لعبادهم عند الله ويقربوهم إليه زلفى كرب السماء ورب الأرض ورب الإنسان وهكذا وهم آلهة من دونهم والله سبحانه إله الآلهة وخالق الكل كما يحكيه عنهم قوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] وقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]

ب. والآية الكريمة إنما تنفي الآلهة من دون الله في السماء والأرض بهذا المعنى لا بمعنى الصانع الموجد الذي لا قائل بتعدده، والمراد بكون الإله في السماء والأرض تعلق ألوهيته بالسماء والأرض لا

سكناه فيهما فهو كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]

ج. وتقرير حجة الآية أنه لو فرض للعالم آلهة فوق الواحد لكانوا مختلفين ذاتا متباينين حقيقة وتباين حقائقهم يقضي بتباين تدبيرهم فيتفاسد التدبيرات وتفسد السماء والأرض لكن النظام الجاري نظام واحد متلائم الأجزاء في غاياتها فليس للعالم آلهة فوق الواحد وهو المطلوب.

د. سؤال وإشكال: فإن قلت: يكفي في تحقق الفساد ما نشاهده من تزاحم الأسباب والعلل وتزاحمها في تأثيرها في المواد هو التفاسد، والجواب: تفاسد العلتين تحت تدبيرين غير تفاسدهما تحت تدبير واحد، ليحدد بعض إثر بعض وينتج الحاصل من ذلك وما يوجد من تزاحم العلل في النظام من هذا القبيل فإن العلل والأسباب الراسمة لهذا النظام العام على اختلافها وتمانعها وتزاحمها لا يبطل بعضها فعالية بعض بمعنى أن ينتقض بعض القوانين الكلية الحاكمة في النظام ببعض فيختلف عن مورده مع اجتماع الشرائط وارتفاع الموانع فهذا هو المراد من إفساد مدبر عمل مدبر آخر بل السببان المختلفان المتنازعان حالهما في تنازعهما حال كفتي الميزان المتنازعتين بالارتفاع والانخفاض فإنهما في عين اختلافهما متحدان في تحصيل ما يريده صاحب الميزان ويخدمانه في سبيل غرضه وهو تعديل الوزن بواسطة اللسان.

هـ. سؤال وإشكال: فإن قلت: آثار العلم والشعور مشهودة في النظام الجاري في الكون فالرب المدبر له يدبره عن علم وإذا كان كذلك فلم لا يجوز أن يفرض هناك آلهة فوق الواحد يدبرون أمر الكون تدبيرا تعقليا وقد توافقوا على أن لا يختلفوا ولا يتمانعوا في تدبيرهم حفظا للمصلحة، والجواب: هذا غير معقول، فإن معنى التدبير التعقلي عندنا هو أن نطبق أفعالنا الصادرة منا على ما تقتضيه القوانين العقلية الحافظة لتلائم أجزاء الفعل وانسياقه إلى غايته، وهذه القوانين العقلية مأخوذة من الحقائق الخارجية والنظام الجاري فيها الحاكم عليها فأفعالنا التعقلية تابعة للقوانين العقلية وهي تابعة للنظام الخارجي لكن الرب المدبر للكون فعله نفس النظام الخارجي المتبوع للقوانين العقلية، فمن المحال أن يكون فعله تابعا للقوانين العقلية وهو متبوع، فافهم ذلك.

و. فهذا تقرير حجة الآية وهي حجة برهانية مؤلفة من مقدمات يقينية تدل على أن التدبير العام الجاري بما يشتمل عليه ويتألف منه من التدابير الخاصة صادر عن مبدإ واحد غير مختلف، لكن المفسرين قرروها حجة على نفي تعدد الصانع واختلفوا في تقريرها وربما أضاف بعضهم إليها من المقدمات ما هو

خارج عن منطوق الآية وخاضوا فيها حتى قال القائل منهم إنها حجة إقناعية غير برهانية أوردت إقناعا للعامة.

٥. ﴿فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تنزيه له تعالى عن وصفهم وهو أن معه آلهة هم ينشرون أو أن هناك آلهة من دونه يملكون التدبير في ملكه فالعرش كناية عن الملك، وقوله: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (ما) فيه مصدرية والمعنى: عن وصفهم، وللكلام تتمة ستوافيك.

٦. ﴿لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾:

أ. الضمير في ﴿لا يُسْئَلُ﴾ له تعالى بلا إشكال، والضمير في ﴿وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ للآلهة الذين يدعونهم أو للآلهة والناس جميعا أو للناس فقط، وأحسن الوجوه أولها لأن ذلك هو المناسب للسياق والكلام في الآلهة الذين يدعونهم من دونه، فهم المسئولون والله سبحانه لا يسأل عن فعله.

ب. والسؤال عن الفعل هو قولنا لفاعله: لم فعلت كذا؟ وهو سؤال عن جهة المصلحة في الفعل فإن الفعل المقارن للمصلحة لا مؤاخذة عليه عند العقلاء، والله سبحانه لما كان حكيما على الإطلاق كما وصف به نفسه في مواضع من كلامه، والحكيم هو الذي لا يفعل فعلا إلا لمصلحة مرجحة لا جرم لم يكن معنى للسؤال عن فعله بخلاف غيره فإن من الممكن في حقهم أن يفعلوا الحق والباطل وأن يقارن فعلهم المصلحة والمفسدة فجاز في حقهم السؤال حتى يؤاخذوا بالذم العقلي أو العقاب المولوي إن لم يقارن الفعل المصلحة.

٧. هذا ما ذكره جماعة من المفسرين في توجيه الآية وهو معنى صحيح في الجملة لكن يبقى عليه أمران:

أ. الأمر الأول: أن الآية مطلقة لا دليل فيها من جهة اللفظ على كون المراد فيها هو هذا المعنى فإن كون المعنى صحيحا في نفسه لا يستلزم كونه هو المراد من الآية.

• ولذلك وجه بعضهم عدم السؤال بأنه مبني على كون أفعال الله لا تعلل بالأغراض لأن الغرض ما يبعث الفاعل إلى الفعل ليستكمل به وينتفع به وإذ كان تعالى أجل من أن يحتاج إلى ما هو خارج عن ذاته ويستكمل بالانتفاع من غيره فلا يقال له: لم فعلت كذا سؤالا عن الغرض الذي دعاه إلى الفعل، وإن رد بأن الفاعل التام الفاعلية إنما يصدر عنه الفعل لذاته فذاته هي غايته وغرضه في فعله من غير حاجة إلى

غرض خارج عن ذاته كالإنسان البخيل الذي يكثر الإنفاق ليحصل ملكة الجود حتى إذا حصلت الملكة صدر عنها الإنفاق لذاتها لا لتحصيل ما هو حاصل فنفسها غاية لها في فعلها.

• ولذلك أيضا وجه بعض آخر عدم السؤال في الآية بأن عظمته تعالى وكبرياءه وعزته وبهاءه تقهر كل شيء من أن يسأله عن فعله أو يعترض له في شيء من شئون إرادته فغيره تعالى أذل وأحقر من أن يجترئ عليه بسؤال أو مؤاخذة على فعل لكن له سبحانه أن يسأل كل فاعل عن فعله ويؤاخذ كل من حقت عليه المؤاخذة هذا، وإن كان مردودا بأن عدم السؤال من جهة أن ليس هناك من يتمكن من سؤاله اتقاء من قهره وسخطه كالملوك الجبارين والطغاة المتفرعنين غير كون الفعل بحيث لا يتسم بسمة النقص والفتور ولا يعتريه عيب وقصور، والذي يدل عليه عامة كلامه تعالى أن فعله من القبيل الثاني دون الأول كقوله: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧]، وقوله: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنى﴾ [الحشر: ٢٤]، وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً﴾ [يونس: ٤٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

• وبالجملة قولهم: إنه تعالى إنما لا يسأل عن فعله لكونه حكيما على الإطلاق يئول إلى أن عدم السؤال عن فعله ليس لذات فعله بما هو فعله بل لأمر خارج عن ذات الفعل وهو كون فاعله حكيما لا يفعل إلا ما فيه مصلحة مرجحة، وقوله: لا يسأل عما يفعل وهم يسألون لا دلالة في لفظه على التقييد بالحكمة فكان عليهم أن يقيموا عليه دليلا.

• ولو جاز الخروج في تعليل عدم السؤال في الآية عن لفظها لكان أقرب منه التمسك بقوله، وهو متصل بالآية ـ: ﴿فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فإن الآية تثبت له الملك المطلق والملك متبع في إرادته مطاع في أمره لأنه ملك، أي لذاته، لا لأن فعله أو قوله موافق لمصلحة مرجحة وإلا لم يكن فرق بينه وبين أدنى رعيته وكانت المصلحة هي المتبعة ولم تكن طاعته مفترضة في بعض الأحيان، وكذلك المولى متبع ومطاع لعبده فيما له من المولوية من جهة أنه مولى ليس للعبد أن يسأله فيما يريده منه ويأمره به عن وجه الحكمة والمصلحة فالملك على ما له من السعة مبدأ لجواز التصرفات وسلطنة عليها لذاته.

• فالله سبحانه ملك ومالك للكل والكل مملوكون له محضا فله أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وليس لغيره ذلك، وله أن يسألهم عما يفعلون وليس لغيره أن يسألوه عما يفعل نعم هو سبحانه أخبرنا أنه حكيم لا يفعل إلا ما فيه مصلحة ولا يريد إلا ذلك فليس لنا أن نسيء به الظن فيما ينسب إليه من الفعل

بعد هذا العلم الإجمالي بحكمته المطلقة فضلا عن سؤاله عما يفعل، ومن ألطف الآيات دلالة على هذا الذي ذكرنا قوله حكاية عن عيسى بن مريم: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] حيث يوجه عذابهم بأنهم مملوكون له ويوجه مغفرتهم بكونه حكيما.

• ومن هنا يظهر أن الحكمة بوجه ما أعم من قوله: ﴿لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ بخلاف الملك فالملك أقرب إلى توجيه الآية منها كما أشرنا إليه.

ب. الأمر الثاني: أن الآية على ما وجهوها به خفية الاتصال بالسياق السابق:

• وغاية ما قيل في اتصالها بما قبلها ما في مجمع البيان: (أنه تعالى لما بين التوحيد عطف عليه بيان العدل، وأنت خبير بأن مآله الاستطراد ولا موجب له)، ونظيره ما نقل عن أبي مسلم أنها تتصل بقوله في أول السورة: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ﴾ والحساب هو السؤال عما أنعم الله عليهم به، وهل قابلوا نعمه بالشكر أم قابلوها بالكفر؟ وفيه أن للآيات التالية لهذه الآية اتصالا واضحا بما قبلها فلا معنى لاتصالها وحدها بأول السورة، على أن قوله على تقدير تسليمه يوجه اتصال ذيل الآية والصدر باق على ما كان.

• وأنت خبير أن توجيه الآية بالملك دون الحكمة كما قدمناه يكشف عن اتصال الآية بما قبلها من قوله: ﴿فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فالعرش، كما تقدم، كناية عن الملك فتتصل الآيتان ويكون قوله: ﴿لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ بالحقيقة برهانا على ملكه تعالى كما أن ملكه وعدم مسئوليته برهان على ربوبيته، وبرهانا على مملوكيتهم كما أن مملوكيتهم ومسئوليتهم برهان على عدم ربوبيتهم فإن الفاعل الذي ليس بمسئولين عن فعله بوجه هو الذي يملك الفعل مطلقا لا محالة، والفاعل الذي هو مسئول عن فعله هو الذي لا يملك الفعل إلا إذا كان ذا مصلحة والمصلحة هي التي تملكه وترفع المؤاخذة عنه، ورب العالم أو جزء من أجزائه هو الذي يملك تدبيره باستقلال من ذاته أي لذاته لا بإعطاء من غيره فالله سبحانه هو رب العرش وغيره مربوبون له.

٨. وضع هنا مبحثا حول [حكمة الله ومعنى كون فعله مقارناً للمصلحة]، خلاصته:

أ. الأفعال الإرادية تصدر عنا بتبع العلم برجحانها والإذعان بكونها كمالاً لنا، وما في الفعل من جهة الخير المترتب عليه هو المرجح (الغاية والغرض)، والفعل الإرادي وغير الإرادي لا يخلو من غاية، والمصلحة هي الخيرية المترتبة على تحقق الفعل، وهي الباعثة للفاعل.

ب. المصلحة لا وجود لها قبل الفعل خارجاً، بل هي موجودة علماً (صورة علمية مأخوذة من النظام الخارجي)، والفاعل الإرادي يطبق فعله على هذه الصورة العلمية، فإن أصاب كان حكيماً، وإن أخطأ لم يسم حكيماً.

ج. الحكمة صفة للخارج بالذات، والفاعل يتصف بها من جهة انطباق فعله على النظام الخارجي بوساطة العلم، أما فعل الله فهو نفس الخارج، فهو نفس الحكمة لا لمحاكاته أمراً آخر، وفعله متبوع المصلحة لا تابع لها.

د. كل فاعل غير الله يسأل عن فعله (لم فعلت كذا؟) ليُظهر مطابقة فعله للنظام الخارجي، أما الله فلا مورد للسؤال عن فعله، لأن فعله نفس النظام الخارجي الذي يطلب تطبيق الفعل عليه، ولا نظام خارجي آخر يطبق هو عليه.

هـ. القول بأن لله علماً تفصيلياً بالأشياء قبل إيجادها، ولها ثبوت ما واستعدادات أزلية، غير سديد، لأن علمه حضوري لا حصولي، والثبوت قبل الوجود غير معقول، والاستعداد لا يتم إلا مع فعلية بإزائه.

و. قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٧٣] يدل على أن قوله هو وجود الأشياء الخارجي، وهو الحق بالذات، والحق منه يبتدئ وإليه يعود.

٩. أحاديث وآثار:

أ. في العيون، في باب ما جاء عن الرضا عليه السلام في هاروت وماروت في حديث: أن الملائكة معصومون، محفوظون عن الكفر والقبائح بألطاف الله تعالى، قال الله تعالى فيهم: ﴿لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ وقال عز وجل: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ يعني الملائكة ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ﴾

ب. وفي نهج البلاغة، قال عليه السلام في وصف الملائكة: ومسبحون لا يسأمون، ولا يغشاهم نوم العيون، ولا سهو العقول، ولا فترة الأبدان، ولا غفلة النسيان.

• أقول: وبه يضعف ما في بعض الروايات أن الملائكة ينامون كما في كتاب كمال الدين بإسناده عن داود بن فرقد عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله: أنه سئل عن الملائكة أينامون؟ فقال: ما من حي إلا وهو ينام خلا الله وحده: فقلت: يقول الله عز وجل: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ﴾؟ قال: أنفاسهم

تسبيح، على أن الرواية ضعيفة.

ج. وفي التوحيد، بإسناده عن هشام بن الحكم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام ما الدليل على أن الله واحد؟ قال: اتصال التدبير وتمام الصنع كما قال عز وجل: ﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتا﴾

• أقول: وهو يؤيد ما قدمناه في تقرير الدليل.

د. وفيه، بإسناده عن عمرو بن جابر قال: قلت لأبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام: يا ابن رسول الله، إنا نرى الأطفال منهم من يولد ميتا، ومنهم من يسقط غير تام، ومنهم من يولد أعمى وأخرس وأصم، ومنهم من يموت من ساعته إذا سقط إلى الأرض، ومنهم من يبقى إلى الاحتلام، ومنهم من يعمر حتى يصير شيخا فكيف ذلك وما وجهه؟ فقال عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى، أولى بما يدبره من أمر خلقه منهم، وهو الخالق والمالك لهم فمن منعه التعمير، فإنما منعه ما ليس له، ومن عمره فإنما أعطاه ما ليس له، فهو المتفضل بما أعطى، وعادل فيما منع ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، قال جابر: فقلت له: يا ابن رسول الله، وكيف لا يسأل عما يفعل؟ قال: لأنه لا يفعل إلا ما كان حكمة وصوابا، وهو المتكبر الجبار والواحد القهار، فمن وجد في نفسه حرجا في شيء مما قضى كفر، ومن أنكر شيئا من أفعاله جحد.

• أقول: وهي رواية شريفة تعطي أصلا كليا في الحسنات والسيئات وهو أن الحسنات أمور وجودية تستند إلى إعطائه وفضله تعالى، والسيئات أمور عدمية تنتهي إلى عدم الإعطاء لما لا يملكه العبد، وما ذكره عليه السلام أنه تعالى أولى بما لعبده منه وجهه أنه تعالى هو المالك لذاته والعبد إنما يملك ما يملك بتمليك منه تعالى وهو المالك لما ملكه وملك العبد في طول ملكه.

• وقوله: (لأنه لا يفعل إلا ما كان حكمة وصوابا إشارة إلى التقريب الأول الذي قدمناه، وقوله: (وهو المتكبر الجبار والواحد القهار) إشارة إلى التقريب الثاني الذي أوردناه في تفسير الآية.

هـ. وفي نور الثقلين، عن الرضا عليه السلام قال: قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم بمشيتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء، وبقوتي أديت إلي فرائضي، وبنعمتي قويت على معصيتي، جعلتك سميعا بصيرا قويا، ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك، وذلك أني أولى بحسناتك منك، وأنت أولى بسيئاتك مني، وذلك أني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون.

٩. تحدي المشركين بالبرهان وإثبات التوحيد في رسالات الأنبياء:

المقطع [٩] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٤ـ٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٧٣»:

١. ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ﴾:

أ. ﴿هاتُوا﴾ اسم فعل بمعنى ائتوا به، والبرهان الدليل المفيد للعلم، والمراد بالذكر، على ما يستفاد من السياق، الكتاب المنزل من عند الله فالمراد بذكر من معي القرآن المنزل عليه الذي هو ذكر أمته إلى يوم القيامة وبذكر من قبلي كتب الأنبياء السابقين كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها.

ب. ويمكن أن يكون المراد به الوحي النازل عليه في القرآن وهو ذكر من معه ﷺ والوحي النازل على من قبله في أمر توحيد العبادة المنقول في القرآن فالمشار إليه بهذا هو ما في القرآن من الأمر بتوحيد العبادة النازل عليه والنازل على من تقدمه من الأنبياء عليهم‌السلام، وربما فسر الذكر بالخبر وغيره ولا يعبأ به.

ج. وفي الآية دفع احتمال آخر من الاحتمالات المنافية لإثبات المعاد والحساب المذكور سابقا وهو أن يتخذوا آلهة من دون الله سبحانه فيعبدوهم ويستغنوا بذلك عن عبادة الله وولايته المستلزمة للمعاد إليه وحسابه ووجوب إجابة دعوة أنبيائه، ودفع هذا الاحتمال بعدم الدليل عليه وقد خاصمهم بأمر النبي ﷺ أن يطالبهم بالدليل بقوله: ﴿قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ﴾

٢. ﴿قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي﴾:

أ. من قبيل المنع مع السند، باصطلاح فن المناظرة، ومحصل معناه طلب الخصم من المدعي الدليل على مدعاه غير المدلل مستندا في طلبه ذلك إلى أن عنده دليلا يدل على خلافه.

ب. يقول تعالى لنبيه ﷺ: قل لهؤلاء المتخذين الآلهة من دون الله هاتوا برهانكم على دعواكم فإن الدعوى التي لا دليل عليها لا تسمع ولا يجوز عقلا أن يركن إليها، والذي استند إليه في طلب الدليل أن الكتب السماوية النازلة من عند الله سبحانه لا يوافقكم على ما ادعيتم بل يخالفكم فيه فهذا القرآن وهو ذكر من معي وهذه سائر الكتب كالتوراة والإنجيل وغيرهما وهي ذكر من قبلي تذكر انحصار الألوهية فيه

تعالى وحده ووجوب عبادته، أو أن ما في القرآن من الوحي النازل علي وهو ذكر من معي والوحي النازل على من سبقني من الأنبياء وهو ذكر من قبلي في أمر عبادة الإله يحصر الألوهية والعبادة فيه تعالى.

٣. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ رجوع إلى خطاب النبي ﷺ بالإشارة إلى أن أكثرهم لا يميزون الحق من الباطل فليسوا من أهل التمييز الذين لا يتبعون إلا الدليل فهم معرضون عن الحق واتباعه.

٤. ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾:

أ. تثبيت لما قيل في الآية السابقة أن الذكر يذكر توحيده ووجوب عبادته ولا يخلو من تأييد ما للمعنى الثاني من معنيي الذكر.

ب. ﴿نُوحِي إِلَيْهِ﴾ مفيد للاستمرار، وقوله: ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ خطاب للرسل ومن معهم من أممهم والباقي ظاهر.

١٠. رد قول المشركين وبيان أن الملائكة عباد مكرمون:

المقطع [١٠] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ـ٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٧٥»:

١. ﴿وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ﴾:

أ. ظاهر السياق يشهد أنه حكاية قول الوثنيين أن الملائكة أولاده سبحانه فالمراد بالعباد المكرمين الملائكة، وقد نزه الله نفسه عن ذلك بقوله: ﴿سُبْحانَهُ﴾ ثم ذكر حقيقة حالهم بالإضراب.

ب. وإذ كان قوله بعد: ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ بيان كمال عبوديتهم من حيث الآثار وصفائها من جهة الخواص والتبعات وقد ذكر قبلا كونهم عبادا كان ظاهر ذلك أن المراد بإكرامهم إكرامهم بالعبودية لا بغيرها فيئول المعنى إلى أنهم عباد بحقيقة معنى العبودية ومن الدليل عليه صدور آثارها الكاملة عنهم.

ج. فالمراد بكونهم عبادا، وجميع أرباب الشعور عباد الله، إكرامهم في أنفسهم بالعبودية فلا يشاهدون من أنفسهم إلا أنهم عباد، والمراد بكونهم مكرمين إكرامه تعالى لهم بإفاضة العبودية الكاملة

عليهم، وهذا نظير كون العبد مخلصا، بكسر اللام، لربه ومقابلته تعالى ذلك بجعله مخلصا، بفتح اللام، لنفسه، وإنما الفرق بين كرامة الملائكة والبشر أنها في البشر اكتسابي بخلاف ما في الملائكة، وأما إكرامه تعالى فهو موهبي في القبيلين جميعا فافهم ذلك.

٢. ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾:

أ. لا يسبق فلان فلانا بالقول أي لا يقول شيئا قبل أن يقوله فقوله تبع، وربما يكنى به عن الإرادة والمشية أي إرادته تبع إرادته، وقوله: ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ الظرف متعلق بيعملون قدم عليه لإفادة الحصر أي يعملون بأمره لا بغير أمره، وليس المراد لا يعملون بأمر غيره ففعلهم تابع لأمره أي لإرادته كما أن قولهم تابع لقوله فهم تابعون لربهم قولا وفعلا.

ب. وبعبارة أخرى إرادتهم وعملهم تابعان لإرادته نظرا إلى كون القول كناية عن الإرادة، فلا يريدون إلا ما أراد ولا يعملون إلا ما أراد وهو كمال العبودية فإن لازم عبودية العبد أن يكون إرادته وعمله مملوكين لمولاه.

ج. هذا ما يفيده ظاهر الآية على أن يكون المراد بالأمر ما يقابل النهي، وتفيد الآية أن الملائكة لا يعرفون النهي إذ النهي فرع جواز الإتيان بالفعل المنهي عنه وهم لا يفعلون إلا عن أمر.

د. ويمكن أن يستفاد من قوله تعالى: ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس: ٨٣]، وقوله: ﴿وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، حقيقة معنى أمره تعالى وقد تقدم في بعض المباحث السابقة كلام في ذلك وسيجيء استيفاء البحث في كلام خاص بالملائكة فيما يعطيه القرآن في حقيقة الملك.

٣. ﴿يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾:

أ. فسروا ﴿ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ﴾ بما قدموا من أعمالهم وما أخروا، والمعنى: يعلم ما عملوا وما هم عاملون.

ب. فقوله: ﴿يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ﴾ استئناف في مقام التعليل لما تقدمه من قوله: ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ كأنه قيل: إنما لم يقدموا على قول أو عمل بغير أمره تعالى لأنه يعلم ما قدموا من قول وعمل وما أخروا فلا يزالون يراقبون أحوالهم حيث إنهم يعلمون ذلك.

ج. وهو معنى جيد في نفسه لكنه إنما يصلح لتعليل عدم إقدامهم على المعصية لا لتعليل قصر عملهم على مورد الأمر وهو المطلوب، على أن لفظ الآية لا دلالة فيه على أنهم يعلمون ذلك ولولا ذلك لم يتم البيان.

د. وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا وَما بَيْنَ ذلِكَ وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]، أن الأوجه حمل قوله: ﴿ما بَيْنَ أَيْدِينا﴾ على الأعمال والآثار المتفرعة على وجودهم، وقوله: ﴿وَما خَلْفَنا﴾ على ما هو من أسباب وجودهم مما تقدمهم وتحقق قبلهم فلو حمل اللفظتان في هذه الآية على ما حملتا عليه هناك كانت الجملة تعليلا واضحا لمجموع قوله: ﴿بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ الذي يذكرهم بشرافة الذات وشرافة آثار الذات من القول والفعل ويكون المعنى: إنما أكرم الله ذواتهم وحمد آثارهم لأنه يعلم أعمالهم وأقوالهم وهي ما بين أيديهم ويعلم السبب الذي به وجدوا والأصل الذي عليه نشئوا وهو ما خلفهم كما يقال: فلان كريم النفس حميد السيرة لأنه مرضي الأعمال من أسرة كريمة.

٤. ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى﴾ تعرض لشفاعتهم لغيرهم وهو الذي تعلق به الوثنيون في عبادتهم الملائكة كما ينبئ عنه قولهم: ﴿هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللهِ﴾ ﴿ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى﴾ فرد تعالى عليهم بأن الملائكة إنما يشفعون لمن ارتضاه الله والمراد به ارتضاء دينه لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فالإيمان بالله من غير شرك هو الارتضاء، والوثنيون مشركون، ومن عجيب أمرهم أنهم يشركون بنفس الملائكة الذين لا يشفعون إلا لغير المشركين من الموحدين.

٥. ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ هي الخشية من سخطه وعذابه مع الأمن منه بسبب عدم المعصية وذلك لأن جعله تعالى إياهم في أمن من العذاب بما أفاض عليهم من العصمة لا يحدد قدرته تعالى ولا ينتزع الملك من يده، فهو يملك بعد الأمن عين ما كان يملكه قبله، وهو على كل شيء قدير، وبذلك يستقيم معنى الآية التالية.

٦. ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي من قال كذا كان ظالما ونجزيه جهنم لأنها جزاء الظالم، والآية قضية شرطية والشرطية لا تقتضي تحقق الشرط.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في العيون، بإسناده إلى الحسين بن خالد عن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: من لم يؤمن بحوضي فلا أورده الله حوضي، ومن لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي، ثم قال عليه السلام: إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، فأما المحسنون فما عليهم من سبيل، قال الحسين بن خالد: فقلت للرضا عليه السلام: يا ابن رسول الله، فما معنى قول الله عز وجل: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى﴾ قال: لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله دينه.

ب. أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن جابر: أن رسول الله ﷺ تلا قول الله: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى﴾ فقال: إن شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي.

١١. رتق السماوات والأرض وفتقها وجعل الماء أصل الحياة:

المقطع [١١] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٧٧»:

١. ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾:

أ. المراد بالرؤية العلم الفكري وإنما عبر بالرؤية لظهوره من حيث إنه نتيجة التفكير في أمر محسوس.

ب. والرتق والفتق معنيان متقابلان، قال الراغب في المفردات: (الرتق الضم والالتحام خلقة كان أم صنعة، قال تعالى: ﴿كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما﴾ وقال: الفتق الفصل بين المتصلين وهو ضد الرتق) انتهى، وضمير التثنية في ﴿كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما﴾ للسماوات والأرض بعد السماوات طائفة والأرض طائفة فهما طائفتان اثنتان، ومجيء الخبر أعني رتقا مفردا لكونه مصدرا وإن كان بمعنى المفعول والمعنى كانت هاتان الطائفتان منضمتين متصلتين ففصلناهما.

٢. وهذه الآية والآيات الثلاث التالية لها برهان على توحيده تعالى في ربوبيته للعالم كله أوردها بمناسبة ما انجر الكلام إلى توحيده ونفي ما اتخذوها آلهة من دون الله وعدوا الملائكة وهم من الآلهة عندهم

أولادا له، بانين في ذلك على أن الخلقة والإيجاد لله والربوبية والتدبير للآلهة، فأورد سبحانه في هذه الآيات أشياء من الخليقة خلقتها ممزوجة بتدبير أمرها فتبين بذلك أن التدبير لا ينفك عن الخلقة فمن الضروري أن يكون الذي خلقها هو الذي يدبر أمرها وذلك كالسماوات والأرض وكل ذي حياة والجبال والفجاج والليل والنهار والشمس والقمر في خلقها وأحوالها التي ذكرها سبحانه.

٣. فقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما﴾:

أ. المراد بالذين كفروا، بمقتضى السياق، هم الوثنيون حيث يفرقون بين الخلق والتدبير بنسبة الخلق إلى الله سبحانه والتدبير إلى الآلهة من دونه وقد بين خطأهم في هذه التفرقة بعطف نظرهم إلى ما لا يرتاب فيه من فتق السماوات والأرض بعد رتقهما فإن في ذلك خلقا غير منفك عن التدبير، فكيف يمكن قيام خلقهما بواحد وقيام تدبيرهما بآخرين.

ب. لا نزال نشاهد انفصال المركبات الأرضية والجوية بعضها من بعض وانفصال أنواع النباتات من الأرض والحيوان من الحيوان والإنسان من الإنسان وظهور المنفصل بالانفصال في صورة جديدة لها آثار وخواص جديدة بعد ما كان متصلا بأصله الذي انفصله منه غير متميز الوجود ولا ظاهر الأثر ولا بارز الحكم فقد كانت هذه الفعليات محفوظة الوجود في القوة مودعة الذوات في المادة رتقا من غير فتق حتى فتقت بعد الرتق وظهرت بفعلية ذواتها وآثارها.

ج. والسماوات والأرض بأجرامها حالها حال أفراد الأنواع التي ذكرناها وهذه الأجرام العلوية والأرض التي نحن عليها وإن لم يسمح لنا أعمارنا على قصرها أن نشاهد منها ما نشاهده في الكينونات الجزئية التي ذكرناها، فنرى بدء كينونتها أو انهدام وجودها لكن المادة هي المادة وأحكامها هي أحكامها والقوانين الجارية فيها لا تختلف ولا تتخلف.

د. فتكرار انفصال جزئيات المركبات والمواليد من الأرض ونظير ذلك في الجو يدلنا على يوم كانت الجميع فيه رتقا منضمة غير منفصلة من الأرض وكذا يهدينا إلى مرحلة لم يكن فيها ميز بين السماء والأرض وكانت الجميع رتقا ففتقها الله تحت تدبير منظم متقن ظهر به كل منها على ما له من فعلية الذات وآثارها.

هـ. فهذا ما يعطيه النظر الساذج في كينونة هذا العالم المشهود بأجزائها العلوية والسفلية كينونة ممزوجة بالتدبير مقارنة للنظام الجاري في الجميع وقد قربت الأبحاث العلمية الحديثة هذه النظرة حيث

أوضحت أن الأجرام التي تحت الحس مؤلفة من عناصر معدودة مشتركة ولكل منها بقاء محدود وعمر مؤجل وإن اختلفت بالطول والقصر.

و. هذا لو أريد برتق السماوات والأرض عدم تميز بعضها من بعض وبالفتق تميز السماوات من الأرض ولو أريد برتقها عدم الانفصال بين أجزاء كل منهما في نفسه حتى ينزل من السماء شيء أو يخرج من الأرض شيء وبفتقها خلاف ذلك كان المعنى أن السماوات كانت رتقا لا تمطر ففتقناها بالإمطار والأرض كانت رتقا لا تنبت ففتقناها بالإنبات وتم البرهان وربما أيده قوله بعد: ﴿وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ لكنه يختص من بين جميع الحوادث بالإمطار والإنبات، بخلاف البرهان على التقريب الأول.

ز. وذكر بعض المفسرين وارتضاه آخرون أن المراد برتق السماوات والأرض عدم تميز بعضها من بعض حال عدمها السابق، وبفتقها تميز بعضها من بعض في الوجود بعد العدم فيكون احتجاجا بحدوث السماوات والأرض على وجود محدثها وهو الله سبحانه.

• وفيه أن الاحتجاج بالحدوث على المحدث تام في نفسه، لكنه لا ينفع قبال الوثنيين المعترفين بوجوده تعالى واستناد الإيجاد إليه ووجه الكلام إليهم، وإنما ينفع قبالهم من الحجة ما يثبت بها استناد التدبير إليه تعالى تجاه ما يسندون التدبير إلى آلهتهم ويعلقون العبادة على ذلك.

٤. ﴿وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ ظاهر السياق أن الجعل بمعنى الخلق و﴿كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ مفعوله والمراد أن للماء دخلا تاما في وجود ذوي الحياة كما قال: ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ﴾ [النور: ٤٥]، ولعل ورود القول في سياق تعداد الآيات المحسوسة يوجب انصراف الحكم بغير الملائكة ومن يحذو حذوهم، وقد اتضح ارتباط الحياة بالماء بالأبحاث العلمية الحديثة.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في الاحتجاج، وروي: أن عمرو بن عبيد وفد على محمد بن علي الباقر عليه السلام، لامتحانه بالسؤال عنه، فقال له: جعلت فداك ما معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما﴾ ما هذا الرتق والفتق؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: كانت السماء رتقا لا تنزل القطر، وكانت الأرض رتقا لا تخرج النبات، ففتق الله السماء بالقطر وفتق الأرض بالنبات، فانقطع عمرو بن عبيد ولم يجد اعتراضا ومضى.

• أقول: وروي هذا المعنى في روضة الكافي عنه عليه السلام بطريقين.

ب. وفي نهج البلاغة، قال عليه السلام: وفتق بعد الارتتاق صوامت أبوابها.

١٢. جعل الله الرواسي في الأرض والفجاج سبلًا ليهتدوا:

المقطع [١٢] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٧٩»:

١. ﴿وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾:

أ. قال في المجمع: (الرواسي الجبال رست ترسو رسوا إذا ثبتت بثقلها فهي راسية كما ترسو السفينة إذا وقفت متمكنة في وقوفها، والميد الاضطراب بالذهاب في الجهات، والفج الطريق الواسع بين الجبلين)

ب. والمعنى: وجعلنا في الأرض جبالا ثوابت لئلا تميل وتضطرب الأرض بهم وجعلنا في تلك الجبال طرقا واسعة هي سبل لعلهم يهتدون منها إلى مقاصدهم ومواطنهم.

ج. وفيه دلالة على أن للجبال ارتباطا خاصا بالزلازل ولولاها لاضطربت الأرض بقشرها.

١٣. جعل الله السماء سقفاً محفوظاً وإعراض الناس عن آياتها:

المقطع [١٣] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٨٠»:

١. ﴿وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ﴾ كأن المراد بكون السماء محفوظة حفظها من الشياطين كما قال: ﴿وَحَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٧]، والمراد بآيات السماء الحوادث المختلفة السماوية التي تدل على وحدة التدبير واستناده إلى موجدها الواحد.

١٤. خلق الليل والنهار والشمس والقمر وكل في فلك يسبحون:

المقطع [١٤] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٨٠»:

١. ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾:

أ. الآية ظاهرة في إثبات الفلك لكل من الليل وهو الظل المخروطي الملازم لوجه الأرض المخالف لمسامتة الشمس، والنهار وهو خلاف الليل، وللشمس والقمر فالمراد بالفلك مدار كل منها.

ب. والمراد مع ذلك بيان الأوضاع والأحوال الحادثة بالنسبة إلى الأرض وفي جوها وإن كانت حال الأجرام الأخر على خلاف ذلك فلا ليل ولا نهار يقابله للشمس وسائر الثوابت، التي هي نيرة بالذات وللقمر وسائر السيارات الكاسبة للنور من الليل والنهار غير ما لنا.

٢. ﴿يَسْبَحُونَ﴾ من السبح بمعنى الجري في الماء بخرقه قيل وإنما قال: يسبحون لأنه أضاف إليها فعل العقلاء كما قال: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]

١٥. نفي الخلود عن البشر وذكر الموت والابتلاء والمرجع:

المقطع [١٥] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤ـ٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٨٤»:

١. ﴿وما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ﴾ يلوح من الآية أنهم كانوا يسلون أنفسهم بأن النبي ﷺ سيموت فيتخلصون من دعوته وتنجو آلهتهم من طعنة كما حكى ذلك عنهم في مثل قولهم: ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، فأجاب عنه بأنا لم نجعل لبشر من قبلك الخلد حتى يتوقع ذلك لك بل إنك ميت وإنهم ميتون، ولا ينفعهم موتك شيئا فلا أنهم يقبضون على الخلود بموتك، فالجميع ميتون، ولا أن حياتهم القصيرة المؤجلة تخلو من الفتنة والامتحان الإلهي فلا يخلو منه إنسان في حياته الدنيا، ولا أنهم خارجون بالآخرة من سلطاننا بل إلينا يرجعون فنحاسبهم ونجزيهم بما عملوا.

٢. ﴿أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ﴾ ولم يقل: فهم خالدون والاستفهام للإنكار يفيد نفي قصر القلب كأنه قيل: إن قولهم: نتربص به ريب المنون كلام من يرى لنفسه خلودا أنت مزاحمه فيه فلو مت لذهب بالخلود وقبض عليه وعاش عيشة خالدة طيبة ناعمة وليس كذلك بل كل نفس ذائقة الموت، والحياة الدنيا مبنية على الفتنة والامتحان، ولا معنى للفتنة الدائمة والامتحان الخالد بل يجب أن يرجعوا إلى ربهم فيجازيهم على ما امتحنهم وميزهم.

٣. ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ﴾:

أ. لفظ النفس، على ما يعطيه التأمل في موارد استعماله، أصل معناه هو معنى ما أضيف إليه فنفس الشيء معناه الشيء ونفس الإنسان معناه هو الإنسان ونفس الحجر معناه هو الحجر فلو قطع عن الإضافة

لم يكن له معنى محصل، وعلى هذا المعنى يستعمل للتأكيد اللفظي كقولنا: جاءني زيد نفسه أو لإفادة معناه كقولنا: جاءني نفس زيد.

ب. وبهذا المعنى يطلق على كل شيء حتى عليه تعالى كما قال: ﴿كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ﴾ ﴿الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقال: ﴿تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]

ج. ثم شاع استعمال لفظها في شخص الإنسان خاصة وهو الموجود المركب من روح وبدن فصار ذا معنى في نفسه وإن قطع عن الإضافة قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها﴾ أي من شخص إنساني واحد، وقال: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ [المائدة: ٣٢]، أي من قتل إنسانا ومن أحيا إنسانا، وقد اجتمع المعنيان في قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها﴾ فالنفس الأولى بالمعنى الثاني والثانية بالمعنى الأول.

د. ثم استعملوها في الروح الإنساني لما أن الحياة والعلم والقدرة التي بها قوام الإنسان قائمة بها ومنه قوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣]

هـ. ولم يطرد هذان الإطلاقان أعني الثاني والثالث في غير الإنسان كالنبات وسائر الحيوان إلا بحسب الاصطلاح العلمي فلا يقال للواحد من النبات والحيوان عرفا نفس ولا للمبدإ المدبر لجسمه نفس نعم ربما سميت الدم نفسا لأن للحياة توقفا عليها ومنه النفس السائلة.

و. وكذا لا يطلق النفس في اللغة بأحد الإطلاقين الثاني والثالث على الملك والجن وإن كان معتقدهم أن لهما حياة، ولم يرد استعمال النفس فيهما في القرآن أيضا وإن نطقت الآيات بأن للجن تكليفا كالإنسان وموتا وحشرا قال: ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِ وَالْإِنْسِ﴾ [الأحقاف: ١٨]، وقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، هذا ما يتحصل من معنى النفس بحسب عرف اللغة.

ز. وأما الموت فهو فقد الحياة وآثارها من الشعور والإرادة عما من شأنه أن يتصف بها قال تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، وقال في الأصنام: ﴿أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ﴾ [النحل: ٢١]، وأما أنه مفارقة النفس للبدن بانقطاع تعلقها التدبيري كما يعرفه الأبحاث العقلية أو أنه الانتقال من

دار إلى دار كما في الحديث النبوي فهو معنى كشف عنه العقل أو النقل غير ما استقر عليه الاستعمال ومن المعلوم أن الموت بالمعنى الذي ذكر إنما يتصف به الإنسان المركب من الروح والبدن باعتبار بدنه فهو الذي يتصف بفقدان الحياة بعد وجدانه وأما الروح فلم يرد في كلامه تعالى ما ينطق باتصافه بالموت كما لم يرد ذلك في الملك، وأما قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨] فسيجيء إن شاء الله أن الهلاك والصعق غير الموت وإن انطبقا عليه أحيانا.

٤. فقد تبين مما قدمناه:

أ. أولا: أن المراد بالنفس في قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ الإنسان، وهو الاستعمال الثاني من استعمالاتها الثلاث، دون الروح الإنساني إذ لم يعهد نسبة الموت إلى الروح في كلامه تعالى حتى تحمل عليه.

ب. وثانيا: أن الآية إنما تعم الإنسان لا غير كالملك والجن وسائر الحيوان وإن كان بعضها مما يتصف بالموت كالجن والحيوان، ومن القرينة على اختصاص الآية بالإنسان قوله قبله: ﴿وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ وقوله بعده: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ على ما سنوضحه.

٥. وقد ذكر جمع منهم أن المراد بالنفس في الآية الروح، وقد عرفت خلافه وأصر كثير منهم على عموم الآية لكل ذي حياة من الإنسان والملك والجن وسائر الحيوانات حتى النبات إن كان لها حياة حقيقة وقد عرفت ما فيه.

٦. ومن أعجب ما قيل في تقرير عموم الآية ما ذكره الإمام الرازي في التفسير الكبير، بعد ما قرر أن الآية عامة لكل ذي نفس: أن الآية مخصصة فإن له تعالى نفسا كما قال حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ﴾ مع أن الموت مستحيل عليه سبحانه، وكذا الجمادات لها نفوس وهي لا تموت، ثم قال: والعام المخصوص حجة فيبقى معمولا به على ظاهره فيما عدا ما أخرج منه، وذلك يبطل قول الفلاسفة في الأرواح البشرية والعقول المفارقة والنفوس الفلكية أنها لا تموت)

أ. وفيه أولا: أن النفس بالمعنى الذي تطلق عليه تعالى وعلى كل شيء هي النفس بالاستعمال الأول من الاستعمالات الثلاث التي قدمناها لا تستعمل إلا مضافة كما في الآية التي استشهد بها والتي في الآية مقطوعة عن الإضافة فهي غير مرادة بهذا المعنى في الآية قطعا فتبقى النفس بأحد المعنيين الآخرين وقد

عرفت أن المعنى الثالث أيضا غير مراد فيبقى الثاني.

ب. وثانيا: أن نفيه الموت عن الجمادات ينافي قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ﴾ وقوله: ﴿أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ﴾ وغير ذلك.

ج. وثالثا:

• أن قوله: إن عموم الآية يبطل قول الفلاسفة في الأرواح البشرية والعقول المفارقة والنفوس الفلكية خطأ فإن هذه مسائل عقلية يرام السلوك إليها من طريق البرهان، والبرهان حجة مفيدة لليقين فإن كانت الحجج التي أقاموها عليها كلها أو بعضها براهين كما أدعوها لم ينعقد من الآية في مقابلها ظهور والظهور حجة ظنية وكيف يتصور اجتماع العلم مع الظن بالخلاف، وإن لم تكن براهين لم تثبت المسائل ولا حاجة معه إلى ظن بالخلاف.

• ثم إن قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ كما هو تقرير وتثبيت لمضمون قوله قبلا: ﴿وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾، كذلك توطئة وتمهيد لقوله بعد ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ أي ونمتحنكم بما تكرهونه من مرض وفقر ونحوه وما تريدونه من صحة وغنى ونحوهما امتحانا، كأنه قيل: نحيي كلا منكم حياة محدودة مؤجلة ونمتحنكم فيها بالشر والخير امتحانا ثم إلى ربكم ترجعون فيقضي عليكم ولكم.

• وفيه إشارة إلى علة تحتم الموت لكل نفس حية، وهي أن حياة كل نفس حياة امتحانية ابتلائية، ومن المعلوم أن الامتحان أمر مقدمي ومن الضروري أن المقدمة لا تكون خالدة لا تنتهي إلى أمد ومن الضروري أن وراء كل مقدمة ذا مقدمة وبعد كل امتحان موقف تتعين فيه نتيجته فلكل نفس حية موت محتوم ثم لها رجوع إلى الله سبحانه لفصل القضاء.

٧. أحاديث وآثار: أخرج ابن المنذر عن ابن جريح قال: لما نعى جبريل للنبي نفسه قال: يا رب فمن لأمتي؟ فنزلت: ﴿وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ الآية.

• أقول: سياق الآيات وهو سياق العتاب لا يلائم ما ذكر، على أن هذا السؤال لا يلائم موقع النبي ﷺ، على أن النعي كان في آخر حياة النبي والسورة من أقدم السور المكية.

١٦. استهزاء الكفار بالنبي واتخاذه هزواً وكفرهم بالرحمن:

المقطع [١٦] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٨٧»:

١. ﴿وَإِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كافِرُونَ﴾ إن نافية والمراد بقوله: ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً﴾ قصر معاملتهم معه على اتخاذهم إياه هزوا أي لم يتخذوك إلا هزوا يستهزأ به.

٢. ﴿أَهذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ والتقدير يقولون أو قائلين: أهذا الذي إلخ، حكاية كلمة استهزائهم، والاستهزاء في الإشارة إليه بالوصف، ومرادهم ذكره آلهتهم بسوء ولم يصرحوا به أدبا مع آلهتهم وهو نظير قوله: ﴿قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ﴾ الآية: من السورة.

٣. ﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كافِرُونَ﴾:

أ. في موضع الحال من ضمير ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ﴾ أو من فاعل يقولون المقدر وهو أقرب ومحصله أنهم يأنفون لآلهتهم عليك إذ تقول فيها أنها لا تنفع ولا تضر، وهو كلمة حق، فلا يواجهونك إلا بالهزء والإهانة ولا يأنفون لله إذ يكفر بذكره والكافرون هم أنفسهم.

ب. والمراد بذكر الرحمن ذكره تعالى بأنه مفيض كل رحمة ومنعم كل نعمة ولازمه كونه تعالى هو الرب الذي تجب عبادته، وقيل: المراد بالذكر القرآن.

ج. والمعنى: وإذا رآك الذين كفروا وهم المشركون ما يتخذونك ولا يعاملون معك إلا بالهزء والسخرية قائلين بعضهم لبعض أهذا الذي يذكر آلهتكم أي بسوء فيأنفون لآلهتهم حيث تذكرها والحال أنهم بذكر الرحمن كافرون ولا يعدونه جرما ولا يأنفون له.

٤. أحاديث وآثار: أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: مر النبي ﷺ على أبي سفيان وأبي جهل وهما يتحدثان، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال لأبي سفيان: هذا نبي بني عبد مناف، فغضب أبو سفيان فقال: ما تنكرون ليكون لبني عبد مناف نبي؟ فسمعها النبي ﷺ فرجع إلى أبي جهل فوقع به وخوفه وقال: ما أراك منتهيا حتى يصيبك ما أصاب عمك، وقال لأبي سفيان: أما إنك لم تقل ما قلت إلا حمية فنزلت هذه الآية ﴿وَإِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً﴾ الآية.

• أقول: هو كسابقه في عدم انطباق القصة على الآية ذاك الانطباق.

١٧ . خلق الإنسان من عجل وتحذير المستعجلين بالآيات:

المقطع [١٧] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٨٨»:

١ . ﴿خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آياتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾:

أ. كان المشركون على كفرهم بالدعوة النبوية يستهزءون بالنبي ﷺ كلما رأوه، وهو زيادة في الكفر والعتو، والاستهزاء بشيء إنما يكون بالبناء على كونه هزلا غير جد فيقابل الهزل بالهزل لكنه تعالى أخذ استهزاءهم هذا أخذ جد غير هزل فكان الاستهزاء بعد الكفر تعرضا للعذاب الإلهي بعد تعرض وهو الاستعجال بالعذاب فإنهم لا يقنعون بما جاءتهم من الآيات وهم في عافية ويطلبون آيات تجازيهم بما صنعوا، ولذلك عد سبحانه استهزاءهم بعد الكفر استعجالا برؤية الآيات وهي الآيات الملازمة للعذاب وأخبرهم أنه سيريهم إياها.

ب. فقوله: ﴿خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ كناية عن بلوغ الإنسان في العجل كأنه خلق من عجل ولا يعرف سواه نظير ما يقال: فلان خير كله أو شر كله وخلق من خير أو من شر وهو أبلغ من قولنا، ما أعجله وما أشد استعجاله، والكلام وارد مورد التعجيب، وفيه استهانة بأمرهم وأنه لا يعجل بعذابهم لأنهم لا يفوتونه.

٢ . ﴿سَأُرِيكُمْ آياتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ الآية الآتية تشهد بأن المراد بإراءة الآيات تعذيبهم بنار جهنم وهي قوله: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ﴾

١٨ . سؤال الكفار عن موعد العذاب ورد الله بأنه يأتيهم بغتة:

المقطع [١٨] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٨ـ٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٨٩»:

١ . ﴿وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ القائلون هم الذين كفروا والمخاطبون هم النبي

ﷺ والمؤمنون وكان مقتضى الظاهر أن يقولوا؟ إن كنت من الصادقين لكنهم عدلوا إلى ما ترى ليضيفوا إلى تعجيز النبي ﷺ بمطالبته ما لا يقدر عليه إضلال المؤمنين به وإغراؤهم عليه والوعد هو ما اشتملت عليه الآية السابقة وتفسره الآية اللاحقة.

٢. ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ ﴿لَوْ﴾ للتمني و﴿حِينَ﴾ مفعول يعلم على ما قيل وقوله: ﴿لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ أي لا يدفعونها حيث تأخذهم من قدامهم ومن خلفهم وفيه إشارة إلى إحاطتها بهم.

٣. ﴿وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ معطوف على ما تقدمه لرجوع معناه إلى الترديد بالمقابلة والمعنى لا يدفعون النار باستقلال من أنفسهم ولا بنصر من ينصرهم على دفعه، والآية في موضع الجواب لسؤالهم عن الموعد، والمعنى ليت الذين كفروا يعلمون الوقت الذي لا يدفعون النار عن وجوههم ولا عن ظهورهم لا باستقلال من أنفسهم ولا هم ينصرون في دفعها.

٤. ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾:

أ. الذي يقتضيه السياق أن فاعل تأتيهم ضمير راجع إلى النار دون الساعة كما ذهب إليه بعضهم، والجملة إضراب عن قوله في الآية السابقة: ﴿لا يَكُفُّونَ﴾، لا عن مقدر قبله تقديره لا تأتيهم الآيات بحسب اقتراحهم بل تأتيهم بغتة، ولا عن قوله: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بدعوى أنه في معنى النفي والتقدير لا يعلمون ذلك بل تأتيهم بغتة فإن هذه كلها وجوه يأبى عنها السياق.

ب. ومعنى إتيان النار بغتة أنها تفاجئهم حيث لا يدرون من أين تأتيهم وتحيط بهم فإن ذلك لازم ما وصفه الله من أمرها بقوله: ﴿نارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة: ٧]، وقوله: ﴿النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ﴾ [البقرة: ٢٤]، وقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الآية: ٩٨] من السورة، والنار التي هذا شأنها تأخذ باطن الإنسان كظاهره على حد سواء لا كنار الدنيا حتى تتوجه من جهة إلى جهة وتأخذ الظاهر قبل الباطن والخارج قبل الداخل حتى تمهلهم بقطع مسافة أو بتدرج في عمل أو مفارقة في جهة فيحتال لدفعها بتجاف أو تجنب أو إبداء حائل أو الالتجاء إلى ركن بل هي معهم كما أن أنفسهم معهم لا تستطاع ردا إذ لا اختلاف جهة ولا تقبل مهلة إذ لا مسافة بينها وبينهم فلا تسمح لهم في نزولها عليهم إلا البهت والحيرة.

ج. فمعنى الآية، والله أعلم، لا يدفعون النار عن وجوههم وظهورهم بل تأتيهم من حيث لا يشعرون بها ولا يدرون فتكون مباغتة لهم فلا يستطيعون ردها ولا يمهلون في إتيانها.

١٩. الاستهزاء بالرسل السابقين وحلول العذاب بالمستهزئين:

المقطع [١٩] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنبياء: ٤١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٩٠»:

١. ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ قال في المجمع: (الفرق بين السخرية والهزء أن في السخرية معنى طلب الذلة لأن التسخير التذليل فأما الهزء فيقتضي طلب صغر القدر بما يظهر في القول) والحيق الحلول، والمراد بما كانوا به يستهزءون، العذاب وفي الآية تسلية للنبي ﷺ وتخويف وتهديد للذين كفروا.

٢٠. الحفظ الإلهي والمعرضون عن عن ذكر ربهم:

المقطع [٢٠] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٩٠»:

١. ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ الكلاءة الحفظ والمعنى أسألهم من الذي يحفظهم من الرحمن إن أراد أن يعذبهم ثم أضرب عن تأثير الموعظة والإنذار فيهم فقال: ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي القرآن ﴿مُعْرِضُونَ﴾ فلا يعتنون به ولا يريدون أن يصغوا إليه إذا تلوته عليهم وقيل المراد بالذكر مطلق المواعظ والحجج.

٢١. عجز آلهة الكفار عن نصر أنفسهم وتمتيع الله لهم:

المقطع [٢١] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ [الأنبياء: ٤٣-٤٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٩٠»:

١. ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أم منقطعة والاستفهام للإنكار، وكل من ﴿تَمْنَعُهُمْ﴾ و﴿مِنْ دُونِنا﴾ صفة آلهة، والمعنى بل أسألهم ألهم آلهة من دوننا

تمنعهم منا.

٢. ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾ تعليل للنفي المستفاد من الاستفهام الإنكاري ولذا جيء بالفصل والتقدير ليس لهم آلهة كذلك لأنهم لا يستطيعون نصر أنفسهم بأن ينصر بعضهم بعضا ولا هم منا يجأرون ويحفظون فكيف ينصرون عبادهم من المشركين أو يجيرونهم، وذكر بعضهم أن ضمائر الجمع راجعة إلى المشركين والسياق يأباه.

٣. ﴿بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ هو إضراب عن مضمون الآية السابقة كما كان قوله: ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ إضرابا عما تقدمه والمضامين، كما ترى، متقاربة.

٤. ﴿حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ غاية لدوام التمتع المدلول عليه بالجملة السابقة والتقدير بل متعنا هؤلاء المشركين وآباءهم ودام لهم التمتع حتى طال عليهم العمر فاغتروا بذلك ونسوا ذكر الله وأعرضوا عن عبادته، وكذلك كان مجتمع قريش فإنهم كانوا بعد أبيهم إسماعيل قاطنين في حرم آمن متمتعين بأنواع النعم التي تحمل إليهم حتى تسلطوا على مكة وأخرجوا جرهما منها فنسوا ما هم عليه من دين أبيهم إبراهيم وعبدوا الأصنام.

٢٢. نقص الأرض من أطرافها:

المقطع [٢٢] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٩١»:

١. ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها﴾:

أ. الأنسب للسياق أن يكون المراد من نقص الأرض من أطرافها هو انقراض بعض الأمم التي تسكنها فإن لكل أمة أجلا ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون، وقد تقدمت الإشارة إلى أن المراد بطول العمر عليهم طول عمر مجتمعهم.

ب. والمعنى: أفلا يرون أن الأرض تنقص منها أمة بعد أمة بالانقراض بأمر الله فما ذا يمنعه أن يهلكهم أفهم الغالبون إن أرادهم الله سبحانه بضر أو هلاك وانقراض.

ج. وقد مر بعض الكلام في الآية في نظيرتها من سورة الرعد فراجع، واعلم أن في هذه الآيات وجوها من الالتفات لم نتعرض لها لظهورها.

٢٣. إنذار النبي بالوحي:

المقطع [٢٣] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٥ـ٤٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٩١»:

١. ﴿قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ﴾ أي إن الذي أنذركم به وحي إلهي لا ريب فيه وإنما لا يؤثر فيكم أثره وهو الهداية لأن فيكم صمما لا تسمعون الإنذار فالنقص في ناحيتكم لا فيه.

٢. ﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ﴾ النفحة الوقعة من العذاب، والمراد أن الإنذار بآيات الذكر لا ينفعهم بل هؤلاء يحتاجون إلى نفحة من العذاب حتى يضطروا فيؤمنوا ويعترفوا بظلمهم.

٢٤. وضع الموازين القسط يوم القيامة:

المقطع [٢٤] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٩٢»:

١. ﴿وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ القسط العدل وهو عطف بيان للموازين أو صفة للموازين بتقدير مضاف والتقدير الموازين ذوات القسط، وقد تقدم الكلام في معنى الميزان المنصوب يوم القيامة في تفسير سورة الأعراف.

٢. ﴿وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها﴾ الضمير في ﴿وَإِنْ كانَ﴾ للعمل الموزون المدلول عليه بذكر الموازين أي وإن كان العمل الموزون مقدار حبة من خردل في ثقله أتينا بها وكفى بنا حاسبين وحبة الخردل يضرب بها المثل في دقتها وصغرها وحقارتها، وفيه إشارة إلى أن الوزن من الحساب.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في التوحيد، عن علي عليه السلام: في حديث، وقد سأله رجل عما اشتبه عليه من الآيات، وأما قوله تبارك وتعالى ﴿وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ، فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ فهو ميزان العدل، يؤخذ

به الخلائق يوم القيامة، يدين الله تبارك وتعالى الخلق بعضهم ببعض بالموازين.

ب. وفي المعاني، بإسناده إلى هشام قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل؟ ﴿وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ قال؟ هم الأنبياء والأوصياء:

• أقول: ورواه في الكافي، بسند فيه رفع عنه عليه السلام وقد أوردنا روايات أخر في هذه المعاني في تفسير سورة الأعراف وتكلمنا فيها بما تيسر.

٢٥. إيتاء موسى وهارون الفرقان والضياء والذكر للمتقين:

المقطع [٢٥] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٨-٥٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٩٥»:

١. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَهارُونَ الْفُرْقانَ وَضِياءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ﴾:

أ. رجوع بوجه إلى تفصيل ما أجمل في قوله سابقا ﴿وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلَّا رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ الآية بذكر ما أوتي النبيون من المعارف والشرائع وأيدوا بإهلاك أعدائهم بالقضاء بالقسط.

ب. والآية التالية تشهد أن المراد بالفرقان والضياء والذكر التوراة آتاها الله موسى وأخاه هارون شريكه في النبوة.

ج. والفرقان مصدر كالفرق لكنه أبلغ من الفرق، وذكر الراغب أنه على ما قيل اسم لا مصدر وتسمية التوراة الفرقان لكونها فارقة أو لكونها يفرق بها بين الحق والباطل في الاعتقاد والعمل، والآية نظيرة قوله: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣] وتسميتها ضياء لكونها مضيئة لمسيرهم إلى السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، وتسميتها ذكرا لاشتمالها على ما يذكر به الله من الحكم والمواعظ والعبر.

د. ولعل كون الفرقان أحد أسماء التوراة هو الموجب لإتيانه باللام بخلاف ضياء وذكر، وبوجه آخر هي فرقان للجميع لكنها ضياء وذكر للمتقين خاصة لا ينتفع بها غيرهم ولذا جيء بالضياء والذكر منكرين ليتقيدا بقوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ بخلاف الفرقان وقد سميت التوراة نورا وذكرا في قوله تعالى: ﴿فِيها هُدىً وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤] وقوله: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [الآية: ٧] من السورة.

٢. ﴿وَهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾:

أ. الإشارة بهذا إلى القرآن وإنما سمي ذكرا مباركا لأنه ثابت دائم كثير البركات ينتفع به المؤمن به والكافر في المجتمع البشري وتتنعم به الدنيا سواء عرفته أو أنكرته أقرت بحقه أو جحدته.

ب. يدل على ذلك تحليل ما نشاهد اليوم من آثار الرشد والصلاح في المجتمع العام البشري والرجوع بها القهقرى إلى عصر نزول القرآن فما قبله فهو الذكر المبارك الذي يسترشد بمعناه وإن جهل الجاهلون لفظه، وأنكر الجاحدون حقه وكفروا بعظيم نعمته، وأعانهم على ذلك المسلمون بإهمالهم في أمره، ﴿وَقالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾

٢٦. إيتاء إبراهيم رشده وحواره مع قومه في عبادة التماثيل:

المقطع [٢٦] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١-٥٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٩٦»:

١. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عالِمِينَ﴾:

أ. انعطاف إلى ما قبل موسى وهارون ونزول التوراة كما يفيده قوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ والمراد أن إيتاء التوراة لموسى وهارون لم يكن بدعا من أمرنا بل أقسم لقد آتينا قبل ذلك إبراهيم رشده.

ب. والرشد خلاف الغي وهو إصابة الواقع، وهو في إبراهيم عليه السلام اهتداؤه الفطري التام إلى التوحيد وسائر المعارف الحقة وإضافة الرشد إلى الضمير الراجع إلى إبراهيم تفيد الاختصاص وتعطي معنى اللياقة ويؤيد ذلك قوله بعده: ﴿وَكُنَّا بِهِ عالِمِينَ﴾ وهو كناية عن العلم بخصوصية حاله ومبلغ استعداده.

ج. والمعنى: وأقسم لقد أعطينا إبراهيم ما يستعد له ويليق به من الرشد وإصابة الواقع وكنا عالمين بمبلغ استعداده ولياقته، والذي آتاه الله سبحانه، كما تقدم، هو ما أدركه بصفاء فطرته ونور بصيرته من حقيقة التوحيد وسائر المعارف الحقة من غير تعليم معلم أو تذكير مذكر أو تلقين ملقن.

٢. ﴿إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ﴾:

أ. التمثال الشيء المصور والجمع تماثيل، والعكوف الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم له كذا ذكره الراغب فيهما.

ب. يريد عليه السلام بهذه التماثيل الأصنام التي كانوا نصبوها للعبادة وتقريب القرابين وكان سؤاله عن حقيقتها ليعرف ما شأنها وقد كان أول وروده في المجتمع وقد ورد في مجتمع ديني يعبدون التماثيل والأصنام والسؤال مع ذلك مجموع سؤالين اثنين وسؤاله أباه عن الأصنام كان قبل سؤاله قومه على ما أشير إليه في سورة الأنعام ومعنى الآية ظاهر.

٣. ﴿قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ﴾ هو جواب القوم ولما كان سؤاله عليه السلام عن حقيقة الأصنام راجعا بالحقيقة إلى سؤال السبب لعبادتهم إياها تمسكوا في التعليل بذيل السنة القومية فذكروا أن ذلك من سنة آبائهم وجدوهم يعبدونها.

٤. ﴿قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ ووجه كونهم في ضلال مبين ما سيورده في محاجة القوم بعد كسر الأصنام من قوله: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ﴾

٥. ﴿قالُوا أَجِئْتَنا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ سؤال تعجب واستبعاد وهو شأن المقلد التابع من غير بصيرة إذا صادف إنكارا لما هو فيه استبعد ولم يكد يذعن بأنه مما يمكن أن ينكره منكر ولذا سألوه أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين والمراد بالحق، على ما يعطيه السياق، الجد أي أتقول ما تقوله جدا أم تلعب به؟

٦. ﴿قالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾:

أ. هو عليه السلام، كما ترى، يحكم بأن ربهم هو رب السماوات وأن هذا الرب هو الذي فطر السماوات والأرض وهو الله سبحانه، وفي ذلك مقابلة تامة لمذهبهم في الربوبية والألوهية فإنهم يرون أن لهم إلها أو آلهة غير ما للسماوات والأرض من الإله أو الآلهة، وهم جميعا غير الله سبحانه ولا يرونه تعالى إلها لهم ولا لشيء من السماوات والأرض بل يعتقدون أنه إله الآلهة ورب الأرباب وفاطر الكل.

ب. فقوله: ﴿بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ رد لمذهبهم في الألوهية بجميع جهاته وإثبات أن لا إله إلا الله وهو التوحيد.

ج. ثم كشف عليه السلام بقوله: ﴿وَأَنَا عَلَى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ عن أنه معترف مقر بما قاله ملتزم بلوازمه وآثاره شاهد عليه شهادة إقرار والتزام فإن العلم بالشيء غير الالتزام به وربما تفارقا كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]

د. وبهذا التشهد يتم الجواب عن سؤالهم أهو مجد فيما يقول أم لاعب؟ والجواب لا بل أعلم بذلك وأتدين به.

هـ. هذا ما يعطيه السياق في معنى الآية، ولهم في تفسيرها أقاويل أخر وكذا في معاني آيات القصة السابقة واللاحقة وجوه أخر أضربنا عنها لعدم جدوى في التعرض لها فلا سياق الآيات يساعد عليها ولا مذاهب الوثنية توافقها.

٢٧. عزم إبراهيم على كيد الأصنام وتكسيرها:

المقطع [٢٧] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٧-٦١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٢٩٨»:

١. ﴿وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾:

أ. معطوف على قوله: ﴿بَلْ رَبُّكُمْ﴾ أي قال لأكيدن أصنامكم.، والكيد التدبير الخفي على الشيء بما يسوؤه، وفي قوله: ﴿بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ دلالة على أنهم كانوا يخرجون من البلد أو من بيت الأصنام أحيانا لعيد كان لهم أو نحوه فيبقى الجو خاليا.

ب. وسياق القصة وطبع هذا الكلام يستدعي أن يكون قوله: ﴿وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ﴾ بمعنى تصميمه العزم على أن يكيد أصنامهم فكثيرا ما يعبر عن تصميم العزم بالقول يقال: لأفعلن كذا لقول قلته أي لعزم صممته.

ج. ومن البعيد أن يكون مخاطبا به القوم وهم أمة وثنية كبيرة ذات قوة وشوكة وحمية وعصبية ولم يكن فيهم يومئذ، وهو أول دعوة إبراهيم، موحد غيره فلم يكن من الحزم أن يخبر القوم بقصده أصنامهم بالسوء وخاصة بالتصريح على أن ذلك منه بالكيد يوم تخلو البلدة أو بيت الأصنام من الناس كمن يفشي

سرا لمن يريد أن يكتمه منه اللهم إلا أن يكون مخاطبا به بعض القوم ممن لا يتعداهم القول وأما إعلان السر لعامتهم فلا قطعا.

٢. ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ قال الراغب: (الجذ كسر الشيء وتفتيته ويقال لحجارة الذهب المكسورة ولفتات الذهب جذاذا ومنه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً﴾) فالمعنى فجعل الأصنام قطعا مكسورة إلا صنما كبيرا من بينهم.

٣. ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾:

أ. ظاهر السياق أن هذا الترجي لبيان ما كان يمثله فعله أي كان فعله هذا حيث كسر الجميع إلا واحدا كبيرا لهم فعل من يريد بذلك أن يرى القوم ما وقع على أصنامهم من الجذ ويجدوا كبيرهم سالما بينهم فيرجعوا إليه ويتهموه في أمرهم كمن يقتل قوما ويترك واحدا منهم ليتهم في أمرهم.

ب. وعلى هذا فالضمير في قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ راجع إلى ﴿كَبِيراً لَهُمْ﴾ ويؤيد هذا المعنى أيضا قول إبراهيم الآتي: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا﴾ في جواب قولهم: ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا﴾

ج. والجمهور من المفسرين على أن ضمير ﴿إِلَيْهِ﴾ لإبراهيم عليه السلام والمعنى فكسر الأصنام وأبقى كبيرهم لعل الناس يرجعون إلى إبراهيم فيحاجهم ويبكتهم ويبين بطلان ألوهية أصنامهم، وذهب بعضهم إلى أن الضمير لله سبحانه والمعنى فكسرهم وأبقاه لعل الناس يرجعون إلى الله بالعبادة لما رأوا حال الأصنام وتنبهوا من كسرها أنها ليست بآلهة كما كانوا يزعمون.

د. وغير خفي أن لازم القولين كون قوله: ﴿إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ﴾ مستدركا وإن تكلف بعضهم في دفع ذلك بما لا يغني عن شيء، وكان المانع لهم من إرجاع الضمير إلى ﴿كَبِيراً﴾ عدم استقامة الترجي على هذا التقدير لكنك عرفت أن ذلك لبيان ما يمثله فعله عليه السلام لمن يشهد صورة الواقعة لا لبيان ترج جدي من إبراهيم عليه السلام.

٤. ﴿قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ استفهام بداعي التأسف وتحقيق الأمر للحصول على الفاعل المرتكب للظلم ويؤيد ذلك قوله تلوا: ﴿قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ فقول بعضهم: إن (من موصولة) ليس بسديد.

٥. ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قضاء منهم بكونه ظالما يجب أن يساس على ظلمه إذ قد ظلم الآلهة بالتعدي

إلى حقهم وهو التعظيم وظلم الناس بالتعدي إلى حقهم وهو احترام آلهتهم وتقديس مقدساتهم وظلم نفسه بالتعدي إلى ما ليس له بحق وارتكاب ما لم يكن له أن يرتكبه.

٦. ﴿قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ﴾:

أ. المراد بالذكر، على ما يستفاد من المقام، الذكر بالسوء أي سمعنا فتى يذكر الآلهة بالسوء فإن يكن فهو الذي فعل هذا بهم إذ لا يتجرأ لارتكاب مثل هذا الجرم إلا مثل ذاك المتجري.

ب. ﴿يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ﴾ برفع إبراهيم وهو خبر لمبتدإ محذوف والتقدير هو إبراهيم كذا ذكره الزمخشري.

٧. ﴿قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾:

أ. المراد بإتيانه على أعين الناس إحضاره في مجمع من الناس ومرآهم وهو حيث كسرت الأصنام كما يظهر من قول إبراهيم عليه السلام: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا﴾ بالإشارة إلى كبير الأصنام.

ب. وكأن المراد بشهادتهم أن يشهدوا عليه بأنه كان يذكرهم بالسوء فيكون ذلك ذريعة إلى أخذ الإقرار منه بالجذ والكسر، وأما ما قيل: إن المراد شهادتهم عقاب إبراهيم على ما فعل فبعيد.

٢٨. مواجهة إبراهيم لقومه وإثبات عجز الأصنام:

المقطع [٢٨] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٢-٦٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٠٠»:

١. ﴿قالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ﴾ الاستفهام، كما قيل، للتقرير بالفاعل فإن أصل الفعل مفروغ عنه معلوم الوقوع وفي قولهم ﴿بِآلِهَتِنا﴾ تلويح إلى أنهم ما كانوا يعدونه من عبدة الأصنام.

٢. ﴿قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ﴾ ما أخبر عليه السلام به بقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا﴾ دعوى بداعي إلزام الخصم وفرض وتقدير قصد به إبطال ألوهيتها كما سيصرح به في قوله: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ﴾، وليس بخبر جدي البتة، وهذا كثير الورود

في المخاصمات والمناظرات فالمعنى قال: بل شاهد الحال وهو صيرورة الجميع جذاذا وبقاء كبيرهم سالما يشهد أن قد فعله كبيرهم هذا وهو تمهيد لقوله: ﴿فَسْئَلُوهُمْ﴾

٣. ﴿فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ﴾:

أ. أمر بأن يسألوا الأصنام عن حقيقة الحال وأن الذي فعل بهم هذا من هو؟ فيخبروهم به إن كانوا ينطقون فقوله: ﴿إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ﴾ شرط جزاؤه محذوف يدل عليه قوله: ﴿فَسْئَلُوهُمْ﴾

ب. فتحصل أن الآية على ظاهرها من غير تكلف إضمار أو تقديم وتأخير أو محذور تعقيد، وأن صدرها المتضمن لدعوى استناد الفعل إلى كبيرهم إلزام للخصم وتوطئة وتمهيد لذيلها وهو أمرهم بسؤال الأصنام إن نطقوا لينتهي إلى اعتراف القوم بأنهم لا ينطقون.

ج. وربما قيل: إن قوله: ﴿إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ﴾ قيد لقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ والتقدير: بل إن كانوا ينطقون فعله كبيرهم، وإذ كان نطقهم محالا فالفعل منه كذلك وقوله: (فاسألوا) جملة معترضة.

د. وربما قيل: إن فاعل قوله: ﴿فَعَلَهُ﴾ محذوف والتقدير بل فعله من فعله ثم ابتدأ فقيل: كبيرهم هذا فاسألوهم.، وربما قيل: غير ذلك وهي وجوه غير خالية من التكلف لا يخلو الكلام معها من التعقيد المنزه عنه كلامه تعالى.

٤. ﴿فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾:

أ. تفريع على قوله: ﴿فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ﴾ فإنهم لما سمعوا منه ذلك وهم يرون أن الأصنام جمادات لا شعور لها ولا نطق تمت عند ذلك عليهم الحجة فقضى كل منهم على نفسه أنه هو الظالم دون إبراهيم فقوله: ﴿فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ﴾ استعارة بالكناية عن تنبههم وتفكرهم في أنفسهم، وقوله: ﴿فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي قال كل لنفسه مخاطبا لها: إنك أنت الظالم حيث تعبد جمادا لا ينطق.

ب. وقيل: المعنى فرجع بعضهم إلى بعض وقال بعضهم لبعض إنكم أنتم الظالمون وأنت خبير بأن ذلك لا يناسب المقام وهو مقام تمام الحجة على الجميع واشتراكهم في الظلم ولو بني على قول بعضهم لبعض في مقام هذا شأنه لكان الأنسب أن يقال: إنا نحن الظالمون كما في نظائره قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا طاغِينَ﴾ [القلم: ٣١]، وقال: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: ٦٧]

٥. ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ﴾:

أ. قال الراغب: (النكس قلب الشيء على رأسه ومنه نكس الولد إذا خرج رجله قبل رأسه قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُسِهِمْ﴾) فقوله: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُسِهِمْ﴾ كناية أو استعارة بالكناية عن قلبهم الباطل على مكان الحق الذي ظهر لهم والحق على مكان الباطل كأن الحق علا في قلوبهم الباطل فنكسوا على رءوسهم فرفعوا الباطل وهو كون إبراهيم ظالما على الحق وهو كونهم هم الظالمين فخصموا إبراهيم بقولهم ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ﴾

ب. ومعنى قولهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾، أن دفاعك عن نفسك برمي كبير الأصنام بالفعل وهو الجذ وتعليق ذلك باستنطاق الآلهة مع العلم بأنهم لا ينطقون دليل على أنك أنت الفاعل الظالم فالجملة كناية عن ثبوت الجرم وقضاء على إبراهيم.

٦. ﴿قالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ﴾:

أ. لما تفوهوا بقولهم: ﴿ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ﴾ وسمعه إبراهيم لم يشتغل بالدفاع فلم يكن قاصدا لذلك من أول بل استفاد من كلامهم لدعوته الحقة فخصمهم بلازم قولهم وأتم الحجة عليهم في كون أصنامهم غير مستحقة للعبادة أي غير آلهة.

ب. فما حصل تفريع قوله: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ﴾ أن لازم كونهم لا ينطقون أن لا يعلموا شيئا ولا يقدروا على شيء، ولازم ذلك أن لا ينفعوكم شيئا ولا يضروكم، ولازم ذلك أن يكون عبادتهم لغوا إذ العبادة إما لرجاء خير أو لخوف شر وليس عندهم شيء من ذلك فليسوا بآلهة.

٧. ﴿أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ تزجر وتبر منهم ومن آلهتهم بعد إبطال ألوهيتها، وهذا كشهادته على وحدانيته تعالى بعد إثباتها في قوله فيما مر: ﴿وَأَنَا عَلَى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾، وقوله: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ توبيخ لهم.

٢٩. إلقاء إبراهيم في النار ونجاته منها:

المقطع [٢٩] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء:

٦٨ـ٧٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٠٢»:

١. ﴿قالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ﴾:

أ. هو عليه السلام وإن أبطل بكلامه السابق ألوهية الأصنام وكان لازمه الضمني أن لا يكون كسرهم ظلما وجرما لكنه لوح بكلامه إلى أن رميه كبير الأصنام بالفعل وأمرهم أن يسألوا الآلهة عن ذلك لم يكن لدفع الجرم عن نفسه بل كان تمهيدا لإبطال ألوهية الآلهة وبهذا المقدار من السكوت وعدم الرد قضوا عليه بثبوت الجرم وأن جزاءه أن يحرق بالنار.

ب. ولذلك قالوا: حرقوه وانصروا آلهتكم بتعظيم أمرهم ومجازاة من أهان بهم وقولهم: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ﴾ تهييج وإغراء.

٢. ﴿قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ﴾:

أ. خطاب تكويني للنار تبدلت به خاصة حرارتها وإحراقها وإفنائها بردا وسلاما بالنسبة إلى إبراهيم عليه السلام على طريق خرق العادة، وبذلك يظهر أن لا سبيل لنا إلى الوقوف على حقيقة الأمر فيه تفصيلا إذ الأبحاث العقلية عن الحوادث الكونية إنما تجري فيما لنا علم بروابط العلية والمعلولية فيه من العاديات المتكررة، وأما الخوارق التي نجهل الروابط فيها فلا مجرى لها فيها، نعم نعلم إجمالا أن لهمم النفوس دخلا فيها وقد تكلمنا في ذلك في مباحث الإعجاز في الجزء الأول من الكتاب.

ب. والفصل في قوله: ﴿قُلْنا﴾، لكونه في معنى جواب سؤال مقدر وتقدير الكلام بما فيه من الحذف إيجازا نحو من قولنا: فأضرموا نارا وألقوه فيها فكأنه قيل: فما ذا كان بعده فقيل: ﴿قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ﴾، وعلى هذا النحو الفصل في كل ﴿قالَ﴾ و﴿قالُوا﴾ في الآيات السابقة من القصة.

٣. ﴿وَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ أي احتالوا عليه ليطفئوا نوره ويبطلوا حجته فجعلناهم الأخسرين حيث خسروا ببطلان كيدهم وعدم تأثيره وزادوا خسارة حيث أظهره الله عليهم بالحفظ والإنجاء.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في روضة الكافي: علي بن إبراهيم عن أبيه عن أحمد بن محمد بن أبي نصر عن أبان بن عثمان عن

حجر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: خالف إبراهيم ﷺ قومه وعاب آلهتهم إلى قوله، فلما تولوا عنه مدبرين إلى عيد لهم، دخل إبراهيم عليه السلام إلى آلهتهم بقدوم، فكسرها إلا كبيرا لهم ووضع القدوم في عنقه، فرجعوا إلى آلهتهم فنظروا إلى ما صنع بها فقالوا: لا والله ما اجترى عليها ولا كسرها، إلا الفتى الذي كان يعيبها ويبرأ منها فلم يجدوا له قتلة أعظم من النار، فجمع له الحطب واستجادوه، حتى إذا كان اليوم الذي يحرق فيه، برز له نمرود وجنوده وقد بني له بناء لينظر إليه، كيف تأخذه النار؟ ووضع إبراهيم في منجنيق، وقالت الأرض: يا رب ليس على ظهري أحد، يعبدك غيره يحرق بالنار؟ قال الرب إن دعاني كفيته، فذكر أبان عن محمد بن مروان عمن رواه عن أبي جعفر عليه السلام: أن دعاء إبراهيم ﷺ يومئذ كان: يا أحد يا أحد يا صمد يا صمد، يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، ثم قال: توكلت على الله فقال الرب تبارك وتعالى: كفيت فقال للنار: كوني بردا! قال: فاضطربت أسنان إبراهيم من البرد حتى قال الله عز وجل، وسلاما على إبراهيم وانحط جبرئيل، فإذا هو جالس مع إبراهيم يحدثه في النار، قال نمرود من اتخذ إلها فليتخذ مثل إله إبراهيم، قال: فقال عظيم من عظمائهم: إني عزمت على النار أن لا تحرقه، فأخذ عنق من النار نحوه حتى أحرقه قال: فآمن له لوط فخرج مهاجرا إلى الشام هو وسارة ولوط.

ب. وفيه، أيضا عن علي بن إبراهيم عن أبيه وعدة من أصحابنا عن سهل بن زياد جميعا عن الحسن بن محبوب عن إبراهيم بن أبي زياد الكرخي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن إبراهيم ﷺ لما كسر أصنام نمرود، أمر به نمرود فأوثق وعمل له حيرا وجمع له فيه الحطب، وألهب فيه النار ثم قذف إبراهيم في النار، لتحرقه ثم اعتزلوها حتى خمدت النار، ثم أشرفوا على الحير فإذا هم بإبراهيم سليما مطلقا من وثاقه، فأخبر نمرود خبره فأمر أن ينفوا إبراهيم من بلاده، وأن يمنعوه من الخروج بماشيته وماله، فحاجهم إبراهيم عند ذلك فقال: إن أخذتم ماشيتي ومالي، فحقي عليكم أن تردوا علي ما ذهب من عمري في بلادكم، واختصموا إلى قاضي نمرود وقضى على إبراهيم، أن يسلم إليهم جميع ما أصاب في بلادهم، وقضى على أصحاب نمرود أن يردوا على إبراهيم، ما ذهب من عمره في بلادهم، فأخبر بذلك نمرود فأمرهم أن يخلوا سبيله وسبيل ماشيته وماله، وأن يخرجوه، وقال: إنه إن بقي في بلادكم أفسد دينكم، وأضر بالهتكم، الحديث.

ج. وفي العلل، بإسناده إلى عبد الله بن هلال قال قال أبو عبد الله عليه السلام: لما ألقي إبراهيم

عليه السلام في النار تلقاه جبرئيل في الهواء وهو يهوي، فقال: يا إبراهيم ألك حاجة فقال: أما إليك فلا.

• أقول: وقد ورد حديث قذفه بالمنجنيق في عدة من الروايات من العامة والخاصة وكذا قول جبريل له: ألك حاجة؟ وقوله: أما إليك فلا، رواه الفريقان.

د. أخرج الفاريابي وابن أبي شيبة وابن جرير عن علي بن أبي طالب: في قوله: ﴿قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً﴾ قال: بردت عليه حتى كادت تؤذيه حتى قيل: وسلاما قال: لا تؤذيه.

٣٠. نجاة إبراهيم ولوط وهبة إسحاق ويعقوب وجعلهم أئمة:

المقطع [٣٠] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١-٧٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٠٣»:

١. ﴿وَنَجَّيْناهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ﴾ الأرض المذكورة هي أرض الشام التي هاجر إليها إبراهيم، ولوط أول من آمن به وهاجر معه كما قال تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦]

٢. ﴿وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً﴾ النافلة العطية وقد تكرر البحث عن مضمون الآيتين.

٣. ﴿وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا﴾:

أ. الظاهر، كما يشير إليه ما يدل من الآيات على جعل الإمامة في عقب إبراهيم عليه السلام، رجوع الضمير في ﴿جَعَلْناهُمْ﴾ إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

ب. وظاهر قوله: ﴿أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا﴾ أن الهداية بالأمر يجري مجرى المفسر لمعنى الإمامة، وقد تقدم الكلام في معنى هداية الإمام بأمر الله في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً﴾ [البقرة: ١٢٤] في الجزء الأول من الكتاب.

ج. والذي يخص المقام أن هذه الهداية المجعولة من شئون الإمامة ليست هي بمعنى إراءة الطريق لأن الله سبحانه جعل إبراهيم عليه السلام إماما بعد ما جعله نبيا، كما أوضحناه في تفسير قوله: ﴿إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً﴾ فيما تقدم، ولا تنفك النبوة عن الهداية بمعنى إراءة الطريق فلا يبقى للإمامة إلا

الهداية بمعنى الإيصال إلى المطلوب وهي نوع تصرف تكويني في النفوس بتسييرها في سير الكمال ونقلها من موقف معنوي إلى موقف آخر.

د. وإذ كانت تصرفا تكوينيا وعملا باطنيا فالمراد بالأمر الذي تكون به الهداية ليس هو الأمر التشريعي الاعتباري بل ما يفسره في قوله: ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس: ٨٣] فهو الفيوضات المعنوية والمقامات الباطنية التي يهتدي إليها المؤمنون بأعمالهم الصالحة ويتلبسون بها رحمة من ربهم.

هـ. وإذ كان الإمام يهدي بالأمر، والباء للسببية أو الآلة فهو متلبس به أولا ومنه ينتشر في الناس على اختلاف مقاماتهم فالإمام هو الرابط بين الناس وبين ربهم في إعطاء الفيوضات الباطنية وأخذها كما أن النبي رابط بين الناس وبين ربهم في أخذ الفيوضات الظاهرية وهي الشرائع الإلهية تنزل بالوحي على النبي وتنتشر منه وبتوسطه إلى الناس وفيهم، والإمام دليل هاد للنفوس إلى مقاماتها كما أن النبي دليل يهدي الناس إلى الاعتقادات الحقة والأعمال الصالحة، وربما تجتمع النبوة والإمامة كما في إبراهيم وابنيه.

٤. ﴿وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ﴾:

أ. إضافة المصدر إلى معموله تفيد تحقق معناه في الخارج فإن أريد أن لا يفيد الكلام ذلك جيء بالقطع عن الإضافة أو بأن وأن الدالتين على تأويل المصدر نص على ذلك الجرجاني في دلائل الإعجاز فقولنا: يعجبني إحسانك وفعلك الخير وقوله تعالى: ﴿ما كانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ﴾) [البقرة: ٤٣] أيدل على الوقوع قبلا، وقولنا: يعجبني أن تحسن وأن تفعل الخير وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤] لا يدل على تحقق قبلي، ولذا كان المألوف في آيات الدعوة وآيات التشريع الإتيان بأن والفعل دون المصدر المضاف كقوله: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ﴾) [الرعد: ٣٦]، و﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠] ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ [الأنعام: ٧٢]

ب. وعلى هذا فقوله: ﴿وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ﴾، يدل على تحقق الفعل أي أن الوحي تعلق بالفعل الصادر عنهم أي أن الفعل كان يصدر عنهم بوحي مقارن له ودلالة إلهية باطنية هو غير الوحي المشرع الذي يشرع الفعل أولا ويترتب عليه إتيان الفعل على ما شرع.

ج. ويؤيد هذا الذي ذكر قوله بعد: ﴿وَكانُوا لَنا عابِدِينَ﴾ فإنه يدل بظاهره على أنهم كانوا قبل

ذلك عابدين لله ثم أيدوا بالوحي وعبادتهم لله إنما كانت بأعمال شرعها لهم الوحي المشرع قبلا فهذا الوحي المتعلق بفعل الخيرات وحي تسديد ليس وحي تشريع.

د. فالمحصل أنهم كانوا مؤيدين بروح القدس والطهارة مسددين بقوة ربانية تدعوهم إلى فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهي الإنفاق المالي الخاص بشريعتهم.

هـ. والقوم حملوا الوحي في الآية على وحي التشريع فأشكل عليهم الأمر أولا من جهة أن فعل الخيرات بالمعنى المصدري ليس متعلقا للوحي بل متعلقه حاصل الفعل، وثانيا أن التشريع عام للأنبياء وأممهم وقد خص في الآية بهم، ولذا ذكر الزمخشري أن المراد بفعل الخيرات وما يتلوه من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة المصدر المبني للمفعول، والمعنى وأوحينا إليهم أن يفعل الخيرات، بالبناء للمجهول، وهكذا، وبه يندفع الإشكالان إذ المصدر المبني للمفعول وحاصل الفعل كالمترادفين فيندفع الإشكال الأول، والفاعل فيه مجهول ينطبق على الأنبياء وأممهم جميعا فيندفع الإشكال الثاني وقد كثر البحث حول ما ذكره، وفيه:

- أولا: منع ما ذكره من اتحاد معنى المصدر المبني للمفعول وحاصل الفعل.
- وثانيا: ما قدمناه من أن إضافة المصدر إلى معموله تفيد تحقق الفعل ولا يتعلق الوحي التشريعي به.

٥. وقد تقدمت قصة إبراهيم عليه السلام في تفسير سورة الأنعام وقصة يعقوب عليه السلام في تفسير سورة يوسف من الكتاب، وستجيء قصة إسحاق في تفسير سورة الصافات إن شاء الله تعالى.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، والعيون، عن الرضا عليه السلام في حديث في الإمامة قال: ثم أكرمه الله عز وجل يعني إبراهيم، بأن جعلها يعني الإمامة في ذريته وأهل الصفوة والطهارة، فقال عز وجل: ﴿وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً، وَكُلًّا جَعَلْنا صالِحِينَ وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا، وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ، وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ وَكانُوا لَنا عابِدِينَ﴾ فلم تزل في ذريته يرثها بعض عن بعض قرنا قرنا، حتى ورثها النبي ﷺ فقال الله جل جلاله: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ، وَهذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فكانت خاصة، فقلدها علي عليه السلام بأمر الله عز وجل على رسم ما فرض الله تعالى،

فصارت في ذريته الأصفياء الذين آتاهم الله العلم والإيمان، بقوله تعالى: ﴿قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ، لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ فهي في ولد علي بن أبي طالب عليه السلام خاصة إلى يوم القيامة، إذ لا نبي بعد محمد ﷺ.

ب. وفي المعاني، بإسناده عن يحيى بن عمران عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً﴾ قال: ولد الولد نافلة.

• أقول: والروايات في قصص إبراهيم عليه السلام كثيرة جدا لكنها مختلفة اختلافا شديدا في الخصوصيات مما لا يرجع إلى منطوق الكتاب، وقد اكتفينا منها بما قدمناه وقد أوردنا ما هو المستخرج من قصصه من كلامه تعالى في تفسير سورة الأنعام.

٣١. إيتاء لوط الحكم والعلم ونجاته من القرية الخبيثة:

المقطع [٣١] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤ـ٧٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٠٦»:

١. ﴿وَلُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ إلى آخر الآيتين، الحكم بمعنى فصل الخصومات أو بمعنى الحكمة والقرية التي كانت تعمل الخبائث سدوم التي نزل بها لوط في مهاجرته مع إبراهيم عليه السلام، والمراد بالخبائث الأعمال الخبيثة، والمراد بالرحمة الولاية أو النبوة ولكل وجه.

٢. وقد تقدمت قصة لوط عليه السلام في تفسير سورة هود من الكتاب.

٣٢. استجابة دعاء نوح ونجاته وأهله وإغراق المكذبين:

المقطع [٣٢] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٦ـ٧٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٠٦»:

١. ﴿وَنُوحاً إِذْ نادى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنا لَهُ﴾ إلى آخر الآيتين، أي واذكر نوحا إذ نادى ربه قبل إبراهيم ومن ذكر معه فاستجبنا له، ونداؤه ما حكاه سبحانه من قوله: ﴿فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ والمراد بأهله خاصته إلا امرأته وابنه الغريق، والكرب الغم الشديد، وقوله: ﴿وَنَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ﴾ كأن

النصر مضمن معنى الإنجاء ونحوه ولذا عدي بمن والباقي ظاهر.

٢. وقد تقدمت قصة نوح عليه السلام في تفسير سورة هود من الكتاب.

٣٣. قصة داود وسليمان في حكم الحرث وإيتاؤهما الحكم والعلم:

المقطع [٣٣] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨-٧٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣١٠»:

١. ﴿وَداوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾:

أ. الحرث الزرع والحرث أيضا الكرم، والنفش رعي الماشية بالليل، وفي المجمع: (النفش بفتح الفاء وسكونها أن تنتشر الإبل والغنم بالليل فترعى بلا راع)

ب. ﴿وَداوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ﴾ السياق يعطي أنها واقعة واحدة بعينها رفع حكمها إلى داود لكونه هو الملك الحاكم في بني إسرائيل وقد جعله الله خليفة في الأرض كما قال: ﴿يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦] فإن كان سليمان يداخل في حكم الواقعة فعن إذن منه ولحكمة ما ولعلها إظهار أهليته للخلافة بعد داود.

ج. ومن المعلوم أن لا معنى لحكم حاكمين في واقعة واحدة شخصية مع استقلال كل واحد منهما في الحكم ونفوذه، ومن هنا يظهر أن المراد بقوله: ﴿إِذْ يَحْكُمانِ﴾ إذ يتناظران أو يتشاوران في الحكم لا إصدار الحكم النافذ، ويؤيده كمال التأييد التعبير بقوله: ﴿إِذْ يَحْكُمانِ﴾ على نحو حكاية الحال الماضية كأنهما أخذا في الحكم أخذا تدريجيا لم يتم بعد ولن يتم إلا حكما واحدا نافذا وكان الظاهر أن يقال: إذ حكما.

د. ويؤيده أيضا قوله: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ﴾ فإن الظاهر أن ضمير ﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ للأنبياء وقد تكرر في كلامه تعالى أنه آتاهم الحكم لا كما قيل: إن الضمير لداود وسليمان والمحكوم لهم إذ لا وجه يوجه به نسبة الحكم إلى المحكوم لهم أصلا فكان الحكم حكما واحدا هو حكم الأنبياء والظاهر أنه ضمان صاحب الغنم للمال الذي أتلفته غنمه.

هـ. فكان الحكم حكما واحدا اختلفا في كيفية إجرائه عملا إذ لو كان الاختلاف في أصل الحكم لكان فرض صدور حكمين منهما بأحد وجهين إما بكون كلا الحكمين حكما واقعيا لله ناسخا أحدهما،

وهو حكم سليمان، الآخر وهو حكم داود لقوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ﴾ وإما بكون الحكمين معا عن اجتهاد منهما بمعنى الرأي الظني مع الجهل بالحكم الواقعي وقد صدق تعالى اجتهاد سليمان فكان هو حكمه:

• أما الأول وهو كون حكم سليمان ناسخا لحكم داود فلا ينبغي الارتياب في أن ظاهر جمل الآية لا يساعد عليه إذ الناسخ والمنسوخ متباينان ولو كان حكماهما من قبيل النسخ ومتباينين لقيل: وكنا لحكمهما أو لحكميهما ليدل على التعدد والتباين ولم يقل: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ﴾ المشعر بوحدة الحكم وكونه تعالى شاهدا له الظاهر في صونهم عن الخطإ، ولو كان داود حكم في الواقعة بحكم منسوخ لكان على الخطإ، ولا يناسبه أيضا قوله: ﴿وَكُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً﴾ وهو مشعر بالتأييد ظاهر في المدح.

• وأما الثاني وهو كون الحكمين عن اجتهاد منهما مع الجهل بحكم الله الواقعي فهو أبعد من سابقه لأنه تعالى يقول: ﴿فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ﴾ وهو العلم بحكم الله الواقعي وكيف ينطبق على الرأي الظني بما أنه رأي ظني، ثم يقول: ﴿وَكُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً﴾ فيصدق بذلك أن الذي حكم به داود أيضا كان حكما علميا لا ظنيا ولو لم يشمل قوله: ﴿وَكُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً﴾ حكم داود في الواقعة لم يكن وجه لإيراد الجملة في المورد، على أنك سمعت أن قوله: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ﴾ لا يخلو من إشعار بل دلالة على أن الحكم كان واحدا ومصونا عن الخطإ، فلا يبقى إلا أن يكون حكمهما واحدا في نفسه مختلفا من حيث كيفية الإجراء وكان حكم سليمان أوفق وأرفق.

و. وقد وردت في روايات الشيعة وأهل السنة ما إجماله أن داود حكم لصاحب الحرث برقاب الغنم وسليمان حكم له بمنافعها في تلك السنة من ضرع وصوف ونتاج.

ز. ولعل الحكم كان هو ضمان ما أفسدته الغنم من الحرث على صاحبها وكان ذلك مساويا لقيمة رقاب الغنم فحكم داود لذلك برقابها لصاحب الحرث، وحكم سليمان بما هو أرفق منه وهو أن يستوفي ما أتلفت من ماله من منافعها في تلك السنة والمنافع المستوفاة من الغنم كل سنة تعدل قيمتها قيمة الرقبة عادة.

ح. فقوله: ﴿وَداوُدَ وَسُلَيْمانَ﴾ أي واذكر داود وسليمان ﴿إِذْ﴾ حين ﴿يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ﴾ ﴿إِذْ﴾ حين ﴿نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ أي تفرقت فيه ليلا وأفسدته ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ﴾ أي لحكم الأنبياء، وقيل:

الضمير راجع إلى داود وسليمان والمحكوم له، وقد عرفت ما فيه، وقيل: الضمير لداود وسليمان لأن الاثنين جمع وهو كما ترى ﴿شاهِدِينَ﴾ حاضرين نرى ونسمع ونوقفهم على وجه الصواب فيه ﴿فَفَهَّمْناها﴾ أي الحكومة والقضية ﴿سُلَيْمانَ وَكُلًّا﴾ من داود وسليمان ﴿آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً﴾ وربما قيل: إن تقدير صدر الآية (وآتينا داود وسليمان حكما وعلما) إذ يحكمان.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في الفقيه، روى جميل بن دراج عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿وَداوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ، إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ قال: لم يحكما إنما كانا يتناظران ففهمها سليمان.

• أقول: تقدم في بيان معنى الآية ما يتضح به معنى الحديث.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن الحسين بن سعيد عن بعض أصحابنا عن المعلى أبي عثمان عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَداوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ فقال: لا يكون النفش إلا بالليل، إن على صاحب الحرث أن يحفظ الحرث بالنهار، وليس على صاحب الماشية حفظها بالنهار، إنما رعاها بالنهار وأرزاقها فما أفسدت فليس عليها، وعلى صاحب الماشية حفظ الماشية بالليل عن حرث الناس، فما أفسدت بالليل فقد ضمنوا وهو النفش، وإن داود حكم للذي أصاب زرعه رقاب الغنم، وحكم سليمان الرسل والثلاثة، وهو اللبن والصوف في ذلك العام.

• أقول: وروى فيه، أيضا بإسناده عن أبي بصير عنه عليه السلام وفي الحديث: فحكم داود بما حكمت به الأنبياء عليهمالسلام من قبله، وأوحى الله إلى سليمان عليه السلام: وأي غنم نفشت في زرع، فليس لصاحب الزرع إلا ما خرج من بطونها، وكذلك جرت السنة بعد سليمان وهو قول الله عز وجل: ﴿وَكُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً﴾ فحكم كل واحد منهما بحكم الله عز وجل.

ج. وفي تفسير القمي، بإسناده عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام في حديث ذكر فيه: أن الحرث كان كرما نفشت فيه الغنم، وذكر حكم سليمان ثم قال: وكان هذا حكم داود، وإنما أراد أن يعرف بني إسرائيل أن سليمان وصيه بعده، ولم يختلفا في الحكم ولو اختلف حكمهما لقال: وكنا لحكمهما شاهدين.

د. وفي المجمع: واختلف في الحكم الذي حكما به فقيل: إنه كان كرما قد بدت عناقيده، فحكم داود بالغنم لصاحب الكرم فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله ارفق، قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود، كما كان وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها، حتى إذا عاد الكرم كما كان، ثم دفع كل واحد منهما إلى صاحبه ماله:، وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام.

• أقول: وروي: كون الحرث كرما من طرق أهل السنة عن عبد الله بن مسعود وهناك روايات أخر عن أئمة أهل البيت عليه السلام قريبة المضامين مما أوردناه، وما مر في بيان معنى الآية يكفي في توضيح مضامين الروايات.

٣٤. تسخير الجبال والطير مع داود وتعليمه صنعة الدروع:

المقطع [٣٤] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٧٩ـ٨٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣١٣»:

١ . ﴿وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فاعِلِينَ﴾:

أ. التسخير هو تذليل الشيء بحيث يكون عمله على ما هو عليه في سبيل مقاصد المسخر، بكسر الخاء، وهذا غير الإجبار والإكراه والقسر فإن الفاعل فيها خارج عن مقتضى اختياره أو طبعه بخلاف الفاعل المسخر، بفتح الخاء، فإنه جار على مقتضى طبعه واختياره كما أن إحراق الإنسان الحطب بالنار فعل تسخيري من النار وليست بمقسورة وكذا فعل الأجير لمؤجره فعل تسخيري من الأجير وليس بمجبر ولا مكره.

ب. ومن هنا يظهر أن معنى تسخير الجبال والطير مع داود يسبحن معه أن لهما تسبيحا في نفسهما وتسخيرهما أن يسبحن مع داود بمواطاة تسبيحه فقوله: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ بيان لقوله: ﴿وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ﴾ وقوله: ﴿وَالطَّيْرَ﴾ معطوف على الجبال.

ج. ﴿وَكُنَّا فاعِلِينَ﴾ أي كانت أمثال هذه المواهب والعنايات من سنتنا وليس ما أنعمنا به عليهما ببدع منا.

٢. ﴿وَعَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ﴾:

أ. قال في المجمع: (اللبوس اسم للسلاح كله عند العرب، إلى أن قال، وقيل: هو الدرع)، وفي المفردات: (وقوله تعالى: ﴿صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ يعني به الدرع.

ب. والبأس شدة القتال وكأن المراد به في الآية شدة وقع السلاح وضمير ﴿وَعَلَّمْناهُ﴾ لداود كما قال في موضع آخر: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ والمعنى وعلمنا داود صنعة درعكم، أي علمناه كيف يصنع لكم الدرع لتحرزكم وتمنعكم شدة وقع السلاح وقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ﴾ تقرير على الشكر.

٣٥. تسخير الريح العاصفة لسليمان:

المقطع [٣٥] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣١٣»:

١. ﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾:

أ. عطف على قوله: ﴿مَعَ داوُدَ﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح عاصفة أي شديدة الهبوب تجري الريح بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وهي أرض الشام التي كان يأوي إليها سليمان وكنا عالمين بكل شيء.

ب. وذكر تسخير الريح عاصفة مع أن الريح كانت مسخرة له في حالتي شدتها ورخائها كما قال: ﴿رُخاءً حَيْثُ أَصابَ﴾ [ص: ٣٦] أن تسخير الريح عاصفة أعجب وأدل على القدرة.

ج. قيل: ولشيوع كونه عليه السلام ساكنا في تلك الأرض لم يذكر جريانها بأمره منها واقتصر على ذكر جريانها إليها وهو أظهر في الامتنان، ويمكن أن يكون المراد جريانها بأمره إليها لتحمله منها إلى حيث أراد لا جريانها إليها لترده إليها وتنزله فيها بعد ما حملته، وعلى هذا يشمل الكلام الخروج منها والرجوع إليها جميعا.

٣٦. تسخير الشياطين لسليمان:

المقطع [٣٦] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣١٤»:

١. ﴿وَمِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ﴾ كان الغوص لاستخراج أمتعة البحر من اللئالي وغيرها، والمراد بالعمل الذي دون ذلك ما ذكره بقوله: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ راسِياتٍ﴾ [سبأ: ١٣]، والمراد بحفظ الشياطين حفظهم في خدمته ومنعهم من أن يهربوا أو يمتنعوا أو يفسدوا عليه الأمر، والمعنى ظاهر وستجيء قصتا داود وسليمان عليه السلام في سورة سبإ إن شاء الله تعالى.

٣٧. دعاء أيوب عند الضر واستجابة الله له:

المقطع [٣٧] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣١٤»:

أ. الضر بالضم خصوص ما يمس النفس من الضرر كالمرض والهزال ونحوهما وبالفتح أعم.

ب. وقد شملته عليه السلام البلية فذهب ماله ومات أولاده وابتلي في بدنه بمرض شديد مدة مديدة ثم دعا الله وشكى إليه حاله فاستجاب الله له ونجاه من مرضه وأعاد عليه ماله وولده ومثلهم معهم وهو قوله في الآية التالية: ﴿فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ أي نجيناه من مرضه وشفيناه ﴿وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ﴾ أي من مات من أولاده ﴿وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَذِكْرى لِلْعابِدِينَ﴾ ليتذكروا ويعلموا أن الله يبتلي أولياءه امتحانا منه لهم ثم يؤتيهم أجرهم ولا يضيع أجر المحسنين.

ج. وستجيء قصة أيوب عليه السلام في سورة ص إن شاء الله تعالى.

٣٨. ذكر إسماعيل وإدريس وذي الكفل:

المقطع [٣٨] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥-٨٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣١٤»:

١. ﴿وَإِسْماعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ﴾، أما إدريس عليه السلام فقد تقدمت قصته في سورة مريم، وأما إسماعيل فستجيء قصته في سورة الصافات، وتأتي قصة ذي الكفل في سورة ص إن شاء الله تعالى.

٣٩. قصة ذي النون ودعاؤه في الظلمات:

المقطع [٣٩] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣١٤»:

١. ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾:

أ. النون الحوت وذو النون هو يونس النبي ابن متى صاحب الحوت الذي بعث إلى أهل نينوى فدعاهم فلم يؤمنوا فسأل الله أن يعذبهم فلما أشرف عليهم العذاب تابوا وآمنوا فكشفه الله عنهم ففارقهم يونس فابتلاه الله أن ابتلعه حوت فناداه تعالى في بطنه فكشف عنه وأرسله ثانيا إلى قومه.

ب. ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي واذكر ذا النون إذ ذهب مغاضبا أي لقومه حيث لم يؤمنوا به فظن أن لن نقدر عليه أي لن نضيق عليه من قدر عليه رزقه أي ضاق كما قيل.

ج. ويمكن أن يكون قوله: ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ واردا مورد التمثيل أي كان ذهابه هذا ومفارقة قومه ذهاب من كان مغاضبا لمولاه وهو يظن أن مولاه لن يقدر عليه وهو يفوته بالابتعاد منه فلا يقوى على سياسته وأما كونه عليه السلام مغاضبا لربه حقيقة وظنه أن الله لا يقدر عليه جدا فمما يجل ساحة الأنبياء الكرام عن ذلك قطعا وهم معصومون بعصمة الله.

٢. ﴿فَنادى فِي الظُّلُماتِ﴾، فيه إيجاز بالحذف والكلام متفرع عليه والتقدير فابتلاه الله بالحوت فالتقمه فنادى في بطنه ربه، والظاهر أن المراد بالظلمات كما قيل، ظلمة البحر وظلمة بطن الحوت وظلمة الليل.

٣. ﴿أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ﴾ تبر منه عليه السلام مما كان يمثله ذهابه لوجهه ومفارقته قومه من غير أن يؤمر فإن ذهابه ذلك كان يمثل، وإن لم يكن قاصدا ذلك متعمدا فيه، أن هناك مرجعا يمكن أن يرجع إليه غير ربه فتبرأ من ذلك بقوله: ﴿لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ﴾، وكان يمثل أن من الجائز أن يعترض على فعله فيغاضب منه وأن من الممكن أن يفوته تعالى فائت فيخرج من حيطة قدرته فتبرأ من ذلك بتنزيهه بقوله: سبحانك.

٤. ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ اعتراف بالظلم من حيث إنه أتى بعمل كان يمثل الظلم وإن لم يكن ظلما في نفسه ولا هو عليه السلام قصد به الظلم والمعصية غير أن ذلك كان تأديبا منه تعالى وتربية لنبيه

ليطأ بساط القرب بقدم مبرأة في مشيتها من تمثيل الظلم فضلا عن نفس الظلم.

٥. ﴿فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ هو عليه السلام وإن لم يصرح بشيء من الطلب والدعاء، وإنما أتى بالتوحيد والتنزيه واعترف بالظلم لكنه أظهر بذلك حاله وأبدى موقفه من ربه وفيه سؤال النجاة والعافية فاستجاب الله له، ونجاه من الغم وهو الكرب الذي نزل به.

٦. ﴿وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ وعد بالإنجاء لمن ابتلي من المؤمنين بغم ثم نادى ربه بمثل ما نادى به يونس عليه السلام وستجيء قصته عليه السلام في سورة الصافات إن شاء الله.

٧. أحاديث وآثار:

أ. فيه، أيضا وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً﴾ يقول: من أعمال قومه ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ يقول: ظن أن لن يعاقب بما صنع.

ب. وفي العيون، بإسناده عن أبي الصلت الهروي في حديث الرضا عليه السلام مع المأمون في عصمة الأنبياء قال عليه السلام: وأما قوله: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ إنما ﴿فَظَنَّ﴾ بمعنى استيقن أن لن يضيق عليه رزقه، ألا تسمع قول الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ، فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ أي ضيق عليه رزقه، ولو ظن أن الله لا يقدر عليه لكان قد كفر.

ج. وفي التهذيب، بإسناده عن الزيات عن رجل عن كرام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أربع لأربع، إلى أن قال، والرابعة للغم والهم ﴿لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قال الله سبحانه: ﴿فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ، وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾

• أقول: وروى هذا المعنى في الخصال، عنه ﷺ مرسلا.

د. أخرج ابن جرير عن سعد سمعت رسول الله ﷺ يقول: اسم الله الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى، قلت: يا رسول الله هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: هي ليونس خاصة وللمؤمنين إذا دعوا بها ألم تسمع قول الله: ﴿وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه.

٤٠. دعاء زكريا واستجابة الله:

المقطع [٤٠] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي

فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣١٦»:

١. ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ﴾ معطوف على ما عطف عليه ما قبله أي واذكر زكريا حين نادى ربه يسأل ولدا وقوله: ﴿رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً﴾ بيان لندائه، والمراد بتركه فردا أن يترك ولا ولد له يرثه.

٢. ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ﴾ ثناء وتحميد له تعالى بحسب لفظه ونوع تنزيه له بحسب المقام إذ لما قال: ﴿لا تَذَرْنِي فَرْداً﴾ وهو كناية عن طلب الوارث والله سبحانه هو الذي يرث كل شيء نزهه تعالى عن مشاركة غيره له في معنى الوراثة ورفعه عن مساواة غيره فقال: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ﴾

٣. ﴿فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ﴾، ظاهر الكلام أن المراد بإصلاح زوجه أي زوج زكريا له جعلها شابة ولودا بعد ما كانت عاقرا كما يصرح به في دعائه ﴿وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً﴾ [مريم: ٨]

٤. ﴿إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ﴾:

أ. ظاهر السياق أن ضمير الجمع لبيت زكريا، وكأنه تعليل لمقدر معلوم من سابق الكلام والتقدير نحو من قولنا: أنعمنا عليهم لأنهم كانوا يسارعون في الخيرات.

ب. والرغب والرهب مصدران كالرغبة والرهبة بمعنى الطمع والخوف وهما تمييزان إن كانا باقيين على معناهما المصدري وحالان إن كانا بمعنى الفاعل والخشوع هو تأثر القلب من مشاهدة العظمة والكبرياء.

ج. والمعنى: أنعمنا عليهم لأنهم كانوا يسارعون في الخيرات من الأعمال ويدعوننا رغبة في رحمتنا أو ثوابنا رهبة من غضبنا أو عقابنا أو يدعوننا راغبين راهبين وكانوا لنا خاشعين بقلوبهم.

٥. وقد تقدمت قصة زكريا ويحيى عليه السلام في أوائل سورة مريم.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في المعاني، بإسناده إلى علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عليه السلام قال: الرغبة أن تستقبل براحتيك السماء وتستقبل بهما وجهك، والرهبة أن تلقي كفيك وترفعهما إلى الوجه.

ب. وروى مثله في الكافي، بإسناده عن أبي إسحاق عن أبي عبد الله عليه السلام ولفظه قال: الرغبة أن تستقبل ببطن كفيك إلى السماء، والرهبة أن تجعل ظهر كفيك إلى السماء.

ج. وفي تفسير القمي: ﴿يَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً﴾ قال: راغبين راهبين.

٤١. قصة مريم ونفخ الروح فيها:

المقطع [٤١] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣١٦»:

١. ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا وَجَعَلْناها وَابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ﴾:

أ. المراد بالتي أحصنت فرجها مريم ابنة عمران وفيه مدح لها بالعفة والصيانة ورد لما اتهمها به اليهود.

ب. ﴿فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا﴾ الضمير لمريم والنفخ فيها من الروح كناية عن عدم استناد ولادة عيسى عليه السلام إلى العادة الجارية في كينونة الولد من تصور النطفة أولا ثم نفخ الروح فيها فإذا لم يكن هناك نطفة مصورة لم يبق إلا نفخ الروح فيها وهي الكلمة الإلهية كما قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] أي مثلهما واحد في استغناء خلقهما عن النطفة.

٢. ﴿وَجَعَلْناها وَابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ﴾ أفرد الآية فعدهما أعني مريم وعيسى عليه السلام معا آية واحدة للعالمين لأن الآية هي الولادة كذلك وهي قائمة بهما معا ومريم أسبق قدما في إقامة هذه الآية ولذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْناها وَابْنَها آيَةً﴾ ولم يقل: وجعلنا ابنها وإياها آية، وكفى لها فخرا أن يدخل ذكرها في ذكر الأنبياء عليهم السلام في كلامه تعالى وليست منهم.

٤٢. الأمة الواحدة والربوبية والعبادة:

المقطع [٤٢] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٢١»:

أ. الأمة جماعة يجمعها مقصد واحد، والخطاب في الآية على ما يشهد به سياق الآيات، خطاب عام يشمل جميع الأفراد المكلفين من الإنسان، والمراد بالأمة النوع الإنساني الذي هو نوع واحد، وتأنيث

الإشارة في قوله: ﴿هذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾ لتأنيث الخبر.

ب. والمعنى: أن هذا النوع الإنساني أمتكم معشر البشر وهي أمة واحدة وأنا، الله الواحد عز اسمه، ربكم إذ ملكتكم ودبرت أمركم فاعبدوني لا غير.

ج. وفي قوله: ﴿أُمَّةً واحِدَةً﴾ إشارة إلى حجة الخطاب بالعبادة لله سبحانه فإن النوع الإنساني لما كان نوعا واحدا وأمة واحدة ذات مقصد واحد وهو سعادة الحياة الإنسانية لم يكن له إلا رب واحد إذ الربوبية والألوهية ليست من المناصب التشريفية الوضعية حتى يختار الإنسان منها لنفسه ما يشاء وكم يشاء وكيف يشاء بل هي مبدئية تكوينية لتدبير أمره، والإنسان حقيقة نوعية واحدة، والنظام الجاري في تدبير أمره نظام واحد متصل مرتبط بعض، أجزائه ببعض ونظام التدبير الواحد لا يقوم به إلا مدبر واحد فلا معنى لأن يختلف الإنسان في أمر الربوبية فيتخذ بعضهم ربا غير ما يتخذه الآخر أو يسلك قوم في عبادته غير ما يسلكه الآخرون فالإنسان نوع واحد يجب أن يتخذ ربا واحدا هو رب بحقيقة الربوبية، وهو الله عز اسمه.

د. وقيل: المراد بالأمة الدين، والإشارة بهذه إلى دين الإسلام الذي كان دين الأنبياء والمراد بكونه أمة واحدة اجتماع الأنبياء بل إجماعهم عليه، والمعنى أن ملة الإسلام ملتكم التي يجب أن تحافظوا على حدودها وهي ملة اتفقت الأنبياء عليهم‌السلام عليها، وهو بعيد فإن استعمال الأمة في الدين لو جاز لكان تجوز الإيصال إليه إلا بقرينة صارفة ولا وجه للانصراف عن المعنى الحقيقي بعد صحته واستقامته وتأيده بسائر كلامه تعالى كقوله: ﴿وَما كانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: ١٩] وهو، كما ترى، يتضمن إجمال ما يتضمنه هذه الآية والآية التي تليها، على أن التعبير في قوله: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ بالرب دون الإله يبقى على ما ذكروه بلا وجه بخلاف أخذ الأمة بمعنى الجماعة فإن المعنى عليه إنكم نوع واحد وأنا المالك المدبر لأمركم فاعبدوني لتكونوا متخذين لي إلها.

هـ. وفي الآية وجوه كثيرة أخر ذكروها لكنها جميعا بعيدة من السياق تركنا إيرادها من أراد الوقوف عليها فليراجع المطولات.

٤٣. تفرق الناس في أمرهم ورجوعهم إلى الله وجزاء المؤمنين:

المقطع [٤٣] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا

رَاجِعُونَ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٣-٩٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٢٣»:

١. ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ﴾:

أ. التقطع على ما قال في مجمع البيان، بمعنى التقطيع وهو التفريق، وقيل: هو بمعناه المتبادر وهو التفرق والاختلاف و﴿أَمْرَهُمْ﴾ منصوب بنزع الخافض، والتقدير فتقطعوا في أمرهم وقيل ﴿تَقَطَّعُوا﴾ مضمن معنى الجعل ولذا عدي إلى المفعول بنفسه.

ب. وكيف كان فقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ استعارة بالكناية والمراد به أنهم جعلوا هذا الأمر الواحد وهو دين التوحيد المندوب إليه من طريق النبوة وهو أمر وحداني قطعا متقطعة وزعوه فيما بينهم أخذ كل منهم شيئا منه وترك شيئا كالوثنيين واليهود والنصارى والمجوس والصابئين على اختلاف طوائفهم وهذا نوع تقريع للناس وذم لاختلافهم في الدين وتركهم الأمر الإلهي أن يعبدوه وحده.

٢. ﴿كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ﴾:

أ. فيه بيان أن اختلافهم في أمر الدين لا يترك سدى لا أثر له بل هؤلاء راجعون إلى الله جميعا وهم مجزيون حسب ما اختلفوا كما يلوح إليه التفصيل المذكور في قوله بعد: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾

ب. والفصل في جملة: ﴿كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ﴾ لكونها في معنى الجواب عن سؤال مقدر كأنه قيل: فإلى م ينتهي اختلافهم في أمر الدين؟ وما ذا ينتج؟ فقيل: كل إلينا راجعون فنجازيهم كما علموا.

٣. ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كاتِبُونَ﴾:

أ. تفصيل لحال المختلفين بحسب الجزاء الأخروي وسيأتي ما في معنى تفصيل جزائهم في الدنيا من قوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ﴾

ب. فقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي من يعمل منهم شيئا من الأعمال الصالحات وقد قيد عمل بعض الصالحات بالإيمان إذ قال: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فلا أثر للعمل الصالح بغير إيمان.

ج. والمراد بالإيمان، على ما يظهر من السياق وخاصة قوله في الآية الماضية: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ الإيمان بالله قطعا غير أن الإيمان بالله لا يفارق الإيمان بأنبيائه من دون استثناء لقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ إلى قوله: ﴿أُولئِكَ

هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥١]

٤. ﴿فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ﴾ أي لا ستر على ما عمله من الصالحات والكفران يقابل الشكر ولذا عبر عن هذا المعنى في موضع آخر بقوله: ﴿وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾ [الدهر: ٢٢]

٥. ﴿وَإِنَّا لَهُ كاتِبُونَ﴾:

أ. أي مثبتون في صحائف الأعمال إثباتا لا ينسى معه فالمراد بقوله: ﴿فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كاتِبُونَ﴾ إن عمله الصالح لا ينسى ولا يكفر.

ب. والآية من الآيات الدالة على أن قبول العمل الصالح مشروط بالإيمان كما تؤيده آيات حبط الأعمال مع الكفر، وتدل أيضا على أن المؤمن العامل لبعض الصالحات من أهل النجاة.

٤٤. القرية والهلاك والرجوع:

المقطع [٤٤] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٢٤»:

١. ﴿وَحَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾:

أ. الذي يستبق من الآية إلى الذهن بمعونة من سياق التفصيل أن يكون المراد أن أهل القرية التي أهلكناها لا يرجعون ثانيا إلى الدنيا ليحصلوا على ما فقدوه من نعمة الحياة ويتداركوا ما فوتوه من الصالحات وهو واقع محل أحد طرفي التفصيل الذي تضمن طرفه الآخر قوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، فيكون الطرف الآخر من طرفي التفصيل أن من لم يكن مؤمنا قد عمل من الصالحات فليس له عمل مكتوب وسعي مشكور وإنما هو خائب خاسر ضل سعيه في الدنيا ولا سبيل له إلى حياة ثانية في الدنيا يتدارك فيها ما فاته.

ب. غير أنه تعالى وضع المجتمع موضع الفرد إذ قال: ﴿وَحَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها﴾ ولم يقل: وحرام على من أهلكناه لأن فساد الفرد يسري بالطبع إلى المجتمع وينتهي إلى طغيانهم فيحق عليهم كلمة العذاب فيهلكون كما قال: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَوْمِ الْقِيامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوها عَذاباً شَدِيداً﴾ [الإسراء: ٥٨]

ج. ويمكن، على بعد، أن يكون المراد بالإهلاك الإهلاك بالذنوب بمعنى بطلان استعداد السعادة

والهدى كما في قوله: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦] فتكون الآية في معنى قوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، والمعنى وحرام على قوم أهلكناهم بذنوبهم وقضينا عليهم الضلال أن يرجعوا إلى التوبة وحال الاستقامة.

د. ومعنى الآية والقرية التي لم تعمل من الصالحات وهي مؤمنة وأنجز أمرها إلى الإهلاك ممتنع عليهم أن يرجعوا فيتداركوا ما فاتهم من السعي المشكور والعمل المكتوب المقبول.

هـ. وأما قوله: ﴿أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ وكان الظاهر أن يقال: إنهم يرجعون فالحق أنه مجاز عقلي وضع فيه نتيجة تعلق الفعل بشيء، أعني ما يئول إليه حال المتعلق بعد تعلقه به، موضع نفس المتعلق فنتيجة تعلق الحرمة برجوعهم عدم الرجوع فوضعت هذه النتيجة موضع نفس الرجوع الذي هو متعلق الحرمة وفي هذا الصنع إفادة نفوذ الفعل كأن الرجوع يصير بمجرد تعلق الحرمة عدم رجوع من غير تخلل فصل.

و. ونظيره أيضا قوله: ﴿ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] حيث إن تعلق المنع بالسجدة يئول إلى عدم السجدة فوضع عدم السجدة الذي هو النتيجة موضع نفس السجدة التي هي متعلق المنع.

ز. ونظيره أيضا قوله: ﴿قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ [الأنعام: ١٥١] حيث إن تعلق التحريم بالشرك ينتج عدم الشرك فوضع عدم الشرك الذي هو النتيجة مكان نفس الشرك الذي هو المتعلق وقد وجهنا هاتين الآيتين فيما مر بتوجيه آخر أيضا.

ح. وللقوم في توجيه الآية وجوه:

- منها: أن لا زائدة والأصل أنهم يرجعون.
- ومنها: أن الحرام بمعنى الواجب أي واجب على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون واستدل على إتيان الحرام بمعنى الواجب بقول الخنساء:

وإن حراما لا أرى الدهر باكيا... على شجوة إلا بكيت على صخر

- ومنها: أن متعلق الحرمة محذوف والتقدير حرام على قرية أهلكناها بالذنوب أي وجدناها هالكة بها أن يتقبل منهم عمل لأنهم لا يرجعون إلى التوبة.
- ومنها: أن المراد بعدم الرجوع عدم الرجوع إلى الله سبحانه بالبعث لا عدم الرجوع إلى الدنيا

والمعنى، على استقامة اللفظ، وممتنع على قرية أهلكناها بطغيان أهلها أن لا يرجعوا إلينا للمجازاة؛ وأنت خبير بما في كل من هذه الوجوه من الضعف.

٤٥. فتح يأجوج ومأجوج وانسلالهم من كل حدب:

المقطع [٤٥] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٢٦»:

١. ﴿حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾:

أ. الحدب بفتحتين الارتفاع من الأرض بين الانخفاض، والنسول الخروج بإسراع ومنه نسلان الذئب، والسياق يقتضي أن يكون قوله: ﴿حَتَّى إِذا فُتِحَتْ﴾، غاية للتفصيل المذكور في قوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ﴾ إلى آخر الآيتين، وأن يكون ضمير الجمع راجعا إلى يأجوج ومأجوج.

ب. والمعنى: لا يزال الأمر يجري هذا المجرى نكتب الأعمال الصالحة للمؤمنين ونشكر سعيهم ونهلك القرى الظالمة ونحرم رجوعهم بعد الهلاك إلى الزمان الذي يفتح فيه يأجوج ومأجوج أي سدهم أو طريقهم المسدود وهم أي يأجوج ومأجوج يخرجون إلى سائر الناس من ارتفاعات الأرض مسرعين نحوهم وهو من أشراط الساعة وأمارات القيامة كما يشير إليه بقوله: ﴿فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا وَتَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً﴾ [الكهف: ٩٩] وقد استوفينا الكلام في معنى يأجوج ومأجوج والسد المضروب دونهم في تفسير سورة الكهف.

ج. وقيل: ضمير الجمع للناس والمراد خروجهم من قبورهم إلى أرض المحشر، وفيه أن سياق ما قبل الجملة ﴿حَتَّى إِذا فُتِحَتْ﴾، وما بعدها ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ لا يناسب هذا المعنى، وكذا نفس الجملة من جهة كونها حالا، على أن النسول من كل حدب، وقد اشتملت عليه الجملة، لا يصدق على الخروج من القبور ولذا قرأ صاحب هذا القول وهو مجاهد الجدث بالجيم والثاء المثلثة وهو القبر.

٤٦. اقتراب الوعد الحق:

المقطع [٤٦] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٢٧»:

١. ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، المراد بالوعد الحق الساعة، وشخوص البصر نظره بحيث لا تطرف أجفانه، كذا ذكره الراغب وهو لازم كمال اهتمام الناظر بما ينظر إليه بحيث لا يشتغل بغيره ويكون غالبا في الشر الذي يظهر للإنسان بغتة.

٢. ﴿يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا﴾ حكاية قول الكفار إذا شاهدوا الساعة بغتة فدعوا لأنفسهم بالويل مدعين أنهم غفلوا عما يشاهدونه كأنهم أغفلوا إغفالا ثم أضربوا عن ذلك بالاعتراف بأن الغفلة لم تنشأ إلا عن ظلمهم بالاشتغال بما ينسي الآخرة ويغفل عنها من أمور الدنيا فقالوا: ﴿بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ﴾

٤٧. بيان أن ما يعبد من دون الله حصب جهنم وخلود الكفار فيها:

المقطع [٤٧] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨-١٠٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٢٧»:

١. ﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ﴾:

أ. الحصب الوقود، وقيل: الحطب، وقيل: أصله ما يرمى في النار فيكون أعم.

ب. والمراد بقوله: ﴿وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ ولم يقل: ومن تعبدون، مع تعبيره تعالى عن الأصنام في أغلب كلامه بألفاظ تختص بأولي العقل كما في قوله بعد: ﴿ما وَرَدُوها﴾ الأصنام والتماثيل التي كانوا يعبدونها دون المعبودين من الأنبياء والصلحاء والملائكة كما قيل ويدل على ذلك قوله بعد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى﴾

ج. والظاهر أن هذه الآيات من خطابات يوم القيامة للكفار وفيها القضاء بدخولهم في النار وخلودهم فيها لا أنها إخبار في الدنيا بما سيجري عليهم في الآخرة واستدلال على بطلان عبادة الأصنام واتخاذهم آلهة من دون الله.

٢. ﴿أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ﴾ اللام لتأكيد التعدي أو بمعنى إلى، وظاهر السياق أن الخطاب شامل للكفار والآلهة جميعا أي أنتم وآلهتكم تردون جهنم أو تردون إليها.

٣. ﴿لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَكُلٌّ فِيها خالِدُونَ﴾ تفريع وإظهار لحقيقة حال الآلهة التي كانوا يعبدونها لتكون لهم شفعاء، وقوله: ﴿وَكُلٌّ فِيها خالِدُونَ﴾ أي كل منكم ومن الآلهة.

٤. ﴿لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَهُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ﴾:

أ. الزفير هو الصوت برد النفس إلى داخل ولذا فسر بصوت الحمار، وكونهم لا يسمعون جزاء عدم سمعهم في الدنيا كلمة الحق كما أنهم لا يبصرون جزاء لإعراضهم عن النظر في آيات الله في الدنيا.

ب. وفي الآية عدول عن خطاب الكفار إلى خطاب النبي ﷺ إعراضا عن خطابهم ليبين سوء حالهم لغيرهم، وعليه فضمائر الجمع للكفار خاصة لا لهم وللآلهة معا.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما نزلت هذه الآية يعني قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ وجد منها أهل مكة وجدا شديدا، فدخل عليهم عبد الله بن الزبعري وكفار قريش يخوضون في هذه الآية، فقال ابن الزبعري: أمحمد تكلم بهذه الآية؟ فقالوا: نعم قال ابن الزبعري: لئن اعترف بها، لأخصمنه فجمع بينهما، فقال: يا محمد أرأيت الآية التي قرأت آنفا، فينا وفي آلهتنا خاصة أم الأمم وآلهتهم؟ فقال: بل فيكم وفي آلهتكم وفي الأمم وفي آلهتهم، إلا من استثنى الله فقال ابن الزبعري: خصمتك والله ألست تثني على عيسى خيرا؟ وقد عرفت أن النصارى يعبدون عيسى وأمه، وأن طائفة من الناس يعبدون الملائكة، أفليس هؤلاء مع الآلهة في النار: فقال رسول الله ﷺ: لا فضجت قريش وضحكوا، قالت قريش: خصمك ابن الزبعري، فقال رسول الله: قلتم الباطل أما قلت: إلا من استثنى الله، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى، أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها، وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ﴾

ب. وقد روي الحديث أيضا من طرق أهل السنة لكن المتن في هذا الطريق أمتن مما ورد من طريقهم وأسلم وهو ما عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ، أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ﴾ شق ذلك على أهل مكة، وقالوا شتم الآلهة فقال ابن الزبعري: أنا أخصم لكم محمدا ادعوه لي فدعي فقال: يا محمد هذا شيء لآلهتنا خاصة أم لكل من عبد من دون الله؟ قال: بل لكل من عبد من دون الله، فقال ابن الزبعري: خصمت ورب هذه البنية يعني الكعبة، ألست تزعم يا محمد أن عيسى عبد صالح وأن عزير عبد صالح، وأن الملائكة صالحون؟ قال: بلى قال: فهذه النصارى تعبد عيسى وهذه اليهود تعبد عزيرا، وهذه بنو مليح تعبد الملائكة فضج أهل مكة وفرحوا، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ

مِنَّا الْحُسْنى﴾ عزير وعيسى والملائكة ﴿أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ﴾ ونزلت ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾

• وفي هذا المتن:

● أولا: ذكر اسم عزير والواقعة في أوائل البعثة بمكة ولم يذكر اسمه في شيء من السور المكية وإنما ذكر في سورة التوبة وهي من أواخر ما نزلت بالمدينة.

● وثانيا: قوله: (وهذه اليهود تعبد عزيرا واليهود لا تعبد عزيرا وإنما قالوا عزير ابن الله تشريفا كما قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه.

● وثالثا: ما اشتمل عليه من نزول قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ﴾ بعد اعتراف النبي ﷺ بعموم قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ﴾ لكل معبود من دون الله، ونقض ابن الزبعري ذلك بعيسى وعزير والملائكة وهذا من ورود البيان بعد وقت الحاجة وأشد تأييدا لوقوع التهمة.

● ورابعا: اشتماله على نزول قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ الآية في الواقعة ولا ارتباط لمضمونها بها أصلا.

• ونظيره ما شاع بينهم أن ابن الزبعري اعترض بذلك على النبي ﷺ فقال له: يا غلام ما أجهلك بلغة قومك لأني قلت: وما تعبدون، وما لم يعقل، ولم أقل: ومن تعبدون.

• وفيه من الخلل ما نسب إلى النبي ﷺ من قوله: إني قلت كذا ولم أقل كذا ومن الواجب أن يجل النبي ﷺ من أن يتلفظ في آية قرآنية بمثل (قلت كذا ولم أقل كذا) ونقل عن الحافظ ابن حجر أن الحديث لا أصل له ولم يوجد في شيء من كتب الحديث لا مسند ولا غير مسند.

• ونظيره في الضعف ما ورد في حديث آخر يقص هذه القصة أن ابن الزبعري قال: أأنت قلت ذلك؟ قال: نعم قال: قد خصمتك ورب الكعبة أليس اليهود عبدوا عزيرا والنصارى عبدوا المسيح وبنو مليح عبدوا الملائكة؟ فقال ﷺ: بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى﴾ الحديث.

• وذلك أن الحجة المنسوبة إليه ﷺ في الحديث تنفع ابن الزبعري أكثر مما تضره فإن الحجة كما تخرج عزيرا وعيسى والملائكة عن شمول الآية كذلك تخرج الآلهة التي هي أصنام فإنها تشارك المذكورين في أنها

لا خبر لها عن عبادة عابديها ولا رضى منها بذلك إذ لا شعور لها فتختص الآية بالشياطين ولا تشمل الأصنام وهو خلاف ما نسب إليه ﷺ من دعوى شمول الآية لآلهتهم وتصديقه.

• ونظيره في الضعف ما في الدر المنثور، عن البزار عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية ﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ، أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ﴾ ثم نسخها قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى، أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ﴾

• ووجه الضعف ظاهر ولو كان هناك شيء فهو التخصيص.

٤٨. إبعاد الذين سبقت لهم الحسنى عن النار:

المقطع [٤٨] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١-١٠٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٢٨»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ﴾ الحسنى مؤنث أحسن وهي وصف قائم مقام موصوفه والتقدير العدة أو الموعدة الحسنى بالنجاة أو بالجنة والموعدة بكل منهما وارد في كلامه تعالى قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢] وقال: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ﴾ [التوبة: ٧٢]

٢. ﴿لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها﴾ إلى قوله: ﴿تُوعَدُونَ﴾ الحسيس الصوت الذي يحس به، والفزع الأكبر الخوف الأعظم وقد أخبر سبحانه عن وقوعه في نفخ الصور حيث قال: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧]

٣. ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾ أي بالبشرى وهي قولهم: ﴿هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾

٤. أحاديث وآثار: في أمالي الصدوق، عن النبي ﷺ في حديث: يا علي أنت وشيعتك على الحوض، تسقون من أحببتم وتمنعون من كرهتم، وأنتم الآمنون يوم الفزع الأكبر في ظل العرش، يفزع الناس ولا تفزعون، ويحزن الناس ولا تحزنون، فيكم نزلت هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى، أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ﴾ وفيكم نزلت ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ، وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾

• أقول: معنى نزولها فيهم جريها فيهم أو دخولهم فيمن نزلت فيه وقد وردت روايات كثيرة في جماعة من المؤمنين عدوا ممن تجري فيه الآيتان وخاصة الثانية كمن قرأ القرآن محتسبا، وأم به قوما محتسبا، ورجل أذن محتسبا ومملوك أدى حق الله وحق مواليه رواه في المجمع: (عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ:، والمتحابين في الله والمدلجين في الظلم والمهاجرين روى في الدر المنثور، الأول عن أبي الدرداء، والثاني عن أبي أمامة، والثالث عن الخدري جميعا عن النبي ﷺ وقد عد في أحاديث أئمة أهل البيت عليه السلام ممن تجري فيه الآية خلق كثير.

٤٩. طي السماء كطي السجل وإعادة الخلق كما بدأ:

المقطع [٤٩] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٢٩»:

١. ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾:

أ. قال في المفردات: (والسجل قيل: حجر كان يكتب فيه ثم سمي كل ما يكتب فيه سجلا قال تعالى: ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أي كطيه لما كتب فيه حفظا له)، وهذا أوضح معنى قيل في معنى هذه الكلمة وأبسطه.

ب. وعلى هذا فقوله: ﴿لِلْكُتُبِ﴾ مفعول طي كما أن السجل فاعله والمراد أن السجل وهو الصحيفة المكتوب فيها الكتاب إذا طوي انطوى بطيه الكتاب وهو الألفاظ أو المعاني التي لها نوع تحقق وثبوت في السجل بتوسط الخطوط والنقوش فغاب الكتاب بذلك ولم يظهر منه عين ولا أثر كذلك السماء تنطوي بالقدرة الإلهية كما قال: ﴿وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] فتغيب عن غيره ولا يظهر منها عين ولا أثر غير أنها لا تغيب عن عالم الغيب وإن غاب عن غيره كما لا يغيب الكتاب عن السجل وإن غاب عن غيره.

ج. فطي السماء على هذا رجوعها إلى خزائن الغيب بعد ما نزلت منها وقدرت كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] وقال مطلقا: ﴿وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨] وقال: ﴿إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى﴾ [العلق: ٨]

د. ولعله بالنظر إلى هذا المعنى قيل: إن قوله: ﴿كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ ناظر إلى رجوع كل شيء إلى حاله التي كان عليها حين ابتدأ خلقه وهي أنه لم يكن شيئا مذكورا كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾ [مريم: ٩]، وقال ﴿هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ [الدهر: ١]

هـ. وهذا معنى ما نسب إلى ابن عباس أن معنى الآية يهلك كل شيء كما كان أول مرة وهو وإن كان مناسبا للاتصال بقوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ﴾، ليقع في مقام التعليل له لكن الأغلب على سياق الآيات السابقة بيان الإعادة بمعنى إرجاع الأشياء بعد فنائها لا الإعادة بمعنى إفناء الأشياء وإرجاعها إلى حالها قبل ظهورها بالوجود.

و. فظاهر سياق الآيات أن المراد نبعث الخلق كما بدأناه فالكاف في قوله: ﴿كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ للتشبيه و﴿كَما﴾ مصدرية و﴿أَوَّلَ خَلْقٍ﴾ مفعول ﴿بَدَأْنا﴾ والمراد أنا نعيد الخلق كابتدائه في السهولة من غير أن يعز علينا.

٢. ﴿وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ﴾ أي وعدناه وعدا ألزمنا ذلك ووجب علينا الوفاء به وإنا كنا فاعلين لما وعدنا وسنتنا ذلك.

٣. أحاديث وآثار:

أ. أخرج عبد بن حميد عن علي: في قوله: ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ﴾ قال: ملك.

• أقول: ورواه أيضا عن ابن أبي حاتم وابن عساكر عن الباقر عليه السلام في حديث.

ب. وفي تفسير القمي: وأما قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ قال: السجل اسم الملك الذي يطوي الكتب، ومعنى يطويها يفنيها، فتتحول دخانا والأرض نيرانا.

ج. وفي نهج البلاغة، في وصف الأموات: استبدلوا بظهر الأرض بطنا وبالسعة ضيقا، وبالأهل غربة، وبالنور ظلمة، فجاءوها كما فارقوها حفاة عراة، قد ظعنوا عنها بأعمالهم إلى الحياة الدائمة والدار الباقية، كما قال سبحانه: ﴿كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ﴾

• أقول: استشهاده عليه السلام بالآية يقبل الانطباق على كل من معنيي الإعادة أعني إعادة الخلق إلى ما بدءوا منه وإعادة الخلق بمعنى إحيائهم بعد موتهم كما كانوا قبل موتهم، وقد تقدم المعنيان في بيان

الآية.

د. وفي المجمع: ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: تحشرون يوم القيامة حفاة عراة عزلا ﴿كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ﴾

• أقول: وروى مثله في نور الثقلين عن كتاب الدوريستي بإسناده عن ابن عباس عنه ﷺ.

هـ. وفي تفسير القمي: وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ قال الكتب كلها ذكر ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ قال: القائم وأصحابه قال: والزبور فيه ملاحم والتحميد والتمجيد والدعاء.

• أقول: والروايات في المهدي عليه السلام وظهوره وملئه الأرض قسطا وعدلا بعد ما ملئت ظلما وجورا من طرق العامة والخاصة عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليه السلام بالغة حد التواتر، من أراد الوقوف عليها فليراجع مظانها من كتب العامة والخاصة.

٥٠. كتابة الله في الزبور أن الأرض يرثها عباده الصالحون:

المقطع [٥٠] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥-١٠٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٢٩»:

١. ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ﴾:

أ. الظاهر أن المراد بالزبور كتاب داود عليه السلام وقد سمي بهذا الاسم في قوله: ﴿وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً﴾ [النساء: ١٦٣]، [الإسراء: ٥٥]، وقيل: المراد به القرآن، وقيل: مطلق الكتب المنزلة على الأنبياء أو على الأنبياء بعد موسى ولا دليل على شيء من ذلك.

ب. والمراد بالذكر قيل: هو التوراة وقد سماها الله به في موضعين من هذه السورة وهما قوله: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [الآية: ٧] وقوله: ﴿وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الآية: ٤٨] منها، وقيل: هو القرآن وقد سماه الله ذكرا في مواضع من كلامه وكون الزبور بعد الذكر على هذا القول بعدية رتبية لا زمانية وقيل: هو اللوح المحفوظ وهو كما ترى.

٢. ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ﴾:

أ. الوراثة والإرث على ما ذكره الراغب انتقال قنية إليك من غير معاملة.

ب. والمراد من وراثة الأرض انتقال التسلط على منافعها إليهم واستقرار بركات الحياة بها فيهم، وهذه البركات:

• إما دنيوية راجعة إلى الحياة الدنيا كالتمتع الصالح بأمتعتها وزيناتها فيكون مؤدى الآية أن الأرض ستطهر من الشرك والمعصية ويسكنها مجتمع بشري صالح يعبدون الله ولا يشركون به شيئا كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ [النور: ٥٥]

• وإما أخروية وهي مقامات القرب التي اكتسبوها في حياتهم الدنيا فإنها من بركات الحياة الأرضية وهي نعيم الآخرة كما يشير إليه قوله تعالى حكاية عن أهل الجنة: ﴿وَقالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ﴾ [الزمر: ٧٤] وقوله: ﴿أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ [المؤمنون: ١١]

ج. ومن هنا يظهر أن الآية مطلقة ولا موجب لتخصيصها بإحدى الوراثتين كما فعلوه فهم:

أ. بين من يخصها بالوراثة الأخروية تمسكا بما يناسبها من الآيات، وربما استدلوا لتعينه بأن الآية السابقة تذكر الإعادة ولا أرض بعد الإعادة حتى يرثها الصالحون، ويرده أن كون الآية معطوفة على سابقتها غير متعين فمن الممكن أن تكون معطوفة على قوله السابق: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ كما سنشير إليه.

ب. وبين من يخصها بالوراثة الدنيوية ويحملها على زمان ظهور الإسلام أو ظهور المهدي عليه السلام الذي أخبر به النبي ﷺ في الأخبار المتواترة المروية من طرق الفريقين، ويتمسك لذلك بالآيات المناسبة له التي أومأنا إلى بعضها.

ج. وبالجملة الآية مطلقة تعم الوراثتين جميعا غير أن الذي يقتضيه الاعتبار بالسياق أن تكون معطوفة على قوله السابق: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، المشير إلى تفصيل حال المختلفين في أمر الدين من حيث الجزاء الأخروي وتكون هذه الآية مشيرة إلى تفصيلها من حيث الجزاء الدنيوي، ويكون المحصل أنا أمرناهم بدين واحد لكنهم تقطعوا واختلفوا فاختلف مجازاتنا لهم أما في الآخرة

فللمؤمنين سعي مشكور وعمل مكتوب وللكافرين خلاف ذلك، وأما في الدنيا فللصالحين وراثة الأرض بخلاف غيرهم.

٣. ﴿إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ﴾:

أ. البلاغ هو الكفاية، وأيضا ما به بلوغ البغية، وأيضا نفس البلوغ، ومعنى الآية مستقيم على كل من المعاني الثلاثة، والإشارة بهذا إلى ما بين في السورة من المعارف.

ب. والمعنى: أن فيما بيناه في السورة أن الرب واحد لا رب غيره يجب أن يعبد من طريق النبوة ويستعد بذلك ليوم الحساب، وأن جزاء المؤمنين كذا وكذا وجزاء الكافرين كيت وكيت، كفاية لقوم عابدين إن أخذوه وعملوا به كفاهم وبلغوا بذلك بغيتهم.

٥١. إرسال النبي رحمة للعالمين:

المقطع [٥١] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٣١»:

١. ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ﴾:

أ. أي أنك رحمة مرسلة إلى الجماعات البشرية كلهم، والدليل عليه الجمع المحلى باللام، وذلك مقتضى عموم الرسالة.

ب. وهو ﷺ رحمة لأهل الدنيا من جهة إتيانه بدين في الأخذ به سعادة أهل الدنيا في دنياهم وأخراهم.

ج. وهو ﷺ رحمة لأهل الدنيا من حيث الآثار الحسنة التي سرت من قيامه بالدعوة الحقة في مجتمعاتهم مما يظهر ظهورا بالغا بقياس الحياة العامة البشرية اليوم إلى ما قبل بعثته ﷺ وتطبيق إحدى الحياتين على الأخرى.

٥٢. التوحيد ودعوة الناس للإسلام:

المقطع [٥٢] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٨ـ١١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٣١»:

١. ﴿قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ واحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي إن الذي يوحى إلي من الدين ليس إلا التوحيد وما يتفرع عليه وينحل إليه سواء كان عقيدة أو حكما والدليل على هذا الذي ذكرنا ورود الحصر على الحصر وظهوره في الحصر الحقيقي.

٢. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ﴾:

أ. الإيذان، كما قيل، إفعال من الإذن وهو العلم بالإجازة في شيء وترخيصه ثم تجوز به عن مطلق العلم واشتق منه الأفعال وكثيرا ما يتضمن معنى التحذير والإنذار.

ب. ﴿عَلى سَواءٍ﴾ الظاهر أنه حال من مفعول ﴿آذَنْتُكُمْ﴾ والمعنى فإن أعرضوا عن دعوتك وتولوا عن الإسلام لله بالتوحيد فقل: أعلمتكم أنكم على خطرها لكونكم مساوين في الاعلام أو في الخطر، وقيل: أعلمتكم بالحرب وهو بعيد في سورة مكية.

٣. ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ﴾:

أ. تتمة قول النبي ﷺ المأمور به.

ب. والمراد بقوله: ﴿ما تُوعَدُونَ﴾ ما يشير إليه قوله: ﴿آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ﴾ من العذاب المهدد به أمر ﷺ أولا أن يعلمهم الخطر إن تولوا عن الإسلام، وثانيا أن ينفي عن نفسه العلم بقرب وقوعه وبعده ويعلله بقصر العلم بالجهر من قولهم، وهو طعنهم في الإسلام واستهزاؤهم علنا، وما يكتمون من ذلك في الله سبحانه فهو العالم بحقيقة الأمر.

ج. ومنه يعلم أن منشأ توجه العذاب إليهم هو ما كانوا يطعنون به في الإسلام في الظاهر وما يبطنون من المكر كأنه قيل: إنهم يستحقون العذاب بإظهارهم القول في هذه الدعوة الإلهية وإضمارهم المكر عليه فهددهم به لكن لما كنت لا تحيط بظاهر قولهم وباطن مكرهم ولا تقف على مقدار اقتضاء جرمهم العذاب من جهة قرب الأجل وبعده فأنف العلم بخصوصية قربه وبعده عن نفسك وأرجع العلم بذلك إلى الله سبحانه وحده.

د. وقد علم بذلك أن المراد بالجهر من القول ما أظهره المشركون من القول في الإسلام طعنا واستهزاء، وبما كانوا يكتمون ما أبطنوه عليه من المكر والخدعة.

٥٣. الفتنة والمتاع والزوال:

المقطع [٥٣] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأنبياء: ١١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٣٢»:

١. ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ من تتمة قول النبي ﷺ المأمور به وضمير ﴿لَعَلَّهُ﴾ على ما قيل كناية عن غير مذكور ولعله راجع إلى الإيذان المأمور به، والمعنى وما أدري لعل هذا الإيذان الذي أمرت به أي مراده تعالى من أمره لي بإعلام الخطر امتحان لكم ليظهر به ما في باطنكم في أمر الدعوة فهو يريد به أن يمتحنكم ويمتعكم إلى حين وأجل استدراجا وإمهالا.

٥٤. دعاء النبي بالحكم بالحق والاستعانة بالرحمن:

المقطع [٥٤] من سورة الأنبياء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٣٢»:

١. ﴿قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ﴾:

أ. الضمير في ﴿قالَ﴾ للنبي ﷺ والآية حكاية قول النبي ﷺ عن دعوتهم إلى الحق وردهم له وتوليهم عنه فكأنه ﷺ لما دعاهم وبلغ إليهم ما أمر بتبليغه فأنكروا وشددوا فيه أعرض عنهم إلى ربه منيبا إليه وقال: ﴿رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ وتقييد الحكم بالحق توضيحي لا احترازي فإن حكمه تعالى لا يكون إلا حقا فكأنه قيل: رب احكم بحكمك الحق والمراد ظهور الحق لمن كان وعلى من كان.

ب. ثم التفت ﷺ إليهم وقال: ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ﴾ وكأنه يشير به إلى سبب إعراضه عنهم ورجوعه إلى الله سبحانه وسؤاله أن يحكم بالحق فهو سبحانه ربه وربهم جميعا فله أن يحكم بين مربوبيه، وهو كثير الرحمة لا يخيب سائله المنيب إليه، وهو الذي يحكم لا معقب لحكمه وهو الذي يحق الحق ويبطل الباطل بكلماته فهو ﷺ في كلمته: ﴿رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ راجع الذي هو ربه وربهم وسأله برحمته أن يحكم بالحق واستعان به على ما يصفونه من الباطل وهو نعتهم دينهم بما ليس فيه وطعنهم في الدين الحق بما هو بريء من ذلك.

ج. وقد ظهر بما تقدم بعض ما في مفردات الآية الكريمة من النكات كالالتفات من الخطاب إلى الغيبة في ﴿قالَ﴾ والتعبير عنه تعالى أولا بربي وثانيا بربنا وتوصيفه بالرحمن والمستعان إلى غير ذلك.

سورة الحج

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٤٢] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. السورة تخاطب المشركين بأصول الدين إنذاراً وتخويفاً، كما كانوا يخاطبون في السور النازلة قبل الهجرة، في سياق يشهد بأن لهم بعد شوكة وقوة.

ب. وتخاطب المؤمنين بمثل الصلاة ومسائل الحج وعمل الخير والإذن في القتال والجهاد، في سياق يشهد بأن لهم مجتمعاً حديث العهد بالانعقاد قائماً على ساق، لا يخلو من عدة وعدة وشوكة.

ج. ويتعين بذلك أن السورة مدنية، نزلت بالمدينة ما بين هجرة النبي ﷺ وغزوة بدر.

د. وغرضها بيان أصول الدين بياناً تفصيلياً ينتفع بها المشرك والموحد، وفروعها بياناً إجمالياً ينتفع بها الموحدون من المؤمنين، إذ لم يكن تفاصيل الأحكام الفرعية مشرعة يومئذ إلا مثل الصلاة والحج كما في السورة.

هـ. ولكون دعوة المشركين إلى الأصول من طريق الإنذار، وكذا ندب المؤمنين إلى إجمال الفروع بلسان الأمر بالتقوى، بسط الكلام في وصف يوم القيامة، وافتتح السورة بالزلزلة التي هي من أشراطها، وبها خراب الأرض واندكاك الجبال.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٢] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تحذر من زلزلة الساعة وشدتها، وتصف يوم القيامة وما فيه من الهول.

٢. الآيات [٣ـ١٦] تذكر الآيات أصنافاً من الناس من مصر على الباطل مجادل في الحق أو متزلزل فيه، وتصف حالهم وتبين ضلالهم وسوء مآلهم، وتذكر المؤمنين وأنهم مهتدون في الدنيا منعمون في الآخرة.

٣. الآيات [١٧ ـ ٢٤]:

أ. بعد ما ذكر في الآيات السابقة اختلاف الناس واختصامهم في الله سبحانه، بين تابع ضال يجادل في الله بغير علم، ومتبوع مضل يجادل في الله بغير علم، ومذبذب يعبد الله على حرف، والذين آمنوا بالله

وعملوا الصالحات.

ب. ذكر في هذه الآيات أن الله شهيد عليهم، وسيفصل بينهم يوم القيامة، وهم خاضعون مقهورون له ساجدون قبال عظمته وكبريائه حقيقة، وإن كان بعضهم يأبى عن السجود له ظاهراً وهم الذين حق عليهم العذاب.

ج. ثم ذكر أجر المؤمنين وجزاء غيرهم بعد فصل القضاء يوم القيامة.

٤. الآيات [٢٥ ـ ٣٧] تذكر الآيات صد المشركين للمؤمنين عن المسجد الحرام، وتقرعهم بالتهديد، وتشير إلى تشريع حج البيت لأول مرة لإبراهيم عليه السلام، وأمره بتأذين الحج في الناس، وجملة من أحكام الحج.

٥. الآيات [٣٨ ـ ٥٧]:

أ. تتضمن الآيات إذن المؤمنين في القتال، وهي، كما قيل، أول ما نزلت في الجهاد، وقد كان المؤمنون منذ زمان يسألون النبي ﷺ أن يأذن لهم في قتال المشركين، فيقول لهم: لم أومر بشيء في القتال، وكان يأتيه كل يوم وهو بمكة قبل الهجرة أفراد من المؤمنين بين مضروب ومشجوج ومعذب بالفتنة، يشكون إليه ما يلقونه من عتاة مكة من المشركين، فيسليهم ويأمرهم بالصبر وانتظار الفرج، حتى نزلت الآيات وهي تشتمل على قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾

ب. وهي، كما تقدم، أول ما نزلت في الجهاد، وقيل: أول ما نزل فيه قول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وقيل: إنه قوله: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ الآية: [التوبة: ١١١]

ج. والاعتبار يستدعي أن تكون آية سورة الحج هي التي نزلت أولاً، وذلك لاشتمالها على الإذن صريحاً، واحتفافها بالتوطئة والتمهيد، وتهييج القوم وتقوية قلوبهم وتثبيت أقدامهم بوعد النصر تلويحاً وتصريحاً، وذكر ما فعل الله بالقرى الظالمة قبلهم، وكل ذلك من لوازم تشريع الأحكام الهامة وبيانها وإبلاغها لأول مرة، وخاصة الجهاد الذي بناؤه على أساس التضحية والتفدية، وهو أشق حكم اجتماعي وأصعبه في الإسلام، وأمسه بحفظ المجتمع الديني قائماً على ساقه، فإن إبلاغ مثله لأول مرة أحوج إلى بسط الكلام واستيقاظ الأفهام، كما هو مشاهد في هذه الآيات، فقد افتتحت أولاً بأن الله هو مولى المؤمنين

المدافع عنهم، ثم نص على إذنهم في القتال وذكر أنهم مظلومون، والقتال هو السبيل لحفظ المجتمعات الصالحة، ووصفهم بأنهم صالحون لعقد مجتمع ديني يعمل فيه الصالحات، ثم ذكر ما فعله بالقرى الظالمة قبلهم، وأنه سيأخذهم كما أخذ الذين قبلهم.

٦. الآيات [٥٨ ـ ٦٦]:

أ. الآيات تعقب الغرض السابق، وتبين ثواب الذين هاجروا ثم قتلوا جهاداً في سبيل الله أو ماتوا، وفيها بعض التحريض على القتال والوعد بالنصر، كما يدل عليه قوله: ﴿ذلِكَ وَمَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ﴾ الآية.

ب. وقد اختصت هذه الآيات بخصوصية لا توجد في جميع القرآن الكريم إلا فيها، فهي ثمان آيات متوالية ختمت كل منها باسمين من أسماء الله الحسنى وراء لفظ الجلالة، وقد اجتمعت فيها ـ بناء على اسمية الضمير ﴿هُوَ﴾ ـ ستة عشر اسماً: وإن الله لهو خير الرازقين، العليم الحليم، العفو الغفور، السميع البصير، العلي الكبير، اللطيف الخبير، الغني الحميد، الرءوف الرحيم.

ج. ثم ذكر في الآية التاسعة أنه تعالى يحيي ويميت، وفي أثنائها أنه الحق وأن له ما في السماوات والأرض، وهي في معنى أربعة أسماء: أعني المحيي المميت الحق المالك أو الملك، فتلك عشرون اسماً من أسمائه اجتمعت في الآيات الثمان على ألطف وجه وأبدعه.

٧. الآيات [٦٧ ـ ٧٨] الآيات تأمره ﷺ بالدعوة، وتبين أموراً من حقائق الدعوة وأباطيل الشرك، ثم تأمر المؤمنين بإجمال الشريعة وهو عبادة الله وفعل الخير، وتختم بالأمر بحق الجهاد في الله، وبذلك تختتم السورة.

١. هول زلزلة القيامة:

المقطع [١] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١ـ٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٣٨»:

١. ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾:

أ. الزلزلة والزلزال شدة الحركة على الحال الهائلة وكأنه مأخوذ بالاشتقاق الكبير من زل بمعنى زلق فكرر للمبالغة والإشارة إلى تكرر الزلة، وهو شائع في نظائره مثل ذب وذبذب ودم ودمدم وكب وكبكب ودك ودكدك ورف ورفرف وغيرها.

ب. الخطاب يشمل الناس جميعا من مؤمن وكافر وذكر وأنثى وحاضر وغائب وموجود بالفعل ومن سيوجد منهم، وذلك بجعل بعضهم من الحاضرين وصلة إلى خطاب الكل لاتحاد الجميع بالنوع.

ج. وهو أمر الناس أن يتقوا ربهم فيتقيه الكافر بالإيمان والمؤمن بالتجنب عن مخالفة أوامره ونواهيه في الفروع، وقد علل الأمر بعظم زلزلة الساعة فهو دعوة من طريق الإنذار.

د. وإضافة الزلزلة إلى الساعة لكونها من أشراطها وأماراتها، وقيل: المراد بزلزلة الساعة شدتها وهولها، ولا يخلو من بعد من جهة اللفظ.

٢. ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾:

أ. الذهول الذهاب عن الشيء مع دهشة، والحمل بالفتح الثقل المحمول في الباطن كالولد في البطن وبالكسر الثقل المحمول في الظاهر كحمل بعير قاله الراغب، وقال في مجمع البيان: (الحمل بفتح الحاء ما كان في بطن أو على رأس شجرة، والحمل بكسر الحاء ما كان على ظهر أو على رأس.

ب. قال في الكشاف: (إن قيل: لم قيل: ﴿مُرْضِعَةٍ﴾ دون مرضع؟ قلت: المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي، والمرضع التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به فقيل: مرضعة ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة)، وقال: (فإن قلت: لم قيل أولا: ترون ثم قيل: ترى على الإفراد؟ قلت: لأن الرؤية أولا علقت بالزلزلة فجعل الناس جميعا رائين لها، وهي معلقة أخيرا بكون الناس على حال السكر فلا بد أن يجعل كل واحد منهم رائيا لسائرهم)

٣. ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾ نفى السكر بعد إثباته للدلالة على أن سكرهم وهو ذهاب العقول وسقوطها في مهبط الدهشة والبهت ليس معلولا للخمر بل شدة عذاب الله هي التي أوقعتها فيها وقعت وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]

٤. وظاهر الآية أن هذه الزلزلة قبل النفخة الأولى التي يخبر تعالى عنها بقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ

فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] وذلك لأن الآية تفرض الناس في حال عادية تفاجئهم فيها زلزلة الساعة فتنقلب حالهم من مشاهدتها إلى ما وصف، وهذا قبل النفخة التي تموت بها الأحياء قطعا، وقيل: إنها تمثيل شدة العذاب أي لو كان هناك راء يراها لكانت الحال هي الحال، ووقوع الآية في مقام الإنذار والتخويف لا يناسبه تلك المناسبة إذ الإنذار بعذاب لا يعلم به لا وجه له.

٥. أحاديث وآثار:

أ. أخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه من طرق عن الحسن وغيره عن عمران بن حصين قال: لما نزلت ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلكِنَّ عَذابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾ أنزلت عليه هذه وهو في سفر فقال: أتدرون أي يوم ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: ذلك يوم يقول الله لآدم: ابعث بعث النار، قال: يا رب وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحدا إلى الجنة، فأنشأ المسلمون يبكون فقال رسول الله ﷺ: قاربوا وسددوا فإنها لم تكن نبوة قط، إلا كان بين يديها جاهلية فتؤخذ العدة من الجاهلية، فإن تمت وإلا أكملت من المنافقين، وما مثلكم إلا كمثل الرقمة في ذراع الدابة، أو كالشامة في جنب البعير، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، فكبروا ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبروا، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبروا، قال: فلا أدري قال: الثلثين، أم لا؟

• أقول: وهي مروية بطرق أخرى كثيرا عن عمران وابن عباس وأبي سعيد الخدري وأبي موسى وأنس مع اختلاف في المتون وأعدلها ما أوردناه.

ب. وفي تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكارى﴾ قال: يعني ذاهبة عقولهم من الحزن والفزع متحيرين

٢. الجدال بغير علم واتباع الشيطان:

المقطع [٢] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٣ـ٤]، وفيه

المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٤٢»:

١. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ﴾:

أ. المريد الخبيث وقيل: المتجرد للفساد والمعري من الخير والمجادلة في الله بغير علم التكلم فيما يرجع إليه تعالى من صفاته وأفعاله بكلام مبني على الجهل بالإصرار عليه.

ب. ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ﴾ بيان لمسلكه في الاعتقاد والعمل بعد بيان مسلكه في القول كأنه قيل: إنه يقول في الله بغير علم ويصر على جهله ويعتقد بكل باطل ويعمل به وإذ كان الشيطان هو الذي يهدي الإنسان إلى الباطل والإنسان إنما يميل إليه بإغوائه فهو يتبع في كل ما يعتقده ويعمل به الشيطان فقد وضع اتباع الشيطان في الآية موضع الاعتقاد والعمل للدلالة على الكيفية وليبين في الآية التالية أنه ضال عن طريق الجنة سالك إلى عذاب السعير.

ج. وقد قال تعالى: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ﴾ ولم يقل: ويتبع الشيطان المريد وهو إبليس للدلالة على تلبسه بفنون الضلال وأنواعه فإن أبواب الباطل مختلفة وعلى كل باب شيطانا من قبيل إبليس وذريته وهناك شياطين من الإنس يدعون إلى الضلال فيقلدهم أولياؤهم الغاوون ويتبعونهم وإن كان كل تسويل ووسوسة منتهيا إلى إبليس لعنه الله.

د. والكلمة أعني قوله: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ﴾ مع ذلك كناية عن عدم انتهائه في اتباع الباطل إلى حد يقف عليه لبطلان استعداده للحق وكون قلبه مطبوعا عليه فهو في معنى قوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ [الأعراف: ١٤٦]

٢. ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ﴾:

أ. التولي أخذه وليا متبعا، وقوله: ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾، مبتدأ محذوف الخبر، والمعنى ويتبع كل شيطان مريد من صفته أنه كتب عليه أن من اتخذه وليا واتبعه فإضلاله له وهدايته إياه إلى عذاب السعير ثابت لازم.

ب. والمراد بكتابته عليه القضاء الإلهي في حقه بإضلاله متبعيه أولا وإدخاله إياهم النار ثانيا، وهذان القضاءان هما اللذان إشارة إليهما في قوله: ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٤٣] وقد تقدم الكلام في توضيح ذلك في الجزء الثاني عشر

من الكتاب.

ج. وبما تقدم يظهر ضعف ما قيل: إن المعنى من تولى الشيطان فإن الله يضله إذ لا شاهد من كلامه تعالى على هذه الكتابة المدعاة وإنما المذكور في كلامه تعالى القضاء بتسليط إبليس على من تولاه واتبعه كما تقدم، على أن لازمه اختلاف الضمائر ورجوع ضمير ﴿فَأَنَّهُ﴾ إلى ما لم يتقدم ذكره من غير موجب.

د. وأضعف منه قول من قال: إن المعنى كتب على هذا الذي يجادل في الله بغير علم أنه من تولاه فإنه يضله، بإرجاع الضمائر إلى الموصول في ﴿مَنْ يُجادِلُ﴾ وهو كما ترى.

هـ. ويظهر من الآية أن القضاء على إبليس قضاء على قبيله وذريته وأعوانه، وأن إضلالهم وهدايتهم إلى عذاب السعير وبالجملة فعلهم فعله، ولا يخفى ما في الجمع بين يضله ويهديه في الآية من اللطف.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ﴾ قال: المريد الخبيث.

ب. أخرج ابن أبي حاتم عن أبي زيد: في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قال نزلت في النضر بن الحارث.

• أقول: ورواه أيضا عن ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريح والظاهر أنه من التطبيق كما هو دأبهم في غالب الروايات المتعرضة لأسباب النزول، وعلى ذلك فالقول بنزول الآية الآتية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً﴾ الآية فيه كما نقل عن مجاهد أولى من القول بنزول هذه الآية فيه لأن الرجل من معاريف القوم وهذه الآية كما تقدم في الاتباع والآية الأخرى في المتبوعين.

٣. مراحل خلق الإنسان وإثبات البعث:

المقطع [٣] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الحج: ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٤٤»:

١. ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ﴾ إلى قوله: ﴿شَيْئاً﴾ المراد بالبعث إحياء الموتى والرجوع إلى الله سبحانه وهو ظاهر، والعلقة القطعة من الدم الجامد، والمضغة القطعة

من اللحم الممضوغة والمخلقة على ما قيل، تامة الخلقة وغير المخلقة غير تامتها وينطبق على تصوير الجنين الملازم لنفخ الروح فيه، وعليه ينطبق القول بأن المراد بالتخليق التصوير.

٢. ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ ظاهر السياق أن المراد لنبين لكم أن البعث ممكن ونزيل الريب عنكم فإن مشاهدة الانتقال من التراب الميت إلى النطفة ثم إلى العلقة ثم إلى المضغة ثم إلى الإنسان الحي لا تدع ريبا في إمكان تلبس الميت بالحياة ولذلك وضع قوله: ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ في هذا الموضع ولم يؤخر إلى آخر الآية.

٣. ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وأي ونقر فيها ما نشاء من الأجنة ولا نسقطه إلى تمام مدة الحمل.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ قال: المخلقة إذا صارت تاما، و﴿غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ قال: السقط.

ب. أخرج أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان، عن عبد الله بن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدق، أن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات، يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فو الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها.

• أقول: والرواية مروية بطرق أخرى عنه وعن ابن عباس وأنس وحذيفة بن أسيد، وفي متونها بعض الاختلاف، وفي بعضها، وهو ما رواه ابن جرير عن ابن مسعود:، يقال للملك: انطلق إلى أم الكتاب فاستنسخ منه صفة هذه النطفة، فينطلق فينسخها فلا يزال معه، حتى يأتي على آخر صفتها، الحديث.

• وقد ورد من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليه السلام ما يقرب من ذلك كما في قرب الإسناد للحميري عن أحمد بن محمد عن أحمد بن أبي نصر عن الرضا عليه السلام وفيه: فإذا تمت الأربعة الأشهر بعث الله تبارك وتعالى إليها ملكين خلاقين، يصوران ويكتبان رزقه وأجله وشقيا أو سعيدا، الحديث.

• وقد قدمنا في تفسير أول سورة آل عمران حديث الكافي عن الباقر عليه السلام في تصوير الجنين وكتابة ما قدر له وفيه: أن الملكين يكتبان جميع ما قدر له عن لوح، يقرع جبهة أمه فيكتبان جميع ما في اللوح، ويشترطان البداء فيما يكتبان، الحديث وفي معناه غيره.

• ومقتضى هذا الحديث وما في معناه جواز التغير فيما كتب للولد من كتابة كما أن مقتضى ما تقدم خلافه لكن لا تنافي بين المدلولين فإن لكل شيء ومنها الإنسان نصيبا في اللوح المحفوظ الذي لا سبيل للتغير والتبدل إلى ما كتب فيه ونصيبا من لوح المحو والإثبات الذي يقبل التغير والتبدل فالقضاء قضاءان محتوم وغير محتوم، قال تعالى: ﴿يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ﴾ [الرعد: ٣٩]

• وقد تقدم الكلام في معنى القضاء واتضح به أن لوح القضاء كائنا ما كان ينطبق على نظام العلية والمعلولية وينحل إلى سلسلتين: سلسلة العلل التامة ومعلولاتها ولا تقبل تغييرا وسلسلة العلل الناقصة مع معاليلها وهي القابلة وكأن الصنف الأول من الروايات يشير إلى ما يقضى للجنين من قضاء محتوم والثاني إلى غيره وقد بينا أيضا فيما تقدم أن حتمية القضاء لفعل العبد لا تنافي اختيارية الفعل فتذكر.

ج. وفي الكافي بإسناده عن سلام بن المستنير قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ قال: المخلقة هم الذر الذين خلقهم الله في صلب آدم ﷺ، أخذ عليهم الميثاق ثم أجراهم في أصلاب الرجال وأرحام النساء، وهم الذين يخرجون إلى الدنيا حتى يسألوا عن الميثاق، وأما قوله: ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ فهم كل نسمة لم يخلقهم الله عز وجل في صلب آدم حين خلق الذر، وأخذ عليهم الميثاق، وهم النطف من العزل والسقط، قبل أن ينفخ فيه الروح والحياة والبقاء.

• أقول: وقد تقدم توضيح معنى الحديث في البحث الروائي المتعلق بآية الذر في سورة الأعراف.

٤. رحلة العمر من الطفولة إلى أرذل العمر:

المقطع [٤] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٤٤»:

١. ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾، قال في المجمع: (أي نخرجكم من بطون أمهاتكم وأنتم أطفال، والطفل الصغير من الناس، وإنما وحد والمراد به الجمع لأنه مصدر كقولهم: رجل عدل ورجال عدل،

وقيل: أراد ثم نخرج كل واحد منكم طفلا)، والمراد ببلوغ الأشد حال اشتداد الأعضاء والقوى.

٢. ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ المقابلة بين الجملتين تدل على تقيد الأولى بما يميزها من الثانية والتقدير ومنكم من يتوفى من قبل أن يرد إلى أرذل العمر، والمراد بأرذل العمر أحقره وأهونه وينطبق على حال الهرم فإنه أرذل الحياة إذا قيس إلى ما قبله.

٣. ﴿لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ أي شيئا يعتد به أرباب الحياة ويبنون عليه حياتهم، واللام للغاية أي ينتهي أمره إلى ضعف القوى والمشاعر بحيث لا يبقى له من العلم الذي هو أنفس محصول للحياة شيء يعتد به لها.

٤. أحاديث وآثار: في تفسير القمي، بإسناده عن علي بن المغيرة عن أبي عبد الله عن أبيه عليه السلام قال: إذا بلغ العبد مائة سنة فذلك أرذل العمر.

• أقول: وقد تقدم بعض الروايات في هذا المعنى في تفسير سورة النحل في ذيل [الآية: ٧٠]

٥. إحياء الأرض بالماء:

المقطع [٥] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٤٥»:

١. ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾:

أ. قال الراغب: (يقال: همدت النار طفئت، ومنه أرض هامدة لا نبات فيها، ونبات هامد يابس، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً﴾) ويقرب منه تفسيرها بالأرض الهالكة.

ب. وقال أيضا: الهز التحريك الشديد يقال: هززت الرمح فاهتز واهتز النبات إذا تحرك لنضارته، وقال أيضا: ربا إذا زاد وعلا قال تعالى: ﴿فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي زادت زيادة المتربى) انتهى بتلخيص ما.

٢. ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي وأنبتت الأرض من كل صنف من النبات متصف بالبهجة وهي حسن اللون وظهور السرور فيه، أو المراد بالزوج ما يقابل الفرد فإن كلامه يثبت للنبات ازدواجا كما يثبت له حياة، وقد وافقته العلوم التجريبية اليوم، والمحصل أن للأرض في إنباتها النبات وإنمائها له شأنا يماثل شأن الرحم في إنباته الحيوي للتراب الصائر نطفة ثم علقة ثم مضغة إلى أن يصير إنسانا حيا.

٦. الحق والإحياء والقدرة والبعث:

المقطع [٦] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٦-٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٤٥»:

١. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

أ. ذلك إشارة إلى ما ذكر في الآية السابقة من خلق الإنسان والنبات وتدبير أمرهما حدوثا وبقاء خلقا وتدبيرا واقعين لا ريب فيهما.

ب. والذي يعطيه السياق أن المراد بالحق نفس الحق، أعني أنه ليس وصفا قائما مقام موصوف محذوف هو الخبر، فهو تعالى نفس الحق الذي يحقق كل شيء حق ويجري في الأشياء النظام الحق فكونه تعالى حقا يتحقق به كل شيء حق هو السبب لهذه الموجودات الحقة والنظامات الحقة الجارية فيها، وهي جميعا تكشف عن كونه تعالى هو الحق.

٢. ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى﴾ معطوف على ما قبله أي المذكور في الآية السابقة من صيرورة التراب الميت بالانتقال من حال إلى حال إنسانا حيا وكذا صيرورة الأرض الميتة بنزول الماء نباتا حيا واستمرار هذا الأمر بسبب أن الله يحيي الموتى ويستمر منه ذلك.

٣. ﴿وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ معطوف على سابقه كسابقه والمراد أن ما ذكرناه بسبب أن الله على كل شيء قدير وذلك أن إيجاد الإنسان والنبات وتدبير أمرهما في الحدوث والبقاء مرتبط بما في الكون من وجود أو نظام جار في الوجود وكما أن إيجادهما وتدبير أمرهما لا يتم إلا مع القدرة عليهما كذلك القدرة عليهما لا تتم إلا مع القدرة على كل شيء فخلقهما وتدبير أمرهما بسبب عموم القدرة وإن شئت فقل: ذلك يكشف عن عموم القدرة.

٤. ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾:

أ. الجملتان معطوفتان على (أن) في قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ﴾

ب. وأما الوجه في اختصاص هذه النتائج الخمس المذكورة في الآيتين بالذكر مع أن بيان السابقة ينتج نتائج أخرى مهمة في أبواب التوحيد كربوبيته تعالى ونفي شركاء العبادة وكونه تعالى عليما ومنعما

وجوادا وغير ذلك.

ج. فالذي يعطيه السياق، والمقام مقام إثبات البعث، وعرض هذه الآيات على سائر الآيات المثبتة للبعث أن الآية تؤم إثبات البعث من طريق إثبات كونه تعالى حقا على الإطلاق فإن الحق المحض لا يصدر عنه إلا الفعل الحق دون الباطل، ولو لم يكن هناك نشاة أخرى يعيش فيها الإنسان بما له من سعادة أو شقاء واقتصر في الخلقة على الإيجاد ثم الإعدام ثم الإيجاد ثم الإعدام وهكذا كان لعبا باطلا فكونه تعالى حقا لا يفعل إلا الحق يستلزم نشاة البعث استلزاما بينا فإن هذه الحياة الدنيا تنقطع بالموت فبعدها حياة أخرى باقية لا محالة.

د. فالآية أعني قوله: ﴿فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ﴾ إلى قوله: ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ في مجرى قوله: ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٩] وقوله: ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ٢٧] وغيرهما من الآيات المتعرضة لإثبات المعاد، وإنما الفرق أنها تثبته من طريق حقية فعله تعالى والآية المبحوث عنها تثبته من طريق حقيته تعالى في نفسه المستلزمة لحقية فعله.

هـ. ثم لما كان من الممكن أن يتوهم استحالة إحياء الموتى فلا ينفع البرهان حينئذ دفعه بقوله: ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى﴾ فإحياؤه تعالى الموتى بجعل التراب الميت إنسانا حيا وجعل الأرض الميتة نباتا حيا واقع مستمر مشهود فلا ريب في إمكانه وهذه الجملة أيضا في مجرى قوله تعالى: ﴿قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩] وسائر الآيات المثبتة لإمكان البعث والإحياء ثانيا من طريق ثبوت مثله أولا.

و. ثم لما أمكن أن يتوهم أن جواز الإحياء الثاني لا يستلزم الوقوع بتعلق القدرة به استبعادا له واستصعابا دفعه بقوله: ﴿وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فإن القدرة لما كانت غير متناهية كانت نسبتها إلى الإحياء الأول والثاني وما كان سهلا في نفسه أو صعبا على حد سواء فلا يخالطها عجز ولا يطرأ عليها عي وتعب.

ز. وهذه الجملة أيضا في مجرى قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ [ق: ١٥] وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩] وسائر الآيات المثبتة للبعث بعموم القدرة

وعدم تناهيها.

ح. فهذه أعني ما في قوله تعالى: ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ﴾ نتائج ثلاث مستخرجة من الآية السابقة عليها مسوقة جميعا لغرض واحد وهو ذكر ما يثبت به البعث وهو الذي تتضمنه الآية الأخيرة ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾

ط. ولم تتضمن الآية إلا بعث الأموات والظرف الذي يبعثون فيه فأما الظرف وهو الساعة فذكره في قوله: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها﴾ ولم ينسب إتيانها إلى نفسه بأن يقال مثلا: وأن الله يأتي بالساعة أو ما في معناه ولعل الوجه في ذلك اعتبار كونها لا تأتي إلا بغتة لا يتعلق به علم قط كما قال: ﴿لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾

ي. وقال: ﴿قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وقال: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها﴾ [طه: ١٥] فكان عدم نسبتها إلى فاعل كعدم ذكر وقتها وكتمان مرساها مبالغة في إخفائها وتأييدا لكونها مباغتة مفاجئة، وقد كثر ذكرها في كلامه ولم يذكر في شيء منه لها فاعل بل كان التعبير مثل آتية (تأتيهم) (قائمة) (تقوم) ونحو ذلك.

ك. وأما المظروف وهو إحياء الموتى من الإنسان فهو المذكور في قوله: ﴿وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾

ل. سؤال وإشكال: فإن قلت: الحجة المذكورة تنتج البعث لجميع الأشياء لا للإنسان فحسب لأن الفعل بلا غاية لغو باطل سواء كان هو الإنسان أو غيره لكن الآية تكتفي بالإنسان فقط، والجواب: قصر الآية النتيجة في الإنسان فقط لا ينافي ثبوت نظير الحكم في غيره لكن الذي تمسه الحاجة في المقام بعث الإنسان على أنه يمكن أن يقال: إن نفي المعاد عن الأشياء غير الإنسان لا يستلزم كون فعلها باطلا منه تعالى لأنها مخلوقة لأجل الإنسان فهو الغاية لخلقها والبعث غاية لخلق الإنسان.

م. هذا ما يعطيه التدبر في سياق الآيات الثلاث وعرضها على سائر الآيات المتعرضة لإثبات المعاد على تفننها، وبه يظهر وجه الاكتفاء من النتائج المترتبة عليها بهذه النتائج المعدودة بحسب المترائي من اللفظ خمسا وهي في الحقيقة ثلاث موضوعة في الآية الثانية مستخرجة من الأولى، وواحدة موضوعة في الآية الثالثة مستخرجة من الثلاث الموضوعة في الثانية.

ن. وبه يندفع أيضا شبهة التكرار المتوهم من قوله: وَ ﴿أَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتى﴾ ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ ﴿وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ إلى غير ذلك.

٥. وللقوم في تفسير الآيات الثلاث وتقرير حجتها وجوه كثيرة مختلفة لا ترجع إلى جدوى وقد أضافوا في جميعها إلى حجة الآية مقدمات أجنبية تختل بها سلاسة النظم واستقامة الحجة، وقد طوينا ذكرها فمن أراد الوقوف عليها فليراجع مطولات التفاسير.

٧. الجدال والضلال والخزي والعذاب:

المقطع [٧] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الحج: ٨-١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٤٨»:

١. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ﴾:

أ. صنف آخر من الناس المعرضين عن الحق، قال في كشف الكشاف، على ما نقل: (إن الأظهر في النظم والأوفق للمقام أن هذه الآية في المقلدين بفتح اللام والآية السابقة ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ﴾ إلى قوله: ﴿مَرِيدٍ﴾ في المقلدين بكسر اللام)

ب. وهو كذلك بدليل قوله هنا ذيلا: ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ وقوله هناك: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ﴾ والإضلال من شأن المقلد بفتح اللام والاتباع من شأن المقلد بكسر اللام.

ج. والترديد في الآية بين العلم والهدى والكتاب مع كون كل من العلم والهدى يعم الآخرين دليل على أن المراد بالعلم علم خاص وبالهدى هدى خاص فقيل: إن المراد بالعلم العلم الضروري وبالهدى الاستدلال والنظر الصحيح الهادي إلى المعرفة وبالكتاب المنير الوحي السماوي المظهر للحق، وفيه أن تقييد العلم بالضروري وهو البديهي لا دليل عليه، على أن الجدال سواء كان المراد به مطلق الإصرار في البحث أو الجدل المصطلح وهو القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات من طرق الاستدلال ولا استدلال على ضروري البتة.

د. ويمكن أن يكون المراد بالعلم ما تفيده الحجة العقلية، وبالهدى ما تفيضه الهداية الإلهية لمن

أخلص لله في عبادته وعبوديته فاستنار قلبه بنور معرفته أو بالعكس بوجه وبالكتاب المنير الوحي الإلهي من طريق النبوة، وتلك طرق ثلاث إلى مطلق العلم: العقل والبصر والسمع وقد أشار تعالى إليها في قوله: ﴿وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً﴾ [الإسراء: ٣٦] والله أعلم.

٢. ﴿ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ الثني الكسر والعطف بكسر العين الجانب، وثني العطف كناية عن الإعراض كأن المعرض يكسر أحد جانبيه على الآخر.

٣. ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ متعلق بقوله: ﴿يُجادِلُ﴾ واللام للتعليل أي يجادل في الله بجهل منه مظهر للإعراض والاستكبار ليتوصل بذلك إلى إضلال الناس وهؤلاء هم الرؤساء المتبوعون من المشركين.

٤. ﴿لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ﴾ تهديد بالخزي، وهو الهوان والذلة والفضيحة، في الدنيا، وإلى ذلك آل أمر صناديد قريش وأكابر مشركي مكة، وإيعاد بالعذاب في الآخرة.

٥. ﴿ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾:

أ. إشارة إلى ما تقدم في الآية السابقة من الإيعاد بالخزي والعذاب، والباء في ﴿بِما قَدَّمَتْ﴾ للمقابلة كقولنا: بعت هذا بهذا أو للسببية أي إن الذي تشاهده من الخزي والعذاب جزاء ما قدمت يداك أو بسبب ما قدمت يداك من المجادلة في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب معرضا مستكبرا لإضلال الناس وفي الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب لتسجيل اللوم والعتاب.

ب. ﴿وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ معطوف على ﴿بِما قَدَّمَتْ﴾ أي ذلك لأن الله لا يظلم عباده بل يعامل كلا منهم بما يستحقه بعمله ويعطيه ما يسأله بلسان حاله.

٦. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه بسند صحيح عن ابن عباس قال: كان ناس من الأعراب يأتون النبي ﷺ فيسلمون، فإذا رجعوا إلى بلادهم، فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن، قالوا: إن ديننا هذا صالح فتمسكوا به، وإن وجدوا عام جدب وعام ولاد سوء وعام قحط قالوا: ما في ديننا هذا خير فأنزل الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلى حَرْفٍ﴾

• أقول: وهذا المعنى مروي عنه أيضا بغير هذا الطريق.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلى حَرْفٍ﴾ قال: نعم قوم وحدوا الله وخلعوا عبادة من يعبد من دون الله، فخرجوا من الشرك ولم يعرفوا أن محمدا ﷺ رسول الله، فهم يعبدون الله على شك في محمد وما جاء به، فأتوا رسول الله ﷺ وقالوا: ننظر فإن كثرت أموالنا وعوفينا في أنفسنا وأولادنا علمنا، أنه صادق وأنه رسول الله: وإن كان غير ذلك نظرنا، قال الله عز وجل: ﴿فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ يعني عافية في الدنيا ﴿وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ يعني بلاء في نفسه ﴿انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ﴾ انقلب على شكه إلى الشرك ﴿خَسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ، يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُ وَما لا يَنْفَعُهُ﴾ قال: ينقلب مشركا يدعو غير الله ويعبد غيره، الحديث.

• أقول: ورواه الصدوق في التوحيد، باختلاف يسير.

٨. العبادة على حرف والفتنة والخسران:

المقطع [٨] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١١-١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٥٠»:

١. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلى حَرْفٍ﴾:

أ. الحرف والطرف والجانب بمعنى، والاطمئنان: الاستقرار والسكون، والفتنة، كما قيل، المحنة والانقلاب الرجوع.

ب. وهذا صنف آخر من الناس غير المؤمنين الصالحين وهو الذي يعبد الله سبحانه بانيا عبادته على جانب واحد دون كل جانب وعلى تقدير الله على كل تقدير وهو جانب الخير ولازمه استخدام الدين للدنيا فإن أصابه خير استقر بسبب ذلك الخير على عبادة الله واطمأن إليها، وإن أصابته فتنة ومحنة انقلب ورجع على وجهه من غير أن يلتفت يمينا وشمالا وارتد عن دينه تشؤما من الدين أو رجاء أن ينجو بذلك من المحنة والمهلكة وكان ذلك دأبهم في عبادتهم الأصنام فكانوا يعبدونها لينالوا بذلك الخير أو ينجو من

الشر بشفاعتهم في الدنيا وأما الآخرة فما كانوا يقولون بها فهذا المذبذب المنقلب على وجهه خسر الدنيا بوقوعه في المحنة والمهلكة، وخسر الآخرة بانقلابه عن الدين على وجهه وارتداده وكفره ذلك هو الخسران المبين.

ج. هذا ما يعطيه التدبر في معنى الآية، وعليه فقوله: ﴿يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ من قبيل الاستعارة بالكناية، وقوله: ﴿فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ﴾، تفسير لقوله: ﴿يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ وتفصيل له، وقوله: ﴿خَسِرَ الدُّنْيا﴾ أي بإصابة الفتنة، وقوله: ﴿وَالْآخِرَةَ﴾ أي بانقلابه على وجهه.

٢. ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُ وَما لا يَنْفَعُهُ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾ المدعو هو الصنم فإنه لفقده الشعور والإرادة لا يتوجه منه إلى عابده نفع أو ضرر والذي يصيب عابده من ضرر وخسران فإنما يصيبه من ناحية العبادة التي هي فعل له منسوب إليه.

٣. ﴿يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾:

أ. المولى الولي الناصر، والعشير الصاحب المعاشر.

ب. ذكروا في تركيب جمل الآية أن ﴿يَدْعُوا﴾ بمعنى يقول، وقوله: ﴿لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾، مقول القول، و﴿لَمَنْ﴾ مبتدأ دخلت عليه لام الابتداء وهو موصول صلته ﴿ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾، وقوله: ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ جواب قسم محذوف وهو قائم مقام الخبر دال عليه.

ج. والمعنى: يقول هذا الذي يعبد الأصنام يوم القيامة واصفا لصنمه الذي اتخذه مولى وعشيرا، الصنم الذي ضره أقرب من نفعه مولى سوء وعشير سوء أقسم لبئس المولى ولبئس العشير.

د. وإنما يعد ضره أقرب من نفعه لما يشاهد يوم القيامة ما تستتبعه عبادته له من العذاب الخالد والهلاك المؤبد.

٩. وعد المؤمنين بجنات النعيم:

المقطع [٩] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ إِنَّ اللهَّ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٥١»:

١. ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ﴾، لما ذكر

الأصناف الثلاثة من الكفار وهم الأئمة المتبوعون المجادلون في الله بغير علم والمقلدة التابعون لكل شيطان مريد المجادلون كأئمتهم والمذبذبون العابدون لله على حرف، ووصفهم بالضلال والخسران قابلهم بهذا الصنف من الناس وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ووصفهم بكريم المثوى وحسن المنقلب وأن الله يريد بهم ذلك.

٢. وذكر هؤلاء الأصناف كالتوطئة لما سيذكر من القضاء بينهم وبيان حالهم تفصيلا.

١٠. الظن والكيد والآيات والهداية:

المقطع [١٠] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٥-١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٥١»:

١. ﴿مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ﴾:

أ. قال في المجمع: السبب كل ما يتوصل به إلى الشيء ومنه قيل للحبل سبب وللطريق سبب وللباب سبوالمراد بالسبب في الآية الحبل، والقطع معروف ومن معانيه الاختناق يقال: قطع أي اختنق وكأنه مأخوذ من قطع النفس، قالوا: إن الضمير في ﴿لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ﴾ للنبي ﷺ وذلك أن مشركي مكة كانوا يظنون أن الذي جاء به النبي ﷺ من الدين أحدوثة كاذبة لا تبتني على أصل عريق فلا يرتفع ذكره، ولا ينتشر دينه، وليس له عند الله منزلة حتى إذا هاجر ﷺ إلى المدينة فنصره الله سبحانه فبسط دينه ورفع ذكره غاظهم ذلك غيظا شديدا فقرعهم الله سبحانه بهذه الآية وأشار بها إلى أن الله ناصره ولن يذهب غيظهم ولو خنقوا أنفسهم فلن يؤثر كيدهم أثرا.

ب. والمعنى: من كان يظن من المشركين أن لن ينصر الله تعالى نبيه ﷺ في الدنيا برفع الذكر وبسط الدين وفي الآخرة بالمغفرة والرحمة له وللمؤمنين به ثم غاظه ما يشاهده اليوم من نصر الله له فليمدد بحبل إلى السماء، كأن يربط طرف الحبل على جذع عال ونحوه، ثم ليختنق به فلينظر هل يذهبن كيده وحيلته هذا ما يغيظ أي غيظة، وهذا معنى حسن يؤيده سياق الآيات السابقة وما استفدناه سابقا من نزول السورة بعد الهجرة بقليل ومشركو مكة بعد على قدرتهم وشوكتهم.

ج. وذكر بعضهم: أن ضمير ﴿لَنْ يَنْصُرَهُ﴾ عائد إلى ﴿مَنْ﴾ ومعنى القطع قطع المسافة والمراد بمد سبب إلى السماء الصعود عليها لإبطال حكم الله، والمعنى من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليصعد السماء بسبب يمده ثم ليقطع المسافة ولينظر هل يذهب كيده ما يغيظه من حكم، ولعل هؤلاء يعنون أن المراد بالآية أن من الواجب على الإنسان أن يرجو ربه في دنياه وآخرته وإن لم يرجه وظن أن لن ينصره الله فيهما وغاظه ذلك فليكد ما يكيد فإنه لا ينفعه.

د. وذكر آخرون أن الضمير للموصول كما في القول السابق، والمراد بالنصر الرزق كما يقال: أرض منصورة أي ممطورة والمعنى كما في القول الأول، وهذا أقرب إلى الاعتبار من سابقه وأحسن لكن يرد على الوجهين جميعا لزوم انقطاع الآية عما قبلها من الآيات، على أن الأنسب على هذين الوجهين في التعبير أن يقال: من ظن أن لن ينصره الله، لا أن يقال (من كان يظالظاهر في استمرار الظن منه في الماضي فإنه يؤيد القول الأول.

٢. ﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ قد تقدم مرارا أن هذا من تشبيه الكلي بفرده بدعوى البينونة للدلالة على أن ما في الفرد من الحكم جار في باقي أفراده كمن يشير إلى زيد وعمرو وهما يتكلمان ويمشيان على قدميهما ويقول كذلك يكون الإنسان أي حكم التكلم والمشي على القدمين جار في جميع الأفراد فمعنى قوله: ﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ﴾ أنزلنا القرآن وهو آيات واضحة الدلالات كما في الآيات السابقة من هذه السورة.

٣. ﴿وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ خبر لمبتدإ محذوف أي والأمر أن الله يهدي من يريد وأما من لم يرد أن يهديه فلا هادي له فمجرد كون الآيات بينات لا يكفي في هداية من سمعها أو تأمل فيها ما لم يرد الله هدايته، وقيل: الجملة معطوفة على ضمير ﴿أَنْزَلْناهُ﴾ والتقدير وكذلك أنزلنا أن الله يهدي من يريد، والوجه الأول أوضح اتصالا بأول الآية وهو ظاهر.

٤. أحاديث وآثار: أخرج الفاريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس: في قوله: ﴿مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ﴾ قال: من كان يظن أن لن ينصر الله محمدا في الدنيا والآخرة ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ قال: فليربط حبلا ﴿إِلَى السَّماءِ﴾ قال: إلى سماء بيته السقف ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ قال ثم يختنق به حتى يموت.

• أقول: هو وإن كان تفسيرا منه لكنه في معنى سبب النزول ولذلك أوردناه.

١١. الفصل بين الأمم يوم القيامة:

المقطع [١١] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٥٧»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصارى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾:

أ. المراد بالذين آمنوا بقرينة المقابلة هم الذين آمنوا بمحمد ﷺ وكتابهم القرآن.

ب. والذين هادوا هم المؤمنين بموسى من قبله من الرسل الواقفون فيه وكتابهم التوراة وقد أحرقها بخت نصر ملك بابل حينما استولى عليهم في أواسط القرن السابع قبل المسيح فافتقدوها برهة ثم جدد كتابتها لهم عزراء الكاهن في أوائل القرن السادس قبل المسيح حينما فتح كورش ملك إيران بابل وتخلص بنو إسرائيل من الإسارة ورجعوا إلى الأرض المقدسة.

ج. والصابئون ليس المراد بهم عبدة الكواكب من الوثنية بدليل ما في الآية من المقابلة بينهم وبين الذين أشركوا بل هم، على ما قيل، قوم متوسطون بين اليهودية والمجوسية ولهم كتاب ينسبونه إلى يحيى بن زكريا النبي ويسمى الواحد منهم اليوم عند العامة (صبي) وقد تقدم لهم ذكر في ذيل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالنَّصارى وَالصَّابِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٢]

د. والنصارى هم المؤمنون بالمسيح عيسى بن مريم عليه السلام ومن قبله من الأنبياء وكتبهم المقدسة الأناجيل الأربعة للوقا ومرقس ومتى ويوحنا وكتب العهد القديم على ما اعتبرته وقدسته الكنيسة لكن القرآن يذكر أن كتابهم الإنجيل النازل على عيسى عليه السلام.

هـ. والمجوس المعروف أنهم المؤمنون بزرتشت وكتابهم المقدس (أوستا) غير أن تاريخ حياته وزمان ظهوره مبهم جدا كالمنقطع خبره وقد افتقدوا الكتاب باستيلاء إسكندر على إيران ثم جددت كتابته في زمن ملوك ساسان فأشكل بذلك الحصول على حاق مذهبهم؛ والمسلم أنهم يثبتون لتدبير العالم مبدأين مبدأ الخير ومبدأ الشر يزدان وأهريمن أو النور والظلمة، ويقدسون الملائكة ويتقربون إليهم من غير أن

يتخذوا لهم أصناما كالوثنية، ويقدسون البسائط العنصرية وخاصة النار وكانت لهم بيوت نيران بإيران والصين والهند وغيرها وينهون الجميع إلى (أهورا مزدا) موجد الكل.

و. والذين أشركوا هم الوثنية عبدة الأصنام وأصول مذاهبهم ثلاثة: الوثنية الصابئة، والبرهمانية، والبوذية، وقد كان هناك أقوام آخرون يعبدون من الأصنام ما شاءوا كما شاءوا من غير أن يبنوه على أصل منظم كعرب الحجاز وطوائف في أطراف المعمورة وقد تقدم تفصيل القول فيهم في الجزء العاشر من الكتاب.

٢. ﴿إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾:

أ. المراد به فصل القضاء فيما اختلف فيه أصحاب هذه المذاهب واختصموا فينفصل المحق منهم ويتميز من المبطل انفصالا وتميزا لا يستره ساتر ولا يحجبه حاجب.

ب. وتكرار إن في الآية للتأكيد دعا إلى ذلك طول الفصل بين ﴿إِنَّ﴾ في صدر الآية وبين خبرها ونظيره ما في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠]، وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩]

٣. ﴿إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ تعليل للفصل إنه فصل بالحق.

٤. أحاديث وآثار: في التوحيد، بإسناده عن الأصبغ بن نباتة عن علي عليه السلام في حديث: قال عليه السلام: سلوني قبل أن تفقدوني فقام إليه الأشعث بن قيس، فقال يا أمير المؤمنين كيف تؤخذ من المجوس الجزية، ولم ينزل إليهم كتاب ولم يبعث إليهم نبي؟ قال: بلى يا أشعث قد أنزل الله إليهم كتابا وبعث إليهم رسولا، حتى كان لهم ملك سكر ذات ليلة، فدعا بابنته إلى فراشه فارتكبها، فلما أصبح تسامع به قومه فاجتمعوا إلى بابه، فقالوا: أيها الملك دنست علينا ديننا وأهلكته، فاخرج نطهرك ونقيم عليك الحد فقال لهم: اجتمعوا واسمعوا قولي فإن يكن لي مخرج مما ارتكبت، وإلا فشأنكم فاجتمعوا فقال لهم: هل علمتم أن الله لم يخلق خلقا أكرم عليه من أبينا آدم وأمنا حواء؟ قالوا: صدقت أيها الملك قال: أوليس قد زوج بنيه بناته وبناته من بنيه؟ قالوا: صدقت هذا هو الدين، فتعاقدوا على ذلك فمحا الله ما في صدورهم من العلم، ورفع عنهم الكتاب فهم الكفرة يدخلون النار بلا حساب، والمنافقون أشد حالا منهم، قال

الأشعث، والله ما سمعت بمثل هذا الجواب، والله لا عدت إلى مثلها أبدا.

• أقول: قوله: (والمنافقون أشد حالا منهم) فيه تعريض للأشعث وفي كون المجوس من أهل الكتاب روايات أخر فيها أنهم كان لهم نبي فقتلوه وكتاب فأحرقوه.

١٢. سجود الكون لله ومشيئته في الإهانة:

المقطع [١٢] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٥٩»:

١. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾:

أ. الظاهر أن الخطاب لكل من يرى ويصلح لأن يخاطب، والمراد بالرؤية العلم، ويمكن أن يختص بالنبي ﷺ ويكون المراد بالرؤية الرؤية القلبية كما قال فيه: ﴿ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى أَفَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى﴾ [النجم: ١٢]

ب. وتعميم السجدة لمثل الشمس والقمر والنجوم والجبال من غير أولي العقل دليل على أن المراد بها السجدة التكوينية وهي التذلل والصغار قبال عزته وكبريائه تعالى وتحت قهره وسلطنته، ولازمه أن يكون ﴿مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ شاملا لنوع الإنسان من مؤمن وكافر إذ لا استثناء في السجدة التكوينية والتذلل الوجودي.

ج. وعدم ذكر نفس السماوات والأرض في جملة الساجدين مع شمول الحكم لهما في الواقع يعطي أن معنى الكلام أن المخلوقات العلوية والسفلية من ذي عقل وغير ذي عقل ساجدة لله متذللة في وجودها تجاه عزته وكبريائه، ولا تزال تسجد له تعالى سجودا تكوينيا اضطراريا.

٢. ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ عطف على ﴿مَنْ فِي السَّماواتِ﴾، أي ويسجد له كثير من الناس، وإسناد السجود إلى كثير من الناس بعد شموله في الجملة السابقة لجميعهم دليل على أن المراد بهذا السجود نوع آخر من السجود غير السابق وإن كانا مشتركين في أصل معنى التذلل، وهذا النوع هو السجود التشريعي

الاختياري بالخرور على الأرض تمثيلا للسجود والتذلل التكويني الاضطراري وإظهارا لمعنى العبودية.

٣. ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ﴾:

أ. المقابلة بينه وبين سابقه يعطي أن معناه وكثير منهم يأبى عن السجود، وقد وضع موضعه ما هو أثره اللازم المترتب عليه وهو ثبوت العذاب على من استكبر على الله وأبى أن يخضع له تعالى، وإنما وضع ثبوت العذاب موضع الإباء عن السجدة للدلالة على أنه هو عملهم يرد إليهم، وليكون تمهيدا لقوله تلوا: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ الدال على أن ثبوت العذاب لهم إثر إبائهم عن السجود هوان وخزي يتصل بهم ليس بعده كرامة وخير.

ب. فإباؤهم عن السجود يستتبع بمشية الله تعالى ثبوت العذاب لهم وهو إهانة ليس بعده إكرام أبدا إذ الخير كله بيد الله كما قال ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦] فإذا منعه أحدا لم يكن هناك من يعطيه غيره.

٤. ﴿إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ﴾:

أ. كناية عن عموم القدرة وتعليل لما تقدمه من حديث إثباته العذاب للمستكبرين عن السجود له وإهانتهم إهانة لا إكرام بعده.

ب. فالمعنى، والله أعلم، أن الله يميز يوم القيامة بين المختلفين فإنك تعلم أن الموجودات العلوية والسفلية يخضعون ويتذللون له تكوينا لكن الناس بين من يظهر في مقام العبودية الخضوع والتذلل له وبين من يستكبر عن ذلك وهؤلاء هم الذين حق عليهم العذاب وأهانهم الله إهانة لا إكرام بعده وهو قادر على ما يشاء فعال لما يريد، ومن هنا يظهر أن للآية اتصالا بما قبلها.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في الدر المنثور: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ﴾: أخرج ابن أبي حاتم واللالكائي في السنة، والخلعي في فوائده، عن علي: أنه قيل له: إن هاهنا رجلا يتكلم في المشيئة فقال له علي: يا عبد الله خلقك الله لما يشاء أو لما شئت؟ قال بل لما يشاء قال: فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء، قال: فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال بل إذا شاء، قال فيدخلك الجنة حيث شاء أو حيث شئت؟ قال: بل حيث شاء، قال: والله لو قلت غير ذلك، لضربت الذي فيه عيناك بالسيف.

• أقول: ورواه في التوحيد، بإسناده عن عبد الله بن الميمون القداح عن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام وفيه: (فيدخلك حيث يشاء أو حيث شئت) ولم يذكر الجنة، وقد تقدمت رواية في هذا المعنى شرحناها في ذيل قوله: ﴿وَما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] في الجزء الأول من الكتاب.

ب. وفي التوحيد، بإسناده إلى سليمان بن جعفر الجعفري قال: قال الرضا عليه السلام: المشية من صفات الأفعال، فمن زعم أن الله لم يزل مريدا شائيا فليس بموحد.

• أقول: في قوله عليه السلام ثانيا: (لم يزل مريدا شائيا تلويح إلى اتحاد الإرادة والمشية وهو كذلك فإن المشية معنى يوصف به الإنسان إذا اعتبر كونه فاعلا شاعرا بفعله المضاف إليه، وإذا تمت فاعليته بحيث لا ينفك عنه الفعل سمي هذا المعنى بعينه إرادة، وعلى أي حال هو وصف خارج عن الذات طار عليه، ولذلك لا يتصف تعالى بها كاتصافه بصفاته الذاتية كالعلم والقدرة لتنزهه عن تغير الذات بعروض العوارض بل هي من صفات فعله منتزعة من نفس الفعل أو من حضور الأسباب عليه.

• فقولنا: أراد الله كذا معناه أنه فعله عالما بأنه أصلح أو أنه هيأ أسبابه عالما بأنه أصلح، وإذا كانت بمعناها الذي فينا غير الذات فلو قيل: لم يزل الله مريدا كان لازمه إثبات شيء أزلي غير مخلوق له معه وهو خلاف توحيده، وأما قول القائل: إن معنى الإرادة هو العلم بالأصلح، والعلم من صفات الذات فلم يزل مريدا أي عالما بما فعله أصلح فهو إرجاع للإرادة إلى العلم ولا محذور فيه غير أن عد الإرادة على هذا صفة أخرى وراء الحياة والعلم والقدرة لا وجه له.

١٣. عذاب الكافرين بالحميم والنار والمقامع:

المقطع [١٣] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩ـ٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٦٠»:

١. ﴿هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾:

أ. الإشارة بقوله: ﴿هذانِ﴾ إلى القبيلين اللذين دل عليهما قوله سابقا: ﴿إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ

الْقِيامَةِ﴾ وقوله بعده: ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ﴾

ب. ويعلم من حصر المختلفين على كثرة أديانهم ومذاهبهم في خصمين اثنين أنهم جميعا منقسمون إلى محق ومبطل إذ لولا الحق والباطل لم ينحصر الملل والنحل على تشتتها في اثنين البتة، والمحق والمبطل هما المؤمن بالحق والكافر به فهذه الطوائف على تشتت أقوالهم ينحصرون في خصمين اثنين وعلى انحصارهم في خصمين اثنين لهم أقوال مختلفة فوق اثنين فما أحسن تعبيره بقوله: ﴿خَصْمانِ اخْتَصَمُوا﴾ حيث لم يقل: خصوم اختصموا ولم يقل: خصمان اختصما.

ج. وقد جعل اختصامهم في ربهم أي أنهم اختلفوا في وصف ربوبيته تعالى فإلى وصف الربوبية يرجع اختلافات المذاهب بالغة ما بلغت فهم بين من يصف ربه بما يستحقه من الأسماء والصفات وما يليق به من الأفعال فيؤمن بما وصف وهو الحق ويعمل على ما يقتضيه وصفه وهو العمل الصالح فهو المؤمن العامل بالصالحات، ومن لا يصفه بما يستحقه من الأسماء والصفات كمن يثبت له شريكا أو ولدا فينفي وحدانيته أو يسند الصنع والإيجاد إلى الطبيعة أو الدهر أو ينكر النبوة أو رسالة بعض الرسل أو ضروريا من ضروريات الدين الحق فيكفر بالحق ويستره وهو الكافر فالمؤمن بربه والكافر بالمعنى الذي ذكرهما الخصمان.

٢. ثم شرع في جزاء الخصمين وبين عاقبة أمر كل منهما بعد فصل القضاء وقدم الذين كفروا فقال: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ أي الماء الحار المغلي.

٣. ﴿يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ الصهر الإذابة أي يذوب وينضج بذاك الحميم ما في بطونهم من الأمعاء والجلود.

٤. ﴿وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ المقامع جمع مقمعة وهي المدقة والعمود.

٥. ﴿كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ﴾ ضمير ﴿مِنْها﴾ للنار و﴿مِنْ غَمٍّ﴾ بيان له أو من بمعنى السببية والحريق بمعنى المحرق كالأليم بمعنى المؤلم.

٦. أحاديث وآثار:

أ. أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أبي ذر: أنه كان يقسم قسما أن

هذه الآية ﴿هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ﴾ نزلت في الثلاثة والثلاثة الذين تبارزوا يوم بدر، وهم حمزة بن المطلب وعبيدة بن الحارث وعلي بن أبي طالب، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة، قال علي أنا أول من يجثو للخصومة، على ركبتيه بين يدي الله يوم القيامة.

• أقول: ورواه فيه، أيضا عن عدة من أصحاب الجوامع عن قيس بن سعد بن عبادة وابن عباس وغيرهما، ورواه في مجمع البيان، عن أبي ذر وعطاء.

ب. وفي الخصال، عن النضر بن مالك قال: قلت للحسين بن علي عليه السلام: يا با عبد الله حدثني عن قوله تعالى: ﴿هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ فقال: نحن وبنو أمية اختصمنا في الله تعالى: قلنا صدق الله، وقالوا: كذب، فنحن الخصمان يوم القيامة.

• أقول: وهو من الجري، ونظيره ما في الكافي، بإسناده عن ابن أبي حمزة عن الباقر عليه السلام: فالذين كفروا بولاية علي عليه السلام قطعت لهم ثياب من نار.

١٤. نعيم المؤمنين في الجنات:

المقطع [١٤] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٣-٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٦١»:

١. ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الأساور على ما قيل، جمع أسورة وهي جمع سوار وهو على ما ذكره الراغب معرب (دستواره) والباقي ظاهر.

٢. ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِراطِ الْحَمِيدِ﴾ الطيب من القول ما لا خباثة فيه وخبيث القول باطله على أقسامه، وقد جمع القول الطيب كله قوله تعالى إخبارا عنهم: ﴿دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهَّ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] فهدايتهم إلى الطيب من القول تيسيره لهم، وهدايتهم إلى صراط الحميد والحميد من أسمائه تعالى أن لا يصدر عنهم إلا محمود الفعل كما لا يصدر عنهم إلا طيب القول.

٣. وبين هذه الآية وقوله: ﴿كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها وَذُوقُوا عَذابَ

الْحَرِيقِ﴾ مقابلة ظاهرة.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ قال: التوحيد والإخلاص ﴿وَهُدُوا إِلَى صِراطِ الْحَمِيدِ﴾ قال: الولاية.

• أقول: وفي المحاسن، بإسناده عن ضريس عن الباقر عليه السلام ما في معناه.

ب. وفي المجمع: وروي عن النبي ﷺ أنه قال: ما أحد أحب إليه الحمد من الله عز ذكره.

١٥. تحريم الصد عن المسجد الحرام:

المقطع [١٥] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٦٦»:

١. ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِي جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ﴾:

أ. الصد المنع، و﴿سَواءً﴾ مصدر بمعنى الفاعل، والعكوف في المكان الإقامة فيه، والبادي من البدو وهو الظهور، والمراد به، كما قيل، الطارئ أي الذي يقصده من خارج فيدخله، والإلحاد الميل إلى خلاف الاستقامة وأصله إلحاد حافر الدابة.

ب. والمراد بالذين كفروا مشركو مكة الذين كفروا بالنبي ﷺ في أول البعثة قبل الهجرة وكانوا يمنعون الناس عن الإسلام وهو سبيل الله والمؤمنين عن دخول المسجد الحرام لطواف الكعبة وإقامة الصلاة وسائر المناسك فقوله: ﴿يَصُدُّونَ﴾ للاستمرار ولا ضير في عطفه على الفعل الماضي في قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والمعنى الذين كفروا قبل ويستمرون على منع الناس عن سبيل الله والمؤمنين عن المسجد الحرام.

ج. وبذلك يظهر أن قوله: ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾ عطف على ﴿سَبِيلِ اللهِ﴾ والمراد بصده منعهم المؤمنين عن أداء العبادات والمناسك فيه وكان من لوازمه منع القاصدين للبيت من خارج مكة من دخولها.

د. وبه يتبين أن المراد بقوله: ﴿الَّذِي جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ﴾ وهو وصف المسجد الحرام، جعله لعبادة الناس لا تمليك رقبته لهم فالناس يملكون أن يعبدوا الله فيه ليس لأحد أن يمنع أحدا من ذلك ففيه إشارة

إلى أن منعهم وصدهم عن المسجد الحرام تعد منهم إلى حق الناس وإلحاد بظلم كما أن إضافة السبيل إلى الله تعد منهم إلى حق الله تعالى.

هـ. ويؤيد ذلك أيضا تعقيبه بقوله: ﴿سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ﴾ أي المقيم فيه والخارج منه مساويان في أن لهما حق العبادة فيه لله، والمراد بالإقامة فيه وفي الخارج منه إما الإقامة بمكة وفي الخارج منها على طريق المجاز العقلي أو ملازمة المسجد للعبادة والطرو عليه لها.

٢. ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ﴾:

أ. بيان لجزاء من ظلم الناس في هذا الحق المشروع لهم في المسجد ولازمه تحريم صد الناس عن دخوله للعبادة فيه ومفعول ﴿يُرِدْ﴾ محذوف للدلالة على العموم، والباء في ﴿بِإِلْحادٍ﴾ للملابسة وفي ﴿بِظُلْمٍ﴾ للسببية والجملة تدل على خبر قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في صدر الآية.

ب. والمعنى الذين كفروا ولا يزالون يمنعون الناس عن سبيل الله وهو دين الإسلام ويمنعون المؤمنين عن المسجد الحرام الذي جعلناه معبدا للناس يستوي فيه العاكف فيه والبادي نذيقهم، من عذاب أليم لأنهم يريدون الناس فيه بإلحاد بظلم ومن يرد الناس فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم.

ج. وللمفسرين في إعراب مفردات الآية وجملها أقاويل كثيرة جدا ولعل ما أوردناه أنسب للسياق.

٣. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ﴾ قال: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أنيس أن رسول الله ﷺ بعثه مع رجلين أحدهما مهاجري والآخر من الأنصار فافتخروا في الأنساب فغضب عبد الله بن أنيس فقتل الأنصاري ثم ارتد عن الإسلام وهرب إلى مكة فنزلت فيه ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ﴾ يعني من لجأ إلى الحرام بإلحاد يعني بميل عن الإسلام.

• أقول: نزول الآية فيما ذكر لا يلائم سياقها ورجوع الذيل إلى الصدر وكونه متمما لمعناه كما مر.

ب. وفي تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَالْبادِ﴾ قال: نزلت في قريش حين صدوا رسول الله ﷺ عن مكة، وقوله: ﴿سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ﴾ قال: أهل مكة ومن جاء من البلدان فهم سواء، لا يمنع من النزول ودخول الحرم.

ج. وفي التهذيب، بإسناده عن الحسين بن أبي العلاء قال: ذكر أبو عبد الله عليه السلام هذه الآية ﴿سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ﴾ فقال كانت مكة ليس على شيء منها باب، وكان أول من علق على بابه المصراعين معاوية بن أبي سفيان، وليس ينبغي لأحد أن يمنع الحاج شيئا من الدور ومنازلها.

• أقول: والروايات في هذا المعنى كثيرة وتحرير المسألة في الفقه.

د. وفي الكافي، عن ابن أبي عمير عن معاوية قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: كل ظلم إلحاد، وضرب الخادم في غير ذنب من ذلك الإلحاد.

هـ. وفيه، بإسناده عن أبي الصباح الكناني قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ﴾ فقال: كل ظلم يظلم الرجل نفسه بمكة من سرقة، أو ظلم أحد أو شيء من الظلم فإني أراه إلحادا، ولذلك كان يتقي أن يسكن الحرم.

• أقول: ورواه أيضا في العلل عن أبي الصباح عنه عليه السلام وفيه: ولذلك كان ينهى أن يسكن الحرم، وفي معنى هذه الرواية والتي قبلها روايات أخر.

١٦. إبراهيم وتطهير البيت والأذان بالحج:

المقطع [١٦] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٦-٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٦٧»:

١. ﴿وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾:

أ. بوء له مكانا كذا أي جعله مباءة ومرجعا له يرجع إليه ويقصده، والمكان ما يستقر عليه الشيء فمكان البيت القطعة من الأرض التي بني فيها، والمراد بالقائمين على ما يعطيه السياق هم الناصبون أنفسهم للعبادة والصلاة، والركع جمع راكع كسجد جمع ساجد والسجود جمع ساجد كالركوع جمع راكع.

ب. ﴿وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ﴾ الظرف فيه متعلق بمقدر أي واذكر وقت كذا وفيه تذكير لقصة جعل البيت معبدا للناس ليتضح به أن صد المؤمنين عن المسجد الحرام ليس إلا إلحادا بظلم.

ج. وتبوئته تعالى مكان البيت لإبراهيم هي جعل مكانه مباءة ومرجعا لعبادته لا لأن يتخذه بيت

سكنى يسكن فيه، ويلوح إليه قوله بعد ﴿طَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ بإضافة البيت إلى نفسه، ولا ريب أن هذا الجعل كان وحيا لإبراهيم فقوله: ﴿بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ﴾ في معنى قولنا: أوحينا إلى إبراهيم أن اتخذ هذا المكان مباءة ومرجعا لعبادتي وإن شئت فقل: أوحينا إليه أن اقصد هذا المكان لعبادتي، وبعبارة أخرى أن اعبدني في هذا المكان.

د. وبذلك يتضح أن ﴿مَكانَ﴾ في قوله: ﴿أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً﴾ مفسرة تفسر الوحي السابق باعتباره أنه قول من غير حاجة إلى تقدير أوحينا أو قلنا ونحوه.

هـ. ويتضح أيضا أن قوله: ﴿أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً﴾ ليس المراد به، وهو واقع في هذا السياق، النهي عن الشرك مطلقا وإن كان منهيا عنه مطلقا بل المنهي عنه فيه هو الشرك في العبادة التي يأتي بها حينما يقصد البيت للعبادة وبعبارة واضحة الشرك فيما يأتي به من أعمال الحج كالتلبية للأوثان والإهلال لها ونحوهما.

و. وكذا قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ والتطهير إزالة الأقذار والأدناس عن الشيء ليعود إلى ما يقتضيه طبعه الأولي، وقد أضاف البيت إلى نفسه إذ قال: ﴿بَيْتِيَ﴾ أي بيتا يختص بعبادتي، وتطهير المعبد بما أنه معبد تنزيهه من الأعمال الدنسة والأرجاس التي تفسد العبادة وليست إلا الشرك ومظاهره.

ز. فتطهير بيته إما تنزيهه من الأرجاس المعنوية خاصة بأن يشرع إبراهيم عليه السلام للناس ويعلمهم طريقا من العبادة لا يداخلها قذارة شرك ولا يدنسها دنسه كما أمر لنفسه بذلك، وإما إزالة مطلق النجاسات عن البيت أعم من الصورية والمعنوية لكن الذي يمس سياق الآية منها هو الرجس المعنوي فمحصل تطهير المعبد عن الأرجاس المعنوية وتنزيهه عنها للعباد الذين يقصدونه بالعبادة وضع عبادة فيه خالصة لوجه الله لا يشوبها شائب شرك يعبدون الله سبحانه بها ولا يشركون به شيئا.

ح. فالمعنى بناء على ما يهدي إليه السياق واذكر إذ أوحينا إلى إبراهيم أن اعبدني في بيتي هذا بأخذه مباءة ومرجعا لعبادتي ولا تشرك بي شيئا في عبادتي وسن لعبادي القاصدين بيتي من الطائفين والقائمين والركع السجود عبادة في بيتي خالصة من الشرك.

ط. وفي الآية تلويح إلى أن عمدة عبادة القاصدين له طواف وقيام وركوع وسجود وإشعار بأن الركوع والسجود متقاربان كالمتلازمين لا ينفك أحدهما عن الآخر.

ي. ومما قيل في الآية أن قوله: ﴿بَوَّأْنا﴾ معناه (قلنا تبوء) وقيل: معناه (أعلمنا) ومن ذلك أن ﴿مَكانَ﴾ في قوله: ﴿أَنْ لا﴾ مصدرية وقيل: مخففة من الثقيلة، ومن ذلك أن المراد بالطائفين الطارءون وبالقائمين المقيمون بمكة، وقيل: المراد بالقائمين والركع السجود: المصلون، وهي جميعا وجوه بعيدة.

٢. ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ التأذين: الاعلام برفع الصوت ولذا فسر بالنداء، والحج القصد سمي به العمل الخاص الذي شرعه أولا إبراهيم عليه السلام وجرت عليه شريعة محمد ﷺ لما فيه من قصد البيت الحرام، ورجال جمع راجل خلاف الراكب، والضامر المهزول الذي أضمره السير، والفج العميق، على ما قيل، الطريق البعيد.

٣. ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ أي ناد الناس بقصد البيت أو بعمل الحج والجملة معطوفة على قوله: ﴿لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً﴾ والمخاطب به إبراهيم وما قيل: إن المخاطب نبينا محمد ﷺ بعيد من السياق.

٤. ﴿يَأْتُوكَ رِجالاً﴾، جواب الأمر أي أذن فيهم وأن تؤذن فيهم يأتوك راجلين وعلى كل بعير مهزول يأتين من كل طريق بعيد، ولفظة ﴿كُلِّ﴾ تفيد في أمثال هذه الموارد معنى الكثرة دون الاستغراق.

١٧. منافع الحج وذكر الله وإطعام الفقراء:

المقطع [١٧] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِّ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٦٩»:

١. ﴿لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ﴾:

أ. اللام للتعليل أو الغاية والجار والمجرور متعلق بقوله: ﴿يَأْتُوكَ﴾ والمعنى يأتوك لشهادة منافع لهم أو يأتوك فيشهدوا منافع لهم وقد أطلقت المنافع ولم تتقيد بالدنيوية أو الأخروية.

ب. والمنافع نوعان:

• منافع دنيوية وهي التي تتقدم بها حياة الإنسان الاجتماعية ويصفو بها العيش وترفع بها الحوائج المتنوعة وتكمل بها النواقص المختلفة من أنواع التجارة والسياسة والولاية والتدبير وأقسام الرسوم والآداب والسنن والعادات ومختلف التعاونات والتعاضدات الاجتماعية وغيرها، فإذا اجتمعت أقوام وأمم من مختلف مناطق الأرض وأصقاعها على ما لهم من اختلاف الأنساب والألوان والسنن والآداب

ثم تعارفوا بينهم وكلمتهم واحدة هي كلمة الحق وإلههم واحد وهو الله عز اسمه ووجهتهم واحدة هي الكعبة البيت الحرام حملهم اتحاد الأرواح على تقارب الأشباح ووحدة القول على تشابه الفعل فأخذ هذا من ذاك ما يرتضيه وأعطاه ما يرضيه، واستعان قوم بآخرين في حل مشكلتهم وأعانوهم بها في مقدرتهم فيبدل كل مجتمع جزئي مجتمعا أرقى، ثم امتزجت المجتمعات فكونت مجتمعا وسيعا له من القوة والعدة ما لا تقوم له الجبال الرواسي، ولا تقوى عليه أي قوة جبارة طاحنة، ولا وسيلة إلى حل مشكلات الحياة كالتعاضد ولا سبيل إلى التعاضد كالتفاهم، ولا تفاهم كتفاهم الدين.

• ومنافع أخروية وهي وجوه التقرب إلى الله تعالى بما يمثل عبودية الإنسان من قول وفعل وعمل الحج بما له من المناسك يتضمن أنواع العبادات من التوجه إلى الله وترك لذائذ الحياة وشواغل العيش والسعي إليه بتحمل المشاق والطواف حول بيته والصلاة والتضحية والإنفاق والصيام وغير ذلك.

ج. وقد تقدم فيما مر أن عمل الحج بما له من الأركان والأجزاء يمثل دورة كاملة مما جرى على إبراهيم عليه السلام في مسيره في مراحل التوحيد ونفي الشريك وإخلاص العبودية لله سبحانه.

د. فإتيان الناس إبراهيم عليه السلام أي حضورهم عند البيت لزيارته يستعقب شهودهم هذه المنافع أخرويها ودنيويها وإذا شهدوها تعلقوا بها فالإنسان مجبول على حب النفع.

٢. ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ﴾:

أ. قال الراغب: (والبهيمة ما لا نطق له وذلك لما في صوته من الإبهام لكن خص في التعارف بما عدا السباع والطير فقال تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ﴾) وقال: والنعم مختص بالإبل وجمعه أنعام وتسميته بذلك لكون الإبل عندهم أعظم نعمة، لكن الأنعام تقال للإبل والبقر والغنم، ولا يقال لها: أنعام حتى تكون في جملتها الإبل) فالمراد ببهيمة الأنعام الأنواع الثلاثة: الإبل والبقر والغنم من معز أو ضأن والإضافة بيانية.

ب. والجملة أعني قوله: ﴿وَيَذْكُرُوا﴾، معطوف على قوله: ﴿لِيَشْهَدُوا﴾ أي وليذكروا اسم الله في أيام معلومات أي في أيام التشريق على ما فسرها أئمة أهل البيت عليه السلام وهي يوم الأضحى عاشر ذي الحجة وثلاثة أيام بعده.

ج. وظاهر قوله: ﴿عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ﴾ أنه متعلق بقوله: ﴿يَذْكُرُوا﴾ وقوله: ﴿مِنْ

بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ﴾ بيان للموصول والمراد ذكرهم اسم الله على البهيمة، الأضحية، عند ذبحها أو نحوها على خلاف ما كان المشركون يهلونها لأصنامهم.

د. وقد ذكر الزمخشري أن قوله: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ﴾ كناية عن الذبح والنحر ويبعده أن في الكلام عناية خاصة بذكر اسمه تعالى بالخصوص والعناية في الكناية متعلقة بالمكني عنه دون نفس الكناية، ويظهر من بعضهم أن المراد مطلق ذكر اسم الله في أيام الحج وهو كما ترى.

٣. ﴿فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ﴾ البائس من البؤس وهو شدة الضر والحاجة، والذي اشتمل عليه الكلام حكم ترخيصي إلزامي.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، أيضا بإسناده عن الربيع بن خثيم قال: شهدت أبا عبد الله عليه السلام وهو يطاف به حول الكعبة في محمل، وهو شديد المرض فكان كلما بلغ الركن اليماني، أمرهم فوضعوه بالأرض فأخرج يده من كوة المحمل، حتى يجرها على الأرض ثم يقول: ارفعوني، فلما فعل ذلك مرارا في كل شوط قلت له: جعلت فداك يا ابن رسول الله إن هذا يشق عليك فقال: إني سمعت الله عز وجل يقول: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ﴾ فقلت: منافع الدنيا أو منافع الآخرة؟ فقال: الكل.

ب. وفي المجمع في الآية: وقيل: منافع الآخرة وهي العفو والمغفرة وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

• أقول: وإثبات إحدى المنفعتين لا ينفي العموم كما في الرواية السابقة.

ج. وفي العيون، فيما كتبه الرضا عليه السلام إلى محمد بن سنان في جواب مسائله في العلل: وعلة الحج الوفادة إلى الله عز وجل وطلب الزيادة، والخروج من كل ما اقترف، وليكون تائبا مما مضى مستأنفا لما يستقبل، وما فيه من استخراج الأموال وتعب الأبدان، وحظرها عن الشهوات واللذات، والتقرب بالعبادة إلى الله عز وجل، والخضوع والاستكانة، والذل شاخصا في الحر والبرد، والأمن والخوف، دائبا في ذلك دائما، وما في ذلك لجميع الخلق من المنافع، والرغبة والرهبة إلى الله تعالى، ومنه ترك قساوة القلب، وجسأة النفس ونسيان الذكر وانقطاع الرجاء والأمل، وتجديد الحقوق وحظر النفس عن الفساد، ومنفعة من في شرق الأرض وغربها ومن في البر والبحر، ممن يحج ومن لا يحج من تاجر وجالب وبائع ومشتر،

وكاسب ومسكين، وقضاء حوائج أهل الأطراف، والمواضع الممكن لهم الاجتماع فيها كذلك ليشهدوا منافع لهم.

• أقول: وروى فيه أيضا ما يقرب منه عن الفضل بن شاذان عنه عليه السلام.

د. وفي المعاني، بإسناده عن أبي الصباح الكناني عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ﴾ قال: هي أيام التشريق.

• أقول: وفي هذا المعنى روايات أخر عن الباقر والصادق عليه السلام، وهناك ما يعارضها كما يدل على أن الأيام المعلومات عشر ذي الحجة، وما يدل على أن المعلومات عشر ذي الحجة والمعدودات أيام التشريق، والآية أشد ملاءمة لما يدل على أن المراد بالمعلومات أيام التشريق.

١٨. إتمام المناسك والوفاء بالنذور والطواف:

المقطع [١٨] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٧١»:

١. ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾:

أ. التفث شعث البدن، وقضاء التفث إزالة ما طرأ بالإحرام من الشعث بتقليم الأظفار وأخذ الشعر ونحو ذلك وهو كناية عن الخروج من الإحرام.

ب. والمراد بقوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ إتمام ما لزمهم بنذر أو نحوه، وبقوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ طواف النساء على ما في تفسير أئمة أهل البيت عليه السلام فإن الخروج من الإحرام يحلل له كل ما حرم به إلا النساء فتحل بطواف النساء وهو آخر العمل.

ج. والبيت العتيق هو الكعبة المشرفة سميت به لقدمه فإنه أول بيت بني لعبادة الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]، وقد مضى على هذا البيت اليوم زهاء أربعة آلاف سنة وهو معمور وكان له يوم نزول الآيات أكثر من ألفين وخمسمائة سنة.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن أبي الصباح الكناني عن الصادق عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قال: هو الحلق وما في جلد الإنسان.

ب. وفي الفقيه، في رواية البزنطي عن الرضا عليه السلام قال: التفث تقليم الأظفار وطرح الوسخ وطرح الإحرام عنه.

ج. وفي التهذيب، بإسناده عن حماد الناب قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ قال: هو طواف النساء.

• أقول: وفي معنى الروايات الثلاث روايات أخرى عنهم عليه السلام.

د. وفي الكافي، بإسناده عن أبان عمن أخبره عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت: لم سمى الله البيت العتيق؟ قال: هو بيت حر عتيق من الناس لم يملكه أحد.

هـ. وفي تفسير القمي، حدثني أبي عن صفوان بن يحيى عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث يذكر فيه غرق قوم نوح قال: وإنما سمي البيت العتيق لأنه أعتق من الغرق.

و. أخرج البخاري في تاريخه والترمذي وحسنه وابن جرير والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن عبد الله بن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: إنما سمى الله البيت العتيق لأن الله أعتقه من الجبابرة، فلم يظهر عليه جبار قط.

• أقول: أما هذه الرواية فالتاريخ لا يصدقها وقد خرب البيت ثم غيره عبد الله بن الزبير نفسه ثم الحصين بن نمير بأمر يزيد ثم الحجاج بأمر عبد الملك ثم القرامطة، ويمكن أن يكون مراده ﷺ الإخبار عما مضى على البيت وأما الرواية السابقة عليها فلم تثبت.

ز. أخرج سفيان بن عيينة والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: الحجر من البيت لأن رسول الله ﷺ طاف بالبيت من ورائه، قال الله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾

• أقول: وفي معناه روايات عن أئمة أهل البيت عليه السلام.

ح. أخرج ابن أبي شيبة والحاكم وصححه عن جبير بن مطعم: أن النبي ﷺ قال: يا بني عبد مناف، لا تمنعوا أحدا طاف بهذا البيت، وصلى أي ساعة شاء من ليل أو نهار.

وفي المجمع: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ وروى أصحابنا أن اللعب بالشطرنج والنرد، وسائر أنواع القمار من ذلك، ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ وروى أصحابنا أنه يدخل فيه الغناء، وسائر الأقوال الملهية.

١٩. تعظيم حرمات الله واجتناب الأوثان والزور:

المقطع [١٩] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهَّ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٧٢»:

١. ﴿ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ الله فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾:

أ. الحرمة، ما لا يجوز انتهاكه ووجب رعايته، والأوثان جمع وثن وهو الصنم، والزور الميل عن الحق ولذا يسمى الكذب وقول الباطل زورا.

ب. ﴿ذلِكَ﴾ أي الأمر ذلك أي الذي شرعناه لإبراهيم عليه السلام ومن بعده من نسك الحج هو ذلك الذي ذكرناه وأشرنا إليه من الإحرام والطواف والصلاة والتضحية بالإخلاص لله والتجنب عن الشرك.

ج. ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ الله فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ ندب إلى تعظيم حرمات الله وهي الأمور التي نهى عنها وضرب دونها حدودا منع عن تعديها واقتراف ما وراءها وتعظيمها الكف عن التجاوز إليها.

٢. والذي يعطيه السياق أن هذه الجملة توطئة وتمهيد لما بعدها من قوله: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ﴾ فإن انضمام هذه الجملة إلى الجملة قبلها يفيد أن الأنعام، على كونها مما رزقهم الله وقد أحلها لهم، فيها حرمة إلهية وهي التي يدل عليها الاستثناء، إلا ما يتلى عليكم ..

٣. والمراد بقوله: ﴿ما يُتْلى عَلَيْكُمْ﴾ استمرار التلاوة، فإن محرمات الأكل نزلت في سورة الأنعام وهي مكية وفي سورة النحل وهي نازلة في آخر عهده ﷺ بمكة وأول عهده بالمدينة، وفي سورة البقرة وقد نزلت في أوائل الهجرة بعد مضي ستة أشهر منها، على ما روي، ولا موجب لجعل ﴿يُتْلى﴾ للاستقبال وأخذه إشارة إلى آية سورة المائدة كما فعلوه.

أ. والآيات المتضمنة لمحرمات الأكل وإن تضمنت منها عدة أمور كالميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله إلا أن العناية في الآية بشهادة سياق ما قبلها وما بعدها بخصوص ما أهل به لغير الله فإن المشركين كانوا يتقربون في حجهم، وهو السنة الوحيدة الباقية بينهم من ملة إبراهيم، بالأصنام المنصوبة على الكعبة وعلى الصفا وعلى المروة وبمنى ويهلون بضحاياهم لها فالتجنب منها ومن الإهلال بذكر

أسمائها هو الغرض المعنى به من الآية وإن كان أكل الميتة والدم ولحم الخنزير أيضا من جملة حرمات الله.

ب. ويؤيد ذلك أيضا تعقيب الكلام بقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ فإن اجتناب الأوثان واجتناب قول الزور وإن كانا من تعظيم حرمات الله ولذلك تفرع ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ﴾ على ما تقدمه من قوله: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ لكن تخصيص هاتين الحرمتين من بين جميع الحرمات في سياق آيات الحج بالذكر ليس إلا لكونهما مبتلى بهما في الحج يومئذ وإصرار المشركين على التقرب من الأصنام هناك وإهلال الضحايا باسمها.

ج. وبذلك يظهر أن قوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ نهي عام عن التقرب إلى الأصنام وقول الباطل أورد لغرض التقرب إلى الأصنام في عمل الحج كما كانت عادة المشركين جارية عليه، وعن التسمية باسم الأصنام على الذبائح من الضحايا، وعلى ذلك يبتني التفريع بالفاء.

د. وفي تعليق حكم الاجتناب أولا بالرجس ثم بيانه بقوله: ﴿مِنَ الْأَوْثانِ﴾ إشعار بالعلية كأنه قيل: اجتنبوا الأوثان لأنها رجس وفي تعليقه بنفس الأوثان دون عبادتها أو التقرب أو التوجه إليها أو مسها ونحو ذلك، مع أن الاجتناب إنما يتعلق على الحقيقة بالأعمال دون الأعيان، مبالغة ظاهرة.

هـ. وقد تبين بما مر أن ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مِنَ الْأَوْثانِ﴾ بيانية، وذكر بعضهم أنها ابتدائية، والمعنى: اجتنبوا الرجس الكائن من الأوثان وهو عبادتها، وذكر آخرون أنها تبعيضية، والمعنى: اجتنبوا الرجس الذي هو بعض جهات الأوثان وهو عبادتها، وفي الوجهين من التكلف وإخراج معنى الكلام عن استقامته ما لا يخفى.

٢٠. الحنيفية وتعظيم الشعائر والتقوى:

المقطع [٢٠] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿حُنَفَاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣١-٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٧٣»:

١. ﴿حُنَفاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾:

أ. الحنفاء جمع حنيف وهو المائل من الأطراف إلى حاق الوسط، وكونهم حنفاء لله ميلهم عن

الأغيار وهي الآلهة من دون الله إليه فيتحد مع قوله غير مشركين به معنى.

ب. وهما أعني قوله: ﴿حُنَفاءَ لِلَّهِ﴾ وقوله: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ حالان عن فاعل ﴿فَاجْتَنِبُوا﴾ أي اجتنبوا التقرب من الأوثان والإهلال لها حال كونكم مائلين إليه ممن سواه غير مشركين به في حجكم فقد كان المشركون يلبون في الحج بقولهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك.

٢. ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ أي تأخذه بسرعة، شبه المشرك في شركه وسقوطه به من أعلى درجات الإنسانية إلى هاوية الضلال فيصيده الشيطان، بمن سقط من السماء فتأخذه الطير.

٣. ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ﴾ أي بعيد في الغاية وهو معطوف على ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ تشبيه آخر من جهة البعد.

٤. ﴿ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾:

أ. ﴿ذلِكَ﴾ خبر لمبتدإ محذوف أي الأمر ذلك الذي قلنا، والشعائر جمع شعيرة وهي العلامة، وشعائر الله الأعلام التي نصبها الله تعالى لطاعته كما قال: ﴿إِنَّ الصَّفا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ﴾ وقال: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللهِ﴾ الآية.

ب. والمراد بها البدن التي تساق هديا وتشعر أي يشق سنامها من الجانب الأيمن ليعلم أنها هدي على ما في تفسير أئمة أهل البيت عليه السلام ويؤيده ظاهر قوله تلوا: ﴿لَكُمْ فِيها مَنافِعُ﴾، وقوله بعد: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْناها﴾ الآية، وقيل: المراد بها جميع الأعلام المنصوبة للطاعة، والسياق لا يلائمه.

٥. ﴿فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾:

أ. أي تعظيم الشعائر الإلهية من التقوى، فالضمير لتعظيم الشعائر المفهوم من الكلام ثم كأنه حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فأرجع إليه الضمير.

ب. وإضافة التقوى إلى القلوب للإشارة إلى أن حقيقة التقوى وهي التحرز والتجنب عن سخطه تعالى والتورع عن محارمه أمر معنوي يرجع إلى القلوب وهي النفوس وليست هي جسد الأعمال التي هي حركات وسكنات فإنها مشتركة بين الطاعة والمعصية كالمس في النكاح والزنا، وإزهاق الروح في القتل قصاصا أو ظلما والصلاة المأتي بها قربة أو رياء وغير ذلك، ولا هي العناوين المنتزعة من الأفعال كالإحسان

والطاعة ونحوها.

٦. ﴿لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾:

أ. المحل بكسر الحاء اسم زمان بمعنى وقت حلول الأجل، وضمير ﴿فِيها﴾ للشعائر، والمعنى على تقدير كون المراد بالشعائر بدن الهدي أن لكم في هذه الشعائر، وهي البدن، منافع من ركوب ظهرها وشرب ألبانها عند الحاجة إلى أجل مسمى هو وقت نحرها ثم محلها أي وقت حلول أجلها للنحر منته إلى البيت العتيق أو بانتهائها إليه، والجملة في معنى قوله: ﴿هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ هذا على تفسير أئمة أهل البيت عليه السلام.

ب. وأما على القول بكون المراد بالشعائر مناسك الحج فقيل المراد بالمنافع التجارة إلى أجل مسمى ثم محل هذه المناسك ومنتهاها إلى البيت العتيق لأن آخر ما يأتي به من الأعمال الطواف بالبيت.

٢١. المنسك والتوحيد والمخبتون:

المقطع [٢١] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤ـ٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٧٤»:

١. ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ﴾:

أ. المنسك مصدر ميمي واسم زمان ومكان، وظاهر قوله: ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ﴾ أنه مصدر ميمي بمعنى العبادة وهي العبادة التي فيها ذبح وتقريب قربان.

ب. والمعنى: ولكل أمة، من الأمم السالفة المؤمنة، جعلنا عبادة من تقريب القرابين ليذكروا اسم الله على بهيمة الأنعام التي رزقهم الله أي لستم معشر أتباع إبراهيم أول أمة شرعت لهم التضحية وتقريب القربان فقد شرعنا لمن قبلكم ذلك.

٢. ﴿فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أي إذ كان الله سبحانه هو الذي شرع لكم وللأمم قبلكم هذا الحكم فإلهكم وإله من قبلكم إله واحد فأسلموا واستسلموا له بإخلاص عملكم له ولا تتقربوا في قرابينكم إلى غيره فالفاء في ﴿فَإِلهُكُمْ﴾ لتفريع السبب على المسبب وفي قوله: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ لتفريع المسبب

على السبب.

٣. ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ فيه تلويح إلى أن من أسلم لله في حجه مخلصا فهو من المخبتين، وقد فسره بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ وانطباق الصفات المعدودة في الآية وهي الوجل والصبر وإقامة الصلاة والإنفاق، على من حج البيت مسلما لربه معلوم.

٢٢. البدن والذكر والأكل والإطعام:

المقطع [٢٢] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج: ٣٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٧٥»:

١. ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ﴾ البدن بالضم فالسكون جمع بدنة بفتحتين وهي السمينة الضخمة من الإبل، والسياق أنها من الشعائر باعتبار جعلها هديا.

٢. ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوافَّ﴾ الصواف جمع صافة ومعنى كونها صافة أن تكون قائمة قد صفت يداها ورجلاها وجمعت وقد ربطت يداها.

٣. ﴿فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ الوجوب السقوط يقال: وجبت الشمس أي سقطت وغابت، والجنوب جمع جنب، والمراد بوجوب جنوبها سقوطها على الأرض على جنوبها وهو كناية عن موتها، والأمر في قوله: ﴿فَكُلُوا مِنْها﴾ للإباحة وارتفاع الحظر، والقانع هو الفقير الذي يقنع بما أعطيه سواء سأل أم لا، والمعتر هو الذي أتاك وقصدك من الفقراء، ومعنى الآية ظاهر.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوافَّ﴾ قال: ذلك حين تصف للنحر تربط يديها ما بين الخف إلى الركبة، ووجوب جنوبها إذا وقعت على الأرض.

ب. وفيه، بإسناده عن عبد الرحمن بن أبي عبد الله عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله: ﴿فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها﴾ قال: إذا وقعت على الأرض ﴿فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ قال: القانع الذي

يرضى بما أعطيته ولا يسخط، ولا يكلح ولا يلوي شدقه غضبا، والمعتر المار بك لتطعمه.

ج. وفي المعاني، عن سيف التمار قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إن سعيد بن عبد الملك قدم حاجا فلقي أبي فقال: إني سقت هديا فكيف أصنع؟ فقال: أطعم أهلك ثلثا، وأطعم القانع ثلثا، وأطعم المسكين ثلثا، قلت: المسكين هو السائل؟ قال: نعم، والقانع يقنع بما أرسلت إليه من البضعة فما فوقها، والمعتر يعتريك لا يسألك.

- أقول: والروايات في المعاني السابقة عن الأئمة كثيرة وما نقلناه نبذة منها.

٢٣. اللحوم والدماء والتقوى والتكبير:

المقطع [٢٣] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٧٥»:

١. ﴿لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ﴾:

أ. بمنزلة دفع الدخل كأن متوهما بسيط الفهم يتوهم أن لله سبحانه نفعا في هذه الضحايا ولحومها ودمائها فأجيب أن الله سبحانه لن يناله شيء من لحومها ودمائها لتنزهه عن الجسمية وعن كل حاجة وإنما يناله التقوى نيلا معنويا فيقرب المتصفين به منه تعالى.

ب. أو يتوهم أن الله سبحانه لما كان منزها عن الجسمية وعن كل نقص وحاجة ولا ينتفع بلحم أو دم فما معنى التضحية بهذه الضحايا فأجيب بتقرير الكلام وأن الأمر كذلك لكن هذه التضحية يصحبها صفة معنوية لمن يتقرب بها وهذه الصفة المعنوية من شأنها أن تنال الله سبحانه بمعنى أن تصعد إليه تعالى وتقرب صاحبها منه تقريبا لا يبقى معه بينه وبينه حجاب يحجبه عنه.

٢. ﴿كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى ما هَداكُمْ﴾:

أ. الظاهر أن المراد بالتكبير ذكره تعالى بالكبرياء والعظمة، فالهداية هي هدايته إلى طاعته وعبوديته والمعنى كذلك سخرها لكم ليكون تسخيرها وصلة إلى هدايتكم إلى طاعته والتقرب إليه بتضحيتها فتذكروه بالكبرياء والعظمة على هذه الهداية.

ب. وقيل: المراد بالتكبير معرفته تعالى بالعظمة وبالهداية الهداية إلى تسخيرها والمعنى كذلك

سخرها لكم لتعرفوا الله بالعظمة على ما هداكم إلى طريق تسخيرها.

ج. وأول الوجهين أوجه وأمس بالسياق فإن التعليل عليه بأمر مرتبط بالمقام وهو تسخيرها لتضحى ويتقرب بها إلى الله فيذكر تعالى بالكبرياء على ما هدى إلى هذه العبادة التي فيها رضاه وثوابه، وأما مطلق تسخيرها لهم بالهداية إلى طريق تسخيرها لهم فلا اختصاص له بالمقام.

٣. ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي الذين يأتون بالأعمال الحسنة أو بالإحسان وهو الإنفاق في سبيل الله.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في جوامع الجامع: في قوله تعالى: ﴿لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها﴾ وروي أن أهل الجاهلية كانوا إذا نحروا لطخوا البيت بالدم، فلما حج المسلمون أرادوا مثل ذلك فنزلت.

• أقول: روى ما في معناه في الدر المنثور، عن ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس.

ب. وفي تفسير القمي: قوله عز وجل: ﴿لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى ما هَداكُمْ﴾ قال: التكبير أيام التشريق في الصلوات، بمنى في عقيب خمس عشر صلاة، وفي الأمصار عقيب عشرة صلوات.

٢٤. دفاع الله عن المؤمنين وعداوة الخائنين:

المقطع [٢٤] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٨٢»:

١. ﴿إِنَّ اللهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾:

أ. المدافعة مبالغة في الدفع، والخوان اسم مبالغة من الخيانة وكذا الكفور من الكفران والمراد بالذين آمنوا المؤمنون من الأمة وإن انطبق بحسب المورد على المؤمنين في ذلك الوقت لأن الآيات تشرع القتال ولا يختص حكمه بطائفة دون طائفة، والمورد لا يكون مخصصا.

ب. والمراد بكل خوان كفور المشركون، وإنما كانوا مكثرين في الخيانة والكفران لأن الله حملهم أمانة الدين الحق وجعلها وديعة عند فطرتهم لينالوا بحفظه ورعايته سعادة الدارين وعرفهم إياه من طريق الرسالة فخانوه بالجحد والإنكار وغمرهم بنعمه الظاهرة والباطنة فكفروا بها ولم يشكروه بالعبودية.

ج. وفي الآية تمهيد لما في الآية التالية من الإذن في القتال فذكر تمهيدا أن الله يدافع عن الذين آمنوا وإنما يدفع عنهم المشركين لأنه يحب هؤلاء ولا يحب أولئك لخيانتهم وكفرهم فهو إنما يحب هؤلاء لأمانتهم

وشكرهم فهو إنما يدافع عن دينه الذي عند المؤمنين، فهو تعالى مولاهم ووليهم الذي يدفع عنهم أعداءه كما قال: ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ﴾ سورة [محمد: ١١]

٢٥. الإذن بالقتال للذين ظلموا ونصر الله لهم:

المقطع [٢٥] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩ـ٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٨٣»:

١. ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾:

أ. ظاهر السياق أن المراد بقوله: ﴿أُذِنَ﴾ إنشاء الإذن دون الإخبار عن إذن سابق وإنما هو إذن في القتال كما يدل عليه قوله: ﴿لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾، ولذا بدل قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من قوله: ﴿لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ ليدل على المأذون فيه.

ب. والقراءة الدائرة ﴿يُقَاتَلُونَ﴾ بفتح التاء مبنيا للمفعول أي الذين يقاتلهم المشركون لأنهم الذين أرادوا القتال وبدءوهم به، والباء في ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ للسببية وفيه تعليل الإذن في القتال أي أذن لهم فيه بسبب أنهم ظلموا، وأما ما هو الظلم فتفسيره قوله: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ إلخ.

ج. وفي عدم التصريح بفاعل ﴿أُذِنَ﴾ تعظيم وتكبير ونظيره ما في قوله: ﴿وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ من ذكر القدرة على النصر دون فعليته فإن فيه إشارة إلى أنه مما لا يهتم به لأنه هين على من هو على كل شيء قدير.

د. والمعنى أذن، من جانب الله، للذين يقاتلهم المشركون وهم المؤمنون بسبب أنهم ظلموا، من جانب المشركين، وإن الله على نصرهم لقدير، وهو كناية عن النصر.

٢. ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾:

أ. بيان جهة كونهم مظلومين وهو أنهم أخرجوا من ديارهم وقد أخرجهم المشركون من ديارهم بمكة بغير حق يجوز لهم إخراجهم.

ب. ولم يخرجوهم بحمل وتسفير بل آذوهم وبالغوا في إيذائهم وشددوا بالتعذيب والتفتين حتى

اضطروهم إلى الهجرة من مكة والتغرب عن الوطن وترك الديار والأموال فقوم إلى الحبشة وآخرون إلى المدينة بعد هجرة النبي ﷺ، فإخراجهم إياهم إلجاؤهم إلى الخروج.

٣. ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾:

أ. استثناء منقطع معناه ولكن أخرجوا بسبب أن يقولوا ربنا الله، وفيه إشارة إلى أن المشركين انحرفوا في فهمهم وألحدوا عن الحق إلى حيث جعلوا قول القائل ربنا الله وهو كلمة الحق يبيح لهم أن يخرجوه من داره.

ب. وقيل: الاستثناء متصل والمستثنى منه هو الحق والمعنى أخرجوا بغير حق إلا الحق الذي هو قولهم: ربنا الله، وأنت خبير بأنه لا يناسب المقام فإن الآية في مقام بيان أنهم أخرجوا من ديارهم بغير حق لا أنهم إنما أخرجوا بهذا الحق لا بحق غيره.

ج. وتوصيف الذين آمنوا بهذا الوصف، كونهم مخرجين من ديارهم، وهو وصف بعضهم وهم المهاجرون من باب توصيف الكل بوصف البعض بعناية الاتحاد والائتلاف فإن المؤمنين إخوة وهم يد واحدة على من سواهم وتوصيف، الأمم بوصف بعض الأفراد في القرآن الكريم فوق حد الإحصاء.

٤. ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً﴾:

أ. الصوامع جمع صومعة وهي بناء في أعلاه حدة كان يتخذ في الجبال والبراري ويسكنه الزهاد والمعتزلون من الناس للعبادة، والبيع جمع بيعة بكسر الباء معبد اليهود والنصارى، والصلوات جمع صلاة وهي مصلى اليهود سمي بها تسمية للمحل باسم الحال كما أريد بها المسجد في قوله تعالى: ﴿لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارى﴾ إلى قوله: ﴿وَلا جُنُباً إِلَّا عابِرِي سَبِيلٍ﴾ وقيل: هي معرب (صلوثا) بالثاء المثلثة والقصر وهي بالعبرانية المصلى، والمساجد جمع مسجد وهو معبد المسلمين.

ب. والآية وإن وقعت موقع التعليل بالنسبة إلى تشريع القتال والجهاد، ومحصلها أن تشريع القتال إنما هو لحفظ المجتمع الديني من شر أعداء الدين المهتمين بإطفاء نور الله فلو لا ذلك لانهدمت المعابد الدينية والمشاعر الإلهية ونسخت العبادات والمناسك.

ج. لكن المراد بدفع الله الناس بعضهم ببعض أعم من القتال فإن دفع بعض الناس بعضا ذبا عن

منافع الحياة وحفظا لاستقامة حال العيش سنة فطرية جارية بين الناس والسنن الفطرية منتهية إليه تعالى ويشهد به تجهيز الإنسان كسائر الموجودات بأدوات وقوى تسهل له البطش ثم بالفكر الذي يهديه إلى اتخاذ وسائل الدفع والدفاع عن نفسه أو أي شأن من شئون نفسه مما تتم به حياته وتتوقف عليه سعادته.

د. والدفع بالقتال آخر ما يتوسل إليه من الدفع إذا لم ينجع غيره من قبيل آخر الدواء الكي ففيه إقدام على فناء البعض لبقاء البعض وتحمل لمشقة في سبيل راحة سنة جارية في المجتمع الإنساني بل في جميع الموجودات التي لها نفسية ما واستقلال ما.

هـ. ففي الآية إشارة إلى أن القتال في الإسلام من فروع هذه السنة الفطرية الجارية وهي دفع الناس بعضهم بعضا عن شئون حياتهم، وإذا نسب إلى الله سبحانه كل ذلك دفعه الناس بعضهم ببعض حفظا لدينه عن الضيعة.

و. وإنما اختص انهدام المعابد بالذكر مع أن من المعلوم أنه لولا هذا الدفع لم يقم أصل الدين على ساقه وانمحت جميع آثاره لأن هذه المعابد والمعاهد هي الشعائر والأعلام الدالة على الدين المذكرة له الحافظة لصورته في الأذهان.

٥. ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾:

أ. قسم مع تأكيد بالغ على نصره تعالى من ينصره بالقتال ذبا عن الدين الإلهي ولقد صدق الله وعده فنصر المسلمين في حروبهم ومغازيهم فأيدهم على أعدائه ورفع ذكره ما كانوا ينصرونه.

ب. والمعنى أقسم لينصرن الله من ينصره بالدفاع عن دينه إن الله لقوي لا يضعفه أحد ولا يمنعه شيء عما أراد عزيز منيع الجانب لا يتعدى إلى ساحة عزته ولا يعادله شيء في سلطنته وملكه.

ج. ويظهر من الآية أنه كان في الشرائع السابقة حكم دفاعي في الجملة وإن لم يبين كيفيته.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: روي عن الباقر عليه السلام أنه قال: لم يؤمر رسول الله ﷺ بقتال ولا أذن له فيه، حتى نزل جبرئيل بهذه الآية: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ وقلده سيفا.

ب. وفيه: كان المشركون يؤذون المسلمين، لا يزال يجيء مشجوج ومضروب إلى رسول الله ﷺ، ويشكون ذلك إلى رسول الله ﷺ فيقول لهم: اصبروا فإني لم أومر بالقتال حتى هاجر، فأنزل الله عليه هذه

الآية بالمدينة، وهي أول آية نزلت في القتال.

• أقول: وروى في الدر المنثور، عن جم غفير من أرباب الجوامع، عن ابن عباس وغيره: أنها أول آية نزلت في القتال، وما اشتمل عليه بعض هذه الروايات أنها نزلت في المهاجرين من أصحاب النبي ﷺ خاصة إن صحت الرواية فهو اجتهاد من الراوي لما مر أن الآية مطلقة وأنه لا يعقل توجيه حكم القتال إلى أشخاص من الأمة بأعيانهم وهو حكم عام.

• ونظير الكلام جار في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ بل وفي قوله: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ على ما تقدم في البيان.

ج. وفيه: في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ﴾ وقال أبو جعفر عليه السلام: نزلت في المهاجرين وجرت في آل محمد الذين أخرجوا من ديارهم وأخيفوا.

• أقول: وعلى ذلك يحمل ما في المناقب، عنه عليه السلام: في الآية: نحن، نزلت فينا وفي روضة الكافي عنه عليه السلام: جرت في الحسين عليه السلام.

• وكذا ما في المجمع: (في قوله تعالى: ﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ عنه عليه السلام: نحن هم.

• وكذا ما في الكافي، والمعاني، وكمال الدين، عن الصادق والكاظم عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ قالا: البئر المعطلة الإمام الصامت، والقصر المشيد الإمام الناطق.

٢٦. التمكين في الأرض وإقامة الدين:

المقطع [٢٦] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٨٦»:

١. ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾:

أ. توصيف آخر للذين آمنوا المذكورين في أول الآيات، وهو توصيف المجموع من حيث هو مجموع من غير نظر إلى الأشخاص والمراد من تمكينهم في الأرض إقدارهم على اختيار ما يريدونه من نحو الحياة من غير مانع يمنعهم أو مزاحم يزاحمهم.

ب. يقول تعالى: إن من صفتهم أنهم إن تمكنوا في الأرض وأعطوا الحرية في اختيار ما يستحبونه من نحو الحياة عقدوا مجتمعا صالحا تقام فيه الصلاة وتؤتى فيه الزكاة ويؤمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر وتخصيص الصلاة من بين الجهات العبادية والزكاة من بين الجهات المالية بالذكر لكون كل منهما عمدة في بابها.

ج. وإذ كان الوصف للذين آمنوا المذكورين في صدر الآيات والمراد به عقد مجتمع صالح وحكم الجهاد غير خاص بطائفة خاصة فالمراد بهم عامة المؤمنين يومئذ بل عامة المسلمين إلى يوم القيامة والخصيصة خصيصتهم بالطبع فمن طبع المسلم بما هو مسلم الصلاح وإن كان ربما غشيته الغواشي.

د. وليس المراد بهم خصوص المهاجرين بأعيانهم سواء كانت الآيات مكية أو مدنية وإن كان المذكور من جهة المظلومية هو إخراجهم من ديارهم وذلك لمنافاته عموم الموصوف المذكور في صدر الآيات وعموم حكم الجهاد لهم ولغيرهم قطعا.

هـ. على أن المجتمع الصالح الذي عقد لأول مرة في المدينة ثم انبسط فشمل عامة جزيرة العرب في عهد النبي ﷺ وهو أفضل مجتمع متكون في تاريخ الإسلام تقام فيه الصلاة وتؤتى فيه الزكاة وتؤمر فيه بالمعروف وتنهى فيه عن المنكر مشمول للآية قطعا وكان السبب الأول ثم العامل الغالب فيه الأنصار دون المهاجرين.

و. ولم يتفق في تاريخ الإسلام للمهاجرين، خاصة أن يعقدوا وحدهم مجتمعا من غير شركة من الأنصار فيقيموا الحق ويميطوا الباطل فيه اللهم إلا أن يقال: إن المراد بهم أشخاص الخلفاء الراشدين أو خصوص علي عليه السلام على الخلاف بين أهل السنة والشيعة، وفي ذلك إفساد معنى جميع الآيات.

ز. على أن التاريخ يضبط من أعمال الصدر الأول وخاصة المهاجرين منهم أمورا لا يسعنا أن نسميها إحياء للحق وإماتة للباطل سواء قلنا بكونهم مجتهدين معذورين أم لا فليس المراد توصيف أشخاصهم بل المجموع من حيث هو مجموع.

٢. ﴿وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ تأكيد لما تقدم من الوعد بالنصر وإظهار المؤمنين على أعداء الدين الظالمين لهم.

٢٧. سنن الله في إهلاك المكذبين وعمى القلوب:

المقطع [٢٧] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٢-٤٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٨٧»:

١. ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾:

أ. فيه تعزية للنبي ﷺ أن تكذيب قومه له ليس ببدع فقد كذبت أمم قبلهم لأنبيائهم، وإنذار وتخويف للمكذبين بالإشارة إلى ما انتهى إليه تكذيب من قبلهم من الأمم وهو الهلاك بعذاب من الله تعالى.

ب. وقد عد من تلك الأمم قوم نوح وعادا وهم قوم هود وثمود وهم قوم صالح وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وهم قوم شعيب، وذكر تكذيب موسى، قيل: ولم يقل: وقوم موسى لأن قومه بنو إسرائيل وكانوا آمنوا به، وإنما كذبه فرعون وقومه.

٢. ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ الإملاء الإمهال وتأخير الأجل، والنكير الإنكار، والمعنى فأمهلت الكافرين، الذين كذبوا رسلهم من هذه الأمم، ثم أخذتهم وهو كناية عن العقاب فكيف كان إنكاري لهم في تكذيبهم وكفرهم؟ وهو كناية عن بلوغ الإنكار وشدة الأخذ.

٣. ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ قرية خاوية على عروشها أي ساقطة جدرانها على سقوفها فهي خربة، والبئر المعطلة الخالية من الواردين والمستقين وشاد القصر أي جصصه والشيد بالكسر الجص.

٤. ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾:

أ. ظاهر السياق أنه بيان لقوله في الآية السابقة: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ وقوله: ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ عطف على قرية.

ب. والمعنى: فكم من قرية أهلكنا أهلها حال كونهم ظالمين فهي خربة ساقطة جدرانها على سقوفها، وكم من بئر معطلة باد النازلون عليها فلا وارد لها ولا مستقي منها، وكم من قصر مجصص هلك

سكانها لا يرى لهم أشباح ولا يسمع منهم حسيس، وأصحاب الآبار أهل البدو وأصحاب القصور أهل الحضر.

٥. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾:

أ. حث وتحضيض على الاعتبار بهذه القرى الهالكة والآثار المعطلة والقصور المشيدة التي تركتها تلك الأمم البائدة بالسير في الأرض فإن السير فيها ربما بعث الإنسان إلى أن يتفكر في نفسه في سبب هلاكهم ويستحضر الحجج في ذلك فيتذكر أن الذي وقع بهم إنما وقع لشركهم بالله وإعراضهم عن آياته واستكبارهم على الحق بتكذيب الرسل فيكون له قلب يعقل به ويردعه عن الشرك والكفر هذا إن وسعه أن يستقل بالتفكير.

ب. وإن لم يسعه ذلك بعثه الاعتبار إلى أن يصغي إلى قول المشفق الناصح الذي لا يريد به إلا الخير وعظة الواعظ الذي يميز له ما ينفعه مما يضره ولا عظة ككتاب الله ولا ناصح كرسوله فيكون له أذن يسمع بها ما يهتدي به إلى سعادته.

ج. ومن هنا يظهر وجه الترديد في الآية بين القلب والأذن من غير تعرض للبصر وذلك لأن الترديد في الحقيقة بين الاستقلال في التعقل وتمييز الخير من الشر والنافع من الضار وبين الاتباع لمن يجوز اتباعه وهذان شأن القلب والأذن.

د. ثم لما كان المعنيان جميعا، التعقل والسمع، في الحقيقة من شأن القلب أي النفس المدركة فهو الذي يبعث الإنسان إلى متابعة ما يعقله أو سمعه من ناصح مشفق عد إدراك القلب لذلك رؤية له ومشاهدة منه، ولذلك عد من لا يعقل ولا يسمع أعمى القلب ثم بولغ فيه بأن حقيقة العمى هي عمى القلب دون عمى العين لأن الذي يعمى بصره يمكنه أن يتدارك بعض منافعه الفائتة بعصا يتخذها أو بهاد يأخذه بيده وأما القلب فلا بدل له يتسلى به، وهو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾

هـ. وجعل الصدر ظرفا للقلب من المجاز في النسبة، وفي الكلام مجاز آخر ثان من هذا القبيل وهو نسبة العقل إلى القلب وهو للنفس، وقد تقدم التنبيه عليه مرارا.

٢٨. استعجال الكفار العذاب:

المقطع [٢٨] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٧-٤٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٨٩»:

١. ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ كان القوم يكذبون النبي ﷺ إذا أخبرهم أن الله سبحانه وعده أن يعذبهم إن لم يؤمنوا به فكانوا يستعجلونه بالعذاب استهزاء به وتعجيزا له قائلين: متى هذا الوعد؟ فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ﴾ فإن كان المراد بالعذاب عذاب مشركي مكة فالذي وعدهم من العذاب هو ما ذاقوه يوم بدر وإن كان المراد به ما يقضى به بين النبي ﷺ وبين أمته بعذاب موعود لم ينزل بعد وقد أخبر الله عنه في قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٧] إلى آخر الآيات.

٢. ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾:

أ. حكم بتساوي اليوم الواحد والألف سنة عند الله سبحانه فلا يستقل هذا ولا يستكثر ذلك حتى يتأثر من قصر اليوم الواحد وطول الألف سنة فليس يخاف الفوت حتى يعجل لهم العذاب بل هو حليم ذو أناة يمهلهم حتى يستكملوا دركات شقائهم ثم يأخذهم فيما قدر لهم من أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، ولذا عقب الكلام بقوله في الآية التالية: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَهِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾

ب. ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾ رد لاستعجالهم بالعذاب بأن الله يستوي عنده قليل الزمان وكثيره، كما أن قوله: ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ﴾ تسلية وتأييد للنبي ﷺ ورد لتكذيبهم له فيما أخبرهم به من وعد الله وتعجيزهم له واستهزائهم به.

ج. وقيل: معنى قوله: ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ إن يوما من أيام الآخرة التي سيعذبون فيها يعدل ألف سنة من أيام الدنيا التي يعدونها، وقيل: المراد أن يوما لهم وهم معذبون عند ربهم يعدل في الشدة ألف سنة يعذبون فيها من الدنيا.

د. والمعنيان لا يلائمان صدر الآية ولا الآية التالية كما هو ظاهر.

٣. ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَهِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾:

أ. الآية، كما مر، متممة لقوله: ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾ بمنزلة الشاهد على صدق المدعى، والمعنى: قليل الزمان وكثيره عند ربك سواء وقد أملى لكثير من القرى الظالمة وأمهلها ثم أخذها بعد مهل.

ب. ﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ بيان لوجه عدم تعجيله العذاب لأنه لما كان مصير كل شيء إليه فلا يخاف الفوت حتى يأخذ الظالمين بعجل.

ج. وقد ظهر بما مر أن الآية ليست تكرارا لقوله سابقا: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾، فلكل من الآيتين مفادها.

د. وفي الآية التفات من الغيبة إلى التكلم وحده لأن الكلام فيها في صفة من صفاته تعالى وهو الحلم والمطلوب بيان أن الله سبحانه هو خصمهم بنفسه إذ خاصموا نبيه.

٢٩. النذير والمغفرة والجحيم:

المقطع [٢٩] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحج: ٤٩ـ٥١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٩٠»:

١. ﴿قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أمر بإعلام الرسالة بالإنذار وبيان ما للإيمان به والعمل الصالح من الأجر الجميل وهو المغفرة بالإيمان والرزق الكريم وهو الجنة بما فيها من النعيم، بالعمل الصالح، وما للكفر والجحود من التبعة السيئة وهي صحابة الجحيم من غير مفارقة.

٢. ﴿سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ﴾ السعي الإسراع في المشي وهو كناية عن بذل الجهد في أمر آيات الله لإبطالها وإطفاء نورها بمعاجزة، الله والتعبير بلفظ المتكلم مع الغير رجوع في الحقيقة إلى السياق السابق بعد إيفاء الالتفات في الآية السابقة أعني قوله: ﴿أَمْلَيْتُ لَهَا﴾

٣٠. الرسل والشيطان والنسخ والإحكام:

المقطع [٣٠] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾

[الحج: ٥٢ـ٥٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٩٠»:

١. ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾:

أ. التمني تقدير الإنسان وجود ما يحبه سواء كان ممكنا أو ممتنعا كتمني الفقير أن يكون غنيا ومن لا ولد له أن يكون ذا ولد، وتمني الإنسان أن يكون له بقاء لا فناء معه وأن يكون له جناحان يطير بهما، ويسمى صورته الخيالية التي يلتذ بها أمنية، والأصل في معناه المني بالفتح فالسكون بمعنى التقدير، وقيل: ربما جاء بمعنى القراءة والتلاوة يقال: تمنيت الكتاب أي قرأته، والإلقاء في الأمنية المداخلة فيها بما يخرجها عن صرافتها ويفسد أمرها.

ب. ومعنى الآية على أول المعنيين وهو كون التمني هو تمني القلب: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى وقدر بعض ما يتمناه من توافق الأسباب على تقدم دينه وإقبال الناس عليه وإيمانهم به ألقى الشيطان في أمنيته وداخل فيها بوسوسة الناس وتهييج الظالمين وإغراء المفسدين فأفسد الأمر على ذلك الرسول أو النبي وأبطل سعيه فينسخ الله ويزيل ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته بإنجاح سعي الرسول أو النبي وإظهار الحق والله عليم حكيم.

ج. والمعنى: على ثاني المعنيين وهو كون التمني بمعنى القراءة والتلاوة: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تلا وقرأ آيات الله ألقى الشيطان شبها مضلة على الناس بالوسوسة ليجادلوه بها ويفسدوا على المؤمنين إيمانهم فيبطل الله ما يلقيه الشيطان من الشبه ويذهب به بتوفيق النبي لرده أو بإنزال ما يرده.

د. وفي الآية دلالة واضحة على اختلاف معنى النبوة والرسالة لا بنحو العموم والخصوص مطلقا كما اشتهر بينهم أن الرسول هو من بعث وأمر بالتبليغ والنبي من بعث سواء أمر بالتبليغ أم، لا إذ لو كان كذلك لكان من الواجب أن يراد بقوله في الآية: ﴿وَلا نَبِيٍّ﴾ غير الرسول أعني من لم يؤمر بالتبليغ، وينافيه قوله: ﴿وَما أَرْسَلْنا﴾

هـ. وقد قدمنا في مباحث النبوة في الجزء الثاني من الكتاب ما يدل من روايات أئمة أهل البيت عليه السلام أن الرسول هو من ينزل عليه الملك بالوحي فيراه ويكلمه والنبي هو من يرى المنام ويوحى إليه فيه، وقد استفدناه مضمون هذه الروايات من قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ

مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾ [الإسراء: ٩٥] في الجزء الثالث عشر من الكتاب.

و. وأما سائر ما قيل في الفرق بين الرسالة والنبوة كقول من قال: إن الرسول من بعث بشرع جديد والنبي أعم منه وممن جاء مقررا لشرع سابق ففيه أنا قد أثبتنا في مباحث النبوة أن الشرائع الإلهية لا تزيد على خمسة وهي شرائع نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ وقد صرح القرآن على رسالة جمع كثير منهم غير هؤلاء، على أن هذا القول لا دليل له.

ز. وقول من قال: إن الرسول من كان له كتاب والنبي بخلافه وقول من قال: إن الرسول من له كتاب ونسخ في الجملة والنبي بخلافه، ويرد على القولين نظير ما ورد على القول الأول.

ح. وفي قوله: ﴿فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ﴾ التفات من التكلم بالغير إلى الغيبة، والوجه فيه العناية بذكر لفظ الجلالة وإسناد النسخ والإحكام إلى من لا يقوم له شيء، ولذلك بعينه أعاد لفظ الجلالة ثانيا مع أنه من وضع الظاهر موضع المضمر ومنه أيضا إعادة لفظ الشيطان ثانيا دون ضميره ليشار إلى أن الملقي هو الشيطان الذي لا يعبأ به وبكيده في قباله تعالى، وكان الظاهر أن يقال: فينسخ ما يلقيه ثم يحكم آياته.

٢. ﴿لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾:

أ. مرض القلب عدم استقامة حاله في التعقل بأن لا يذعن بما من شأنه أن يذعن به من الحق وهو الشك والارتياب، وقساوة القلب صلابته وغلظه مأخوذ من الحجر القاسي أي الصلب، وصلابته بطلان عواطفه الرقيقة المعينة في إدراك المعاني الحقة كالخشوع والرحمة والتواضع والمحبة فالقلب المريض سريع التصور للحق بطيء الإذعان به، والقلب القسي بطيئهما معا، وكلاهما سريع القبول للوساوس الشيطانية.

ب. والإلقاءات الشيطانية التي تفسد الأمور على الحق وأهله وتبطل مساعي الرسل والأنبياء دون أن تؤثر أثرها وإن كانت مستندة إلى الشيطان نفسه لكنها كسائر الآثار لما كانت واقعة في ملكه تعالى، ولا يقع أثر من مؤثر أو فعل من فاعل إلا بإذنه، ولا يقع شيء بإذنه إلا استند إليه استنادا ما بمقدار الإذن، ولا يستند إليه إلا ما فيه خير لا يخلو من مصلحة وغاية.

ج. لذا ذكر سبحانه في هذه الآية أن لهذه الإلقاءات الشيطانية مصلحة وهي أنها محنة يمتحن بها الناس عامة والامتحان من النواميس الإلهية العامة الجارية في العالم الإنساني ويتوقف عليه تلبس السعيد

بسعادته والشقي بشقائه، وفتنة يفتتن بها الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم خاصة فإن تلبس الأشقياء بكمال شقائهم من التربية الإلهية المقصودة في نظام الخلقة، قال تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ [الإسراء: ٢٠]

د. وهذا معنى قوله: ﴿لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ فاللام في ﴿لِيَجْعَلَ﴾ للتعليل يعلل بها إلقاء الشيطان في أمنية الرسول والنبي أي يفعل الشيطان كذا ليفعل الله كذا ومعناه أنه مسخر لله سبحانه لغرض امتحان العباد وفتنة أهل الشك والجحود وغرورهم.

هـ. وقد تبين أن المراد بالفتنة الابتلاء والامتحان الذي ينتج الغرور والضلال وبالذين في قلوبهم مرض أهل الشك من الكفار وبالقاسية قلوبهم أهل الجحود والعناد منهم.

٣. ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ﴾ الشقاق والمشاقة المباينة والمخالفة وتوصيفه بالبعد توصيف له بحال موصوفه، والمعنى: وإن الظالمين، وهم أهل الجحود على ما يعطيه السياق أو هم وأهل الشك جميعا، لفي مباينة ومخالفة بعيد صاحبها من الحق وأهله.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام: في حديث النبي الذي يرى في منامه، ويسمع الصوت ولا يعاين الملك، والرسول الذي يسمع الصوت ويرى في المنام، ويعاين الملك.

• أقول: وفي هذا المعنى روايات أخرى، والمراد بمعاينة الملك على ما في غيره من الروايات نزول الملك عليه وظهوره له وتكليمه بالوحي، وقد تقدم بعض هذه الروايات في أبحاث النبوة في الجزء الثاني من الكتاب.

ب. أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة النجم فلما بلغ هذا الموضع ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى﴾ ألقى الشيطان على لسانه (تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى) قالوا: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم، فسجد وسجدوا، ثم جاء جبريل بعد ذلك قال: أعرض علي ما جئتك به، فلما بلغ (تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى) قال جبريل لم آتك بهذا، هذا من الشيطان فأنزل الله ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ﴾، الآية.

• أقول: الرواية مروية بطرق عديدة عن ابن عباس وجمع من التابعين وقد صححها جماعة منهم الحافظ ابن حجر.

• لكن الأدلة القطعية على عصمته ﷺ تكذب متنها وإن فرضت صحة سندها فمن الواجب تنزيه ساحته المقدسة عن مثل هذه الخطيئة مضافا إلى أن الرواية تنسب إليه ﷺ أشنع الجهل وأقبحه فقد تلى (تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى) وجهل أنه ليس من كلام الله ولا نزل به جبريل، وجهل أنه كفر صريح يوجب الارتداد ودام على جهة حتى سجد وسجدوا في آخر السورة ولم يتنبه ثم دام على جهله حتى نزل عليه جبريل وأمره أن يعرض عليه السورة فقرأها عليه وأعاد الجملتين وهو مصر على جهله حتى أنكره عليه جبريل ثم أنزل عليه آية تثبت نظير هذا الجهل الشنيع والخطيئة الفضيحة لجميع الأنبياء والمرسلين وهي قوله: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾

• وبذلك يظهر بطلان ما ربما يعتذر دفاعا عن الحديث بأن ذلك كان سبقا من لسان دفعه بتصرف من الشيطان سهوا منه عليه السلام وغلطا من غير تفطن، فلا متن الحديث على ما فيه من تفصيل الواقعة ينطبق على هذه المعذرة، ولا دليل العصمة يجوز مثل هذا السهو والغلط.

• على أنه لو جاز مثل هذا التصرف من الشيطان في لسانه ﷺ بإلقاء آية أو آيتين في القرآن الكريم لارتفع الأمن عن الكلام الإلهي فكان من الجائز حينئذ أن يكون بعض الآيات القرآنية من إلقاء الشيطان ثم يلقي نفس هذه الآية ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ﴾ الآية فيضعه في لسان النبي وذكره فيحسبها من كلام الله الذي نزل به جبريل كما حسب حديث الغرانيق كذلك فيكشف بهذا عن بعض ما ألقاه وهو حديث الغرانيق سترا على سائر ما ألقاه.

• أو يكون حديث الغرانيق من الكلام الله، وآية ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ﴾، وجميع ما ينافي الوثنية من كلام الشيطان ويستر بها ألقاه من الآية وأبطل من حديث الغرانيق على كثير من إلقاءاته في خلال الآيات القرآنية، وبذلك يرتفع الاعتماد والوثوق بكتاب الله من كل جهة وتلغو الرسالة والدعوة النبوية بالكلية جلت ساحة الحق من ذلك.

٣١. العلم بالحق يورث الإيمان وإخبات القلب:

المقطع [٣١] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ

مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنوا بِهِ فَتُخْبِت لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٩٣»:

١. ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾:

أ. المتبادر من السياق أنه عطف على قوله: ﴿لِيَجْعَلَ﴾ وتعليل لقوله: ﴿فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ﴾ والضمير في ﴿أَنَّهُ﴾ على هذا لما يتمناه الرسول والنبي المفهوم من قوله: ﴿إِذا تَمَنَّى﴾، ولا دليل على إرجاعه إلى القرآن.

ب. والمعنى: فينسخ الله ما يلقيه الشيطان ثم يحكم آياته ليعلم الذين أوتوا العلم بسبب ذاك النسخ والأحكام أن ما تمناه الرسول أو النبي هو الحق من ربك لبطلان ما يلقيه الشيطان فيؤمنوا به فتخبت أي تلين وتخشع له قلوبهم.

ج. ويمكن أن يكون قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ معطوفا على محذوف ومجموع المعطوف والمعطوف عليه تعليلا لما بينه في الآية السابقة من جعله تعالى هذا الإلقاء فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم.

د. والمعنى: إنما بينا هذه الحقيقة لغاية كذا وكذا وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك (إلخ) على حد قوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وهو كثير الورود في القرآن.

٢. ﴿إِنَّ اللهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ في مقام التعليل لكون علم الذين أوتوا العلم غاية مترتبة على فعله تعالى فيفيد أنه تعالى إنما فعل ما فعل ليعلموا أن الأمر حق لأنه هاد يريد أن يهديهم فيهديهم بهذا التعليم إلى صراط مستقيم.

٣٢. الكفار والشك في الساعة:

المقطع [٣٢] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ للهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [الحج: ٥٥-٥٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٩٤»:

١. ﴿وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ﴾:

أ. الآية، كما ترى، تخبر عن حرمان هؤلاء الذين كفروا من الإيمان مدى حياتهم فليس المراد بهم مطلق الكفار لقبول بعضهم الإيمان بعد الكفر فالمراد به عدة من صناديد قريش الذين لم يوفقوا للإيمان ما عاشوا كما في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]

ب. وعقم اليوم كونه بحيث لا يخلف يوما بعده وهو يوم الهلاك أو يوم القيامة، والمراد به في الآية على ما يعطيه سياق الآية الثالثة يوم القيامة.

ج. والمعنى ويستمر الذين كفروا في شك من القرآن حتى يأتيهم يوم القيامة أو يأتيهم عذاب يوم القيامة وهو يوم يأتي بغتة لا يمهلهم حتى يحتالوا له بشيء ولا يخلف بعده يوما حتى يقضى فيه ما فات قبله.

د. وإنما ردد بين يوم القيامة وبين عذابه لأنهم يعترفون عند مشاهدة كل منهما بالحق ويطيح عنهم الريب والمرية قال تعالى: ﴿قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]، وقال: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَرَبِّنا﴾ [الأحقاف: ٣٤]

هـ. وقد ظهر بما تقدم أن تقييد اليوم تارة بكونه بغتة وتارة بالعقم للدلالة على كونه بحيث لا ينفع معها حيلة ولا يقع بعدها تدارك لما فات قبله.

٢. ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾:

أ. قد تقدم مرارا أن المراد بكون الملك يومئذ لله ظهور كون الملك له تعالى لأن الملك له دائما وكذا ما ورد من نظائره من أوصاف يوم القيامة في القرآن ككون الأمر يومئذ لله وكون القوة يومئذ لله وهكذا.

ب. ولسنا نعني به أن المراد بالملك مثلا في الآية ظهور الملك مجازا بل نعني به أن الملك قسمان ملك حقيقي حق وملك مجازي صوري وللأشياء ملك مجازي صوري ملكها الله ذلك وله تعالى مع ذلك الملك الحق بحقيقة معناه حتى إذا كان يوم القيامة ارتفع كل ملك صوري عن الشيء المتلبس به ولم يبق من الملك إلا حقيقته وهو لله وحده فمن خاصة يوم القيامة أن الملك يومئذ لله وعلى هذا القياس.

٣. ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي ولا حاكم غيره لأن الحكم من فروع الملك فإذا لم يكن يومئذ لأحد نصيب في الملك لم يكن له نصيب في الحكم.

٤. ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا﴾ وهؤلاء

المعاندون المستكبرون ـ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ بيان لحكمه تعالى.

٣٣. المهاجرون في سبيل الله والرزق الحسن والمدخل المرضي:

المقطع [٣٣] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج: ٥٨-٥٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٩٨»:

١. ﴿وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً﴾:

أ. لما ذكر إخراج المهاجرين من ديارهم ظلما عقبه بذكر ما يثيبهم به على مهاجرتهم ومحنتهم في سبيل الله وهو وعد حسن برزق حسن.

ب. وقد قيد الهجرة بكونها في سبيل الله لأن المثوبة إنما تترتب على صالح العمل، وإنما يكون العمل صالحا عند الله بخلوص النية فيه وكونه في سبيله لا في سبيل غيره من مال أو جاه أو غيرهما من المقاصد الدنيوية، وبمثل ذلك يتقيد قوله: ﴿ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا﴾ أي قتلوا في سبيل الله أو ماتوا وقد تغربوا في سبيل الله.

٢. ﴿وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ختم للآية يعلل به ما ذكر فيها من الرزق الحسن وهو النعمة الأخروية إذ موطنها بعد القتل والموت، وفي الآية إطلاق الرزق على نعم الجنة كما في قوله: ﴿أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]

٣. ﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾:

أ. المدخل بضم الميم وفتح الخاء اسم مكان من الإدخال واحتمال كونه مصدرا ميميا لا يناسب السياق تلك المناسبة، وتوصيف هذا المدخل وهو الجنة بقوله: ﴿يَرْضَوْنَهُ﴾ والرضا مطلق، دليل على اشتمالها على أقصى ما يريده الإنسان كما قال: ﴿لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ﴾ [الفرقان: ١٦]

ب. ﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ﴾ بيان لقوله: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً﴾ وإدخاله إياهم مدخلا يرضونه ولا يكرهونه على الرغم من إخراج المشركين إياهم إخراجا يكرهونه ولا يرضونه ولذا علله بقوله: ﴿وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ أي عليم بما يرضيهم فيعده لهم إعدادا حليم فلا يعاجل العقوبة لأعدائهم الظالمين لهم.

٣٤. العدل في العقاب ونصر المظلوم وعفو الله:

المقطع [٣٤] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٣٩٩»:

١. ﴿ذلِكَ وَمَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾:

أ. ذلك خبر لمبتدإ محذوف أي الأمر ذلك الذي أخبرناك به وذكرناه لك، والعقاب مؤاخذة الإنسان بما يكرهه بإزاء فعله ما لا يرتضيه المعاقب وإنما سمي عقابا لأنه يأتي عقيب الفعل.

ب. والعقاب بمثل العقاب كناية عن المعاملة بالمثل ولما لم يكن هذه المعاملة بالمثل حسنا إلا فيما كان العقاب الأول من غير حق قيده بكونه بغيا فعطف قوله: ﴿بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ بثم عليه.

٢. ﴿لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ﴾:

أ. ظاهر السياق، والمقام مقام الإذن في الجهاد، أن المراد بالنصر هو إظهار المظلومين على الظالمين الباغين وتأييدهم عليهم في القتال لكن يمكن أن يستظهر من مثل قوله: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً﴾ [الإسراء: ٣٣] أن المراد بالنصر هو تشريع حكم للمظلوم يتدارك به ما وقع عليه من وصمة الظلم والبغي فإن في إذنه أن يعامل الظالم الباغي عليه بمثل ما فعل بسطا ليده على من بسط عليه اليد.

ب. وبهذا يتضح معنى تعليل النصر بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ فإن الإذن والإباحة في موارد الاضطرار والحرج وما شابه ذلك من مقتضيات صفتي العفو والمغفرة كما تقدم مرارا في أمثال قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣] وقد أوضحنا ذلك في المجازاة والعفو في آخر الجزء السادس من الكتاب.

ج. والمعنى، على هذا، ومن عامل من عاقبه بغيا عليه بمثل ما عاقب نصره الله بإذنه فيه ولم يمنعه عن المعاملة بالمثل لأن الله عفو غفور يمحو ما تستوجبه هذه المعاملة والانتقام من المساءة والتبعة كأن العقاب وإيصال المكروه إلى الناس مبغوض في نظام الحياة غير أن الله سبحانه يمحو ما فيه من المبغوضية ويستر على أثره السيئ إذا كان عقابا من مظلوم لظالمه الباغي عليه بمثل ما بغي عليه، فيجيز له ذلك ولا يمنعه بالتحريم والحظر.

د. وبذلك يظهر أيضا مناسبة ذكر وصف الحلم في آخر الآية السابقة ﴿إِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ ويظهر أيضا أن ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ للتراخي بحسب الذكر لا بحسب الزمان.

هـ. وأما ما أوردوه في معنى الآية: ومن جازى الجاني بمثل ما جنى به عليه ثم بغي عليه بالمعاودة إلى العقاب لينصرنه الله على من بغي عليه إن الله لعفو غفور لمن ارتكبه من العقاب إذ كان تركا للأولى لأن الأولى هو الصبر والعفو عن الجاني كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى﴾، وقال: ﴿فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾، وقال: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]:

• ففيه أولا: أنه لما أخذت (ثم) للتراخي بحسب الزمان أفاد كون العقاب غير البغي ومطلق العقاب أعم من أن يكون جناية، وعمومها للجناية وغيرها يفسد معنى الكلام، وإرادة خصوص الجناية منه، كما فسر، إرادة معنى لا دليل عليه من جهة اللفظ.

• وثانيا: أنه فسر النصرة بالنصرة التكوينية دون التشريعية فكان إخبارا عن نصره تعالى المظلوم على الظالم إذا قابله بالمجازاة على جنايته ثم بغيه والواقع ربما يتخلف عن ذلك.

• وثالثا: أن قتال المشركين والجهاد في سبيل الله من مصاديق هذه الآية قطعا، ولازم ما ذكر أن يكون تركه بالعفو عنهم أولى من فعله وهو واضح الفساد.

٣٥. الليل والنهار والحق والباطل:

المقطع [٣٥] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَّ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَّ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَّ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَّ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَّ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَّ لَطِيفٌ خَبِيرٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللهَّ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحج: ٦١ـ٦٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٤٠١»:

١. ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾:

أ. إيلاج كل من الليل والنهار في الآخر حلوله محل الآخر كورود ضوء الصباح على ظلمة الليل كشيء يلج في شيء ثم اتساعه وإشغال النهار من الفضاء ما أشغله الليل، وورود ظلمة المساء على نور النهار كشيء يلج في شيء ثم اتساعها وشمول الليل.

ب. والمشار إليه بذلك، بناء على ما تقدم من معنى النصر، ظهور المظلوم بعقابه على الظالم الباغي عليه، والمعنى أن ذلك النصر بسبب أن من سنة الله أن يظهر أحد المضادين والمتزاحمين على الآخر كما يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وأن الله سميع لأقوالهم بصير بأعمالهم فينصر المظلوم وهو مهضوم الحق بعينه وما يسأله بلسان حاله في سمعه.

ج. وذكر في معنى الآية وجوه أخر غير منطبقة على السياق رأينا الصفح عن ذكرها أولى.

٢. ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾:

أ. الإشارة بذلك إلى النصر أو إليه وإلى ما ذكر من سببه، والحصر أن في قوله: ﴿بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ وقوله: ﴿وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ﴾:

- إما بمعنى أنه تعالى حق لا يشوبه باطل وأن ما يدعون من دونه وهي الأصنام باطل لا يشوبه حق فهو قادر على أن يتصرف في تكوين الأشياء وأن يحكم لها وعليها بما شاء.
- وإما بمعنى أنه تعالى حق بحقيقة معنى الكلمة مستقلا بذلك لا حق غيره إلا ما حققه هو، وأن ما يدعون من دونه وهي الأصنام بل كل ما يركن إليه ويدعى للحاجة من دون الله هو الباطل لا غيره إذ مصداق غيره هو الله سبحانه فافهم ذلك، وإنما كان باطلا إذ كان لا حقية له باستقلاله.

ب. والمعنى، على أي تقدير، أن ذلك التصرف في التكوين والتشريع من الله سبحانه بسبب أنه تعالى حق يتحقق بمشيته كل حق غيره، وأن آلهتهم من دون الله وكل ما يركن إليه ظالم باغ من دونه باطل لا يقدر على شيء.

٣. ﴿وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ علوه تعالى بحيث يعلو ولا يعلى عليه وكبره بحيث لا يصغر لشيء بالهوان والمذلة من فروع كونه حقا أي ثابتا لا يعرضه زوال وموجودا لا يمسه عدم.

٤. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ استشهاد على عموم القدرة المشار إليها آنفا بإنزال الماء من السماء، والمراد بها جهة العلو، وصيرورة الأرض بذلك مخضرة.

٥. ﴿إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ تعليل لجعل الأرض مخضرة بإنزال الماء من السماء فتكون نتيجة هذا التعليل وذاك الاستشهاد كأنه قيل: إن الله ينزل كذا فيكون كذا لأنه لطيف خبير وهو يشهد بعموم قدرته.

٦. ﴿لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ظاهره أنه خبر بعد خبر لأن فهو تتمة التعليل في الآية السابقة كأنه قيل: إن الله لطيف خبير مالك لما في السماوات وما في الأرض يتصرف في ملكه كما يشاء بلطف وخبرة، ويمكن أن يكون استئنافا يفيد تعليلا باستقلاله.

٧. ﴿وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ يفيد عدم حاجته إلى شيء من تصرفاته بما هو غني على الإطلاق وهي مع ذلك جميلة نافعة يحمد عليها بما هو حميد على الإطلاق فمفاد الاسمين معا أنه تعالى لا يفعل إلا ما هو نافع لكن لا يعود نفعه إليه بل إلى الخلق أنفسهم.

٣٦. تسخير الأرض والفلك وإمساك السماء برأفة الله:

المقطع [٣٦] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٤٠٣»:

١. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ﴾، استشهاد آخر على عموم القدرة، والمقابلة بين تسخير ما في الأرض وتسخير الفلك في البحر يؤيد أن المراد بالأرض البر مقابل البحر، وعلى هذا فتعقيب الجملتين بقوله: ﴿وَيُمْسِكُ السَّماءَ﴾، يعطي أن محصل المراد أن الله سخر لكم ما في السماء والأرض برها وبحرها.

٢. والمراد بالسماء جهة العلو وما فيها فالله يمسكها أن تقع على الأرض إلا بإذنه مما يسقط من الأحجار السماوية والصواعق ونحوها.

٣. وقد ختم الآية بصفتي الرأفة والرحمة تتميما للنعمة وامتنانا على الناس.

٣٧. الله والإحياء والإماتة:

المقطع [٣٧] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٤٠٣»:

١. ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ﴾ سياق الماضي في ﴿أَحْياكُمْ﴾ يدل على أن المراد به الحياة الدنيا وأهمية المعاد بالذكر تستدعي أن يكون المراد من قوله: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ الحياة الآخرة يوم البعث دون الحياة البرزخية.

٢. وهذه الحياة ثم الموت ثم الحياة من النعم الإلهية العظمى ختم بها الامتنان ولذا عقبها بقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ﴾

٣٨. المناسك والجدال والهدى والعلم:

المقطع [٣٨] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [الحج: ٦٧-٧١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٤٠٥»:

١. ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾:

أ. المنسك مصدر ميمي بمعنى النسك وهو العبادة ويؤيده قوله: ﴿هُمْ ناسِكُوهُ﴾ أي يعبدون تلك العبادة، وليس اسم مكان كما احتمله بعضهم.

ب. والمراد بكل أمة هي الأمة بعد الأمة من الأمم الماضين حتى تنتهي إلى هذه الأمة دون الأمم المختلفة الموجودة في زمانه ﷺ كالعرب والعجم والروم لوحدة الشريعة وعموم النبوة.

٢. ﴿فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾:

أ. نهي للكافرين بدعوة النبي ﷺ عن منازعته في المناسك التي أتى بها وهم وإن كانوا لا يؤمنون بدعوته ولا يرون لما أتى به من الأوامر والنواهي وقعا يسلمون له ولا أثر لنهي من لا يسلم للناهي طاعة ولا مولوية لكن هذا النهي لما كان معتمدا على الحجة لم يصر لغوا لا أثر له وهي صدر الآية.

ب. فكأن الكفار من أهل الكتاب أو المشركين لما رأوا من عبادات الإسلام ما لا عهد لهم به في الشرائع السابقة كشريعة اليهود مثلا نازعوه في ذلك من أين جئت به ولا عهد به في الشرائع السابقة ولو كان من شرائع النبوة لعرفه المؤمنين من أمم الأنبياء الماضين؟ فأجاب الله سبحانه عن منازعتهم بما في الآية.

ج. ومعناها أن كلا من الأمم كان لهم منسك هم ناسكوه وعبادة يعبدونها ولا يتعداهم إلى غيرهم لما أن الله سبحانه بدل منسك السابقين مما هو أحسن منه في حق اللاحقين لتقدمهم في الرقي الفكري واستعدادهم في اللاحق لما هو أكمل وأفضل من السابق فالمناسك السابقة منسوخة في حق اللاحقين فلا

معنى لمنازعة النبي ﷺ فيما جاء به من المنسك المغاير لمناسك الأمم الماضين.

د. ولما كان نهيهم عن منازعته ﷺ في معنى أمره بطيب النفس من قبل نزاعهم ونهيه عن الاعتناء به عطف عليه قوله: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ كأنه قيل: طب نفسا ولا تعبأ بمنازعتهم واشتغل بها أمرت به وهو الدعوة إلى ربك.

هـ. وعلل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هُدىً مُسْتَقِيمٍ﴾ وتوصيف الهدى بالاستقامة وهي وصف الصراط الذي إليه الهداية من المجاز العقلي.

٣. ﴿وَإِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ﴾:

أ. سياق الآية السابقة يؤيد أن المراد بهذا الجدال المجادلة والمراء في أمر اختلاف منسكه ﷺ مع الشرائع السابقة بعد الاحتجاج عليه بنسخ الشرائع، وقد أمر ﷺ بإرجاعهم إلى حكم الله من غير أن يشتغل بالمجادلة معهم بمثل ما يجادلون.

ب. وقيل: المراد بقوله: ﴿إِنْ جادَلُوكَ﴾ مطلق الجدال في أمر الدين، وقيل: الجدال في أمر الذبيحة والسياق السابق لا يساعد عليه.

٤. ﴿فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ﴾ توطئة وتمهيد إلى إرجاعهم إلى حكم الله أي الله أعلم بعملكم ويحكم حكم من يعلم بحقيقة الحال، وإنما يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون وتخالفون الحق وأهله، والاختلاف والتخالف بمعنى كالاستباق والتسابق ـ.

٥. ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذلِكَ فِي كِتابٍ إِنَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ تعليل لعلمه تعالى بما يعملون أي إن ما يعملون بعض ما في السماء والأرض وهو يعلم جميع ما فيهما فهو يعلم بعملهم.

٦. ﴿إِنَّ ذلِكَ فِي كِتابٍ﴾ تأكيد لما تقدمه أي إن ما علمه من شيء مثبت في كتاب فلا يزول ولا ينسى ولا يسهو فهو محفوظ على ما هو عليه حين يحكم بينهم، وقوله: ﴿إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ أي ثبت ما يعلمه في كتاب محفوظ هين عليه.

٧. ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾:

أ. الباء في ﴿بِهِ﴾ بمعنى مع، والسلطان البرهان والحجة والمعنى ويعبد المشركون من دون الله شيئا،

وهو ما اتخذوه شريكا له تعالى، لم ينزل الله معه حجة حتى يأخذوها ويحتجوا بها ولا أن لهم به علما.

ب. قيل: إنما أضاف قوله: ﴿وَما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ على قوله: ﴿ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً﴾ لأن الإنسان قد يعلم أشياء من غير حجة ودليل كالضروريات.

ج. وربما فسر نزول السلطان بالدليل السمعي ووجود العلم بالدليل العقلي أي يعبدون من دون الله ما لم يقم عليه دليل من ناحية الشرع ولا العقل، وفيه أنه لا دليل عليه وتنزيل السلطان كما يصدق على تنزيل الوحي على النبي كذلك يصدق على تنزيل البرهان على القلوب.

٨. ﴿وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾:

أ. قيل: هو تهديد للمشركين والمراد أنه ليس لهم ناصر ينصرهم فيمنعهم من العذاب.

ب. والظاهر، على ما يعطيه السياق، أنه في محل الاحتجاج على أن ليس لهم برهان على شركائهم ولا علم، بأنه لو كان لهم حجة أو علم لكان لهم نصير ينصرهم إذ البرهان نصير لمن يحتج به والعلم نصير للعالم لكنهم ظالمون وما للظالمين من نصير فليس لهم برهان ولا علم، وهذا من ألطف الاحتجاجات القرآنية.

٣٩. الآيات والمنكرون:

المقطع [٣٩] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٤٠٧»:

١. ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكادُونَ يَسْطُونَ﴾:

أ. المنكر مصدر ميمي بمعنى الإنكار، والمراد بمعرفة الإنكار في وجوههم معرفة أثر الإنكار والكراهة، و﴿يَسْطُونَ﴾ من السطوة وهي على ما في مجمع البيان: (إظهار الحال الهائلة للإخافة يقال سطا عليه يسطو سطوة وسطاعة والإنسان مسطو عليه، والسطوة والبطشة بمعنى)

ب. والمعنى: وإذا تتلى عليهم آياتنا والحال أنها واضحات الدلالة تعرف وتشهد في وجوه الذين كفروا أثر الإنكار يقربون من أن يبطشوا على الذين يتلون ويقرءون عليهم آياتنا لما يأخذهم من الغيظ.

٢. ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ﴾ تفريع على إنكارهم وتحرزهم من استماع القرآن أي قل:

أفأخبركم بما هو شر من هذا الذي تعدونه شرا تحترزون منه وتتقون أن تسمعوه أفأخبركم به لتتقوه إن كنتم تتقون.

٣. ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ بيان للشر أي ذلكم الذي هو شر من هذا هي النار، وقوله: ﴿وَعَدَهَا اللهُ﴾ بيان لكونه شرا.

٤٠. عجز المعبودين عن خلق ذباب وضعف الطالب والمطلوب:

المقطع [٤٠] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٤٠٨»:

١. ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾:

أ. خطاب للناس جميعا والعناية بالمشركين منهم.

ب. ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ المثل هو الوصف الذي يمثل الشيء في حالة سواء كان وصفا محققا واقعا أو مقدرا متخيلا كالأمثال التي تشتمل على محاورات الحيوانات والجمادات ومشافهاتها، وضرب المثل نصبه ليتفكر فيه كضرب الخيمة ليسكن فيها.

ج. وهذا المثل هو قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ والمعنى أنه لو فرض أن آلهتهم شاءوا أن يخلقوا ذبابا وهو أضعف الحيوانات عندهم لم يقدروا عليه أبدا وإن يسلبهم الذباب شيئا مما عليهم لا يستنقذوه بالانتزاع منه، فهذا الوصف يمثل حال آلهتهم من دون الله في قدرتهم على الإيجاد وعلى تدبير الأمر حيث لا يقدرون على خلق ذباب وعلى تدبير أهون الأمور وهو استرداد ما أخذه الذباب منهم وأضرهم بذلك وكيف يستحق الدعوة والعبادة من كان هذا شأنه؟

٢. ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾:

أ. مقتضى المقام أن يكون المراد بالطالب الآلهة وهي الأصنام المدعوة فإن المفروض أنهم يطلبون خلق الذباب فلا يقدرون واستنقاذ ما سلبه إياهم فلا يقدرون، والمطلوب الذباب حيث يطلب ليخلق

ويطلب ليستنقذ منه.

ب. وفي هذه الجملة بيان غاية ضعفهم فإنهم أضعف من أضعف ما يستضعفه الناس من الحيوانات التي فيها شيء من الشعور والقدرة.

٣. ﴿ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾:

أ. قدر الشيء هندسته وتعيين كميته ويكنى به عن منزلة الشيء التي تقتضيها أوصافه ونعوته يقال: قدر الشيء حق قدره أي نزله المنزلة التي يستحقها وعامله بما يليق به.

ب. وقدره تعالى حق القدر أن يلتزم بما يقتضيه صفاته العليا ويعامل كما يستحقه بأن يتخذ ربا لا رب غيره ويعبد وحده لا معبود سواه لكن المشركين ما قدروه حق قدره إذ لم يتخذوه ربا ولم يعبدوه بل اتخذوا الأصنام أربابا من دونه وعبدوها دونه وهم يرون أنها لا تقدر على خلق ذباب ويمكن أن يستذلها ذباب فهي من الضعف والذلة في نهايتها، والله سبحانه هو القوي العزيز الذي إليه ينتهي الخلق والأمر وهو القائم بالإيجاد والتدبير.

ج. فقوله: ﴿ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ إشارة إلى عدم التزامهم بربوبيته تعالى وإعراضهم عن عبادته ثم اتخاذهم الأصنام أربابا من دونه يعبدونها خوفا وطمعا دونه تعالى.

٤. ﴿إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ تعليل للنفي السابق وقد أطلق القوة والعزة فأفاد أنه قوي لا يعرضه ضعف وعزيز لا تعتريه ذلة كما قال: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال: ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾ [النساء: ١٣٩]، وإنما خص الاسمين بالذكر لمقابلتهما ما في المثل المضروب من صفة آلهتهم وهو الضعف والذلة فهؤلاء استهانوا أمر ربهم إذ عدلوا بينه تعالى وهو القوي الذي يخلق ما يشاء والعزيز الذي لا يغلبه شيء ولا يستذله من سواه وبين الأصنام والآلهة الذين يضعفون من خلق ذباب ويستذلهم ذباب ثم لم يرضوا بذلك حتى قدموهم عليه تعالى فاتخذوهم أربابا يعبدونهم دونه تعالى.

٤١. اصطفاء الرسل من الملائكة والناس:

المقطع [٤١] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الحج: ٧٥-٧٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٤٠٩»:

١. ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾:

أ. الاصطفاء أخذ صفوة الشيء وخالصته، قال الراغب: (الاصطفاء تناول صفو الشيء كما أن الاختيار تناول خيره والاجتباء تناول جبايته)

ب. فاصطفاء الله تعالى من الملائكة رسلا ومن الناس اختياره من بينهم من يصفو لذلك ويصلح.

ج. وهذه الآية والتي بعدها تبينان وجوب جعل الرسالة وصفتها وصفة الرسل وهي العصمة، وللكلام فيها بعض الاتصال بقوله السابق: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ﴾ لإنبائه عن الرسالة.

د. تبين الآية أولا أن لله رسلا من الملائكة ومن الناس، وثانيا أن هذه الرسالة ليست كيفما اتفقت وممن اتفق بل هي بالاصطفاء وتعيين من هو صالح لذلك.

٢. ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾:

أ. تعليل لأصل الإرسال فإن الناس أعني النوع الإنساني يحتاج حاجة فطرية إلى أن يهديهم الله سبحانه نحو سعادتهم وكمالهم المطلوب من خلقهم كسائر الأنواع الكونية فالحاجة نحو الهداية عامة، وظهور الحاجة فيهم وإن شئت فقل: إظهارهم الحاجة من أنفسهم سؤال منهم واستدعاء لما ترتفع به حاجتهم والله سبحانه سميع بصير يرى ببصره ما هم عليه من الحاجة الفطرية إلى الهداية ويسمع بسمعه سؤالهم ذلك.

ب. فمقتضى سمعه وبصره تعالى أن يرسل إليهم رسولا ويهديهم به إلى سعادتهم التي خلقوا لنيلها والتلبس بها فما كل الناس بصالحين للاتصال بعالم القدس وفيهم الخبيث والطيب والطالح والصالح، والرسول رسولان رسول ملكي يأخذ الوحي منه تعالى ويؤديه إلى الرسول الإنساني ورسول إنساني يأخذ الوحي من الرسول الملكي ويلقيه إلى الناس وبالجملة قوله: ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ يتضمن الحجة على لزوم أصل الإرسال، وأما معنى الاصطفاء والحجة على لزومه فهو ما يشير إليه قوله: ﴿يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ﴾

٣. ﴿يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾:

أ. ظاهر السياق أن ضمير الجمع في الموضعين للرسل من الملائكة والناس، ويشهد وقوع هذا التعبير فيهم في غير هذا الموضع كقوله تعالى حكاية عن ملائكة الوحي: ﴿وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ ما

بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا﴾ الآية: [مريم: ٦٤]، وقوله: ﴿فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ﴾ [الجن: ٢٨]

ب. والآية، كما ترى، تنادي بأن ذكر علمه بما بين أيديهم وما خلفهم لدلالة على أنه تعالى مراقب للطريق الذي يسلكه الوحي فيما بينه وبين الناس حافظ له أن يختل في نفسه بنسيان أو تغيير أو يفسد بشيء من مكائد الشياطين وتسويلاتهم كل ذلك لأن حملة الوحي من الرسل بعينه وبمشهد منه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وهو بالمرصاد.

ج. ومن هنا يظهر أن المراد بما بين أيديهم هو ما بينهم وبين من يؤدون إليه فما بين أيدي الرسول الملكي هو ما بينه وبين الرسول الإنساني وما بين يدي الرسول الإنساني هو ما بينه وبين الناس، والمراد بما خلفهم هو ما بينهم وبين الله سبحانه والجميع سائرون من جانب الله إلى الناس.

د. فالوحي في مأمن إلهي منذ يصدر من ساحة العظمة والكبرياء إلى أن يبلغ الناس ولازمه أن الرسل معصومون في تلقي الوحي ومعصومون في حفظه ومعصومون في إبلاغه للناس.

٤. ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ في مقام التعليل لعلمه بما بين أيديهم وما خلفهم أي كيف يخفى عليه شيء من ذلك؟ وإليه يرجع جميع الأمور وإذ ليس هذا الرجوع رجوعا زمانيا حتى يجوز معه خفاء حاله قبل الرجوع وإنما هو مملوكية ذاته له تعالى فلا استقلال له منه ولا خفاء فيه له فافهم ذلك.

٤٢. الركوع والسجود والجهاد في الله:

المقطع [٤٢] من سورة الحج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٧ـ٧٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤/ ٤١١»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾:

أ. الأمر بالركوع والسجود أمر بالصلاة ومقتضى المقابلة أن يكون المراد بقوله: ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾

الأمر بسائر العبادات المشرعة في الدين كالحج والصوم ويبقى لقوله: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ سائر الأحكام والقوانين المشرعة فإن في إقامتها والعمل بها خير المجتمع وسعادة الأفراد وحياتهم كما قال: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]

ب. وفي الآية أمر بإجماع الشرائع الإسلامية من عبادات وغيرها.

٢. ﴿وَجاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ﴾:

أ. الجهاد بذل الجهد واستفراغ الوسع في مدافعة العدو، ويطلق في الأكثر على المدافعة بالقتال لكن ربما يتوسع في معنى العدو حتى يشمل كل ما يتوقع منه الشر كالشيطان الذي يضل الإنسان والنفس الأمارة بالسوء وغير ذلك فيطلق اللفظ على مخالفة النفس في هواها والاجتناب عن طاعة الشيطان في وسوسته، وقد سمى النبي ﷺ مخالفة النفس جهادا أكبر.

ب. والظاهر أن المراد بالجهاد في الآية هو المعنى الأعم وخاصة بالنظر إلى تقييده بقوله: ﴿فِي اللهِ﴾ وهو كل ما يرجع إليه تعالى، ويؤيده أيضا قوله: ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾ [العنكبوت: ٦٩]

ج. وعلى ذلك فمعنى كون الجهاد فيه حق جهاده أن يكون متمحضا في معنى الجهاد ويكون خالصا لوجهه الكريم لا يشاركه فيه غيره نظير تقوى الله حق تقواه في قوله: ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٢٤]

٣. ﴿هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾:

أ. امتنان منه تعالى على المؤمنين بأنهم ما كانوا لينالوا سعادة الدين من عند أنفسهم وبحولهم غير أن الله من عليهم إذ وفقهم فاجتباهم وجمعهم للدين، ورفع عنهم كل حرج في الدين امتنانا سواء كان حرجا في أصل الحكم أو حرجا طارئا عليه اتفاقا فهي شريعة سهلة سمحة ملة أبيهم إبراهيم الحنيف الذي أسلم لربه.

ب. وإنما سمي إبراهيم أبا المسلمين لأنه عليه السلام أول من أسلم لله كما قال تعالى: ﴿إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، وقال حاكيا عنه عليه السلام: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦] فنسب اتباعه إلى نفسه، وقال أيضا: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، ومراده ببنيه المسلمون دون المشركين قطعا وقال: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهذَا النَّبِيُّ

وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: ٦٨]

٤. ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هذا﴾ امتنان ثان منه تعالى على المؤمنين بعد الامتنان بقوله: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ فالضمير له تعالى وقوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل نزول القرآن وقوله: ﴿وَفِي هذا﴾ أي وفي هذا الكتاب وفي امتنانه عليهم بذكر أنه سماهم المسلمين دلالة على قبوله تعالى إسلامهم.

٥. ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ﴾ المراد به شهادة الأعمال وقد تقدم الكلام في معنى الآية في سورة البقرة [الآية: ١٤٣] وغيرها وفي الآية تعليل ما تقدم من حديث الاجتباء ونفي الحرج وتسميتهم مسلمين.

٦. ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ﴾ تفريع على جميع ما تقدم مما امتن به عليهم أي فعلى هذا يجب عليكم أن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة، وهو إشارة إلى العمل بالأحكام العبادية والمالية، وتعتصموا بالله في جميع الأحوال فأتمروا بكل ما أمر به وتنتهوا عن جميع ما نهى عنه ولا تنقطعوا عنه في حال لأنه مولاكم وليس للعبد أن ينقطع عن مولاه في حال ولا للإنسان الضعيف أن ينقطع عن ناصره، بوجه على الاحتمالين في معنى المولى ـ فقوله: ﴿هُوَ مَوْلاكُمْ﴾ في مقام التعليل لما قبله من الحكم، وقوله: ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ كلمة مدح له تعالى وتطييب لنفوس المؤمنين وتقوية لقلوبهم بأن مولاهم ونصيرهم هو الله الذي لا مولى غيره ولا نصير سواه.

٧. واعلم أن الذي أوردناه من معنى الاجتباء وكذا الإسلام وغيره في الآية:

أ. هو الذي ذكره جل المفسرين بالبناء على ظاهر الخطاب بيا أيها الذين آمنوا في صدر الكلام وشموله عامة المؤمنين وجميع الأمة.

ب. وقد بينا غير مرة أن الاجتباء بحقيقة معناه يساوق جعل العبد مخلصا، بفتح اللام، مخصوصا بالله لا نصيب لغيره تعالى فيه، وهذه صفة لا توجد إلا في آحاد معدودين من الأمة دون الجميع قطعا، وكذا الكلام في معنى الإسلام والاعتصام، والمعنى بحقيقته مراد في الكلام قطعا.

ج. وعلى هذا فنسبة الاجتباء والإسلام والشهادة إلى جميع الأمة توسع من جهة اشتمالهم على من يتصف بهذه الصفات بحقيقتها نظير قوله في بني إسرائيل: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً﴾ [المائدة: ٢٠]، وقوله فيهم: ﴿وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦] ونظائره كثيرة في القرآن.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن بريد العجلي قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا، وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، وَجاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ﴾ قال: إيانا عنى ونحن المجتبون، ولم يجعل الله تبارك وتعالى لنا في الدين من حرج، فالحرج أشد من الضيق، ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ﴾ إيانا عنى خاصة ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ الله عز وجل سمانا المسلمين ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في الكتب التي مضت ﴿وَفِي هذا﴾ القرآن ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ، وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ﴾ فرسول الله ﷺ الشهيد علينا، بما بلغنا عن الله تبارك وتعالى، ونحن الشهداء على الناس يوم القيامة، فمن صدق يوم القيامة صدقناه، ومن كذب كذبناه.

• أقول: والروايات من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليه السلام في هذا المعنى كثيرة، وقد تقدم في ذيل الآية ما يتضح به معنى هذه الروايات.

ب. أخرج ابن جرير وابن مردويه والحاكم وصححه عن عائشة: أنها سألت النبي ﷺ عن هذه الآية ﴿وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ قال: الضيق.

ج. وفي التهذيب، بإسناده عن عبد الأعلى مولى آل سام قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: عثرت فانقطع ظفري، فجعلت على إصبعي مرارة كيف أصنع بالوضوء؟ قال: يعرف هذا وأشباهه من كتاب الله عز وجل، قال الله: ﴿ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ امسح عليه.

• أقول: وفي معناها روايات أخر تستشهد بالآية في رفع الحكم الحرجي وفي التمسك بالآية في الحكم دلالة على صحة ما قدمناه في معنى الآية.

د. أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وإسحاق بن راهويه في مسنده عن مكحول أن النبي ﷺ قال: تسمي الله باسمين سمى بهما أمتي، هو السلام وسمى أمتي المسلمين، وهو المؤمن وسمى أمتي المؤمنين.

سورة المؤمنون

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٣٤] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. في السورة دعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وتمييز المؤمنين من الكفار بذكر ما لهؤلاء من جميل صفات العبودية، وما لأولئك من رذائل الأخلاق وسفاسف الأعمال.

ب. وتعقيب ذلك بالتبشير والإنذار، وقد تضمن الإنذار ذكر عذاب الآخرة، وما غشي الأمم المكذبين للدعوة الحقة من عذاب الاستئصال في مسير الدعوة، آخذاً من زمن نوح إلى زمن المسيح عيسى بن مريم عليه السلام.

ج. والسورة مكية، وسياق آياتها يشهد بذلك.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١١] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر صفات المؤمنين المفلحين: من الخشوع في الصلاة، والإعراض عن اللغو، وإيتاء الزكاة، وحفظ الفروج، والوفاء بالعهود، والمحافظة على الصلوات، وأولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس.

٢. الآيات [١٢ ـ ٢٢] لما ذكر سبحانه فلاح المؤمنين بما عندهم من الأوصاف الجميلة، عقبه بشرح خلقهم وخلق ما أنعم عليهم من النعم، مقروناً بتدبير أمرهم تدبيراً مخلوطاً بالخلق، لينكشف به أنه هو رب للإنسان ولكل شيء، الواجب أن يعبد وحده لا شريك له.

٣. الآيات [٢٣ ـ ٥٤]:

أ. بعد ما عد نعمه العظام على الناس، عقبه في هذه الآيات بذكر دعوتهم إلى توحيد عبادته من طريق الرسالة، وقص إجمال دعوة الرسل من لدن نوح إلى عيسى بن مريم عليه السلام.

ب. ولم يصرح من أسمائهم إلا باسم نوح ـ وهو أول الناهضين لدعوة التوحيد ـ واسم موسى وعيسى عليه السلام وهما في آخرهم، وأبهم أسماء الباقين، غير أنه صرح باتصال الدعوة وتواتر الرسل، وأن الناس لم يستجيبوا إلا بالكفر بآيات الله والكفران لنعمه.

٤. الآيات [٥٥ ـ ٧٧]:

أ. الآيات متصلة بقوله السابق: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾، فإنه لما عقب قصص الرسل باختلاف الناس في أمر الدين وتحزبهم أحزاباً، كل حزب بما لديهم فرحون، أوعدهم بعذاب مؤجل لا مناص لهم عنه ولا مخلص منه، فليتيهوا في غمرتهم ما شاءوا، فسيغشاهم العذاب ولا محالة.

ب. فنبههم في هذه الآيات أن توهمهم أن ما مدهم الله به من مال وبنين مسارعة لهم في الخيرات، خطأ منهم وجهل بحقيقة الحال، ولو كان ذلك من الخير لم يأخذ العذاب مترفيهم، بل المسارعة في الخيرات هو ما وفق الله المؤمنين له من الأعمال الصالحة وما يترتب عليها من جزيل الأجر وعظيم الثواب في الدنيا والآخرة، فهم يسارعون إليها فيسارع لهم فيها.

ج. فالعذاب مدركهم لا محالة، والحجة تامة عليهم، ولا عذر لهم يعتذرون به: كعدم تدبر القول، أو كون الدعوة بدعاً لا سابقة له، أو عدم معرفة الرسول، أو كونه مجنوناً مختل القول، أو سؤاله منهم خراجاً، بل هم أهل عناد ولجاج، لا يؤمنون بالحق حتى يأتيهم عذاب لا مرد له.

٥. الآيات [٧٨ ـ ٩٨]:

أ. لما أوعدهم بعذاب شديد لا مرد له ولا مخلص منه، ورد عليهم كل عذر يمكنهم أن يعتذروا به، وبين أن السبب الوحيد لكفرهم بالله واليوم الآخر هو اتباع الهوى وكراهة اتباع الحق.

ب. تمم البيان بإقامة الحجة على توحده في الربوبية وعلى رجوع الخلق إليه، بذكر آيات بينة لا سبيل للإنكار إليها.

ج. وعقب ذلك بأمر النبي ﷺ أن يستعيذ به من أن يشمله العذاب الذي أوعدوا به، وأن يعوذ به من همزات الشيطان، وأن يحضروه كما فعلوا بهم.

٦. الآيات [٩٩ ـ ١١٨]:

أ. الآيات تفصل القول في عذاب الآخرة التي أوعدهم الله بها في طي الآيات السابقة، وهو من يوم الموت إلى يوم البعث ثم إلى الأبد.

ب. وتذكر أن الحياة الدنيا التي غرتهم وصرفتهم عن الآخرة قليلة لو كانوا يعلمون.

ج. ثم تختم السورة بأمره ﷺ أن يسأله ما حكاه عن عباده المؤمنين الفائزين في الآخرة: ﴿رَبِّ اغْفِرْ

وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾، وقد افتتحت السورة بأنهم مفلحون وارثون للجنة.

١. فلاح المؤمنين بخشوعهم في الصلاة:

المقطع [١] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٦»:

١. ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾:

أ. قال الراغب: (الفلح، بالفتح فالسكون، الشق، وقيل: الحديد بالحديد يفلح أي يشق، والفلاح الظفر وإدراك بغية وذلك ضربان: دنيوي وأخروي، فالدنيوي الظفر بالسعادات التي تطيب بها الحياة الدنيا وهو البقاء والغنى والعز، والأخروي أربعة أشياء: بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعز بلا ذل، وعلم بلا جهل، ولذلك قيل: لا عيش إلا عيش الآخرة)، فتسمية الظفر بالسعادة فلاحا بعناية أن فيه شقا للمانع وكشفا عن وجه المطلوب.

ب. والإيمان هو الإذعان والتصديق بشيء بالالتزام بلوازمه، فالإيمان بالله في عرف القرآن التصديق بوحدانيته ورسله واليوم الآخر وبما جاءت به رسله مع الاتباع في الجملة، ولذا نجد القرآن كلما ذكر المؤمنين بوصف جميل أو أجر جزيل شفع الإيمان بالعمل الصالح كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وقوله) ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد: ٢٩]، إلى غير ذلك من الآيات وهي كثيرة جدا.

ج. وليس مجرد الاعتقاد بشيء إيمانا به حتى مع عدم الالتزام بلوازمه وآثاره فإن الإيمان علم بالشيء مع السكون والاطمئنان إليه ولا ينفك السكون إلى الشيء من الالتزام بلوازمه لكن العلم ربما ينفك من السكون والالتزام ككثير من المعتادين بالأعمال الشنيعة أو المضرة فإنهم يعترفون بشناعة عملهم أو ضرره لكنهم لا يتركونها معتذرين بالاعتياد وقد قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]

د. والإيمان وإن جاز أن يجتمع مع العصيان عن بعض لوازمه في الجملة لصارف من الصوارف النفسانية يصرف عنه لكنه لا يتخلف عن لوازمه بالجملة.

٢. ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ﴾:

أ. الخشوع تأثر خاص من المقهور قبال القاهر بحيث ينقطع عن غيره بالتوجه إليه والظاهر أنه من صفات القلب ثم ينسب إلى الجوارح أو غيرها بنوع من العناية كقوله ﷺ، على ما روي:، فيمن يعبث بلحيته في الصلاة: أما إنه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه، وقوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ [طه: ١٠٨]

ب. والخشوع بهذا المعنى جامع لجميع المعاني التي فسر بها الخشوع في الآية، كقول بعضهم: هو الخوف وسكون الجوارح، وقول آخرين: غض البصر وخفض الجناح، أو تنكيس الرأس، أو عدم الالتفات يمينا وشمالا، أو إعظام المقام وجمع الاهتمام، أو التذلل إلى غير ذلك.

ج. وهذه الآية إلى تمام ثماني آيات تذكر من أوصاف المؤمنين ما يلازم كون وصف الإيمان حيا فعالا يترتب عليه آثاره المطلوبة منه ليترتب عليه الغرض المطلوب منه وهو الفلاح فإن الصلاة توجه ممن ليس له إلا الفقر والذلة إلى ساحة العظمة والكبرياء ومنبع العزة والبهاء ولازمه أن يتأثر الإنسان الشاعر بالمقام فيستغرق في الذلة والهوان وينتزع قلبه عن كل ما يلهوه ويشغله عما يهمه ويواجهه، فلو كان إيمانه إيمانا صادقا جعل همه حين التوجه إلى ربه هما واحدا وشغله الاشتغال به عن الالتفات إلى غيره فما ذا يفعل الفقير المحض إذا لقي غني لا يقدر بقدر؟ والذليل إذا واجه عزة مطلقة لا يشوبها ذلة وهوان؟

د. وهذا معنى قوله ﷺ في حديث حارثة بن النعمان المروي في الكافي، وغيره: إن لكل حق حقيقة ولكل صواب نورا، الحديث.

٣. وضع هنا مبحثا حول [معنى تأثير الإيمان]، خلاصته:

أ. الدين هو السنة الاجتماعية التي يسير بها الإنسان في حياته الدنيوية الاجتماعية، والسنن الاجتماعية متعلقة بالعمل مبنية على أساس الاعتقاد في حقيقة الكون والإنسان، فتختلف السنن باختلاف الاعتقادات: فمن يثبت لله رباً ومعاداً يسير لسعادة الآخرة، ومن لا يثبت ذلك يبني سنته على التمتع من الحياة الدنيا.

ب. الدين سنة عملية مبنية على الاعتقاد، لكن الاعتقاد النظري لا يستتبع بنفسه عملاً، بل لا بد من العلم العملي (الحكم بوجوب اتباع المعلوم النظري والالتزام به)، كقولنا: (يجب أن يعبد الإنسان الإله ويراعي ما يسعده في الدنيا والآخرة)

ج. الإيمان الذي تتعلق به الدعوة هو الالتزام بما يقتضيه الاعتقاد الحق في الله ورسله واليوم الآخر، وهو علم عملي.

د. العلوم العملية تشتد وتضعف حسب قوة الدواعي وضعفها، فالإنسان لا يعمل عملاً إلا طمعاً في خير أو خوفاً من شر، وربما صرفه داع أقوى عن داع أضعف، كمن يرى وجوب الأكل لكن علمه بأنه مضر يصرفه عنه.

هـ. الإيمان بالله إنما يؤثر أثره من الأعمال الصالحة والصفات الجميلة إذا لم تغلبه الدواعي الباطلة والتسويلات الشيطانية، أي إذا لم يكن إيماناً مقيداً بحال دون حال، فالمؤمن المطلق هو من تجري أعماله على حاق ما يقتضيه إيمانه من الخشوع والإعراض عن اللغو.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي وقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ﴾ قال: غضك بصرك في صلاتك وإقبالك عليها.

• أقول: وقد تقدم أنه من لوازم الخشوع فهو تعريف بلازم المعنى، ونظيره ما رواه في الدر المنثور، عن عدة من أصحاب الجوامع عن علي عليه السلام: أن لا تلتفت في صلاتك.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن مسمع بن عبد الملك عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: ما زاد خشوع الجسد على ما في القلب فهو عندنا نفاق.

• أقول: وروي في الدر المنثور، عن عدة من أصحاب الجوامع عن أبي الدرداء عنه ﷺ ما في معناه ولفظه: استعيذوا بالله من خشوع النفاق، قيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعا والقلب ليس بخاشع.

ج. وفي المجمع في الآية روي أن النبي ﷺ رأى رجلا يعبث بلحيته في صلاته فقال: أما إنه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه.

د. وفيه، روي: أن رسول الله ﷺ كان يرفع بصره إلى السماء في صلاته، فلما نزلت الآية طأطأ رأسه ورمى ببصره إلى الأرض.

• أقول: ورواهما في الدر المنثور، عن جمع من أصحاب الكتب عنه ﷺ، وفي معنى الخشوع روايات

أخر كثيرة.

٢. الإعراض عن اللغو وإيتاء الزكاة:

المقطع [٢] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٣-٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٩»:

١. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾:

أ. اللغو من الفعل هو ما لا فائدة فيه ويختلف باختلاف الأمور التي تعود عليها الفائدة فرب فعل هو لغو بالنسبة إلى أمر وهو بعينه مفيد مجد بالنسبة إلى أمر آخر.

ب. فاللغو من الأفعال في نظر الدين الأعمال المباحة التي لا ينتفع بها في الآخرة أو في الدنيا بحيث ينتهي أيضا إلى الآخرة كالأكل والشرب بداعي شهوة التغذي اللذين يتفرع عليهما التقوي على طاعة الله وعبادته، فإذا كان الفعل لا ينتفع به في آخرة ولا في دنيا تنتهي بنحو إلى آخرة فهو اللغو وبنظر أدق هو ما عدا الواجبات والمستحبات من الأفعال.

ج. ولم يصف سبحانه المؤمنين بترك اللغو مطلقا فإن الإنسان في معرض العثرة ومزلة الخطيئة وقد عفا عن السيئات إذا اجتنبت الكبائر كما قال: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾ [النساء: ٣١]

د. بل وصفهم بالإعراض عن اللغو دون مطلق تركه والإعراض يقتضي أمرا بالفعل يدعو إلى الاشتغال به فيتركه الإنسان صارفا وجهه عنه إلى غيره لعدم اعتداده به واعتنائه بشأنه، ولازمه ترفع النفس عن الأعمال الخسيسة واعتلاؤها عن الاشتغال بما ينافي الشرف والكرامة وتعلقها بعظائم الأمور وجلائل المقاصد.

هـ. ومن حق الإيمان أن يدعو إلى ذلك فإن فيه تعلقا بساحة العظمة والكبرياء ومنبع العزة والمجد والبهاء والمتصف به لا يهتم إلا بحياة سعيدة أبدية خالدة فلا يشتغل إلا بما يستعظمه الحق ولا يستعظم ما يهتم به سفلة الناس وجهلتهم ﴿وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً﴾، ﴿وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً﴾

٢. ومن هنا يظهر أن وصفهم بالإعراض عن اللغو كناية عن علو همتهم وكرامة نفوسهم.

٣. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ﴾:

أ. ذكر الزكاة مع الصلاة قرينة على كون المراد بها الإنفاق المالي دون الزكاة بمعنى تطهير النفس بإزالة رذائل الأخلاق عنها ولعل المراد بالزكاة المعنى المصدري وهو تطهير المال بالإنفاق منه دون المقدار المخرج من المال فإن السورة مكية وتشريع الزكاة المعهودة في الإسلام إنما كان بالمدينة ثم صار لفظ الزكاة علما بالغلبة للمقدار المعين المخرج من المال.

ب. وبهذا يستصحح تعلق ﴿لِلزَّكَاةِ﴾ بقوله: ﴿فاعِلُونَ﴾ والمعنى: الذين هم فاعلون للإنفاق المالي وأما لو كان المراد بالزكاة نفس المال المخرج لم يصح تعلقه به إذ المال المخرج ليس فعلا متعلقا بفاعل، ولذا قدر بعض من حمل الزكاة على هذا المعنى لفظ التأدية فكان التقدير عنده والذين هم لتأدية الزكاة فاعلون، ولذا أيضا فسر بعضهم الزكاة بتطهير النفس عن الأخلاق الرذيلة فرارا من تعلق ﴿لِلزَّكَاةِ﴾ بقوله: ﴿فاعِلُونَ﴾

ج. وفي التعبير بقوله: ﴿لِلزَّكَاةِ فاعِلُونَ﴾ دون أن يقول للزكاة مؤدون أو ما يؤدي معناه دلالة على عنايتهم بها كقول القائل: إني شارب لمن أمره بشرب الماء فإذا أراد أن يفيد عنايته به قال: إني فاعل.

٤. ومن حق الإيمان بالله أن يدعو إلى هذا الإنفاق المالي فإن الإنسان لا ينال كمال سعادته إلا في مجتمع سعيد ينال فيه كل ذي حق حقه ولا سعادة لمجتمع إلا مع تقارب الطبقات في التمتع من مزايا الحياة وأمتعة العيش، والإنفاق المالي على الفقراء والمساكين من أقوى ما يدرك به هذه البغية.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في إرشاد المفيد، في كلام لأمير المؤمنين عليه السلام: كل قول ليس فيه لله ذكر فهو لغو.

ب. وفي المجمع في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ وروي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أن يتقول الرجل عليك بالباطل أو يأتيك بما ليس فيك، فتعرض عنه لله، وفي رواية أخرى أنه الغناء والملاهي.

• أقول: ما في روايتي المجمع، من قبيل ذكر بعض المصاديق وما في رواية الإرشاد، من التعميم بالتحليل.

٣. حفظ الفروج عن الحرام:

المقطع [٣] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ

﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥-٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٩»:

١. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث، الفروج جمع فرج وهو، على ما قيل، ما يسوء ذكره من الرجال والنساء، وحفظ الفروج كناية عن الاجتناب عن المواقعة سواء كانت زنا أو لواطا أو بإتيان البهائم وغير ذلك.

٢. ﴿إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ استثناء من حفظ الفروج، والأزواج الحلائل من النساء، وما ملكت أيمانهم الجواري المملوكة فإنهم غير ملومين في مس الأزواج الحلائل والجواري المملوكة.

٣. ﴿فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ﴾ تفريع على ما تقدم من الاستثناء والمستثنى منه أي إذا كان مقتضى الإيمان حفظ الفروج مطلقا إلا عن طائفتين من النساء هما الأزواج وما ملكت أيمانهم، فمن طلب وراء ذلك أي مس غير الطائفتين فأولئك هم المتجاوزون عن الحد الذي حده الله تعالى لهم.

٤. وقد تقدم كلام ما فيما يستعقبه الزنا من فساد النوع في ذيل قوله: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَساءَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٣٢]

٥. وضع هنا مبحثا حول [الازدواج والزنا في المنظور الإسلامي]، خلاصته:

أ. الإنسان يسن السنن الاجتماعية أو يضع القوانين لرفع حوائج حياته، والحوائج الأولية (كالتغذي والتناسل) هي أوجب في التوسل إلى رفعها، ومنها حاجة الذكور والإناث إلى النكاح، والمطلوب من ذلك بقاء النسل، وقد جهز الإنسان بغريزة شهوة النكاح للتوسل به إلى ذلك.

ب. سنة الازدواج (تكوين البيت) كانت دائرة في المجتمعات البشرية منذ أقدم عهودها، ولا يضمن بقاء النسل إلا الازدواج، والمدنية الحديثة وضعت الازدواج على أصل الاشتراك في الحياة دون التناسل، لكن هذا البناء لم يبعث على شيوع الازدواج بين الرجال أنفسهم أو النساء أنفسهن، لأنه يخالف الطبيعة الإنسانية.

ج. عمل الزنا هو المزاحم الأكبر لسنة الازدواج، لأنه يصرف غريزة الشهوة عن تكوين البيوت، ويستلزم انهدام البيت وانقطاع النسل، ولذلك استشنعته المجتمعات الدينية والطبيعة، وعدته فاحشة

منكرة.

د. المدنية الحديثة وإن لم تمنع عن الزنا منعاً تاماً، لكنها لا تستحسنه وتحتال لتقليله، وتروج سنة الازدواج وتكثير الأولاد بالجوائز والدرجات، ومع ذلك لا يزال الزنا موجوداً في جميع البلاد، مما يدل على أن سنة الازدواج الدائم لا تفي برفع هذه الحاجة الحيوية.

هـ. الإسلام شفع سنة الازدواج الدائم بسنة الازدواج الموقت (المتعة)، لتسهيل الأمر ورفع محاذير الزنا (كاختلاط المياه، واختلال الأنساب والمواريث، وانهدام البيوت، وانقطاع النسل) بشرط الاختصاص والعدة ولحوق الأولاد، وليس على الرجل فيه كلفة الازدواج الدائم، وهذه من مفاخر الإسلام، لكن ما تغني الآيات عن قوم لا يسمعون.

٦. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى المتعة في ضوء القرآن والسنة وبيان أنها نكاح لا سفاح]، خلاصته:

أ. بيان أن المتعة في الشرع الإسلامي هي نكاح موقت وليست سفاحاً، وأنها كانت معمولاً بها في عهد النبي ﷺ وصدر الإسلام، وشهد بذلك صحابة أجلاء كالزبير بن العوام.

ب. إثبات أن المتمتع بها زوجة في عرف القرآن، وأن آية ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ [النساء: ٢٤] وآيات الإحصان في سورتي المؤمنون والمعارج تشملها، وإلا لزم أن يكون النبي ﷺ قد أباح الزنا، وهو محال.

ج. الرد على من زعم أن المتعة منسوخة بآيات الطلاق والعدة أو بحديث النبي، وبيان أن ما ورد من روايات النهي متهافت ومتناقض، وأن النهي كان من عمر بن الخطاب باجتهاده لا بنسخ شرعي.

د. توضيح أن الزوجية لا تستلزم دوام النكاح، وأن النكاح ينقسم إلى دائم وموقت، لكل منهما أحكامه الخاصة، وأن التناسل حكمة لا علة مدارها التشريع.

هـ. الرد على من زعم أن المتعة تجعل المرأة ملعبة، وبيان أن ذلك يرد على الشارع نفسه، وأن اللذة والدفاع عن الشهوة مشتركة بين الرجل والمرأة.

و. نقد حديث عائشة في تفسير آية الإحصان، وبيان أن فهمها للآية لا يلزم منه تحريم المتعة، لأن المتمتع بها زوجة مشمولة بقوله: ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ﴾

٤. رعاية الأمانات والعهود والمحافظة على الصلوات:

المقطع [٤] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٨-٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١١»:

١. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ﴾:

أ. الأمانة مصدر في الأصل وربما أريد به ما اؤتمن عليه من مال ونحوه، وهو المراد في الآية، ولعل جمعه للدلالة على أقسام الأمانات الدائرة بين الناس، وربما قيل بعموم الأمانات لكل تكليف إلهي اؤتمن عليه الإنسان وما اؤتمن عليه من أعضائه وجوارحه وقواه أن يستعملها فيما فيه رضا الله وما ائتمنه عليه الناس من الأموال وغيرها، ولا يخلو من بعد بالنظر إلى ظاهر اللفظ وإن كان صحيحا من جهة تحليل المعنى وتعميمه.

ب. والعهد بحسب عرف الشرع ما التزم به بصيغة العهد شقيق النذر واليمين، ويمكن أن يراد به مطلق التكليف المتوجه إلى المؤمن فإن الله سبحانه سمى إيمان المؤمن به عهدا وميثاقا منه على ما توجه إليه من تكاليفه تعالى بقوله: ﴿أَوَكُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٠]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ﴾ [الأحزاب: ١٥]، ولعل إرادة هذا المعنى هو السبب في إفراد العهد لأن جميع التكاليف يجمعها عهد واحد بإيمان واحد.

ج. والرعاية الحفظ، وقد قيل: إن أصل الرعي حفظ الحيوان إما بغذائه الحافظ لحياته أو بذب العدو عنه ثم استعمل في الحفظ مطلقا، ولعل العكس أقرب إلى الاعتبار.

د. وبالجملة الآية تصف المؤمنين بحفظ الأمانات من أن تخان والعهد من أن ينقض، ومن حق الإيمان أن يدعو إلى ذلك فإن في إيمانه معنى السكون والاستقرار والاطمئنان فإذا آمن أحد في أمانة أودعها عنده أو عهد عاهده وقطع على ذلك استقر عليه ولم يتزلزل بخيانة أو نقض.

٢. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ﴾:

أ. جمع الصلاة وتعليق المحافظة عليه دليل على أن المراد المحافظة على العدد فهم يحافظون على أن لا يفوتهم شيء من الصلوات المفروضة ويراقبونها دائما ومن حق إيمانهم أن يدعوهم إلى ذلك.

ب. ولذلك جمعت الصلاة هاهنا وأفردت في قوله: ﴿فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ﴾ لأن الخشوع في

جنس الصلاة على حد سواء فلا موجب لجمعها.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ قال: على أوقاتها وحدودها.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن الفضيل بن يسار قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل ـ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ قال هي الفريضة، قلت: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ﴾ قال: هي النافلة.

٥. وراثة الفردوس والخلود فيه:

المقطع [٥] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠ـ١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١١»:

١. ﴿أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ الفردوس أعلى الجنان، وقد تقدم معناها وشيء من وصفها في ذيل قوله تعالى: ﴿كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ [الكهف: ١٠٧]

٢. ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ﴾، بيان لقوله: ﴿الْوارِثُونَ﴾ ووراثتهم الفردوس هو بقاؤها لهم بعد ما كانت في معرض أن يشاركهم فيها غيرهم أو يملكها دونهم لكنهم زالوا عنها فانتقلت إليهم، وقد ورد في الروايات أن لكل إنسان منزلا في الجنة ومنزلا في النار فإذا مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله، وستوافيك إن شاء الله في بحث روائي.

٣. أحاديث وآثار: في المجمع: روي عن النبي ﷺ أنه قال: ما منكم من أحد إلا له منزلان: منزل في الجنة ومنزل في النار، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله.

• أقول: وروى مثله القمي في تفسيره بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث مفصل وتقدم نظيره في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [مريم: ٣٩]

٦. مراحل خلق الإنسان والموت والبعث:

المقطع [٦] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ

الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٢ـ١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٩»:

١. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾:

أ. قال في المجمع: (السلالة اسم لما يسل من الشيء كالكساحة اسم لما يكسح)

ب. وظاهر السياق أن المراد بالإنسان هو النوع فيشمل آدم ومن دونه ويكون المراد بالخلق الخلق الابتدائي الذي خلق به آدم من الطين ثم جعل النسل من النطفة، وتكون الآية وما بعدها في معنى قوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ﴾ [السجدة: ٨]

ج. ويؤيده قوله بعد: ﴿ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً﴾ إذ لو كان المراد بالإنسان ابن آدم فحسب وكان المراد بخلقه من طين انتهاء النطفة إلى الطين لكان الظاهر أن يقال: ثم خلقناه نطفة كما قيل: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾

د. وبذلك يظهر أن قول بعضهم: إن المراد بالإنسان جنس بني آدم، وكذا القول بأن المراد به آدم عليه السلام غير سديد.

هـ. وأصل الخلق كما قيل التقدير يقال: خلقت الثوب إذا قسته لتقطع منه شيئا من اللباس فالمعنى ولقد قدرنا الإنسان أولا من سلالة من أجزاء الأرض المخلوطة بالماء.

٢. ﴿ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ﴾:

أ. النطفة القليل من الماء وربما يطلق على مطلق الماء والقرار مصدر أريد به المقر مبالغة والمراد به الرحم التي تستقر فيها النطفة، والمكين المتمكن وصفت به الرحم لتمكنها في حفظ النطفة من الضيعة والفساد أو لكون النطفة مستقرة متمكنة فيها.

ب. والمعنى ثم جعلنا الإنسان نطفة في مستقر متمكن هي الرحم كما خلقناه أولا من سلالة من طين أي بدلنا طريق خلقه من هذا إلى ذاك.

٣. ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ إلى قوله: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً﴾ تقدم بيان مفردات الآية في [الآية: ٥] من سورة الحج في الجزء السابق من الكتاب وفي قوله: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً﴾ استعارة بالكناية لطيفة.

٤. ﴿ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ﴾:

أ. الإنشاء كما ذكره الراغب، إيجاد الشيء وتربيته كما أن النشء والنشأة إحداثه وتربيته كما يقال

للشاب الحديث السن ناشئ.

ب. وقد غير السياق من الخلق إلى الإنشاء فقال: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ دون أن يقال: ثم خلقناه إلخ، للدلالة على حدوث أمر حديث ما كان يتضمنه ولا يقارنه ما تقدمه من مادة فإن العلقة مثلا وإن خالفت النطفة في أوصافها وخواصها من لون وطعم وغير ذلك إلا أن في النطفة مكان كل من هذه الأوصاف والخواص ما يجانسه وإن لم يماثله كالبياض مكان الحمرة وهما جميعا لون بخلاف ما أنشأه الله أخيرا وهو الإنسان الذي له حياة وعلم وقدرة فإن ما له من جوهر الذات وهو الذي نحكي عنه بأنا لم يسبق من سنخه في المراحل السابقة أعني النطفة والعلقة والمضغة والعظام المكسوة لحما شيء، ولا سبق فيها شيء يناظر ما له من الخواص والأوصاف كالحياة والقدرة والعلم فهو منشأ حادث مسبوق بالعدم.

ج. والضمير في ﴿أَنْشَأْنَاهُ﴾ على ما يعطيه السياق، للإنسان المخلوق عظاما مكسوة باللحم فهو الذي أنشأ وأحدث خلقا آخر أي بدل وهو مادة ميتة جاهلة عاجزة موجودا ذا حياة وعلم وقدرة، فقد كان مادة لها صفاتها وخواصها ثم برز وهو يغاير سابقته في الذات والصفات والخواص، فهو تلك المادة السابقة فإنها التي صارت إنسانا، وليس بها إذ لا يشاركها في ذات ولا صفات، وإنما له نوع اتحاد معها وتعلق بها يستعملها في سبيل مقاصدها استعمال ذي الآلة للآلة كالكاتب للقلم.

د. وهذا هو الذي يستفاد من مثل قوله: ﴿وَقالُوا أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، فالمتوفى والمأخوذ عند الموت هو الإنسان، والمتلاشي الضال في الأرض هو البدن وليس به.

هـ. وقد اختلف العطف في مفردات الآية بالفاء وثم، وقد قيل في وجهه إن ما عطف بثم له بينونة كاملة مع ما عطف عليه كما في قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً﴾ ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾، ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾، وما لم يكن بتلك البينونة والبعد عطف بالفاء كقوله: ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً﴾

٥. ﴿فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ﴾:

أ. قال الراغب: (أصل البرك بالفتح فالسكون، صدر البعير، قال: وبرك البعير ألقى ركبه واعتبر منه معنى اللزوم،قال: وسمي محبس الماء بركة بالكسر فالسكون، والبركة ثبوت الخير الإلهي في الشيء قال

تعالى: ﴿لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ وسمي بذلك لثبوت الخير فيه ثبوت الماء في البركة والمبارك ما فيه ذلك الخير)، قال: ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يحس وعلى وجه لا يحصى ولا يحصر قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة هو مبارك وفيه بركة)

ب. فالتبارك منه تعالى اختصاص بالخير الكثير الذي يجود به ويفيضه على خلقه وقد تقدم أن الخلق في أصله بمعنى التقدير فهذا الخير الكثير كله في تقديره وهو إيجاد الأشياء وتركيب أجزائها بحيث تتناسب فيما بين أنفسها وتناسب ما وراءها ومن ذلك ينتشر الخير الكثير.

ج. ووصفه تعالى بأحسن الخالقين يدل على عدم اختصاص الخلق به وهو كذلك لما تقدم أن معناه التقدير وقياس الشيء من الشيء لا يختص به تعالى، وفي كلامه تعالى من الخلق المنسوب إلى غيره قوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ [المائدة: ١١٠] وقوله: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً﴾ ([العنكبوت: ١٧]

٦. ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ بيان لتمام التدبير الإلهي وأن الموت من المراحل التي من الواجب أن يقطعها الإنسان في مسير التقدير، وأنه حق كما تقدم في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]

٧. ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ وهذا تمام التدبير وهو أعني البعث آخر مرحلة في مسير الإنسان إذا حل بها لزمها ولا يزال قاطنا بها.

٨. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن أبي حاتم عن علي قال: إذا تمت النطفة أربعة أشهر بعث إليها ملك، فنفخ فيها الروح في الظلمات الثلاث، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ يعني نفخ الروح فيه.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن ابن فضال عن الحسن بن الجهم قال: سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول: قال أبو جعفر عليه السلام: إن النطفة تكون في الرحم أربعين يوما، ثم تصير علقة أربعين يوما، ثم تصير مضغة أربعين يوما، فإذا كمل أربعة أشهر بعث الله ملكين خلاقين، فيقولان: يا رب ما نخلق ذكرا أو أنثى؟ فيؤمران، فيقولان: يا رب شقي أو سعيد؟ فيؤمران، فيقولان: يا رب ما أجله وما رزقه وكل شيء من حاله؟ وعدد من ذلك أشياء، ويكتبان الميثاق بين عينيه، فإذا كمل الأجل بعث الله إليه ملكا فزجره زجرة، فيخرج وقد نسي الميثاق، فقال الحسن بن الجهم: أفيجوز أن يدعو الله، فيحول الأنثى

ذكرا أو الذكر أنثى؟ فقال: إن الله يفعل ما يشاء.

• أقول: والرواية مروية عن أبي جعفر عليه السلام بطرق أخرى وألفاظ متقاربة.

٧. خلق السموات السبع وإنزال الماء وإخراج الجنات:

المقطع [٧] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٧-١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٢»:

١. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ وَما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ﴾:

أ. المراد بالطرائق السبع بقرينة قوله: ﴿فَوْقَكُمْ﴾ السماوات السبع وقد سماها طرائق، جمع طريقة، وهي السبيل المطروقة لأنها ممر الأمر النازل من عنده تعالى إلى الأرض، قال تعالى: ﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥]، والسبل التي تسلكها الأعمال في صعودها إلى الله والملائكة في هبوطهم وعروجهم كما قال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، وقال: ﴿وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤]

ب. وبذلك يتضح اتصال ذيل الآية ﴿وَما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ﴾ بصدرها أي لستم بمنقطعين عنا ولا بمعزل عن مراقبتنا بل هذه الطرائق السبع منصوبة بيننا وبينكم يتطرقها رسل الملائكة بالنزول والصعود وينزل منها أمرنا إليكم وتصعد منها أعمالكم إلينا.

ج. وبذلك كله يظهر ما في قول بعضهم: إن الطرائق بمعنى الطباق المنضودة بعضها فوق بعض من طرق النعل إذا وضع طاقاتها بعضها فوق بعض، وقول آخرين: إنها بمعنى المبسوطات من طرق الحديد إذا بسطه بالمطرقة، على أن اتصال ذيل الآية بصدرها على القولين غير بين.

٢. ﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ﴾:

أ. المراد بالسماء جهة العلو فإن ما علاك وأظلك فهو سماء، والمراد بالماء النازل منها ماء المطر.

ب. وفي قوله: ﴿بِقَدَرٍ﴾ دلالة على أن الذي نزل إنما نزل على حسب ما يقتضيه التدبير التام الإلهي الذي يقدره بقدر لا يزيد قطرة على ما قدر ولا ينقص، وفيه تلميح أيضا إلى قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا

خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]

ج. والمعنى: وأنزلنا من جهة العلو ماء بقدر وهو ماء المطر فأسكناه في الأرض وهو الذخائر المدخرة من الماء في الجبال والسهول تتفجر عنه العيون والأنهار وتكشف عنه الآبار، وإنا لقادرون على أن نذهب بهذا الماء الذي أسكناه في الأرض نوعا من الذهاب لا تهتدون إلى علمه.

٣. ﴿فَأَنْشَأْنا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ﴾ إنشاء الجنات إحداثها وتربيتها، ومعنى الآية ظاهر.

٨. شجرة الزيتون المباركة من طور سيناء:

المقطع [٨] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٣»:

١. ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾ معطوف على ﴿جَنَّاتٍ﴾ أي وأنشأنا لكم به شجرة في طور سيناء، والمراد بها شجرة الزيتون التي تكثر في طور سيناء، وقوله: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ أي تثمر ثمرة فيها الدهن وهو الزيت فهي تنبت بالدهن، وقوله: ﴿وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾ أي وتنبت بصبغ للآكلين، والصبغ بالكسر فالسكون الإدام الذي يؤتدم به، وإنما خص شجرة الزيتون بالذكر لعجيب أمرها، والمعنى ظاهر.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: قوله عز وجل ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ، تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾ قال: شجرة الزيتون، وهو مثل رسول الله ﷺ ومثل أمير المؤمنين عليه السلام، فالطور الجبل وسيناء الشجرة.

ب. وفي المجمع: (﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾ وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: الزيت شجرة مباركة فائتدموا منه وادهنوا.

٩. في الأنعام عبرة وفوائد والحمل على الفلك:

المقطع [٩] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢١-٢٢]،

وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٣»:

١. ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِها﴾، العبرة الدلالة يستدل بها على أنه تعالى مدبر لأمر خلقه حنين بهم رءوف رحيم، والمراد بسقيه تعالى مما في بطونها أنه رزقهم من ألبانها، والمراد بالمنافع الكثيرة ما ينتفعون من صوفها وشعرها ووبرها وجلودها وغير ذلك، ومنها يأكلون.

٢. ﴿وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ ضمير ﴿عَلَيْها﴾ للأنعام والحمل على الأنعام هو الحمل على الإبل، وهو حمل في البر ويقابله الحمل في البحر وهو الحمل على الفلك، فالآية في معنى قوله: ﴿وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٧٠]، والفلك جمع فلكة وهي السفينة.

١٠. قصة نوح ودعوته وصنع الفلك وإنجائه:

المقطع [١٠] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٣-٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٦»:

١. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ قد تقدم في قصص نوح عليه السلام من سورة هود أنه أول أولي العزم من الرسل أصحاب الكتب والشرائع المبعوثين إلى عامة البشر والناهضين للتوحيد ونفي الشرك، فالمراد بقومه أمته وأهل عصره عامة.

٢. ﴿اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ﴾:

أ. دعوة إلى عبادة الله ورفض عبادة الآلهة من دونه فإن الوثنيين إنما يعبدون غيره من الملائكة والجن والقديسين بدعوى ألوهيتهم أي كونهم معبودين من دونه.

ب. قال بعض المفسرين: (إن معنى ﴿اعْبُدُوا اللهَ﴾ اعبدوه وحده كما يفصح عنه قوله في سورة

هود: ﴿أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾ وترك التقييد به للإيذان بأنها هي العبادة فقط وأما العبادة مع الإشراك فليست من العبادة في شيء رأسا)

• وفيه غفلة أو ذهول عن أن الوثنيين لا يعبدون الله سبحانه أصلا بناء على أن العبادة توجه من العابد إلى المعبود، والله سبحانه أجل من أن يحيط به توجه متوجه أو علم عالم، فالوجه أن يتقرب إلى خاصة خلقه من الملائكة وغيره ليشفعوا عنده ويقربوا منه، والعبادة بإزاء التدبير وأمر التدبير مفوض إليهم منه تعالى فهم الآلهة المعبودون والأرباب من دونه.

• ومن هنا يظهر أنه لو جازت عبادته تعالى عندهم لم يجز إلا عبادته وحده لأنهم لا يرتابون في أنه تعالى رب الأرباب موجد الكل ولو صحت عبادته لم تجز إلا عبادته وحده ولم تصح عبادة غيره لكنهم لا يرون صحتها بناء على ما زعموه من الوجه المتقدم.

• فقوله عليه السلام لقومه الوثنيين: ﴿اعْبُدُوا اللهَ﴾ في معنى أن يقال: اعبدوا الله وحده كما ورد في سورة هود ﴿أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾، وقوله: ﴿ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ﴾ في معنى أن يقال: ما لكم من معبود سواه لأنه لا رب غيره يدبر أمركم حتى تعبدوه رجاء لرحمته أو خوفا من سخطه، وقوله بالتفريع على ذلك: ﴿أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ أي إذا لم يكن لكم رب يدبر أموركم دونه أفلا تتقون عذابه حيث لا تعبدونه وتكفرون به؟

٣. ﴿فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾:

أ. ملأ القوم أشرافهم، ووصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ وصف توضيحي لا احترازي إذ لم يؤمن به من ملإ قومه أحد بدليل قولهم على ما حكاه الله: ﴿وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧]

ب. والسياق يدل على أن الملأ كانوا يخاطبون بمضمون الآيتين عامة الناس لصرف وجوههم عنه وإغرائهم عليه وتحريضهم على إيذائه وإسكاته، وما حكاه تعالى من أقاويلهم في الآيتين وجوه أربعة أو خمسة من فرية أو مغالطة لفقوها واحتجوا بها على بطلان دعوته:

أ. الأول قولهم: ﴿ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ ومحصله أنه بشر مثلكم فلو كان صادقا فيما يدعيه من الوحي الإلهي والاتصال بالغيب كان نظير ما يدعيه متحققا فيكم إذ لا تنقصون منه

في شيء من البشرية ولوازمها، ولم يتحقق فهو كاذب وكيف يمكن أن يكون كمال في وسع البشر أن يناله ثم لا يناله إلا واحد منهم فقط ثم يدعيه من غير شاهد يشهد عليه؟ فلم يبق إلا أنه يريد بهذه الدعوة أن يتفضل عليكم ويترأس فيكم ويؤيده أنه يدعوكم إلى اتباعه وطاعته وهذه الحجة تنحل في الحقيقة إلى حجتين مختلقتين.

ب. والثاني قولهم: ﴿وَلَوْ شاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً﴾ ومحصله أن الله سبحانه لو شاء أن يدعونا بدعوة غيبية لاختار لذلك الملائكة الذين هم المقربون عنده والشفعاء الروابط بيننا وبينه فأرسلهم إلينا لا بشرا ممن لا نسبة بينه وبينه، على أن في نزولهم واعترافهم بوجوب العبادة له تعالى وحده وعدم جواز اتخاذهم أربابا وآلهة معبودين آية بينة على صحة الدعوة وصدقها، والتعبير عن إرسال الملائكة بإنزالهم إنما هو لكون إرسالهم يتحقق بالإنزال والتعبير بلفظ الجمع دون الإفراد لعله لكون المراد بهم الآلهة المتخذة منهم وهم كثيرون.

ج. والثالث قولهم: ﴿ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ ومحصله أنه لو كانت دعوته حقة لاتفق لها نظير فيما سلف من تاريخ الإنسانية، وآباؤنا كانوا أفضل منا وأعقل ولم يتفق لهم وفي أعصارهم ما يناظر هذه الدعوة فليست إلا بدعة وأحدوثة كاذبة.

د. والرابع قولهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ الجنة إما مصدر أي به جنون أو مفرد الجن أي حل به من الجن من يتكلم على لسانه لأنه يدعي ما لا يقبله العقل السليم ويقول ما لا يقوله إلا مصاب في عقله فتربصوا وانتظروا به إلى حين ما لعله يفيق من حالة جنونه أو يموت فنستريح منه.

وهذه حجج مختلقة ألقاها ملأ قومه إلى عامتهم أو ذكر كلا منها بعضهم وهي وإن كانت حججا جدلية مدخولة لكنهم كانوا ينتفعون بها حينما يلقونها إلى الناس فيصرفون وجوههم عنه ويغرونهم عليه ويمدون في ضلالهم.

٤. ﴿قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ﴾ سؤال منه للنصر والباء في قوله: ﴿بِما كَذَّبُونِ﴾ للبدلية والمعنى انصرني بدل تكذيبهم لي أو للآلة وعليه فالمعنى انصرني بالذي كذبوني فيه وهو العذاب فإنهم قالوا: ﴿فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢]، ويؤيده قول نوح: ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ

دَيَّاراً﴾ [نوح: ٢٦]، وفصل الآية لكونها في معنى جواب السؤال.

٥. ﴿فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا﴾ متفرع على سؤال النصر، ومعنى صنع الفلك بأعينه صنعه بمرأى منه وهو كناية عن كونه تحت مراقبته تعالى ومحافظته، ومعنى كون الصنع بوحيه كونه بتعليمه الغيبي حالا بعد حال.

٦. ﴿فَإِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ﴾ المراد بالأمر، كما قيل، حكمه الفصل بينه وبين قومه وقضاؤه فيهم بالغرق، والسياق يشهد على كون فوران التنور بالماء أمارة نزول العذاب عليهم وهو أعني فوران الماء من التنور وهو محل النار من عجيب الأمر في نفسه.

٧. ﴿فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ القراءة الدائرة ﴿مِنْ كُلٍّ﴾ بالتنوين والقطع عن الإضافة، والتقدير من كل نوع من الحيوان، والسلوك فيها الإدخال في الفلك والظاهر أن ﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية والمعنى فأدخل في الفلك زوجين اثنين: ذكر وأنثى من كل نوع من الحيوان.

٨. ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾:

أ. معطوف على قوله: ﴿زَوْجَيْنِ﴾ وما قيل: إن عطف ﴿أَهْلَكَ﴾ على ﴿زَوْجَيْنِ﴾ يفسد المعنى المراد لرجوع التقدير حينئذ إلى قولنا: واسلك فيها من كل نوع أهلك فالأولى تقدير ﴿فَاسْلُكْ﴾ ثانيا قبل ﴿أَهْلَكَ﴾ وعطفه على ﴿فَاسْلُكْ﴾ يدفعه أن ﴿مِنْ كُلٍّ﴾ في موضع الحال من ﴿زَوْجَيْنِ﴾ فهو متأخر عنه رتبة كما قدمنا تقديره فلا يعود ثانيا على المعطوف.

ب. والمراد بالأهل خاصته، والظاهر أنهم أهل بيته والمؤمنون به فقد ذكرهم في سورة هود مع الأهل ولم يذكر هاهنا إلا الأهل فقط.

ج. والمراد بمن سبق عليه القول منهم امرأته الكافرة على ما فهم نوح عليه السلام وهي وابنه الذي أبى ركوب السفينة وغرق حينما آوى إلى جبل في الحقيقة، وسبق القول هو القضاء المحتوم بالغرق.

٩. ﴿وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ النهي عن مخاطبته تعالى كناية عن النهي الشديد عن الشفاعة لهم، بدليل تعليق المخاطبة بالذين ظلموا وتعليل النهي بقوله: ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ فكأنه قيل: أنهاك عن أصل تكليمي فيهم فضلا أن تشفع لهم فقد شملهم غضبي شمولا لا يدفعه دافع.

١٠. ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ﴾:

أ. علمه أن يحمد الله بعد الاستواء على الفلك على تنجيته تعالى من القوم الظالمين وهذا بيان بعد بيان لكونهم هالكين مغرقين حتما، وأن يسأله أن ينجيه من الطوفان وينزله على الأرض إنزالا مباركا ذا خير كثير ثابت فإنه خير المنزلين.

ب. وفي أمره عليه السلام أن يحمده ويصفه بالجميل دليل على أنه من عباده المخلصين فإنه تعالى منزه عما يصفه غيرهم كما قال: ﴿سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ١٦٠]

ج. وقد اكتفى سبحانه في القصة بإخباره عن حكمه بغرقهم وأنهم مغرقون حتما ولم يذكر خبر غرقهم إيماء إلى أنهم آل بهم الأمر إلى أن لا خبر عنهم بعد ذلك، وإعظاما للقدرة وتهويلا للسخطة وتحقيرا لهم واستهانة بأمرهم، فالسكوت في هذه القصة عن هلاكهم أبلغ من قوله في القصة الآتية: ﴿وَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ من وجوه.

١١. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ خطاب في آخر القصة للنبي ﷺ وبيان أن هذه الدعوة مع ما جرى معها كانت ابتلاء أي امتحانا واختبارا إليها.

١١. إهلاك المكذبين بالصيحة وجعلهم غثاء:

المقطع [١١] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ فَأَرْسَلْنا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ وَقالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْناهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ما هَذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخاسِرُونَ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرابًا وَعِظامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا وَما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ قالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١-٤١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣١»:

١. ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾ القرن أهل عصر واحد، وقوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ تفسير لإرسال الرسول من قبيل تفسير الفعل بنتيجته كقوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت: ٣٠]

٢. ﴿قالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْناهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾:

أ. هؤلاء أشرافهم المتوغلون في الدنيا المخلدون إلى الأرض يغرون بقولهم هذا عامتهم على رسولهم.

ب. وقد وصفهم الله بصفات ثلاث وهي: الكفر بالله بعبادة غيره، والتكذيب بلقاء الآخرة، أي بلقاء الحياة الآخرة بقرينة مقابلتها لقوله: ﴿فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾، ولكفرهم بالمبدإ والمعاد انقطعوا عما وراء الدنيا فانكبوا عليها.

ج. ثم لما أترفوا في الحياة الدنيا وتمكنوا من زخارفها وزيناتها الملذة اجتذبتهم الدنيا إلى نفسها فاتبعوا الهوى ونسوا كل حق وحقيقة، ولذلك تفوهوا تارة بنفي التوحيد والرسالة، وتارة بإنكار المعاد، وتارة رد الدعوة بإضرارها دنياهم وحريتهم في اتباع هواهم.

د. فتارة قالوا لعوامهم مشيرين إلى رسولهم إشارة المستحقر المستهين بأمره: ﴿ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ يريدون به تكذيبه في دعوته ودعواه الرسالة على ما مر من تقرير حجتهم في قصة نوح السابقة، وفي استدلالهم على بشريته ومساواته سائر الناس بأكله وشربه مثل الناس وذلك من خاصة مطلق الحيوان دليل على أنهم ما كانوا يرون للإنسان إلا كمال الحيوان ولا فضيلة إلا في الأكل والشرب ولا سعادة إلا في التمكن من التوسع والاسترسال من اللذائذ الحيوانية كما قال تعالى: ﴿أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ﴾ سورة [محمد: ١٢]

هـ. وتارة قالوا: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ﴾ وهو في معنى قولهم في القصة السابقة: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ يريدون به أن في اتباعه وإطاعته فيما يأمركم به مع كونه بشرا مثلكم من غير فضل له عليكم خسرانكم وبطلان سعادتكم في الحياة إذ لا حياة إلا الحياة الدنيا ولا سعادة فيها إلا الحرية في التمتع من لذائذها، وفي طاعة من لا فضل له عليكم رقيتكم وزوال حريتكم وهو الخسران.

و. وتارة قالوا: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُراباً وَعِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ أي مبعوثون من قبوركم للحساب والجزاء ﴿هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ﴾ وهيهات كلمة استبعاد وفي تكراره مبالغة في الاستبعاد ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا﴾ أي يموت قوم منا في الدنيا ويحيا آخرون فيها لا نزال

كذلك ﴿وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ للحياة في دار أخرى وراء الدنيا، ويمكن أن يحمل قولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيا﴾ على التناسخ وهو خروج الروح بالموت من بدن وتعلقها ببدن آخر إنساني أو غير إنساني فإن التناسخ مذهب شائع عند الوثنيين وربما عبروا عنه بالولادة بعد الولادة لكنه لا يلائم سياق الآيات كثير ملائمة.

ز. وتارة قالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً وَما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يريدون به تكذيب دعواه الرسالة مع ما احتوت عليه دعوته وقد أنكروا التوحيد والمعاد قبل ذلك، ومرادهم بقولهم: ﴿نَحْنُ﴾ أنفسهم وعامتهم أشركوا أنفسهم عامتهم لئلا يتهمهم العامة فيما يأمرونهم به من الكفر بالرسول، ويمكن أن يكون المراد به أنفسهم خاصة دون العامة وإنما أخبروا بعدم إيمانهم ليقتدوا بهم فيه.

ح. وقد نشأت هذه الأقاويل من اجتماع الصفات التي وصفهم الله بها في أول الآيات وهي إنكار التوحيد والنبوة والمعاد والإتراف في الحياة الدنيا.

٣. واعلم أن في قوله في صدر الآيات: ﴿وَقالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْناهُمْ﴾ قدم قوله: ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾ على ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بخلاف ما في القصة السابقة من قوله: ﴿فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ لأنه لو وقع بعد ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ اختل به ترتيب الجمل المتوالية ﴿كَفَرُوا﴾ ﴿وَكَذَّبُوا﴾ ﴿وَأَتْرَفْناهُمْ﴾ ولو وقع بعد الجميع طال الفصل.

٤. ﴿قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ﴾ تقدم تفسيره في القصة السابقة.

٥. ﴿قالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ﴾ استجابة لدعوة الرسول وصيرورتهم نادمين كناية عن حلول عذاب الاستئصال بهم، وقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ عن بمعنى بعد و﴿عَمَّا﴾ لتأكيد القلة وضمير الجمع للقوم، والكلام مؤكد بلام القسم ونون التأكيد، والمعنى: أقسم لتأخذنهم الندامة بعد قليل من الزمان بمشاهدة حلول العذاب.

٦. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾:

أ. الباء في ﴿بِالْحَقِ﴾ للمصاحبة وهو متعلق بقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ أي أخذتهم الصيحة أخذا مصاحبا للحق، أو للسببية، والحق وصف أقيم مقام موصوفه المحذوف والتقدير فأخذتهم الصيحة بسبب الأمر الحق أو القضاء الحق كما قال: ﴿فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾، [غافر: ٧٨]

ب. والغثاء بضم الغين وربما شددت الثاء: ما يحمله السيل من يابس النبات والورق والعيدان

البالية، وقوله: ﴿فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ إبعاد ولعن لهم أو دعاء عليهم.

ج. والمعنى: فأنجزنا للرسول ما وعدناه من عذابهم فأخذتهم الصيحة السماوية وهي العذاب فأهلكناهم وجعلناهم كغثاء السيل فليبعد القوم الظالمون بعدا.

د. ولم يصرح باسم هؤلاء القوم الذين أنشأهم بعد قوم نوح ثم أهلكهم ولا باسم رسولهم، وليس من البعيد أن يكونوا هم ثمود قوم صالح عليه السلام فقد ذكر الله سبحانه في قصتهم في مواضع من كلامه أنهم كانوا بعد قوم نوح وقد أهلكوا بالصيحة.

١٢. تتابع الرسل وتكذيب الأمم وإهلاكهم:

المقطع [١٢] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٢-٤٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٣»:

١. ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ﴾ تقدم توضيح مضمون الآيتين كرارا.

٢. ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا كُلَّ ما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ﴾:

أ. يقال: جاءوا تترى أي فرادى يتبع بعضهم بعضا، ومنه التواتر وهو تتابع الشيء وترا وفرادى، وعن الأصمعي: (واترت الخبر أتبعت بعضه بعضا وبين الخبرين هنيهة)

ب. والكلام من تتمة قوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً﴾ و﴿ثُمَ﴾ للتراخي بحسب الذكر دون الزمان، والقصة إجمال منتزع من قصص الرسل وأممهم بين أمة نوح والأمة الناشئة بعدها وبين أمة موسى.

ج. يقول تعالى: ثم أنشأنا بعد تلك الأمة الهالكة بالصيحة بعد أمة نوح قرونا وأمما آخرين وأرسلنا إليهم رسلنا متتابعين يتبع بعضهم بعضا كلما جاء أمة رسولها المبعوث منها إليها كذبوه فأتبعنا بعضهم أي بعض هذه الأمم بعضا أي بالعذاب وجعلناهم أحاديث أي صيرناهم قصصا وأخبارا بعد ما كانوا أعيانا ذوات آثار فليبعد قوم لا يؤمنون.

د. والآيات تدل على أنه كان من سنة الله إنشاء قرن بعد قرن وهدايتهم إلى الحق بإرسال رسول

بعد رسول وهي سنة الابتلاء والامتحان، ومن سنة القرون تكذيب الرسول بعد الرسول ثم من سنة الله ثانيا، وهي سنة المجازاة، تعذيب المكذبين وإتباع بعضهم بعضا.

٣. ﴿وَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ﴾ أبلغ كلمة تفصح عن القهر الإلهي الذي يغشى أعداء الحق والمكذبين لدعوته حيث يمحو العين ويعفو الأثر ولا يبقى إلا الخبر.

١٣. موسى وهارون إلى فرعون واستكبارهم وهلاكهم:

المقطع [١٣] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٥-٤٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٤»:

١. ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنا مُوسى وَأَخاهُ هارُونَ بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾ الآيات هي العصا واليد البيضاء وسائر الآيات التي أراها موسى فرعون وقومه، والسلطان المبين الحجة الواضحة، وتفسير بعضهم السلطان بالعصا غير سديد.

٢. ﴿إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً عالِينَ﴾ قيل: إنما ذكر ملأ فرعون واكتفى بهم عن ذكر قومه لأنهم الأشراف المتبوعون وسائر القوم أتباع يتبعونهم، والمراد بكونهم عالين أنهم كانوا يعلون على غيرهم فيستعبدونهم كما علوا على بني إسرائيل واستعبدوهم فالعلو في الأرض كناية عن التطاول على أهلها وقهرهم على الطاعة.

٣. ﴿فَقالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَقَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ﴾ المراد بكونهما بشرين مثلهم نفي أن يكون لهما فضل عليهم، وبكون قومهما لهم عابدين فضلهم عليهما كما فضلوا على قومهما فإذا كان الفضل لهم عليهما كان من الواجب أن يعبداهم كما عبدهم قومهما لا أن يؤمنوا بهما كما قال فرعون لموسى: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾

٤. ثم ختم تعالى القصة بذكر هلاكهم فقال: ﴿فَكَذَّبُوهُما فَكانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾

١٤. موسى والكتاب وعيسى وأمه آية:

المقطع [١٤] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٤٩-٥٠]، وفيه المسائل

التالية «الميزان: ١٥/ ٣٤»:

١. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ والمراد بهم بنو إسرائيل لأن التوراة إنما نزلت بعد هلاك فرعون وملئه.

٢. ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَمَعِينٍ﴾:

أ. تقدم أن الآية هي ولادة عيسى عليه السلام الخارقة للعادة وإذ كانت أمرا قائما به وبأمه معا عدا جميعا آية واحدة.

ب. والإيواء من الأوي وأصله الرجوع ثم استعمل في رجوع الإنسان إلى مسكنه ومقره، وآواه إلى مكان كذا أي جعله مسكنا له والربوة المكان المرتفع المستوي الواسع، والمعين الماء الجاري.

ج. والمعنى: وجعلنا عيسى بن مريم وأمه مريم آية دالة على ربوبيتنا وأسكناهما في مكان مرتفع مستو وسيع فيه قرار وماء جار.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، في قوله تعالى: ﴿إِلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: الربوة الحيرة وذات قرار ومعين الكوفة.

ب. وفي المجمع: (﴿وَآوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَمَعِينٍ﴾ قيل: حيرة الكوفة وسوادها، والقرار مسجد الكوفة، والمعين الفرات: عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام.

• أقول: وروي في الدر المنثور، عن ابن عساكر عن أبي أمامة عن النبي ﷺ: أن الربوة هي دمشق الشام، وروي أيضا عن ابن عساكر وغيره عن مرة البهزي عنه ﷺ: أنها الرملة، والروايات جميعا لا تخلو من الضعف.

١٥. أمر الرسل بأكل الطيبات وعمل الصالحات والتقوى:

المقطع [١٥] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥١-٥٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٥»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾:

أ. خطاب لعامة الرسل بأكل الطيبات وكان المراد بالأكل منها الارتزاق بها بالتصرف فيها سواء كان بأكل أو غيره وهو استعمال شائع.

ب. والسياق يشهد بأن في قوله: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ امتنانا منه تعالى عليهم، ففي قوله عقيبه: ﴿وَاعْمَلُوا صالِحاً﴾ أمر بمقابلة المنة بصالح العمل وهو شكر للنعمة وفي تعليله بقوله: ﴿إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ تحذير لهم من مخالفة أمره وبعث إلى ملازمة التقوى.

٢. ﴿إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ تقدم تفسير نظيره الآية في سورة الأنبياء.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿أُمَّةً واحِدَةً﴾ قال على مذهب واحد.

ب. وفيه في قوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ قال: كل من اختار لنفسه دينا فهو فرح به.

١٦. تقطّع الأمم وفرح كل حزب بما لديه:

المقطع [١٦] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣ـ٥٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٥»:

١. ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾:

أ. في المجمع: (أن التقطع والتقطيع بمعنى واحد، والزبر بضمتين جمع زبور وهو الكتاب، والكلام متفرع على ما تقدمه، والمعنى أن الله أرسل إليهم رسله تترى والجميع أمة واحدة لهم رب واحد دعاهم إلى تقواه لكنهم لم يأتمروا بأمره وقطعوا أمرهم بينهم قطعا وجعلوه كتبا اختص بكل كتاب حزب وكل حزب بما لديهم فرحون.

ب. وفي قراءة ابن عامر ﴿زُبُراً﴾ بفتح الباء وهو جمع زبرة وهي الفرقة، والمعنى وتفرقوا في أمرهم جماعات وأحزابا كل حزب بما لديهم فرحون، وهي أرجح.

٢. ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾:

أ. قال في المفردات: (الغمرة معظم الماء الساترة لمقرها وجعل مثلا للجهالة التي يغمر صاحبها)

ب. وفي الآية تهديد بالعذاب، وقد تقدمت إشارة إلى أن من سنته تعالى المجازاة بالعذاب بعد

تكذيب الرسالة، وفي تنكير ﴿حِينٍ﴾ إشارة إلى إتيان العذاب الموعود بغتة.

٣. ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾:

أ. ﴿نُمِدُّهُمْ﴾ بضم النون، من الإمداد والمد والإمداد بمعنى واحد وهو تتميم نقص الشيء وحفظه من أن ينقطع أو ينفد، قال الراغب: (وأكثر ما يستعمل الإمداد في المحبوب والمد في المكروه، فقوله: ﴿نُمِدُّهُمْ﴾ من الإمداد المستعمل في المكروه والمسارعة لهم في الخيرات إفاضة الخيرات بسرعة لكرامتهم عليه فيكون الخيرات على ظنهم هي المال والبنون سورع لهم فيها.

ب. والمعنى: أيظن هؤلاء أن ما نعطيهم في مدة المهلة من مال وبنين خيرات نسارع لهم فيها لرضانا عنهم أو حبنا لأعمالهم أو كرامتهم علينا؟ لا، بل لا يشعرون أي إن الأمر على خلاف ما يظنون وهم في جهل بحقيقة الأمر وهو أن ذلك إملاء منا واستدراج وإنما نمدهم في طغيانهم يعمهون كما قال تعالى ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]

١٧. خشية المؤمنين وإيمانهم وإخلاصهم ومسارعتهم للخيرات:

المقطع [١٧] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٨»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ إلى آخر الآيات الخمس:

أ. يبين تعالى في هذه الآيات الخمس بمعونة ما تقدم أن الذي يظن هؤلاء الكفار أن المال والبنين خيرات نسارع لهم فيها خطأ منهم فليست هي من الخيرات في شيء بل استدراج وإملاء وإنما الخيرات التي يسارع فيها هي ما عند المؤمنين بالله ورسله واليوم الآخر الصالحين في أعمالهم.

ب. فأفصح تعالى عن وصفهم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾، قال الراغب: (الإشفاق عناية مختلطة بخوف لأن المشفق يحب المشفق عليه ويخاف ما يلحقه، قال تعالى: ﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ فإذا عدي بمن فمعنى الخوف فيه أظهر، وإذا عدي بفي فمعنى العناية فيه أظهر، قال: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ ﴿مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾)

ج. والآية تصفهم بأنهم اتخذوا الله سبحانه ربا يملكهم ويدبر أمرهم، ولازم ذلك أن يكون النجاة والهلاك دائرين مدار رضاه وسخطه يخشونه في أمر يحبونه وهو نجاتهم وسعادتهم فهم مشفقون من خشيته وهذا هو الذي يبعثهم إلى الإيمان بآياته وعبادته، وقد ظهر بما مر من المعنى أن الجمع في الآية بين الخشية والإشفاق ليس تكرارا مستدركا.

د. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ وهي كل ما يدل عليه تعالى بوجه ومن ذلك رسله الحاملون لرسالته وما أيدوا به من كتاب وغيره وما جاءوا به من شريعة لأن إشفاقهم من خشية الله يبعثهم إلى تحصيل رضاه ويحملهم على إجابته إلى ما يدعوهم إليه وائتمارهم لما يأمرهم به من طريق الوحي والرسالة.

هـ. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ والإيمان بآياته هو الذي دعاهم إلى نفي الشركاء في العبادة فإن الإيمان بها إيمان بالشريعة التي شرعت عبادته تعالى والحجج التي دلت على توحده في ربوبيته وألوهيته، على أن جميع الرسل والأنبياء عليهمالسلام إنما جاءوا من قبله وإرسال الرسل لهداية الناس إلى الحق الذي فيه سعادتهم من شئون الربوبية، ولو كان له شريك لأرسل رسولا، ومن لطيف كلام علي عليه أفضل السلام قوله: لو كان لربك شريك لأتتك رسله.

و. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ﴾ الوجل الخوف، وقوله: ﴿يُؤْتُونَ ما آتَوْا﴾ أي يعطون ما أعطوا من المال بالإنفاق في سبيل الله وقيل: المراد بإيتاء ما آتوا إتيانهم بكل عمل صالح، وقوله: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ حال من فاعل ﴿يُؤْتُونَ﴾ والمعنى والذين ينفقون ما أنفقوا أو يأتون بالأعمال الصالحة والحال أن قلوبهم خائفة من أنهم سيرجعون إلى ربهم أي إن الباعث لهم على الإنفاق في سبيل الله أو على صالح العمل ذكرهم رجوعهم المحتوم إلى ربهم على وجل منه، وفي الآية دلالة على إيمانهم باليوم الآخر وإتيانهم بصالح العمل وعند ذلك تعينت صفاتهم أنهم الذين يؤمنون بالله وحده لا شريك له وبرسله وباليوم الآخر ويعملون الصالحات.

ز. ثم قال: ﴿أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَهُمْ لَها سابِقُونَ﴾ الظاهر أن اللام في ﴿لَها﴾ بمعنى (إلو﴿لَها﴾ متعلق بسابقون، والمعنى أولئك الذين وصفناهم هم يسارعون في الخيرات من الأعمال وهم سابقون إليها أي يتسابقون فيها لأن ذلك لازم كون كل منهم مريدا للسبق إليها، فقد بين في الآيات أن

الخيرات هي الأعمال الصالحة المبتنية على الاعتقاد الحق الذي عند هؤلاء المؤمنين وهم يسارعون فيها وليست الخيرات ما عند أولئك الكفار وهم يعدونها بحسبانهم مسارعة من الله سبحانه لهم في الخيرات.

• قال في التفسير الكبير: وفيه يعني قوله: ﴿أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ﴾ وجهان: أحدهما: أن المراد يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها لئلا تفوت عن وقتها ولكيلا تفوتهم دون الاحترام، والثاني: أنهم يتعجلون في الدنيا أنواع النفع ووجوه الإكرام كما قال: ﴿فَآتاهُمُ اللهُ ثَوابَ الدُّنْيا وَحُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ﴾ ﴿وَآتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ لأنهم إذا سورع لهم بها فقد سارعوا في نيلها وتعجلوها وهذا الوجه أحسن طباقا للآية المتقدمة لأن فيه إثبات ما نفي عن الكفار للمؤمنين)

• أقول: إن الذي نفي عن الكفار في الآية المتقدمة هو مسارعة الله للكفار في الخيرات والذي أثبت للمؤمنين في هذه الآية هو مسارعة المؤمنين في الخيرات، والذي وجهه في هذا الوجه أن مسارعتهم في الخيرات مسارعة من الله سبحانه بوجه فيبقى عليه أن يبين الوجه في وضع مسارعتهم في الآية موضع مسارعته تعالى وتبديلها منها، ووجهه بعضهم بأن تغيير الأسلوب للإيماء إلى كمال استحقاقهم لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم، وهو كما ترى.

• والظاهر أن هذا التبديل إنما هو في قوله في الآية المتقدمة: ﴿نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ﴾ والمراد بيان أنهم يحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين خيرات يتسارعون إليها لكرامتهم وهم كافرون لكن لما كان ذلك بإعطاء من الله تعالى لا بقدرتهم عليها من أنفسهم نسبت المسارعة إليه تعالى ثم نفيت بالاستفهام الإنكاري، وأثبت ما يقابله على الأصل للمؤمنين.

• فمحصل هذا النفي والإثبات أن المال والبنين ليست خيرات يتسارعون إليها ولا هم مسارعون إلى الخيرات بل الأعمال الصالحة وآثارها الحسنة هي الخيرات والمؤمنون هم المسارعون إلى الخيرات.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿يُؤْتُونَ ما آتَوْا﴾ قال من العبادة والطاعة.

ب. أخرج الفاريابي وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن ماجة وابن أبي الدنيا في نعت الخائفين وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن عائشة

قالت: قلت: يا رسول الله قول الله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر، وهو مع ذلك يخاف الله؟ قال: لا ولكن الرجل يصوم ويتصدق ويصلي، وهو مع ذلك يخاف الله أن لا يتقبل منه.

ج. وفي المجمع في قوله: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قال أبو عبد الله عليه السلام: معناه خائفة أن لا يقبل منهم، وفي رواية أخرى: أتى وهو خائف راج.

١٨. التكليف والكتاب والعدل:

المقطع [١٨] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٤١»:

١. ﴿وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها وَلَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾:

أ. الذي يعطيه السياق أن في الآية ترغيبا وتحضيضا على ما ذكره من صفات المؤمنين ودفعا لما ربما ينصرف الناس بتوهمه عن التلبس بكرامتها من وجهين أحدهما أن التلبس بها أمر سهل في وسع النفوس وليس بذاك الصعب الشاق الذي يستوعره المترفون، والثاني أن الله لا يضيع عملهم الصالح ولا ينسى أجرهم الجزيل.

ب. فقوله: ﴿وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها﴾ نفي للتكليف الحرجي الخارج عن وسع النفوس أما في الاعتقاد فإنه تعالى نصب حججا ظاهرة وآيات باهرة تدل على ما يريد الإيمان به من حقائق المعارف وجهز الإنسان بما من شأنه أن يدركها ويصدق بها وهو العقل ثم راعى حال العقول في اختلافها من جهة قوة الإدراك وضعفه فأراد من كل ما يناسب مقدار تحمله وطوقه فلم يرد من العامة ما يريده من الخاصة ولم يسأل الأبرار عما سأل عنه المقربين ولا ساق المستضعفين بما ساق به المخلصين.

ج. وأما في العمل فإنما ندب الإنسان منه إلى ما فيه خيره في حياته الفردية والاجتماعية الدنيوية وسعادته في حياته الأخروية، ومن المعلوم أن خير كل نوع من الأنواع ومنها الإنسان إنما يكون فيما يتم به حياته وينتفع به في عيشته وهو مجهز بما يقوى على إتيانه وعمله، وما هذا شأنه لا يكون حرجيا خارجا عن الوسع والطاقة، فلا تكليف حرجيا في دين الله بمعنى الحكم الحرجي في تشريعه مبنيا على مصلحة حرجية، وبذلك امتن الله سبحانه على عباده، وطيب نفوسهم ورغبهم إلى ما وصفه من حال المؤمنين.

د. والآية ﴿وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها﴾ تدل على ذلك وزيادة فإنها تدل على نفي التكليف المبني على الحرج في أصل تشريعه كتشريع الرهبانية والتقرب بذبح الأولاد مثلا، ونفي التكليف الذي هو في نفسه غير حرجي لكن اتفق أن صار بعض مصاديقه حرجيا لخصوصية في المورد كالقيام في الصلاة للمريض الذي لا يستطيعه فالجميع منفي بالآية وإن كان الامتنان والترغيب المذكوران يتمان بنفي القسم الأول.

هـ. والدليل عليه في الآية تعلق نفي التكليف بقوله: ﴿نَفْساً﴾ وهو نكرة في سياق النفي يفيد العموم، وعليه فأي نفس مفروضة في أي حادثة لا تكلف إلا وسعها ولا يتعلق بها حكم حرجي سواء كان حرجيا من أصله أو صار حرجيا في خصوص المورد.

و. وقد ظهر أن في الآية إمضاء لدرجات الاعتقاد بحسب مراتب العقول ورفعا للحرج سواء كان في أصل الحكم أو طارئا عليه.

٢. ﴿وَلَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾:

أ. ترغيب لهم بتطييب نفوسهم بأن عملهم لا يضيع وأجرهم لا يتخلف والمراد بنطق الكتاب إعرابه عما أثبت فيه إعرابا لا لبس فيه وذلك لأن أعمالهم مثبتة في كتاب لا ينطق إلا بما هو حق فهو مصون عن الزيادة والنقيصة والتحريف، والحساب مبني على ما أثبت فيه كما يشير إليه قوله: ﴿يَنْطِقُ﴾ والجزاء مبني على ما يستنتج من الحساب كما يشير إليه قوله: ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ فهم في أمن من الظلم بنسيان أجرهم أو بترك إعطائه أو بنقصه أو تغييره كما أنهم في أمن من أن لا يحفظ أعمالهم أو تنسى بعد الحفظ أو تتغير بوجه من وجوه التغير.

ب. قال الرازي في التفسير الكبير، فإن قيل: هؤلاء الذين يعرض عليهم ذلك الكتاب إما أن يكونوا محيلين الكذب على الله تعالى أو مجوزين ذلك عليه فإن أحالوه عليه فإنهم يصدقونه في كل ما يقول سواء وجد الكتاب أو لم يوجد، وإن جوزوه عليه لم يثقوا بذلك الكتاب لتجويزهم أنه سبحانه كتب فيه خلاف ما حصل فعلى التقديرين لا فائدة في ذلك الكتاب، قلنا: يفعل الله ما يشاء، وعلى أنه لا يبعد أن يكون ذلك مصلحة للمكلفين من الملائكة)

• أقول: والذي أجاب به مبني على مسلكه من نفي الغرض عن فعله تعالى وتجويز الإرادة الجزافية

تعالى عن ذلك، والإشكال مطرد في سائر شئون يوم القيامة التي أخبر الله سبحانه بها كالحشر والجمع وإشهاد الشهود ونشر الكتب والدواوين والصراط والميزان والحساب.

• والجواب عن ذلك كله: أنه تعالى مثل لنا ما يجري على الإنسان يوم القيامة في صورة القضاء والحكم الفصل، ولا غنى للقضاء بما أنه قضاء عن الاستناد إلى الحجج والبينات كالكتب والشهود والأمارات والجمع بين المتخاصمين ولا يتم دون ذلك البتة.

• نعم لو أغمضنا النظر عن ذلك كان ظهور أعمال الإنسان له في مراحل رجوعه إلى الله سبحانه بإذنه، فافهمه.

١٩. القلوب والغمرة والأعمال القبيحة:

المقطع [١٩] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٤٣»:

١. ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا وَلَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ هُمْ لَها عامِلُونَ﴾ المناسب لسياق الآيات أن يكون ﴿هذا﴾ إشارة إلى ما وصفته الآيات السابقة من حال المؤمنين ومسارعتهم في الخيرات، ويمكن أن يكون إشارة إلى القرآن كما يؤيده قوله بعد: ﴿قَدْ كانَتْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ﴾

٢. والغمرة الغفلة الشديدة أو الجهل الشديد الذي غمرهم، وقوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ﴾، أي من غير ما وصفناه من حال المؤمنين وهو كناية عن أن لهم شاغلا يشغلهم عن هذه الخيرات والأعمال الصالحة وهو الأعمال الرديئة الخبيثة التي هم لها عاملون، والمعنى: بل الكفار في غفلة شديدة أو جهل شديد عن هذا الذي وصفنا به المؤمنين ولهم أعمال رديئة خبيثة من دون ذلك هم لها عاملون في شاغلتهم ومانعتهم.

٢٠. إهلاك المترفين بالعذاب وجأرهم واستكبارهم:

المقطع [٢٠] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤-٦٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٤٤»:

١. ﴿حَتَّى إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذابِ إِذا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾

أ. الجؤار بضم الجيم، صوت الوحش كالظباء ونحوها عند الفزع كني به عن رفعهم الصوت بالاستغاثة والتضرع، وقيل: المراد به ضجتهم وجزعهم والآيات التالية تؤيد المعنى الأول.

ب. وإنما جعل مترفيهم متعلق العذاب لأن الكلام فيمن ذكره قبلا بقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَبَنِينَ﴾ وهم الرؤساء المتنعمون منهم وغيرهم تابعون لهم.

٢. ﴿لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ﴾ العدول عن سياق الغيبة إلى الخطاب لتشديد التوبيخ والتقريع ولقطع طمعهم في النجاة بسبب الاستغاثة وأي رجاء وأمل لهم فيها فإن أخبار الوسائط أنهم لا ينصرون لدعاء أو شفاعة لا يقطع طمعهم في النصر كما يقطعه أخبار من إليه النصر نفسه.

٣. ﴿قَدْ كانَتْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿تَهْجُرُونَ﴾:

أ. النكوص: الرجوع القهقرى، والسامر من السمر وهو التحديث بالليل، قيل: السامر كالحاضر يطلق على المفرد والجمع، وقرئ (سمرا)، بضم السين وتشديد الميم جمع سامر وهو أرجح، وقرئ أيضا (سمارا)، بالضم والتشديد ـ، والهجر: الهذيان.

ب. والفصل في قوله: ﴿قَدْ كانَتْ آياتِي﴾، لكونه في مقام التعليل، والمعنى: إنكم منا لا تنصرون لأنه قد كانت آياتي تتلى وتقرأ عليكم فكنتم تعرضون عنها وترجعون إلى أعقابكم القهقرى مستكبرين بنكوصكم تحدثون في أمره في الليل تهجرون وتهذون، وقيل: ضمير ﴿بِهِ﴾ عائد إلى البيت أو الحرم وهو كما ترى.

٤. أحاديث وآثار: أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿حَتَّى إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذابِ﴾ قال ذكر لنا أنها نزلت في الذين قتل الله يوم بدر.

• أقول: وروي مثله عن النسائي عن ابن عباس ولفظه قال: هم أهل بدر، وسياق الآيات لا ينطبق على مضمون الروايتين.

٢١. التدبر والحق والجنون والإعراض:

المقطع [٢١] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٨ـ٧٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٤٤»:

١. ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾:

أ. شروع في قطع أعذارهم في الإعراض عن القرآن النازل لهدايتهم وعدم استجابتهم للدعوة الحقة التي قام بها النبي ﷺ.

ب. فقوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ الاستفهام فيه للإنكار واللام في ﴿الْقَوْلَ﴾ للعهد والمراد به القرآن المتلو عليهم، والكلام متفرع على ما تقدمه من كونهم في غفلة منه وشغل يشغلهم عنه، والمعنى: هل إذا كانوا على تلك الحال لم يدبروا هذا القول المتلو عليهم حتى يعلموا أنه حق من عند الله فيؤمنوا به.

٢. ﴿أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾:

أ. ﴿أَمْ﴾ فيه وفيما بعده منقطعة في معنى الإضراب، والمعنى: بل أجاءهم شيء لم يأت آباءهم الأولين فيكون بدعا ينكر ويحترز منه.

ب. وكون الشيء بدعا محدثا لا يعرفه السابقون وإن لم يستلزم كونه باطلا غير حق على نحو الكلية لكن الرسالة الإلهية لما كانت لغرض الهداية لو صحت وجبت في حق الجميع فلو لم يأت الأولين كان ذلك حجة قاطعة على بطلانها.

٣. ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾:

أ. المراد بمعرفة الرسول معرفته بنسبه وحسبه وبالجملة بسجاياه الروحية وملكاته النفسية من اكتسابية وموروثة حتى يتبين به أنه صادق فيما يقول مؤمن بما يدعو إليه مؤيد من عند الله وقد عرفوا من النبي ﷺ سوابق حاله قبل البعثة، وقد كان يتيما فاقدا للأبوين لم يقرأ ولم يكتب ولم يأخذ أدبا من مؤدب ولا تربية من مرب ثم لم يجدوا عنده ما يستقبحه عقل أو يستنكره طبع أو يستهجنه رأي ولا طمعا في ملك أو حرصا على مال أو ولعا بجاه، وهو على ما هو سنين من عمره فإذا هو ينادي للفلاح والسعادة ويندب إلى حقائق ومعارف تبهر العقول ويدعو إلى شريعة تحير الألباب ويتلو كتابا.

ب. فهم قد عرفوا رسولهم ﷺ بنعوته الخاصة المعجزة لغيره، ولو لم يكونوا يعرفونه لكان لهم عذرا في إعراضهم عن دينه واستنكافهم عن الإيمان به لأن معنى عدم معرفته كذلك وجدانه على غير بعض هذه النعوت أو عدم إحرازه فيه، ومن المعلوم أن إلقاء الزمام إلى من هذا شأنه مما لا يجوزه العقل.

٤. ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ﴾:

أ. وهذا عذر آخر لهم تشبثوا به إذ قالوا: ﴿يا أَيُّها الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] ذكره ورده بلازم قوله: ﴿بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِ﴾

ب. فمدلول قوله: ﴿بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ﴾ إضراب عن جملة محذوفة والتقدير إنهم كاذبون في قولهم، ﴿بِهِ جِنَّةٌ﴾ واعتذارهم عن عدم إيمانهم به بذلك بل إنما كرهوا الإيمان به لأنه جاء بالحق وأكثرهم للحق كارهون.

ج. ولازمه رد قولهم بحجة يلوح إليها هذا الإضراب، وهي أن قولهم: ﴿بِهِ جِنَّةٌ﴾ لو كان حقا كان كلامه مختل النظم غير مستقيم المعنى مدخولا فيه كما هو مدخول في عقله، غير رام إلى مرمى صحيح، لكن كلامه ليس كذلك فلا يدعو إلا إلى حق، ولا يأتي إلا بحق، وأين ذلك من كلام مجنون لا يدري ما يريد ولا يشعر بما يقول.

د. وإنما نسب الكراهة إلى أكثرهم لأن فيهم مستضعفين لا يعبأ بهم أرادوا أو كرهوا.

٢٢. اتباع الحق لأهواء الناس يفسد الكون:

المقطع [٢٢] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٤٦»:

١. ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾:

أ. لما ذكر أن أكثرهم للحق كارهون وإنما يكرهون الحق لمخالفته هواهم فهم يريدون من الحق أي الدعوة الحقة أن يتبع أهواءهم وهذا مما لا يكون البتة.

ب. إذ لو اتبع الحق أهواءهم فتركوا وما يهوونه من الاعتقاد والعمل فعبدوا الأصنام واتخذوا الأرباب ونفوا الرسالة والمعاد واقترفوا ما أرادوه من الفحشاء والمنكر والفساد جاز أن يتبعهم الحق في غير ذلك من الخليقة والنظام الذي يجري فيها بالحق إذ ليس بين الحق والحق فرق فأعطي كل منهم ما يشتهيه من جريان النظام وفيه فساد السماوات والأرض ومن فيهن واختلال النظام وانتقاض القوانين الكلية الجارية في الكون فمن البين أن الهوى لا يقف على حد ولا يستقر على قرار.

ج. وبتقرير آخر أدق وأوفق لما يعطيه القرآن من حقيقة الدين القيم أن الإنسان حقيقة كونية مرتبطة في وجودها بالكون العام وله في نوعيته غاية هي سعادته وقد خط له طريق إلى سعادته وكماله ينالها بطي الطريق المنصوب إليها نظير غيره من الأنواع الموجودة، وقد جهزه الكون العام وخلقته الخاصة به من القوى والآلات بما يناسب سعادته والطريق المنصوب إليها وهي الاعتقاد والعمل اللذان ينتهيان به إلى سعادته.

د. فالطريق التي تنتهي بالإنسان إلى سعادته أعني الاعتقادات والأعمال الخاصة المتوسطة بينه وبين سعادته وهي التي تسمى الدين وسنة الحياة متعينة حسب اقتضاء النظام العام الكوني والنظام الخاص الإنساني الذي نسميه الفطرة وتابعة لذلك.

هـ. وهذا هو الذي يشير تعالى إليه بقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ سورة [الروم: ٣٠]

و. فسنة الحياة التي تنتهي بسالكها إلى السعادة الإنسانية طريقة متعينة يقتضيها النظام بالحق وتكشف عنها تجهيزات وجوده بالحق، وهذا الحق هو القوانين الثابتة غير المتغيرة التي تحكم في النظام الكوني الذي أحد أجزائه النظام الإنساني وتدبره وتسوقه إلى غاياته وهو الذي قضى به الله سبحانه فكان حتما مقضيا.

ز. فلو اتبع الحق أهواءهم فاقتضى لهم من الشرع ما تجازف به أهواؤهم لم يكن ذلك إلا بتغير أجزاء الكون عما هي عليه وتبدل العلل والأسباب غيرها وتغير الروابط المنتظمة إلى روابط جزافية مختلة متدافعة توافق مقتضياتها مجازفات أهوائهم، وفي ذلك فساد السماوات والأرض ومن فيهن في أنفسها والتدبير الجاري فيها لأن كينونتها وتدبيرها مختلطان غير متمايزين، والخلق والأمر متصلان غير منفصلين.

ح. وهذا هو الذي يشير إليه قوله: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾

٢. ﴿بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾:

أ. لا ريب أن المراد بالذكر هو القرآن كما قال: ﴿وَهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] إلى غير ذلك من الآيات، ولعل التعبير عنه بالذكر بعد قوله: ﴿أَمْ

يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ نوع مقابلة لقولهم: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]

ب. وكيف كان فقد سمي ذكرا لأنه يذكرهم بالله أو يذكر لهم دين الله من الاعتقاد الحق والعمل الصالح، والثاني أوفق لصدر الآية بما تقدم من معناه، وإنما أضيف إليهم لأن الدين أعني الدعوة الحقة مختلفة بالنسبة إلى الناس بالإجمال والتفصيل والذي يذكره القرآن آخر مراحل التفصيل لكون شريعته آخر الشرائع.

ج. والمعنى: لم يتبع الحق أهواءهم بل جئناهم بكتاب يذكرهم، أو يذكرون به، دينهم الذي يختص بهم ويتفرع عليه أنهم عن دينهم الخاص بهم معرضون.

د. وقال كثير منهم إن إضافة الذكر إليهم للتشريف نظير قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، والمعنى: بل أتيناهم بفخرهم وشرفهم الذي كان يجب عليهم أن يقبلوا عليه أكمل إقبال فهم بما فعلوه من النكوص عن فخرهم وشرفهم أنفسهم معرضون.

• وفيه أنه لا ريب في أن القرآن الكريم شرف للنبي ﷺ إذ أنزل عليه ولأهل بيته إذ نزل في بيتهم، وللعرب إذ نزل بلغتهم وللأمة إذ نزل لهدايتهم غير أن الإضافة في الآية ليست لهذه العناية بل لعناية اختصاص هذا الدين بهذه الأمة وهو الأوفق لصدر الآية بالمعنى الذي تقدمت الإشارة إليه.

٣. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ﴾ قال: الحق رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام.

• أقول: هو من البطن بالمعنى الذي تقدم في بحث المحكم والمتشابه ونظيره ما أورده: في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قال إلى ولاية أمير المؤمنين عليه السلام وكذا ما أورده في قوله: ﴿عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ﴾ قال: عن الإمام لحادون.

٢٣. الأجر والرزق والخير:

المقطع [٢٣] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المؤمنون: ٧٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٤٨»:

١. ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَراجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾:

أ. قال في مجمع البيان:، أصل الخراج والخرج واحد وهو الغلة التي يخرج على سبيل الوظيفة)

ب. وهذا رابع الأعذار التي ذكرت في هذه الآيات وردت ووبخوا عليها وقد ذكره الله بقوله: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً﴾ أي مالا يدفعونه إليك على سبيل الرسم والوظيفة ثم ذكر غنى النبي ﷺ بقوله: ﴿فَخَراجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي إن الله هو رازقك ولا حاجة لك إلى خرجهم، وقد تكرر الأمر بإعلامهم ذلك في الآيات ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ [الأنعام: ٩٠] [الشورى: ٢٣]

ج. وقد تمت بما ذكر في الآية أربعة من الأعذار المردودة إليهم وهي مختلفة فأولها ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ راجع إلى القرآن والثاني ﴿أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ إلى الدين الذي إليه الدعوة، والثالث ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ إلى نفس النبي ﷺ، والرابع ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً﴾ إلى سيرته.

٢٤. الصراط المستقيم والناكبون عنه:

المقطع [٢٤] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٣-٧٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٤٨»:

١. ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ﴾:

أ. النكب والنكوب العدول عن الطريق والميل عن الشيء.

ب. قد تقدم في تفسير سورة الفاتحة أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا يختلف ولا يتخلف في حكمه وهو إيصاله سالكيه إلى الغاية المقصودة، وهذه صفة الحق فإن الحق واحد لا يختلف أجزاؤه بالتناقض والتدافع ولا يتخلف في مطلوبه الذي يهدي إليه فالحق صراط مستقيم، وإذ ذكر أن النبي ﷺ يهدي إلى الحق كان لازمه هذا الذي ذكره أنه يهدي إلى صراط مستقيم.

ج. ثم إن الذين كفروا لما كانوا كارهين للحق كما ذكره فهم عادلون عن الصراط أي الصراط المستقيم مائلون إلى غيره.

د. وإنما أورد من أوصافهم عدم إيمانهم بالآخرة واقتصر عليه لأن دين الحق مبني على أساس أن للإنسان حياة خالدة لا تبطل بالموت وله فيها سعادة يجب أن تقتنى بالاعتقاد الحق والعمل الصالح وشقاوة يجب أن تجتنب وهؤلاء لنفيهم الحياة الآخرة يعدلون عن الحق والصراط المستقيم.

هـ. وبتقرير آخر: دين الحق مجموع تكاليف اعتقادية وعملية والتكليف لا يتم إلا بحساب وجزاء،

وقد عين لذلك يوم القيامة، وإذ لا يؤمن هؤلاء بالآخرة لغا الدين عندهم فلا يرون من الحياة إلا الحياة الدنيا المادية ولا يبقى من السعادة عندهم إلا نيل اللذائذ المادية وهو التمتع بالبطن فما دونه، ولازم ذلك أن يكون المتبع عندهم الهوى وافق الحق أو خالفه.

و. فمحصل الآيتين أنهم ليسوا بمؤمنين بك لأنك تدعو إلى صراط مستقيم وهم لا هم لهم إلا العدول والميل عنه.

٢. ﴿وَلَوْ رَحِمْناهُمْ وَكَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾:

أ. اللجاج التمادي والعناد في تعاطي الفعل المزجور عنه، والعمه التردد في الأمر من التحير، ذكرهما الراغب، وفي المجمع: (الاستكانة الخضوع وهو استفعل من الكون، والمعنى ما طلبوا الكون على صفة الخضوع)

ب. ﴿وَلَوْ رَحِمْناهُمْ﴾ بيان وتأييد لنكوبهم عن الصراط بأنا لو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر لم يرجعوا بمقابلة ذلك الشكر بل أصروا على تمردهم عن الحق وتمادوا يترددون في طغيانهم فلا ينفعهم رحمة بكشف الضر كما لا ينفعهم تخويف بعذاب ونقمة فإنا قد أخذناهم بالعذاب فما خضعوا لربهم وما يتضرعون إليه فهؤلاء لا ينفعهم ولا يركبهم صراط الحق لا رحمة بكشف الضر ولا نقمة وتخويف بالأخذ بالعذاب.

٢٥. العذاب الشديد والاستكانة:

المقطع [٢٥] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦-٧٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٥٠»:

١. ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾:

أ. المراد بالعذاب العذاب الخفيف الذي لا ينقطع به الإنسان عن عامة الأسباب بقرينة ما في الآية التالية فلا يرد أن الرجوع إلى الله تعالى عند الاضطرار والانقطاع عن الأسباب من غريزيات الإنسان كما تكرر ذكره في القرآن الكريم فكيف يمكن أن يأخذهم العذاب ثم لا يستكينوا ولا يتضرعوا؟

ب. وقوله في الآية الأولى: ﴿ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾ وفي الثانية: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ﴾ يدل على

أن الكلام ناظر إلى عذاب قد وقع ولما يرتفع حين نزول الآيات، ومن المحتمل أنه الجدب الذي ابتلي به أهل مكة وقد ورد ذكر منه في الروايات.

٢. ﴿حَتَّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي هم على حالهم هذه لا ينفع فيهم رحمة ولا عذاب حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد وهو الموت بما يستتبعه من عذاب الآخرة، على ما يعطيه سياق الآيات وخاصة الآيات الآتية، فيفاجئوهم الإبلاس واليأس من كل خير.

٣. وقد ختم هذا الفصل من الكلام أعني قوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ إلخ بنظير ما ختم به الفصل السابق أعني قوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَبَنِينَ﴾ إلى آخر الآيات وهو ذكر عذاب الآخرة، وسيعود إليه ثانيا.

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: جاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز، يعني الوبر بالدم فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ، فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَما يَتَضَرَّعُونَ﴾

• أقول: والروايات في هذا المعنى مختلفة وما أوردناه أعدلها وهي تشير إلى جدب وقع بمكة وحواليها بدعوة النبي ﷺ، وظاهر أكثرها أنه كان بعد الهجرة، ولا يوافق ذلك الاعتبار.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَما يَتَضَرَّعُونَ﴾ فقال: الاستكانة هي الخضوع، والتضرع رفع اليدين والتضرع بهما.

ج. وفي المجمع: وروي عن مقاتل بن حيان عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال النبي ﷺ: رفع الأيدي من الاستكانة، قلت: وما الاستكانة؟ قال: أما تقرأ هذه الآية: ﴿فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَما يَتَضَرَّعُونَ﴾؟: أورده الثعلبي والواحدي في تفسيريهما.

د. وفيه، قال أبو عبد الله عليه السلام: الاستكانة الدعاء، والتضرع رفع اليدين في الصلاة.

هـ. أخرج العسكري في المواعظ عن علي بن أبي طالب: في قوله: ﴿فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَما يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي لم يتواضعوا في الدعاء ولم يخضعوا، ولو خضعوا لله لاستجاب لهم.

و. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ﴾ قال أبو جعفر عليه السلام هو في الرجعة.

٢٦. السمع والأبصار والأفئدة والحشر:

المقطع [٢٦] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨ـ٨٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٥٣»:

١. ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ﴾:

أ. افتتح سبحانه من نعمه التي أنعمها عليهم بذكر إنشاء السمع والبصر وهما نعمتان خص بهما جنس الحيوان خلقتا فيه إنشاء وإبداعا لا عن مثال سابق إذ لا توجدان في الأنواع البسيطة التي قبل الحيوان كالنبات والجماد والعناصر.

ب. وبحصول هذين الحسين يقف الوجود المجهز بهما موقفا جديدا ويتسع مجال فعاليته بالنسبة إلى ما هو محروم منهما اتساعا لا يتقدر بقدر فيدرك خيره وشره ونافعه وضاره ويعطي معهما الحركة الإرادية إلى ما يريده وعما يكرهه، ويستقر في عالم حديث طري فيه مجالي الجمال واللذة والعزة والغلبة والمحبة مما لا خبر عنه فيما قبله.

ج. وإنما اقتصر من الحواس بالسمع والبصر، قيل، لأن الاستدلال يتوقف عليهما ويتم بهما.

د. ثم ذكر سبحانه الفؤاد والمراد به المبدأ الذي يعقل من الإنسان وهو نعمة خاصة بالإنسان من بين سائر الحيوان ومرحلة حصول الفؤاد مرحلة وجودية جديدة هي أرفع درجة وأعلى منزلة وأوسع مجالا من عالم الحيوان الذي هو عالم الحواس فيتسع به أولا شعاع عمل الحواس مما كان عليه في عامة الحيوان بما لا يتقدر بقدر فإذا الإنسان يدرك بهما ما غاب وما حضر وما مضى وما غبر من أخبار الأشياء وآثارها وأوصافها بعلاج وغير علاج.

هـ. ثم يرقى بفؤاده أي بتعقله إلى ما فوق المحسوسات والجزئيات فيتعقل الكليات فيحصل القوانين الكلية، ويغور متفكرا في العلوم النظرية والمعارف الحقيقية، وينفذ بسلطان التدبر في أقطار السماوات والأرض.

و. ففي ذلك كله من عجيب التدبير الإلهي بإنشاء السمع والأبصار والأفئدة ما لا يسع الإنسان أن يستوفي شكره.

ز. ﴿قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ﴾ فيه بعض العتاب ومعناه تشكرون شكرا قليلا فقوله: ﴿قَلِيلاً﴾ وصف للمفعول المطلق قائم مقامه.

٢. ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾:

أ. قال الراغب: (الذرأ إظهار الله تعالى ما أبداه يقال: ذرأ الله الخلق أي أوجد أشخاصهم، وقال: الحشر إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها)

ب. فالمعنى: أنه لما جعلكم ذوي حس وعقل أظهر وجودكم في الأرض متعلقين بها ثم يجمعكم ويرجعكم إلى لقائه.

٣. ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ معنى الآية ظاهر، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ مترتب بحسب المعنى على الجملة التي قبله أي لما جعلكم ذوي علم وأظهر وجودكم في الأرض إلى حين حتى تحشروا إليه لزمت ذلك سنة الإحياء والإماتة إذ العلم متوقف على الحياة والحشر متوقف على الموت.

٤. ﴿وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾ مترتب على ما قبله فإن الحياة ثم الموت لا تتم إلا بمرور الزمان وورود الليل بعد النهار والنهار بعد الليل حتى ينقضي العمر ويحل الأجل المكتوب، هذا لو أريد باختلاف الليل والنهار وورود الواحد منها بعد الواحد، ولو أريد به اختلافهما في الطول والقصر كانت فيه إشارة إلى إيجاد فصول السنة الأربعة المتفرعة على طول الليل والنهار وقصرهما وبذلك يتم أمر إرزاق الحيوان وتدبير معاشها كما قال: ﴿وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠]

٥. فمضامين الآيات الثلاث مترتبة مستتبعة بعضها بعضا فإنشاء السمع والبصر والفؤاد وهو الحس والعقل للإنسان يستتبع حياة متعلقة بالمادة وسكونا في الأرض إلى حين، ثم الرجوع إلى الله، وهو يستتبع حياة وموتا، وذلك يستتبع عمرا متقضيا بانقضاء الزمان ورزقا يرتزق به، فالآيات الثلاث تتضمن إشارة إلى دور كامل من تدبير أمر الإنسان من حين يخلق إلى أن يرجع إلى ربه، والله سبحانه هو مالك خلقه فهو مالك تدبير أمره لأن هذا التدبير تدبير تكويني لا يفارق الخلق والإيجاد ولا ينحاز عنه، وهو نظام

الفعل والانفعال الجاري بين الأشياء بما بينها من الروابط المختلفة المجعولة بالتكوين فالله سبحانه هو ربهم المدبر لأمرهم وإليه يحشرون، وقوله: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ توبيخ لهم وحث على التنبه فالإيمان.

٢٧. البعث والأساطير والربوبية:

المقطع [٢٧] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ للهِّ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ للهِّ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ للهِّ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨١-٨٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٥٥»:

١. ﴿بَلْ قالُوا مِثْلَ ما قالَ الْأَوَّلُونَ﴾:

أ. إضراب عن نفي سابق يدل عليه الاستفهام المتقدم أي لم يعقلوا بل قالوا كذا وكذا.

ب. وفي تشبيه قولهم بقول الأولين إشارة إلى أن تقليد الآباء منعهم عن اتباع الحق وأوقعهم فيما لا يبقى معه للدين جدوى وهو نفي المعاد، والإخلاص إلى الأرض والانغمار في الماديات سنة جارية فيهم في آخراهم وأولاهم.

٢. ﴿قالُوا أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ بيان لقوله: ﴿قالُوا﴾ في الآية السابقة والكلام مبني على الاستبعاد.

٣. ﴿لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وَآباؤُنا هذا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾:

أ. الأساطير الأباطيل والأحاديث الخرافية وهي جمع أسطورة كأكاذيب جمع أكذوبة وأعاجيب جمع أعجوبة وإطلاق الأساطير وهو جمع على البعث وهو مفرد بعناية أنه مجموع عدات كل واحد منها أسطورة كالإحياء والجمع والحشر والحساب والجنة والنار وغيرها، والإشارة بهذا إلى حديث البعث وقوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، متعلق بقوله: ﴿وُعِدْنا﴾ على ما يعطيه سياق الجملة.

ب. والمعنى: أن وعد البعث وعد قديم ليس بحديث نقسم لقد وعدناه من قبل نحن وآباؤنا ليس البعث الموعود إلا أحاديث خرافية وضعها ونظمها الأناسي الأولون في صورة إحياء الأموات وحساب

الأعمال والجنة والنار والثواب والعقاب.

ج. والدليل على كونها أساطير أن الأنبياء من قديم الدهر لا يزالون يعدوننا ويخوفوننا بقيام الساعة ولو كان حقا غير خرافي لوقع.

د. ومن هنا يظهر:

- أولا: أن قولهم: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ لتمهيد الحجة على قولهم بعده ﴿إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾
- وثانيا: أن الكلام مسوق للترقي فالآية السابقة: ﴿أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ مبنية على الاستبعاد وهذه الآية متضمنة للإنكار مبنيا على حجة واهية.

٤. ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيها إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

أ. لما ذكر استبعادهم للبعث ثم إنكارهم له شرع في الاحتجاج على إمكانه من طريق الملك والربوبية والسلطنة، ووجه الكلام إلى الوثنيين المنكرين للبعث وهم معترفون به تعالى بمعنى أنه الموجد للعالم ورب الأرباب والآلهة المعبودون دونه من خلقه، ولذا أخذ وجوده تعالى مسلما في ضمن الحجة.

ب. فقوله: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيها﴾ أمر للنبي ﷺ أن يسألهم عن مالك الأرض ومن فيها من أولي العقل من هو؟ ومعلوم أن السؤال إنما هو عن الملك الحقيقي الذي هو قيام وجود شيء بشيء بحيث لا يستقل الشيء المملوك عن مالكه بأي وجه فرض دون الملك الاعتباري الذي وضعناه معاشر المجتمعين لمصلحة الاجتماع وهو يقبل الصحة والفساد ويقع موردا للبيع والشري، وذلك لأن الكلام مسوق لإثبات صحة جميع التصرفات التكوينية وملاكها الملك التكويني الحقيقي دون التشريعي الاعتباري.

٥. ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾:

أ. إخبار عن جوابهم وهو أن الأرض ومن فيها مملوكة لله، ولا مناص لهم عن الاعتراف بكونها لله سبحانه فإن هذا النوع من الملك لا يقوم إلا بالعلة الموجدة لمعلولها حيث يقوم وجود المعلول بها قياما لا يستقل عنها بوجه من الوجوه، والعلة الموجدة للأرض ومن فيها هو الله سبحانه وحده لا شريك له حتى باعتراف الوثنيين.

ب. ﴿قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ أمر بعد تسجيل الجواب أن يوبخهم على عدم تذكرهم بالحجة الدالة على إمكان البعث، والمعنى قل لهم فإذا كان الله سبحانه مالك الأرض ومن فيها لم لا تتذكرون أن له، لمكان

مالكيته، أن يتصرف في أهلها بالإحياء بعد الإماتة.

٦. ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾:

أ. أمره ثانيا أن يسألهم عن رب السماوات السبع ورب العرش العظيم من هو؟

ب. والمراد بالعرش هو المقام الذي يجتمع فيه أزمة الأمور ويصدر عنه كل تدبير، وتكرار لفظ الرب في قوله: ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ للإشارة إلى أهمية أمره ورفعة محله كما وصفه الله بالعظمة، وقد تقدم البحث عنه في تفسير سورة الأعراف.

٧. ذكروا أن قولنا: لمن السماوات السبع وقولنا: من رب السماوات السبع بمعنى واحد كما يقال: لمن الدار ومن رب الدار فقوله تعالى: ﴿مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ﴾؟ سؤال عن مالكها، ولذا حكى الجواب عنهم بقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ على المعنى ولو أنه أجيب عنه فقيل: (الله) كما في القراءة الأخرى كان جوابا على اللفظ:

أ. وفيه أن الذي ثبت في اللغة أن رب الشيء هو مالكه المدبر لأمره بالتصرف فيه فيكون الربوبية أخص من الملك، ولو كان الرب مرادفا للمالك لم يستقم ترتب الجواب على السؤال في الآيتين السابقتين ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيها﴾ إلى قوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ إذ كان معنى السؤال: من رب الأرض ومن فيها، ومن المعلوم أنهم كانوا قائلين بربوبية آلهتهم من دون الله للأرض ومن فيها فكان جوابهم إثبات الربوبية لآلهتهم من غير أن يكونوا ملزمين بتصديق ذلك لله سبحانه وهذا بخلاف السؤال عن مالك الأرض ومن فيها فإن الجواب عنه تصديقه لله لأنهم كانوا يرون الإيجاد لله والملك لازم الإيجاد فكانوا ملزمين بالاعتراف به.

ب. ثم على تقدير كون الرب أخص من المالك يمكن أن يتوهم توجه الإشكال إلى ترتب الجواب على السؤال في الآية المبحوث عنها ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ﴾ إلى قوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ فإن جل الوثنيين من الصابئين وغيرهم يرون للسماوات وما فيها من الشمس والقمر وغيرهما آلهة دون الله فلو أجابوا عن السؤال عن رب السماوات أجابوا بإثبات الربوبية لآلهتهم دون الله فلا يستقيم قوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ إذ لا ملزم يلزمهم على الاعتراف به.

ج. والذي يحسم أصل الإشكال أن البحث العميق عن معتقدات القوم يعطي أنهم لم يكونوا يبنون

آراءهم في أمر الآلهة على أصل أو أصول منظمة مسلمة عند الجميع فأمثال الصابئين والبرهمائيين والبوذيين كانوا يقسمون أمور العالم إلى أنواع وأقسام كأمر السماء والأرض وأنواع الحيوان والنبات والبر والبحر وغير ذلك ويثبتون لكل منها إلها دون الله يعبدونه من دون الله ويعدونه شفيعا مقربا ثم يتخذون له صنما يمثله.

د. وأما عامتهم من الهمجيين كأعراب الجاهلية والقاطنين في أطراف المعمورة فلم يكن معتقداتهم في ذلك مبنية على قواعد مضبوطة وربما كانوا يرون للمعمورة من الأرض وسكانها آلهة دون الله لها أصنام وربما رأوا نفس الأصنام المصنوعة آلهة، وأما السماوات والسماويات وكذا البحار فكانوا يرونها مربوبة لله سبحانه والله ربها كما يلوح إليه قوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى﴾ [غافر: ٣٧]، فإن ظاهره أنه كان يرى أن الذي يدعو إليه موسى، وهو الله تعالى، إله السماء وبالجملة السماوات وما فيهن ومن فيهن من الملائكة عندهم مربوبون لله سبحانه ثم الملائكة أرباب لما دون السماوات.

هـ. وأما الصابئون ومن يحذو حذوهم فإنهم، كما سمعت، يرون للسماوات وما فيهن من النجوم والكواكب آلهة وأربابا من دون الله وهم الملائكة والجن وهم يرون الملائكة والجن موجودات مجردة عن المادة طاهرة عن لوث الطبيعة، وحينما يعدونهم ساكنين في السماوات فإنما يريدون باطن هذا العالم وهو العالم السماوي العلوي الذي فيه تتقدر الأمور ومنه ينزل القضاء وبه تستمد الأسباب الطبيعية، وهو بما فيه من الملائكة وغيرهم مربوب لله سبحانه وإن كان من فيه آلهة للعالم الحسي وأربابا لمن فيه والله رب الأرباب.

و. إذا تمهدت هذه المقدمة فنقول: إن كان وجه الكلام في الآية الكريمة إلى مشركي العرب كما هو الظاهر، كان السؤال عن رب السماوات السبع والجواب عنه باعترافهم أنه الله في محله كما عرفت، وإن كان وجه الكلام إلى غيرهم ممن يرى للسماء إلها دون الله كان المراد بالسماء العالم السماوي بسكنته من الملائكة والجن دون السماوات المادية، ويؤيده مقارنته بالسؤال عن رب العرش العظيم فإن العرش مقام صدور الأحكام المتعلقة بمطلق الخلق الذي منهم أربابهم وآلهتهم، ومن المعلوم أن لا رب لمقام هذا شأنه إلا الله إذ لا يفوقه شيء دونه.

ز. وهذا العالم العلوي هو عندهم عالم الأرباب والآلهة لا رب له إلا الله سبحانه فالسؤال عن ربه والجواب عنه باعترافهم أنه الله في محله كما أشير إليه.

ح. فمعنى الآية، والله أعلم، قل: من رب السماوات السبع التي منها تنزل أقدار الأمور وأقضيتها ورب العرش العظيم الذي منه يصدر الأحكام لعامة ما في العالم من الملائكة فمن دونهم؟ فإنهم وما يملكونهم باعتقادكم مملوكة لله وهو الذي ملكهم ما ملكوه.

٨. ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾:

أ. حكاية لجوابهم بالاعتراف بأن السماوات السبع والعرش العظيم لله سبحانه.

ب. والمعنى: سيجيبونك بأنها لله قل لهم تبكيتا وتوبيخا: فإذا كان السماوات السبع منها ينزل الأمر والعرش العظيم منه يصدر الأمر لله سبحانه فلم لا تتقون سخطه إذ تنكرون البعث وتعدونه من أساطير الأولين وتسخرون من أنبيائه الذين وعدوكم به؟ فإن له تعالى أن يصدر الأمر ببعث الأموات وإنشاء النشأة الآخرة للإنسان وينزل الأمر به من السماء.

ج. ومن لطيف تعبير الآية التعبير بقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ فإن الحجة تتم بالملك وإن لم يعترفوا بالربوبية.

٩. ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

أ. الملكوت هو الملك بمعنى السلطنة والحكم، ويفيد مبالغة في معناه والفرق بين الملك بالفتح والكسر وبين المالك أن المالك هو الذي يملك المال والملك يملك المالك وماله، فله ملك في طول ملك وله التصرف بالحكم في المال ومالكه.

ب. وقد فسر تعالى ملكوته بقوله: ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس: ٨٣]، فملكوت كل شيء هو كونه عن أمره تعالى بكلمة كن وبعبارة أخرى وجوده عن إيجاده تعالى.

ج. فكون ملكوت كل شيء بيده كناية استعارية عن اختصاص إيجاد كل ما يصدق عليه الشيء به تعالى كما قال: ﴿اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، فملكه تعالى محيط بكل شيء ونفوذ أمره ومضي حكمه ثابت على كل شيء.

د. ولما كان من الممكن أن يتوهم أن عموم الملك ونفوذ الأمر لا ينافي إخلال بعض ما أوجده من

الأسباب والعلل بأمره فيفعل ببعض خلقه ما لا يريده أو يمنعه عما يريده تمم قوله: ﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ بقوله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ وهو في الحقيقة توضيح لاختصاص الملك بأنه بتمام معنى الكلمة فليس لشيء شيء من الملك في عرض ملكه ولو بالمنع والإخلال والاعتراض فله الملك وله الحكم.

١٠. ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾:

أ. من الجوار، وهو في أصله قرب المسكن ثم جعلوا للجوار حقا وهو حماية الجار لجاره عمن يقصده بسوء لكرامة الجار على الجار بقرب الدار واشتق منه الأفعال يقال: استجاره فأجاره أي سأله الحماية فحماه أي منع عنه من يقصده بسوء.

ب. وهذا جار في جميع أفعاله تعالى فما من شيء يخصه الله بعطية حدوثا أو بقاء إلا وهو يحفظه على ما يريد وبمقدار ما يريد من غير أن يمنعه مانع إذ منع المانع، لو فرض، إنما هو بإذن منه ومشية فليس منعا له تعالى بل منعا منه وتحديدا لفعل منه بفعل آخر، وما من سبب من الأسباب يفعل فعلا إلا وله تعالى أن يتصرف فيه بما لا يريده لأنه تعالى هو الذي ملكه الفعل بمشيته فله أن يمنعه منه أو من بعضه.

ج. فالمراد بقوله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أنه يمنع السوء عمن قصد به ولا يمنعه شيء إذا أراد شيئا بسوء عما أراد.

د. ومعنى الآية قل لهؤلاء المنكرين للبعث: من الذي يختص به إيجاد كل شيء بما له من الخواص والآثار وهو يحمي من استجار به ولا يحمى عنه شيء إذا أراد شيئا بسوء؟ إن كنتم تعلمون.

١١. ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾:

قيل: إن المراد بالسحر أن يخيل الشيء للإنسان على خلاف ما هو عليه فهو من الاستعارة أو الكناية.

أ. والمعنى: سيجيبونك أن الملكوت لله قل لهم تبكيتا وتوبيخا: فإلى متى يخيل لكم الحق باطلا فإذا كان الملك المطلق لله سبحانه فله أن يوجد النشأة الآخرة ويعيد الأموات للحساب والجزاء بأمر يأمره وهو قوله: ﴿كُنْ﴾

ب. واعلم أن الاحتجاجات الثلاثة كما تثبت إمكان البعث كذلك تثبت توحده تعالى في الربوبية فإن الملك الحقيقي لا يتخلف عن جواز التصرفات، والمالك المتصرف هو الرب.

٢٨. الحق والكذب والتنزيه:

المقطع [٢٨] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٠-٩٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٦١»:

١. ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ إضراب عن النفي المفهوم من الحجج التي أقيمت في الآيات السابقة، والمعنى فإذا كانت الحجج المبنية تدل على البعث وهم معترفون بصحتها فليس ما وعدهم رسلنا باطلا بل جئناهم بلسان الرسل بالحق وإنهم لكاذبون في دعواهم كذبهم ونفيهم للبعث.

٢. ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾:

أ. القول بالولد كان شائعا بين الوثنيين يعدون الملائكة أو بعضهم وبعض الجن وبعض القديسين من البشر أولادا لله سبحانه وتبعهم النصارى في قولهم: المسيح ابن الله، وهذا النوع من الولادة والبنوة مبني على اشتمال الابن على شيء من حقيقة اللاهوت وجوهره وانفصاله منه بنوع من الاشتقاق فيكون المسمى بالابن إلها مولودا من إله.

ب. وأما البنوة الادعائية بالتبني وهو أخذ ولد الغير ابنا لتشريف أو لغرض آخر فلا يوجب اشتمال الابن على شيء من حقيقة الأب كقول اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه، وليس الولد بهذا المعنى مرادا لأن الكلام مسوق لنفي تعدد الآلهة، ولا يستلزم هذا النوع من البنوة ألوهية وإن كان التسمي والتسمية بها ممنوعا.

ج. فالمراد باتخاذ الولد إيجاد شيء بنحو التبعض والاشتقاق يكون مشتملا بنحو على شيء من حقيقة الموجد لا تسمية شيء موجود ابنا وولدا لغرض من الأغراض كما ذكره بعضهم.

د. والولد، كما عرفت، أخص مصداقا عندهم من الإله فإن بعض آلهتهم ليس بولد عندهم فقوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ ترق من نفي الأخص إلى نفي الأعم ولفظة ﴿مِنْ﴾ في الجملتين زائدة للتأكيد.

٣. ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾:

أ. حجة على نفي التعدد ببيان محذوره إذ لا يتصور تعدد الآلهة إلا ببينونتها بوجه من الوجوه بحيث لا تتحد في معنى ألوهيتها وربوبيتها، ومعنى ربوبية الإله في شطر من الكون ونوع من أنواعه تفويض التدبير فيه إليه بحيث يستقل في أمره من غير أن يحتاج فيه إلى شيء غير نفسه حتى إلى من فوض إليه الأمر، ومن البين أيضا أن المتباينين لا يترشح منهما إلا أمران متباينان.

ب. ولازم ذلك أن يستقل كل من الآلهة بما يرجع إليه من نوع التدبير وتنقطع رابطة الاتحاد والاتصال بين أنواع التدابير الجارية في العالم كالنظام الجاري في العالم الإنساني عن الأنظمة الجارية في أنواع الحيوان والنبات والبر والبحر والسهل والجبل والأرض والسماء وغيرها وكل منها عن كل منها، وفيه فساد السماوات والأرض وما فيهن، ووحدة النظام الكوني والتئام أجزائه واتصال التدبير الجاري فيه يكذبه.

ج. وهذا هو المراد بقوله: ﴿إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ﴾ أي انفصل بعض الآلهة عن بعض بما يترشح منه من التدبير.

٤. ﴿وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ﴾:

أ. محذور آخر لازم لتعدد الآلهة تتألف منه حجة أخرى على النفي، بيانه أن التدابير الجارية في الكون مختلفة منها التدابير العرضية كالتدبيرين الجاريين في البر والبحر والتدبيرين الجاريين في الماء والنار، ومنها التدابير الطولية التي تنقسم إلى تدبير عام كلي حاكم وتدبير خاص جزئي محكوم كتدبير العالم الأرضي وتدبير النبات الذي فيه، وكتدبير العالم السماوي وتدبير كوكب من الكواكب التي في السماء، وكتدبير العالم المادي برمته وتدبير نوع من الأنواع المادية.

ب. فبعض التدبير وهو التدبير العام الكلي يعلو بعضا بمعنى أنه بحيث لو انقطع عنه ما دونه بطل ما دونه لتقومه بما فوقه، كما أنه لو لم يكن هناك عالم أرضي أو التدبير الذي يجري فيه بالعموم لم يكن عالم إنساني ولا التدبير الذي يجري فيه بالخصوص.

ج. ولازم ذلك أن يكون الإله الذي يرجع إليه نوع عال من التدبير عاليا بالنسبة إلى الإله الذي فوض إليه من التدبير ما هو دونه وأخص منه وأخس واستعلاء الإله على الإله محال.

د. لا لأن الاستعلاء المذكور يستلزم كون الإله مغلوبا لغيره أو ناقصا في قدرته محتاجا في تمامه إلى

غيره أو محدودا والمحدودية تفضي إلى التركيب، وكل ذلك من لوازم الإمكان المنافي لوجوب وجود الإله فيلزم الخلف، كما قرره المفسرون، فإن الوثنيين لا يرون لآلهتهم من دون الله وجوب الوجود بل هي عندهم موجودات ممكنة عالية فوض إليهم تدبير أمر ما دونها، وهي مربوبة لله سبحانه وأرباب لما دونها والله سبحانه رب الأرباب وإله الآلهة وهو الواجب الوجود بالذات وحده.

هـ. بل استحالة الاستعلاء إنما هو لاستلزامه بطلان استقلال المستعلى عليه في تدبيره وتأثيره إذ لا يجامع توقف التدبير على الغير والحاجة إليه الاستقلال فيكون السافل منها مستمدا في تأثيره محتاجا فيه إلى العالي فيكون سببا من الأسباب التي يتوسل بها إلى تدبير ما دونه لا إلها مستقلا بالتأثير دونه فيكون ما فرض إلها غير إله بل سببا يدبر به الأمر هذا خلف.

و. هذا ما يعطيه التدبر في الآية، وللمفسرين في تقرير حجة الآية مسالك مختلفة يبتني جميعها على استلزام تعدد الآلهة أمورا تستلزم إمكانها وتنافي كونها واجبة الوجود فيلزم الخلف، والقوم لا يقولون في شيء من آلهتهم من دون الله بوجوب الوجود، وقد أفرط بعضهم فقرر الآية بوجوه مؤلفة من مقدمات لا إشارة في الآية إلى جلها ولا إيهام، وفرط آخرون فصرحوا بأن الملازمة المذكورة في الآية عادية لا عقلية، والدليل إقناعي لا قطعي.

ز. ثم لا يشتبهن عليك أمر قوله: ﴿لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ﴾ حيث نسب الخلقة إليها وقد تقدم أنهم قائلون بإله التدبير دون الإيجاد وذلك لأن بعض الخلق من التدبير فإن خلق جزئي من الجزئيات مما يتم بوجوده النظام الكلي من التدبير بالنسبة إلى النظام الجاري فالخلق بمعنى الفعل والتدبير مختلطان وقد نسب الخلق إلى أعمالنا كما في قوله: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢]

ح. فالقوم يرون أن كلا من الآلهة خالق لما دونه أي فاعل له كما يفعل الواحد منا أفعاله، وأما إعطاء الوجود للأشياء فمما يختص بالله سبحانه وحده لا يرتاب فيه موحد ولا وثني إلا بعض من لم يفرق بين الفعل والإيجاد من المتكلمين.

ط. وقد ختم الآية بالتنزيه بقوله: ﴿سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾

٥. ﴿عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾:

أ. صفة لاسم الجلالة في قوله: ﴿سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ وتأخيرها للدلالة على علمه بتنزهه عن وصفهم إياه بالشركة، على ما يعطيه السياق، فيكون في معنى قوله: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]

ب. ويرجع في الحقيقة إلى الاحتجاج على نفي الشركاء بشهادته تعالى أنه لا يعلم لنفسه شريكا كما أن قوله: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨] احتجاج بالشهادة على نفي أصل الوجود.

ج. وقيل: إنه برهان آخر راجع إلى إثبات العلو أو لزوم الجهل الذي هو نقص وضد العلو لأن المتعددين لا سبيل لهما إلى أن يعلم كل واحد حقيقة الآخر كعلم ذلك الآخر بنفسه بالضرورة وهو نوع جهل وقصور)

• وفيه أن ذلك كسائر ما قرروه من البراهين ينفي تعدد الإله الواجب الوجود بالذات، والوثنيون لا يلتزمون في آلهتهم من دون الله بذلك، على أن بعض مقدمات ما قرر من الدليل ممنوع.

٦. ﴿فَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تفريع على جميع ما تقدم من الحجج على نفي الشركاء.

٢٩. الدعاء والدفع والاستعاذة:

المقطع [٢٩] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٣-٩٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٦٤»:

١. ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي ما يُوعَدُونَ رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾:

أ. لما فرغ من نقل ما تفوهوا به من الشرك بالله وإنكار البعث والاستهزاء بالرسل وأقام الحجج على إثبات حقيتها رجع إلى ما تقدم من تهديدهم بالعذاب فأمر نبيه ﷺ أن يسأله أن ينجيه من العذاب الذي أوعدهم به إن أراه ذلك العذاب.

ب. فقوله: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي ما يُوعَدُونَ﴾ أمر بالدعاء والاستغاثة، وتكرار ﴿رَبِ﴾ لتأكيد التضرع وما في قوله: ﴿إِمَّا تُرِيَنِّي﴾ زائدة وهي المصححة لدخول نون التأكيد على الشرط وأصله: إن ترني، وفي قوله: ﴿ما يُوعَدُونَ﴾ دلالة على أن بعض ما تقدم في السورة من الإيعاد بالعذاب إيعاد بعذاب دنيوي،

وما في قوله: ﴿رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ من الكون فيهم كناية عن شمول عذابهم له.

٢. ﴿وَإِنَّا عَلى أَنْ نُرِيَكَ ما نَعِدُهُمْ لَقادِرُونَ﴾ تطييب لنفس النبي ﷺ بقدرة ربه على أن يكشف عنه بإراءته ما يعدهم من العذاب، ولعل المراد به ما عذبهم الله به يوم بدر وقد أراه الله ذلك وأراه المؤمنين وشفى به غليل صدورهم.

٣. ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ﴾ أي ادفع السيئة التي تتوجه إليك منهم بالحسنة واختر للدفع من الحسنات أحسنها، وهو دفع السيئة بالحسنة التي هي أحسن مثل أنه لو أساءوا إليك بالإيذاء أحسن إليهم بغاية ما استطعت من الإحسان ثم ببعض الإحسان في الجملة ولو لم يسعك ذلك فبالصفح عنهم.

٤. ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ﴾ نوع تسلية للنبي ﷺ أن لا يسوءونه ما يلقاه ولا يحزنه ما يشاهد من تجريهم على ربهم فإنه أعلم بما يصفون.

٥. ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾، قال في مجمع البيان: (الهمزة شدة الدفع، ومنه الهمزة للحرف الذي يخرج من أقصى الحلق باعتماد شديد ودفع، وهمزة الشيطان دفعه بالإغواء إلى المعاصي)، وفي تفسير القمي، عنه عليه السلام: أنه ما يقع في قلبك من وسوسة الشياطين.

٦. وفي الآيتين أمره ﷺ أن يستعيذ بربه من إغواء الشياطين ومن أن يحضروه، وفيه إيهام إلى أن ما ابتلي به المشركون من الشرك والتكذيب من همزات الشياطين وإحاطتهم بهم بالحضور.

٣٠. الموت والرجعة والبرزخ والبعث:

المقطع [٣٠] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٦٦»:

١. ﴿حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ﴿حَتَّى﴾ متعلق بما تقدم من وصفهم له تعالى بما هو منزه منه وشركهم به، والآيات المتخللة اعتراض في الكلام أي لا يزالون يشركون به ويصفونه بما هو منزه منه وهم مغترون بما نمدهم به من مال وبنين حتى إذا جاء أحدهم الموت.

٢. ﴿قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ الظاهر أن الخطاب للملائكة المتصدين لقبض روحه و﴿رَبِّ﴾ استغاثة

معترضة بحذف حرف النداء والمعنى قال، وهو يستغيث بربه، ارجعون.

أ. وقيل: إن الخطاب للرب تعالى والجمع للتعظيم كقول امرأة فرعون له على ما حكاه الله: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ﴾

ب. وقيل: هو من جمع الفعل ويفيد تعدد الخطاب، والمعنى رب ارجعني ارجعني ارجعني كما قيل في قوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل...بسقط اللوى بين الدخول فحومل

أي قف قف نبك.

ج. وفي الوجهين أن الجمع للتعظيم إن صح ثبوته في اللغة العربية فهو شاذ لا يحمل عليه كلامه تعالى، وأشذ منه جمع الفعل بالمعنى الذي ذكر.

٣. ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها﴾:

أ. (لعل) للترجي وهو رجاء تعلقوا به بمعاينة العذاب المشرف عليهم كما ربما ذكروا الرجوع بوعد العمل الصالح كقولهم: ﴿فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً﴾ [السجدة: ١٢]، وربما ذكروه بلفظ التمني كقولهم: ﴿يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا﴾ [الأنعام: ٢٧]

ب. ﴿أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ﴾ أي أعمل عملا صالحا فيما تركت من المال بإنفاقه في البر والإحسان وكل ما فيه رضا الله سبحانه، وقيل: المراد بما تركت الدنيا التي تركها بالموت والعمل الصالح أعم من العبادات المالية وغيرها من صلاة وصوم وحج ونحوها، وهو حسن غير أن الأول هو الأظهر.

٤. ﴿كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها﴾ أي لا يرجع إلى الدنيا إن هذه الكلمة ﴿ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ﴾ كلمة هو قائلها أي لا أثر لها إلا أنها كلمة هو قائلها، فهو كناية عن عدم إجابة مسألته.

٥. ﴿وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾:

أ. البرزخ هو الحاجز بين الشيئين كما في قوله: ﴿بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ﴾ [الرحمن: ٢٠]، والمراد بكونه وراءهم كونه أمامهم محيطا بهم وسمي وراءهم بعناية أنه يطلبهم كما أن مستقبل الزمان أمام الإنسان ويقال: وراءك يوم كذا بعناية أن الزمان يطلب الإنسان ليمر عليه وهذا معنى قول بعضهم: إن في وراء (معنى الإحاطة، قال تعالى: ﴿وَكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾ [الكهف: ٧٩]

ب. والمراد بهذا البرزخ عالم القبر وهو عالم المثال الذي يعيش فيه الإنسان بعد موته إلى قيام الساعة على ما يعطيه السياق وتدل عليه آيات أخر وتكاثرت فيه الروايات من طرق الشيعة عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليه السلام وكذا من طرق أهل السنة، وقد تقدم البحث عنه في الجزء الأول من الكتاب.

ج. وقيل: المراد بالآية أن بينهم وبين الدنيا حاجزا يمنعهم من الرجوع إليها إلى يوم القيامة ومعلوم أن لا رجوع بعد القيامة ففيه تأكيد لعدم رجوعهم وإياس لهم من الرجوع إليها من أصله.

• وفيه أن ظاهر السياق الدلالة على استقرار الحاجز بين الدنيا وبين يوم يبعثون لا بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا، ولو كان المراد أن الموت حاجز بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا لغا التقييد بقوله: ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ لا لدلالته من طريق المفهوم على رجوعهم بعد البعث إلى الدنيا ولا رجوع بعد البعث بل للغوية أصل التقييد وإن فرض أنهم كانوا يعلمون من الخارج أو من آيات سابقة أن لا رجوع بعد القيامة.

• على أن قولهم: إنه تأكيد لعدم الرجوع بإياسهم من الرجوع مطلقا مع قولهم بأن عدم الرجوع بعد القيامة معلوم من خارج كالمتهافتين بل يرجع المعنى إلى تأكيد نفي الرجوع مطلقا المفهوم من ﴿كَلَّا﴾ بنفي الرجوع الموقت المحدود بقوله: ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ فافهمه.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام: من منع قيراطا من الزكاة فليس بمؤمن ولا مسلم، وهو قوله تعالى: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ﴾

• أقول: وروي هذا المعنى بطرق أخر غيرها عنه عليه السلام وعن النبي ﷺ والمراد به انطباق الآية على مانع الزكاة لا نزولها فيه.

ب. وفي تفسير القمي: قوله عز وجل: ﴿وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قال: البرزخ هو أمر بين أمرين، وهو الثواب والعقاب بين الدنيا والآخرة، وهو قول الصادق عليه السلام: والله ما أخاف عليكم إلا البرزخ، وأما إذا صار الأمر إلينا فنحن أولى بكم.

• أقول: وروي الذيل في الكافي، بإسناده عن عمر بن يزيد عنه عليه السلام.

ج. وفيه، قال علي بن الحسين عليه السلام: إن القبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار.

د. وفي الكافي، بإسناده عن أبي ولاد الحناط عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: جعلت فداك يروون، أن أرواح المؤمنين في حواصل طيور خضر حول العرش، فقال: لا، المؤمن أكرم على الله، من أن يجعل روحه في حوصلة طير، لكن في أبدان كأبدانهم.

هـ. وفيه، بإسناده عن أبي بصير قال أبو عبد الله عليه السلام: إن أرواح المؤمنين لفي شجرة من الجنة، يأكلون من طعامها ويشربون من شرابها ويقولون: ربنا أقم الساعة لنا، وأنجز لنا ما وعدتنا، وألحق آخرنا بأولنا.

و. وفيه، بإسناده أيضا عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الأرواح في صفة الأجساد في شجرة في الجنة، تتعارف وتتساءل، فإذا قدمت الروح على الأرواح تقول: دعوها فإنها قد أقبلت من هول عظيم، ثم يسألونها ما فعل فلان؟ وما فعل فلان؟ فإن قالت لهم: تركته حيا ارتجوه، وإن قالت لهم: قد هلك، قالوا: قد هوى قد هوى.

• أقول: أخبار البرزخ وتفاصيل ما يجري على المؤمنين وغيرهم فيه كثيرة متواترة، وقد مر شطر منها في أبحاث متفرقة مما تقدم.

٣١. النفخ في الصور والموازين والفلاح والخسران:

المقطع [٣١] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١-١٠٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٦٨»:

١. ﴿فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ﴾ المراد به النفخة الثانية التي تحيا فيها الأموات دون النفخة الأولى التي تموت فيها الأحياء كما قاله بعضهم لكون ما يترتب عليها من انتفاء الأنساب والتساؤل وثقل الميزان وخفته إلى غير ذلك من آثار النفخة الثانية.

٢. ﴿فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ﴾ نفي لآثار الأنساب بنفي أصلها فإن الذي يستوجب حفظ الأنساب واعتبارها هي الحوائج الدنيوية التي تدعو الإنسان إلى الحياة الاجتماعية التي تبتني على تكون البيت،

والمجتمع المنزلي يستعقب التعارف والتعاطف وأقسام التعاون والتعاضد وسائر الأسباب التي تدوم بها العيشة الدنيوية ويوم القيامة ظرف جزاء الأعمال وسقوط الأسباب التي منها الأعمال فلا موطن فيه للأسباب الدنيوية التي منها الأنساب بلوازمها وخواصها وآثارها.

٣. ﴿وَلا يَتَساءَلُونَ﴾:

أ. ذكر لأظهر آثار الأنساب، وهو التساؤل بين المتسبين بسؤال بعضهم عن حال بعض، للإعانة والاستعانة في الحوائج لجلب المنافع ودفع المضار.

ب. ولا ينافي الآية ما وقع في مواضع أخر من قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧]، فإنه حكاية تساؤل أهل الجنة بعد دخولها وتساؤل أهل النار بعد دخولها وهذه الآية تنفي التساؤل في ظرف الحساب والقضاء.

٤. ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ إلى آخر الآيتين، الموازين جمع الميزان أو جمع الموزون وهو العمل الذي يوزن يومئذ، وقد تقدم الكلام في معنى الميزان وثقله وخفته في تفسير سورة الأعراف.

٥. ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيها كالِحُونَ﴾:

أ. قال في المجمع: (اللفح والنفح بمعنى إلا أن اللفح أشد تأثيرا وأعظم من النفح، وهو ضرب من السموم للوجه والنفح ضرب الريح الوجه، والكلوح تقلص الشفتين عن الأسنان حتى تبدو الأسنان)

ب. والمعنى: يصيب وجوههم لهب النار حتى تتقلص شفاههم وتنكشف عن أسنانهم كالرءوس المشوية.

٦. ﴿أَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ﴾ أي يقال لهم: ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون.

٧. ﴿قالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَكُنَّا قَوْماً ضالِّينَ﴾ الشقوة والشقاوة والشقاء خلاف السعادة وسعادة الشيء ما يختص به من الخير، وشقاوته فقد ذلك وإن شئت فقل: ما يختص به من الشر.

٨. ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا﴾:

أ. أي قهرنا واستولت علينا شقوتنا، وفي إضافة الشقوة إلى أنفسهم تلويح إلى أن لهم صنعا في شقوتهم من جهة اكتسابهم ذلك بسوء اختيارهم، والدليل عليه قولهم بعد: ﴿رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا

﴿فَإِنَّا ظالِمُونَ﴾ إذ هو وعد منهم بالحسنات ولو لم يكن لها ارتباط باكتسابهم الاختياري لم يكن للوعد معنى لكون حالهم بعد الخروج مساوية لما قبل الخروج.

ب. وقد عدوا أنفسهم مغلوبة للشقوة فقد أخذوها ساذجة في ذواتها صالحة للحقوق السعادة والشقاوة غير أن الشقوة غلبت فأشغلت المحل وكانت الشقوة شقوة أنفسهم أي شقوة لازمة لسوء اختيارهم وسيئات أعمالهم لأنهم فرضوا أنفسهم خالية عن السعادة والشقوة لذاتها فانتساب الشقوة إلى أنفسهم وارتباطها بها إنما هي من جهة سوء اختيارهم وسيئات أعمالهم.

ج. وبالجملة هو اعتراف منهم بتمام الحجة ولحوق الشقوة على ما يشهد به وقوع الآية بعد قوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ﴾

د. ثم عقبوا قولهم: ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا﴾ بقولهم: ﴿وَكُنَّا قَوْماً ضالِّينَ﴾ تأكيدا لاعترافهم، وإنما اعترفوا بالذنب ليتوسلوا به إلى التخلص من العذاب والرجوع إلى الدنيا لكسب السعادة فقد شاهدوا في الدنيا أن اعتراف العاصي المتمرد بذنبه وظلمه توبة منه مطهرة له تنجيه من تبعة الذنب وهم يعلمون أن اليوم يوم جزاء لا يوم عمل والتوبة والاعتراف بالذنب من الأعمال لكن ذلك من قبيل ظهور الملكات كما أنهم يكذبون يومئذ وينكرون أشياء مع ظهور الحق ومعاينته لاستقرار ملكة الكذب والإنكار في نفوسهم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨] وقال: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً﴾ [غافر: ٧٤]

٩. ﴿رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ﴾ سؤال منهم للرجوع إلى الدنيا على ما تدل عليه آيات أخر فهو من قبيل طلب المسبب بطلب سببه، ومرادهم أن يعملوا صالحا بعد ما تابوا بالاعتراف المذكور فيكونوا بذلك ممن تاب وعمل صالحا.

١٠. أحاديث وآثار:

أ. في مجمع البيان، وقال النبي ﷺ: كل حسب ونسب منقطع يوم القيامة إلا حسبي ونسبي.

• أقول: كأن الرواية من طريق الجماعة، وقد رواها في الدر المنثور، عن عدة من أصحاب الجوامع عن المسور بن مخرمة عن النبي ﷺ ولفظها: أن الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسبي وسببي وصهري، وعن عدة منهم عن عمر بن الخطاب عنه ﷺ ولفظها: كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي

وعن ابن عساكر عن ابن عمر عنه ﷺ ولفظها: كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهري.

ب. وفي المناقب، في حديث طاووس عن زين العابدين عليه السلام: خلق الله الجنة لمن أطاع وأحسن ولو كان عبدا حبشيا، وخلق النار لمن عصاه ولو كان ولدا قرشيا، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ﴾ والله لا ينفعك غدا إلا تقدمة تقدمها من عمل صالح.

• أقول: سياق الآية كالآبي عن التخصيص ولعل من آثار نسبه ﷺ أن يوفق ذريته من صالح العمل بما ينتفع به يوم القيامة.

ج. وفي تفسير القمي وقوله عز وجل: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ قال: تلهب عليهم فتحرقهم ﴿وَهُمْ فِيها كالِحُونَ﴾ أي مفتوحي الفم متربدي الوجوه.

د. وفي التوحيد، بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا﴾ قال: بأعمالهم شقوا.

٣٢. المؤمنون والساخرون منهم والجزاء الإلهي:

المقطع [٣٢] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨-١١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٧١»:

١. ﴿قالَ اخْسَؤُا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ قال الراغب: (خسأت الكلب فخسأ أي زجرته مستهينا به فانزجر وذلك إذا قلت له: اخسأ)، ففي الكلام استعارة بالكناية، والمراد زجرهم بالتباعد وقطع الكلام.

٢. ﴿إِنَّهُ كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادِي يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ هؤلاء هم المؤمنون في الدنيا وكان إيمانهم توبة ورجوعا إلى الله كما سماه الله في كلامه توبة، وكان سؤالهم شمول الرحمة، وهي الرحمة الخاصة بالمؤمنين البتة، سؤالا منهم أن يوفقهم للسعادة فيعملوا صالحا فيدخلوا الجنة، وقد توسلوا إليه باسمه خير الراحمين، فكان ما قاله المؤمنون في الدنيا معناه التوبة وسؤال الفوز بالسعادة وذلك عين ما قاله هؤلاء مما معناه التوبة وسؤال الفوز بالسعادة وإنما الفرق بينهما من حيث الموقف.

٣. ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ ضمائر الخطاب للكفار وضمائر الغيبة للمؤمنين، والسياق يشهد أن المراد من ﴿ذِكْرِي﴾ قول المؤمنين: ﴿رَبَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا﴾، وهو معنى قول الكفار في النار.

٤. ﴿حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ أي أنسى اشتغالكم بسخرية المؤمنين والضحك منهم ذكري، ففي نسبة الإنساء إلى المؤمنين دون سخريتهم إشارة إلى أنه لم يكن للمؤمنين عندهم شأن من الشئون إلا أن يتخذوهم سخريا.

٥. ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ﴾ المراد باليوم يوم الجزاء، ومتعلق الصبر معلوم من السياق محذوف للإيجاز أي صبروا على ذكري مع سخريتكم منهم لأجله، وقوله: ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ﴾ مسوق للحصر أي هم الفائزون دونكم.

٦. وهذه الآيات الأربع ﴿قالَ اخْسَؤُا﴾ إلى قوله: ﴿هُمُ الْفائِزُونَ﴾ إياس قطعي للكفار من الفوز بسبب ما تعلقوا به من الاعتراف بالذنب وسؤال الرجوع إلى الدنيا ومحصلها أن اقنطوا مما تطلبونه بهذا القول وهو الاعتراف والسؤال فإنه عمل إنما كان ينفع في دار العمل وهي الدنيا، وقد كان المؤمنون من عبادي يتخذونه وسيلة إلى الفوز وكنتم تسخرون وتضحكون منهم حتى تركتموه وبدلتموه من سخريتهم حتى إذا كان اليوم وهو يوم جزاء لا يوم عمل فازوا بجزاء ما عملوا يوم العمل وبقيتم صفر الأكف تريدون أن تتوسلوا بالعمل اليوم وهو يوم الجزاء دون العمل.

٣٣. اللبث والبعث والخلق:

المقطع [٣٣] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قالُوا لَبِثْنا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعادِّينَ قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٧٢»:

١. ﴿قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ مما يسأل الله الناس عنه يوم القيامة مدة لبثهم في الأرض وقد ذكر في مواضع من كلامه والمراد به السؤال عن مدة لبثهم في القبور كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]، وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ

يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وغيرهما من الآيات، فلا محل لقول بعضهم: إن المراد به المكث في الدنيا، واحتمال بعضهم أنه مجموع اللبث في الدنيا والبرزخ.

٢. ﴿قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعادِّينَ﴾ ظاهر السياق أن المراد باليوم هو الواحد من أيام الدنيا وقد استقلوا اللبث في الأرض حينما قايسوه بالبقاء الأبدي الذي يلوح لهم يوم القيامة ويعاينونه، ويؤيده ما وقع في موضع آخر من تقديرهم ذلك بالساعة، وفي موضع آخر بعشية أو ضحاها.

٣. ﴿فَسْئَلِ الْعادِّينَ﴾ أي نحن لا نحسن إحصاءها فاسأل الذين يعدونه وفسر بالملائكة العادين للأيام وليس ببعيد.

٤. ﴿قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

أ. القائل هو الله سبحانه، وفي الكلام تصديق لهم في استقلالهم المكث في القبور وفيه توطئة لما يلحق به من قوله: ﴿لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بما فيه من التمني.

ب. والمعنى: قال الله: الأمر كما قلتم فما مكثتم إلا قليلا فليتكم كنتم تعلمون في الدنيا أنكم لا تلبثون في قبوركم إلا قليلا ثم تبعثون حتى لا تنكروا البعث ولم تبتلوا بهذا العذاب الخالد، والتمني في كلامه تعالى كالترجي راجع إلى المخاطب أو المقام.

ج. وجعل بعضهم ﴿لَوْ﴾ في الآية شرطية والجملة شرطا محذوف الجزاء وتكلف في تصحيح الكلام بما لا يرتضيه الذوق السليم وهو بعيد عن السياق كما هو ظاهر وأبعد منه جعل (لو) وصلية مع أن (لو) الوصلية لا تجيء بغير واو العطف.

٥. ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً﴾:

أ. بعد ما بين ما سيستقبلهم من أحوال الموت ثم اللبث في البرزخ ثم البعث بما فيه من الحساب والجزاء وبخهم على حسبانهم أنهم لا يبعثون فإن فيه جرأة على الله بنسبة العبث إليه ثم أشار إلى برهان العبث.

ب. فقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾، معناه فإذا كان الأمر على ما أخبرناكم من تحسركم عند معاينة الموت ثم اللبث في القبور ثم البعث فالحساب والجزاء فهل تظنون أنما خلقناكم عبثا تحيون وتموتون من غير غاية باقية في خلقكم وأنكم إلينا لا ترجعون؟

٦. أحاديث وآثار:

أ. في العلل، بإسناده عن مسعدة بن زياد قال: قال رجل لجعفر بن محمد عليه السلام: يا أبا عبد الله إنا خلقنا للعجب، قال: وما ذلك لله أنت؟ قال: خلقنا للفناء، قال: مه يا ابن أخ خلقنا للبقاء، وكيف تفنى جنة لا تبيد ونار لا تخمد؟ ولكن إنما نتحول من دار إلى دار.

ب. وفي تفسير القمي قوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَسْئَلِ الْعادِّينَ﴾ قال: سل الملائكة الذين يعدون علينا الأيام، ويكتبون ساعاتنا وأعمالنا التي اكتسبنا فيها.

ج. وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن أيفع بن عبد الكلاعي قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، قال لأهل الجنة كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم، قال: لنعم ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم، رحمتي ورضواني وجنتي اسكنوا فيها خالدين مخلدين، ثم يقول: يا أهل النار كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم، فيقول: بئس ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم، ناري وسخطي امكثوا فيها خالدين.

• أقول: وفي انطباق معنى الحديث على الآية بما لها من السياق وبما تشهد به الآيات النظائر خفاء، وقد تقدم البحث عن مدلول الآية مستمدا من الشواهد.

٣٤. الملك الحق والتوحيد والاستغفار:

المقطع [٣٤] من سورة المؤمنون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٦ـ١١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٧٣»:

١. ﴿فَتَعالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾:

أ. إشارة إلى برهان يثبت البعث ويدفع قولهم بالنفي، في صورة التنزيه، فإنه تعالى وصف نفسه في كلمة التنزيه بالأوصاف الأربعة: أنه ملك وأنه حق وأنه لا إله إلا هو وأنه رب العرش الكريم.

ب. فله أن يحكم بما شاء من بدء وعود وحياة وموت ورزق نافذا حكمه ماضيا أمره لملكه، وما يصدر عنه من حكم فإنه لا يكون إلا حقا فإنه حق ولا يصدر عن الحق بما هو حق إلا حق دون أن يكون

عبثا باطلا ثم لما أمكن أن يتصور أن معه مصدر حكم آخر يحكم بما يبطل به حكمه وصفه بأنه لا إله، أي لا معبود، إلا هو، والإله معبود لربوبيته فإذا لا إله غيره فهو رب العرش، الكريم عرش العالم، الذي هو مجتمع أزمة الأمور ومنه يصدر الأحكام والأوامر الجارية فيه.

ج. فتلخص أنه هو الذي يصدر عنه كل حكم ويوجد منه كل شيء ولا يحكم إلا بحق ولا يفعل إلا حقا فللأشياء رجوع إليه وبقاء به وإلا لكانت عبثا باطلة ولا عبث في الخلق ولا باطل في الصنع.

د. والدليل على اتصافه بالأوصاف الأربعة كونه تعالى هو الله الموجود لذاته الموجد لغيره.

٢. ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ﴾، المراد من دعاء إله آخر مع الله دعاؤه مع وجوده تعالى لا دعاؤه تعالى ودعاء إله آخر معا فإن المشركين جلهم أو كلهم لا يدعون الله تعالى وإنما يدعون ما أثبتوه من الشركاء، ويمكن أن يكون المراد بالدعاء الإثبات فإن إثبات إله آخر لا ينفك عن دعائه.

٣. ﴿لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ﴾ قيد توضيحي لإله آخر إذ لا إله آخر يكون به برهان بل البرهان قائم على نفي الإله الآخر مطلقا.

٤. ﴿فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ كلمة تهديد وفيه قصر حسابه بكونه عند ربه لا يداخله أحد فيما اقتضاه حسابه من جزاء، وهو النار كما صرحت به الآيات السابقة، فإنه يصيبه لا محالة، ومرجعه إلى نفي الشفعاء والإياس من أسباب النجاة وتممه بقوله: ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ﴾

٥. ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ خاتمة السورة وقد أمر فيها النبي ﷺ أن يقول ما حكاه عن عباده المؤمنين أنهم يقولونه في الدنيا وأن جزاء ذلك هو الفوز يوم القيامة: ﴿إِنَّهُ كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادِي يَقُولُونَ﴾، [الآيتان: ١٠٩] [و: ١١١] من السورة.

٦. وبذلك يختتم الكلام بما افتتح به في أول السورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وقد تقدم الكلام في معنى الآية.

سورة النور

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٤٧] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. غرض السورة ما ينبئ عنه مفتتحها: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَفَرَضْناها وَأَنْزَلْنا فِيها آياتٍ بَيِّناتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، فهي تذكرة بنبذة من الأحكام المفروضة المشرعة، ثم جملة من المعارف الإلهية تناسبها ويتذكر بها المؤمنون.

ب. وهي سورة مدنية بلا خلاف، وسياق آياتها يشهد بذلك.

ج. ومن غرر الآيات فيها آية النور.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٠] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر أن هذه السورة أنزلها الله تعالى وفرضها، وتبين حد الزنا للزانية والزاني، وتذكر أن الزناة لا ينكحون إلا زانية أو مشركة، وتحرم قذف المحصنات، وتأمر بلعان الزوجين إذا رمى أحدهم زوجته بالزنا.

٢. الآيات [١١ ـ ٢٦]:

أ. الآيات تشير إلى حديث الإفك، وقد روى أهل السنة أن المقذوفة في قصة الإفك هي أم المؤمنين عائشة، وروت الشيعة أنها مارية القبطية أم إبراهيم التي أهداها مقوقس ملك مصر إلى النبي ﷺ، وكل من الحديثين لا يخلو عن شيء على ما سيجيء في البحث الروائي الآتي.

ب. فالأحرى أن نبحث عن متن الآيات في معزل من الروايتين جميعاً، غير أن من المسلم أن الإفك المذكور فيها كان راجعاً إلى بعض أهل النبي ﷺ: إما زوجه وإما أم ولده، وربما لوح إليه قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ﴾

ج. وكذا ما يستفاد من الآيات أن الحديث كان قد شاع بينهم وأفاضوا فيه، وسائر ما يومئ إليه من الآيات.

د. والمستفاد من الآيات أنهم رموا بعض أهل النبي ﷺ بالفحشاء، وكان الرامون عصبة من القوم،

فشاع الحديث بين الناس يتلقاه هذا من ذاك، وكان بعض المنافقين أو الذين في قلوبهم مرض يساعدون على إذاعة الحديث، حباً منهم أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، فأنزل الله الآيات ودافع عن نبيه ﷺ.

٣. الآيات [٢٧ ـ ٣٤] أحكام وشرائع متناسبة ومناسبة لما تقدم.

٤. الآيات [٣٥ـ٤٦]:

أ. تتضمن الآيات مقايسة بين المؤمنين بحقيقة الإيمان والكفار، تميز المؤمنين منهم بأن المؤمنين مهديون بأعمالهم الصالحة إلى نور من ربهم يفيدهم معرفة الله سبحانه، ويسلك بهم إلى أحسن الجزاء والفضل من الله تعالى يوم ينكشف عن قلوبهم وأبصارهم الغطاء، والكفار لا تسلك بهم أعمالهم إلا إلى سراب لا حقيقة له، وهم في ظلمات بعضها فوق بعض، ولم يجعل الله لهم نوراً فما لهم من نور.

ب. وقد بين سبحانه هذه الحقيقة:

• بأن له تعالى نوراً عاماً تستنير به السماوات والأرض، فتظهر به في الوجود بعد ما لم تكن ظاهرة فيه، فمن البين أن ظهور شيء بشيء يستدعي كون المظهر ظاهراً بنفسه، والظاهر بذاته المظهر لغيره هو النور، فهو تعالى نور يظهر السماوات والأرض بإشراقه عليها، كما أن الأنوار الحسية تظهر الأجسام الكثيفة للحس بإشراقها عليها، غير أن ظهور الأشياء بالنور الإلهي عين وجودها، وظهور الأجسام الكثيفة بالأنوار الحسية غير أصل وجودها.

• ونوراً خاصاً يستنير به المؤمنون ويهتدون إليه بأعمالهم الصالحة، وهو نور المعرفة الذي سيستنير به قلوبهم وأبصارهم يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار، فيهتدون به إلى سعادتهم الخالدة فيشاهدون فيه شهود عيان ما كان في غيب عنهم في الدنيا.

ج. ومثل تعالى هذا النور بمصباح في زجاجة في مشكاة، يشتعل من زيت في نهاية الصفاء، فتتلألأ الزجاجة كأنها كوكب دري، فتزيد نوراً على نور، والمصباح موضوع في بيوت العبادة التي يسبح الله فيها رجال من المؤمنين، لا تلهيهم عن ذكر ربهم وعبادته تجارة ولا بيع.

د. فهذه صفة ما أكرم الله به المؤمنين من نور معرفته المتعقب للسعادة الخالدة، وحرمه على الكافرين وتركهم في ظلمات لا يبصرون، فخص من اشتغل بربه وأعرض عن عرض الحياة الدنيا بنور من عنده.

هـ. والله يفعل ما يشاء، له الملك وإليه المصير، يحكم بما أراد، ينزل الودق والبرد من سحاب واحد، ويقلب الليل والنهار، ويجعل من الحيوان من يمشي على بطنه، ومن يمشي على رجلين، ومن يمشي على أربع، وقد خلق الكل من ماء.

و. والآيات غير فاقدة للاتصال بما قبلها، لما أن بيان الأحكام والشرائع فيما تقدم انتهى إلى مثل قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾، والبيان إظهار لحقائق المعارف فهو تنوير إلهي، على أن الآيات قرآن، وقد سمى سبحانه القرآن في مواضع من كلامه نوراً كقوله: ﴿وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾ [النساء: ١٧٤]

٥. الآيات [٤٧ ـ ٥٧] تتضمن الآيات افتراض طاعة الرسول ﷺ، وأنها لا تفارق طاعة الله تعالى، ووجوب الرجوع إلى حكمه وقضائه، وأن الإعراض عنه آية النفاق، وتختتم بوعد جميل للصالحين من المؤمنين، وإيعاد للكافرين.

٦. الآيات [٥٨ ـ ٦٤] بقية الأحكام المذكورة في السورة، وتختتم السورة بآخر الآيات، وفيها إشارة إلى أن الله سبحانه إنما يشرع ما يشرع بعلمه، وسيظهر وسينكشف لهم حقيقته حين يرجعون إليه.

١. السورة والفرض والآيات البينات:

المقطع [١] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٧٨»:

١. ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَفَرَضْناها وَأَنْزَلْنا فِيها آياتٍ بَيِّناتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾:

أ. السورة طائفة من الكلام يجمعها غرض واحد سيقت لأجله ولذا اعتبرت تارة نفس الآيات بما لها من المعاني فقيل: ﴿فَرَضْناها﴾، وتارة ظرفا لبعض الآيات ظرفية المجموع للبعض فقيل: ﴿أَنْزَلْنا فِيها آياتٍ بَيِّناتٍ﴾ وهي مما وضعه القرآن وسمي به طائفة خاصة من آياته وتكرر استعمالها في كلامه تعالى، وكأنه مأخوذ من سور البلد وهو الحائط الذي يحيط به سميت به سورة القرآن لإحاطتها بما فيها من الآيات أو بالغرض الذي سيقت له.

ب. وقال الراغب: (الفرض قطع الشيء الصلب والتأثير فيه كفرض الحديد وفرض الزند والقوس، قال: والفرض كالإيجاب لكن الإيجاب يقال اعتبارا بوقوعه وثباته، والفرض بقطع الحكم فيه،

قال تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَفَرَضْناها﴾ أي أوجبنا العمل بها عليك، قال: وكل موضع ورد (فرض الله عليه) ففي الإيجاب الذي أدخله الله فيه، وما ورد (فرض الله له) فهو في أن لا يحظره على نفسه نحو ﴿ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ ﴿مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللهُ لَهُ﴾)

ج. فقوله: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَفَرَضْناها﴾ أي هذه سورة أنزلناها وأوجبنا العمل بما فيها من الأحكام فالعمل بالحكم الإيجابي هو الإتيان به وبالحكم التحريمي الانتهاء عنه.

٢. ﴿وَأَنْزَلْنا فِيها آياتٍ بَيِّناتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ المراد بها، بشهادة السياق، آية النور وما يتلوها من الآيات المبينة لحقيقة الإيمان والكفر والتوحيد والشرك المذكرة لهذه المعارف الإلهية.

٢. حد الزنا وإشهاد طائفة من المؤمنين:

المقطع [٢] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٧٨»:

١. ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾:

أ. الزنا المواقعة من غير عقد أو شبهة عقد أو ملك يمين، والجلد هو الضرب بالسوط والرأفة التحنن والتعطف وقيل: هي رحمة في توجع، والطائفة في الأصل هي الجماعة كانوا يطوفون بالارتحال من مكان إلى مكان قيل: وربما تطلق على الاثنين وعلى الواحد.

ب. ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾، أي المرأة والرجل اللذان تحقق منهما الزنا فاضربوا كل واحد منهما مائة سوط، وهو حد الزنا بنص الآية غير أنها مخصصة بصور: منها أن يكونا محصنين ذوي زوج أو يكون أحدهما محصنا فالرجم ومنها أن يكونا غير حرين أو أحدهما رقا فنصف الحد.

ج. قيل: وقدمت الزانية في الذكر على الزاني لأن الزنا منهن أشنع ولكون الشهوة فيهن أقوى وأكثر، والخطاب في الأمر بالجلد متوجه إلى عامة المسلمين فيقوم بمن قام بأمرهم من ذوي الولاية من النبي والإمام ومن ينوب منابه.

٢. ﴿وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ﴾:

أ. النهي عن الرأفة من قبيل النهي عن المسبب بالنهي عن سببه إذ الرأفة بمن يستحق نوعا من

العذاب توجب التساهل في إذاقته ما يستحقه من العذاب بالتخفيف فيه وربما أدى إلى تركه، ولذا قيده بقوله: ﴿فِي دِينِ اللهِ﴾ أي حال كون الرأفة أي المساهلة من جهتها في دين الله وشريعته.

ب. وقيل: المراد بدين الله حكم الله كما في قوله تعالى: ﴿ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦] أي في حكمه أي لا تأخذكم بهما رأفة في إنفاذ حكم الله وإقامة حده.

٣. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي إن كنتم كذا وكذا فلا تأخذكم بهما رأفة ولا تساهلوا في أمرهما وفيه تأكيد للنهي.

٤. ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وليحضر ولينظر إلى ذلك جماعة منهم ليعتبروا بذلك فلا يقتربوا الفاحشة.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذابَهُما﴾ يقول: ضربهما ﴿طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يجمع لهما الناس إذا جلدوا.

ب. وفي التهذيب، بإسناده عن غياث بن إبراهيم عن جعفر عن أبيه عن أمير المؤمنين عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ﴾ قال: في إقامة الحدود، وفي قوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: الطائفة واحد.

٣. الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة:

المقطع [٣] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٧٩»:

١. ﴿الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إِلَّا زانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾:

أ. ظاهر الآية وخاصة بالنظر إلى سياق ذيلها المرتبط بصدرها أن الذي تشمل عليه حكم تشريعي تحريمي وإن كان صدرها واردا في صورة الخبر فإن المراد النهي تأكيدا للطلب وهو شائع.

ب. والمحصل من معناها بتفسير من السنة من طرق أئمة أهل البيت عليه السلام أن الزاني إذا

اشتهر منه الزنا وأقيم عليه الحد ولم تتبين منه التوبة يحرم عليه نكاح غير الزانية والمشركة، والزانية إذا اشتهر منها الزنا وأقيم عليها الحد ولم يتبين منها التوبة يحرم أن ينكحها إلا زان أو مشرك.

ج. فالآية محكمة باقية على إحكامها من غير نسخ ولا تأويل، وتقييدها بإقامة الحد وتبين التوبة مما يمكن أن يستفاد من السياق فإن وقوع الحكم بتحريم النكاح بعد الأمر بإقامة الحد يلوح إلى أن المراد به الزاني والزانية المجلودان، وكذا إطلاق الزاني والزانية على من ابتلي بذلك ثم تاب توبة نصوحا وتبين منه ذلك، بعيد من دأب القرآن وأدبه.

٢. وللمفسرين في معنى الآية تشاجرات طويلة وأقوال شتى:

أ. منها: أن الكلام مسوق للإخبار عما من شأن مرتكبي هذه الفاحشة أن يقصدوه وذلك أن من خبثت فطرته لا يميل إلا إلى من يشابهه في الخباثة ويجانسه في الفساد والزاني لا يميل إلا إلى الزانية المشاركة لها في الفحشاء ومن هو أفسد منها وهي المشركة، والزانية كذلك لا تميل إلا إلى مثلها وهو الزاني ومن هو أفسد منه وهو المشرك فالحكم وارد مورد الأعم الأغلب كما قيل في قوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ [الآية: ٢٦] من السورة.

ب. ومنها: أن المراد بالآية التقبيح، والمعنى: أن اللائق بحال الزاني أن لا ينكح إلا زانية أو من هي دونها وهي المشركة واللائق بحال الزانية أن لا ينكحها إلا زان أو من هو دونه وهو المشرك، والمراد بالنكاح العقد، وقوله: ﴿وَحُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوف على أول الآية، والمراد وحرم الزنا على المؤمنين.

• وفيه وفي سابقه مخالفتهما لسياق الآية وخاصة اتصال ذيلها بصدرها كما تقدمت الإشارة إليه.

ج. ومنها: أن الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وَإِمائِكُمْ﴾

• وفيه أن النسبة بين الآيتين نسبة العموم والخصوص والعام الوارد بعد الخاص لا ينسخه خلافا لمن قال به نعم ربما أمكن أن يستفاد النسخ من قوله تعالى: ﴿وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٢١]، بدعوى أن الآية وإن كانت من العموم بعد الخصوص لكن لسانها آب عن التخصيص فتكون ناسخة بالنسبة إلى جواز النكاح

بين المؤمن والمؤمنة والمشرك والمشركة، وقد ادعى بعضهم أن نكاح الكافر للمسلمة كان جائزا إلى سنة ست من الهجرة ثم نزل التحريم فلعل الآية التي نحن فيها نزلت قبل ذلك، ونزلت آية التحريم بعدها وفي الآية أقوال أخر تركنا إيرادها لظهور فسادها.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن محمد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال: وأنزل بالمدينة ﴿الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً، وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إِلَّا زانٍ أَوْ مُشْرِكٌ، وَحُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فلم يسم الله الزاني مؤمنا ولا الزانية مؤمنة، وقال رسول الله ﷺ ليس يمتري فيه أهل العلم، أنه قال لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، فإنه إذا فعل ذلك خلع عنه الإيمان كخلع القميص.

ب. وفيه، بإسناده عن زرارة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ قال: هن نساء مشهورات ورجال مشهورون بالزنا، شهروا به، وعرفوا به، والناس اليوم بذلك المنزل، فمن أقيم عليه حد الزنا أو متهم بالزنا، لم ينبغ لأحد أن يناكحه حتى يعرف منه التوبة.

• أقول: ورواه أيضا بإسناده عن أبي الصباح عنه عليه السلام مثله، وبإسناده عن محمد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام ولفظه: هم رجال ونساء، كانوا على عهد رسول الله ﷺ مشهورين بالزنا، فنهى الله عن أولئك الرجال والنساء، والناس اليوم على تلك المنزلة، من شهر شيئا من ذلك أقيم عليه الحد، فلا تزوجوه حتى تعرفوا توبته.

ج. وفيه، بإسناده عن حكم بن حكيم عن أبي عبد الله عليه السلام: في الآية قال: إنما ذلك في الجهر ثم قال: لو أن إنسانا زنى ثم تاب تزوج حيث شاء.

د. أخرج أحمد وعبد بن حميد والنسائي والحاكم وصححه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه وأبو داود في ناسخه عن عبد الله بن عمر قال: كانت امرأة يقال لها: أم مهزول، وكانت تسافح الرجل وتشرط أن تنفق عليه، فأراد رجل من أصحاب النبي ﷺ أن يزوجها، فأنزل الله: ﴿الزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إِلَّا زانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾

• أقول: وروي ما يقرب منه عن عدة من أصحاب الجوامع عن مجاهد.

هـ. أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال: لما قدم المهاجرون المدينة، قدموها وهم بجهد إلا قليل منهم، والمدينة غالية السعر شديدة الجهد، وفي السوق زوان متعالنات من أهل الكتاب، وأما الأنصار منهن أمية وليدة عبد الله بن أبي، ونسيكة بنت أمية لرجل من الأنصار، في بغايا من ولائد الأنصار، قد رفعت كل امرأة منهن، علامة على بابها ليعرف أنها زانية، وكن من أخصب أهل المدينة وأكثره خيرا، فرغب أناس من مهاجري المسلمين فيما يكتسبن، للذي هم فيه من الجهد، فأشار بعضهم على بعض لو تزوجنا بعض هؤلاء الزواني، فنصيب من بعض أطعماتهن، فقال بعضهم: نستأمر رسول الله ﷺ فأتوه فقالوا: يا رسول الله قد شق علينا الجهد ولا نجد ما نأكل، وفي السوق بغايا نساء أهل الكتاب وولائدهن، وولائد الأنصار يكتسبن لأنفسهن، فيصلح لنا أن نتزوج منهن فنصيب من فضول ما يكتسبن، فإذا وجدنا عنهن غنى تركناهن، فأنزل الله: ﴿الزَّانِي لا يَنْكِحُ﴾ الآية (فحرم على المؤمنين، أن يتزوجوا الزواني المسافحات العالنات زناهن.

• أقول: والروايتان إنما تذكران سبب نزول قوله: ﴿الزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إِلَّا زانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ دون قوله: ﴿الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾

٤. حد القذف ورد الشهادة وتوبة القاذف:

المقطع [٤] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٤ـ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٨١»:

١. ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾:

أ. الرمي معروف ثم أستعير لنسبة أمر غير مرضي إلى الإنسان كالزنا والسرقة وهو القذف، والسياق يشهد أن المراد به نسبة الزنا إلى المرأة المحصنة العفيفة، والمراد بالإتيان بأربعة شهداء وهم شهود الزنا إقامة الشهادة لإثبات ما قذف به، وقد أمر الله تعالى بإقامة الحد عليهم إن لم يقيموا الشهادة، وحكم بفسقهم وعدم قبول شهادتهم أبدا.

ب. والمعنى: والذين يقذفون المحصنات من النساء بالزنا ثم لم يقيموا أربعة من الشهود على

صدقهم في قذفهم فاجلدوهم ثمانين جلدة على قذفهم وهم فاسقون لا تقبلوا شهادتهم على شيء أبدا.

ج. والآية كما ترى مطلقة تشمل من القاذف الذكر والأنثى والحر والعبد، وبذلك تفسرها روايات أئمة أهل البيت عليه السلام.

٢. ﴿إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

أ. الاستثناء راجع إلى الجملة الأخيرة وهي قوله: ﴿وَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ﴾ لكنها لما كانت تفيد معنى التعليل بالنسبة إلى قوله: ﴿وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً أَبَداً﴾ على ما يعطيه السياق، كان لازم ما تفيده من ارتفاع الحكم بالفسق ارتفاع الحكم بعدم قبول الشهادة أبدا، ولازم ذلك رجوع الاستثناء بحسب المعنى إلى الجملتين معا.

ب. والمعنى: إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا أعمالهم فإن الله غفور رحيم يغفر ذنبهم ويرحمهم فيرتفع عنهم الحكم بالفسق والحكم بعدم قبول شهادتهم أبدا.

ج. وذكر بعضهم: أن الاستثناء راجع إلى الجملة الأخيرة فحسب فلو تاب القاذف وأصلح بعد إقامة الحد عليه غفر له ذنبه لكن لا تقبل شهادته أبدا خلافا لمن قال برجوع الاستثناء إلى الجملتين معا.

د. والظاهر أن خلافهم هذا مبني على المسألة الأصولية المعنونة بأن الاستثناء الواقع بعد الجمل المتعددة هل يتعلق بالجميع أو بالجملة الأخيرة والحق في المسألة أن الاستثناء في نفسه صالح للأمرين جميعا وتعين أحدهما منوط بما تقتضيه قرائن الكلام، والذي يعطيه السياق في الآية التي نحن فيها تعلق الاستثناء بالجملة الأخيرة غير أن إفادتها للتعليل تستلزم تقيد الجملة السابقة أيضا بمعناه كالأخيرة على ما تقدم.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تابُوا﴾ اختلف في هذا الاستثناء إلى ما ذا يرجع على قولين: أحدهما أنه يرجع إلى الفسق خاصة دون قوله: ﴿وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً أَبَداً﴾ إلى أن قال، والآخر أن الاستثناء يرجع إلى الأمرين، فإذا تاب قبلت شهادته حد أم لم يحد، عن ابن عباس، إلى أن قال، وقول أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام.

ب. أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن سعيد بن المسيب قال: شهد على المغيرة بن شعبة ثلاثة بالزنا ونكل زياد، فحد عمر الثلاثة، وقال لهم: توبوا تقبل شهادتكم، فتاب رجلان ولم يتب

أبو بكرة فكان لا تقبل شهادته، وكان أبو بكرة أخا زياد لأمه، فلما كان من أمر زياد ما كان، حلف أبو بكرة أن لا يكلمه أبدا فلم يكلمه حتى مات.

ج. وفي التهذيب، بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا قذف العبد الحر جلد ثمانين، وقال: هذا من حقوق الناس.

د. وفي الكافي بإسناده عن محمد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال: (ونزل بالمدينة: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [النور: ٤-٥]، فبرأه الله ما كان مقيماً على الفرية من أن يسمى بالإيمان، قال الله عز وجل: {أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ} [السجدة: ١٨]، وجعله من أولياء إبليس، قال: {إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} [الكهف: ٥٠]، وجعله ملعوناً، فقال: {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النور: ٢٣-٢٤]، وليست تشهد الجوارح على مؤمن، إنما تشهد على من حقت عليه كلمة العذاب، فأما المؤمن، فيعطى كتابه بيمينه، قال الله عز وجل: {فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا} [الإسراء: ٧١])

٥. حكم اللعان والشهادات الخمس ودرء العذاب:

المقطع [٥] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٦-١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٨٢»:

١. ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَداءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾:

أ. أي لم يكن لهم شهداء يشهدون ما شهدوا فيتحملوا الشهادة ثم يؤدوها إلا أنفسهم، وقوله: ﴿فَشَهادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهاداتٍ بِاللهِ﴾ أي شهادة أحدهم يعني القاذف وهو واحد أربع شهادات متعلقة

بالله إنه لمن الصادقين فيما يخبر به من القذف.

ب. ومعنى الآيتين: والذين يقذفون أزواجهم ولم يكن لهم أربعة من الشهداء يشهدون ما شهدوا، ومن طبع الأمر ذلك على تقدير صدقهم إذ لو ذهبوا يطلبون الشهداء ليحضروهم على الواقعة فيشهدوهم عليها فات الغرض بتفرقهما، فالشهادة التي يجب على أحدهم أن يقيمها هي أن يشهد أربع شهادات أي يقول مرة بعد مرة: (أشهد الله على صدقي فيما أقذفه به) أربع مرات وخامستها أن يشهد ويقول: لعنة الله علي إن كنت من الكاذبين.

٢. ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذابَ أَنْ تَشْهَدَ﴾ إلى آخر الآيتين، الدرء الدفع والمراد بالعذاب حد الزنا، والمعنى أن المرأة إن شهدت خمس شهادات بإزاء شهادات الرجل دفع ذلك عنه حد الزنا، وشهاداتها أن تشهد أربع مرات تقول فيها: أشهد بالله إنه لمن الكاذبين ثم تشهد خامسة فتقول: لعنة الله علي إن كان من الصادقين، وهذا هو اللعان الذي ينفصل به الزوجان.

٣. ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ جواب لولا محذوف يدل عليه ما أخذ في شرطه من القيود إذ معناه لولا فضل الله ورحمته وتوبته وحكمته لحل بكم ما دفعته عنكم هذه الصفات والأفعال فالتقدير على ما يعطيه ما في الشرط من القيود لولا ما أنعم الله عليكم من نعمة الدين وتوبته لمذنبيكم وتشريعه الشرائع لنظم أمور حياتكم لزمتكم الشقوة، وأهلكتكم المعصية والخطيئة، واختل نظام حياتكم بالجهالة، والله أعلم.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ كانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فإنها نزلت في اللعان فكان سبب ذلك، أنه لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، جاء إليه عويمر بن ساعدة العجلاني وكان من الأنصار، وقال: يا رسول الله، إن امرأتي زنى بها شريك بن السمحاء، وهي منه حامل فأعرض عنه رسول الله ﷺ، فأعاد عليه القول فأعرض عنه، حتى فعل ذلك أربع مرات، فدخل رسول الله ﷺ منزله فنزلت عليه آية اللعان، فخرج رسول الله ﷺ وصلى بالناس العصر، وقال لعويمر: ائتني بأهلك فقد أنزل الله عز وجل فيكما قرآنا، فجاء إليها وقال لها: رسول الله يدعوك، وكانت في شرف من قومها فجاء معها جماعة، فلما دخلت المسجد قال رسول الله ﷺ لعويمر: تقدم إلى المنبر والتعنا، فقال:

كيف أصنع؟ فقال: تقدم وقل: أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميتها به، فتقدم وقالها، فقال رسول الله ﷺ: أعدها، فأعادها حتى فعل ذلك أربع مرات فقال له في الخامسة: عليك لعنة الله إن كنت من الكاذبين فيما رميتها به، فقال في الخامسة، إن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فيما رماها به، ثم قال رسول الله ﷺ: إن اللعنة موجبة إن كنت كاذبا، ثم قال له: تنح فتنحى ثم قال لزوجته: تشهدين كما شهد، وإلا أقمت عليك حد الله، فنظرت في وجوه قومها فقالت: لا أسود هذه الوجوه في هذه العشية، فتقدمت إلى المنبر وقالت: أشهد بالله أن عويمر بن ساعدة من الكاذبين فيما رماني، فقال لها رسول الله ﷺ: أعيديها، فأعادتها حتى أعادتها أربع مرات، فقال لها رسول الله ﷺ: العني نفسك في الخامسة إن كان من الصادقين، فيما رماك به، فقالت في الخامسة، إن غضب الله عليها إن كان من الصادقين فيما رماها به، فقال رسول الله ﷺ: ويلك إنها موجبة إن كنت كاذبة، ثم قال رسول الله ﷺ لزوجها: اذهب فلا تحل لك أبدا، قال: يا رسول الله فمالي الذي أعطيتها، قال: إن كنت كاذبا فهو أبعد لك منه، وإن كنت صادقا فهو لها بما استحللت من فرجها، الحديث.

ب. وفي المجمع في رواية عكرمة عن ابن عباس: قال سعد بن عبادة لو أتيت لكاع وقد يفخذها رجل، لم يكن لي أن أهيجه حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله ما كنت لآتي بأربعة شهداء، حتى يفرغ من حاجته ويذهب، وإن قلت ما رأيت إن في ظهري لثمانين جلدة، فقال النبي ﷺ: يا معشر الأنصار ما تسمعون إلى ما قال سيدكم؟ فقالوا: لا تلمه فإنه رجل غيور، ما تزوج امرأة قط إلا بكرا، ولا طلق امرأة له فاجترأ رجل منا أن يتزوجها، فقال سعد بن عبادة: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، والله إني لأعرف أنها من الله وأنها حق، ولكن عجبت من ذلك لما أخبرتك، فقال: فإن الله يأبى إلا ذلك، فقال: صدق الله ورسوله، فلم يلبثوا إلا يسيرا حتى جاء ابن عم له يقال له: هلال بن أمية من حديقة له، قد رأى رجلا مع امرأته، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال: إني جئت أهلي عشاء فوجدت معها رجلا، رأيته بعيني وسمعته بأذني، فكره رسول الله ﷺ حتى رئي الكراهة في وجهه، فقال هلال: إني لأرى الكراهة في وجهك، والله يعلم إني لصادق، وإني لأرجو أن يجعل الله فرجا، فهم رسول الله ﷺ بضربه، قال: واجتمعت الأنصار وقالوا: ابتلينا بما قال سعد أيجلد هلال ويبطل شهادته؟ فنزل الوحي وأمسكوا عن الكلام، حين عرفوا أن الوحي قد نزل، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ الآيات، فقال ﷺ: أبشر يا هلال فإن الله تعالى قد جعل

فرجا، فقال: قد كنت أرجو ذلك من الله تعالى، فقال ﷺ: أرسلوا إليها فجاءت فلاعن بينهما، فلما انقضى اللعان فرق بينهما وقضى أن الولد لها، ولا يدعى لأب ولا يرمى ولدها، ثم قال رسول الله ﷺ: إن جاءت به كذا وكذا فهو لزوجها، وإن جاءت به كذا وكذا فهو للذي قيل فيه.

• أقول: ورواه في الدر المنثور، عن عدة من أرباب الجوامع عن ابن عباس.

٦. حادثة الإفك وعذاب المتولي كبرها:

المقطع [٦] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٨٩»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ جاؤُ بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾:

أ. الإفك على ما ذكره الراغب الكذب مطلقا والأصل في معناه أنه كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه كالاعتقاد المصروف عن الحق إلى الباطل، والفعل المصروف عن الجميل إلى القبيح، والقول المصروف عن الصدق إلى الكذب، وقد استعمل في كلامه تعالى في جميع هذه المعاني.

ب. وذكر أيضا أن العصبة جماعة متعصبة متعاضدة، وقيل: إنها عشرة إلى أربعين.

ج. والخطاب في الآية وما يتلوها من الآيات لعامة المؤمنين ممن ظاهره الإيمان أعم من المؤمن بحقيقة الإيمان والمنافق ومن في قلبه مرض، وأما قول بعضهم: إن المخاطب بالخطابات الأربعة الأول أو الثاني والثالث والرابع النبي ﷺ والمقذوفة والمقذوف ففيه تفكيك بين الخطابات الواقعة في الآيات العشر الأول وهي نيف وعشرون خطابا أكثرها لعامة المؤمنين بلا ريب.

د. وأسوأ حالا منه قول بعض آخر إن الخطابات الأربعة أو الثلاثة المذكورة لمن ساءه ذلك من المؤمنين فإنه مضافا إلى استلزامه التفكيك بين الخطابات المتوالية مجازفة ظاهرة.

هـ. والمعنى: إن الذين أتوا بهذا الكذب، واللام في الإفك للعهد، جماعة معدودة منكم مرتبط بعضهم ببعض، وفي ذلك إشارة إلى أن هناك تواطؤا منهم على إذاعة هذا الخبر ليطعنوا به في نزاهة بيت النبي ﷺ ويفضحوه بين الناس.

و. وهذا هو فائدة الخبر في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جاؤُ بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ لا تسلية النبي ﷺ أو

تسليته وتسلية من ساءه هذا الإفك كما ذكره بعضهم فإن السياق لا يساعد عليه.

٢. ﴿لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾:

أ. مقتضى كون الخطاب لعامة المؤمنين أن يكون المراد بنفي كونه شرا لهم وإثبات كونه خيرا أن المجتمع الصالح من سعادته أن يتميز فيه أهل الزيغ والفساد ليكونوا على بصيرة من أمرهم وينهضوا لإصلاح ما فسد من أعضائهم، وخاصة في مجتمع ديني متصل بالوحي ينزل عليهم الوحي عند وقوع أمثال هذه الوقائع فيعظهم ويذكرهم بما هم في غفلة منه أو مساهلة حتى يحتاطوا لدينهم ويتفطنوا لما يهمهم.

ب. والدليل على ما ذكرنا قوله بعد: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ فإن الإثم هو الأثر السيئ الذي يبقى للإنسان عن اقتراف المعصية فظاهر الجملة أن أهل الإفك الجائين به يعرفون بإثمه ويتميزون به عندكم فيفتضحون به بدل ما أرادوا أن يفضحوا النبي ﷺ.

ج. وأما قول من قال: إن المراد بكونه خيرا لهم أنهم يثابون بما اتهموهم بالإفك كما أن أهل الإفك يتأثمون به فمبني على كون الخطاب للمتهمين خاصة وقد عرفت فساده.

٣. ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فسروا كبره بمعنى معظمه والضمير للإفك، والمعنى: والذي تولى معظم الإفك وأصر على إذاعته بين الناس من هؤلاء الآفكين له عذاب عظيم.

٤. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى قصة الإفك وبراءة عائشة في ضوء القرآن والروايات]، خلاصته:

أ. بيان أن الروايات الواردة في قصة الإفك تدل على أن النبي ﷺ كان في ريب من أمر عائشة حتى نزلت آيات البراءة، وهو ما لا يليق بمقام النبوة والعصمة، ولا يتفق مع ما يوجبه القرآن من حسن الظن بالمؤمنين.

ب. إثبات أن الأحاديث تُظهر أن حكم القذف لم يكن قد نزل قبل قصة الإفك، وأن توقف النبي ﷺ عن الحد كان لانتظار الوحي، وإلا لما أخر الحد هذه المدة الطويلة.

ج. توضيح أن الآيات التي نزلت في براءة عائشة لا تدل على البراءة الواقعية، بل على البراءة الظاهرية الشرعية، باستثناء ما تثبته الحجة العقلية من عصمة أزواج الأنبياء.

د. بيان أن الروايات تذكر أن أصحاب الإفك هم عبد الله بن أبي ومسطح وحسان وحمنة، ثم تزعم أن ابن أبي حد حدين دون غيره، وهو تناقض صريح لا يمكن توجيهه.

هـ. عرض روايات الشيعة التي تذكر أن قصة الإفك نزلت في مارية القبطية، وبيان ما فيها من نظر وعدم انطباقها على سياق الآيات.

و. توضيح أن الآيات تنهى عن إشاعة الفاحشة وتأمر بالعفو والصفح، وأن قوله: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ يدل على أن الطيبات للطيبين، وأن هذه الآية عامة غير مخصصة.

٧. حسن الظن وإحضار الشهداء وإثبات الكذب:

المقطع [٧] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٢-١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٩١»:

١. ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقالُوا هذا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ توبيخ لهم إذ لم يردوا الحديث حينما سمعوه ولم يظنوا بمن رمي به خيرا.

٢. ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ﴾:

أ. من وضع الظاهر موضع المضمر، والأصل (ظننتم بأنفسكم) والوجه في تبديل الضمير وصفا الدلالة على علة الحكم فإن صفة الإيمان رادعة بالطبع تردع المتلبس بها عن الفحشاء والمنكر في القول والفعل فعلى المتلبس بها أن يظن على المتلبسين بها خيرا، وأن يجتنب القول فيهم بغير علم فإنهم جميعا كنفس واحدة في التلبس بالإيمان ولوازمه وآثاره.

ب. فالمعنى: ولولا إذ سمعتم الإفك ظننتم بمن رمي به خيرا فإنكم جميعا مؤمنون بعضكم من بعض والمرمي به من أنفسكم وعلى المؤمن أن يظن بالمؤمن خيرا ولا يصفه بما لا علم له به.

٣. ﴿قالُوا هذا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ أي قال المؤمنون والمؤمنات وهم السامعون، أي قلتم، هذا إفك مبين لأن الخبر الذي لا علم لمخبره به والدعوى التي لا بينة لمدعيها عليها محكوم شرعا بالكذب سواء كان بحسب الواقع صدقا أو كذبا، والدليل عليه قوله في الآية التالية: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَداءِ فَأُولئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكاذِبُونَ﴾

٤. ﴿لَوْلا جاؤُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَداءِ فَأُولئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكاذِبُونَ﴾ أي لو كانوا صادقين فيما يقولون ويرمون لأقاموا عليه الشهادة وهي في الزنا بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فهم محكومون شرعا بالكذب لأن الدعوى من غير بينة كذب وإفك.

٨. فضل الله ورحمته لعباده:

المقطع [٨] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٩٢»:

١. ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيما أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ إفاضة القوم في الحديث خوضهم فيه.

٢. ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ﴾، عطف على قوله: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾، وفيه كرة ثانية على المؤمنين، وفي تقييد الفضل والرحمة بقوله: ﴿فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ﴾ دلالة على كون العذاب المذكور ذيلا هو عذاب الدنيا والآخرة، والمعنى: ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لوصل إليكم بسبب ما خضتم فيه من الإفك عذاب عظيم في الدنيا والآخرة.

٩. الاستهانة بقول البهتان مع أنه عند الله عظيم:

المقطع [٩] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥-١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٩٢»:

١. ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾:

أ. الظرف متعلق بقوله: ﴿أَفَضْتُمْ﴾ وتلقي الإنسان القول أخذه القول الذي ألقاه إليه غيره، وتقييد التلقي بالألسنة للدلالة على أنه كان مجرد انتقال القول من لسان إلى لسان من غير تثبت وتدبر فيه.

ب. وعلى هذا فقوله: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ من قبيل عطف التفسير، وتقييده أيضا بقوله: ﴿بِأَفْواهِكُمْ﴾ للإشارة إلى أن القول لم يكن عن تثبت وتبين قلبي ولم يكن له موطن إلا الأفواه لا يتعداها.

ج. والمعنى: أفضتم وخضتم فيه إذ تأخذونه وتنقلونه لسانا عن لسان وتتلفظون بما لا علم لكم به.

٢. ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ﴾ أي تظنون التلقي بألسنتكم والقول بأفواهكم من غير علم سهلا وهو عند الله عظيم لأنه بهتان وافتراء، على أن الأمر مرتبط بالنبي ﷺ وشيوع إفك هذا شأنه بين الناس يفضحه عندهم ويفسد أمر الدعوة الدينية.

٣. ﴿وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا سُبْحانَكَ هذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ﴾:

أ. عطف بعد عطف على قوله: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾، وفيه كرة ثالثة على المؤمنين بالتوبيخ، وقوله: ﴿سُبْحانَكَ﴾ اعتراض بالتنزيه لله سبحانه وهو من أدب القرآن أن ينزه الله بالتسبيح عند تنزيه كل منزه.

ب. والبهتان الافتراء سمي به لأنه يبهت الإنسان المفتري عليه وكونه بهتانا عظيما لأنه افتراء في عرض وخاصة إذ كان متعلقه بالنبي ﷺ وإنما كان بهتانا لكونه إخبارا من غير علم ودعوى من غير بينة كما تقدم في قوله: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَداءِ فَأُولئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكاذِبُونَ﴾ ومعنى الآية ظاهر.

١٠. وعظ الله وبيان الآيات:

المقطع [١٠] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٧-١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٩٢»:

١. ﴿يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً﴾ إلى آخر الآيتين موعظة بالنهي عن العود لمثله، ومعنى الآيتين ظاهر.

١١. عذاب الذين يحبون إشاعة الفاحشة وفضل الله ورأفته:

المقطع [١١] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ١٩-٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٩٣»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾:

أ. إن كانت الآية نازلة في جملة آيات الإفك ومتصلة بما تقدمها وموردها الرمي بالزنا بغير بينة كان

مضمونها تهديد الرامين المفيضين في الإفك لكونه فاحشة وإشاعته في المؤمنين حبا منهم لشيوع الفاحشة.

ب. فالمراد بالفاحشة مطلق الفحشاء كالزنا والقذف وغير ذلك، وحب شيوعها ومنها القذف في المؤمنين يستوجب عذابا أليما لمحبيه في الدنيا والآخرة.

ج. وعلى هذا فلا موجب لحمل العذاب في الدنيا على الحد إذ حب شيوع الفحشاء ليس مما يوجب الحد، نعم لو كان اللام في ﴿الْفَاحِشَةُ﴾ للعهد والمراد بها القذف وكان حب الشيوع كناية عن قصة الشيوع بالإفاضه والتلقي بالألسن والنقل أمكن حمل العذاب على الحد لكن السياق لا يساعد عليه.

د. على أن الرمي بمجرد تحققه مرة موجب للحد ولا موجب لتقييده بقصد الشيوع ولا نكتة تستدعي ذلك.

٢. ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ تأكيد وإعظام لما فيه من سخط الله وغضبه وإن جهله الناس.

٣. ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ تكرارا للامتنان ومعناه ظاهر.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قال في مؤمن ما رأته عيناه وسمعته أذناه، فهو من الذين قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْآخِرَةِ﴾

• أقول: ورواه القمي في تفسيره، عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام عنه عليه السلام والصدوق في الأمالي، بإسناده عن ابن أبي عمير عن محمد بن حمران عنه عليه السلام، والمفيد في الاختصاص، عنه عليه السلام مرسلا.

ب. وفيه، بإسناده عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: من أذاع فاحشة كان كمبتدئها.

١٢. اجتناب خطوات الشيطان والتحذير من الفحشاء والمنكر:

المقطع [١٢] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان:

١٥/ ٩٣»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ تقدم تفسير الآية في [الآية: ٢٠٨] من سورة البقرة في الجزء الثاني من الكتاب.

٢. ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً﴾:

أ. رجوع بعد رجوع إلى الامتنان بالفضل والرحمة، لا يخلو هذا الاهتمام من تأييد لكون الإفك متعلق بالنبي ﷺ وليس إلا لكرامته على الله سبحانه.

ب. وقد صرح في هذه المرة الثالثة بجواب لولا وهو قوله: ﴿ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً﴾ وهذا مما يدل عليه العقل فإن مفيض الخير والسعادة هو الله سبحانه، والتعليم القرآني أيضا يعطيه كما قال تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال: ﴿ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ [النساء: ٧٩]

٣. ﴿وَلكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إضراب عما تقدمه فهو تعالى يزكي من يشاء فالأمر إلى مشيته، ولا يشاء إلا تزكية من استعد لها وسأله بلسان استعداده ذلك، وإليه يشير قوله: ﴿وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لسؤال من سأله التزكية عليم بحال من استعد لها.

١٣. أمر أولي الفضل بالعفو والصفح رجاء مغفرة الله:

المقطع [١٣] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٩٤»:

١. ﴿وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبى وَالْمَساكِينَ وَالْمُهاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾:

أ. الايتلاء التقصير والترك والحلف، وكل من المعاني الثلاثة لا يخلو من مناسبة، والمعنى لا يقصر أولوا الفضل منكم والسعة يعني الأغنياء في إيتاء أولي القرابة والمساكين والمهاجرين في سبيل الله من مالهم أو لا يترك إيتاءهم أو لا يحلف أن لا يؤتيهم، وليعفوا عنهم وليصفحوا، ثم حرضهم بقوله: ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

ب. وفي الآية، على تقدير نزولها في جملة الآيات واتصالها بها، دلالة على أن بعض المؤمنين عزم على

أن يقطع ما كان يؤتيه بعض أهل الإفك فنهاه الله عن ذلك وحثه على إدامة الإيتاء كما سيجيء.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع قيل: إن قوله: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ الآية، نزلت في أبي بكر ومسطح بن أثاثة، وكان ابن خالة أبي بكر، وكان من المهاجرين ومن جملة البدريين وكان فقيرا، وكان أبو بكر يجري عليه ويقوم بنفقته، فلما خاض في الإفك قطعها وحلف أن لا ينفعه بنفع أبدا، فلما نزلت الآية عاد أبو بكر إلى ما كان، وقال: والله إني لأحب أن يغفر الله لي، والله لا أنزعها عنه أبداً، عن ابن عباس وعائشة وابن زيد.

ب. وفيه وقيل: نزلت في جماعة من الصحابة، أقسموا على أن لا يتصدقوا على رجل تكلم بشيء من الإفك ولا يواسوهم، عن ابن عباس وغيره.

• أقول: ورواه في الدر المنثور، عن ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس.

ج. وفي تفسير القمي، وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ، أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبى﴾ وهم قرابة رسول الله ﷺ ﴿وَالْمَساكِينَ وَالْمُهاجِرِينَ فِي سَبِيلِ الله، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ يقول، يعفو بعضكم عن بعض، ويصفح بعضكم بعضا، فإذا فعلتم كانت رحمة الله لكم، يقول الله عز وجل: ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

١٤. لعنة قاذفي المحصنات وشهادة الأرجل والألسنة عليهم:

المقطع [١٤] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٣-٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٩٤»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ الْغافِلاتِ الْمُؤْمِناتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ أخذ الصفات الثلاث الإحصان والغفلة والإيمان للدلالة على عظم المعصية فإن كلا من الإحصان بمعنى العفة والغفلة والإيمان سبب تام في كون الرمي ظلما والرامي ظالما والمرمية مظلومة فإذا اجتمعت كان الظلم أعظم ثم أعظم، وجزاؤه اللعن في الدنيا والآخرة والعذاب العظيم، والآية عامة وإن كان سبب

نزولها لو نزلت في جملة آيات الإفك خاصا.

٢. ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

أ. الظرف متعلق بقوله في الآية السابقة: ﴿وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾

ب. والمراد بقوله: ﴿بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كما يقتضيه إطلاقه مطلق الأعمال السيئة، كما قيل، لا خصوص الرمي بأن تشهد ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم على رميهم فالمراد بالشهادة شهادة الأعضاء على السيئات والمعاصي بحسب ما يناسبها فما كان منها من قبيل الأقوال كالقذف والكذب والغيبة ونحوها شهدت عليه الألسنة، وما كان منها من قبيل الأفعال كالسرقة والمشي للنميمة والسعاية وغيرهما شهدت عليه بقية الأعضاء، وإذ كان معظم المعاصي من الأفعال للأيدي والأرجل اختصتا بالذكر.

ج. وبالحقيقة الشاهد على كل فعل هو العضو الذي صدر منه كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠]، وقوله: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقوله: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، وسيأتي الكلام على شهادة الأعضاء يوم القيامة في بحث مستقل في تفسير سورة حم السجدة إن شاء الله تعالى.

٣. ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾:

أ. المراد بالدين الجزاء كما في قوله: ﴿مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحمد: ٤]، وتوفية الشيء بذله تاما كاملا، والمعنى: يوم القيامة يؤتيهم الله جزاءهم الحق إيتاء تاما كاملا ويعلمون أن الله هو الحق المبين)

ب. هذا بالنظر إلى اتصال الآية بما قبلها ووقوعها في سياق ما تقدمها، وأما بالنظر إلى استقلالها في نفسها فمن الممكن أن يراد بالدين ما يرادف الملة وهو سنة الحياة، وهو معنى عال يرجع إلى ظهور الحقائق يوم القيامة للإنسان، ويكون أكثر مناسبة لقوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾

ج. والآية من غرر الآيات القرآنية تفسر معنى معرفة الله فإن قوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ ينبئ أنه تعالى هو الحق لا سترة عليه بوجه من الوجوه ولا على تقدير من التقادير فهو من أبده البديهيات التي لا يتعلق بها جهل لكن البديهي ربما يغفل عنه فالعلم به تعالى هو ارتفاع الغفلة عنه الذي ربما يعبر عنه بالعلم، وهذا هو الذي يبدو لهم يوم القيامة فيعلمون أن الله هو الحق المبين.

د. وإلى مثله يشير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]

١٥. الخبيثات للخبيثين والطيبات للطيبين:

المقطع [١٥] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٩٥»:

١. ﴿الْخَبِيثاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثاتِ وَالطَّيِّباتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّباتِ﴾:

أ. ذيل الآية ﴿أُولئِكَ مُبَرَّؤُنَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ دليل على أن المراد بالخبيثات والخبيثين والطيبات والطيبين نساء ورجال متلبسون بالخباثة والطيب فالآية من تمام آيات الإفك متصلة بها مشاركة لها في سياقها، وهي عامة لا مخصص لها من جهة اللفظ البتة.

ب. فالمراد بالطيب الذي يوجب كونهم مبرءين مما يقولون على ما تدل عليه الآيات السابقة هو المعنى الذي يقتضيه تلبسهم بالإيمان والإحصان فالمؤمنون والمؤمنات مع الإحصان طيبون وطيبات يختص كل من الفريقين بصاحبه، وهم بحكم الإيمان والإحصان مصونون مبرءون شرعا من الرمي بغير بينة، محكومون من جهة إيمانهم بأن لهم مغفرة كما قال تعالى: ﴿وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١] ولهم رزق كريم، وهو الحياة الطيبة في الدنيا والأجر الحسن في الآخرة كما قال: ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]

ج. والمراد بالخبث في الخبيثين والخبيثات وهم غير المؤمنين هو الحال المستقذرة التي يوجبها لهم تلبسهم بالكفر وقد خصت خبيثاتهم بخبيثهم وخبيثوهم بخبيثاتهم بمقتضى المجانسة والمسانخة وليسوا بمبرءين عن التلبس بالفحشاء، نعم هذا ليس حكما بالتلبس..

٢. فظهر بما تقدم:

أ. أولا: أن الآية عامة بحسب اللفظ تصف المؤمنين والمؤمنات بالطيب ولا ينافي ذلك اختصاص سبب نزولها وانطباقها عليه.

ب. وثانيا: أنها تدل على كونهم جميعا محكومين شرعا بالبراءة عما يرمون به ما لم تقم عليه بينة.

ج. وثالثا: أنهم محكومون بالمغفرة والرزق الكريم كل ذلك حكم ظاهري لكرامتهم على الله بإيمانهم، والكفار على خلاف ذلك.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿الْخَبِيثاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثاتِ، وَالطَّيِّباتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّباتِ﴾ الآية، قيل في معناه أقوال، إلى أن قال: الثالث الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء عن أبي مسلم والجبائي، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام، قالا: هي مثل قوله: ﴿الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ إلا أن أناسا هموا أن يتزوجوا منهن، فنهاهم الله عن ذلك وكره ذلك لهم.

ب. وفي الخصال، عن عبد الله بن عمر وأبي هريرة قالا: قال رسول الله ﷺ: إذا طاب قلب المرء طاب جسده، وإذا خبث القلب خبث الجسد.

ج. وفي الإحتجاج، عن الحسن بن علي عليه السلام: في حديث له مع معاوية وأصحابه، وقد نالوا من علي عليه السلام: ﴿الْخَبِيثاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثاتِ﴾ هم والله يا معاوية أنت وأصحابك هؤلاء وشيعتك ﴿وَالطَّيِّباتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّباتِ﴾ إلى آخر الآية، هم علي بن أبي طالب وأصحابه وشيعته.

١٦. الاستئناس والتسليم عند دخول البيوت:

المقطع [١٦] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٠٩»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلى أَهْلِها﴾:

أ. الأنس بالشيء وإليه الألفة وسكون القلب إليه، والاستيناس طلب ذلك بفعل يؤدي إليه كالاستيناس لدخول بيت بذكر الله والتنحنح ونحو ذلك ليتنبه صاحب البيت أن هناك من يريد الدخول عليه فيستعد لذلك فربما كان في حال لا يحب أن يراه عليها أحد أو يطلع عليها مطلع.

ب. ومنه يظهر أن مصلحة هذا الحكم هو الستر على عورات الناس والتحفظ على كرامة الإيمان

فإذا استأنس الداخل عند إرادة الدخول على بيت غير بيته فأخبر باستيناسه صاحب البيت بدخوله ثم دخل فسلم عليه فقد أعانه على ستر عورته، وأعطاه الأمن من نفسه.

ج. ويؤدي الاستمرار على هذه السيرة الجميلة إلى استحكام الأخوة والألفة والتعاون العام على إظهار الجميل والستر على القبيح وإليه الإشارة بقوله: ﴿ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي لعلكم بالاستمرار على هذه السيرة تتذكرون ما يجب عليكم رعايته وإحياؤه من سنة الأخوة وتألف القلوب التي تحتها كل سعادة اجتماعية.

د. وقيل: إن قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تعليل لمحذوف والتقدير قيل لكم كذا لعلكم تتذكرون مواعظ الله فتعملوا بموجبها، ولا بأس به.

هـ. وقيل: إن في قوله: ﴿حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا﴾ تقديما وتأخيرا والأصل حتى تسلموا وتستأنسوا، وهو كما ترى.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، بإسناده عن عبد الرحمن بن أبي عبد الله عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ، حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِها﴾ قال: الاستيناس وقع النعل والتسليم.

• أقول: ورواه الصدوق في معاني الأخبار، عن محمد بن الحسن مرفوعا عن عبد الرحمن عنه عليه السلام.

ب. وفي المجمع: عن أبي أيوب الأنصاري قال: قلنا: يا رسول الله ما الاستيناس؟ قال يتكلم الرجل بالتسبيحة والتحميدة والتكبيرة، ويتنحنح على أهل البيت.

ج. وعن سهل بن سعد قال: اطلع رجل في حجرة من حجر رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ ومعه مدرى يحك رأسه: لو أعلم أنك تنظر لطعنت به في عينيك، إنما الاستيذان من النظر.

د. وروي: أن رجلا قال للنبي ﷺ: أستأذن على أمي؟ فقال: نعم، قال: إنها ليس لها خادم غيري، أفأستأذن عليها كلما دخلت؟ قال: أتحب أن تراها عريانة؟ قال الرجل: لا، قال: فاستأذن عليها.

هـ. وروي: أن رجلا استأذن على رسول الله ﷺ فتنحنح، فقال ﷺ لامرأة يقال لها: روضة: قومي

إلى هذا فعلميه وقولي له: قل السلام عليكم أأدخل؟ فسمعها الرجل فقالها فقال: ادخل.

• أقول: وروي في الدر المنثور، عن جمع من أصحاب الجوامع الرواية الأولى عن أبي أيوب، والثانية عن سهل بن سعد والرابعة عن عمرو بن سعد الثقفي.

و. أخرج ابن مردويه عن عبادة بن الصامت: أن رسول الله ﷺ سئل عن الاستيذان في البيوت فقال: من دخلت عينه قبل أن يستأذن ويسلم، فقد عصى الله ولا إذن له.

١٧. الإذن بالدخول والرجوع إن قيل ارجعوا:

المقطع [١٧] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١١٠»:

١. ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيها أَحَداً فَلا تَدْخُلُوها حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾:

أ. أي إن علمتم بعدم وجود أحد فيها، وهو الذي يملك الإذن، فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم من قبل من يملك الإذن، وليس المراد به أن يتطلع على البيت وينظر فيه فإن لم ير فيه أحدا كف عن الدخول فإن السياق يشهد على أن المنع في الحقيقة عن النظر والاطلاع على عورات الناس.

ب. وهذه الآية تبين حكم دخول بيت الغير وليس فيه من يملك الإذن، والآية السابقة تبين حكم الدخول وفيه من يملك الإذن ولا يمنع، وأما دخوله وفيه من يملك الإذن ويمنع ولا يأذن فيه فيبين حكمه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكى لَكُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾

١٨. دخول البيوت غير المسكونة التي فيها متاع:

المقطع [١٨] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [النور: ٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١١٠»:

١. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيها مَتاعٌ لَكُمْ﴾:

أ. ظاهر السياق كون قوله: ﴿فِيها مَتاعٌ لَكُمْ﴾ صفة بعد صفة لقوله: ﴿بُيُوتاً﴾ لا جملة مستأنفة معللة لقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ﴾، والظاهر أن المتاع بمعنى الاستمتاع.

ب. ففيه تجويز الدخول في بيوت معدة لأنواع الاستمتاع وهي غير مسكونة بالطبع كالخانات والحمامات والأرحية ونحوها فإن كونها موضوعة للاستمتاع إذن عام في دخولها.

ج. وربما قيل: إن المراد بالمتاع المعنى الاسمي وهو الأثاث والأشياء الموضوعة للبيع والشري كما في بيوت التجارة والحوانيت فإنها مأذونة في دخولها إذنا عاما ولا يخلو من بعد لقصور اللفظ.

١٩. أمر المؤمنين بغض البصر وحفظ الفروج:

المقطع [١٩] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١١٠»:

١. ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذلِكَ أَزْكى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِما يَصْنَعُونَ﴾:

أ. الغض إطباق الجفن، على الجفن والأبصار جمع بصر وهو العضو الناظر، ومن هنا يظهر أن ﴿مِنْ﴾ في ﴿مِنْ أَبْصارِهِمْ﴾ لابتداء الغاية لا مزيدة ولا للجنس ولا للتبعيض كما قال بكل قائل، والمعنى يأتوا بالغض آخذا من أبصارهم.

ب. فقوله: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ﴾ لما كان ﴿يَغُضُّوا﴾ مترتبا على قوله: ﴿قُلْ﴾ ترتب جواب الشرط عليه دل ذلك على كون القول بمعنى الأمر والمعنى مرهم يغضوا من أبصارهم والتقدير مرهم بالغض إنك إن تأمرهم به يغضوا، والآية أمر بغض الأبصار وإن شئت فقل: نهي عن النظر إلى ما لا يحل النظر إليه من الأجنبي والأجنبية لمكان الإطلاق.

٢. ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾:

أ. أي ومرهم يحفظوا فروجهم، والفرجة والفرج الشق بين الشيئين، وكنى به عن السوأة، وعلى ذلك جرى استعمال القرآن المليء أدبا وخلقا ثم كثر استعماله فيها حتى صار كالنص كما ذكره الراغب.

ب. والمقابلة بين قوله: ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ﴾ و﴿يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ يعطي أن المراد بحفظ الفروج سترها عن النظر لا حفظها عن الزنا واللواطة كما قيل، وقد ورد في الرواية عن الصادق عليه السلام: أن كل آية في القرآن في حفظ الفروج فهي من الزنا، إلا هذه الآية فهي من النظر.

ج. وعلى هذا يمكن أن تتقيد أولى الجملتين بثانيتهما ويكون مدلول الآية هو النهي عن النظر إلى الفروج والأمر بسترها.

د. ثم أشار إلى وجه المصلحة في الحكم وحثهم على المراقبة في جنبه بقوله: ﴿ذلِكَ أَزْكى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِما يَصْنَعُونَ﴾

٣. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام: في حديث يذكر فيه ما فرض الله على الجوارح، قال: وفرض على البصر أن لا ينظر إلى ما حرم الله عليه، وأن يعرض عما نهى الله عنه مما لا يحل له، وهو عمله وهو من الإيمان، فقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ فنهاهم أن ينظروا إلى عوراتهم، وأن ينظر المرء إلى فرج أخيه، ويحفظ فرجه أن ينظر إليه، وقال: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَ﴾ من أن تنظر إحداهن إلى فرج أختها، وتحفظ فرجها من أن ينظر إليه، وقال: كل شيء في القرآن من حفظ الفرج فهو من الزنا، إلا هذه الآية فهو من النظر.

• أقول: وروى القمي في تفسيره، ذيل الحديث عن أبيه عن ابن أبي عمير عن أبي بصير عنه عليه السلام، وروي مثله عن أبي العالية وابن زيد.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن سعد الإسكاف عن أبي جعفر عليه السلام قال: استقبل شاب من الأنصار امرأة بالمدينة، وكان النساء يتقنعن خلف آذانهن، فنظر إليها وهي مقبلة، فلما جازت نظر إليها ودخل في زقاق قد سماه ببني فلان، وجعل ينظر خلفها، واعترض وجهه عظم في الحائط أو زجاجة فشق وجهه، فلما مضت المرأة نظر فإذا الدماء تسيل على ثوبه وصدره، فقال: والله لآتين رسول الله ﷺ ولأخبرنه، قال: فأتاه فلما رآه رسول الله ﷺ قال له: ما هذا؟ فأخبره فهبط جبرئيل بهذه الآية ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ، ذلِكَ أَزْكى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِما يَصْنَعُونَ﴾

• أقول: ورواه في الدر المنثور، عن ابن مردويه عن علي بن أبي طالب مثله، وظاهر الحديث أن المراد بالأمر بالغض في الآية النهي عن مطلق النظر إلى الأجنبية، كما أن ظاهر بعض الروايات السابقة أنه نهي عن النظر إلى فرج الغير خاصة.

ج. وفي الكافي، بإسناده عن عباد بن صهيب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لا بأس بالنظر إلى رءوس أهل تهامة والأعراب، وأهل السواد والعلوج، لأنهم إذا نهوا لا ينتهون، قال: والمجنونة والمغلوبة على عقلها، ولا بأس بالنظر إلى شعرها وجسدها ما لم يتعمد ذلك.

• أقول: كأنه عليه السلام يريد بقوله: ما لم يتعمد ذلك، الريبة.

د. وفي الخصال وقال النبي ﷺ لأمير المؤمنين عليه السلام: يا علي أول نظرة لك والثانية عليك لا لك

• أقول: وروي مثله في الدر المنثور، عن عدة من أصحاب الجوامع عن بريدة عنه ﷺ ولفظه: قال رسول الله ﷺ لعلي: لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة.

٢٠. غض البصر وحفظ الفروج وضرب الخمر على الجيوب:

المقطع [٢٠] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١١١»:

١. الكلام في قوله: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ نظير ما مر في قوله: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ فلا يجوز لهن النظر إلى ما لا يجوز النظر إليه ويجب عليهن ستر العورة عن الأجنبي والأجنبية.

٢. وأما قوله: ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا ما ظَهَرَ مِنْها﴾ فالإبداء الإظهار، والمراد بزينتهن مواضع الزينة لأن نفس ما يتزين به كالقرط والسوار لا يحرم إبداؤها فالمراد بإبداء الزينة إبداء مواضعها من البدن، وقد استثنى الله سبحانه منها ما ظهر، وقد وردت الرواية أن المراد بها ظهر منها الوجه والكفان والقدمان كما سيجيء إن شاء الله.

٣. ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ الخمر بضمتين جمع خمار وهو ما تغطي به المرأة رأسها وينسدل على صدرها، والجيوب جمع جيب بالفتح فالسكون وهو معروف والمراد بالجيوب الصدور، والمعنى وليلقين بأطراف مقانعهن على صدورهن ليسترنها بها.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن مروك بن عبيد عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: ما يحل أن يرى من المرأة إذا لم يكن محرما؟ قال: الوجه والكفان والقدمان.

• أقول: ورواه في الخصال، عن بعض أصحابنا عنه عليه السلام ولفظه: الوجه والكفين والقدمين.

ب. وفي قرب الإسناد، للحميري عن علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عليه السلام قال: سألته عن الرجل ما يصلح له أن ينظر إليه، من المرأة التي لا تحل له؟ قال: الوجه والكف وموضع السوار.

ج. وفي جوامع الجامع، عن أم سلمة قالت: كنت عند النبي ﷺ وعنده ميمونة فأقبل ابن أم مكتوم وذلك بعد أن أمرنا بالحجاب، فقال: احتجبا، فقلنا: يا رسول الله أليس أعمى لا يبصرنا؟ فقال: أفعمياوان أنتما؟ ألستما تبصرانه؟

• أقول: ورواه في الدر المنثور، عن أبي داود والترمذي والنسائي والبيهقي عنها.

٢١. محارم النساء ومن يجوز إبداء الزينة لهم:

المقطع [٢١] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: ٣١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١١٢»:

١. ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ بَنِي أَخَواتِهِنَّ﴾ البعولة هم أزواجهن، والطوائف السبع الأخر محارمهن من جهة النسب والسبب، وأجداد البعولة حكمهم حكم آبائهم وأبناء أبناء البعولة حكمهم حكم الأبناء.

٢. ﴿أَوْ نِسائِهِنَّ﴾ في الإضافة إشارة إلى أن المراد بهن المؤمنات من النساء فلا يجوز لهن التجرد لغيرهن من النساء وقد وردت به الروايات عن أئمة أهل البيت عليه السلام.

٣. ﴿أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ﴾ إطلاقه يشمل العبيد والإماء، وقد وردت به الرواية كما سيأتي إن شاء الله، وهذا من موارد استعمال ﴿ما﴾ في أولي العقل.

٤. ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ﴾ الإربة هي الحاجة، والمراد به الشهوة التي تحوج إلى الازدواج، و﴿مِنَ الرِّجالِ﴾ بيان للتابعين، والمراد بهم كما تفسره الروايات البله المولى عليهم من الرجال

ولا شهوة لهم.

٥. ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ أي جماعة الأطفال، واللام للاستغراق، الذين لم يقووا ولم يظهروا، من الظهور بمعنى الغلبة، على أمور يسوء التصريح بها من النساء، وهو، كما قيل، كناية عن البلوغ.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في الفقيه، وروى حفص بن البختري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا ينبغي للمرأة أن تنكشف، بين يدي اليهودية والنصرانية، فإنهن يصفن ذلك لأزواجهن.

ب. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ﴾ وقيل: معناه العبيد والإماء: وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام.

ج. وفي الكافي، بإسناده عن عبد الرحمن بن أبي عبد الله قال: سألته عن غير أولي الإربة من الرجال، قال: الأحمق المولى عليه الذي لا يأتي النساء.

٢٢. عدم ضرب الأرجل لإبداء الزينة والتوبة إلى الله:

المقطع [٢٢] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللهِّ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١١٢»:

١. ﴿وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ ذلك بتصوت أسباب الزينة كالخلخال والعقد والقرط والسوار.

٢. ﴿وَتُوبُوا إِلَى الله جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ المراد بالتوبة، على ما يعطيه السياق، الرجوع إليه تعالى بامتثال أوامره والانتهاء عن نواهيه وبالجملة اتباع سبيله.

٢٣. أمر الأولياء بتزويج الأيامى والصالحين واستعفاف الفقراء:

المقطع [٢٣] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُّ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُّ وَاسِعٌ عَلِيمٌ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُّ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٢-٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١١٢»:

١ . ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وَإِمائِكُمْ﴾ الإنكاح التزويج، والأيامى جمع أيم بفتح الهمزة وكسر الياء المشددة وهو الذكر الذي لا أنثى معه والأنثى التي لا ذكر معها وقد يقال في المرأة أيمة، والمراد بالصالحين الصالحون للتزويج لا الصالحون في الأعمال.

٢ . ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وعد جميل بالغنى وسعة الرزق وقد أكده بقوله: ﴿وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾ والرزق يتبع صلاحية المرزوق بمشية من الله سبحانه، وسيوافيك إن شاء الله في تفسير قوله تعالى: ﴿فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣] كلام في معنى سعة الرزق.

٣ . ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ الاستعفاف والتعفف قريبا المعنى، والمراد بعدم وجدان النكاح عدم القدرة على المهر والنفقة، ومعنى الآية الأمر بالتعفف لمن لا يقدر على النكاح والتحرز عن الوقوع في الزنا حتى يغنيه الله من فضله.

٤ . أحاديث وآثار: في الكافي، بإسناده عن محمد بن جعفر عن أبيه عن آبائه عليهم‌السلام قال: قال رسول الله ﷺ: من ترك التزويج مخافة العيلة، فقد أساء ظنه بالله عز وجل إن الله يقول ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾

• أقول: وفي المعاني السابقة روايات كثيرة جدا عن أئمة أهل البيت عليه السلام من أرادها فليراجع كتب الحديث.

٢٤ . مكاتبة العبيد وإعانتهم والنهي عن إكراه الفتيات على البغاء:

المقطع [٢٤] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١١٣»:

١ . ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ فَكاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً﴾ إلخ المراد بالكتاب المكاتبة، وابتغاء المكاتبة أن يسأل العبد مولاه أن يكاتبه على إيتائه المولى مالا على أن يعتقه، وفي الآية أمر للموالي بإجابتهم إن علموا فيهم خيرا وهو كناية عن إحراز صلاحيتهم لذلك.

٢. ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللهِ الَّذِي آتاكُمْ﴾ إشارة إلى إيتائهم مال المكاتبة من الزكاة المفروضة فسهم من سهام الزكاة لهم، كما قال تعالى: ﴿وَفِي الرِّقابِ﴾ [التوبة: ٦٠] أو إسقاط شيء من مال المكاتبة.

٣. وفي هذه الآية والآيات السابقة مباحث فقهية جمة ينبغي أن يراجع فيها كتب الفقه.

٤. ﴿وَلا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ عَلَى الْبِغاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً﴾:

أ. الفتيات الإماء والولائد، والبغاء الزنا وهو مفاعلة من البغي، والتحصن التعفف والازدواج وابتغاء عرض الحياة الدنيا طلب المال، والمعنى ظاهر.

ب. وإنما اشترط النهي عن الإكراه بإرادة التحصن لأن الإكراه لا يتحقق في من لا يريد التحصن، ثم وعدهن المغفرة على تقدير الإكراه بقوله: ﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْراهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ومعناه ظاهر.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في الفقيه، روى العلاء عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿فَكاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً﴾ قال: الخير أن يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويكون بيده عمل يكتسب به أو يكون له حرفة.

• أقول: وفي معناه روايات أخر.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن العلاء بن فضيل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: في قوله عز وجل: ﴿فَكاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً، وَآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللهِ الَّذِي آتاكُمْ﴾ قال: تضع عنه من نجومه التي لم تكن تريد أن تنقصه، ولا تزيد فوق ما في نفسك، فقلت: كم؟ فقال: وضع أبو جعفر عليه السلام عن مملوك ألفا من ستة آلاف.

• أقول: وروي في مجمع البيان، وكذا في الدر المنثور، عن علي عليه السلام ربع المال، والمستفاد من ظواهر الأخبار عدم تعين مقدار معين ذي نسبة.

• وقد تقدمت في ذيل قوله: ﴿فِي الرِّقابِ﴾ [التوبة: ٦٠] الجزء التاسع من الكتاب رواية العياشي أن المكاتب يؤتى من سهم الرقاب من الزكاة.

ج. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَلا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ عَلَى الْبِغاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً﴾، قال: كانت

العرب وقريش يشترون الإماء، ويضعون عليهن الضريبة الثقيلة ويقولون: اذهبن وازنين واكتسبن، فنهاهم الله عن ذلك فقال ﴿وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغاءِ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي لا يؤاخذهن الله تعالى بذلك إذا أكرهن عليه.

د. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيا﴾ قيل: إن عبد الله بن أبي كانت له ست جوار، يكرههن على الكسب بالزنا، فلما نزل تحريم الزنا أتين رسول الله ﷺ فشكون إليه فنزلت الآية.

• أقول: أما أنه كان له من الجواري من يكرههن على الزنا فقد وردت فيه روايات رواها في الدر المنثور، كما روى هذه الرواية، وأما كون ذلك بعد نزول تحريم الزنا فيضعفه أن الزنا لم يحرم في المدينة بل في مكة قبل الهجرة بل كانت حرمته من ضروريات الإسلام منذ ظهرت الدعوة الحقة، وقد تقدم في تفسير سورة الأنعام أن حرمة الفواحش ومنها الزنا من الأحكام العامة التي لا تختص بشريعة دون شريعة.

٢٥. إنزال الآيات المبينات والموعظة للمتقين:

المقطع [٢٥] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١١٤»:

١. ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ المثل الصفة ومن الممكن أن يكون قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنا﴾، حالا من فاعل قوله: ﴿تُوبُوا﴾ في الآية السابقة أو استينافا والمعنى وأقسم لقد أنزلنا إليكم آيات تبين لكم من معارف الدين ما تفلحون به، وصفة من السابقين أخيارهم وأشرارهم يتميز بها لكم ما ينبغي أن تأخذوا به مما ينبغي لكم أن تجتنبوا، وموعظة للمتقين منكم.

٢٦. الله نور السموات والأرض ومثل نوره:

المقطع [٢٦] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٢٠»:

١. ﴿اللهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾:

أ. المشكاة على ما ذكره الراغب وغيره: كوة غير نافذة وهي ما يتخذ في جدار البيت من الكو لوضع بعض الأثاث كالمصباح وغيره عليه وهو غير الفانوس.

ب. والدري: من الكواكب العظيم الكثير النور، وهو معدود في السماء، والإيقاد: الإشعال، والزيت: الدهن المتخذ من الزيتون.

٢. ﴿اللهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾:

أ. النور معروف وهو الذي يظهر به الأجسام الكثيفة لأبصارنا فالأشياء ظاهرة به وهو ظاهر مكشوف لنا بنفس ذاته فهو الظاهر بذاته المظهر لغيره من المحسوسات للبصر، هذا أول ما وضع عليه لفظ النور ثم عمم لكل ما ينكشف به شيء من المحسوسات على نحو الاستعارة أو الحقيقة الثانية فعد كل من الحواس نورا أو ذا نور يظهر به محسوساته كالسمع والشم والذوق واللمس، ثم عمم لغير المحسوس فعد العقل نورا يظهر به المعقولات كل ذلك بتحليل معنى النور المبصر إلى الظاهر بذاته المظهر لغيره.

ب. وإذ كان وجود الشيء هو الذي يظهر به نفسه لغيره من الأشياء كان مصداقا تاما للنور، ثم لما كانت الأشياء الممكنة الوجود إنما هي موجودة بإيجاد الله تعالى كان هو المصداق الأتم للنور فهناك وجود ونور يتصف به الأشياء وهو وجودها ونورها المستعار المأخوذ منه تعالى ووجود ونور قائم بذاته يوجد ويستنير به الأشياء.

ج. فهو سبحانه نور يظهر به السماوات والأرض، وهذا هو المراد بقوله: ﴿اللهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ حيث أضيف النور إلى السماوات والأرض ثم حمل على اسم الجلالة، وعلى هذا ينبغي أن يحمل قول من قال: إن المعنى الله منور السماوات والأرض، وعمدة الغرض منه أن ليس المراد بالنور النور المستعار القائم بها وهو الوجود الذي يحمل عليها تعالى الله عن ذلك وتقدس.

د. ومن ذلك يستفاد أنه تعالى غير مجهول لشيء من الأشياء إذ ظهور كل شيء لنفسه أو لغيره إنما هو عن إظهاره تعالى فهو الظاهر بذاته له قبله، وإلى هذه الحقيقة يشير قوله تعالى بعد آيتين: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ إذ لا معنى للتسبيح والعلم به وبالصلاة مع الجهل بمن يصلون له ويسبحونه فهو نظير قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ

وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وسيوافيك البحث عنه إن شاء الله.

هـ. فقد تحصل أن المراد بالنور في قوله: ﴿اللهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ نوره تعالى من حيث يشرق منه النور العام الذي يستنير به كل شيء وهو مساو لوجود كل شيء وظهوره في نفسه ولغيره وهي الرحمة العامة.

٣. ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾:

أ. يصف تعالى نوره، وإضافة النور إلى الضمير الراجع إليه تعالى، وظاهره الإضافة اللامية، دليل على أن المراد ليس هو وصف النور الذي هو الله بل النور المستعار الذي يفيضه، وليس هو النور العام المستعار الذي يظهر به كل شيء وهو الوجود الذي يستفيضه منه الأشياء وتتصف، به والدليل عليه قوله بعد تتميم المثل: ﴿يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ﴾ إذ لو كان هو النور العام لم يختص به شيء دون شيء بل هو نوره الخاص بالمؤمنين بحقيقة الإيمان على ما يفيده الكلام.

ب. وقد نسب تعالى في سائر كلامه إلى نفسه نورا كما في قوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ [الصف: ٨]، وقوله: ﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها﴾ [الأنعام: ١٢٢] وقوله: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٨]، وقوله: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، وهذا هو النور الذي يجعله الله لعباده المؤمنين يستضيئون به في طريقهم إلى ربهم وهو نور الإيمان والمعرفة.

ج. وليس المراد به القرآن كما قاله بعضهم فإن الآية تصف حال عامة المؤمنين قبل نزول القرآن وبعده، على أن هذا النور وصف لهم يتصفون به كما يشير إليه قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٩] وقوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا﴾ [التحريم: ٨]، والقرآن ليس وصفا لهم وإن لوحظ باعتبار ما يكشف عنه من المعارف رجع إلى ما قلناه.

٤. ﴿كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ﴾ المشبه به مجموع ما ذكر من قوله مشكاة فيها مصباح المصباح.، لا مجرد المشكاة وإلا فسد المعنى، وهذا كثير في تمثيلات القرآن.

٥. ﴿الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ تشبيه الزجاجة بالكوكب الدري من جهة ازدياد لمعان نور المصباح وشروقه بتركيب الزجاجة على المصباح فتزيد الشعلة بذلك سكونا من غير اضطراب بتموج

الأهوية وضرب الرياح فهي كالكوكب الدري في تلألؤ نورها وثبات شروقها.

٦. ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ﴾:

أ. خبر بعد خبر للمصباح أي المصباح يشتعل آخذا اشتعاله من شجرة مباركة زيتونة أي إنه يشتعل من دهن زيت مأخوذ منها، والمراد بكون الشجرة لا شرقية ولا غربية أنها ليست نابتة في الجانب الشرقي ولا في الجانب الغربي حتى تقع الشمس عليها في أحد طرفي النهار ويفيء الظل عليها في الطرف الآخر فلا تنضج ثمرتها فلا يصفو الدهن المأخوذ منها فلا تجود الإضاءة بل هي ضاحية تأخذ من الشمس حظها طول النهار فيجود دهنها لكمال نضج ثمرتها.

ب. والدليل على هذا المعنى قوله: ﴿يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ﴾ فإن ظاهر السياق أن المراد به صفاء الدهن وكمال استعداده للاشتعال وأن ذلك متفرع على الوصفين: لا شرقية ولا غربية.

ج. وأما قول بعضهم: إن المراد بقوله: ﴿لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾ أنها ليست من شجر الدنيا حتى تنبت إما في شرق أو في غرب، وكذا قول آخرين: إن المراد أنها ليست من شجر شرق المعمورة ولا من شجر غربها بل من شجر الشام الواقع بين الشرق والغرب وزيته أفضل الزيت فغير مفهوم من السياق.

٧. ﴿نُورٌ عَلى نُورٍ﴾:

أ. خبر لمبتدإ محذوف وهو ضمير راجع إلى نور الزجاجة المفهوم من السياق، والمعنى نور الزجاجة المذكور نور عظيم على نور كذلك أي في كمال التلمع.

ب. والمراد من كون النور على النور قيل: هو تضاعف النور لا تعدده فليس المراد به أنه نور معين أو غير معين فوق نور آخر مثله، ولا أنه مجموع نورين اثنين فقط بل أنه نور متضاعف من غير تحديد لتضاعفه وهذا التعبير شائع في الكلام.

ج. وهذا معنى لا يخلو من جودة وإن كان إرادة التعدد أيضا لا تخلو من لطف ودقة فإن للنور الشارق من المصباح نسبة إليه بالأصالة والحقيقة ونسبة إلى الزجاجة التي عليه بالاستعارة والمجاز، ويتغاير النور بتغاير النسبتين ويتعدد بتعددهما وإن لم يكن بحسب الحقيقة إلا للمصباح والزجاجة صفر الكف منه فللزجاجة بالنظر إلى تعدد النسب نور غير نور المصباح وهو قائم به ومستمد منه.

د. وهذا الاعتبار جار بعينه في الممثل له فإن نور الإيمان والمعرفة نور مستعار مشرق على قلوب

المؤمنين مقتبس من نوره تعالى قائم به مستمد منه.

هـ. فقد تحصل أن الممثل له هو نور الله المشرق على قلوب المؤمنين والمثل هو المشبه به النور المشرق من زجاجة على مصباح موقد من زيت جيد صاف وهو موضوع في مشكاة فإن نور المصباح المشرق من الزجاجة والمشكاة تجمعه وتعكسه على المستنيرين به يشرق عليهم في نهاية القوة والجودة.

و. فأخذ المشكاة للدلالة على اجتماع النور في بطن المشكاة وانعكاسه إلى جو البيت، واعتبار كون الدهن من شجرة زيتونة لا شرقية ولا غربية للدلالة على صفاء الدهن وجودته المؤثر في صفاء النور المشرق عن اشتعاله وجودة الضياء على ما يدل عليه كون زيته يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار، واعتبار كون النور على النور للدلالة على تضاعف النور أو كون الزجاجة مستمدة من نور المصباح في إنارتها.

٨. ﴿يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ﴾:

أ. استئناف يعلل به اختصاص المؤمنين بنور الإيمان والمعرفة وحرمان غيرهم، فمن المعلوم من السياق أن المراد بقوله: ﴿مَنْ يَشاءُ﴾ القوم الذين ذكرهم بقوله بعد: ﴿رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾، فالمراد بمن يشاء المؤمنون بوصف كمال إيمانهم.

ب. والمعنى: أن الله إنما هدى المتلبسين بكمال الإيمان إلى نوره دون المتلبسين بالكفر، الذين سيذكرهم بعد، لمجرد مشيته، وليس المعنى أن الله يهدي بعض الأفراد إلى نوره دون بعض بمشيته ذلك حتى يحتاج في تتميمه إلى القول بأنه إنما يشاء الهداية إذا استعد المحل إلى الهداية بحسن السريرة، والسيرة وذلك مما يختص به أهل الإيمان دون أهل الكفر فافهمه.

ج. والدليل على ذلك ما سيأتي من قوله: ﴿وَللهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآيات بالبيان الآتي إن شاء الله.

٩. ﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ إشارة إلى أن المثل المضروب تحته طور من العلم، وإنما اختير المثل لكونه أسهل الطرق لتبيين الحقائق والدقائق ويشترك فيه العالم والعامي فيأخذ منه كل ما قسم له، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]

١٠. أحاديث وآثار:

أ. في التوحيد، بإسناده عن العباس بن هلال قال: سألت الرضا عليه السلام عن قول الله عز

وجل: ﴿اللهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ فقال: هاد لأهل السماوات وهاد لأهل الأرض.

ب. وفي رواية البرقي: هدى من في السماوات وهدى من في الأرض.

• أقول: إذا كان المراد بالهداية الهداية الخاصة وهي الهداية إلى السعادة الدينية كان من التفسير بمرتبة من المعنى، وإن كان المراد بها الهداية العامة وهي إيصال كل شيء إلى كماله انطبق على ما تقدم.

ج. وفي الكافي، بإسناده عن إسحاق بن جرير قال: سألتني امرأة أن أدخلها على أبي عبد الله عليه السلام، فاستأذنت لها فأذن لها، فدخلت ومعها مولاة لها فقالت له: يا أبا عبد الله، قول الله: ﴿زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾ ما عنى بهذا؟ فقال لها: أيتها المرأة إن الله لم يضرب الأمثال للشجر، إنما ضرب الأمثال لبني آدم.

د. وفي تفسير القمي، بإسناده عن طلحة بن زيد عن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام: في هذه الآية ﴿اللهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: بدأ بنور نفسه ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ مثل هداه في قلب المؤمن ﴿كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ﴾ والمصباح جوف المؤمن والقنديل قلبه، والمصباح النور الذي جعله الله في قلبه، ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ﴾ قال: الشجرة المؤمن ﴿زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: على سواد الجبل لا غربية أي لا شرق لها، ولا شرقية أي لا غرب لها، إذا طلعت الشمس طلعت عليها وإذا غربت غربت عليها ﴿يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ﴾ يكاد النور الذي في قلبه يضيء وإن لم يتكلم، ﴿نُورٌ عَلى نُورٍ﴾ فريضة على فريضة، وسنة على سنة ﴿يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ﴾ يهدي الله لفرائضه وسننه من يشاء ﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ﴾ فهذا مثل ضربه الله للمؤمن، ثم قال: فالمؤمن يتقلب في خمسة من النور: مدخله نور، ومخرجه نور، وعلمه نور، وكلامه نور، ومصيره يوم القيامة إلى الجنة نور، قلت لجعفر عليه السلام: إنهم يقولون: مثل نور الرب، قال: سبحان الله ليس لله مثل، قال الله: ﴿فَلا تَضْرِبُوا للهِ الْأَمْثالَ﴾

• أقول: الحديث يؤيد ما تقدم في تفسير الآية، وقد اكتفى عليه السلام في تفسير بعض فقرات الآية بذكر بعض المصاديق كالذي ذكره في ذيل قوله: ﴿يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ﴾ وقوله: ﴿نُورٌ عَلى نُورٍ﴾

• وأما قوله: (سبحان الله ليس لله مثل فإنما ينفي به أن يكون المثل مثلا للنور الذي هو اسمه تعالى المحمول عليه فكونه مثلا له تعالى يؤدي إلى الحلول أو الانقلاب تعالى عن ذلك بل هو مثل لنوره المفاض على السماوات والأرض، وأما الضمير في قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ فلا ضير في رجوعه إليه تعالى مع الاحتفاظ

على المعنى الصحيح.

هـ. وفي التوحيد، وقد روي عن الصادق عليه السلام: أنه سئل عن قول الله عز وجل: ﴿اللهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ﴾ فقال: هو مثل ضربه الله لنا، فالنبي والأئمة ﷺ من دلالات الله، وآياته التي يهتدى بها إلى التوحيد ومصالح الدين، وشرائع الإسلام والسنن والفرائض، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

• أقول: الرواية من قبيل الإشارة إلى بعض المصاديق وهو من أفضل المصاديق وهو النبي ﷺ والطاهرون من أهل بيته عليه السلام وإلا فالآية تعم بظاهرها غيرهم من الأنبياء عليهم السلام والأوصياء والأولياء.

• نعم ليست الآية بعامة لجميع المؤمنين لأخذها في وصفهم صفات لا تعم الجميع كقوله: ﴿رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾

• وقد وردت عدة من الأخبار من طرق الشيعة في تطبيق مفردات الآية على النبي ﷺ وأهل بيته عليه السلام وهي من التطبيق دون التفسير، ومن الدليل على ذلك اختلافها في نحو التطبيق كرواية الكليني في روضة الكافي، بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام وفيها: أن المشكاة قلب محمد ﷺ، والمصباح النور الذي فيه العلم، والزجاجة علي أو قلبه، والشجرة المباركة الزيتونة التي لا شرقية ولا غربية، إبراهيم عليه السلام ما كان يهوديا ولا نصرانيا، وقوله: ﴿يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ﴾، يكاد أولادهم أن يتكلموا بالنبوة وإن لم ينزل عليهم ملك.

و. وما رواه في التوحيد، بإسناده إلى عيسى بن راشد عن الباقر عليه السلام وفيه: أن المشكاة نور العلم في صدر النبي ﷺ، والزجاجة صدر علي ﴿يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ﴾ يكاد العالم من آل محمد يتكلم بالعلم قبل أن يسأل ﴿نُورٌ عَلى نُورٍ﴾ إمام مؤيد بنور العلم والحكمة في إثر الإمام من آل محمد.

ز. وما في الكافي، بإسناده عن صالح بن سهل الهمداني عن الصادق عليه السلام وفيه: أن المشكاة فاطمة عليه السلام، والمصباح الحسن عليه السلام، والزجاجة الحسين عليه السلام، والشجرة المباركة إبراهيم عليه السلام، و﴿لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾ ما كان يهوديا ولا نصرانيا، و﴿نُورٌ عَلى نُورٍ﴾ إمام بعد إمام، و﴿يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ﴾ يهدي الله للأئمة عليهم السلام من يشاء.

ح. أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: في قوله: ﴿زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: قلب إبراهيم لا يهودي ولا نصراني.

• أقول: وهو من قبيل ذكر بعض المصاديق، وقد ورد مثله من طرق الشيعة عن بعض أئمة أهل البيت عليه السلام كما تقدم.

٢٧. بيوت الله المرفوعة وصفات عمّارها:

المقطع [٢٧] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٦-٣٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٢٦»:

١. ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾:

أ. الإذن في الشيء هو إعلام ارتفاع المانع عن فعله، والمراد بالرفع رفع القدر والمنزلة وهو التعظيم، وإذ كانت العظمة والعلو لله تعالى لا يشاركه في ذلك غيره إلا أن ينتسب إليه، وبمقدار ما ينتسب إليه فالإذن منه تعالى في أن ترفع هذه البيوت إنما هو لانتساب ما منها إليه.

ب. وبذلك يظهر أن السبب لرفعها هو ما عطف عليه من ذكر اسمه فيها، والسياق يدل على الاستمرار أو التهيؤ له فيعود المعنى إلى مثل قولنا: (أن يذكر فيها اسمه فيرتفع قدرها بذلك)

ج. ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ متعلق بقوله في الآية السابقة: ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ أو قوله: ﴿يَهْدِي اللهُ﴾، والمال واحد، ومن المتيقن من هذه البيوت المساجد فإنها معدة لذكر اسمه فيها ممحضة لذلك، وقد قال تعالى: ﴿وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً﴾ [الحج: ٤٠]

٢. ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ﴾ تسبيحه تعالى تنزيهه عن كل ما لا يليق بساحة قدسه، والغدو جمع غداة وهو الصبح والآصال جمع أصيل وهو العصر، والإلهاء صرف الإنسان عما يعنيه ويهمه، والتجارة على ما قاله الراغب: (التصرف في رأس المال طلبا للربح، قال: وليس في كلامهم تاء بعدها جيم غير هذا اللفظ، والبيع على ما قال: إعطاء المثمن وأخذ الثمن، وقلب الشيء على ما ذكره صرف الشيء من وجه إلى وجه، والتقليب مبالغة فيه والتقلب قبوله فتقلب القلوب والأبصار تحول منها من وجه من

الإدراك إلى وجه آخر.

٣. ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ﴾:

أ. صفة لبيوت أو استئناف لبيان قوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾، وكون التسبيح بالغدو والآصال كناية عن استمرارهم فيه لا أن التسبيح مقصور في الوقتين لا يسبح له في غيرهما.

ب. والاكتفاء بالتسبيح من غير ذكر التحميد معه لأنه تعالى معلوم بجميع صفاته الكمالية لا سترة عليه إذ المفروض أنه نور والنور هو الظاهر بذاته المظهر لغيره وإنما يحتاج خلوص المعرفة إلى نفي النقائص عنه وتنزيهه عما لا يليق به فإذا تم التسبيح لم يبق معه غيره وتمت المعرفة ثم إذا تمت المعرفة وقع الثناء والحمد وبالجملة التوصيف بصفات الكمال موقعه بعد حصول المعرفة كما قال تعالى: ﴿سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ١٦٠]، فنزهه عما يصفونه به إلا ما وصفه به من أخلصهم لنفسه من عباده، وقد تقدم في تفسير سورة الحمد كلام في معنى حمده تعالى.

ج. وبيان آخر حمده تعالى وهو ثناؤه بصفة الكمال مساوي لحصول نور المعرفة وتسبيحه وهو التنزيه بنفي ما لا يليق به عنه مقدمة لحصوله، والآية في مقام بيان خصالهم التي تستدعي هدايتهم إلى نوره فلا جرم اقتصر فيها بذكر ما هي المقدمة وهو التسبيح، فافهم ذلك.

٤. ﴿رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ﴾:

أ. التجارة إذا قوبلت بالبيع كان المفهوم منها بحسب العرف الاستمرار في الاكتساب بالبيع والشراء والبيع هو العمل الاكتسابي الدفعي فالفرق بينهما هو الفرق بين الدفعة والاستمرار فمعنى نفي البيع بعد نفي التجارة مع كونه منفيا بنفيها الدلالة على أنهم لا يلهون عن ربهم في مكاسبهم دائما ولا في وقت من الأوقات، وبعبارة أخرى لا تنسيهم ربهم تجارة مستمرة ولا بيع ما من البيوع التي يوقعونها مدة تجارتهم.

ب. وقيل: الوجه في نفي البيع بعد نفي الهاء التجارة أن الربح في البيع ناجز بالفعل بخلاف التجارة التي هي الحرفة، فعدم الهاء التجارة لا يستلزم عدم الهاء البيع الرابح بالفعل، ولذلك نفى البيع ثانيا بعد نفي الهاء التجارة ولذلك كررت لفظة ﴿لا﴾ لتذكير النفي وتأكيده، وهو وجه حسن.

٥. ﴿عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقامِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ﴾:

أ. الإقام هو الإقامة بحذف التاء تخفيفا.

ب. والمراد بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة الإتيان بجميع الأعمال الصالحة التي كلف الله تعالى عباده بإتيانها في حياتهم الدنيا، وإقامة الصلاة ممثلة لإتيان ما للعبد من وظائف العبودية مع الله سبحانه، وإيتاء الزكاة ممثل لوظائفه مع الخلق وذلك لكون كل منها ركنا في بابه.

ج. والمقابلة بين ذكر الله وبين إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهما، وخاصة الصلاة، من ذكر الله يعطي أن يكون المراد بذكر الله الذكر القلبي الذي يقابل النسيان والغفلة وهو ذكر علمي كما أن أمثال الصلاة والزكاة ذكر عملي.

د. فالمقابلة المذكورة تعطي أن المراد بقوله: ﴿عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقامِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ﴾ أنهم لا يشتغلون بشيء عن ذكرهم المستمر بقلوبهم لربهم وذكرهم الموقت بأعمالهم من الصلاة والزكاة، وعند ذلك يظهر حسن التقابل بين التجارة والبيع وبين ذكر الله وإقام الصلاة، لرجوع المعنى إلى أنهم لا يلهيهم مله مستمر ولا موقت عن الذكر المستمر والموقت، فافهم ذلك.

٦. ﴿يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصارُ﴾:

أ. هذا هو يوم القيامة، والمراد بالقلوب والأبصار ما يعم قلوب المؤمنين والكافرين وأبصارهم لكون القلوب والأبصار جمعا محلى باللام وهو يفيد العموم.

ب. وأما تقلب القلوب والأبصار فالآيات الواصفة لشأن يوم القيامة تدل على أنه بظهور حقيقة الأمر وانكشاف الغطاء كما قال تعالى: ﴿فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، وقال: ﴿وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

ج. فتنصرف القلوب والأبصار يومئذ عن المشاهدة والرؤية الدنيوية الشاغلة عن الله الساترة للحق والحقيقة إلى سنخ آخر من المشاهدة والرؤية وهو الرؤية بنور الإيمان والمعرفة فيتبصر المؤمن بنور ربه وهو نور الإيمان والمعرفة فينظر إلى كرامة الله، ويعمى الكافر ولا يجد إلا ما يسوؤه قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها﴾ [الزمر: ٦٩] وقال: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ﴾ [الحديد: ١٢]، وقال: ﴿وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى﴾ [الإسراء: ٧٢]، وقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣] وقال: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ

لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]

د. وقد تبين بما مر:

• أولا: وجه اختصاص هذه الصفة أعني تقلب القلوب والأبصار من بين أوصاف يوم القيامة بالذكر وذلك أن الكلام مسوق لبيان ما يتوسل به إلى هدايته تعالى إلى نوره وهو نور الإيمان والمعرفة الذي يستضاء به يوم القيامة ويبصر به.

• وثانيا: أن المراد بالقلوب والأبصار النفوس وبصائرها.

• وثالثا: أن توصيف اليوم بقوله: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصارُ﴾ لبيان سبب الخوف فهم إنما يخافون اليوم لما فيه من تقلب القلوب والأبصار، وإنما يخافون هذا التقلب لما في أحد شقيه من الحرمان من نور الله والنظر إلى كرامته وهو الشقاء الدائم والعذاب الخالد وفي الحقيقة يخافون أنفسهم.

٧. ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾:

أ. الظاهر أن لام ﴿لِيَجْزِيَهُمُ﴾ للغاية، والذي ذكره الله في خلال الكلام هو أعمالهم الصالحة والأجر الجميل على كل صالح مما ينص عليه كلامه تعالى فقوله: إنه يجزيهم أحسن ما عملوا معناه أنه يجزيهم بإزاء عملهم في كل باب جزاء أحسن عمل في ذلك الباب، ومرجع ذلك إلى أنه تعالى يزكي أعمالهم فلا يناقش فيها بالمؤاخذة في جهات توجب نقصها وانحطاط قدرها فيعد الحسن منها أحسن.

ب. ويؤيد هذا المعنى قوله في ذيل الآية: ﴿وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ فإن ظاهره عدم المداقة في حساب الحسنات بالإغماض عن جهات نقصها فيلحق الحسن بالأحسن.

٨. ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾:

أ. الفضل العطاء، وهذا نص في أنه تعالى يعطيهم من فضله ما ليس بإزاء أعمالهم الصالحة، وأوضح منه قوله تعالى في موضع آخر: ﴿لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]، حيث إن ظاهره أن هذا المزيد الموعود أمر وراء ما تتعلق به مشيئتهم.

ب. وقد دل كلامه سبحانه أن أجرهم أن لهم ما يشاءون قال تعالى: ﴿أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٣٤]، وقال: ﴿أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كانَتْ لَهُمْ جَزاءً وَمَصِيراً لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ خالِدِينَ﴾ [الفرقان: ١٦]، وقال: ﴿لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ كَذلِكَ يَجْزِي اللهُ

الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣١]

ج. فهذا المزيد الذي هو وراء جزاء الأعمال أمر أعلى وأعظم من أن تتعلق به مشية الإنسان أو يوصل إليه سعيه، وهذا أعجب ما يعده القرآن المؤمنين ويبشرهم به فأجد التدبر فيه.

٩. ﴿وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾:

أ. استئناف مآله تعليل الجملتين السابقتين بالمشية نظير قوله فيما تقدم: ﴿يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ﴾ على ما مر بيانه.

ب. ومحصله أنهم عملوا صالحا وكان لهم من الأجر ما يعادل عملهم كما هو ظاهر قوله: ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ﴾ [النحل: ١١١]، وما في معناه من الآيات لكنه تعالى يجزيهم لكل عمل من أعمالهم جزاء أحسن عمل يؤتى به في بابه من غير أن يداق في الحساب فهذه موهبة ثم يرزقهم أمرا هو أعلى وأرفع من أن تتعلق به مشيتهم وهذه أيضا موهبة ورزق بغير حساب، والرزق من الله موهبة محضة من غير أن يملك المرزوقون منه شيئا أو يستحقوه عليه تعالى فله تعالى أن يخص منه ما يشاء لمن يشاء.

ج. غير أنه تعالى وعدهم الرزق وأقسم على إنجازه في قوله: ﴿فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣]، فملكهم الاستحقاق لأصله وهو الذي يجزيهم به على قدر أعمالهم وأما الزائد عليه فلم يملكهم ذلك فله أن يختص به من يشاء فلا يعلل ذلك إلا بمشية وللكلام تتمة ستوافيك إن شاء الله في بحث مستقل.

١٠. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك وبريدة قالا: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ فقام إليه رجل فقال: أي بيوت هذه يا رسول الله؟ قال: بيوت الأنبياء، فقام إليه أبو بكر فقال: يا رسول الله هذا البيت منها لبيت علي وفاطمة؟ قال: نعم من أفاضلها.

• أقول: ورواه في المجمع: عنه ﷺ مرسلا، وروى هذا المعنى القمي في تفسيره بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام ولفظه: قال: هي بيوت الأنبياء وبيت علي عليه السلام منها، وهو على أي حال من قبيل ذكر بعض المصاديق على ما تقدم.

ب. وفي نهج البلاغة من كلام له عليه السلام عند تلاوته ﴿رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ

اللهِ﴾ وإن للذكر لأهلا أخذوه من الدنيا بدلا، فلم يشغلهم تجارة ولا بيع عنه يقطعون به أيام الحياة، ويهتفون بالزواجر عن محارم الله في أسماع الغافلين، ويأمرون بالقسط ويأتمرون به، وينهون عن المنكر وينتهون عنه، كأنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة، وهم فيها فشاهدوا ما وراء ذلك، فكأنما اطلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه، وحققت القيامة عليهم عذابها، فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا، حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس، ويسمعون ما لا يسمعون.

ج. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ﴾ وروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام: أنهم قوم إذا حضرت الصلاة، تركوا التجارة وانطلقوا إلى الصلاة، وهم أعظم أجرا ممن لم يتجر.

• أقول: أي لم يتجر واشتغل بذكر الله كما في روايات أخر.

د. وفي الدر المنثور، عن ابن مردويه وغيره عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ: في قوله تعالى: ﴿رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ قال: هم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله.

• أقول: كأن الرواية غير تامة وتمامها فيما روي عن ابن عباس قال: كانوا رجالا يبتغون من فضل الله يشترون ويبيعون فإذا سمعوا النداء بالصلاة ألقوا ما بأيديهم وقاموا إلى المسجد فصلوا.

هـ. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسابِ﴾ وسئل أمير المؤمنين عليه السلام: كيف يحاسبهم في حالة واحدة؟ فقال: كما يرزقهم في حالة واحدة.

٢٨. أعمال الكفار كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء:

المقطع [٢٨] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسابِ﴾ [النور: ٣٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٣٠»:

١. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً﴾:

أ. السراب هو ما يلمع في المفازة كالماء ولا حقيقة له، والقيع والقاع هو المستوي من الأرض ومفرداهما القيعة والقاعة كالتينة والتمرة، والظمآن هو العطشان.

ب. لما ذكر سبحانه المؤمنين ووصفهم بأنهم ذاكرون له في بيوت معظمة لا تلهيهم عنه تجارة ولا بيع، وأن الله الذي هو نور السماوات والأرض يهديهم بذلك إلى نوره فيكرمهم بنور معرفته قابل ذلك بذكر الذين كفروا فوصف أعمالهم تارة بأنها لا حقيقة لها كسراب بقيعة فلا غاية لها تنتهي إليها، وتارة بأنها كظلمات بعضها فوق بعض لا نور معها وهي حاجزة عن النور، وهذه الآية هي التي تتضمن الوصف الأول.

ج. فقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً﴾ شبه أعمالهم، وهي التي يأتون بها من قرابين وأذكار وغيرهما من عباداتهم يتقربون بها إلى آلهتهم، بسراب بقيعة يحسبه الإنسان ماء ولا حقيقة له يترتب عليها ما يترتب على الماء من رفع العطش وغير ذلك.

د. وإنما قيل: يحسبه الظمآن ماء مع أن السراب يتراءى ماء لكل راء لأن المطلوب بيان سيره إليه ولا يسير إليه إلا الظمآن يدفعه إليه ما به من ظمإ، ولذلك رتب عليه قوله: ﴿حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً﴾، كأنه قيل: كسراب بقيعة يتخيله الظمآن ماء فيسير إليه ويقبل نحوه ليرتوي ويرفع عطشه به، ولا يزال يسير حتى إذا جاءه لم يجده شيئا.

هـ. والتعبير بقوله: ﴿جاءَهُ﴾ دون أن يقال: بلغه أو وصل إليه أو انتهى إليه ونحوها للإيماء إلى أن هناك من يريد مجيئه وينتظره انتظارا وهو الله سبحانه، ولذلك أردفه بقوله: ﴿وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ﴾ فأفاد أن هؤلاء يريدون بأعمالهم الظفر بأمر تبعثهم نحوه فطرتهم وجبلتهم وهو السعادة التي يريدها كل إنسان بفطرته وجبلته لكن أعمالهم لا توصلهم إليه، ولا أن الآلهة التي يبتغون بأعمالهم جزاء حسنا منهم لهم حقيقة بل الذي ينتهي إليه أعمالهم ويحيط هو بها ويجزيهم هو الله سبحانه فيوفيهم حسابهم، وتوفية الحساب كناية عن الجزاء بما يستوجبه حساب الأعمال وإيصال ما يستحقه صاحب الأعمال.

و. ففي الآية تشبيه أعمالهم بالسراب، وتشبيههم بالظمآن الذي يريد الماء وعنده عذب الماء لكنه يعرض عنه ولا يصغي إلى مولاه الذي ينصحه ويدعوه إلى شربه بل يحسب السراب ماء فيسير إليه ويقبل نحوه، وتشبيه مصيرهم إلى الله سبحانه بحلول الآجال وعند ذلك تمام الأعمال بالظمآن السائر إلى السراب إذا جاءه وعنده مولاه الذي كان ينصحه ويدعوه إلى شرب الماء.

ز. فهؤلاء قوم ألهوا عن ذكر ربهم والأعمال الصالحة الهادية إلى نوره وفيه سعادتهم وحسبوا أن

سعادتهم عند غيره من الآلهة الذين يدعونهم والأعمال المقربة إليهم وفيها سعادتهم فأكبوا على تلك الأعمال السرابية واستوفوا ما يمكنهم أن يأتوا بها مدة أعمارهم حتى حلت آجالهم وشارفوا الدار الآخرة فلم يجدوا شيئا مما يؤملونه من أعمالهم ولا أثرا من ألوهية آلهتهم فوفاهم الله حسابهم والله سريع الحساب.

٢. ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ إنما هو لإحاطة علمه بالقليل والكثير والحقير والخطير والدقيق والجليل والمتقدم والمتأخر على حد سواء.

٣. واعلم أن الآية وإن كان ظاهرها بيان حال الكفار من أهل الملل وخاصة المشركين من الوثنيين:

أ. لكن البيان جار في غيرهم من منكري الصانع فإن الإنسان كائنا من كان يرى لنفسه سعادة في الحياة ولا يرتاب أن الوسيلة إلى نيلها أعماله التي يأتي بها فإن كان ممن يقول بالصانع ويراه المؤثر في سعادته بوجه من الوجوه توسل بأعماله إلى تحصيل رضاه والفوز بالسعادة التي يقدرها له، وإن كان ممن ينكره وينهي التأثير إلى غيره توسل بأعماله إلى توجيه ما يقول به من المؤثر كالدهر والطبيعة والمادة نحو سعادة حياته الدنيا التي لا يقول بها وراءها.

ب. فهؤلاء يرون المؤثر الذي بيده سعادة حياتهم غيره تعالى ولا مؤثر غيره ويرون مساعيهم الدنيوية موصلة لهم إلى سعادتهم وليست إلا سرابا لا حقيقة له ولا يزالون يسعون حتى إذا تم ما قدر لهم من الأعمال بحلول ما سمي لهم من الآجال لم يجدوا عندها شيئا وعاينوا أن ما كانوا يتمنون منها لم يكن إلا طائف خيال أو حلم نائم، وعند ذلك يوفيهم الله حسابهم والله سريع الحساب.

٢٩. ظلمات البحر اللجي ومن لم يجعل الله له نوراً:

المقطع [٢٩] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٣٢»:

١. ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾:

أ. تشبيه ثان لأعمالهم يظهر به أنها حجب متراكمة على قلوبهم تحجبهم عن نور المعرفة، وقد تكرر في كلامه تعالى أنهم في الظلمات كقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقوله: ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقوله:

﴿كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]

ب. ﴿أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ معطوف على ﴿كَسَرابٍ﴾ في الآية السابقة، والبحر اللجي هو البحر المتردد أمواجه منسوب إلى لجة البحر وهي تردد أمواجه، والمعنى: أعمالهم كظلمات كائنة في بحر لجي.

ج. ﴿يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ﴾ صفة البحر جيء بها لتقرير الظلمات المفروضة فيه فصفته أنه يغشاه ويحيط به موج كائن من فوقه موج آخر كائن من فوقه سحاب يحجبنه جميعا من الاستضاءة بأضواء الشمس والقمر والنجوم.

٢. ﴿ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ﴾:

أ. تقرير لبيان أن المراد بالظلمات المفروضة الظلمات المتراكمة بعضها على بعض دون المتفرقة، وقد أكد ذلك بقوله: ﴿إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها﴾ فإن أقرب ما يشاهده الإنسان منه هو نفسه وهو أقدر على رؤية يده منه على سائر أعضائه لأنه يقربها تجاه باصرته كيفما أراد فإذا أخرج يده ولم يكد يراها كانت الظلمة بالغة.

ب. فهؤلاء وهم سائرون إلى الله وصائرون إليه من جهة أعمالهم كراكب بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب في ظلمات متراكمة كأشد ما يكون ولا نور هناك يستضيء به فيهتدي إلى ساحل النجاة.

٣. ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ نفي للنور عنهم بأن الله لم يجعله لهم، كيف لا؟ وجاعل النور هو الله الذي هو نور كل شيء، فإذا لم يجعل لشيء نورا لم يكن له نورا إذ لا جاعل غيره تعالى.

٣٠. تسبيح من في السموات والأرض والطير:

المقطع [٣٠] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ وَللهِ مُلْكُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ [النور: ٤١-٤٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٣٣»:

١. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صافَّاتٍ﴾:

أ. لما ذكر سبحانه أنه نور تستنير به السماوات والأرض وأنه يختص بمزيد نوره المؤمنين من عباده

والذين كفروا لا نصيب لهم من ذلك شرع يحتج على ذلك بما في هذه الآية والآيات الأربع التالية لها، فكونه تعالى نور السماوات والأرض يدل عليه أن ما في السماوات والأرض موجود بوجود ليس من عنده ولا من عند شيء مما فيهما لكونه مثله في الفاقة، فوجود ما فيهما من موجود من الله الذي ينتهي إليه الحاجات.

ب. فوجود كل شيء مما فيهما كما يظهر به نفس الوجود يدل على من يظهره بما أفاض عليه من الوجود فهو نور يستنير به الشيء ويدل على منوره بما أشرق عليه من النور وأن هناك نورا يستنير به كل شيء فكل شيء مما فيهما يدل على أن وراءه شيئا منزها من الظلمة التي غشيته، والفاقة التي لزمته، والنقص الذي لا ينفك عنه، وهذا هو تسبيح ما في السماوات والأرض له سبحانه، ولازمه نفي الاستقلال عن كل من سواه وسلب أي إله ورب يدبر الأمر دونه تعالى.

ج. وإلى ذلك يشير قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ وبه يحتج تعالى على كونه نور السماوات والأرض لأن النور هو ما يظهر به الشيء المستنير ثم يدل بظهوره على مظهره، وهو تعالى يظهر ويوجد بإظهاره وإيجاده الأشياء ثم يدل على ظهوره ووجوده.

٢. وتزيد الآية بالإشارة إلى لطائف يكمل بها البيان:

أ. منها: اختصاصها من في السماوات والأرض والطير صافات وهم العقلاء وبعض ذوات الروح بالذكر مع عموم التسبيح لغيرهم لقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ ولعل ذلك من باب اختيار أمور من أعاجيب الخلقة للذكر فإن ظهور الموجود العاقل الذي يدل عليه لفظ ﴿مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ من عجيب أمر الخلقة الذي يدهش لب ذي اللب، كما أن صفيف الطير الصافات في الجو من أعجب ما يرى من أعمال الحيوان ذي الشعور وأبدعه، ويظهر من بعضهم أن المراد بقوله: ﴿مَنْ فِي السَّماواتِ﴾، جميع الأشياء وإنما عبر بلفظ أولي العقل لكون التسبيح المنسوب إليها من شئون أولي العقل أو للتنبيه على قوة تلك الدلالة ووضوح تلك الإشارة تنزيلا للسان الحال منزلة المقال.

• وفيه أنه لا يلائم إسناد العلم إليها في قوله بعد: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾

ب. ومنها: تصدير الكلام بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وفيه دلالة على ظهور تسبيحهم ووضوح دلالتهم على التنزيه بحيث لا يرتاب فيه ذو ريب فكثيرا ما يعبر عن العلم الجازم بالرؤية كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ

اللهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ﴾ [إبراهيم: ١٩]، والخطاب فيه عام لكل ذي عقل وإن كان خاصا بحسب اللفظ، ومن الممكن أن يكون خطابا خاصا بالنبي ﷺ وقد كان أراه الله تسبيح من في السماوات والأرض والطير صافات فيما أراه من ملكوت السماوات والأرض وليس ببدع منه ﷺ وقد أرى الناس تسبيح الحصاة في كفه كما وردت به الأخبار المعتبرة.

ج. ومنها: أن الآية تعمم العلم لكل ما ذكر في السماوات والأرض والطير، وقد تقدم بعض البحث عنه في تفسير قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وستجيء تتمة الكلام فيه في تفسير سورة حم السجدة إن شاء الله، وقول بعضهم: إن الضمير في قوله: ﴿قَدْ عَلِمَ﴾ راجع إليه تعالى، يدفعه عدم ملائمته للسياق وخاصة لقوله بعده: ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ﴾ ونظيره قول آخرين: إن إسناد العلم إلى مجموع ما تقدم من المجاز بتنزيل غير العالم منزلة العالم لقوة دلالته على تسبيحه وتنزيهه.

د. ومنها: تخصيصها التسبيح بالذكر مع أن الأشياء تشير إلى صفات كماله تعالى وهو التحميد كما تسبحه على ما يدل عليه البرهان ويؤيده قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ ولعل الوجه فيه كون الآيات مسوقة للتوحيد ونفي الشركاء وذلك بالتنزيه أمس فإن من يدعو من دون الله إلها آخر أو يركن إلى غيره نوعا من الركون إنما يكفر بإثبات خصوصية وجود ذلك الشيء للإله تعالى فنفيه إنما يتأتى بالتنزيه دون التحميد فافهمه، وأما قوله: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ فصلاته دعاؤه والدعاء توجيه من الداعي للمدعو إلى حاجته ففيه دلالة على حاجة عند الداعي المدعو في غنى عنها فهو أقرب إلى الدلالة على التنزيه منه على الثناء والتحميد.

هـ. ومنها: أن الآية تنسب التسبيح والعلم به إلى من في السماوات والأرض فيعم المؤمن والكافر، ويظهر بذلك أن هناك نورين:

• نور عام يعم الأشياء والمؤمن والكافر فيه سواء، وإلى ذلك تشير آيات كآية الذر: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وقوله: ﴿فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] إلى غير ذلك.

• ونور خاص وهو الذي تذكره الآيات ويختص بأوليائه من المؤمنين.

• فالنور الذي ينور تعالى به خلقه كالرحمة التي يرحمهم بها قسمان: عام وخاص وقد قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ [الجاثية: ٣٠]، وقد جمع بينهما في قوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً﴾ [الحديد: ٢٨]، وما ذكر فيه من النور هو النور على نور بحذاء الثاني من كفلي الرحمة.

٣. ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ﴾:

أ. ومن فعلهم تسبيحهم له سبحانه، وهذا التسبيح وإن كان في بعض المراحل هو نفس وجودهم لكن صدق اسم التسبيح يجوز أن يعد فعلا لهم بهذه العناية.

ب. وفي ذكر علمه تعالى بما يفعلون عقيب ذكر تسبيحهم ترغيب للمؤمنين وشكر لهم بأن ربهم يعلم ذلك منهم وسيجزيهم جزاء حسنا، وإيذان بتمام الحجة على الكافرين، فإن من مراتب علمه تعالى كتب الأعمال والكتاب المبين التي تثبت فيها أعمالهم فيثبت فيها تسبيحهم بوجودهم ثم إنكارهم بألسنتهم.

٤. ﴿وَللهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾:

أ. سياق الآية وقد وقعت بين قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ﴾، وهو احتجاج على شمول نوره العام لكل شيء، وبين قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي﴾، وما يتعقبه وهو احتجاج على اختصاص النور الخاص، يعطي أنها كالمتوسط بين القبيلين أعني بين الأمرين يحتج بها على كليهما، فملكه تعالى لكل شيء وكونه مصيرا لها هو دليل على تعميمه نوره العام وتخصيصه نوره الخاص يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

ب. فقوله: ﴿وَللهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ يخص الملك ويقصره فيه تعالى فله أن يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، ولازم قصر الملك فيه كونه هو المصير لكل شيء، وإذ كان لا مليك إلا هو وإليه مرجع كل شيء ومصيره فله أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

ج. ومن هنا يظهر أن المراد، والله أعلم، بقوله: ﴿وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ مرجعيته تعالى في الأمور دون المعاد نظير قوله: ﴿أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]

٣١. تسيير السحاب وإنزال البرق وتقلب الليل والنهار:

المقطع [٣١] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ

بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣-٤٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٣٦»:

١. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾:

أ. الإزجاء هو الدفع، والركام المتراكم بعضه على بعض، والودق هو المطر، والخلال جمع الخلل وهو الفرجة بين الشيئين.

ب. والخطاب للنبي ﷺ بعنوان أنه سامع فيشمل كل سامع، والمعنى: ألم تر أنت وكل من يرى أن الله يدفع بالرياح سحابا متفرقا ثم يؤلف بينه ثم يجعله متراكما بعضه على بعض فترى المطر يخرج من خلله وفرجه فينزل على الأرض.

٢. ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ﴾:

أ. السماء جهة العلو، وقوله: ﴿مِنْ جِبالٍ فِيها﴾ بيان للسماء، والجبال جمع جبل وهو معروف، وقوله: ﴿مِنْ بَرَدٍ﴾ بيان للجبال، والبرد قطعات الجمد النازل من السماء، وكونه جبالا فيها كناية عن كثرته وتراكمه، والسنا بالقصر الضوء.

ب. والكلام معطوف على قوله: ﴿يُزْجِي﴾، والمعنى: ألم تر أن الله ينزل من السماء من البرد المتراكم فيها كالجبال فيصيب به من يشاء فيفسد المزارع والبساتين وربما قتل النفوس والمواشي ويصرفه عمن يشاء فلا يتضررون به يقرب ضوء برقه من أن يذهب بالأبصار.

ج. والآية، على ما يعطيه السياق، مسوقة لتعليل ما تقدم من اختصاصه المؤمنين بنوره، والمعنى: أن الأمر في ذلك إلى مشيته تعالى كما ترى أنه إذا شاء نزل من السماء مطرا فيه منافع الناس لنفوسهم ومواشيهم ومزارعهم وبساتينهم، وإذا شاء نزل بردا فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء.

٣. ﴿يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ﴾ بيان آخر لرجوع الأمر إلى مشيته تعالى فقط، وتقليب الليل والنهار تصريفها بتبديل أحدهما من الآخر، ومعنى الآية ظاهر.

٣٢. خلق كل دابة وتنوع مشيها:

المقطع [٣٢] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٣٧»:

١. ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ﴾ بيان آخر لرجوع الأمر إلى مشيته تعالى محضا حيث يخلق كل دابة من ماء ثم تختلف حالهم في المشي فمنهم من يمشي على بطنه كالحيات والديدان، ومنهم من يمشي على رجلين كالأناسي والطيور ومنهم من يمشي على أربع كالبهائم والسباع، واقتصر سبحانه على هذه الأنواع الثلاثة، وفيهم غير ذلك، إيجازا لحصول الغرض بهذا المقدار.

٢. ﴿يَخْلُقُ اللهُ ما يَشاءُ﴾ تعليل لما تقدم من اختلاف الدواب، مع وحدة المادة التي خلقت منها يبين أن الأمر إلى مشية الله محضا فله أن يعمم فيضا من فيوضه على جميع خلقه كالنور العام، والرحمة العامة وله أن يختص بفيض من فيوضه بعضا من خلقه دون بعض كالنور الخاص والرحمة الخاصة.

٣. ﴿إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل لقوله: ﴿يَخْلُقُ اللهُ ما يَشاءُ﴾ فإن إطلاق القدرة على كل شيء يستوجب أن لا يتوقف شيء من الأشياء في كينونته على أمر وراء مشيته وإلا كانت قدرته عليه مشروطة بحصول ذلك الأمر وهذا خلف، وهذا باب من التوحيد دقيق سيتضح بعض الاتضاح إن شاء الله بما في البحث الآتي.

٤. وضع هنا مبحثا حول [العلية الإلهية والارتباط الوجودي]، خلاصته:

أ. الموجودات الممكنة معلولة منتهية إلى الواجب تعالى، وكثير منها (خاصة الماديات) تتوقف في وجودها على شروط لا تحقق لها بدونها (كالوالدين والزمان والمكان)، وبما أن كل ما يتوقف عليه شيء هو جزء من علته التامة، فإن الواجب تعالى يكون جزءاً من العلة التامة لكل شيء، لا العلة التامة وحدها، بالنسبة إلى الأجزاء المفردة.

ب. الواجب تعالى هو العلة التامة بالنسبة إلى مجموع العالم، لأنه لا يتوقف على شيء غيره، وكذلك الصادر الأول الذي تتبعه بقية الأجزاء.

ج. هناك نظر أدق: الارتباط الوجودي بين كل شيء وعلله الممكنة يقضي بنوع من الاتحاد

والاتصال بينها، فالواحد من الأجزاء ليس منفصلاً مطلقاً، بل هو في وجوده المتعين مقيد بجميع ما يرتبط به، متصل الهوية بغيرها.

د. بناء على هذا النظر، فحقيقة زيد مثلاً هي: الإنسان ابن فلان وفلانة، المتولد في زمان كذا ومكان كذا، المتقدم عليه كذا وكذا من الممكنات، وهذه الحقيقة لا تتوقف على شيء غير الواجب، فالواجب هو علته التامة التي لا توقف له على غيره، ولا حاجة له إلى غير مشيته، وقدرته تعالى بالنسبة إليه مطلقة غير مشروطة ولا مقيدة، وهو قوله: ﴿يَخْلُقُ اللهُ ما يَشاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

٣٣. إنزال الآيات المبينات والهداية إلى صراط مستقيم:

المقطع [٣٣] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٣٩»:

١. ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يريد آية النور وما يتلوها المبينة لصفة نوره تعالى والصراط المستقيم سبيله التي لا سبيل للغضب والضلال إلى من اهتدى إليها كما قال: ﴿اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الحمد: ٧]، وقد تقدم الكلام فيه في تفسير سورة الحمد.

٢. وتذييل الآية بقوله: ﴿وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هو الموجب لعدم تقييد قوله: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ مُبَيِّناتٍ﴾ بلفظة إليكم بخلاف قوله قبل آيات: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ إذ لو قيل: لقد أنزلنا إليكم آيات مبينات والله يهدي، تبادر إلى الذهن أن البيان اللفظي هداية إلى الصراط المستقيم وأن المخاطبين عامة مهديون إلى الصراط المستقيم وفيهم المنافق والذين في قلوبهم مرض والله العالم.

٣٤. الإيمان والتولي ومرض القلب:

المقطع [٣٤] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور: ٤٧-٥٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٤٤»:

١. ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ﴾:

أ. بيان حال بعض المنافقين حيث أظهروا الإيمان والطاعة أولا ثم تولوا ثانيا فالإيمان بالله هو العقد على توحيده وما شرع من الدين، والإيمان بالرسول هو العقد على كونه رسولا مبعوثا من عند ربه أمره أمره ونهيه نهيه وحكمه حكمه من غير أن يكون له من الأمر شيء، وطاعة الله هي تطبيق العمل بما شرعه، وطاعة الرسول الايتمار والانتهاء عند أمره ونهيه وقبول ما حكم به وقضى عليه.

ب. فالإيمان بالله وطاعته موردهما نفس الدين والتشرع به، والإيمان بالرسول وطاعته موردهما ما أخبر به الرسول من الدين بما أنه يخبر به وما حكم به وقضى عليه في المنازعات والانقياد له في ذلك كله.

ج. فبين الإيمانين والطاعتين فرق ما من حيث سعة المورد وضيقه، ويشير إلى ذلك ما في العبارة من نوع من التفصيل حيث قيل: ﴿آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ﴾ فأشير إلى تعدد الإيمان والطاعة ولم يقل: آمنا بالله والرسول بحذف الباء، والإيمانان مع ذلك متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ﴾ [النساء: ١٥٠]

د. فقوله: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنا﴾ أي عقدنا القلوب على دين الله وتشرعنا به وعلى أن الرسول لا يخبر إلا بالحق ولا يحكم إلا بالحق.

٢. ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ﴾ أي ثم يعرض طائفة من هؤلاء القائلين: ﴿آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنا﴾ عن مقتضى قولهم من بعد ما قالوا ذلك.

٣. ﴿وَما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ليس أولئك القائلون بالمؤمنين، والمشار إليه باسم الإشارة القائلون جميعا لا خصوص الفريق المتولين على ما يعطيه السياق لأن الكلام مسوق لذم الجميع.

٤. ﴿وَإِذا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾:

أ. يشهد سياق الآية أن الآيات إنما نزلت في بعض من المنافقين دعوا إلى حكم النبي ﷺ في منازعة وقعت بينه وبين غيره فأبى الرجوع إلى النبي ﷺ وفي ذلك نزلت الآيات.

ب. والنبي ﷺ إنما كان يحكم بينهم بحكم الله على ما أراه الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللهُ﴾ [النساء: ١٠٥]، فللحكم نسبة إليه بالمباشرة ونسبة إلى الله سبحانه من حيث كان الحكم في ضوء شريعته وبنصبه النبي ﷺ للحكم والقضاء.

ج. وبذلك يظهر أن المراد بالدعوة إلى الله ليحكم بينهم هي الدعوة إلى المتابعة لما يقتضيه شرعه تعالى في مورد النزاع، وبالدعوة إلى رسوله ليحكم بينهم هي الدعوة إلى متابعة ما يقضى عليه بالمباشرة، وأن الظاهر أن ضمير ﴿لِيَحْكُمَ﴾ للرسول، وإنما أفرد الفاعل ولم يثن إشارة إلى أن حكم الرسول حكمه تعالى.

د. والآية بالنسبة إلى الآية السابقة كالخاص بالنسبة إلى العام فهي تقص إعراضا معينا منهم والإعراض المذكور في الآية السابقة منهم إعراض مطلق.

٥. ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ الإذعان الانقياد، وظاهر السياق وخاصة قوله: ﴿يَأْتُوا إِلَيْهِ﴾ أن المراد بالحق حكم الرسول بدعوى أنه حق لا ينفك عنه، والمعنى وإن يكن الحق الذي هو حكم الرسول لهم لا عليهم يأتوا إلى حكمه منقادين فليسوا بمعرضين عنه إلا لكونه عليهم لا لهم، ولازم ذلك أنهم يتبعون الهوى ولا يريدون اتباع الحق.

٦. ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾:

أ. الحيف الجور.

ب. وظاهر سياق الآيات أن المراد بمرض القلوب ضعف الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، وقوله: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦٠]، وغير ذلك من الآيات.

ج. وأما كون المراد بمرض القلوب النفاق كما فسر به فيدفعه قوله في صدر الآيات: ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنه حكم بنفاقهم، ولا معنى مع إثبات النفاق للاستفهام عن النفاق ثم الإضراب عنه بقوله: ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

٧. ﴿أَمِ ارْتَابُوا﴾ ظاهر إطلاق الارتياب وهو الشك أن يكون المراد هو شكهم في دينهم بعد الإيمان دون الشك في صلاحية النبي ﷺ للحكم أو عدله ونحو ذلك لكونها بحسب الطبع محتاجة إلى بيان بنصب قرينة.

٨. ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ أي أم يعرضون عن ذلك لأنهم يخافون أن يجور الله عليهم ورسوله لكون الشريعة الإلهية التي يتبعها حكم النبي ﷺ مبنية على الجور وإماتة الحقوق الحقة، أو

لكون النبي ﷺ لا يراعي الحق في قضائه.

٩. ﴿بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾:

أ. إضراب عن الترديد السابق بشقوقه الثلاثة وذلك أن سبب إعراضهم لو كان مرض قلوبهم أو ارتيابهم لم يأتوا إليه مذعنين على تقدير كون الحق لهم بل كانوا يعرضون كان الحق لهم أو عليهم، وأما الخوف من أن يحيف الله عليهم ورسوله فلا موجب له فالله بريء من الحيف ورسوله فليس إعراضهم عن إجابة الدعوة إلى حكم الله ورسوله إلا لكونهم حق عليهم أنهم ظالمون.

ب. والظاهر أن المراد بالظلم التعدي عن طور الإيمان مع الإقرار به قولا كما قال آنفا: ﴿وَما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أو خصوص التعدي إلى الحقوق غير المالية، ولو كان المراد مطلق الظلم لم يصح الإضراب عن الشقوق الثلاثة السابقة إليه لأنها من مطلق الظلم ويدل عليه أيضا الآية التالية.

ج. وقد بان بما تقدم أن الترديد في أسباب الإعراض على تقدير عدم النفاق بين الأمور الثلاثة حاصر والأقسام متغايرة فإن محصل المعنى أنهم منافقون غير مؤمنين إذ لو لم يكونوا كذلك كان إعراضهم إما لضعف إيمانهم وإما لزواله بالارتياب وإما للخوف من غير سبب يوجبه فإن الخوف من الرجوع إلى حكم الحاكم إنما يكون إذا احتمل حيفه في حكمه وميله عن الحق إلى الباطل ولا يحتمل ذلك في حكم الله ورسوله.

د. وقد طال البحث في كلامهم عما في الآية من الترديد والإضراب ولعل فيما ذكرناه كفاية، ومن أراد أزيد من ذلك فليراجع المطولات.

١٠. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ﴾ الآيات، قيل: نزلت الآيات في رجل من المنافقين، كان بينه وبين رجل من اليهود حكومة، فدعاه اليهودي إلى رسول الله ﷺ ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف.

ب. وحكى البلخي أنه كانت بين علي وعثمان منازعة، في أرض اشتراها من علي فخرجت فيها أحجار، وأراد ردها بالعيب فلم يأخذها، فقال: بيني وبينك رسول الله ﷺ، فقال الحكم بن أبي العاص: إن حاكمته إلى ابن عمه يحكم له فلا تحاكمه إليه فنزلت الآيات، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام أو

قريب منه.

• أقول: وفي تفسير روح المعاني، عن الضحاك أن النزاع كان بين علي والمغيرة بن وائل وذكر قريبا من القصة.

٣٥. السمع والطاعة والفلاح:

المقطع [٣٥] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥١-٥٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٤٧»:

١. ﴿إِنَّما كانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا﴾:

أ. سياق قوله: ﴿إِنَّما كانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقد أخذ فيه ﴿كانَ﴾ ووصف الإيمان في ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ يدل على أن ذلك من مقتضيات طبيعة الإيمان فإن مقتضى الإيمان بالله ورسوله وعقد القلب على اتباع ما حكم به الله ورسوله التلبية للدعوة إلى حكم الله ورسوله دون الرد.

ب. وعلى هذا فالمراد بقوله: ﴿إِذا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ دعوة بعض الناس ممن ينازعهم كدعوة بعض المتنازعين المتخاصمين الآخر إلى التحاكم إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، ويدل عليه تصدير الجملة بلفظة ﴿إِذا﴾ ولو كان المراد به دعوة الله ورسوله بمعنى إيجاب رجوع المؤمنين في منازعاتهم إلى حكم الله ورسوله كان ذلك حكما مؤبدا لا حاجة فيه إلى التقييد بالزمان.

ج. وبذلك يظهر ضعف ما قيل: إن فاعل ﴿دُعُوا﴾ المحذوف هو الله ورسوله، والمعنى: إذا دعاهم الله ورسوله، نعم مرجع الدعوة بآخره إلى دعوة الله ورسوله.

د. وكيف كان تقصر الآية قول المؤمنين على تقدير الدعوة إلى حكم الله ورسوله في قولهم: سمعنا وأطعنا وهو سمع وطاعة للدعوة الإلهية سواء فرض الداعي هو أحد المتنازعين للآخر أو فرض الداعي هو الله ورسوله أو كان المراد هو السمع والطاعة لحكم الله ورسوله وإن كان بعيدا.

هـ. وانحصار قول المؤمنين عند الدعوة في ﴿سَمِعْنا وَأَطَعْنا﴾ يوجب كون الرد للدعوة ليس من قول المؤمنين فيكون تعديا عن طور الإيمان، كما يفيده قوله: ﴿بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ على ما تقدم، فتكون الآية في مقام التعليل للإضراب في ذيل الآية السابقة.

و. وقد ختمت الآية بقوله: ﴿وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وفيه قصر الفلاح فيهم لا قصرهم في الفلاح.

٢. ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ﴾:

أ. وورود الآية في سياق الآيات السابقة وانضمامها إلى سابقتها يعطي أنها في مقام التعليل، كالكبرى الكلية، للآية السابقة حيث حكمت بفلاح من أجاب الدعوة إلى حكم الله ورسوله بالسمع والطاعة بقيد الإيمان كأنه قيل: إنما أفلح من أجاب إلى حكم الله ورسوله وهو مؤمن لأنه مطيع لله ولرسوله وهو مؤمن حقا في باطنه خشية الله وفي ظاهره تقواه ومن يطع الله ورسوله فيما قضي عليه ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون، والفوز هو الفلاح.

ب. وتشمل الآية الداعي إلى حكم الله ورسوله من المتنازعين كما يشمل المدعو منهما إذا أجاب بالسمع والطاعة ففيها زيادة على تعليل حكم الآية السابقة تعميم الوعد الحسن للداعي والمدعو جميعا.

٣٦. حلف المنافقين ومرضى القلوب كذبا على الطاعة:

المقطع [٣٦] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٥٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٤٩»:

١. ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لا تُقْسِمُوا طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾:

أ. الجهد الطاقة، والتقدير في قوله: ﴿أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ﴾ أقسموا بالله مبلغ جهدهم في أيمانهم والمراد أقسموا بأغلظ أيمانهم.

ب. والظاهر أن المراد بقوله: ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ الخروج إلى الجهاد على ما وقع في عدة من الآيات كقوله: ﴿وَلَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقاعِدِينَ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالاً﴾ [التوبة: ٤٧]

٢. ﴿قُلْ لا تُقْسِمُوا﴾ نهي عن الإقسام، وقوله: ﴿طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ خبر لمبتدإ محذوف هو الضمير الراجع إلى الخروج والجملة في مقام التعليل للنهي عن الإقسام ولذا جيء بالفصل، وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾ من تمام التعليل.

٣. ومعنى الآية: وأقسموا بالله بأغلظ أيمانهم لئن أمرتهم بالخروج إلى الجهاد ليخرجن قل لهم: لا تقسموا فالخروج إلى الجهاد طاعة معروفة من الدين، وهو واجب لا حاجة إلى إيجابه بيمين مغلظ، وإن تكونوا تقسمون لأجل أن ترضوا الله ورسوله بذلك فالله خبير بما تعملون لا يغره إغلاظكم في الإيمان.

٤. وقيل: المراد بالخروج خروجهم من ديارهم وأموالهم لو حكم الرسول بذلك، وقوله: ﴿طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ مبتدأ لخبر محذوف، والتقدير: طاعة معروفة للنبي خير من إقسامكم، ومعنى الآية: وأقسموا بالله بأغلظ الأيمان لئن أمرتهم وحكمت عليهم في منازعاتهم بالخروج من ديارهم وأموالهم ليخرجن منها قل لهم: لا تقسموا لأن طاعة حسنة منكم للنبي خير من إقسامكم بالله والله خبير بما تعملون.

• وفيه أن هذا المعنى وإن كان يؤكد اتصال الآية بما قبلها بخلاف المعنى السابق لكنه لا يلائم التصريح السابق بردهم الدعوة إلى الله ورسوله ليحكم بينهم لأنهم إذ كانوا تولوا وأعرضوا عن حكم الله ورسوله لم يكن يسعهم أن يقسموا للنبي ﷺ لئن أمرهم في حكمه بالخروج من ديارهم وأموالهم ليخرجن وهو ظاهر، اللهم إلا أن يكون المقسمون فريقا آخر منهم غير الرادين للدعوة المعرضين عن الحكم، وحينئذ كان حمل ﴿لَيَخْرُجُنَ﴾ على هذا المعنى لا دليل يدل عليه.

٣٧. طاعة الله والرسول والتبليغ المبين:

المقطع [٣٧] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٥٠»:

١. ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ﴾:

أ. أمر بطاعة الله فيما أنزل من الدين، وأمر بطاعة الرسول فيما يأتيهم به من ربهم ويأمرهم به في أمر دينهم ودنياهم، وتصدير الكلام بقوله: ﴿قُلْ﴾ إشارة إلى أن الطاعة جميعا لله، وقد أكده بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ دون أن يقول: وأطيعوني لأن طاعة الرسول بما هو طاعة المرسل، وبذلك تتم الحجة.

ب. ولذلك عقب الكلام:

• أولا بقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ﴾ أي فإن تتولوا وتعرضوا عن طاعة

الرسول لم يضر ذلك الرسول فإنما عليه ما حمل من التكليف ولا يمسكم منه شيء وعليكم ما حملتم من التكليف ولا يمسه منه شيء فإن الطاعة جميعا لله سبحانه.

• وثانيا بقوله: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ أي وإن كان لكل منكم ومنه ما حمل لكن إن تطيعوا الرسول تهتدوا لأن ما يجيء به إليكم وما يأمركم به من الله وبأمره والطاعة لله وفيه الهداية.

• وثالثا بقوله: ﴿وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ وهو بمنزلة التعليل لما تقدمه أي إن ما حمله الرسول من التكليف هو التبليغ فحسب فلا بأس عليه إن خالفتم ما بلغ وإذ كان رسولا لم يحتمل إلا التبليغ فطاعته طاعة من أرسله وفي طاعة من أرسله وهو الله سبحانه اهتداؤكم.

٢. أحاديث وآثار: أخرج ابن جرير وابن قانع والطبراني عن علقمة بن وائل الحضرمي عن سلمة بن يزيد الجهني قال: قلت: يا رسول الله أرأيت إن كان علينا أمراء من بعدك يأخذونا بالحق الذي علينا، ويمنعونا الحق الذي جعله الله لنا نقاتلهم ونبغضهم؟ فقال النبي ﷺ: عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم.

• أقول: وفي معناه بعض روايات أخر مروية فيه لكن ينبغي أن لا يرتاب في أن الإسلام بما فيه من روح إحياء الحق وإماتة الباطل يأبى عن إجازة ولاية الظلمة المتظاهرين بالظلم وإباحة السكوت وتحمل الضيم والاضطهاد قبال الطغاة والفجرة لمن يجد إلى إصلاح الأمر سبيلا وقد اتضح بالأبحاث الاجتماعية اليوم أن استبداد الولاة برأيهم واتباعهم لأهوائهم في تحكماتهم أعظم خطرا وأخبث أثرا من إثارة الفتن وإقامة الحروب في سبيل إلجائهم إلى الحق والعدل.

٣٨. وعد الله بالاستخلاف والتمكين والأمن بدل الخوف:

المقطع [٣٨] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٥٠»:

١. لأهمية ما أورده في تفسير الآية الكريمة، ولعلاقتها بالكثير من المباحث، فقد وضعنا ما ذكره في تفسيرها المفصل ضمن الجزء الخاص بالبحوث التفسيرية، وقد عنوناه بـ [تحقيق معنى قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وبيان دلالته على المجتمع الصالح الموعود]، خلاصته:

أ. بيان أن الآية وعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات بمجتمع صالح يستخلفون فيه في الأرض، ويمكن لهم دينهم، ويبدل خوفهم أمناً، وليس وعداً لجميع الأمة ولا لأشخاص معينين.

ب. إثبات أن الاستخلاف في الآية لا يعني الخلافة الإلهية بمعنى الولاية الخاصة كداود وسليمان، بل يعني إيراث الأرض للمؤمنين الصالحين كما ورثها الأمم الماضية.

ج. توضيح أن المراد بالذين من قبلهم هم المؤمنون من الأمم السابقة الذين أهلك الله الكافرين وأورثهم الأرض، كقوم نوح وهود وصالح، لا بنو إسرائيل خاصة.

د. بيان أن الوعد في الآية لم يتحقق بعد، وأن المراد به المجتمع الصالح الذي سينعقد بظهور المهدي عليه السلام، بدليل صفات المجتمع الموعود من خلوص من النفاق والفسق والأمن التام.

هـ. الرد على من طبق الآية على الخلفاء الراشدين أو الثلاثة الأول، وبيان أن ذلك لا ينطبق على صفات المجتمع الموعود من إخلاص العبادة وانتفاء الشرك.

و. توضيح أن الخطاب في الآية خطاب اجتماعي، يتعدى إلى كل من يتصف بالإيمان والعمل الصالح في أي زمان، وليس خطاباً فردياً خاصاً بالمخاطبين عند النزول.

ز. بيان أن المجتمع الصالح الموعود لم يتحقق منذ بعث النبي ﷺ إلى يومنا هذا، وأن انطباقه يكون على زمن ظهور المهدي عليه السلام.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ الآية: واختلف في الآية، والمروي عن أهل البيت عليه السلام أنها في المهدي من آل محمد.

ب. قال: وروى العياشي بإسناده عن علي بن الحسين عليه السلام: أنه قرأ الآية وقال: هم والله شيعتنا أهل البيت، يفعل ذلك بهم على يدي رجل منا وهو مهدي هذه الأمة، وهو الذي قال رسول الله ﷺ، لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يأتي رجل من عترتي اسمه اسمي، يملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت ظلما وجورا: وروي مثل ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام.

• أقول: وبذلك وردت الأخبار عن أئمة أهل البيت عليه السلام، وقد تقدم بيان انطباق الآية على ذلك.

ج. وقال في المجمع بعد نقل الرواية: (فعلى هذا يكون المراد بالذين آمنوا وعملوا الصالحات النبي وأهل بيته عليهم الصلاة والسلام)، وقد عرفت أن المراد به عام والرواية لا تدل على أزيد من ذلك حيث قال عليه السلام: هم والله شيعتنا أهل البيت يفعل ذلك بهم على يدي رجل منا الحديث.

د. أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن البراء في قوله: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ الآية، قال: فينا نزلت ونحن في خوف شديد.

• أقول: ظاهره أن المراد بالذين آمنوا الصحابة وقد عرفت أن الآية لا دلالة فيها عليه بوجه بل الدلالة على خلافه.

هـ. أخرج ابن المنذر والطبراني في الأوسط والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل والضياء في المختارة عن أبي بن كعب قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: أترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين، لا نخاف إلا الله فنزلت: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية.

• أقول: هو لا يدل على أزيد من سبب النزول وأما أن المراد بالذين آمنوا من هم؟ وأن الله متى أنجز أو ينجز هذا الوعد؟ فلا تعرض له به.

و. ونظيرته روايته الأخرى: لما نزلت على النبي ﷺ ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية، قال: بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والدين والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منكم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة من نصيب.

• فإن تبشير الأمة بالاستخلاف لا يستلزم كون المراد بالذين آمنوا في الآية جميع الأمة أو خصوص الصحابة أو نفرا معدودا منهم.

ز. وفي نهج البلاغة في كلام له لعمر لما استشاره، لانطلاقه لقتال أهل فارس حين تجمعوا للحرب قال عليه السلام: إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا بقلة، وهو دين الله الذي أظهره، وجنده الذي أعزه وأيده، حتى بلغ ما بلغ وطلع حيث طلع، ونحن على موعود من الله تعالى حيث قال عز اسمه: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾، والله تعالى منجز وعده وناصر جنده، ومكان القيم في الإسلام مكان النظام من الخرز، فإن انقطع النظام تفرق ورب متفرق لم يجتمع، والعرب اليوم وإن كانوا قليلا، فهم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع، فكن قطبا واستدر الرحى بالعرب، وأصلهم دونك نار الحرب، فإنك إن شخصت من هذه الأرض، تنقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها، حتى يكون ما تدع وراءك من العورات، أهم إليك مما بين يديك، وكان قد آن للأعاجم أن ينظروا إليك غدا يقولون: هذا أصل العرب فإذا قطعتموه استرحتم، فيكون ذلك أشد لكلبهم عليك وطمعهم فيك، فأما ما ذكرت من عددهم، فإنا لم نقاتل فيما مضى بالكثرة، وإنما كنا نقاتل بالنصر والمعونة.

• أقول: وقد استدل به في روح المعاني، على ما ارتضاه من كون المراد بالاستخلاف في الآية ظهور الإسلام وارتفاع قدره في زمن الخلفاء الراشدين وهو بمعزل عن ذلك بل دليل على خلافه، فإن ظاهر كلامه أن الوعد الإلهي لم يتم أمر إنجازه بعد وأنهم يومئذ في طريقه حيث يقول: والله منجز وعده، وأن الدين لم يمكن بعد ولا الخوف بدل أمنا وكيف لا؟ وهم بين خوفين خوف من تنقض العرب من داخل وخوف من مهاجمة الأعداء من خارج.

ح. أخرج ابن مردويه عن أبي الشعثاء قال: كنت جالسا مع حذيفة وابن مسعود، فقال حذيفة ذهب النفاق، إنما كان النفاق على عهد رسول الله ﷺ، وإنما هو اليوم الكفر بعد الإيمان، فضحك ابن مسعود ثم قال: بم تقول؟ قال: بهذه الآية ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إلى آخر الآية.

• أقول: ليت شعري أين ذهب منافقو عهد النبي ﷺ؟ وشواهد الكتاب العزيز والتاريخ تدل على أنهم ما كانوا بأقل من ثلث أهل المدينة ومعظمهم بها أصدقوا الإسلام يوم رحلته ﷺ أم تغيرت آراؤهم في تربصهم الدوائر وتقليبهم الأمور؟

٣٩. إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول والرحمة:

المقطع [٣٩] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [النور: ٥٦-٥٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٥٧»:

١. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾:

أ. مناسبة مضمون الآية لما سيقت لبيانه الآيات السابقة تعطي أنها من تمامها.

ب. فقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أمر في الحقيقة بطاعته تعالى فيما شرعه لعباده، وتخصيص الصلاة والزكاة بالذكر لكونهما ركنين في التكاليف الراجعة إلى الله تعالى وإلى الخلق، وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ إنفاذ لولايته ﷺ في القضاء والحكومة.

٢. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ تعليل للأمر بما في المأمور به من المصلحة، والمعنى، على ما يعطيه السياق ـ: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن في هاتين الطاعتين رجاء أن تشملكم الرحمة الإلهية فينجز لكم وعده أو يجعل لكم إنجازه فإن ارتفاع النفاق من بين المسلمين وعموم الصلاح والاتفاق على كلمة الحق مفتاح انعقاد مجتمع صالح يدر عليهم بكل خير.

٣. ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْواهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾:

أ. من تمام الآيات السابقة، وفيها تأكيد ما مر من وعد الاستخلاف في الأرض وتمكين الدين وتبديل الخوف أمنا.

ب. يخاطب تعالى نبيه ﷺ بعد الوعد، بخطاب مؤكد، أن لا يظن أن الكفار معجزين لله في الأرض فيمنعونه بما عندهم من القوة والشوكة من أن ينجز وعده، وهذا في الحقيقة بشرى خاصة بالنبي ﷺ بما أكرم به أمته وأن أعداءه سينهزمون ويغلبون ولذلك خصه بالخطاب على طريق الالتفات.

ج. ولكون النهي المذكور في معنى أن الكفار سينتهون عن معارضة الدين وأهله عطف عليه قوله: ﴿وَمَأْواهُمُ النَّارُ﴾، كأنه قيل: هم مقهورون في الدنيا ومسكنهم النار في الآخرة وبئس المصير.

٤٠. الاستئذان في العورات الثلاث:

المقطع [٤٠] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٨ـ٥٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٦٢»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ﴾:

أ. وضع الثياب خلعها وهو كناية عن كونهم على حال ربما لا يحبون أن يراهم عليها الأجنبي، والظهيرة وقت الظهر، والعورة السوأة سميت بها لما يلحق الإنسان من انكشافها من العار وكان المراد بها في الآية ما ينبغي ستره.

ب. فقوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، تعقيب لقوله سابقا: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا﴾، القاضي بتوقف دخول البيت على الإذن وهو كالاستثناء من عمومه في العبيد والأطفال بأنه يكفيهم الاستيذان ثلاث مرات في اليوم.

ج. ﴿لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ﴾ أي مروهم أن يستأذنوكم للدخول، وظاهر الذين ملكت أيمانكم العبيد دون الإماء وإن كان اللفظ لا يأبى عن العموم بعناية التغليب، وبه وردت الرواية كما سيجيء.

٢. ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾ يعني المميزين من الأطفال قبل البلوغ، والدليل على تقيدهم بالتمييز قوله بعد: ﴿ثَلاثُ عَوْراتٍ لَكُمْ﴾

٣. ﴿ثَلاثَ مَرَّاتٍ﴾ أي كل يوم بدليل تفصيله بقوله: ﴿مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾ أي وقت الظهر ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشاءِ﴾، وقد أشار إلى وجه الحكم بقوله: ﴿ثَلاثُ عَوْراتٍ لَكُمْ﴾ أي الأوقات الثلاثة ثلاث عورات لكم لا ينبغي بالطبع أن يطلع عليكم فيها غيركم.

٤. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ أي لا مانع لكم من أن لا تأمروهم بالاستيذان ولا لهم من أن لا يستأذنوكم في غير هذه الأوقات، وقد أشار إلى جهة نفي الجناح بقوله: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلى بَعْضٍ﴾ أي هم كثير الطوف عليكم بعضكم يطوف على بعض للخدمة فالاستيذان كلما دخل حرج عادة فليكتفوا فيه بالعورات الثلاث.

٥. ثم قال: ﴿كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآياتِ﴾ أي أحكام دينه التي هي آيات دالة عليه ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ يعلم أحوالكم وما تستدعيه من الحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ يراعي مصالحكم في أحكامه.

٦. ﴿وَإِذا بَلَغَ الْأَطْفالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾، بيان أن حكم الاستيذان ثلاث مرات في الأطفال مغيى بالبلوغ فإذا بلغ الأطفال منكم الحلم بأن بلغوا فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم وهم

البالغون من الرجال والنساء الأحرار ﴿كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

٧. أحاديث وآثار:

أ. في الدر المنثور في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ﴾ الآية، أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأبو داود وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: آية لم يؤمن بها أكثر الناس آية الإذن، وإني لآمر جاريتي هذه، لجارية قصيرة قائمة على رأسه، أن تستأذن علي.

ب. وفي تفسير القمي في الآية قال: إن الله تبارك وتعالى نهى أن يدخل أحد، في هذه الثلاثة الأوقات على أحد، لا أب ولا أخت ولا أم ولا خادم إلا بإذن، والأوقات بعد طلوع الفجر ونصف النهار، وبعد العشاء الآخرة، ثم أطلق بعد هذه الثلاثة الأوقات فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَ﴾ يعني بعد هذه الثلاثة الأوقات ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلى بَعْضٍ﴾

ج. وفي الكافي، بإسناده عن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ﴾ قال: هي خاصة في الرجال دون النساء، قلت: فالنساء يستأذن في هذه الثلاث ساعات؟ قال: لا ولكن يدخلن ويخرجن ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾ قال: من أنفسكم، قال عليكم استيذان، كاستيذان من قد بلغ في هذه الثلاث ساعات.

• أقول: وروي فيه روايات أخرى غيرها في كون المراد بالذين ملكت أيمانكم الذكور دون الإناث عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام.

د. وفي المجمع في الآية: معناه مروا عبيدكم وإماءكم، أن يستأذنوا عليكم إذا أرادوا الدخول، إلى موضع خلواتكم عن ابن عباس، وقيل: أراد العبيد خاصة عن ابن عمر وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام.

• أقول: وبهذه الأخبار وبظهور الآية يضعف ما رواه الحاكم عن علي عليه السلام في الآية قال: النساء فإن الرجال يستأذنون.

هـ. أخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: لا تغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم العشاء، فإنما هي في كتاب الله العشاء وإنما يعتم بحلاب الإبل.

• أقول: وروي مثله عن عبد الرحمن بن عوف ولفظه: أن رسول الله ﷺ قال: لا يغلبنكم الأعراب

على اسم صلاتكم، قال الله: ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشاءِ﴾ وإنما العتمة عتمة الإبل.

و. وفي الكافي، بإسناده عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام: أنه قرأ (أن يضعن من ثيابهن) قال: الجلباب والخمار إذا كانت المرأة مسنة.

• أقول: وفي معناه أخبار أخر.

٤١. القواعد من النساء والعفاف:

المقطع [٤١] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٦٤»:

١. ﴿وَالْقَواعِدُ مِنَ النِّساءِ اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكاحاً﴾:

أ. القواعد جمع قاعدة وهي المرأة التي قعدت عن النكاح فلا ترجوه لعدم الرغبة في مباشرتها لكبرها، فقوله: ﴿اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكاحاً﴾ وصف توضيحي، وقيل: هي التي يئست من الحيض، والوصف احترازي.

ب. وفي المجمع: (التبرج إظهار المرأة من محاسنها ما يجب عليها ستره، وأصله الظهور ومنه البرج البناء العالي لظهوره)

ج. والآية في معنى الاستثناء من عموم حكم الحجاب، والمعنى: والكبائر المسنة من النساء فلا بأس عليهن أن لا يحتجبن حال كونهن غير متبرجات بزينة.

٢. ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ﴾ كناية عن الاحتجاب أي الاحتجاب خير لهن من وضع الثياب، وقوله: ﴿وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ تعليل لما شرع بالاسمين أي هو تعالى سميع يسمع ما يسألنه بفطرتهن عليم يعلم ما يحتجن إليه من الأحكام.

٤٢. إباحة الأكل من بيوت الأقارب والأصدقاء:

المقطع [٤٢] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ

بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور: ٦١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٦٤»:

١. ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾:

أ. ظاهر الآية أن فيها جعل حق للمؤمنين أن يأكلوا من بيوت قراباتهم أو التي اؤتمنوا عليها أو بيوت أصدقائهم فهم مأذونون في أن يأكلوا منها بمقدار حاجتهم من غير إسراف وإفساد.

ب. فقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلا عَلى أَنْفُسِكُمْ﴾ في عطف ﴿عَلى أَنْفُسِكُمْ﴾ على ما تقدمه دلالة على أن عد المذكورين ليس لاختصاص الحق بهم بل لكونهم أرباب عاهات يشكل عليهم أن يكتسبوا الرزق بعمل أنفسهم أحيانا وإلا فلا فرق بين الأعمى والأعرج والمريض وغيرهم في ذلك.

٢. ﴿مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبائِكُمْ﴾:

أ. في عد ﴿بُيُوتِكُمْ﴾ مع بيوت الأقرباء وغيرهم إشارة إلى نفي الفرق في هذا الدين المبني على كون المؤمنين بعضهم أولياء بعض بين بيوتهم أنفسهم وبيوت أقربائهم وما ملكوا مفاتحه وبيوت أصدقائهم.

ب. على أن ﴿بُيُوتِكُمْ﴾ يشمل بيت الابن والزوج كما وردت به الرواية، وقوله: ﴿أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ﴾ المفاتح جمع مفتح وهو المخزن، والمعنى: أو البيت الذي ملكتم أي تسلطتم على مخازنه التي فيها الرزق كما يكون الرجل قيما على بيت أو وكيلا أو سلم إليه مفتاحه.

٣. ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ معطوف على ما تقدمه بتقدير بيت على ما يعلم من سياقه، والتقدير أو بيت صديقكم.

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الضحاك قال: كان أهل المدينة قبل أن يبعث النبي ﷺ، لا يخالطهم في طعامهم أعمى ولا مريض ولا أعرج، لأن الأعمى لا يبصر طيب الطعام، والمريض لا يستوفي الطعام كما يستوفي الصحيح، والأعرج لا يستطيع المزاحمة على الطعام، فنزلت رخصة في مؤاكلتهم.

ب. أخرج الثعلبي عن ابن عباس قال: خرج الحارث غازيا مع رسول الله ﷺ، وخلف على أهله خالد بن زيد، فحرج أن يأكل من طعامه وكان مجهودا فنزلت.

ج. أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال: كان هذا الحي من بني كنانة بن خزيمة، يرى أحدهم أن عليه مخزاة أن يأكل وحده في الجاهلية، حتى أن كان الرجل يسوق الذود الحفل وهو جائع، حتى يجد من يؤاكله ويشاربه فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتاتاً﴾

• أقول: وفي معنى هذه الروايات روايات أخر.

د. وفي الكافي، بإسناده عن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ قال: هؤلاء الذين سمى الله عز وجل في هذه الآية، يأكل بغير إذنهم من التمر والمأدوم، وكذلك تطعم المرأة من منزل زوجها بغير إذنه، فأما ما خلا ذلك من الطعام فلا.

هـ. وفيه، بإسناده عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ لرجل: أنت ومالك لأبيك، ثم قال أبو جعفر عليه السلام: وما أحب له أن يأخذ من مال ابنه، إلا ما احتاج إليه مما لا بد له منه، إن الله لا يحب الفساد.

و. وفيه، بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن رجل لابنه مال فيحتاج الأب قال: يأكل منه فأما الأم فلا تأكل منه إلا قرضا على نفسها.

ز. وفيه، بإسناده عن جميل بن دراج عن أبي عبد الله عليه السلام قال: للمرأة أن تأكل وأن تصدق، وللصديق أن يأكل من منزل أخيه ويتصدق.

ح. وفيه، بإسناده عن ابن أبي عمير عمن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ﴾ قال: الرجل يكون له وكيل يقوم في ماله، فيأكل بغير إذنه.

ط. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾، وقيل معناه من بيوت أولادكم، ويدل عليه قوله عليه السلام أنت ومالك لأبيك، وقوله عليه السلام: إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه، وإن ولده من كسبه.

• أقول: وفي هذه المعاني روايات كثيرة أخرى.

٤٣. إباحة الأكل جميعاً أو أشتاتاً:

المقطع [٤٣] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور: ٦١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٦٥»:

١. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتاتاً﴾ الأشتات جمع شت وهو مصدر بمعنى التفرق استعمل بمعنى المتفرق مبالغة ثم جمع أو صفة بمعنى المتفرق كالحق، والمعنى لا إثم عليكم أن تأكلوا مجتمعين وبعضكم مع بعض أو متفرقين، والآية عامة وإن كان نزولها لسبب خاص كما روي.

٢. وللمفسرين في هذا الفصل من الآية وفي الفصل الذي قبلها اختلافات شديدة رأينا الصفح عن إيرادها والغور في البحث عنها أولى، وما أوردناه من المعنى في الفصلين هو الذي يعطيه سياقهما.

٤٤. التسليم والتحية المباركة عند دخول البيوت:

المقطع [٤٤] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٦٥»:

١. ﴿فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً﴾:

أ. لما تقدم ذكر البيوت فرع عليه ذكر أدب الدخول فيها فقال: ﴿فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً﴾

ب. فقوله: ﴿فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ﴾ المراد فسلموا على من كان فيها من أهلها وقد بدل من قوله: ﴿عَلى أَنْفُسِكُمْ﴾ للدلالة على أن بعضهم من بعض فإن الجميع إنسان وقد خلقهم الله من ذكر وأنثى على أنهم مؤمنون والإيمان يجمعهم ويوحدهم أقوى من الرحم وأي شيء آخر.

ج. وليس ببعيد أن يكون المراد بقوله: ﴿فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ﴾ أن يسلم الداخل على أهل البيت ويرد السلام عليه.

٢. ﴿تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً﴾ أي حال كون السلام تحية من عند الله شرعها الله وأنزل حكمها ليحيي بها المسلمون وهو مبارك ذو خير كثير باق وطيب يلائم النفس فإن حقيقة هذه التحية بسط الأمن والسلامة على المسلم عليه وهو أطيب أمر يشترك فيه المجتمعان.

٣. ثم ختم سبحانه الآية بقوله: ﴿كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآياتِ﴾ وقد مر تفسيره ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي تعلموا معالم دينكم فتعملوا بها كما قيل.

٤. أحاديث وآثار: في المعاني، بإسناده عن أبي الصباح قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ﴾ الآية، فقال: هو تسليم الرجل على أهل البيت

حين يدخل، ثم يردون عليه فهو سلامكم على أنفسكم.

• أقول: وقد تقدمت الإشارة إلى هذا المعنى في تفسير الآية.

٤٥. المؤمنون يستأذنون النبي للأمر الجامع والاستغفار:

المقطع [٤٥] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٦٦»:

١. ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾:

أ. ذكر قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بيانا للمؤمنين على ظهور معناه للدلالة على اتصافهم بحقيقة المعنى أي إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله بحقيقة الإيمان وأيقنوا بتوحده تعالى واطمأنت نفوسهم وتعلقت قلوبهم برسوله.

ب. ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ والأمر الجامع هو الذي يجمع الناس للتدبر في أطرافه والتشاور والعزم عليه كالحرب ونحوها.

ج. والمعنى: وإذا كانوا مع الرسول بالاجتماع عنده على أمر من الأمور العامة لم يذهبوا ولم ينصرفوا من عند الرسول حتى يستأذنوه للذهاب.

د. ولذلك أيضا عقبه بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وهو بمنزلة عكس صدر الآية للدلالة على الملازمة وعدم الانفكاك.

٢. ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ تخيير منه تعالى لرسوله في أن يأذن لمن شاء ولا يأذن لمن لم يشأ.

٣. ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أمر له بالاستغفار لهم تطييبا لنفوسهم ورحمة بهم.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ فإنها نزلت

في قوم كانوا إذا جمعهم رسول الله ﷺ، لأمر من الأمور في بعث يبعثه أو حرب قد حضرت، يتفرقون بغير إذنه فنهاهم الله عز وجل عن ذلك.

ب. وفيه في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ، فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ قال: نزلت في حنظلة بن أبي عياش، وذلك أنه تزوج في الليلة التي كان في صبيحتها حرب أحد، فاستأذن رسول الله ﷺ أن يقيم عند أهله، فأنزل الله عز وجل هذه الآية ﴿فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فأقام عند أهله، ثم أصبح وهو جنب فحضر القتال فاستشهد، فقال رسول الله ﷺ: رأيت الملائكة تغسل حنظلة، بماء المزن في صحائف فضة بين السماء والأرض، فكان يسمى غسيل الملائكة.

٤٦. مخالفة أمر الرسول والفتنة والعذاب:

المقطع [٤٦] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٦٦»:

١. ﴿لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾:

أ. دعاء الرسول هو دعوته الناس إلى أمر من الأمور كدعوتهم إلى الإيمان والعمل الصالح، ودعوتهم ليشاورهم في أمر جامع، ودعوتهم إلى الصلاة جامعة، وأمرهم بشيء في أمر دنياهم أو أخراهم فكل ذلك دعاء ودعوة منه ﷺ.

ب. ويشهد بهذا المعنى قوله ذيلا: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِواذاً﴾ وما يتلوه من تهديد مخالفي أمره ﷺ كما لا يخفى، وهو أنسب لسياق الآية السابقة فإنها تمدح الذين يلبون دعوته ويحضرون عنده ولا يفارقونه حتى يستأذنوه وهذه تذم وتهدد الذين يدعوهم فيتسللون عنه لواذا غير مهتمين بدعائه ولا معتنين.

ج. ومن هنا يعلم عدم استقامة ما قيل إن المراد بدعاء النبي ﷺ خطابه فيجب أن يفخم ولا يساوى بينه وبين غيره من الناس فلا يقال له: يا محمد ويا ابن عبد الله، بل: يا رسول الله، وكذا ما قيل: إن المراد بالدعاء دعاؤه عليهم لو أسخطوه فهو نهي عن التعرض لدعائه عليهم بإسخاطه فإن الله تعالى لا يرد دعاءه هذا، وذلك لأن ذيل الآية لا يساعد على شيء من الوجهين.

٢. ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِواذاً﴾ التسلل: الخروج من البين برفق واحتيال من سل السيف من غمده، و- اللواذ: الملاوذة وهو أن يلوذ الإنسان ويلتجئ إلى غيره فيستتر به، والمعنى: أن الله يعلم منكم الذين يخرجون من بين الناس والحال أنهم يلوذون بغيرهم ويستترون به فينصرفون فلا يهتمون بدعاء الرسول ولا يعتنون به.

٣. ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾:

أ. ظاهر سياق الآية بما تقدم من المعنى أن ضمير ﴿عَنْ أَمْرِهِ﴾ للنبي ﷺ وهو دعاؤه، ففي الآية تحذير لمخالفي أمر النبي ﷺ ودعوته من أن تصيبهم فتنة وهي البلية أو يصيبهم عذاب أليم.

ب. وقيل: ضمير ﴿عَنْ أَمْرِهِ﴾ راجع إلى الله سبحانه، والآية وإن لم يقع فيها أمر منه تعالى لكن نهيه المذكور بقوله: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ﴾، في معنى أجيبوا دعاء الرسول، وهو أمر، وأول الوجهين أوجه.

٤. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾ قال: لا تدعوا رسول الله ﷺ كما يدعو بعضكم بعضا، وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله عز وجل: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾، يقول: لا تقولوا: يا محمد ولا يا أبا القاسم، لكن قولوا: يا نبي الله ويا رسول الله.

• أقول: وروي مثله عن ابن عباس، وقد تقدم أن ذيل الآية لا يلائم هذا المعنى تلك الملائمة.

٤٧. ملك الله للسموات والأرض وعلمه بما يعملون:

المقطع [٤٧] من سورة النور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٦٧»:

١. ﴿أَلا إِنَّ للهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾:

أ. اختتام للسورة ناظر إلى قوله في مفتتحها: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَفَرَضْناها وَأَنْزَلْنا فِيها آياتٍ بَيِّناتٍ﴾ فما في مختتمها كالتعليل لما في مفتتحها.

ب. فقوله: ﴿أَلا إِنَّ للهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ بيان لعموم الملك وأن كل شيء مملوك لله

سبحانه قائم به فهي معلومة له بجميع خصوصيات وجودها فيعلم ما تحتاج إليه، والناس من جملة ما يعلم بحقيقة حاله وما يحتاج إليه فالذي يشرعه لهم من الدين مما يحتاجون إليه في حياتهم كما أن ما يرزقهم من المعيشة مما يحتاجون إليه في بقائهم.

ج. فقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي من حقيقة الحال المنبئة عن الحاجة، بمنزلة النتيجة المترتبة على الحجة أي ملكه لكم ولكل شيء يستلزم علمه بحالكم وبما تحتاجون إليه من شرائع الدين فيشرعه لكم ويفرضه عليكم.

٢. ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾:

أ. معطوف على قوله: ﴿ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي ويعلم يوما يرجعون إليه وهو يوم القيامة فيخبرهم بحقيقة ما عملوا والله بكل شيء عليم.

ب. وفي هذا الذيل حث على الطاعة والانقياد لما شرعه وفرضه من الأحكام والعمل به من جهة أنه سيخبرهم بحقيقة ما عملوا به كما أن في الصدر حثا على القبول من جهة أن الله إنما شرعها لعلمه بحاجتهم إليها وأنها التي ترفع بها حاجتهم.

سورة الفرقان

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٤٦] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. غرض السورة بيان أن دعوة النبي ﷺ دعوة حقة عن رسالة من جانب الله تعالى، وكتاب نازل من عنده، وفيها عناية بالغة بدفع ما أورده الكفار على كون النبي ﷺ رسولاً من جانب الله، وكون كتابه نازلاً من عنده، ورجوع إليه كرة بعد كرة.

ب. وقد استتبع ذلك شيئاً من الاحتجاج على التوحيد ونفي الشريك، وذكر بعض أوصاف يوم القيامة، وذكر نبذة من نعوت المؤمنين الجميلة، والكلام فيها جار على سياق الإنذار والتخويف دون التبشير.

ج. والسورة مكية على ما يشهد به سياق عامة آياتها، نعم ربما استثني منها ثلاث آيات وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿غَفُوراً رَحِيماً﴾، ولعل الوجه فيه اشتمالها على تشريع حرمة الزنا، لكنك قد عرفت فيما أوردناه من أخبار آية الخمر من سورة المائدة أن الزنا والخمر كانا معروفين بالتحريم في الإسلام من أول ظهور الدعوة الإسلامية.

د. ومن العجيب قول بعضهم: إن السورة مدنية كلها إلا ثلاث آيات من أولها ﴿تَبارَكَ الَّذِي﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿نُشُوراً﴾

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٣] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تمجد الله الذي نزل الفرقان على عبده ليكون نذيراً للعالمين، وتذكر أن له ملك السماوات والأرض، ولم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، وخلق كل شيء فقدره تقديراً، وتذكر أن المشركين اتخذوا آلهة لا يخلقون شيئاً ولا يملكون ضراً ولا نفعاً.

٢. الآيات [٤ ـ ٢٠] تحكي الآيات عن المشركين ما طعنوا به في القرآن الكريم وفي النبي ﷺ، وتجيب عنه.

٣. الآيات [٢١ ـ ٣١]:

أ. تحكي الآيات اعتراضاً آخر من المشركين على رسالة الرسول يردون به عليه، محصله: أنه لو جاز أن يكون من البشر بما هو بشر رسول تنزل عليه الملائكة بالوحي من الله سبحانه، أو يراه تعالى فيكلمه وحياً، لكان الرسول وسائر البشر سواء في هذه الخصيصة، فإن كان ما يدعيه من الرسالة حقاً لكنا، أو كان البعض منا يرى ما يدعي رؤيته ويجد من نفسه ما يجده.

ب. وهذا الاعتراض مما سبقهم إليه أمم الأنبياء الماضين كما حكاه الله: ﴿قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقد مر تقريبه مراراً.

ج. وهذا مع ما تقدم من اعتراضهم بقولهم: ﴿ما لِهٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ﴾، بمنزلة حجة واحدة تلزم الخصم بأحد محذورين، ومحصل تقريره: أن الرسالة التي يدعيها هذا الرسول إن كانت موهبة سماوية واتصالاً غيبياً لا حظ فيها للبشر بما هو بشر، فلينزل إليه ملك فيكون معه نذيراً، أو يلقى إليه كنز، أو يجعل له جنة يأكل منها، وإن كانت خاصة من شأن البشر بما هو بشر أن ينالها يتصف بها، فما بالنا لا نجدها في أنفسنا؟ فلو لا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا.

د. وقد أجاب الله سبحانه عن الشق الأول بما تقدم تقريره، وعن الثاني بأنهم سيرون الملائكة لكن في نشأة غير هذه النشأة الدنيوية، والجواب في معنى قوله: ﴿ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨] وسيجيء تقريره، وفي الآيات إشارة إلى ما بعد الموت ويوم القيامة.

٤. الآيات [٣٣ ـ ٤٠] نقل لطعن آخر مما طعنوا به في القرآن، وهو أنه لم ينزل جملة واحدة، والجواب عنه.

٥. الآيات [٤١ ـ ٦٢] تذكر الآيات بعض صفات أولئك الكفار القادحين في الكتاب والرسالة والمنكرين للتوحيد والمعاد، مما يناسب سنخ اعتراضاتهم واقتراحاتهم: كاستهزائهم الرسول ﷺ، واتباعهم الهوى، وعبادتهم لما لا ينفعهم ولا يضرهم، واستكبارهم عن السجود لله سبحانه.

٦. الآيات [٦٣ ـ ٧٧]:

أ. تذكر الآيات من محاسن خصال المؤمنين ما يقابل ما وصف من صفات الكفار السيئة، ويجمعها أنهم يدعون ربهم ويصدقون رسوله والكتاب النازل عليه، قبال تكذيب الكفار لذلك وإعراضهم عنه إلى اتباع الهوى.

ب. ولذلك تختتم الآيات بقوله: ﴿قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْ لا دُعاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً﴾ وبه تختتم السورة.

١. تنزيل الفرقان للإنذار والملك والتقدير الإلهي:

المقطع [١] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ١-٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٧٣»:

١. ﴿تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً﴾:

أ. البركة بفتحتين ثبوت الخير في الشيء كثبوت الماء في البركة بالكسر فالسكون مأخوذ من برك البعير إذا ألقى صدره على الأرض واستقر عليها، ومنه التبارك بمعنى ثبوت الخير الكثير وفي صيغته دلالة على المبالغة على ما قيل، وهو كالمختص به تعالى لم يطلق على غيره إلا على سبيل الندرة.

ب. والفرقان هو الفرق سمي به القرآن لنزول آياته متفرقة أو لتمييزه الحق من الباطل ويؤيد هذا المعنى إطلاق الفرقان في كلامه تعالى على التوراة أيضا مع نزولها دفعة، قال الراغب في المفردات: (والفرقان أبلغ من الفرق لأنه يستعمل في الفرق بين الحق والباطل، وتقديره كتقدير رجل قنعان يقنع به في الحكم، وهو اسم لا مصدر فيما قيل، والفرق يستعمل فيه وفي غيره)

ج. والعالمون جمع عالم ومعناه الخلق قال في الصحاح: (العالم الخلق والجمع العوالم، والعالمون أصناف الخلق)، واللفظة وإن كانت شاملة لجميع الخلق من الجماد والنبات والحيوان والإنسان والجن والملك لكن سياق الآية، وقد جعل فيها الإنذار غاية لتنزيل القرآن، يدل على كون المراد بها المكلفين من الخلق وهم الثقلان: الإنس والجن فيما نعلم.

د. وبذلك يظهر عدم استقامة ما ذكره بعضهم أن الآية تدل على عموم رسالته ﷺ لجميع ما سوى الله فإن فيه غفلة عن وجه التعبير عن الرسالة بالإنذار ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَاصْطَفاكِ عَلى نِساءِ الْعالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] وقوله: ﴿وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦]

هـ. والنذير بمعنى المنذر على ما قيل، والإنذار قريب المعنى من التخويف.

و. فقوله تعالى: ﴿تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ﴾ أي ثبت وتحقق خير كثير فيمن نزل الفرقان

على عبده محمد ﷺ، وثبوت الخير الكثير العائد إلى الخلق فيه تعالى كناية عن فيضانه منه على خلقه حيث نزل على عبده كتابا فارقا بين الحق والباطل منقذا للعالمين من الضلال سائقا لهم إلى الهدى.

ز. والجمع في الآية بين نزول القرآن من عنده تعالى وكون النبي ﷺ رسولا منه نذيرا للعالمين مع تسمية القرآن فرقانا بين الحق والباطل وتوصيف النبي ﷺ بكونه عبدا له نذيرا للعالمين المشعر بكونه مملوكا مأمورا لا يملك من نفسه شيئا كل ذلك تمهيد لما سيحكي، عن المشركين من طعنهم في القرآن بأنه افتراء على الله اختلقه النبي ﷺ وأعانه على ذلك قوم آخرون، ومن طعنهم في النبي ﷺ بأنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق وسائر ما تفوهوا به، وما يدفع به مطاعنهم.

ح. فالمحصل أنه كتاب يفرق بحجته الباهرة بين الحق والباطل فلا يكون إلا حقا إذ الباطل لا يفرق بين الحق والباطل وإنما يشبه الباطل بالحق ليلبس على الناس، وأن الذي جاء به عبد مطيع لله ينذر به العالمين ويدعوهم إلى الحق فلا يكون إلا على الحق ولو كان مبطلا لم يدع إلى الحق بل حاد عنه وانحرف على أن الله سبحانه يشهد في كلامه المعجز بصدق رسالته وأن الذي جاء به من الكتاب منزل من عنده.

ط. ومن هنا يظهر ما في قول بعضهم: إن المراد بالفرقان مطلق الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء وبعبده عامة الأنبياء عليهم‌السلام، ولا يخفى بعده من ظاهر اللفظ.

٢. ﴿لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً﴾:

أ. اللام للتعليل وتدل على أن غاية تنزيل الفرقان على عبده أن يكون منذرا لجميع العالمين من الإنس والجن، والجمع المحلى باللام يفيد الاستغراق، ولا يخلو الإتيان بصيغة الجمع المحلى باللام من إشارة إلى أن للجميع إلها واحدا لا كما يذهب إليه الوثنيون حيث يتخذ كل قوم إلها غير ما يتخذه الآخرون.

ب. والاكتفاء بذكر الإنذار دون التبشير لأن الكلام في السورة مسوق سوق الإنذار والتخويف.

٣. ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾:

أ. الملك بكسر الميم وفتحها قيام شيء بشيء بحيث يتصرف فيه كيف شاء سواء كان قيام رقبته به كقيام رقبة المال بمالكه بحيث كان له أنواع التصرف فيه أو قيامه به باستيلائه عليه بالتصرف بالأمر والنهي وأنواع الحكم كاستيلاء الملك على الناس من رعيته وما في أيديهم، ويطلق على القسم الثاني الملك بضم الميم.

ب. فالملك بكسر الميم أعم من الملك بضمها كما قال الراغب: (الملك بفتح الميم وكسر اللام، هو المتصرف بالأمر والنهي في الجمهور، وذلك يختص بسياسة الناطقين، ولهذا يقال: ملك الناس ولا يقال: ملك الأشياء، إلى أن قال، فالملك بالضم، ضبط الشيء المتصرف فيه بالحكم، والملك، بالكسر، كالجنس للملك فكل ملك، بالضم، ملك بالكسر، وليس كل ملك، بالكسر، ملكا، بالضم ـ) وربما يخص الملك بالكسر بما يتعلق بالرقبة، والملك بالضم بغيره.

ج. فقوله تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ واللام للاختصاص، يفيد أن السماوات والأرض مملوكة له غير مستقلة بنفسها في جهة من جهاتها ولا مستغنية عن التصرف فيها بالحكم وأن الحكم فيها وإدارة رحاها يختص به تعالى فهو المليك المتصرف بالحكم فيها على الإطلاق.

د. وبذلك يظهر ترتب قوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾ على ما تقدمه فإن الملك على الإطلاق لا يدع حاجة إلى اتخاذ الولد إذ اتخاذ الولد لأحد أمرين إما لكون الشخص لا يقوى على إدارة رحى جميع أموره ولا يملك تدبيرها جميعا فيتخذ الولد ليستعين به على بعض حوائجه والله سبحانه يملك كل شيء ويقوى على ما أراد، وإما لكون الشخص محدود البقاء لا يملك ما يملك إلا في أمد محدود فيتخذ الولد ليخلفه فيقوم على أموره بعده والله سبحانه يملك كل شيء سرمدا ولا يعتريه فناء وزوال فلا حاجة له إلى اتخاذ الولد البتة وفيه رد على المشركين والنصارى.

هـ. وكذا قوله تعالى بعده: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ فإن الحاجة إلى الشريك إنما هي فيما إذا لم يستوعب الملك الأمور كلها وملكه تعالى عام لجميع الأشياء محيط بجميع جهاتها لا يشذ منه شاذ، وفيه رد على المشركين.

٤. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾:

أ. بيان لرجوع تدبير عامة الأمور إليه تعالى وحده بالخلق والتقدير فهو رب العالمين لا رب سواه.

ب. بيان ذلك أن الخلقة لما كانت بتوسيط الأسباب المتقدمة على الشيء والمقارنة له استلزم ذلك ارتباط وجودات الأشياء بعضها ببعض فيتقدر وجود كل شيء وآثار وجوده حسب ما تقدره العلل والعوامل المتقدمة عليه والمقارنة له فالحوادث الجارية في العالم على النظام المشهود مختلطة بالخلقة تابعة للعلل والعوامل المتقدمة والمقارنة وإذ لا خالق غير الله سبحانه فلا مدبر للأمر غيره فلا رب يملك الأشياء

ويدبر أمرها غيره.

ج. فكونه تعالى له ملك السماوات والأرض حاكما متصرفا فيها على الإطلاق يستلزم قيام الخلقة به إذ لو قامت بغيره كان الملك لذلك الغير، وقيام الخلقة به يستلزم قيام التقدير به، لكون التقدير متفرعا على الخلقة، وقيام التقدير به يستلزم قيام التدبير به فله الملك والتدبير فهو الرب عز شأنه.

د. وملكه تعالى للسماوات والأرض وإن استلزم استناد الخلق والتقدير إليه لكن لما كان الوثنيون مع تسليمهم عموم ملكه يرون أن ملكه للجميع وربوبيته للكل لا ينافي ملك آلهتهم وربوبيتهم للبعض بتفويضه تعالى ذلك إليهم فكل من الآلهة مليك في صقع ألوهيته رب لمربوبيته والله سبحانه ملك الملوك ورب الأرباب وإله الآلهة.

هـ. فلذلك لم يكف قوله: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ لإثبات اختصاص الربوبية به تعالى قبالهم بل احتج إلى الإتيان بقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾

و. فكأن قائلا يقول: هب أن ملكه للسماوات والأرض يغنيه عن اتخاذ الولد والشريك الموجب لسلب ملكه عن بعض الأشياء لكن لم لا يجوز أن يتخذ بعض خلقه شريكا لنفسه بتفويض بعض أمور العالم إليه مع كونه مالكا له ولما فوضه إليه وهذا هو الذي كانت يراه المشركون فقد كانوا يقولون في تلبية الحج لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك.

ز. فأجيب عنه بأن الخلق له سبحانه والتقدير يلازمه وإذا اجتمعا لزمهما التدبير فله سبحانه تدبير كل شيء فليس مع ملكه ملك ولا مع ربوبيته ربوبية.

ح. فقد تحصل أن قوله: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ مسوق لتوحيد الربوبية ونفي الولد والشريك من طريق إثبات الملك المطلق، وأن قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ تقرير وبيان لمعنى عموم الملك وأنه ملك متقوم بالخلق والتقدير موجب لتصديه تعالى لكل حكم وتدبير من غير أن يفوض شيئا من الأمر إلى أحد من الخلق.

ط. وفي الآية والتي قبلها لهم أقوال أخر أغمضنا عن إيرادها لخلوها عن الجدوى.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن ابن سنان عمن ذكره قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن القرآن

والفرقان، هما شيئان أو شيء واحد؟ فقال: القرآن جملة الكتاب والفرقان المحكم الواجب العمل به.

ب. وفي الاختصاص، للمفيد في حديث عبد الله بن سلام لرسول الله ﷺ قال: فأخبرني هل أنزل الله عليك كتابا؟ قال: نعم، قال: وأي كتاب هو، قال: الفرقان: قال ولم سماه ربك فرقانا؟ قال: لأنه متفرق الآيات والسور أنزل في غير الألواح، وغيره من الصحف والتوراة والإنجيل والزبور، أنزلت كلها جملة في الألواح والأوراق، قال: صدقت يا محمد.

• أقول: كل من الروايتين ناظرة إلى واحد من معنيي الفرقان المتقدمين.

٢. عجز الآلهة المزعومة عن الخلق والموت والحياة:

المقطع [٢] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٧٧»:

١. ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾:

أ. لما نعت نفسه بأنه خالق كل شيء ومقدره وأن له ملك السماوات والأرض وهكذا كان يجب أن يكون الإله المعبود، أشار إلى ضلالة المشركين حيث عبدوا أصناما ليست بخالقة شيئا بل هي مخلوقة مصنوعة لهم ولا مالكة شيئا لأنفسهم ولا لغيرهم.

ب. وضمير ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ للمشركين على ما يفيده السياق وإن لم يسبق لهم ذكر ومثل هذا التعبير يفيد التحقير والاستهانة.

٢. ﴿مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾:

أ. يريد به أصنامهم التي صنعوها بأيديهم بنحت أو نحوه، وتوصيفها بالآلهة مع تعقيبها بمثل قوله: ﴿لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ إشارة إلى أن ليس لها من الألوهية إلا اسم سموها به من غير أن تتحقق من حقيقتها بشيء كما قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ﴾ [النجم: ٢٣]

ب. ووضع النكرة في قوله: ﴿لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً﴾ في سياق النفي مبالغة في تقريعهم حيث أعرضوا عن الله سبحانه وهو خالق كل شيء وتعلقوا بأصنام لا يخلقون ولا شيئا من الأشياء بل هم أردأ حالا من ذلك حيث إنهم مصنوعون لعبادهم مخلوقون لأوهامهم، ونظير الكلام جار في قوله: ﴿ضَرًّا وَلا نَفْعاً﴾

وقوله: ﴿مَوْتاً وَلا حَياةً وَلا نُشُوراً﴾

٣. ﴿وَلا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً﴾:

أ. نفي للملك عنهم وهو ضروري في الإله إذ كان عبادهم إنما يعبدونهم ليدفعوا عنهم الضر ويجلبوا إليهم النفع وإذ كانوا لا يملكون ضرا ولا نفعا حتى لأنفسهم لم تكن عبادتهم إلا خبلا وضلالا.

ب. وبذلك يظهر أن في وقوع ﴿لِأَنْفُسِهِمْ﴾ في السياق زيادة تقريع والكلام في معنى الترقي أي لا يملكون لأنفسهم ضرا حتى يدفعوه ولا نفعا حتى يجلبوه فكيف لغيرهم؟ وقد قدم الضر على النفع لكون دفع الضرر أهم من جلب النفع.

٤. ﴿وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَياةً وَلا نُشُوراً﴾ أي لا يملكون موتا حتى يدفعوه عن عبادهم أو عمن شاءوا ولا حياة حتى يسلبوها عمن شاءوا أو يفيضوها على من شاءوا ولا نشورا حتى يبعثوا الناس فيجازوهم على أعمالهم، وملك هذه الأمور من لوازم الألوهية.

٣. ردّ افتراءات الكفار وإثبات الوحي الإلهي:

المقطع [٣] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٤-٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٨٠»:

١. ﴿قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذا إِلَّا إِفْكٌ افْتَراهُ وَأَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾:

أ. في التعبير بمثل قوله: ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من غير أن يقال: وقالوا، مع تقدم ذكر الكفار في قوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ تلويح إلى أن القائلين بهذا القول هم كفار العرب دون مطلق المشركين.

ب. والمشار إليه بقولهم: ﴿إِنْ هَذا﴾ القرآن الكريم، وإنما اكتفوا بالإشارة دون أن يذكروه باسمه أو بشيء من أوصافه إزراء به وحطا لقدره.

ج. والإفك هو الكلام المصروف عن وجهه، ومرادهم بكونه إفكا افتراء كونه كذبا اختلقه النبي ﷺ ونسبه إلى الله سبحانه.

د. والسياق لا يخلو من إيماء إلى أن المراد بالقوم الآخرين بعض أهل الكتاب وقد ورد في بعض

الآثار أن القوم الآخرين هم عداس مولى حويطب بن عبد العزى ويسار مولى العلاء بن الحضرمي وجبر مولى عامر كانوا من أهل الكتاب يقرءون التوراة أسلموا وكان النبي ﷺ يتعهدهم فقيل ما قيل.

٢. ﴿فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَزُوراً﴾:

أ. قال في مجمع البيان: (إن جاء وأتى ربما كانا بمعنى فعل فيتعديان مثله فمعنى الآية فقد فعلوا ظلما وكذبا، وقيل إن ظلما منصوب بنزع الخافض والتقدير فقد جاءوا بظلم، وقيل: حال والتقدير فقد جاءوا ظالمين وهو سخيف)، وفيه، أيضا: ومتى قيل: كيف اكتفى بهذا القدر في جوابهم؟ قلنا: لما تقدم التحدي وعجزهم عن الإتيان بمثله اكتفى هاهنا بالتنبيه على ذلك)

ب. والظاهر أن الجواب عن قولهم: ﴿إِنْ هَذا إِلَّا إِفْكٌ افْتَراهُ﴾، وقولهم: ﴿أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها﴾، جميعا هو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ﴾، على ما سنبين والجملة أعني قوله: ﴿فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَزُوراً﴾ رد مطلق لقولهم وهو في معنى المنع مع السند وسنده الآيات المشتملة على التحدي.

ج. وبالجملة معنى الآية: وقال الذين كفروا من العرب ليس هذا القرآن إلا كلاما مصروفا عن وجهه، حيث إنه كلام محمد ﷺ وقد نسبه إلى الله، افترى به على الله وأعانه على هذا الكلام قوم آخرون وهم بعض أهل الكتاب فقد فعل هؤلاء الذين كفروا بقولهم هذا ظلما وكذبا.

٣. ﴿وَقالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾:

أ. الأساطير جمع أسطورة بمعنى الخبر المكتوب ويغلب استعماله في الأخبار الخرافية والاكتتاب هو الكتابة ونسبته إليه ﷺ مع كونه أميا لا يكتب إنما هي بنوع من التجوز ككونه مكتوبا باستدعاء منه كما يقول الأمير كتبت إلى فلان كذا وكذا وإنما كتبه كاتبه بأمره، والدليل على ذلك قوله بعد: ﴿فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ إذ لو كان هو الكاتب لم يكن معنى للإملاء، وقيل: الاكتتاب بمعنى الاستكتاب.

ب. والإملاء إلقاء الكلام إلى المخاطب بلفظه ليحفظه ويعيه أو إلى الكاتب ليكتبه والمراد به في الآية هو المعنى الأول على ما يعطيه سياق ﴿اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ﴾ إذ ظاهره تحقق الاكتتاب دفعة والإملاء تدريجا على نحو الاستمرار فهي مكتوبة مجموعة عنده تقرأ عليه وقتا بعد وقت وهو يعيها فيقرأ على الناس ما وعاه وحفظه.

ج. والبكرة والأصيل الغداة والعشي، وهو كناية عن الوقت بعد الوقت، وقيل المراد أول النهار

قبل خروج الناس من منازلهم وآخر النهار بعد دخولهم في منازلهم وهو كناية عن أنها تملى عليه خفية.

د. والآية بمنزلة التفسير للآية السابقة فكأنهم يوضحون قولهم: إنه إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون بأنهم كتبوا له أساطير الأولين ثم يملونها عليه وقتا بعد وقت بقراءة شيء بعد شيء عليه، وهو يقرؤها على الناس وينسبها إلى الله سبحانه.

هـ. فالآية بتمامها من كلام الذين كفروا وربما قيل: إن قوله: ﴿اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ﴾ إلى آخر الآية من كلام الله سبحانه لا من تمام كلامهم، وهو استفهام إنكاري لقولهم: ﴿أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ والسياق لا يساعد عليه.

٤. ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾:

أ. أمر للنبي ﷺ برد قولهم وتكذيبهم فيما رموا به القرآن أنه إفك مفترى وأنه أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه وقتا بعد وقت.

ب. وتوصيفه تعالى بأنه يعلم السر أي خفيات الأمور وبواطنها في السماوات والأرض للإيذان بأن هذا الكتاب الذي أنزله منطو على أسرار مطوية عن عقول البشر، وفيه تعريض بمجازاتهم على جناياتهم التي منها رميهم القرآن بأنه إفك مفترى وأنه من الأساطير وهو مما يعلمه تعالى.

٥. ﴿إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾:

أ. تعليل لما هو المشاهد من إمهالهم وتأخير عقوبتهم على جناياتهم وتكذيبهم للحق وجرأتهم على الله سبحانه.

ب. والمعنى: قل إن القرآن ليس إفكا مفترى ولا من الأساطير كما يقولون بل كتاب منزل من عند الله سبحانه ضمنه أسرارا خفية لا تصل إلى كنهها عقولكم ولا تحيط بها أحلامكم، ورميكم إياه بالإفك والأساطير وتكذيبكم لحقائقه جناية عظيمة تستحقون بها العقوبة غير أن الله سبحانه أمهلكم وأخر عقوبة جنايتكم لأنه متصف بالمغفرة والرحمة وذلك يستتبع تأخير العذاب، هذا ملخص ما ذكروه في معنى الآية.

• وفيه أن السياق لا يساعد عليه فإن محصل معنى الآية على ما فسروه يرجع إلى رد دعوى الكفار كون القرآن إفكا مفترى ومن الأساطير بدعوى أنه منزل من عند الله منطو على أسرار خفية لا سبيل لهم إلى الوقوف عليها لا مساغ في مقام المخاصمة لرد الدعوى بدعوى أخرى مثلها أو هي أخفى منها.

• على أن التعليل بقوله: ﴿إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ إنما يناسب انتفاء العقوبة من أصلها دون الإمهال والتأخير وإنما المناسب للإمهال والتأخير من الأسماء هو مثل الحليم والعليم والحكيم دون الغفور الرحيم.

ج. والأوفق لمقام المخاصمة والدفاع بإبانة الحق والتعليل بالمغفرة والرحمة أن يكون قوله: ﴿إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ تعليلا لإنزال الكتاب وقد ذكر قبل ذلك أنه أنزله على عبده ليكون للعالمين نذيرا وهذه هي النبوة، ويكون حينئذ وصفه تعالى بعلم السر في السماوات والأرض للإيماء إلى أن في سرهم ما يستدعي شمول المغفرة والرحمة الإلهيتين لحالهم وهو طلبهم بفطرتهم وجبلتهم للسعادة والعاقبة الحسنى التي ليست حقيقتها إلا السعادة الإنسانية بشمول المغفرة والرحمة وإن أخطأ كثير منهم في تطبيقها على التمتع بالحياة الدنيا وزينتها الداثرة فيكون حجة برهانية على حقية الدعوة النبوية المشتملة عليها القرآن، وبطلان دعوى كونه إفكا من أساطير الأولين.

د. وتقرير الحجة أن الله سبحانه يعلم السر في السماوات والأرض وهو يعلم أن في سركم المستقر في سرائركم المجبولة عليه فطرتكم حبا للسعادة وطلبا وانتزاعا للعاقبة الحسنى وحقيقتها فوز الدنيا والآخرة، وكان سبحانه غفورا رحيما ومقتضى ذلك أن يجيبكم إلى ما تسألونه في سركم وبلسان فطرتكم فيهديكم إلى سبيله التي تضمن لكم السعادة، وهذا كتاب ينطق عليكم بسبيله فليس إفكا مفترى على الله ولا من قبيل الأساطير بل هو كتاب يتضمن ما تسألونه بفطرتكم وتستدعونه في سركم فإن استجبتم لداعيه شملتكم المغفرة والرحمة وإن توليتم حرمتم ذلك فهو كتاب منزل من عند الله ولو لم يكن نازلا من عنده كما يخبر عنه لم يهد إلى حقيقة السعادة ولم يدع إلى محض الحق ولاختلفت بياناته فدعاكم تارة إلى ما فيه خيركم ونفعكم وهو الذي يجلب إليكم المغفرة والرحمة، وتارة إلى ما هو شر لكم وضار وهو الذي يثير عليكم السخط الإلهي ويستوجب لكم العقوبة.

٤. استنكار المعاندين لبشرية الرسول:

المقطع [٤] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٧-٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٨٤»:

١. ﴿وَقالُوا ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ لو لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها﴾:

أ. هذه حكاية ما طعنوا به في الرسول بعد ما حكى طعنهم في القرآن بقوله: ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذا إِلَّا إِفْكٌ افْتَراهُ﴾

ب. وتعبيرهم عنه ﷺ بقولهم: ﴿لِهذَا الرَّسُولِ﴾ مع تكذيبهم برسالته مبني على التهكم والاستهزاء.

ج. وقولهم: ﴿ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ﴾ استفهام للتعجيب والوجه فيه أن الوثنيين يرون أن البشر لا يسوغ له الاتصال بالغيب وهو متعلق الوجود بالمادة منغمر في ظلماتها، ومتلوث بقذاراتها، ولذا يتوسلون في التوجه إلى اللاهوت بالملائكة فيعبدونهم ليشفعوا لهم عند الله ويقربوهم من الله زلفى فالملائكة هم المقربون عند الله المتصلون بالغيب المتعينون للرسالة لو كانت هناك رسالة، وليس للبشر شيء من ذلك.

د. ومن هنا يظهر معنى قولهم: ﴿ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ﴾ وأن المراد أن الرسالة لا تجامع أكل الطعام والمشي في الأسواق لاكتساب المعاش فإنها اتصال غيبي لا يجامع التعلقات المادية، وليست إلا من شئون الملائكة ولذا قالوا في غير موضع على ما حكاه الله تعالى: ﴿لَوْ شاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤] أو ما في معناه.

هـ. ومن هنا يظهر أيضا أن قولهم: ﴿لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾ تنزل من المشركين في الاقتراح أي كيف يكون هذا المدعي للرسالة رسولا وهو يأكل الطعام ويمشي في الأسواق والرسول لا يكون إلا ملكا منزها عن هذه الخصال المادية فإن، تنزلنا وسلمنا رسالته وهو بشر فلينزل إليه ملك يكون معه نذيرا ليتصل الإنذار وتبليغ الرسالة بالغيب بتوسط الملك.

و. وكذا قولهم: ﴿أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ﴾ تنزل عما قبله من الاقتراح أي إن لم ينزل إليه ملك واستقل بالرسالة وهو بشر فليلق إليه من السماء كنز حتى يصرف منه في وجوه حوائجه المادية ولا يكدح في الأسواق في اكتساب ما يعيش به، ونزول الكنز إليه أسهل من نزول الملك إليه ليعينه في تبليغ الرسالة.

ز. وكذا قولهم: ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها﴾ تنزل عما قبله في الاقتراح، والمعنى: وإن لم يلق إليه

كنز فليكن له جنة يأكل منها ولا يحتج إلى كسب المعاش وهذا أسهل من إلقاء الكنز إليه.

٢. ﴿وَقالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً﴾:

أ. المراد بالظالمين هم المقترحون السابقو الذكر، كما قيل، فهو من وضع الظاهر موضع المضمر ووصفهم بالظلم للدلالة على بلوغهم في الظلم والاجتراء على الله ورسوله.

ب. وقولهم: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ﴾، خطاب منهم للمؤمنين تعييرا لهم وإغواء عن طريق الحق، ومرادهم بالرجل المسحور النبي ﷺ يريدون أنه مسحور سحره بعض السحرة فصار يخيل إليه أنه رسول يأتيه ملك الوحي بالرسالة والكتاب.

٥. الأمثال والضلال والجنات والقصور:

المقطع [٥] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان: ٩ـ١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٨٥»:

١. ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ الأمثال الأشباه وربما قيل: إن المثل هنا بمعنى الوصف على حد قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ سورة [محمد: ١٥]، والمحصل: انظر كيف وصفوك فضلوا فيك ضلالا لا يرجى معه اهتداؤهم إلى الحق كقولهم إنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق فلا يصلح للرسالة لأن الرسول يجب أن يكون شخصا غيبيا لا تعلق له بالمادة ولا أقل من عدم احتياجه إلى الأسباب العادية في تحصيل المعاش، وكقولهم: إنه رجل مسحور.

٢. ﴿فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ أي تفرع على هذه الأمثال التي ضربوها لك أنهم ضلوا ضلالا لا يستطيعون معه أن يردوا سبيل الحق ولا يرجى لهم معه الاهتداء فإن من أخطأ الطريق ربما أخطأها بانحراف يسير يرجى معه ركوبها ثانيا، وربما استدبرها فصار كلما أمعن في مسيره زاد منها بعدا، ومن سمى كتاب الله بالأساطير ووصف رسوله بالمسحور ولم يزل يزيد تعنتا ولجاجا واستهزاء بالحق كيف يرجى اهتداؤه وحاله هذه؟

٣. ﴿تَبارَكَ الَّذِي إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَيَجْعَلْ لَكَ

قُصُوراً﴾:

أ. الإشارة في قوله: ﴿مِنْ ذلِكَ﴾ إلى ما اقترحوه من قولهم: ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها﴾ أو إلى مجموع ما ذكروه من الكنز والجنة.

ب. والقصور جمع قصر وهو البيت المشيد العالي، وتنكير ﴿قُصُوراً﴾ للدلالة على التعظيم والتفخيم.

ج. والآية بمنزلة الجواب عن طعنهم بالنبي ﷺ واقتراحهم أن ينزل إليه ملك أو يلقى إليه كنز أو يكون له جنة غير أن فيها التفاتا من التكلم إلى الغيبة فلم يقل: قل إن شاء ربي جعل لي كذا وكذا بل عدل إلى قوله: ﴿تَبارَكَ الَّذِي إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ﴾

د. وفيه تلويح إلى أنهم لا يستحقون جوابا ولا يصلحون لأن يخاطبوا لأنهم على علم بفساد ما اقترحوا به عليه فالنبي ﷺ لم يذكر لهم إلا أنه بشر مثلهم يوحى إليه، ولم يدع أن له قدرة غيبية وسلطنة إلهية على كل ما يريد أو يراد منه، كما قال تعالى بعد ما حكى بعض اقتراحاتهم في سورة الإسراء﴿قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً﴾ [الإسراء: ٩٣]

هـ. فأعرض سبحانه عن مخاطبتهم وعن الجواب عما اقترحوه، وإنما ذكر لنبيه ﷺ أن ربه الذي اتخذه رسولا وأنزل عليه الفرقان ليكون للعالمين نذيرا قادر على أعظم مما يقترحونه فإن شاء جعل له خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار، ويجعل له قصورا لا يبلغ وصفها واصف وذلك خير من أن يكون له جنة يأكل منها أو يلقى إليه كنز ليصرفه في حوائجه.

و. وبهذا المقدار يتحصل جوابهم فيما اقترحوه من الكنز والجنة، وأما نزول الملك إليه ليشاركه في الإنذار ويعينه على التبليغ فلم يذكر جواب عنه لظهور بطلانه، وقد أجاب تعالى عنه في مواضع من كلامه بأجوبة مختلفة كقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩]، وقوله: ﴿قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾ [الإسراء: ٩٥]، وقوله: ﴿ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨]، وقد تقدم تقرير حجة كل من الآيات في ضمن تفسيرها.

ز. ومن هنا يظهر أن المراد بجعل الجنات والقصور له ﷺ جعله في الدنيا على ما يقتضيه مقام

المخاصمة ورد قولهم فإن المحصل من السياق أنهم يقترحون عليك كيت وكيت وهم يريدون تعجيزك وتبكيتك وإن ربك قادر على أعظم من ذلك فإن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار.، وهي لا محالة في الدنيا وإلا لم ينقطع به الخصام.

ح. وبذلك يتبين فساد ما نقل عن بعضهم أن المراد جنات الآخرة وقصورها وأفسد منه قول آخرين إن المراد جعل جنات تجري من تحتها الأنهار في الدنيا وجعل القصور في الآخرة، وربما استونس لذلك بأن التعبير في الجنات بقوله: ﴿إِنْ شاءَ جَعَلَ﴾ وهو صيغة ماض مفيدة للتحقق مناسبة للدنيا وفي القصور بقوله: ﴿يَجْعَلْ﴾ وهو صيغة مستقبل مناسبة للآخرة هذا مع أن الفعل الواقع في حيز الشرط منسلخ عن الزمان، والاختلاف في التعبير تفنن فيه وتجديد لصورة الكلام والله العالم.

٦. عذاب السعير لمن كذّب بالساعة:

المقطع [٦] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١١-١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٨٧»:

١. ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً﴾:

أ. إضراب عن طعنهم فيه ﷺ واعتراضهم عليه بأكل الطعام والمشي في الأسواق بما يتضمن معنى التكذيب أي ما كذبوك وردوا نبوتك لأنك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق فإنما هو كلام منهم صوري بل السبب الأصلي في إنكارهم نبوتك وطعنهم فيك أنهم كذبوا بالساعة وأنكروا المعاد، ومن المعلوم أن لا وقع للنبوة مع إنكار الساعة ولا معنى للدين والشريعة لولا المحاسبة والمجازاة.

ب. فالإشارة إلى السبب الأصلي بعد ذكر الاعتراض والاقتراح والجواب هاهنا نظير ما وقع في سورة الإسراء بعد ذكر الاقتراحات ثم الجواب من ذكر السبب الأصلي في قوله: ﴿قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا (إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى) إِلَّا أَنْ قالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً﴾

ج. وذكر جمع من المفسرين أن قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ حكاية لبعض آخر من أباطيلهم كما حكى بعضا آخر منها متعلقا بالتوحيد والكتاب والرسالة في قوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ وقوله:

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذا إِلَّا إِفْكٌ﴾، وقوله: ﴿وَقالُوا ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ﴾ ثم تشعبوا في نكتة الإضراب، فذكر بعضهم أن الوجه فيه كون المعاد لا ريب فيه، وقال بعضهم: إن إنكاره أعظم، وقال بعضهم: إنه أعجب إلى غير ذلك.

د. والحق أن السياق لا يساعد عليه فإن السياق المتعرض لطعنهم في الرسول ﷺ والجواب عنه لم يتم بعد بشهادة قوله بعد: ﴿وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ﴾، وما يتلوه من الآيات فلا معنى لاعتراض حكاية تكذيبهم بالساعة بين الآيات الحاكية لتكذيبهم بالرسول والمجيبة عنه، وهو ظاهر.

هـ. وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً﴾ وضع الموصول والصلة مكان الضمير الراجع للدلالة على أن الجزاء بالسعير ثابت في حق كل من كذب بالساعة هم وغيرهم فيه سواء، وعلى أن سبب إعتاد السعير عليه فيهم تكذيبهم بالساعة، ووضع الساعة ثانيا موضع ضميرها ليكون أنص وأصرح فهو المناسب لمقام التهديد، والسعير النار المشتعلة الملتهبة.

٢. ﴿إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾:

أ. في المفردات: (الغيظ أشد غضب إلى أن قال والتغيظ هو إظهار الغيظ، وقد يكون ذلك مع صوت مسموع كما قال: ﴿سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾)، وفيه أيضا: الزفير تردد النفس حتى تنتفخ الضلوع منه)

ب. والآية تمثل حال النار بالنسبة إليهم إذا برزوا لها يوم الجزاء أنها تشتد إذا ظهروا لها كالأسد يزأر إذا رأى فريسته.

٣. ﴿وَإِذا أُلْقُوا مِنْها مَكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً﴾:

أ. ﴿مَكاناً﴾ منصوب بتقدير في، والثبور الويل والهلاك.

ب. والتقرين التصفيد بالأغلال والسلاسل وقيل: هو جعلهم مع قرناء الشياطين وهو بعيد من اللفظ، والمعنى وإذا ألقوا يوم الجزاء في مكان ضيق من النار وهم مصفدون بالأغلال دعوا هنالك ثبورا لا يوصف وهو قولهم: وا ثبوراه.

٤. ﴿لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً﴾:

أ. الاستغاثة بالويل والثبور نوع احتيال للتخلص من الشدة وإذ كان اليوم يوم الجزاء فحسب لا ينفع فيه عمل ولا يجدي فيه سبب البتة لم ينفعهم الدعاء بالثبور أصلا ولذا قال تعالى: ﴿لا تَدْعُوا الْيَوْمَ﴾، فهو كناية عن أن الثبور لا ينفعكم اليوم سواء استقللتم منه أو استكثرتم، فهو في معنى قوله تعالى: ﴿اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَواءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور: ١٦]، وقوله حكاية عنهم: ﴿سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١]

ب. وقيل: المراد أن عذابكم طويل مؤبد لا ينقطع بثبور واحد بل يحتاج إلى ثبورات كثيرة، وهو بعيد.

٥. أحاديث وآثار:

أ. أخرج الطبراني وابن مردويه من طريق مكحول عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعدا من بين عيني جهنم، قالوا: يا رسول الله وهل لجهنم من عين؟ قال: أما سمعتم الله يقول: ﴿إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ فهل تراهم إلا بعينين؟

• أقول: ورواه أيضا عن رجل من الصحابة، وفي حجة الخبر خفاء.

ب. أخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن أبي أسيد: أن رسول الله ﷺ سئل عن قول الله: ﴿وَإِذا أُلْقُوا مِنْها مَكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ﴾ قال: والذي نفسي بيده إنهم ليستكرهون في النار، كما يستكره الوتد في الحائط.

٧. جنّة الخلد جزاء المتقين ووعد الله الصادق:

المقطع [٧] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ [الفرقان: ١٥ـ١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٨٨»:

١. ﴿قُلْ أَذلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ الإشارة إلى السعير بما له من الوصف، أمر نبيه ﷺ أن يسألهم أيهما أرجح السعير أم جنة الخلد؟ والسؤال سؤال في أمر بديهي لا يتوقف في جوابه عاقل وهو دائر في المناظرة والمخاصمة يردد الخصم بين أمرين أحدهما بديهي الصحة والآخر بديهي البطلان فيكلف أن يختار أحدهما: فإن اختار الحق فقد اعترف بما كان ينكره، وإن اختار الباطل افتضح.

٢. ﴿أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ إضافة الجنة إلى الخلد وهو الدوام للدلالة على كونها في نفسها خالدة لا تفنى

كما أن قوله بعد: ﴿خالِدِينَ﴾ للدلالة على أن أهلها خالدون فيها لا سبيل للفناء إليهم.

٣. ﴿وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ تقديره وعدها المتقون لأن وعد يتعدى لمفعولين والمتقون مفعول ثان ناب مناب الفاعل.

٤. ﴿كانَتْ لَهُمْ جَزاءً وَمَصِيراً﴾ أي جزاء لتقواهم ومنقلبا ينقلبون إليه بما هم متقون كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ إلى أن قال ﴿وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨] وهو من الأقضية التي قضاها يوم خلق آدم وأمر الملائكة وإبليس بالسجود له، ويتعين به جزاء المتقين ومصيرهم كما تقدم في تفسير سورة الحجر.

٥. ﴿لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ خالِدِينَ﴾:

أ. أي إنهم يملكون فيها بتمليك من الله لهم كل ما تتعلق به مشيتهم، ولا تتعلق مشيتهم إلا بما يحبونه ويشتهونه على خلاف أهل النار كما قال تعالى فيهم: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤]، ولا يحبون ولا يشتهون إلا ما من شأنه أن يتعلق به الحب واقعا وهو الذي يحبه الله لهم وهو ما يستحقونه من الخير والسعادة مما يستكملون به ولا يستضرون به لا هم ولا غيرهم فافهم ذلك.

ب. وبهذا البيان يظهر أن لهم إطلاق المشية يعطون ما شاءوا وأرادوا غير أنهم لا يشاءون إلا ما فيه رضا ربهم، ويندفع به ما استشكل على الآيات الناطقة بإطلاق المشية كهذه الآية أن لازم إطلاق المشية أن يجوز لهم أن يريدوا بعض المعاصي والقبائح والشنائع واللغو، وأن يريدوا بعض ما يسوء سائر أهل الجنة، وأن يريدوا نجاة بعض المخلدين في النار، وأن يريدوا مقامات الأنبياء والمخلصين من الأولياء ممن هم فوقهم درجة إلى غير ذلك.

ج. كيف؟ وقد قال تعالى: ﴿يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧] فهم راضون بما رضي به الله ومرضيون لا يريدون إلا ما يرتضيه فلا يريدون معصية ولا قبيحا ولا شنيعا ولا لغوا ولا كذابا، ولا يريدون ما لا يرتضيه غيرهم من أهل الجنة، ولا يريدون ارتفاع العذاب ممن يريد ربهم عذابه، ولا يشاءون ولا يتمنون مقام من هو أرفع درجة منهم لأن الذي خصهم بما هو ربهم وقد رضوا بما فعل وأحبوا ما أحبه.

٦. ﴿كانَ عَلى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُلاً﴾:

أ. أي كان هذا الوعد الذي وعده المتقون وعدا على ربك يجب عليه أن يفي به، وإنما أوجبه هو تعالى على نفسه حيث قضى بذلك أول يوم، وأخبر عن ذلك بمثل قوله: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ إلى أن قال: ﴿هذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ﴾ [ص: ٥٣]

ب. ووجه اتصاف هذا الوعد بكونه مسئولا أن المتقين سألوا ربهم ذلك بلسان حالهم واستعدادهم، أو سألوه ذلك في دعائم، أو الملائكة سألوا ذلك كما فيما يحكيه الله عنهم: ﴿رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ الخ: [غافر: ٨] أو جميع هذه الأسئلة.

ج. وذكر الطبرسي في الآية أن قوله: ﴿كانَتْ لَهُمْ جَزاءً وَمَصِيراً﴾ حال من ضمير الجنة المقدر في ﴿وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ وأن قوله: ﴿لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ﴾ حال من ﴿الْمُتَّقُونَ﴾ وهو أقرب إلى الذهن من قول غيره إن الجملتين استينافان في موضع التعليل كالجواب لسؤال مقدر.

٨. حشر المشركين وبراءة من عبدوهم منهم:

المقطع [٨] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهَّ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ١٧-١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٩٠»:

١. ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾:

أ. ضمائر الجمع الأربعة عائدة إلى الكفار، والمراد بما يعبدون الملائكة والمعبودون من البشر والأصنام إن كان ﴿ما﴾ أعم من غير أولي العقل، وإلا فالأصنام فقط.

ب. والمشار إليهم المعنيون بقوله: ﴿عِبادِي هؤُلاءِ﴾ الكفار ومعنى الآية ظاهر.

٢. ﴿قالُوا سُبْحانَكَ ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ﴾، جواب المعبودين عن قوله: ﴿أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ﴾ وقد بدءوا بالتسبيح على ما هو من أدب العبودية في موارد يذكر فيها شرك أهل الشرك أو ما يوهم ذلك بوجه.

٣. ﴿ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ﴾:

أ. أي ما صح وما استقام لنا أن نتجاوزك إلى غيرك فنتخذ من دونك من أولياء وهم الذين عبدونا واتخذونا أولياء من دونك، وقوله: ﴿وَلكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكانُوا قَوْماً بُوراً﴾ البور جمع بائر وهو الهالك وقيل: الفاسد.

ب. لما نفى المعبودون المسئولون عن سبب ضلال عبادهم نسبة الإضلال إلى أنفسهم أخذوا في نسبته إلى الكفار أنفسهم مع بيان السبب الذي أضلهم وهو أنهم كانوا قوما هالكين أو فاسدين وقد متعتهم وآباءهم من أمتعة الحياة الدنيا ونعمها حتى طال عليهم التمتيع امتحانا وابتلاء فتمتعوا منها واشتغلوا بها حتى نسوا الذكر الذي جاءت به الرسل فعدلوا عن التوحيد إلى الشرك.

ج. فكونهم قوما هالكين أو فاسدين بسبب انكبابهم على الدنيا وانهماكهم في الشهوات هو السبب في استغراقهم في التمتع وانصراف هممهم إلى الاشتغال بالأسباب وهو السبب لنسيانهم الذكر والعدول عن التوحيد إلى الشرك.

٤. فتبين بذلك أن قوله: ﴿وَكانُوا قَوْماً بُوراً﴾ من تمام الجواب وأما من جعل الجملة اعتراضا تذييليا مقررا لمضمون ما قبله واستفاد منه أن السبب الأصلي في ضلالهم أنهم كانوا بحسب ذواتهم أشقياء هالكين، وليس ذلك إلا بقضاء حتم منه تعالى في سابق علمه فهو المضل لهم حقيقة، وإنما نسب إلى أنفسهم أدبا:

أ. ففيه أولا: أنه إفساد لمعنى الآية إذ لا موجب حينئذ لإيراد الاستدراك بقوله: ﴿وَلكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ لكونه فضلا لا حاجة إليه.

ب. وثانيا: أن نسبة البوار والشقاء إلى ذوات الأشياء ينافي ما أطبق عليه العقلاء بفطرتهم من تأثير التعليم والتربية، والحس والتجربة يؤيدان ذلك وهو يناقض القول بالاختيار والجبر معا، أما مناقضة القول بالاختيار فظاهر، وأما مناقضة القول بالجبر فلأن الجبري يقصر العلية في الواجب تعالى وينفيه عن غيره ويناقضه نسبة الاقتضاء الضروري إلى ذوات الأشياء وماهياتها.

ج. وثالثا: أن فيه خلطا في معنى القضاء من حيث متعلقه فكون القضاء حتما لا يوجب خروج الفعل الذي تعلق به من الاختيار إلى الإجبار فإن القضاء إنما تعلق بالفعل بحدوده وهو صدوره عن اختيار الفاعل من حيث إنه صادر عن اختياره فتعلقه يوجب تأكد كونه اختياريا لا أنه يزيل عنه وصف الاختيار.

د. ورابعا: أن قولهم: إن المضل بالحقيقة هو الله وإنما نسبوا الضلال إلى الكفار أنفسهم تأدبا وبمثله صرحوا في نسبة المعاصي والأعمال القبيحة الشنيعة والفجائع الفظيعة إلى فواعلها أنها في عين أنها من أفعاله تعالى إنما تنسب إلى غيره تأدبا كلام متهافت فإن الأدب، كما تقدم تفصيل القول فيه في الجزء السادس من الكتاب، هو الهيئة الحسنة التي ينبغي أن يقع عليها فعل ما، وبعبارة أخرى ظرافة الفعل، وإذ كان الحق الصريح في الفعل غير الجميل أنه فعل الله سبحانه ولا يشاركه في فعله غيره بأي وجه فرض كانت نسبته إلى غيره تعالى نسبة باطلة غير حق وكذبا وفرية لا تطابق الواقع فليت شعري أي أدب جميل في إماطة حق صريح وإحياء باطل؟ وأي ظرافة ولطف في الكذب والفرية بإسناد الفعل إلى غير فاعله؟ والله سبحانه أجل من أن يعظم بباطل أو بالستر على بعض أفعاله أو بالكذب والفرية بإسناد بعض ما يفعله إلى غيره، وإذ كان جميلا لا يفعل إلا الجميل فما معنى التأدب بنفي بعض أفعاله عنه؟

٥. ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلا نَصْراً﴾:

أ. كلام له تعالى يلقيه إلى المشركين بعد براءة المعبودين منهم، وأما كلام المعبودين فقد تم في قوله: ﴿وَكانُوا قَوْماً بُوراً﴾

ب. والمعنى: فقد كذبكم المعبودون بما تقولون في حقهم إنهم آلهة من دون الله يصرفون عن عبدتهم السوء وينصرونهم، وإذ كذبوكم ونفوا عن أنفسهم الألوهية والولاية فلا تستطيعون أنتم أيها العبدة أن تصرفوا عن أنفسكم العذاب بسبب عبادتهم، ولا تستطيعون نصرا لأنفسكم بسببهم.

ج. والترديد بين الصرف والنصر كأنه باعتبار استقلال المعبودين في دفع العذاب عنهم وهو الصرف، وعدم استقلالهم بأن يكونوا جزء السبب وهو النصر.

د. وقرأ غير عاصم من طريق حفص (يستطيعون) بالياء المثناة من تحت وهي قراءة حسنة ملائمة لمقتضى السياق، والمعنى: فقد كذبكم المعبودون بما تقولون إنهم آلهة يصرفون عنكم السوء أو ينصرونكم ويتفرع على ذلك أنهم لا يستطيعون لكم صرفا ولا نصرا.

٦. ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذاباً كَبِيراً﴾:

أ. المراد بالظلم مطلق الظلم والمعصية وإن كان مورد الآيات السابقة خصوص الظلم الذي هو الشرك، فقوله: ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ﴾، من قبيل وضع القانون العام موضع الحكم الخاص، ولو كان المراد

به الحكم الخاص بهم لكان من حق الكلام أن يقال: (ونذيقكم بما ظلمتم عذابا كثيرا لأنهم كلهم ظالمون ظلم الشرك.

ب. والنكتة فيه الإشارة إلى أن الحكم الإلهي نافذ جار لا مانع منه ولا معقب له كأنه قيل: وإن كذبكم المعبودون وما استطاعوا صرفا ولا نصرا فالحكم العام الإلهي (من يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا على نفوذه وجريانه لا مانع منه ولا معقب له فأنتم ذائقون العذاب البتة.

٩. بشرية الرسل والفتنة:

المقطع [٩] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٩٣»:

١. ﴿وما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ﴾:

أ. أجاب تعالى عن قولهم: ﴿ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ﴾، أولا بقوله: ﴿تَبارَكَ الَّذِي إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلِكَ﴾، مع ما يلحقه من قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾، وهذا جواب ثان محصله أن هذا الرسول ليس بأول رسول أرسل إلى الناس بل أرسل الله قبله جما غفيرا من المرسلين وقد كانوا على العادة البشرية الجارية بين الناس يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ولم يخلق لهم جنة يأكلون منها ولا ألقي إليهم كنز ولا أنزل معهم ملك، وهذا الرسول إنما هو كأحدهم ولم يأت بأمر بدع حتى يتوقع منه ما لا يتوقع من غيره.

ب. فالآية في معنى قوله: ﴿قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ﴾ [الأحقاف: ٩]، وقريبة المعنى من قوله: ﴿قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]

٢. سؤال وإشكال: فإن قيل: هذا في الحقيقة دفع للاعتراض عنه ﷺ خاصة وتوجيهه إلى عامة الرسل فلهم أن يعترضوا على عامة الرسل كما وجهه سابقوهم وقد حكى الله عنهم ذلك قال: ﴿فَقالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا﴾ [التغابن: ٦]، وقال: ﴿قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقال: ﴿ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، والجواب: الجواب مطابق

للاعتراض فإن قولهم: ﴿ما لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ﴾، يعطي الخصوصية بلا إشكال وأما تعميم الاعتراض لو عمم فيدفعه قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾، وقوله قبل ذلك: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ﴾، على ما تقدم من التقرير.

٣. ومن عجيب القول ما عن بعض المفسرين أن الآية تسلية للنبي ﷺ كأنه قيل: إن الرسل من قبلك كانوا على الحال التي أنت عليها فلك فيهم أسوة حسنة، وأما كونه جوابا عن تعنتهم فالنظم لا يساعد عليه إذ قد أجيب عنه بقوله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ﴾ هذا وهو خطأ.

٤. ﴿وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾

أ. متمم للجواب السابق بمنزلة التعليل لكون الرسل كسائر الناس في الخواص البشرية من غير أن تتميز حياتهم أو دعوتهم بخواص سماوية تورث القطع بكونهم حاملين للرسالة الإلهية كإنزال ملك عليهم أو إلقاء كنز إليهم أو خلق جنة لهم فكأنه قيل: والسبب في كون الرسل جارين في حياتهم على ما يجري عليه الناس أنا جعلنا بعض الناس لبعض فتنة يمتحنون بها فالرسل فتنة لسائر الناس يمتحنون بهم فيتميز بهم أهل الريب من أهل الإيمان والمتبعون للأهواء الذين لا يصبرون على مر الحق من طلاب الحق الصابرين في طاعة الله وسلوك سبيله.

ب. وبما مر يتبين:

• أولا: أن المراد بالصبر هو الصبر بأقسامه وهي الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصيته، والصبر عند المصائب.

• وثانيا: أن قوله: ﴿وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ من وضع الحكم العام موضع الخاص، والمطلوب الإشارة إلى جعل الرسل، وحالهم هذه الحال، فتنة لسائر الناس.

٥. ﴿وَكانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾:

أ. أي عالما بالصواب في الأمور فيضع كل أمر في الموضع المناسب له ويجري بذلك أتم النظام فهدف النظام الإنساني كمال كل فرد بقطعه طريق السعادة أو الشقاوة على حسب ما يستعد له ويستحقه ولازمه بسط نظام الامتحان بينهم ولازمه ارتفاع التمايز بين الرسل وغيرهم.

ب. وفي الجملة التفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة، والنكتة فيه نظيرة ما في قوله السابق: ﴿تَبارَكَ

الَّذِي إِنْ شاءَ﴾

١٠. استكبار المشركين وحرمانهم من البشرى يوم اللقاء:

المقطع [١٠] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢١-٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ١٩٧»:

١. ﴿وَقالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا لولا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً﴾:

أ. قال في مجمع البيان: (الرجاء ترقب الخير الذي يقوى في النفس وقوعه ومثله الطمع والأمل، واللقاء المصير إلى الشيء من غير حائل، والعتو الخروج إلى أفحش الظلم)

ب. المراد باللقاء الرجوع إلى الله يوم القيامة سمي به لبروزهم إليه تعالى بحيث لا يبقى في البين حائل جهل أو غفلة لظهور العظمة الإلهية كما قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾

ج. فالمراد بعدم رجائهم اللقاء إنكارهم للمعاد وتكذيبهم بالساعة ولم يعبر عنه بتكذيب الساعة ونحوه كما عبر في الآيات السابقة لمكان ذكرهم مشاهدة الملائكة ورؤية الرب تعالى وتقدس ففيه إشارة إلى أنهم إنما قالوا ما قالوا وطلبوا إنزال الملائكة أو رؤية الرب ليأسهم من اللقاء وزعمهم استحالة ذلك فقد ألزموا بما هو مستحيل على زعمهم.

د. فقولهم: ﴿لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا﴾ اعتراض منهم على رسالة الرسول أوردوه في صورة التحضيض كقولهم في موضع آخر: ﴿لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر: ٧]، وتقرير الحجة كما تقدمت الإشارة إليه أنه لو كانت الرسالة، وهي نزول الملائكة بالوحي أو تكليمه تعالى البشر بالمشافهة، مما يتيسر للبشر نيله ونحن بشر أمثال هذا المدعي للرسالة فما بالنا لا ينزل علينا الملائكة ولا نرى ربنا؟ فهلا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا.

هـ. ويؤيد ما ذكرناه من التقرير إطلاق إنزال الملائكة ورؤية الرب من غير أن يقولوا: لولا أنزل علينا الملائكة فيصدقوك أو نرى ربنا فيصدقك، على أنهم ذكروا في اعتراضهم السابق نزول الملك ليكون معه نذيرا وفيه تصديقه.

و. وفي التعبير عنه تعالى بلفظ ربنا نوع تهكم منهم فإن المشركين ما كانوا يرونه تعالى ربا لهم بل كان عندهم أن أربابهم ما كانوا يعبدونهم والله سبحانه رب الأرباب فكأنهم قالوا للنبي ﷺ: إنك ترى أن الله ربك وقد حن إليك فخصك بالمشافهة والتكليم، وأنه ربنا، فليحن إلينا وليشافهنا بالرؤية كما فعل بك.

ز. على أنهم إنما عدلوا عن عبادة أرباب الأصنام وهم الملائكة وروحانيات الكواكب ونحوهم إلى عبادة الأصنام والتماثيل لتكون محسوسة غير غائبة عن المشاهدة عند العبادة والتقرب بالقرابين.

ح. وقوله تعالى: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً﴾ أي أقسم لقد طلبوا الكبر لأنفسهم بغير حق وطغوا طغيانا عظيما.

٢. ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً﴾:

أ. في المفردات: (الحجر الممنوع منه بتحريمه قال تعالى: ﴿وَقالُوا هذِهِ أَنْعامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ ﴿وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً﴾ كان الرجل إذا لقي من يخاف يقول ذلك فذكر تعالى أن الكفار إذا رأوا الملائكة قالوا ذلك ظنا إن ذلك ينفعهم)

ب. وعن الخليل كان الرجل يرى الرجل الذي يخاف منه القتل في الجاهلية في الأشهر الحرم فيقول: حجرا محجورا أي حرام عليك التعرض لي في هذا الشهر فلا يبدؤه بشر وعن أبي عبيدة: هي عوذة للعرب يقولها من يخاف آخر في الحرم أو في شهر حرام إذا لقيه وبينهما ترة.

ج. فقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ على ما قيل ظرف لقوله: ﴿لا بُشْرى﴾ وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تأكيد له، والمراد بقوله: ﴿لا بُشْرى﴾ نفي للجنس، والمراد بالمجرمين كل متصف بالإجرام غير أن مورد الكلام إجرام الشرك والمجرمون هم الذين لا يرجون اللقاء، وقد تقدم ذكرهم والمعنى: يوم يرى هؤلاء الذين لا يرجون لقاءنا الملائكة لا بشرى، على طريق نفي الجنس، يومئذ للمجرمين وهم منهم.

٣. ﴿وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً﴾:

أ. فاعل يقولون هم المشركون أي يقول المشركون يومئذ للملائكة وهم قاصدوهم بالعذاب: حجرا محجورا أي لنكن في معاذ منكم، وقيل: ضمير الجمع للملائكة، والمعنى: ويقول الملائكة للمشركين حراما محرما عليكم سماع البشرى، أو حراما محرما عليكم أن تدخلوا الجنة أو حراما محرما عليكم أن

تتعوذوا من العذاب إلى شيء فلا معاذ لكم هذا، والمعنى: الأول أقرب إلى السياق.

ب. والآية في موضع الجواب عن قولهم: ﴿لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ﴾ وقد أعرضت عن جواب قولهم: ﴿أَوْ نَرى رَبَّنا﴾ فإن الرؤية التي كانوا يقصدونها بقولهم هي الرؤية البصرية التي تستلزم التجسم والمادية تعالى عن ذلك، وأما الرؤية بعين اليقين وهي الرؤية القلبية فلم يكونوا ممن يفقه ذلك وعلى تقديره ما كانوا يقصدونه.

ج. وأما توضيح الجواب عن أمر إنزال الملائكة ورؤيتهم فقد أخذ أصل الرؤية مفروغا منه مسلما أن هناك يوما يرون فيه الملائكة غير أنه وضع الإخبار عن وصفهم يوم الرؤية موضع الإخبار عن أصل رؤيتهم للإشارة إلى أن طلبهم لرؤية الملائكة ليس يجري على نفعهم فإنهم لا يرون الملائكة إلا يوم يشافهون عذاب النار وذلك بعد تبدل النشأة الدنيوية من النشأة الأخرى كما أشار إليه في موضع آخر بقوله: ﴿ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨]، فهم في مسألتهم هذه يستعجلون بالعذاب وهم يحسبون أنهم يعجزون الله ورسوله بالحجة.

٤. وأما ما هو هذا اليوم الذي أشير إليه بقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ﴾ فقد ذكر المفسرون:

أ. أنه يوم القيامة لكن الذي يعطيه السياق مع ما ينضم إليه من الآيات الواصفة ليوم الموت وما بعده كقوله: ﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ﴾، الآية: [الأنعام: ٩٣]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها﴾ [النساء: ٩٧] إلى غير ذلك من الآيات.

ب. أن المراد به الموت وهو المسمى في عرف القرآن برزخا فإن في الآيات دلالة قاطعة على أنهم يرون الملائكة ويشافهونهم بعد الموت قبل يوم القيامة، والمتعين، على ما يقتضيه طبع المخاصمة، في جواب من يجحد رؤية الملائكة أن يذكر له أول يوم يراهم بما يسوؤه وهو يوم الموت لا أن يخاصم بذكر رؤيتهم يوم القيامة وقوله لهم: حجرا محجورا، وقد رآهم قبل ذلك وعذب بأيديهم أمدا بعيدا وهو ظاهر.

ج. فالظاهر أن الآية والآيتين التاليتين ناظرة إلى حالهم في البرزخ تصف رؤيتهم للملائكة فيه، وإحباط أعمالهم فيه، وحال أهل الجنة التي فيه.

١١. حبوط أعمال الكفار يوم القيامة:

المقطع [١١] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٠١»:

١. ﴿وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً﴾:

أ. قال الراغب في المفردات: (العمل كل فعل يكون من الحيوان بقصد فهو أخص من الفعل لأن الفعل قد ينسب إلى الحيوانات التي يقع منها فعل بغير قصد وقد ينسب إلى الجمادات، والعمل قلما ينسب إلى ذلك، ولم يستعمل العمل في الحيوانات إلا في قولهم: البقر العوامل) وقال: (الهباء دقاق التراب وما انبث في الهواء فلا يبدو إلا في أثناء ضوء الشمس في الكوة)، والنثر التفريق.

ب. والمعنى: وأقبلنا إلى كل عمل عملوه، والعمل هو الذي يعيش به الإنسان بعد الموت، ففرقناه تفريقا لا ينتفعون به كالهباء المنثور، والكلام مبني على التمثيل مثل به استيلاء القهر الإلهي على جميع أعمالهم التي عملوها لسعادة الحياة وإبطالها بحيث لا يؤثر في سعادة حياتهم المؤبدة شيئا بتشبيهه بسلطان غلب عدوه فحل داره بعد ما ظهر عليه فخرب الدار وهدم الآثار وأحرق المتاع والأثاث فأفنى منه كل عين وأثر.

٢. ولا منافاة بين ما تدل عليه الآية من حبط الأعمال يومئذ وبين ما تدل عليه آيات أخر أن أعمالهم أحبطت حينما عملوها في الدنيا بكفرهم وإجرامهم فإن معنى الإحباط بعد الموت ظهور الحبط لهم بعد ما كان خفيا في الدنيا عليهم وقد تقدم كلام مشبع في معنى الحبط في الجزء الثاني من الكتاب فراجع.

٣. أحاديث وآثار:

أ. أخرج عبد الرزاق والفاريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب قال: الهباء ريح الغبار يسطع ثم يذهب فلا يبقى منه شيء، فجعل الله أعمالهم كذلك.

ب. أخرج سمويه في فوائده عن سالم مولى أبي حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: ليجاء يوم القيامة بقوم معهم حسنات مثال جبال تهامة، حتى إذا جيء بهم جعل الله تعالى أعمالهم هباء ثم قذفهم في النار، قال سالم: بأبي وأمي يا رسول الله حل لنا هؤلاء القوم، قال: كانوا يصلون ويصومون ويأخذون سنة من الليل، ولكن كانوا إذا عرض عليهم شيء من الحرام وثبوا عليه، فأدحض الله تعالى أعمالهم.

ج. وفي الكافي، بإسناده عن سليمان بن خالد قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً﴾ قال: أما والله لقد كانت أعمالهم، أشد بياضا من القباطي، ولكن كانوا إذا عرض لهم حرام لم يدعوه.

• أقول: وهذا المعنى مروي فيه وفي غيره عنه وعن أبيه عليه السلام بغير واحد من الطرق.

١٢. حسن مستقرّ أهل الجنة ومقيلهم:

المقطع [١٢] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٠١»:

١. ﴿أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾:

أ. المراد بأصحاب الجنة المتقون فقد تقدم قوله قبل آيات: ﴿قُلْ أَذلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾، والمستقر والمقيل اسما مكان من الاستقرار ومعناه ظاهر ومن القيلولة وهي الاستراحة في منتصف النهار سواء كان معها نوم أم لا، على ما قيل، والجنة لا نوم فيه.

ب. وكلمتا ﴿خَيْرٌ﴾ و﴿أَحْسَنُ﴾ منسلخان عن معنى التفضيل كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقوله: ﴿ما عِنْدَ الله خَيْرٌ مِنَ اللهْوِ﴾ [الجمعة: ١١] كذا قيل، وليس يبعد أن يقال: إن (أفعل) أو ما هو في معناه كخير بناء على ما رجحنا أنه صفة مشبهة تدل على التفضيل بمادته لا بهيئته في مثل هذه الموارد غير منسلخ عن معنى التفضيل والعناية في ذلك أنهم لما اختاروا الشرك والاجرام واستحسنوا ذلك ولازمه النار في الآخرة فقد أثبتوا لها خيرية وحسنا فقوبلوا بأن الجنة وما فيها خير وأحسن حتى على لازم قولهم فعليهم أن يختاروها على النار وأن يختاروا الإيمان على الكفر على أي حال، وقيل: إن التفضيل مبني على التهكم.

٢. أحاديث وآثار: في الكافي، بإسناده عن عبد الأعلى وبإسناد آخر عن سويد بن غفلة قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: في حديث وضع المؤمن في قبره، ثم يفسحان يعني الملكين في قبره مد بصره، ثم يفتحان له بابا إلى الجنة ويقولان له: نم قرير العين نوم الشاب الناعم فإن الله يقول: ﴿أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾

• أقول: والرواية، كما ترى، تجعل الآية من آيات البرزخ، وتشير بقوله: ويقال له: نم (إلخ) إلى

نكتة التعبير في الآية بالمقيل فليتنبه.

١٣. تشقق السماء ونزول الملائكة:

المقطع [١٣] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥-٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٠٢»:

١. ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً﴾:

أ. الظاهر أن الظرف منصوب بفعل مقدر، والمعنى واذكر يوم كذا وكذا فإنهم يرون الملائكة فيه أيضا وهذا اليوم هو يوم القيامة بدليل قوله بعد: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ﴾، وقيل في متعلق الظرف وجوه أخر لا فائدة في نقلها.

ب. و﴿تَشَقَّقُ﴾ أصله تتشقق من باب التفعل من الشق بمعنى الخرم والتشقق التفتح، والغمام السحاب سمي به لستره ضوء الشمس مأخوذ من الغم بمعنى الستر.

ج. والباء في قوله: ﴿تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ﴾ إما للملابسة والمعنى تتفتح السماء متلبسة بالغمام أي متغيمة، وإما بمعنى عن والمعنى تتفتح عن الغمام أي من قبل الغمام أو تشققه.

د. وكيف كان فظاهر الآية أن السماء تنشق يوم القيامة بما عليها من الغمام الساتر لها ونزل منها الملائكة الذين هم سكانها فيشاهدونهم فالآية قريبة المعنى من قوله في موضع آخر: ﴿وَانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ وَالْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها﴾ [الحاقة: ١٧]

هـ. وليس من البعيد أن يكون الكلام كناية عن انكشاف غمة الجهل وبروز عالم السماء وهو من الغيب وبروز سكانها وهم الملائكة ونزولهم إلى العالم الأرضي موطن الإنسان.

و. وقيل: المراد أن السماء يشقها الغمام وهو الذي يذكره في قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقد مر كلام في تفسير الآية.

ز. والتعبير عن الواقعة بالتشقق دون التفتح وما يماثله للتهويل، وكذا التنوين في قوله: ﴿تَنْزِيلاً﴾ للدلالة على التفخيم.

٢. ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ وَكانَ يَوْماً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً﴾ أي الملك المطلق يومئذ حق ثابت للرحمن وذلك لبطلان الأسباب وزوال ما بينها وبين مسبباتها من الروابط المتنوعة، وقد تقدم غير مرة أن المراد بذلك في يوم القيامة هو ظهور أن الملك والحكم لله والأمر إليه وحده، وأن لا استقلال في شيء من الأسباب على خلاف ما كان يتراءى من ظاهر حالها في نشأة الدنيا قبل قيام الساعة ورجوع كل شيء إليه تعالى.

٣. ﴿وَكانَ يَوْماً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً﴾:

أ. الوجه فيه ركونهم إلى ظواهر الأسباب وإخلادهم إلى الحياة الأرضية البائدة الداثرة وانقطاعهم عن السبب الحقيقي الذي هو مالك الملك بالحقيقة وعن حياتهم الباقية المؤبدة فيصبحون اليوم ولا ملاذ لهم ولا معاذ.

ب. فعلى هذا يكون الملك مبتدأ والحق خبره عرف لإفادة الحصر، ويومئذ ظرف لثبوت الخبر للمبتدإ، وفائدة التقييد الدلالة على ظهور حقيقة الأمر يومئذ فإن حقيقة الملك لله سبحانه دائما، وإنما يختلف يوم القيامة مع غيره بزوال الملك الصوري عن الأشياء فيه وثبوته لها في غيره.

ج. وقال بعضهم: الملك بمعنى المالكية ويومئذ متعلق به والحق خبر الملك، وقيل: يومئذ متعلق بمحذوف هو صفة للحق، وقيل: المراد بيومئذ هو يوم الله، وقيل: يومئذ هو الخبر للملك والحق صفة للمبتدإ، وهذه أقوال ردية لا جدوى لها.

١٤. ندامة الظالم يوم القيامة وخذلان الشيطان:

المقطع [١٤] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٠٣»:

١. ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾:

أ. قال الراغب في المفردات: (العض أزم بالأسنان، قال تعالى: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ﴾ و﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ﴾ وذلك عبارة عن الندم لما جرى به عادة الناس أن يفعلوه عند ذلك)، ولذلك يتمنى عنده ما فات من واجب العمل كما حكى الله تعالى عنهم قولهم: ﴿يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً﴾

ب. والظاهر أن المراد بالظالم جنسه وهو كل من لم يهتد بهدى الرسول، وكذا المراد بالرسول جنسه وإن انطبق الظالم بحسب المورد على ظالمي هذه الأمة والرسول على محمد ﷺ.

ج. والمعنى: واذكر يوم يندم الظالم ندما شديدا قائلا من فرط ندمه يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ما إلى الهدى أي سبيل كانت.

٢. ﴿يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً﴾:

أ. تتمة تمني الظالم النادم على ظلمه، وفلان كناية عن العلم المذكر وفلانة عن العلم المؤنث قال الراغب: (فلان وفلانة كنايتان عن الإنسان والفلان والفلانة، باللام، كنايتان عن الحيوانات)

ب. والمعنى: يا ويلتي، يا هلاكي، ليتني لم أتخذ فلانا، وهو من اتخذه صديقا يشاوره ويسمع منه ويقلده، خليلا.

ج. وذكر بعضهم: أن فلانا في الآية كناية عن الشيطان، وكأنه نظرا إلى ما في الآية التالية من حديث خذلان الشيطان للإنسان غير أن السياق لا يساعد عليه.

د. ومن لطيف التعبير قوله في الآية السابقة: ﴿يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ﴾ وفي هذه الآية: ﴿يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ﴾ فإن في ذلك تدرجا لطيفا في النداء والاستغاثة فحذف المنادي في الآية السابقة يلوح إلى أنه يريد أي منج ينجيه مما هو فيه من الشقاء وذكر الويل بعد ذلك، في هذه الآية يدل على أنه بان له أن لا يخلصه من العذاب شيء قط إلا الهلاك والفناء، ولذلك نادى الويل.

٣. ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي وَكانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولاً﴾ تعليل للتمني السابق والمراد بالذكر مطلق ما جاءت به الرسل أو خصوص الكتب السماوية وينطبق بحسب المورد على القرآن.

٤. ﴿وَكانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولاً﴾ من كلامه تعالى ويمكن أن يكون تتمة لكلام الظالم ذكره تأسفا وتحسرا، والخذلان بضم الخاء ترك من يظن به أن ينصر نصرته، وخذلانه أنه يعد الإنسان أن ينصره على كل مكروه إن تمسك بالأسباب ونسي ربه فلما تقطعت الأسباب بظهور القهر الإلهي يوم الموت جزئيا ويوم القيامة كليا خذله وسلمه إلى الشقاء، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ [الحشر: ١٦] وقال فيما يحكي عن الشيطان يوم القيامة: ﴿ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢]

٥. وفي هذه الآيات الثلاث إشعار بل دلالة على أن السبب العمدة في ضلال أهل الضلال ولاية أهل الأهواء وأولياء الشيطان، والمشاهدة يؤيد ذلك.

٦. أحاديث وآثار: أخرج أبو نعيم من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: كان عقبة بن أبي معيط لا يقدم من سفر، إلا صنع طعاما فدعا إليه أهل مكة كلهم، وكان يكثر مجالسة النبي ﷺ ويعجبه حديثه، وغلب عليه الشقاء، فقدم ذات يوم من سفر فصنع طعاما، ثم دعا رسول الله عليه السلام إلى طعامه فقال: ما أنا بالذي آكل من طعامك، حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فقال: أطعم يا ابن أخي، قال: ما أنا بالذي أفعل حتى تقول، فشهد بذلك وطعم من طعامه، فبلغ ذلك أبي بن خلف فأتاه فقال، أصبوت يا عقبة؟، وكان خليله، فقال: لا والله ما صبوت ولكن دخل علي رجل، فأبى أن يطعم من طعامي إلا أن أشهد له، فاستحييت أن يخرج من بيتي قبل أن يطعم، فشهدت له فطعم، فقال: ما أنا بالذي أرضى عنك، حتى تأتيه فتبزق في وجهه ففعل عقبة، فقال له رسول الله ﷺ: لا ألقاك خارجا من مكة، إلا علوت رأسك بالسيف، فأسر عقبة يوم بدر فقتل صبرا، ولم يقتل من الأسارى يومئذ غيره.

• أقول: وقد ورد في غير واحد من الروايات في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾، أن السبيل هو علي عليه السلام وهو من بطن القرآن أو من قبيل الجري وليس من التفسير في شيء.

١٥. شكوى الرسول من هجر القرآن:

المقطع [١٥] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٠٥»:

١. ﴿وَقالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾:

أ. المراد بالرسول محمد ﷺ بقرينة ذكر القرآن، وعبر عنه بالرسول تسجيلا لرسالته وإرغاما لأولئك القادحين في رسالته وكتابه والهجر بالفتح فالسكون الترك.

ب. وظاهر السياق أن قوله: ﴿وَقالَ الرَّسُولُ﴾ معطوف على ﴿يَعَضُّ الظَّالِمُ﴾ والقول مما يقوله الرسول يوم القيامة لربه على طريق البث والشكوى وعلى هذا فالتعبير بالماضي بعناية تحقق الوقوع والمراد بالقوم عامة العرب بل عامة الأمة باعتبار كفرتهم وعصاتهم.

ج. وأما كونه استئنافا أو عطفا على قوله: ﴿وَقالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا﴾ وكون ما وقع بينهما اعتراضا فبعيد من السياق وعليه فلفظة قال على ظاهر معناها والمراد بالقوم هم القادحون في رسالته الطاعنون في كتابه.

د. ونظيره في الضعف قول بعضهم: إن المهجور من الهجر بمعنى: الهذيان، وهو ظاهر.

١٦. جعل الله لكل نبي عدواً وكفايته بالهداية والنصر:

المقطع [١٦] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٠٥»:

١. ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفى بِرَبِّكَ هادِياً وَنَصِيراً﴾:

أ. أي كما جعلنا هؤلاء المجرمين عدوا لك كذلك جعلنا لكل نبي عدوا منهم أي هذه من سنتنا الجارية في الأنبياء وأممهم فلا يسوأنك ما تلقى من عداوتهم ولا يشقن عليك ذلك، ففيه تسلية للنبي ﷺ.

ب. ومعنى: جعل العدو من المجرمين أن الله جازاهم على معاصيهم بالختم على قلوبهم فعاندوا الحق وأبغضوا الداعي إليه وهو النبي فلعداوتهم نسبة إليه تعالى بالمجازاة.

٢. ﴿وَكَفى بِرَبِّكَ هادِياً وَنَصِيراً﴾:

أ. معناه، على ما يعطيه السياق، لا يهولنك أمر عنادهم وعداوتهم ولا تخافنهم على اهتداء الناس ونفوذ دينك فيهم وبينهم فحسبك ربك كفى به هاديا يهدي من استحق من الناس الهداية واستعد له وإن كفر هؤلاء وعتوا فليس اهتداء الناس منوطا باهتدائهم وكفى به نصيرا ينصرك وينصر دينك الذي بعثك به وإن هجره هؤلاء ولم ينصروك ولا دينك فالجملة مسوقة لإظهار الاستغناء عنهم.

ب. فظهر أن صدر الآية مسوق لتسلي النبي ﷺ وذيله للاستغناء عن المجرمين من قومه، وفي قوله: ﴿وَكَفى بِرَبِّكَ﴾ حيث أخذ بصفة الربوبية: مضافة إلى ضمير الخطاب ولم يقل: وكفى بالله تأييد له.

١٧. تنزيل القرآن مفرّقاً لتثبيت الفؤاد وترتيله:

المقطع [١٧] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٠٨»:

١. ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لولا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً﴾ المراد بهم مشركو العرب الرادون لدعوة القرآن كما في قدحهم السابق المحكي بقوله: ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذا إِلَّا إِفْكٌ افْتَراهُ﴾

٢. ﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً﴾:

أ. قد تقدم أن الإنزال والتنزيل إنما يفترقان في أن الإنزال يفيد الدفعة والتنزيل يفيد التدريج لكن ذكر بعضهم أن التنزيل في هذه الآية منسلخ عن معنى التدريج لأدائه إلى التدافع إذ يكون المعنى على تقدير إرادة التدريج: لولا فرق القرآن جملة واحدة والتفريق ينافي الجملية بل المعنى هلا أنزل القرآن عليه دفعة غير مفرق كما أنزل التوراة والإنجيل والزبور.

ب. لكن ينبغي أن يعلم أن نزول التوراة مثلا كما هو الظاهر المستفاد من القرآن كانت دفعة في كتاب مكتوب في ألواح والقرآن إنما كان ينزل عليه ﷺ بالتلقي من عند الله بتوسط الروح الأمين كما يتلقى السامع الكلام من المتكلم، والدفعة في إيتاء كتاب مكتوب وتلقيه تستلزم المعية بين أوله وآخره لكنه إذا كان بقراءة وسماع لم يناف التدريج بين أجزائه وأبعاضه بل من الضروري أن يؤتاه القارئ ويتلقاه السامع آخذا من أوله إلى آخره شيئا فشيئا.

ج. وهؤلاء إنما كانوا يقترحون نزول القرآن جملة واحدة على ما كانوا يشاهدون أو يسمعون من كيفية نزول الوحي على النبي ﷺ وهو تلقي الآيات بألفاظها من لسان ملك الوحي فكان اقتراحهم أن الذي يتلوه ملك الوحي على النبي ﷺ سورة بعد سورة وآية بعد آية ويتلقاه هو كذلك فليقرأ جميع ذلك مرة واحدة وليتلقه هو مرة واحدة ولو دامت القراءة والتلقي مدة من الزمان، وهذا المعنى أوفق بالتنزيل الدال على التدريج.

د. وأما كون مرادهم من اقتراح نزوله جملة واحدة أن ينزل كتابا مكتوبا دفعة كما نزلت التوراة وكذا الإنجيل والزبور على ما هو المعروف عندهم فلا دلالة في الكلام المنقول عنهم على ذلك، على أنهم ما كانوا مؤمنين بهذه الكتب السماوية حتى يسلموا نزولها دفعة.

هـ. وكيف كان فقولهم: ﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً﴾ اعتراض منهم على القرآن من جهة نحو نزوله، يريدون به أنه ليس بكتاب سماوي نازل من عند الله سبحانه إذ لو كان كتابا سماويا متضمنا لدين سماوي يريده الله من الناس وقد بعث رسولا يبلغه الناس لكان الدين المضمن فيه المراد من الناس

دينا تامة أجزاؤه معلومة أصوله وفروعه مجموعة فرائضه وسننه وكان الكتاب المشتمل عليه منظمة أجزاؤه، مركبة بعضه على بعض.

و. وليس كذلك بل هو أقوال متفرقة يأتي بها في وقائع مختلفة وحوادث متشتتة ربما وقع واقع فأتى عند ذلك بشيء من الكلام مرتبط به يسمى جملها المنضودة آيات إلهية ينسبها إلى الله ويدعي أنها قرآن منزل إليه من عند الله سبحانه وليس إلا أنه يتعمل حينا بعد حين عند وقوع وقائع فيختلق قولا يفتريه على الله، وليس إلا رجلا صابئا ضل عن السبيل، هذا تقرير اعتراضهم على ما يستفاد من مجموع الاعتراض والجواب.

٣. ﴿كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتَّلْناهُ تَرْتِيلاً وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْناكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾:

أ. الثبات ضد الزوال، والإثبات والتثبيت بمعنى واحد والفرق بينهما بالدفعة والتدريج، والفؤاد القلب والمراد به كما مر غير مرة الأمر المدرك من الإنسان وهو نفسه، والترتيل، كما قالوا، الترسيل والإتيان بالشيء عقيب الشيء، والتفسير، كما قال الراغب، المبالغة في إظهار المعنى المعقول كما أن الفسر بالفتح فالسكون إظهار المعنى المعقول.

ب. وظاهر السياق أن قوله: ﴿كَذلِكَ﴾ متعلق بفعل مقدر يعلله قوله: ﴿لِنُثَبِّتَ﴾ ويعطف عليه قوله: ﴿وَرَتَّلْناهُ﴾ والتقدير نزلناه أي القرآن كذلك أي نجوما متفرقة لا جملة واحدة لنثبت به فؤادك، وقول بعضهم: إن ﴿كَذلِكَ﴾ من تمام قول الذين كفروا سخيف جدا.

ج. فقوله: ﴿كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ﴾ بيان تام لسبب تنزيل القرآن نجوما متفرقة وبيان ذلك أن تعليم علم من العلوم وخاصة ما كان منها مرتبطا بالعمل بإلقاء المعلم مسائله واحدة بعد واحدة إلى المتعلم حتى تتم فصوله وأبوابه إنما يفيد حصولا ما لصور مسائله عند المتعلم وكونها مذخورة بوجه ما عنده يراجعها عند مسيس الحاجة إليها، وأما استقرارها في النفس بحيث تنمو النفس عليها وتترتب عليها آثارها المطلوبة منها فيحتاج إلى مسيس الحاجة والإشراف على العمل وحضور وقته.

د. ففرق بين بين أن يلقي الطبيب المعلم مثلا مسألة طبية إلى متعلم الطب إلقاء فحسب وبين أن يلقيها إليه وعنده مريض مبتلى بما يبحث عنه من الداء وهو يعالجه فيطابق بين ما يقول وما يفعل.

هـ. ومن هنا يظهر أن إلقاء أي نظرة علمية عند مسيس الحاجة وحضور وقت العمل إلى من يراد

تعليمه وتربيته أثبت في النفس وأوقع في القلب وأشد استقرارا وأكمل رسوخا في الذهن وخاصة في المعارف التي تهدي إليها الفطرة فإن الفطرة إنما تستعد للقبول وتتهيأ للإذعان إذا أحست بالحاجة.

و. ثم إن المعارف التي تتضمنها الدعوة الإسلامية الناطق بها القرآن إنما هي شرائع وأحكام عملية وقوانين فردية واجتماعية تسعد الحياة الإنسانية مبنية على الأخلاق الفاضلة المرتبطة بالمعارف الكلية الإلهية التي تنتهي بالتحليل إلى التوحيد كما أن التوحيد ينتهي بالتركيب إليها ثم إلى الأخلاق والأحكام العملية.

ز. فأحسن التعليم وأكمل التربية أن تلقى هذه المعارف العالية بالتدريج موزعة على الحوادث الواقعة المتضمنة لمساس أنواع الحاجات مبينة لما يرتبط بها من الاعتقاد الحق والخلق الفاضل والحكم العملي المشروع مع ما يتعلق بها من أسباب الاعتبار والاتعاظ بين قصص الماضين وعاقبة أمر المسرفين وعتو الطاغين والمستكبرين.

ح. وهذه سبيل البيانات القرآنية المودعة في آياته النازلة كما قال تعالى: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلاً﴾ إسراء: ١٠٦ وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ﴾ والله أعلم.

ط. نعم يبقى عليه شيء وهو أن تفرق أجزاء التعليم وإلقاءها إلى المتعلم على التمهل والتؤدة يفسد غرض التعليم لانقطاع أثر السابق إلى أن يلحق به اللاحق وسقوط الهمة والعزيمة عن ضبط المطالب ففي اتصال أجزاء العلم الواحد بعضها ببعض إمدادا للذهن وتهيئة للفهم على التفقه والضبط لا يحصل بدونه البتة.

ي. وقد أجاب تعالى عنه بقوله: ﴿وَرَتَّلْناهُ تَرْتِيلاً﴾ فمعناه على ما يعطيه السياق أن هذه التعليمات على نزولها نجوما متفرقة عقبنا بعضها ببعض ونزلنا بعضها إثر بعض بحيث لا تبطل الروابط ولا تنقطع آثار الأبعاض فلا يفسد بذلك غرض التعليم بل هي سور وآيات نازلة بعضها إثر بعض مترتبة مرتلة.

ك. على أن هناك أمرا آخر وهو أن القرآن كتاب بيان واحتجاج يحتج على المؤالف والمخالف فيما أشكل عليهم أو استشكلوه على الحق والحقيقة بالتشكيك والاعتراض، ويبين لهم ما التبس عليهم أمره من المعارف والحكم الواقعة في الملل والأديان السابقة وما فسرها به علماؤهم بتحريف الكلم عن مواضعه كما يظهر بقياس ما كان يعتقده الوثنيون في الله تعالى والملائكة والجن وقديسي البشر وما وقع في العهدين

من أخبار الأنبياء وما بثوه من معارف المبدإ والمعاد، إلى ما بينه القرآن في ذلك.

ل. وهذا النوع من الاحتجاج والبيان لا يستوفي حقه إلا بالتنزيل التدريجي على حسب ما كان يبدو من شبههم ويرد على النبي ﷺ من مسائلهم تدريجا، ويورد على المؤمنين أو على قومهم من تسويلاتهم شيئا بعد شيء وحينا بعد حين.

م. وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْناكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ والمثل الوصف، أي لا يأتونك بوصف فيك أو في غيرك حادوا به عن الحق أو أساءوا تفسيره إلا جئناك بما هو الحق فيه أو ما هو أحسن الوجوه في تفسيره فإن ما أتوا به إما باطل محض فالحق يدفعه أو حق محرف عن موضعه فالتفسير الأحسن يرده إلى مستواه ويقومه.

٤. فتبين بما تقدم:

أ. أن قوله: ﴿كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ جواب عن قولهم: ﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً﴾ بوجهين:

- أحدهما: بيان السبب الراجع إلى النبي ﷺ وهو تثبيت فؤاده بالتنزيل التدريجي.
- وثانيهما: بيان السبب الراجع إلى الناس وهو بيان الحق فيما يوردون على النبي ﷺ من المثل والوصف الباطل، والتفسير بأحسن الوجوه فيما يوردون عليه من الحق المغير عن وجهه المحرف عن موضعه.
- ويلحق بهذا الجواب قوله تلوا: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلى وُجُوهِهِمْ إِلى جَهَنَّمَ أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ فهو كالمتمم للجواب على ما سيجيء بيانه.

ب. وتبين أيضا أن الآيات الثلاث مسوقة جميعا لغرض واحد وهو الجواب عما أوردوه من القدح في القرآن هذا، والمفسرون فرقوا بين مضامين الآيات الثلاث فجعلوا قوله: ﴿كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ﴾ جوابا عن قولهم: ﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً﴾، وقوله: ﴿وَرَتَّلْناهُ تَرْتِيلاً﴾ خبرا عن ترسيله في النزول أو في القراءة على النبي ﷺ من غير ارتباط بما تقدمه.

٥. وجعلوا قوله: ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾، كالبيان لقوله: ﴿كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ﴾ وإيضاحا لكيفية تثبيت فؤاده ﷺ، وجعله بعضهم ناظرا إلى خصوص المثل الذي ضربوه للنبي ﷺ، وأن الله بين الحق

فيه وجاء بأحسن التفسير وقيل غير ذلك، وجعلوا قوله: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ﴾ الآية أجنبيا عن غرض الآيتين السابقتين بالكلية، والتأمل فيما قدمناه في توجيه مضمون الآيتين الأوليين وما سيأتي من معنى الآية الثالثة يوضح فساد جميع ذلك، ويظهر أن الآيات الثلاث جميعا ذات غرض واحد وهو الجواب عما أوردوه من الطعن في القرآن من جهة نزوله التدريجي.

٦. وذكروا أيضا أن الجواب عن قدحهم واقتراحهم بقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ جواب بذكر بعض ما لتفريق النزول من الفوائد وأن هناك فوائد أخرى غير ما ذكره الله تعالى، وقد أوردوا فوائد أخرى أضافوها إلى ما وقع في الآية:

أ. منها: أن الكتب السماوية السابقة على القرآن إنما أنزلت جملة واحدة لأنها أنزلت على أنبياء يكتبون ويقرءون فنزلت عليهم جملة واحدة مكتوبة والقرآن إنما نزل على نبي أمي لا يكتب ولا يقرأ ولذلك نزل متفرقا.

ب. ومنها أن الكتب المتقدمة لم يكن شاهد صحتها ودليل كونها من عند الله تعالى إعجازها، وأما القرآن فبينة صحته وآية كونه من عند الله تعالى نظمه المعجز الباقي على مر الدهور المتحقق في كل جزء من أجزائه المقدر بمقدار أقصر السور حسبما وقع به التحدي، ولا ريب أن مدار الإعجاز هو المطابقة لما تقتضيه الأحوال، ومن ضرورة تجددها تجدد ما يطابقها.

ج. ومنها: أن في القرآن ناسخا ومنسوخا ولا يتيسر الجمع بينهما لمكان المضادة والمنافاة، وفيه ما هو جواب لمسائل سألوا النبي ﷺ عنها وفيه ما هو إنكار لبعض ما كان، وفيه ما هو حكاية لبعض ما جرى، وفيه ما فيه إخبار عما سيأتي في زمن النبي ﷺ كالإخبار عن فتح مكة ودخول المسجد الحرام، والإخبار عن غلبة الروم على الفرس إلى غير ذلك من الفوائد فاقتضت الحكمة تنزيله متفرقا.

٧. وهذه وجوه ضعيفة لا تقتضي امتناع النزول جملة واحدة:

أ. أما الوجه الأول فكون النبي ﷺ أميا لا يقرأ ولا يكتب لا يمنع النزول جملة واحدة، وقد كان معه من يكتبه ويحفظه، على أن الله سبحانه وعده أن يعصمه من النسيان ويحفظ الذكر النازل عليه كما قال: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ [الأعلى: ٦]، وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقال: ﴿إِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقدرته تعالى على حفظ

كتابه مع نزوله دفعة أو تدريجا سواء.

ب. وأما الوجه الثاني: فكما أن الكلام المفرق يقارنه أحوال تقتضي في نظمه أمورا إن اشتمل عليها الكلام كان بليغا وإلا فلا، كذلك الكلام الجملي وإن كان كتابا يقارنه بحسب فصوله وأجزائه أحوال لها اقتضاءات إن طابقها كان بليغا وإلا فلا فالبلاغة غير موقوفة على غير الكتاب النازل دفعة والكلام المجموع جملة واحدة.

ج. وأما الوجه الثالث فالنسخ ليس إبطالا للحكم السابق وإنما هو بيان انتهاء أمده فمن الممكن الجمع بين الحكمين والمنسوخ والناسخ بالإشارة إلى أن الحكم الأول محدود موقت إن اقتضت المصلحة ذلك، ومن الممكن أيضا أن يقدم بيان المسائل التي سيسألون عنها حتى لا يحتاجوا فيها إلى سؤال ولو سألوا عن شيء منها أرجعوا إلى سابق البيان، وكذا من الممكن أن يقدم ذكر ما هو إنكار لما كان أو حكاية لما جرى أو إخبار عن بعض المغيبات فشيء من ذلك لا يمتنع تقديمه كما هو ظاهر، على أن تفريق النزول لبعض هذه الحكم والمصالح من تثبيت الفؤاد فليست هذه الوجوه المذكورة وجوها على حدتها.

د. فالحق أن البيان الواقع في الآية بيان تام جامع لا حاجة معه إلى شيء من هذه الوجوه البتة.

١٨. ردّ الله لكل مثل بالحق والأحسن تفسيراً:

المقطع [١٨] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢١٥»:

١. ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْناكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ والمثل الوصف، أي لا يأتونك بوصف فيك أو في غيرك حادوا به عن الحق أو أساءوا تفسيره إلا جئناك بما هو الحق فيه أو ما هو أحسن الوجوه في تفسيره فإن ما أتوا به إما باطل محض فالحق يدفعه أو حق محرف عن موضعه فالتفسير الأحسن يرده إلى مستواه ويقومه.

٢. تفسير هذا المقطع مرتبط كثيرا بالمقطع السابق.

١٩. سوء منقلب من يُحشرون على وجوههم إلى جهنم:

المقطع [١٩] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢١٥»:

١. ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلى وُجُوهِهِمْ إِلى جَهَنَّمَ أُوْلئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾:

أ. اتصال الآية بما قبلها من الآيات على ما لها من السياق يعطي أن هؤلاء القادحين في القرآن استنتجوا من قدحهم ما لا يليق بمقام النبي ﷺ فذكروه واصفين له بسوء المكانة وضلال السبيل فلم يذكره الله تعالى في ضمن ما حكى من قولهم في القرآن صونا لمقام النبوة أن يذكر بسوء، وإنما أشار إلى ذلك في ما أورد في هذه الآية من الرد عليهم بطريق التكنية.

ب. فقوله: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلى وُجُوهِهِمْ إِلى جَهَنَّمَ﴾ كناية عن الذين كفروا القادحين في القرآن الواصفين للنبي ﷺ بما وصفوا، والكناية أبلغ من التصريح.

ج. فالمراد أن هؤلاء القادحين في القرآن الواصفين لك هم شر مكانا وأضل سبيلا لا أنت فالكلام مبني على قصر القلب، ولفظتا ﴿شَرٌّ﴾ و﴿أَضَلُّ﴾ منسلختان عن معنى التفضيل أو مفيدتان على التهكم ونحوه.

د. وقد كنى عنهم بالمحشورين على وجوههم إلى جهنم وهو وصف من أضله الله من المتعنتين المنكرين للمعاد كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً ذلِكَ جَزاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآياتِنا﴾ الخ: [الإسراء: ٩٨]

هـ. ففي هذه التكنية مضافا إلى كونها أبلغ، تهديد لهم بشر المكان وأليم العذاب وأيضا هي في معنى الاحتجاج على ضلالهم إذ لا ضلال أضل من أن يسير الإنسان على وجهه وهو لا يشعر بما في قدامه، وهذا الضلال الذي في حشرهم على وجوههم إلى جهنم ممثل للضلال الذي كان لهم في الدنيا فكأنه قيل: إن هؤلاء هم الضالون فإنهم محشورون على وجوههم، ولا يبتلي بذلك إلا من كان ضالا في الدنيا.

٢. وقد اختلفت كلماتهم في وجه اتصال الآية بما قبلها فسكت عنه بعضهم، وذكر في مجمع البيان، أنهم قالوا لمحمد ﷺ والمؤمنين: إنهم شر خلق الله فقال الله تعالى: ﴿أُوْلئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ وذكر بعضهم أنها متصلة بقوله قبل آيات: ﴿أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ وقد عرفت ما يلوح من السياق.

٣. وقد اختلفوا أيضا في المراد بحشرهم على وجوههم:

أ. فقيل: وهو على ظاهره وهو الانتقال مكبوبا، وقيل: هو السحب.

ب. وقيل: هو الانتقال من مكان إلى مكان منكوسا وهو خلاف المشي على الاستقامة وفيه أن الأولى حينئذ التعبير بالحشر على الرءوس لا على الوجوه، وقد قال تعالى في موضع آخر وهو كتوصيف ما يجري بعد هذا الحشر: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨]

ج. وقيل: المراد به فرط الذلة والهوان والخزي مجازا، وفيه أن المجاز إنما يصار إليه إذا لم يمكن حمل اللفظ على الحقيقة.

د. وقيل: هو من قول العرب: مر فلان على وجهه إذا لم يدر أين ذهب؟ وفيه أن مرجعه إلى الجهل بالمكان المحشور إليه ولا يناسب ذلك تقييد الحشر في الآية بقوله: ﴿إِلَى جَهَنَّمَ﴾

هـ. وقيل: الكلام كناية أو استعارة تمثيلية، والمراد أنهم يحشرون وقلوبهم متعلقة بالسفليات من الدنيا وزخارفها متوجهة وجوههم إليها، وأورد عليه أنهم هناك في شغل شاغل عن التوجه إلى الدنيا وتعلق القلوب بها، ولعل المراد به بقاء آثار ذلك فيهم وعليهم، وفيه أن مقتضى آيات تجسم الأعمال كون العذاب ممثلا للتعلق بالدنيا والتوجه نحوها فهم في الحقيقة لا شغل لهم يومئذ إلا ذلك.

٢٠. إرسال موسى وهارون وتدمير المكذّبين:

المقطع [٢٠] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٥-٣٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢١٦»:

١. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَجَعَلْنا مَعَهُ أَخاهُ هارُونَ وَزِيراً﴾ استشهاد على رسالة النبي ﷺ ونزول الكتاب عليه قبال تكذيب الكفار به وبكتابه برسالة موسى وإيتائه الكتاب وإشراك هارون في أمره للتخلص إلى ذكر تعذيب آل فرعون وإهلاكهم، ومعنى الآية ظاهر.

٢. ﴿فَقُلْنَا اذْهَبا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَدَمَّرْناهُمْ تَدْمِيراً﴾:

أ. قال في مجمع البيان: (التدمير الإهلاك لأمر عجيب، ومنه التنكيل يقال: دمر على فلان إذا هجم عليه بالمكروه)

ب. والمراد بالآيات آيات الآفاق والأنفس الدالة على التوحيد التي كذبوا بها، وذكر أبو السعود

في تفسيره أن الآيات هي المعجزات التسع المفصلات الظاهرة على يدي موسى عليه السلام ولم يوصف القوم لهما عند إرسالهما إليهم بهذا الوصف ضرورة تأخر تكذيب الآيات عن إظهارها المتأخر عن ذهابهما المتأخر عن الأمر به بل إنما وصفوا بذلك عند الحكاية لرسول الله ﷺ بيانا لعلة استحقاقهم لما يحكى بعده من التدمير أي فذهبا إليهم فأرياهم آياتنا كلها فكذبوها تكذيبا مستمرا فدمرناهم) انتهى، وهو حسن لو تعين حمل الآيات على آيات موسى عليه السلام.

ج. ووجه اتصال الآيتين بما قبلهما هو تهديد القادحين في كتاب النبي ﷺ ورسالته بتنظير الأمر بأمر موسى حيث آتاه الله الكتاب وأرسله مع أخيه إلى قوم فرعون فكذبوه فدمرهم تدميرا، ولهذه النكتة قدم ذكر إيتاء الكتاب على إرسالهما إلى القوم وتدميرهم مع أن التوراة إنما نزلت بعد غرق فرعون وجنوده فلم يكن الغرض من القصة إلا الإشارة إلى إيتاء الكتاب والرسالة لموسى وتدمير القوم بالتكذيب.

د. وقيل: الآيتان متصلتان بقوله تعالى قبل: ﴿وَكَفى بِرَبِّكَ هادِياً وَنَصِيراً﴾ وهو بعيد.

٢١. إغراق قوم نوح وجعلهم آية للمتقين:

المقطع [٢١] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفرقان: ٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢١٧»:

١. ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْناهُمْ وَجَعَلْناهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ عَذاباً أَلِيماً﴾:

أ. الظاهر أن قوله: ﴿قَوْمَ نُوحٍ﴾ منصوب بفعل مقدر يدل عليه قوله: ﴿أَغْرَقْناهُمْ﴾

ب. والمراد بتكذيبهم الرسل تكذيبهم نوحا فإن تكذيب الواحد من رسل الله تكذيب للجميع لاتفاقهم على كلمة الحق، على أن هؤلاء الأمم كانوا أقواما وثنيين وهم ينكرون النبوة ويكذبون الرسالة من رأس.

٢. ﴿وَجَعَلْناهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ أي لمن بقي بعدهم من ذراريهم، والباقي ظاهر.

٢٢. تدمير عاد وثمود وأصحاب الرسّ والقرون:

المقطع [٢٢] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨-٣٩]، وفيه المسائل التالية

«الميزان: ١٥/ ٢١٨»:

١. ﴿وَعاداً وَثَمُودَ وَأَصْحابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذلِكَ كَثِيراً﴾:

أ. قال في مجمع البيان: (الرس البئر التي لم تطو ذكروا أنهم كانوا قوما بعد ثمود نازلين على بئر أرسل الله إليهم رسولا فكذبوا به فأهلكهم الله، وقيل هو اسم نهر كانوا على شاطئه وفي روايات الشيعة ما يؤيد ذلك.

ب. ﴿وَعاداً﴾ معطوف على ﴿قَوْمَ نُوحٍ﴾ والتقدير: ودمرنا أو وأهلكنا عادا وثمود وأصحاب الرس (إلخ)

ج. ﴿وَقُرُوناً بَيْنَ ذلِكَ كَثِيراً﴾ القرن أهل عصر واحد وربما يطلق على نفس العصر والإشارة بذلك إلى من مر ذكرهم من الأقوام أولهم قوم نوح وآخرهم أصحاب الرس أو قوم فرعون، والمعنى ودمرنا أو وأهلكنا عادا وهم قوم هود، وثمود وهم قوم صالح، وأصحاب الرس، وقرونا كثيرا متخللين بين هؤلاء الذين ذكرناهم وهم قوم نوح فمن بعدهم.

٢. ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ وَكُلًّا تَبَّرْنا تَتْبِيراً﴾ كلا منصوب بفعل يدل عليه قوله: ﴿ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ﴾ فإن ضرب الأمثال في معنى التذكير والموعظة والإنذار، والتتبير التفتيت، ومعنى الآية.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في العيون، بإسناده عن أبي الصلت الهروي عن الرضا عن أمير المؤمنين عليه السلام: حديث طويل يذكر فيه قصة أصحاب الرس، ملخصه، أنهم كانوا قوما يعبدون شجرة صنوبرة، يقال لها شاه درخت، كان يافث بن نوح غرسها بعد الطوفان، على شفير عين يقال لها: روشن آب، وكان لهم اثنتا عشرة قرية معمورة على شاطئ نهر، يقال له الرس يسمين بأسماء: آبان، آذر، دي، بهمن، إسفندار، فروردين، أرديبهشت خرداد، مرداد، تير، مهر، شهريور، ومنها اشتق العجم أسماء شهورهم، وقد غرسوا في كل قرية منها من طلع تلك الصنوبرة حبة، أجروا عليها نهرا من العين التي عند الصنوبرة، وحرموا شرب مائها على أنفسهم وأنعامهم، ومن شرب منه قتلوه ويقولون: إنه حياة الآلهة فلا ينبغي لأحد أن ينقص حياتها، وقد جعلوا في كل شهر من السنة يوما في كل قرية عيدا، يخرجون فيه إلى الصنوبرة التي خارج القرية، يقربون إليها القرابين ويذبحون الذبائح، ثم يحرقونها في نار أضرموها فيسجدون للشجرة، عند

ارتفاع دخانها وسطوعه في السماء، ويبكون ويتضرعون والشيطان يكلمهم من الشجرة، وهذا دأبهم في القرى، حتى إذا كان يوم عيد قريتهم العظمى، التي كان يسكنها ملكهم واسمها إسفندار، اجتمع إليها أهل القرى جميعا وعيدوا اثني عشر يوما، وجاءوا بأكثر ما يستطيعونه، من القرابين والعبادات للشجرة وكلمهم إبليس، وهو يعدهم ويمنيهم أكثر مما كان من الشياطين، في سائر الأعياد من سائر الشجر، ولما طال منهم الكفر بالله وعبادة الشجرة، بعث الله إليهم رسولا من بني إسرائيل من ولد يهودا، فدعاهم إلى عبادة الله وترك الشرك برهة فلم يؤمنوا، فدعا على الشجرة فيبست فلما رأوا ذلك ساءهم، فقال بعضهم: إن هذا الرجل سحر آلهتنا، وقال آخرون: إن آلهتنا غضبت علينا بذلك، لما رأت هذا الرجل يدعونا إلى الكفر بها فتركناه وشأنه من غير أن نغضب عليه لآلهتنا، فاجتمعت آراؤهم على قتله فحفروا بئرا عميقا، وألقوه فيها وشدوا رأسها، فلم يزالوا عليها يسمعون أنينه حتى مات، فأتبعهم الله بعذاب شديد أهلكهم عن آخرهم.

ب. وفي نهج البلاغة، قال عليه السلام: أين أصحاب مدائن الرس الذين قتلوا النبيين، وأطفئوا سنن المرسلين وأحيوا سنن الجبارين.

ج. وفي الكافي، بإسناده عن محمد بن أبي حمزة وهشام وحفص عن أبي عبد الله عليه السلام: أنه دخل عليه نسوة فسألته امرأة منهن عن السحق، فقال: حدها حد الزاني، فقالت المرأة: ما ذكره الله عز وجل في القرآن، فقال: بلى، فقالت: وأين هو؟ قال: هن الرس.

د. أخرج ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي والبيهقي وابن عساكر عن جعفر بن محمد بن علي: أن امرأتين سألتاه: هل تجد غشيان المرأة المرأة محرما في كتاب الله؟ قال: نعم هن اللواتي كن على عهد تبع، وهن صواحب الرس، وكل نهر وبئر رس، قال: يقطع لهن جلباب من نار، ودرع من نار، ونطاق من نار، وتاج من نار، وخفان من نار، ومن فوق ذلك ثوب غليظ جاف جاسف منتن من نار، قال جعفر: علموا هذا نساءكم.

• أقول: وروى القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير، عن جميل عن أبي عبد الله عليه السلام ما في معناه.

هـ. وفي تفسير القمي، بإسناده عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيراً﴾ يعني (كسرنا تكسيرا) قال: هي لفظة بالنبطية.

٢٣. الاعتبار بالقرى التي عذبت وإنكار البعث:

المقطع [٢٣] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢١٨»:

١. ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً﴾ هذه القرية هي قرية قوم لوط أمطر الله عليهم حجارة من سجيل وقد مر تفصيل قصصهم في السور السابقة.

٢. ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ استفهام توبيخي فإن القرية كانت على طريق أهل الحجاز إلى الشام.

٣. ﴿بَلْ كانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً﴾ أي لا يخافون معادا أو كانوا آيسين من المعاد، وهذا كقوله تعالى فيما تقدم: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ والمراد به أن المنشأ الأصيل لتكذيبهم بالكتاب والرسالة وعدم اتعاظهم بهذه المواعظ الشافية وعدم اعتبارهم بما يعتبر به المعتبرون أنهم منكرون للمعاد فلا ينجح فيهم دعوة ولا تقع في قلوبهم حكمة ولا موعظة.

٢٤. استهزاء الكفار بالرسول وجزاؤهم:

المقطع [٢٤] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولًا إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤١-٤٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٢٢»:

١. ﴿وَإِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلّا هُزُواً أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً﴾ ضمير الجمع للذين كفروا السابق ذكرهم، والهزؤ الاستهزاء والسخرية فالمصدر بمعنى المفعول، والمعنى: وإذا رآك الذين كفروا لا يتخذونك إلا مهزوا به.

٢. ﴿أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً﴾ بيان لاستهزائهم أي يقولون كذا استهزاء بك.

٣. ﴿إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا لولا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها﴾، ﴿إِنْ﴾ مخففة من الثقيلة، والإضلال كأنه مضمن معنى الصرف ولذا عدي بعن، وجواب لولا محذوف يدل عليه ما تقدمه، والمعنى أنه قرب أن يصرفنا عن آلهتنا مضلا لنا لولا أن صبرنا على آلهتنا أي على عبادتها لصرفنا عنها.

٤. ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ توعد وتهديد منه تعالى لهم وتنبيه أنهم على غفلة مما سيستقبلهم من معاينة العذاب واليقين بالضلال والغي.

٢٥. اتخاذ الهوى إلهاً والضلال:

المقطع [٢٥] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣-٤٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٢٣»:

١. ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَواهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ الهوى ميل النفس إلى الشهوة من غير تعديله بالعقل، والمراد باتخاذ الهوى إلها طاعته واتباعه من دون الله وقد أكثر الله سبحانه في كلامه ذم اتباع الهوى وعد طاعة الشيء عبادة له في قوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ [يس: ٦١]

٢. ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ استفهام إنكاري أي لست أنت وكيلا عليه قائما على نفسه وبأموره حتى تهديه إلى سبيل الرشد فليس في مقدرتك ذلك وقد أضله الله وقطع عنه أسباب الهداية وفي معناه قوله: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، وقوله: ﴿وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]، والآية كالإجمال للتفصيل الذي في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ﴾ [الجاثية: ٢٣]

٣. ويظهر مما تقدم من المعنى أن قوله: ﴿اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَواهُ﴾ على نظمه الطبيعي أي إن ﴿اتَّخَذَ﴾ فعل متعد إلى مفعولين و﴿إِلَهَهُ﴾ مفعوله الأول و﴿هَواهُ﴾ مفعول ثان له فهذا هو الذي يلائم السياق وذلك أن الكلام حول شرك المشركين وعدولهم عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام، وإعراضهم عن طاعة الحق التي هي طاعة الله إلى طاعة الهوى الذي يزين لهم الشرك، وهؤلاء يسلمون أن لهم إلها مطاعا وقد أصابوا في ذلك، لكنهم يرون أن هذا المطاع هو الهوى فيتخذونه مطاعا بدلا من أن يتخذوا الحق مطاعا فقد وضعوا الهوى موضع الحق لا أنهم وضعوا المطاع موضع غيره فافهم.

٤. ومن هنا يظهر ما في قول عدة من المفسرين أن ﴿هَواهُ﴾ مفعول أول لقوله: ﴿اتَّخَذَ﴾ و﴿إِلَهَهُ﴾ مفعول ثان مقدم، وإنما قدم للاعتناء به من حيث إنه الذي يدور عليه أمر التعجيب في قوله: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ

اتَّخَذَ﴾، كما قاله بعضهم، أو إنما قدم للحصر على ما قاله آخرون، ولهم في ذلك مباحثات طويلة أغمضنا عن إيرادها وفيما ذكرناه كفاية إن شاء الله.

٥. ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾:

أ. أم منقطعة، والحسبان بمعنى الظن وضمائر الجمع راجعة إلى الموصول في الآية السابقة باعتبار المعنى، والترديد بين السمع والعقل من جهة أن وسيلة الإنسان إلى سعادة الحياة أحد أمرين إما أن يستقل بالتعقل فيعقل الحق فيتبعه أو يرجع إلى قول من يعقله وينصحه فيتبعه إن لم يستقل بالتعقل فالطريق إلى الرشد سمع أو عقل فالآية في معنى قوله: ﴿وَقالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]

ب. والمعنى: بل أتظن أن أكثرهم لهم استعداد استماع الحق ليتبعه أو استعداد عقل الحق ليتبعه فترجو اهتداءهم فتبالغ في دعوتهم.

٦. ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ﴾ بيان للجملة السابقة فإنه في معنى: أن أكثرهم لا يسمعون ولا يعقلون فتنبه أنهم ليسوا إلا كالأنعام والبهائم في أنها لا تعقل ولا تسمع إلا اللفظ دون المعنى.

٧. ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ أي من الأنعام وذلك أن الأنعام لا تقتحم على ما يضرها وهؤلاء يرجحون ما يضرهم على ما ينفعهم، وأيضا الأنعام إن ضلت عن سبيل الحق فإنها لم تجهز في خلقتها بما يهديها إليه وهؤلاء مجهزون وقد ضلوا.

٨. واستدل بعضهم بالآية على أن الأنعام لا علم لها بربها:

أ. وفيه أن الآية لا تنفي عنها ولا عن الكفار أصل العلم بالله وإنما تنفي عن الكفار اتباع الحق الذي يهدي إليه عقل الإنسان الفطري لاحتجابه باتباع الهوى، وتشبههم في ذلك بالأنعام التي لم تجهز بهذا النوع من الإدراك.

ب. وأما ما أجاب به بعضهم أن الكلام خارج مخرج الظاهر فقول لا سبيل إلى إثباته بالاستدلال.

٢٦. آية الظل والشمس:

المقطع [٢٦] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٥ـ٤٦]، وفيه

المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٢٦»:

١. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً﴾:

أ. هاتان الآيتان وما بعدهما إلى تمام تسع آيات في معنى التنظير لما تضمنته الآيتان السابقتان بل الآيات الأربع السابقة من أن الله سبحانه جعل رسالة الرسول لهداية الناس إلى سبيل الرشد وإنقاذهم من الضلال فيهتدي بها بعضهم ممن شاء الله وأما غيرهم ممن اتخذ إلهه هواه فصار لا يسمع ولا يعقل فليس في وسع أحد أن يهديهم من بعد الله.

ب. فهي تبين أن ليس هذا ببدع من الله سبحانه ففي عجائب صنعه وبينات آياته نظائر لذلك ففعله متشابه وهو على صراط مستقيم، وذلك كمد الظل وجعل الشمس دليلا عليه تنسخه، وكجعل الليل لباسا والنوم سباتا والنهار نشورا، وكجعل الرياح بشرا وإنزال المطر وإحياء الأرض الميتة وإرواء الأنعام والأناسي به.

ج. ثم ما مثل المؤمن والكافر في اهتداء هذا وضلال ذاك، وهم جميعا عباد الله يعيشون في أرض واحدة، إلا كمثل الماءين العذب الفرات والملح الأجاج مرجهما الله تعالى لكن جعل بينهما برزخا وحجرا محجورا، وكالماء خلق الله سبحانه منه بشرا ثم جعله نسبا وصهرا فاختلف بذلك المواليد وكان ربك قديرا.

د. هذا ما يهدي إليه التدبر في مضامين الآيات وخصوصيات نظمها وبه يظهر وجه اتصالها بما تقدمها، وأما ما ذكروه من أن الآيات مسوقة لبيان بعض أدلة التوحيد إثر بيان جهالة المعرضين عنها وضلالهم فالسياق لا يساعد عليه وسنزيد ذلك إيضاحا.

٢. فقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً﴾ تنظير، كما تقدمت الإشارة إليه، لشمول الجهل والضلال للناس ورفعه تعالى ذلك بالرسالة والدعوة الحقة كما يشاء ولازم ذلك أن يكون المراد بمد الظل ما يعرض الظل الحادث بعد الزوال من التمدد شيئا فشيئا من المغرب إلى المشرق حسب اقتراب الشمس من الأفق حتى إذا غربت كانت فيه نهاية الامتداد وهو الليل، وهو في جميع أحواله متحرك ولو شاء الله لجعله ساكنا.

٣. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ والدليل هي الشمس من حيث دلالتها بنورها على أن هناك

ظلا وبانبساطه شيئا فشيئا على تمدد الظل شيئا فشيئا ولولاها لم يتنبه لوجود الظل فإن السبب العام لتمييز الإنسان بعض المعاني من بعض تحول الأحوال المختلفة عليه من فقدان ووجدان فإذا فقد شيئا كان يجده تنبه لوجوده وإذا وجد ما كان يفقده تنبه لعدمه، وأما الأمر الثابت الذي لا تتحول عليه الحال فليس إلى تصوره بالتنبه سبيل.

٤. ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً﴾ أي أزلنا الظل بإشراق الشمس وارتفاعها شيئا فشيئا حتى ينسخ بالكلية، وفي التعبير عن الإزالة والنسخ بالقبض، وكونه إليه، وتوصيفه باليسير دلالة على كمال القدرة الإلهية وأنها لا يشق عليها فعل، وأن فقدان الأشياء بعد وجودها ليس بالانعدام والبطلان بل بالرجوع إليه تعالى.

٥. وما تقدم من تفسير مد الظل بتمديد الفيء بعد زوال الشمس وإن كان معنى لم يذكره المفسرون لكن السياق، على ما أشرنا إليه، لا يلائم غيره مما ذكره المفسرون كقول بعضهم: إن المراد بالظل الممدود ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وقول بعض: ما بين غروب الشمس وطلوعها، وقول بعض: ما يحدث من مقابلة كثيف كجبل أو بناء أو شجر للشمس بعد طلوعها، وقول بعض، وهو أسخف الأقوال، هو ما كان يوم خلق الله السماء وجعلها كالقبة ثم دحا الأرض من تحتها فألقت ظلها عليها.

٦. وفي الآية أعني قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾، التفات من سياق التكلم بالغير في الآيات السابقة إلى الغيبة، والنكتة فيه أن المراد بالآية وما يتلوها من الآيات بيان أن أمر الهداية إلى الله سبحانه وليس للنبي ﷺ من الأمر شيء وهو تعالى لا يريد هدايتهم وأن الرسالة والدعوة الحقة في مقابلتها للضلال المنبسط على أهل الضلال ونسخها ما تنسخ منه من شعب السنة العامة الإلهية في بسط الرحمة على خلقه نظير اطلاع الشمس على الأرض ونسخ الظل الممدود فيها بها، ومن المعلوم أن الخطاب المتضمن لهذه الحقيقة مما ينبغي أن يختص به ﷺ وخاصة من جهة سلب القدرة على الهداية عنه، وأما الكفار المتخذون إلههم هواهم وهم لا يسمعون ولا يعقلون فلا نصيب لهم فيه.

٧. وفي قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا﴾ رجوع إلى السياق السابق، وفي ذلك مع ذلك من إظهار العظمة والدلالة على الكبرياء ما لا يخفى.

٢٧. جعل الليل لباساً والنوم سباتاً والنهار نشوراً:

المقطع [٢٧] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٧-٤٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٢٧»:

١. الكلام في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾ وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً﴾ كالكلام في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾، والكلام في قوله: ﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا﴾، كالكلام في قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ﴾

٢. ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً وَالنَّوْمَ سُباتاً وَجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً﴾ كون الليل لباسا إنما هو سترة الإنسان بغشيان الظلمة كما يستر اللباس لابسه.

٣. ﴿وَالنَّوْمَ سُباتاً﴾ أي قطعا للعمل، وقوله: ﴿وَجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً﴾ أي جعل فيه الانتشار وطلب الرزق على ما ذكره الراغب في معنى اللفظتين، وحال ستره تعالى الناس بلباس الليل وقطعهم به عن العمل والحركة ثم نشرهم للعمل والسعي بإظهار النهار وبسط النور كحال مد الظل ثم جعل الشمس عليه دليلا وقبض الظل بها إليه.

٤. ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً﴾ البشر بالضم فالسكون مخفف بشر بضمتين جمع بشور بمعنى مبشر أي هو الذي أرسل الرياح مبشرات بين يدي رحمته وهي المطر.

٥. ﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً﴾ أي من جهة العلو وهي جو الأرض ماء طهورا أي بالغا في طهارته فهو طاهر في نفسه مطهر لغيره يزيل الأوساخ ويذهب بالأرجاس والأحداث، فالطهور على ما قيل صيغة مبالغة..

٦. ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَأَناسِيَّ كَثِيراً﴾:

أ. البلدة معروفة قيل: وأريد بها المكان كما في قوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: ٥٨]، ولذا اتصف بالميت وهو مذكر والمكان الميت ما لا نبات فيه وإحياؤه إنباته، والأناسي

جمع إنسان، ومعنى الآية ظاهر.

ب. وحال شمول الموت للأرض والحاجة إلى الشرب والري للأنعام والأناسي ثم إنزاله تعالى من السماء ماء طهورا ليحيي به بلدة ميتا ويسقيه أنعاما وأناسي كثيرا من خلقه كحال مد الظل ثم الدلالة عليه بالشمس ونسخه بها كما تقدم.

٢٨. تصريف القرآن للذكرى وجهاد الكافرين بالقرآن:

المقطع [٢٨] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٠-٥٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٢٨»:

١. ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ ظاهر اتصال الآية بما قبلها أن ضمير ﴿صَرَّفْناهُ﴾ للماء وتصريفه بينهم صرفه عن قوم إلى غيرهم تارة وعن غيرهم إليهم أخرى فلا يدوم في نزوله على قوم فيهلكوا ولا ينقطع عن قوم دائما فيهلكوا بل يدور بينهم حتى ينال كل نصيبه بحسب المصلحة، وقيل: المراد بالتصريف التحويل من مكان إلى مكان.

٢. ﴿لِيَذَّكَّرُوا فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ تعليل للتصريف أي وأقسم لقد صرفنا الماء بتقسيمه بينهم ليتذكروا فيشكروا فأبى وامتنع أكثر الناس إلا كفران النعمة.

٣. ﴿وَلَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً﴾ أي لو أردنا أن نبعث في كل قرية نذيرا ينذرهم ورسولا يبلغهم رسالاتنا لبعثنا ولكن بعثناك إلى القرى كلها نذيرا ورسولا لعظيم منزلتك عندنا، هكذا فسرت الآية ولا تخلو الآية التالية من تأييد لذلك، وهذا المعنى لما وجهنا به اتصال الآيات أنسب، أو أن المراد أنا قادرون على أن نبعث في كل قرية رسولا وإنما اخترناك لمصلحة في اختيارك.

٤. ﴿فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَجاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبِيراً﴾:

أ. متفرع على معنى الآية السابقة، وضمير ﴿بِهِ﴾ للقرآن بشهادة سياق الآيات، والمجاهدة والجهاد بذل الجهد والطاقة في مدافعة العدو وإذ كان بالقرآن فالمراد تلاوته عليهم وبيان حقائقه لهم وإتمام حججه عليهم.

ب. فمحصل مضمون الآية أنه إذا كان مثل الرسالة الإلهية في رفع حجاب الجهل والغفلة

المضروب على قلوب الناس بإظهار الحق لهم وإتمام الحجة عليهم مثل الشمس في الدلالة على الظل الممدود ونسخه بأمر الله، ومثل النهار بالنسبة إلى الليل وسبته، ومثل المطر بالنسبة إلى الأرض الميتة والأنعام والأناسي الظامئة، وقد بعثناك لتكون نذيرا لأهل القرى فلا تطع الكافرين لأن طاعتهم تبطل هذا الناموس العام المضروب للهداية، وابذل مبلغ جهدك ووسعك في تبليغ رسالتك وإتمام حجتك بالقرآن المشتمل على الدعوة الحقة وجاهدهم به مجاهدة كبيرة.

٢٩. مرج البحرين وجعل البرزخ:

المقطع [٢٩] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٢٩»:

١. ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً﴾:

أ. المرج الخلط ومنه أمر مريج أي مختلط، والعذب من الماء ما طاب طعمه، والفرات منه ما كثر عذوبته، والملح هو الماء المتغير طعمه، والأجاج شديد الملوحة، والبرزخ هو الحد الحاجز بين شيئين، وحجرا محجورا أي حراما محرما أن يختلط أحد الماءين بالآخر.

ب. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُما﴾ قرينة على أن المراد بمرج البحرين إرسال الماءين متقارنين لا الخلط بمعنى ضرب الأجزاء بعضها ببعض.

ج. والكلام معطوف على ما عطف عليه قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ﴾، وفيه تنظير لأمر الرسالة من حيث تأديتها إلى تمييز المؤمن من الكافر مع كون الفريقين يعيشان على أرض واحدة مختلطين وهما مع ذلك غير متمازجين كما تقدمت الإشارة إليه في أول الآيات التسع.

٣٠. خلق البشر من الماء وجعل النسب والصهر:

المقطع [٣٠] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٢٩»:

١. ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾:

أ. الصهر على ما نقل عن الخليل الختن وأهل بيت المرأة فالنسب هو التحرم من جهة الرجل والصهر هو التحرم من جهة المرأة، كما قيل، ويؤيده المقابلة بين النسب والصهر.

ب. وقد قيل: إن كلا من النسب والصهر بتقدير مضاف والتقدير فجعله ذا نسب وصهر، والضمير للبشر، والمراد بالماء النطفة، وربما احتمل أن يكون المراد به مطلق الماء الذي خلق الله منه الأشياء الحية كما قال: ﴿وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]

ج. والمعنى: وهو الذي خلق من النطفة، وهي ماء واحد، بشرا فقسمه قسمين ذا نسب وذا صهر يعني الرجل والمرأة وهذا تنظير آخر يفيد ما تفيده الآية السابقة أن لله سبحانه أن يحفظ الكثرة في عين الوحدة والتفرق في عين الاتحاد وهكذا يحفظ اختلاف النفوس والآراء بالإيمان والكفر مع اتحاد المجتمع البشري بما بعث الله الرسل لكشف حجاب الضلال الذي من شأنه غشيانه لولا الدعوة الحقة.

٢. ﴿وَكانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾ في إضافة الرب إلى ضمير الخطاب من النكتة نظير ما تقدم في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ﴾

٣. أحاديث وآثار: في المجمع في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْماءِ﴾ الآية، قال ابن سيرين: نزلت في النبي ﷺ، وعلي بن أبي طالب زوج فاطمة عليا، فهو ابن عمه وزوج ابنته فكان نسبا وصهرا.

- والرواية بالجري والتطبيق أشبه.

٣١. عبادة ما لا ينفع ولا يضر:

المقطع [٣١] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٣٠»:

١. ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكانَ الْكافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِيراً﴾:

أ. معطوف على قوله: ﴿وَإِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً﴾، والظهير بمعنى المظاهر على ما قيل والمظاهرة المعاونة.

ب. والمعنى: ويعبدون، هؤلاء الكفار المشركون، من دون الله ما لا ينفعهم بإيصال الخير على تقدير العبادة ولا يضرهم بإيصال الشر على تقدير ترك العبادة وكان الكافر معاونا للشيطان على ربه.

ج. وكون هؤلاء المعبودين وهم الأصنام ظاهرا لا ينفعون ولا يضرون لا ينافي كون عبادتهم مضرة فلا يستلزم نفي الضرر عنهم أنفسهم حيث لا يقدرون على شيء نفي الضرر عن عبادتهم المضرة المؤدية للإنسان إلى شقاء لازم وعذاب دائم.

٢. أحاديث وآثار: أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَكانَ الْكافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِيراً﴾ يعني أبا الحكم، الذي سماه رسول الله ﷺ أبا جهل بن هشام.

• والرواية بالجري والتطبيق أشبه.

٣٢. إرسال الرسول مبشراً ونذيراً ودعوته إلى سبيل ربه:

المقطع [٣٢] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٦-٥٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٣٠»:

١. ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾:

أ. أي لم نجعل لك في رسالتك إلا التبشير والإنذار وليس لك وراء ذلك من الأمر شيء فلا عليك إن كانوا معاندين لربهم مظاهرين لعدوه عليه فليسوا بمعجزين لله وما يمكرون إلا بأنفسهم، هذا هو الذي يعطيه السياق.

ب. وعليه فقوله: ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ هذا الفصل من الكلام نظير قوله: ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ في الفصل السابق.

ج. ومنه يظهر أن أخذ بعضهم الآية تسلية منه تعالى لنبيه ﷺ حيث قال والمراد ما أرسلناك إلا مبشرا للمؤمنين ونذيرا للكافرين فلا تحزن على عدم إيمانهم،غير سديد.

٢. ﴿قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ ضمير ﴿عَلَيْهِ﴾ للقرآن بما أن تلاوته عليهم تبلغ للرسالة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هذِهِ﴾ ﴿تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ [المزمل: ١٩]، [الدهر: ٢٩]، وقال: ﴿قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ﴾ [ص: ٨٧]

٣. ﴿إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾:

أ. استثناء منقطع في معنى المتصل فإنه في معنى إلا أن يتخذ إلى ربه سبيلا من شاء ذلك على حد قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]، أي إلا أن يأتي الله بقلب سليم من أتاه به.

ب. ففيه وضع الفاعل وهو من اتخذ السبيل موضع فعله وهو اتخاذ السبيل شكرا له ففي الكلام عد اتخاذهم سبيلا إلى الله سبحانه باستجابة الدعوة أجرا لنفسه ففيه تلويح إلى نهاية استغنائه عن أجر مالي أو جاهي منهم، وأنه لا يريد منهم وراء استجابتهم للدعوة واتباعهم للحق شيئا آخر من مال أو جاه أو أي أجر مفروض فليطيبوا نفسا ولا يتهموه في نصيحته.

ج. وقد علق اتخاذ السبيل على مشيتهم للدلالة على حريتهم الكاملة عن قبله ﷺ فلا إكراه ولا إجبار إذ لا وظيفة له عن قبل ربه وراء التبشير والإنذار وليس عليهم بوكيل بل الأمر إلى الله يحكم فيهم ما يشاء.

د. فقوله: ﴿قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ﴾ بعد ما سجل لنبيه ﷺ أن ليس له إلا الرسالة بالتبشير والإنذار يأمره أن يبلغهم أن لا بغية له في دعوتهم إلا أن يستجيبوا له ويتخذوا إلى ربهم سبيلا من غير غرض زائد من الأجر أيا ما كان، وأن لهم الخيرة في أمرهم من غير أي إجبار وإكراه فهم والدعوة إن شاءوا فليؤمنوا وإن شاءوا فليكفروا.

هـ. هذا ما يرجع إليه ﷺ وهو تبليغ الرسالة فحسب من غير طمع في أجر ولا تحميل عليهم بإكراه أو انتقام منهم بنكال، وأما ما وراء ذلك فهو لله فليرجعه إليه وليتوكل عليه كما أشار إليه في الآية التالية: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾

و. وذكر جمهور المفسرين أن الاستثناء منقطع، والمعنى لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا أي بالإنفاق القائم مقام الأجر كالصدقة والإنفاق في سبيل الله فليفعل، وهو ضعيف لا دليل عليه لا من جهة لفظ الجملة ولا من جهة السياق.

ز. وقال بعضهم: إنه متصل والكلام بحذف مضاف والتقدير إلا فعل من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا بالإيمان والطاعة حسبما أدعو إليهما، وفيه أخذ استجابتهم له أجرا لنفسه وقطعا لشائبة الطمع بالكلية وتطييبا لأنفسهم، ويرجع هذا الوجه بحسب المعنى إلى ما قدمناه ويمتاز منه بتقدير مضاف والتقدير

خلاف الأصل.

ح. وقال آخرون: إنه متصل بتقدير مضاف والتقدير لا أسألكم عليه من أجر إلا أجر من شاء (إلخ) أي إلا الأجر الحاصل لي من إيمانه فإن الدال على الخير كفاعله، وفيه أن مقتضى هذا المعنى أن يقال: إلا من اتخذ إلى ربه سبيلا فلا حاجة إلى تعليق الاتخاذ بالمشية والأجر إنما يترتب على العمل دون مشيته.

٣٣. التوكل على الحي الذي لا يموت والتسبيح بحمده:

المقطع [٣٣] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٣٢»:

١. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً﴾:

أ. لما سجل على نبيه ﷺ أن ليس له من أمرهم شيء إلا الرسالة وأمره أن يبلغهم أن لا بغية له في دعوتهم إلا الاستجابة لها وأنهم على خيرة من أمرهم إن شاءوا آمنوا وإن شاءوا كفروا تمم ذلك بأمره ﷺ أن يتخذه تعالى وكيلا في أمرهم فهو تعالى عليهم وعلى كل شيء وكيل وبذنوب عباده خبير.

ب. فقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾ أي اتخذه وكيلا في أمرهم يحكم فيهم ما يشاء ويفعل بهم ما يريد فإنه الوكيل عليهم وعلى كل شيء وقد عدل عن تعليق التوكل بالله إلى تعليقه بالحي الذي لا يموت ليفيد التعليل فإن الحي الذي لا يموت لا يفوته فائت فهو المتعين لأن يكون وكيلا.

٢. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ أي نزهه عن العجز والجهل وكل ما لا يليق بساحة قدسه مقارنا ذلك للثناء عليه بالجميل فإن أمهلهم واستدرجهم بنعمه فليس عن عجز فعل بهم ذلك ولا عن جهل بذنوبهم وإن أخذهم بذنوبهم فبحكمة اقتضته وباستحقاق منهم استدعى ذلك فسبحانه وبحمده.

٣. ﴿وَكَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً﴾ مسوق للدلالة على توحيده في فعله وصفته فهو الوكيل المتصرف في أمور عباده وحده وهو خبير بذنوبهم وحاكم فيهم وحده من غير حاجة إلى من يعينه في علمه أو في حكمه.

٤. ومن هنا يظهر أن الآية التالية: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ﴾ متممة لقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾، لاشتمالها على توحيده في ملكه وتصرفه كما يشتمل قوله: ﴿وَكَفى بِهِ﴾ على علمه وخبرته وبالحياة والملك والعلم معا يتم معنى الوكالة وسنشير إليه.

٣٤. خلق السموات والأرض واستواء الرحمن على العرش:

المقطع [٣٤] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٥٩ـ٦٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٣٣»:

١. ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً﴾:

أ. ظاهر السياق أن الموصول صفة لقوله في الآية السابقة: ﴿الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾ وبهذه الآية يتم البيان في قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾ فإن الوكالة كما تتوقف على حياة الوكيل تتوقف على العلم، وقد ذكره في قوله: ﴿وَكَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً﴾ وتتوقف على السلطنة على الحكم والتصرف وهو الذي تتضمنه هذه الآية بما فيها من حديث خلق السماوات والأرض والاستواء على العرش.

ب. وقد تقدم تفسير صدر الآية في مواضع من السور السابقة، وأما قوله: ﴿الرَّحْمنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ فالذي يعطيه السياق ويهدي إليه النظم أن يكون الرحمن خبرا لمبتدإ محذوف والتقدير هو الرحمن، وقوله: ﴿فَسْئَلْ﴾ متفرعا عليه والفاء للتفريع، والباء في قوله: ﴿بِهِ﴾ للتعدية مع تضمين السؤال معنى الاعتناء، وقوله: ﴿خَبِيراً﴾ حال من الضمير.

ج. والمعنى: هو الرحمن، الذي استوى على عرش الملك والذي برحمته وإفاضته يقوم الخلق والأمر ومنه يبتدئ كل شيء وإليه يرجع، فاسأله عن حقيقة الحال يخبرك بها فإنه خبير.

د. فقوله: ﴿فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ كناية عن أن الذي أخبر به حقيقة الأمر التي لا معدل عنها وهذا كما يقول من سئل عن أمر: سلني أجبك إن كذا وكذا ومن هذا الباب قولهم: على الخبير سقطت.

هـ. ولهم في قوله: ﴿الرَّحْمنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ أقوال أخرى كثيرة:

• فقيل: إن ﴿الرَّحْمنُ﴾ مرفوع على القطع للمدح، وقيل: مبتدأ خبره قوله: ﴿فَسْئَلْ بِهِ﴾ وقيل: خبر مبتدؤه ﴿الَّذِي﴾ في صدر الآية، وقيل: بدل من الضمير المستكن في ﴿اسْتَوى﴾

• وقيل في ﴿فَسْئَلْ بِهِ﴾ إنه خبر للرحمن كما تقدم والفاء فصيحة، وقيل: جملة مستقلة متفرعة على ما قبلها والفاء للتفريع ثم الباء في ﴿بِهِ﴾ للصلة أو بمعنى عن والضمير راجع إليه تعالى أو إلى ما تقدم من الخلق والاستواء.

• وقيل ﴿خَبِيراً﴾ حال عن الضمير وهو راجع إليه تعالى، والمعنى فاسأل الله حال كونه خبيرا، وقيل: مفعول فاسأل والباء بمعنى عن والمعنى فاسأل عن الرحمن أو عن حديث الخلق والاستواء خبيرا، والمراد بالخبير هو الله سبحانه، وقيل جبرئيل وقيل: محمد ﷺ، وقيل: من قرأ الكتب السماوية القديمة ووقف على صفاته وأفعاله تعالى وكيفية الخلق والإيجاد، وقيل: كل من كان له وقوف على هذه الحقائق.

و. وهذه الوجوه المتشتتة جلها أو كلها لا تلائم ما يعطيه سياق الآيات الكريمة ولا موجب للتكلم عليها والغور فيها.

٢. ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قالُوا وَمَا الرَّحْمنُ أَنَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا وَزادَهُمْ نُفُوراً﴾:

أ. هذا فصل آخر من معاملتهم السوء مع الرسول ودعوته الحقة يذكر فيه استكبارهم عن السجود لله سبحانه إذا دعوا إليه ونفورهم منه وللآية اتصال خاص بما قبلها من حيث ذكر الرحمن فيها وقد وصف في الآية السابقة بما وصف ولعل اللام فيه للعهد.

ب. فقوله: ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ﴾ الضمير للكفار، والقائل هو النبي ﷺ بدليل قوله بعد: ﴿أَنَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا﴾ ولم يذكر اسمه ليتوجه استكبارهم إلى الله سبحانه وحده.

٣. ﴿قالُوا وَمَا الرَّحْمنُ﴾ سؤال منهم عن هويته ومائيته مبالغة منهم في التجاهل به استكبارا منهم على الله ولولا ذلك لقالوا: ومن الرحمن، وهذا كقول فرعون لموسى لما دعاه إلى رب العالمين: ﴿وَما رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، وقول إبراهيم لقومه: ﴿ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]، ومراد السائل في مثل هذا السؤال أنه لا معرفة له من المسئول عنه بشيء أزيد من اسمه كقول هود لقومه: ﴿أَتُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ﴾ [الأعراف: ٧١]

٤. وقوله حكاية عنهم: ﴿أَنَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا﴾ في تكرار التعبير عنه تعالى بما إصرار على الاستكبار، والتعبير عن طلبه عنهم السجدة بالأمر لا يخلو من تهكم واستهزاء.

٥. ﴿وَزادَهُمْ نُفُوراً﴾:

أ. معطوف على جواب إذا والمعنى: وإذا قيل لهم اسجدوا استكبروا وزادهم ذلك نفورا ففاعل ﴿زادَهُمْ﴾ ضمير راجع إلى القول المفهوم من سابق الكلام.

ب. وقول بعضهم: إن الفاعل ضمير راجع إلى السجود بناء على ما رووا أنه ﷺ وأصحابه سجدوا فتباعدوا عنهم مستهزءين ليس بسديد فإن وقوع واقعة ما لا يؤثر في دلالة اللفظ ما لم يتعرض له لفظا، ولا تعرض في الآية لهذه القصة أصلا.

٣٥. جعل البروج والسراج والقمر المنير والليل والنهار:

المقطع [٣٥] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦١-٦٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٣٥»:

١. ﴿تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيها سِراجاً وَقَمَراً مُنِيراً﴾:

أ. الظاهر أن المراد بالبروج منازل الشمس والقمر من السماء أو الكواكب التي عليها كما تقدم في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَزَيَّنّاها لِلنّاظِرِينَ وَحَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٧]، وإنما خصت بالذكر في الآية للإشارة إلى الحفظ والرجم المذكورين.

ب. والمراد بالسراج الشمس بدليل قوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً﴾ [نوح: ١٦]

ج. وقد قرروا الآية أنها احتجاج بوحدة التدبير العجيب السماوي والأرضي على وحدة المدبر فيجب التوجه بالعبادات إليه وصرف الوجه عن غيره.

د. والتدبر في اتصال الآيتين بما قبلهما وسياق الآيات لا يساعد عليه لأن مضمون الآية السابقة من استكبارهم على الرحمن إذا أمروا بالسجود له واستهزائهم بالرسول لا نسبة كافية بينه وبين الاحتجاج على توحيد الربوبية حتى يعقب به، وإنما المناسب لهذا المعنى إظهار العزة والغنى وأنهم غير معجزين لله بفعالهم هذا ولا خارجين عن ملكه وسلطانه.

هـ. والذي يعطيه التدبر أن قوله: ﴿تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً﴾، مسوق سوق التعزز والاستغناء، وأنهم غير معجزين باستكبارهم على الله واستهزائهم بالرسول بل هؤلاء ممنوعون عن

الاقتراب من حضرة قربه والصعود إلى سماء جواره والمعارف الإلهية مضيئة مع ذلك لأهله وعباده بما نورها الله سبحانه بنور هدايته وهو نور الرسالة.

و. وعلى هذا فقد أثنى الله سبحانه على نفسه بذكر تباركه بجعل البروج المحفوظة الراجمة للشياطين بالشهب في السماء المحسوسة وجعل الشمس المضيئة والقمر المنير فيها لإضاءة العالم المحسوس، وأشار بذلك إلى ما يناظره في الحقيقة من إضاءة العالم الإنساني بنور الهداية من الرسالة ليتبصر به عباده، كما يذكر حالهم بعد هذه الآيات ودفع أولياء الشياطين عن الصعود إليه بما هيأ لدفعهم من بروج محفوظة راجمة.

ز. هذا ما يعطيه السياق وعلى هذا النمط من البيان سيقت هذه الآيات والتي قبلها كما تقدمت الإشارة إليه في تفسير قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ فليس ما ذكرناه من التأويل بمعنى صرف الآيات عن ظاهرها.

٢. ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً﴾:

أ. الخلفة هي الشيء يسد مسد شيء آخر وبالعكس وكأنه بناء نوع أريد به معنى الوصف فكون الليل والنهار خلفة أن كلا منهما يخلف الآخر، وتقييد الخلفة بقوله: ﴿لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً﴾ للدلالة على نيابة كل منهما عن الآخر في التذكر والشكر.

ب. والمقابلة بين التذكر والشكر يعطي أن المراد بالتذكر الرجوع إلى ما يعرفه الإنسان بفطرته من الحجج الدالة على توحيد ربه وما يليق به تعالى من الصفات والأسماء وغايته الإيمان بالله، وبالشكور القول أو الفعل الذي ينبئ عن الثناء عليه بجميل ما أنعم، وينطبق على عبادته وما يلحق بها من صالح العمل.

ج. وعلى هذا فالآية اعتزاز أو امتنان بجعله تعالى الليل والنهار بحيث يخلف كل صاحبه فمن فاته الإيمان به في هذه البرهة من الزمان تداركه في البرهة الأخرى منه، ومن لم يوفق لعبادة أو لأي عمل صالح في شيء منهما أتى به في الآخر.

د. هذا ما تفيده الآية ولها مع ذلك ارتباط بقوله في الآية السابقة: ﴿وَجَعَلَ فِيها سِراجاً وَقَمَراً مُنِيراً﴾ ففيه إشارة إلى أن الله سبحانه وإن دفع أولئك المستكبرين عن الصعود إلى ساحة قربه لكنه لم يمنع عباده عن التقرب إليه والاستضاءة بنوره فجعل نهارا ذا شمس طالعة وليلا ذا قمر منير وهما ذوا خلفة من فاته ذكر أو شكر في أحدهما أتى به في الآخر.

هـ. وفسر بعضهم التذكر بصلاة الفريضة والشكور بالنافلة والآية تقبل الانطباق على ذلك وإن لم يتعين حملها عليه.

٣٦. مشي عباد الرحمن بهدوء والردّ على الجاهلين بسلام:

المقطع [٣٦] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٣٩»:

١. ﴿وَعِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً﴾ لما ذكر في الآية السابقة استكبارهم على الله سبحانه وإهانتهم بالاسم الكريم: الرحمن، قابله في هذه الآية بذكر ما يقابل ذلك للمؤمنين وسماهم عبادا وأضافهم إلى نفسه متسميا باسم الرحمن الذي كان يحيد عنه الكفار وينفرون.

٢. وقد وصفتهم الآية بوصفين من صفاتهم:

أ. أحدهما: ما اشتمل عليه قوله:) ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً﴾ والهون على ما ذكره الراغب التذلل، والأشبه حينئذ أن يكون المشي على الأرض كناية عن عيشتهم بمخالطة الناس ومعاشرتهم فهم في أنفسهم متذللون لربهم ومتواضعون للناس لما أنهم عباد الله غير مستكبرين على الله ولا مستعلين على غيرهم بغير حق، وأما التذلل لأعداء الله ابتغاء ما عندهم من العزة الوهمية فحاشاهم وإن كان الهون بمعنى الرفق واللين فالمراد أنهم يمشون من غير تكبر وتبختر.

ب. وثانيهما: ما اشتمل عليه قوله: ﴿وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً﴾ أي إذا خاطبهم الجاهلون خطابا ناشئا عن جهلهم مما يكرهون أن يخاطبوا به أو يثقل عليهم كما يستفاد من تعلق الفعل بالوصف أجابوهم بما هو سالم من القول وقالوا لهم قولا سلاما خاليا عن اللغو والإثم، قال تعالى: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا تَأْثِيماً إِلَّا قِيلاً سَلاماً سَلاماً﴾ [الواقعة: ٢٦]، ويرجع إلى عدم مقابلتهم الجهل بالجهل.

٣. وهذه، كما قيل، صفة نهارهم إذا انتشروا في الناس وأما صفة ليلهم فهي التي تصفها الآية التالية.

٣٧. قيام عباد الرحمن بالليل:

المقطع [٣٧] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٤٠»:

١. ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً﴾:

أ. البيتوتة إدراك الليل سواء نام أم لا، و﴿لِرَبِّهِمْ﴾ متعلق بقوله: ﴿سُجَّداً﴾ والسجد والقيام جمعا ساجد وقائم، والمراد عبادتهم له تعالى بالخرور على الأرض والقيام على السوق، ومن مصاديقه الصلاة.

ب. والمعنى: وهم الذين يدركون الليل حال كونهم ساجدين فيه لربهم وقائمين يتراوحون سجودا وقياما، ويمكن أن يراد به التهجد بنوافل الليل.

٣٨. استعاذة عباد الرحمن من عذاب جهنم:

المقطع [٣٨] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥-٦٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٤٠»:

١. ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً﴾ الغرام ما ينوب الإنسان من شدة أو مصيبة فيلزمه ولا يفارقه والباقي ظاهر.

٢. ﴿إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً﴾ الضمير لجهنم والمستقر والمقام اسما مكان من الاستقرار والإقامة، والباقي ظاهر.

٣٩. إنفاق عباد الرحمن القوام بين الإسراف والتقتير:

المقطع [٣٩] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٤٠»:

١. ﴿وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً﴾:

أ. الإنفاق بذل المال وصرفه في رفع حوائج نفسه أو غيره، والإسراف الخروج عن الحد ولا يكون إلا في جانب الزيادة، وهو في الإنفاق التعدي عما ينبغي الوقوف عليه في بذل المال، والقتر بالفتح فالسكون التقليل في الإنفاق وهو بإزاء الإسراف على ما ذكره الراغب، والقتر والإقتار والتقتير بمعنى.

ب. والقوام بالفتح الواسط العدل، وبالكسر ما يقوم به الشيء وقوله: ﴿بَيْنَ ذلِكَ﴾ متعلق بالقوام، والمعنى: وكان إنفاقهم وسطا عدلا بين ما ذكر من الإسراف والقتر فقوله: ﴿وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً﴾ تنصيص على ما يستفاد من قوله: ﴿إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾، فصدر الآية ينفي طرفي الإفراط والتفريط في الإنفاق، وذيلها يثبت الوسط.

٤٠. تحريم الشرك والقتل والزنا وعقابها الأليم:

المقطع [٤٠] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٦٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٤٠»:

١. ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ﴾:

أ. هذا هو الشرك وأصول الوثنية لا تجيز دعاءه تعالى وعبادته أصلا لا وحده ولا مع آلهتهم وإنما توجب دعاء آلهتهم وعبادتهم ليقربوهم إلى الله زلفى ويشفعوا لهم عنده.

ب. فالمراد بدعائهم مع الله إلها آخر:

- إما التلويح إلى أنه تعالى إله مدعو بالفطرة على كل حال فدعاء غيره دعاء لإله آخر معه وإن لم يذكر الله.
- أو أنه تعالى ثابت في نفسه سواء دعي غيره أم لا فالمراد بدعاء غيره دعاء إله آخر مع وجوده وبعبارة أخرى تعديه إلى غيره.
- أو إشارة إلى ما كان يفعله جهلة مشركي العرب فإنهم كانوا يرون أن دعاء آلهتهم إنما ينفعهم في البر وأما البحر فإنه لله لا يشاركه فيه أحد فالمراد دعاؤه تعالى في مورد كما عند شدائد البحر من طوفان ونحوه ودعاء غيره معه في مورد وهو البر، وأحسن الوجوه أوسطها.

٢. ﴿وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِ﴾ أي لا يقتلون النفس الإنسانية التي حرم الله قتلها في حال من الأحوال إلا حال تلبس القتل بالحق كقتلها قصاصا وحدا.

٣. ﴿وَلا يَزْنُونَ﴾ أي لا يطئون الفرج الحرام وقد كان شائعا بين العرب في الجاهلية، وكان الإسلام معروفا بتحريم الزنا والخمر من أول ما ظهرت دعوته.

٤. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً﴾ الإشارة بذلك إلى ما تقدم ذكره وهو الشرك وقتل النفس المحترمة بغير حق والزنا، والآثام الإثم وهو وبال الخطيئة وهو الجزاء بالعذاب الذي سيلقاه يوم القيامة المذكور في الآية التالية.

٥. ﴿يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً﴾:

أ. بيان للقاء الآثام، وقوله: ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً﴾ أي يخلد في العذاب وقد وقعت عليه الإهانة.

ب. والخلود في العذاب في الشرك لا ريب فيه، وأما الخلود فيه عند قتل النفس المحترمة والزنا وهما من الكبائر وقد صرح القرآن بذلك فيهما وكذا في أكل الربا فيمكن أن يحمل على اقتضاء طبع المعصية ذلك كما ربما استفيد من ظاهر قوله: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾

ج. أو يحمل الخلود على المكث الطويل أعم من المنقطع والمؤبد أو يحمل قوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ﴾ على فعل جميع الثلاثة لأن الآيات في الحقيقة تنزه المؤمنين عما كان الكفار مبتلين به وهو الجميع دون البعض.

٦. أحاديث وآثار: أخرج الفاريابي وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال: سئل النبي ﷺ: أي الذنب أكبر؟ قال: أن تجعل لله ندا وهو خلقك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك فأنزل الله تصديق ذلك ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ، وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ﴾

• أقول: لعل المراد الانطباق دون سبب النزول.

٤١. التوبة والإيمان والعمل الصالح وتبديل السيئات:

المقطع [٤١] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧٠-٧١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٤٢»:

١. ﴿إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فَأُولئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾:

أ. استثناء من لقي الآثام والخلود فيه، وقد أخذ في المستثنى التوبة والإيمان وإتيان العمل الصالح، أما التوبة وهي الرجوع عن المعصية وأقل مراتبها الندم فلو لم يتحقق لم ينتزع العبد عن المعصية ولم يزل مقيما عليها، وأما إتيان العمل الصالح فهو مما تستقر به التوبة وبه تكون نصوحا.

ب. وأما أخذ الإيمان فيدل على أن الاستثناء إنما هو من الشرك فتختص الآية بمن أشرك وقتل وزنى أو بمن أشرك سواء أتى معه بشيء من القتل المذكور والزنا أو لم يأت، وأما من أتى بشيء من القتل والزنا من غير شرك فالمتكفل لبيان حكم توبته الآية التالية.

٢. ﴿فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾:

أ. تفريع على التوبة والإيمان والعمل الصالح يصف ما يترتب على ذلك من جميل الأثر وهو أن الله يبدل سيئاتهم حسنات.

ب. وقد قيل في معنى ذلك:

- أن الله يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة ويثبت مكانها لواحق طاعاتهم فيبدل الكفر إيمانا والقتل بغير حق جهادا وقتلا بالحق والزنا عفة وإحصانا.
- وقيل: المراد بالسيئات والحسنات ملكاتها لا نفسها فيبدل ملكة السيئة ملكة الحسنة.
- وقيل: المراد بهما العقاب والثواب عليهما لا نفسهما فيبدل عقاب القتل والزنا مثلا ثواب القتل بالحق والإحصان.

ج. وأنت خبير بأن هذه الوجوه من صرف الكلام عن ظاهره بغير دليل يدل عليه، والذي يفيد ظاهر قوله: ﴿يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ وقد ذيله بقوله: ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ أن كل سيئة منهم نفسها تتبدل حسنة، وليست السيئة هي متن الفعل الصادر من فاعله وهو حركات خاصة مشتركة بين السيئة والحسنة كعمل المواقعة مثلا المشترك بين الزنا والنكاح، والأكل المشترك بين أكل المال غصبا وبإذن من مالكه بل صفة الفعل من حيث موافقته لأمر الله ومخالفته له مثلا من حيث إنه يتأثر به الإنسان ويحفظ عليه دون الفعل الذي هو مجموع حركات متصرمة متقضية فانية وكذا عنوانه القائم به الفاني بفنائه.

د. وهذه الآثار السيئة التي يتبعها العقاب أعني السيئات لازمة للإنسان حتى يؤخذ بها يوم تبلى السرائر.

هـ. ولولا شوب من الشقوة والمساءة في الذات لم يصدر عنها عمل سيئ إذ الذات السعيدة الطاهرة من كل وجه لا يصدر عنها سيئة قذرة فالأعمال السيئة إنما تلحق ذاتا شقية خبيثة بذاتها أو ذاتا فيها شوب من شقاء وخباثة.

و. ولازم ذلك إذا تطهرت بالتوبة وطابت بالإيمان والعمل الصالح فتبدلت ذاتا سعيدة ما فيها شوب من قذارة الشقاء أن تتبدل آثارها اللازمة التي كانت سيئات قبل ذلك فتناسب الآثار للذات بمغفرة من الله ورحمة وكان الله غفورا رحيما.

ز. وإلى مثل هذا يمكن أن تكون الإشارة بقوله: ﴿فَأُوْلِئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَناتٍ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾

٣. ﴿وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتاباً﴾:

أ. المتاب مصدر ميمي للتوبة، وسياق الآية يعطي أنها مسوقة لرفع استغراب تبدل السيئات حسنات بتعظيم أمر التوبة وأنها رجوع خاص إلى الله سبحانه فلا بدع في أن يبدل السيئات حسنات وهو الله يفعل ما يشاء.

ب. وفي الآية مع ذلك شمول للتوبة من جميع المعاصي سواء قارنت الشرك أم فارقته، والآية السابقة، كما تقدمت الإشارة إليه، كانت خفية الدلالة على حال المعاصي إذا تجردت من الشرك.

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج عبد بن حميد عن علي بن الحسين: ﴿يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَناتٍ﴾ قال: في الآخرة، وقال الحسن: في الدنيا.

ب. أخرج أحمد وهناد ومسلم والترمذي وابن جرير والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، فتعرض عليه صغارها وينحى عنه كبارها، فيقال: عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، وهو مقر ليس ينكر وهو مشفق من الكبار أن تجيء، فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة.

• أقول: هو من أخبار تبديل السيئات حسنات يوم القيامة وهي كثيرة مستفيضة من طرق أهل السنة والشيعة مروية عن النبي والباقر والصادق والرضا عليه وعليهم الصلاة والسلام.

ج. وفي روضة الواعظين، قال ﷺ: ما جلس قوم يذكرون الله إلا نادى بهم مناد من السماء، قوموا فقد بدل الله سيئاتكم حسنات، وغفر لكم جميعا.

٤٢. اجتناب عباد الرحمن الزور واللغو:

المقطع [٤٢] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٤٣»:

١. ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً﴾:

أ. قال في مجمع البيان: (أصل الزور تمويه الباطل بما يوهم أنه حق، فيشمل الكذب وكل لهو باطل كالغناء والفحش والخنا بوجه، وقال أيضا: يقال: تكرم فلان عما يشينه إذا تنزه وأكرم نفسه منه)

ب. فقوله: ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ إن كان المراد بالزور الكذب فهو قائم مقام المفعول المطلق والتقدير لا يشهدون شهادة الزور، وإن كان المراد اللهو الباطل كالغناء ونحوه كان مفعولا به والمعنى لا يحضرون مجالس الباطل، وذيل الآية يناسب ثاني المعنيين.

٢. ﴿وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً﴾:

أ. اللغو ما لا يعتد به من الأفعال والأقوال لعدم اشتماله على غرض عقلائي ويعم، كما قيل، جميع المعاصي، والمراد بالمرور باللغو المرور بأهل اللغو وهم مشتغلون به.

ب. والمعنى: وإذا مروا بأهل اللغو وهم يلغون مروا معرضين عنهم منزهين أنفسهم عن الدخول فيهم والاختلاط بهم ومجالستهم.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن أبي الصباح عن أبي عبد الله عليه السلام: في قوله عز وجل: ﴿لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ قال: الغناء.

• أقول: وفي المجمع: (أنه مروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام ورواه القمي مسندا ومرسلا.

ب. وفي العيون، بإسناده إلى محمد بن أبي عباد وكان مشتهرا بالسماع ويشرب النبيذ قال: سألت الرضا عليه السلام عن السماع فقال: لأهل الحجاز رأي فيه وهو في حيز الباطل واللهو، أما سمعت الله

عز وجل يقول: ﴿وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً﴾

٤٣. خشوع عباد الرحمن لآيات الله:

المقطع [٤٣] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٤٤»:

١. ﴿وَالَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَعُمْياناً﴾:

أ. الخرور على الأرض السقوط عليها وكأنها في الآية كناية عن لزوم الشيء والانكباب عليه.

ب. والمعنى: والذين إذا ذكروا بآيات ربهم من حكمة أو موعظة حسنة من قرآن أو وحي لم يسقطوا عليه وهم صم لا يسمعون وعميان لا يبصرون بل تفكروا فيها وتعقلوها فأخذوا بها عن بصيرة فآمنوا بحكمتها واتعظوا بموعظتها وكانوا على بصيرة من أمرهم وبينة من ربهم.

٤٤. طلب عباد الرحمن الأزواج والذرية وأن يكونوا للمتقين إماماً:

المقطع [٤٤] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٤٤»:

١. ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً﴾:

أ. قال الراغب في المفردات: (قرت عينه تقر سرت قال، تعالى: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها﴾ وقيل لمن يسر به قرة عين قال: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ وقوله تعالى: ﴿هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ قيل: أصله من القر أي البرد فقرت عينه قيل: معناه بردت فصحت، وقيل: بل لأن للسرور دمعة باردة قارة وللحزن دمعة حارة ولذلك يقال فيمن يدعى عليه: أسخن الله عينه، وقيل: هو من القرار والمعنى أعطاه الله ما يسكن به عينه فلا تطمح إلى غيره)

ب. ومرادهم بكون أزواجهم وذرياتهم قرة أعين لهم أن يسروهم بطاعة الله والتجنب عن معصيته فلا حاجة لهم في غير ذلك ولا إربة وهم أهل حق لا يتبعون الهوى.

٢. ﴿وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً﴾:

أ. أي متسابقين إلى الخيرات سابقين إلى رحمتك فيتبعنا غيرنا من المتقين كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا

الْخَيْراتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، وقال: ﴿سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١١]، وكأن المراد أن يكونوا صفا واحدا متقدما على غيرهم من المتقين ولذا جيء بالإمام بلفظ الإفراد.

ب. وقال بعضهم: إن الإمام مما يطلق على الواحد والجمع، وقيل: إن إمام جمع آم بمعنى القاصد كصيام جمع صائم، والمعنى: اجعلنا قاصدين للمتقين متقيدين بهم، وفي قراءة أهل البيت (واجعل لنا من المتقين إماما)

٣. في جوامع الجامع، عن الصادق عليه السلام: في قوله: ﴿وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً﴾ قال: إيانا عنى.

• أقول: وهناك عدة روايات في هذا المعنى وأخرى تتضمن قراءتهم عليه السلام: (واجعل لنا من المتقين إماما)

٤٥. عباد الرحمن والجزاء العظيم:

المقطع [٤٥] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥-٧٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٤٥»:

١. ﴿أُولئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَسَلاماً خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً﴾:

أ. الغرفة، كما قيل، البناء فوق البناء فهو الدرجة العالية من البيت، وهي كناية عن الدرجة العالية في الجنة، والمراد بالصبر الصبر على طاعة الله وعن معصيته فهذان القسمان من الصبر هما المذكوران في الآيات السابقة لكن لا ينفك ذلك عن الصبر عند النوائب والشدائد.

ب. والمعنى: أولئك الموصوفون بما وصفوا يجزون الدرجة الرفيعة من الجنة يلقون فيها أي يتلقاهم الملائكة بالتحية وهو ما يقدم للإنسان مما يسره وبالسلام وهو كل ما ليس فيه ما يخافه ويحذره، وفي تكرير التحية والسلام دلالة على التفخيم والتعظيم، والباقي ظاهر.

٤٦. الدعاء والتكذيب واللزام:

المقطع [٤٦] من سورة الفرقان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٤٥»:

١. ﴿قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لولا دُعاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً﴾:

أ. قال في المفردات: (ما عبأت به أي لم أبال به، وأصله من العبء أي الثقل كأنه قال: ما أرى له وزنا وقدرا، قال تعالى: ﴿قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لولا دُعاؤُكُمْ﴾ وقيل: من عبأت الطيب كأنه قيل: ما يبقيكم لولا دعاؤكم)

ب. قيل: ﴿دُعاؤُكُمْ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول وفاعله ضمير راجع إلى ﴿رَبِّي﴾ وعلى هذا فقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ من تفريع السبب على المسبب بمعنى انكشافه بمسببه، وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً﴾ أي سوف يكون تكذيبكم ملازما لكم أشد الملازمة فتجزون بشقاء لازم وعذاب دائم، والمعنى: قل لا قدر ولا منزلة لكم عند ربي فوجودكم وعدمكم عنده سواء لأنكم كذبتم فلا خير يرجى فيكم فسوف يكون هذا التكذيب ملازما لكم أشد الملازمة، إلا أن الله يدعوكم ليتم الحجة عليكم أو يدعوكم لعلكم ترجعون عن تكذيبكم، وهذا معنى حسن.

ج. وقيل: ﴿دُعاؤُكُمْ﴾ من إضافة المصدر إلى الفاعل، والمراد به عبادتهم لله سبحانه والمعنى: ما يبالي بكم ربي أو ما يبقيكم ربي لولا عبادتكم له، وفيه أن هذا المعنى لا يلائم تفرع قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ عليه وكان عليه من حق الكلام أن يقال: وقد كذبتم! على أن المصدر المضاف إلى فاعله يدل على تحقق الفعل منه وتلبسه به وهم غير متلبسين بدعائه وعبادته تعالى فكان من حق الكلام على هذا التقدير أن يقال لولا أن تدعوه فافهم.

٢. والآية خاتمة السورة وتنعطف إلى غرض السورة ومحصل القول فيه وهو الكلام على اعتراض المشركين على الرسول وعلى القرآن النازل عليه وتكذيبهما.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: روى العياشي بإسناده عن بريد بن معاوية العجلي قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: كثرة القراءة أفضل أو كثرة الدعاء؟ قال: كثرة الدعاء أفضل وقرأ هذه الآية.

• أقول: وفي انطباق الآية على ما في الرواية إبهام.

ب. وفي تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله عز وجل: ﴿قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لولا دُعاؤُكُمْ﴾ يقول: ما يفعل ربي بكم، فقد كذبتم فسوف يكون لزاما.

سورة الشعراء

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٣٢] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. غرض السورة تسلية النبي ﷺ قبال ما كذبه قومه وكذبوا بكتابه النازل عليه من ربه ـ على ما يلوح إليه صدر السورة: تلك آيات الكتاب المبين ـ وقد رموه تارة بأنه مجنون، وأخرى بأنه شاعر، وفيها تهديدهم، مشفعاً ذلك بإيراد قصص جمع من الأنبياء وهم: موسى، وإبراهيم، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب عليه السلام، وما انتهت إليه عاقبة تكذيبهم، لتتسلى به نفس النبي ﷺ ولا يحزن بتكذيب أكثر قومه، وليعتبر المكذبون.

ب. والسورة من عتائق السور المكية وأوائلها نزولاً، وقد اشتملت على قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، وربما أمكن أن يستفاد من وقوع هذه الآية في هذه السورة ووقوع قوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ في سورة الحجر، وقياس مضمونيهما كل مع الأخرى، أن هذه السورة أقدم نزولاً من سورة الحجر.

ج. وظاهر سياق آيات السورة أنها جميعاً مكية، واستثنى بعضهم الآيات الخمس التي في آخرها، وبعض آخر قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وسيجيء الكلام فيهما.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٩] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر أن هذه آيات الكتاب المبين، وتأسف على كفر المشركين، وتذكر أن الله يهدي من يشاء، وتعدد أدلة قدرته في الأرض والسماء، وتذكر أن أكثر الناس لا يؤمنون.

٢. الآيات [١٠ ـ ٦٨]:

أ. شروع في ذكر قصص عدة من أقوام الأنبياء الماضين: موسى وهارون، وإبراهيم، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب عليه السلام، ليظهر أن قوم النبي ﷺ سائرون مسيرهم وسيردون موردهم، لا يؤمن أكثرهم فيؤاخذهم الله تعالى بعقوبة العاجل والآجل.

ب. والدليل على ذلك ختم كل واحدة من القصص بقوله: ﴿وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، كما ختم به الكلام الحاكي لإعراض قوم النبي ﷺ في أول السورة، وليس ذلك إلا لتطبيق القصة على القصة.

ج. كل ذلك ليتسلى النبي ﷺ ولا يضيق صدره، ويعلم أنه ليس بدعاً من الرسل، ولا المتوقع من قومه غير ما عامل به الأمم الماضون رسلهم، وفيه تهديد ضمني لقومه، ويؤيده تصدير قصة إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ﴾

٣. الآيات [٦٩ ـ ١٠٤]:

أ. تشير الآيات بعد الفراغ عن قصة موسى إلى نبأ إبراهيم عليه السلام، وهو خبره الخطير إذ انتهض لتوحيد الله سبحانه بفطرته الزاكية الطاهرة من بين قومه المطبقين على عبادة الأصنام، فتبرأ منهم ودافع عن الحق، ثم كان من أمره ما قد كان.

ب. ففي ذلك آية، ولم يؤمن به أكثر قومه، كما سيشير إلى ذلك في آخر الآيات.

٤. الآيات [١٠٥ ـ ١٢٢] تشير الآيات بعد الفراغ عن قصتي موسى وإبراهيم عليه السلام وهما من أولي العزم، إلى قصة نوح عليه السلام وهو أول أولي العزم سادة الأنبياء، وإجمال ما جرى بينه وبين قومه، فلم يؤمن به أكثرهم فأغرقهم الله وأنجى نوحاً ومن معه من المؤمنين.

٥. الآيات [١٢٣ ـ ١٤٠] تشير الآيات إلى قصة هود عليه السلام وقومه، وهو قوم عاد.

٦. الآيات [١٤١ ـ ١٥٩] تشير الآيات إلى إجمال قصة صالح عليه السلام وقومه، وهو من أنبياء العرب، ويذكر في القرآن بعد هود عليه السلام.

٧. الآيات [١٦٠ ـ ١٧٥] تشير الآيات إلى قصة لوط النبي عليه السلام، وهو بعد صالح عليه السلام.

٨. الآيات [١٧٦ ـ ١٩١] إجمال قصة شعيب عليه السلام، وهو من أنبياء العرب، وهي آخر القصص السبع الموردة في السورة.

٩. الآيات [١٩٢ ـ ٢٢٧]:

أ. تشير الآيات إلى ما هو كالنتيجة المستخرجة من القصص السبع السابقة، ويتضمن التوبيخ

والتهديد لكفار الأمة.

ب. وفيها دفاع عن نبوة النبي ﷺ بالاحتجاج عليه بذكره في زبر الأولين وعلم علماء بني إسرائيل به، ودفاع عن كتابه بالاحتجاج على أنه ليس من إلقاءات الشياطين ولا من أقاويل الشعراء.

١. آيات الكتاب المبين وحرص النبي على إيمان قومه:

المقطع [١] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿طسم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء: ١-٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٥٠»:

١. ﴿طسم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾:

أ. الإشارة بتلك إلى آيات الكتاب مما سينزل بنزول السورة وما نزل قبل، وتخصيصها بالإشارة البعيدة للدلالة على علو قدرها ورفعة مكانتها، والمبين من أبان بمعنى ظهر وانجلى.

ب. والمعنى: تلك الآيات العالية قدرا الرفيعة مكانا آيات الكتاب الظاهر الجلي كونه من عند الله سبحانه بما فيه من سمة الإعجاز وإن كذب به هؤلاء المشركون المعاندون ورموه تارة بأنه من إلقاء شياطين الجن وأخرى بأنه من الشعر.

٢. ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾:

أ. البخوع هو إهلاك النفس عن وجد، وقوله: ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ تعليل للبخوع، والمعنى: يرجى منك أن تهلك نفسك بسبب عدم إيمانهم بآيات هذا الكتاب النازل عليك.

ب. والكلام مسوق سوق الإنكار والغرض منه تسلية النبي ﷺ.

٣. ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾:

أ. متعلق المشية محذوف لدلالة الجزاء عليه، وقوله: ﴿فَظَلَّتْ﴾، ظل فعل ناقص اسمه ﴿أَعْنَاقُهُمْ﴾ وخبره ﴿خَاضِعِينَ﴾ ونسب الخضوع إلى أعناقهم وهو وصفهم أنفسهم لأن الخضوع أول ما يظهر في عنق الإنسان حيث يطأطئ رأسه تخضعا فهو من المجاز العقلي.

ب. والمعنى: إن نشأ أن ننزل عليهم آية تخضعهم وتلجئهم إلى القبول وتضطرهم إلى الإيمان ننزل

عليهم آية كذلك فظلوا خاضعين لها خضوعا بينا بانحناء أعناقهم.

ج. وقيل: المراد بالأعناق الجماعات وقيل: الرؤساء والمقدمون منهم، وقيل: هو على تقدير مضاف والتقدير فضلت أصحاب أعناقهم خاضعين لها، وهو أسخف الوجوه.

٤. ﴿وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾:

أ. بيان لاستمرارهم على تكذيب آيات الله وتمكن الإعراض عن ذكر الله في نفوسهم بحيث كلما تجدد عليهم ذكر من الرحمن ودعوا إليه دفعه بالإعراض.

ب. فالغرض بيان استمرارهم على الإعراض عن كل ذكر أتاهم لا أنهم يعرضون عن محدث الذكر ويقبلون إلى قديمه وفي ذكر صفة الرحمن إشارة إلى أن الذكر الذي يأتيهم إنما ينشأ عن صفة الرحمة العامة التي بها صلاح دنياهم وأخراهم.

ج. وقد تقدم في تفسير أول سورة الأنبياء كلام في معنى الذكر المحدث فراجع.

٥. وضع هنا مبحثا حول [العلم الأزلي والجبر والاختيار]، خلاصته:

أ. ورد في تفسير الآية ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قول: إن المراد (وما كان في علم الله تعالى ذلك)، واستدل به المجبرة (خاصة الإمام الرازي) على الجبر، بحجة أن الحوادث معلومة لله في الأزل، فهي ضرورية الوقوع، وإلا كان علمه جهلاً، فالإنسان مجبر عليها.

ب. الاعتراض على هذه الحجة: أن العلم تابع للمعلوم لا بالعكس، والجواب عليه: أن علمه في الأزل تابع لماهية المعلوم، لكن المعلوم تابع في وجوده للعلم.

ج. نقد الحجة: الحجة مضافاً إلى فساد مقدماتها، فيها مغالطة بينة، ففرض ثبوت ما للماهية في الأزل وتقدمها على الوجود غير معقول، كما أنها مبنية على كون علمه تعالى حصولياً (نظير علومنا)، وقد بطل ذلك بالبرهان، بل علمه حضوري، وعلمه بالأشياء قبل الإيجاد عين ذاته، وبعده عين وجود الأشياء.

د. العلم الأزلي بمعلومه إنما يكون علماً إذا تعلق به على ما هو عليه بجميع قيوده وخصوصياته، ومن خصوصيات الفعل الاختياري أنه صادر عن إرادة فاعله واختياره، فإذا تعلق العلم بفعل اختياري، وجب تحققه اختيارياً، لا أن يدفع صفة الاختيار ويقيم مقامها صفة الضرورة والإجبار.

هـ. لو كان معنى الآية امتناع إيمانهم لتعلق العلم الأزلي بعدمه، لاتخذوه حجة على النبي وعذراً

لأنفسهم في استنكافهم عن الإيمان، كما اعترف به بعض المجبرة.

٦. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً، فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ﴾ حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: تخضع رقابهم يعني بني أمية، وهي الصيحة من السماء باسم صاحب الأمر.

• أقول: وهذا المعنى رواه الكليني في روضة الكافي، والصدوق في كمال الدين، والمفيد في الإرشاد، والشيخ في الغيبة،، والظاهر أنه من قبيل الجري دون التفسير لعدم مساعدة سياق الآية عليه.

٢. تكذيب المعاندين واستهزاؤهم:

المقطع [٢] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْباءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٦-٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٥١»:

١. ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبؤُا ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ تفريع على ما تقدم من استمرار إعراضهم، وقوله: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ تفريع على التفريع والأنباء جمع نبإ وهو الخبر الخطير، والمعنى لما استمر منهم الإعراض عن كل ذكر يأتيهم تحقق منهم وثبت عليهم أنهم كذبوا، وإذ تحقق منهم التكذيب فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون من آيات الله، وتلك الأنباء العقوبات العاجلة والآجلة التي ستحيق بهم.

٢. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾:

أ. الاستفهام للإنكار التوبيخي والجملة معطوف على مقدر يدل عليه المقام والتقدير أصروا واستمروا على الإعراض وكذبوا بالآيات ولم ينظروا إلى هذه الأزواج الكريمة من النباتات التي أنبتناها في الأرض.

ب. فالرؤية في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ مضمنة معنى النظر ولذا عديت بإلى، والظاهر أن المراد بالزوج الكريم، وهو الحسن على ما قيل: النوع من النبات وقد خلق الله سبحانه أنواعه أزواجا، وقيل: المراد بالزوج الكريم الذي أنبته الله يعم الحيوان وخاصة الإنسان بدليل قوله: ﴿وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً﴾

٣. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾:

أ. الإشارة بذلك إلى ما ذكر في الآية السابقة من إنبات كل زوج كريم حيث إن فيه إيجادا لكل زوج

منه وتتميم نقائص كل من الزوجين بالآخر وسوقهما إلى الغاية المقصودة من وجودهما وفيه هداية كل إلى سعادته الأخيرة ومن كانت هذه سنته فكيف يهمل أمر الإنسان ولا يهديه إلى سعادته ولا يدعوه إلى ما فيه خير دنياه وآخرته، هذا ما تدل عليه آية النبات.

ب. ﴿وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي لم يكن المترقب من حال أكثرهم بما عندهم من ملكة الإعراض وبطلان الاستعداد أن يؤمنوا فظاهر الآية نظير ظاهر قوله: ﴿فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [يونس: ٧٤] وتعليل الكفر والفسوق برسوخ الملكات الرذيلة واستحكام الفساد في السريرة من قبل في كلامه تعالى أكثر من أن تحصى.

ج. ومن هنا يظهر أن قول بعضهم: إن المراد ما كان في علم الله أن لا يؤمنوا غير سديد لأنه مضافا إلى كونه خلاف المتبادر من الجملة، مما لا دليل على أنه المراد من اللفظ بل الدليل على خلافه لسبق الدلالة على أن ملكة الإعراض راسخة لم تزل في نفوسهم.

د. وعن سيبويه أن ﴿كانَ﴾ في قوله: ﴿وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ صلة زائدة والمعنى: وما أكثرهم مؤمنين، وفيه أنه معنى صحيح في نفسه لكن المقام بما تقدم من المعنى أوفق.

٤. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فهو تعالى لكونه عزيزا غير مغلوب يأخذ المعرضين عن ذكره المكذبين لآياته المستهزءين بها ويجازيهم بالعقوبات العاجلة والآجلة، ولكونه رحيما ينزل عليهم الذكر ليهديهم ويغفر للمؤمنين به ويمهل الكافرين.

٣. نداء موسى ورسالته إلى فرعون واستعانته بهارون:

المقطع [٣] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٠-١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٥٧»:

١. ﴿وَإِذْ نادى رَبُّكَ مُوسى﴾ إلى قوله: ﴿أَلا يَتَّقُونَ﴾ أي واذكر وقتا نادى فيه ربك موسى وبعثه بالرسالة إلى قوم فرعون لإنجاء بني إسرائيل على ما فصله في سورة طه وغيرها.

٢. ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ نوع تفسير للنداء، وتوصيفهم أولا بالظالمين ثم بيانه ثانيا بقوم فرعون للإشارة إلى حكمة الإرسال وهي ظلمهم بالشرك وتعذيب بني إسرائيل كما في سورة طه من قوله: ﴿اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى﴾ إلى أن قال ﴿فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧]

٣. ﴿أَلا يَتَّقُونَ﴾ بصيغة الغيبة، وهو توبيخ غيابي منه تعالى لهم وإيراده في مقام عقد الرسالة لموسى عليه السلام في معنى قولنا: قل لهم إن ربي يوبخكم على ترك التقوى ويقول: ألا تتقون.

٤. ﴿قالَ رَبِّ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ﴾، قال في مجمع البيان: (الخوف انزعاج النفس بتوقع الضر ونقيضه الأمن وهو سكون النفس إلى خلوص النفع)، وأكثر ما يطلق الخوف على إحساس الشر بحيث يؤدي إلى الاتقاء عملا وإن لم تضطرب النفس، والخشية على تأثر النفس من توقع الشر بحيث يورث الاضطراب والقلق، ولذا نفى الله الخشية من غيره عن أنبيائه وربما أثبت الخوف فقال: ﴿وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وقال: ﴿وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً﴾ [الأنفال: ٥٨]

٥. ﴿إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ أي ينسبني قوم فرعون إلى الكذب، وقوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسانِي﴾ الفعلان مرفوعان وهما معطوفان على قوله: ﴿أَخافُ﴾ فالذي اعتل به أمور ثلاثة: خوف التكذيب وضيق الصدر وعدم انطلاق اللسان، وفي قراءة يعقوب وغيره يضيق وينطلق بالنصب عطفا على ﴿يُكَذِّبُونِ﴾ وهو أوفق بطبع المعنى، وعليه فالعلة واحدة وهي خوف التكذيب الذي يترتب عليه ضيق الصدر وعدم انطلاق اللسان، ويطابق ما سيجيء من آية القصص من ذكر علة واحدة هي خوف التكذيب.

٦. ﴿فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ﴾:

أ. أي أرسل ملك الوحي إلى هارون ليكون معينا لي على تبليغ الرسالة يقال لمن نزلت به نائبة أو أشكل عليه أمر: أرسل إلى فلان أي استمد منه واتخذه عونا لك.

ب. فالجملة أعني قوله: ﴿فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ﴾ متفرعة على قوله: ﴿إِنِّي أَخافُ﴾، وذكر خوف التكذيب مع ما معه من ضيق الصدر وعدم انطلاق اللسان توطئة وتقدمة لذكرها وسؤال موهبة الرسالة

لهارون.

ج. وإنما اعتل بها اعتل به وسأل الرسالة لأخيه ليكون شريكا له في أمره، معينا مصدقا له في التبليغ لا فرارا عن تحمل أعباء الرسالة، واستعفاء منها، قال في روح المعاني: (ومن الدليل على أن المعنى على ذلك لا أنه تعلل وقوع ﴿فَأَرْسِلْ﴾ بين الأوائل وبين الرابعة أعني قوله: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾، فآذن بتعلقه بها ولو كان تعللا لأخر)

د. وهو حسن وأوضح منه قوله تعالى في سورة القصص في القصة: ﴿قالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ، وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤]

٧. ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾:

أ. قال الراغب في المفردات: (الذنب في الأصل الأخذ بذنب الشيء يقال: ذنبته أصبت ذنبه، ويستعمل في كل فعل يستوخم عقباه اعتبارا لما يحصل من عاقبته)

ب. وفي الآية إشارة إلى قصة قتله عليه السلام، وكونه ذنبا لهم عليه إنما هو بالبناء على اعتقادهم أو الاعتبار بمعناه اللغوي المذكور آنفا، وأما كونه ذنبا بمعنى معصية الله تعالى فلا دليل عليه وسيوافيك فيه كلام عند تفسير سورة القصص إن شاء الله تعالى.

٨. ﴿قالَ كَلَّا فَاذْهَبا بِآياتِنا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾:

أ. كلا للردع وهو متعلق بما ذكره من خوف القتل، ففيه تأمين له وتطييب لنفسه أنهم لا يصلون إليه، وأما سؤاله الإرسال إلى هارون فلم يذكر ما أجيب به عنه، غير أن قوله: ﴿فَاذْهَبا بِآياتِنا﴾ دليل على إجابة مسئوله.

ب. ﴿فَاذْهَبا بِآياتِنا﴾ متفرع على الردع فيفيد أن اذهبا إليه بآياتنا ولا تخافا، وقد علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ والمراد بضمير الجمع موسى وهارون والقوم الذين أرسلا إليهم ولا يعبأ بقول من قال: إن المراد به موسى وهارون بناء على كون أقل الجمع اثنين فإنه مع فساده في أصله لا تساعد عليه ضمائر التثنية قبله وبعده كما قيل.

ج. والاستماع هو الإصغاء إلى الكلام والحديث وهو كناية عن الحضور وكمال العناية بما يجري

بينهما وبين فرعون وقومه عند تبليغ الرسالة كما قال في القصة من سورة طه: ﴿لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى﴾ [طه: ٤٦]

د. ومحصل المعنى: كلا لا يقدرون على قتلك فاذهبا إليهم بآياتنا ولا تخافا إنا حاضرون عندكم شاهدون عليكم معتنون بما يجري بينكم.

٩. ﴿فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ﴾:

أ. بيان لقوله في الآية السابقة: ﴿فَاذْهَبا بِآياتِنا﴾

ب. ﴿فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ تفريع على إتيان فرعون، والتعبير بالرسول بلفظ المفرد إما باعتبار كل واحد منهما أو باعتبار كون رسالتها واحدة وهي قولهما: ﴿أَنْ أَرْسِلْ﴾، أو باعتبار أن الرسول مصدر في الأصل فالأصل أن يستوي فيه الواحد والجمع، والتقدير إنا ذوا رسول رب العالمين أي ذوا رسالته كما قيل.

ج. ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ تفسير للرسالة المفهومة من السياق والمراد بإرسالهم إطلاقهم لكن لما كان المطلوب أن يعودوا إلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم وهي أرض آبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليه السلام سمي إطلاقهم ليعودوا إليها إرسالا منه لهم إليها.

٤. حوار فرعون مع موسى حول النعمة والجريمة:

المقطع [٤] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ قالَ فَعَلْتُها إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٨ـ٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٦٠»:

١. ﴿قالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾:

أ. الاستفهام للإنكار التوبيخي، و﴿نُرَبِّكَ﴾ من التربية، والوليد الصبي.

ب. لما أقبل فرعون على موسى وهارون وسمع كلامهما عرف موسى وخصه بالخطاب قائلا ألم نربك..، ومراده الاعتراض عليه أولا من جهة دعواه الرسالة يقول: أنت الذي ربيناك وأنت وليد ولبثت فينا من عمرك سنين عديدة نعرفك باسمك ونعتك ولم ننس شيئا من أحوالك فمن أين لك هذه الرسالة

وأنت من نعرفك ولا نجهل أصلك؟

٢. ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ﴾:

أ. الفعلة بفتح الفاء بناء مرة من الفعل، وتوصيف الفعلة بقوله: ﴿الَّتِي فَعَلْتَ﴾ للدلالة على عظم خطره وكثرة شناعته وفظاعته نظير ما في قوله: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨]، ومراده بهذه الفعلة قتله عليه السلام القبطي.

ب. ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ﴾ ظاهر السياق على ما سيأتي الإشارة إليه أن مراده بالكفر كفران النعمة وأن قتله القبطي وإفساده في أرضه كفران لنعمته عليه بالخصوص بما له عنده من الصنيعة حيث كف عن قتله كسائر المواليد من بني إسرائيل ورباه في بيته بل لأنه من بني إسرائيل وهو يراهم عبيدا لنفسه ويرى نفسه ربا منعما عليهم فقتل الواحد منهم رجلا من قومه وإفساده في الأرض خروج من طور العبودية وكفر بنعمته.

ج. فمحصل اعتراضه المشار إليه في الآيتين أنك الذي ربيناك صبيا صغيرا ولبثت فينا من عمرك سنين، وأفسدت في الأرض بقتل النفس فكفرت بنعمتي وأنت من عبيدي الإسرائيليين فمن أين جاءتك هذه الرسالة؟ وكيف تكون رسولا وأنت هذا الذي نعرفك؟

د. وبذلك يظهر عدم استقامة تفسير بعضهم الكفر بالكفر المقابل للإيمان، وأن المعنى وأنت من الكافرين بألوهيتي أو أنت من الكافرين بالله على زعمك حيث خالطتنا سنين وأنت في ملتنا، وكذا قول بعضهم: إن المراد وأنت من الكافرين بنعمتي عليك خاصة.

٣. ﴿قالَ فَعَلْتُها إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ﴾:

أ. ضمير ﴿فَعَلْتُها﴾ راجع إلى الفعلة والظاهر أن ﴿إِذاً﴾ مقطوع عن الجواب والجزاء ويفيد معنى حينئذ كما قيل، وعبده تعبيدا وأعبده إعبادا إذا اتخذه عبدا لنفسه.

ب. والآيات الثلاث جواب موسى عليه السلام عما اعترض به فرعون، والتطبيق بين جوابه عليه السلام وما اعترض به فرعون يعطي أنه عليه السلام حلل كلام فرعون إلى القدح في دعواه الرسالة من ثلاثة أوجه: أحدها استغراب رسالته واستبعادها وهو الذي يعلم حاله وقد أشار إليه بقوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ

فِينا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ والثاني استقباح فعلته ورميه بالإفساد والجرم بقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ والثالث المن عليه بأنه من عبيده ويستفاد ذلك من قوله: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ﴾ وقد اقتضى طبع ما يذكره في الجواب أن يغير الترتيب في الجواب فيجيب أولا عن اعتراضه الثاني ثم عن الأول ثم عن الثالث.

ج. فقوله: ﴿فَعَلْتُها إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ جواب عن اعتراضه بقتل القبطي وقد استعظمه حيث لم يصرح باسمه بل كنى عنه بالفعلة التي فعلت صونا للأسماع أن تقرع باسمه فتتألم.

د. والتدبر في متن الجواب ومقابلته الاعتراض يعطي أن قوله: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً﴾ من تمام الجواب عن القتل فيتقابل الحكم والضلال ويتضح حينئذ أن المراد بالضلال الجهل المقابل للحكم والحكم إصابة النظر في حقيقة الأمر وإتقان الرأي في تطبيق العمل عليه فيرجع معناه إلى القضاء الحق في حسن الفعل وقبحه وتطبيق العمل عليه، وهذا هو الذي كان يؤتاه الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾

هـ. فالمراد أني فعلتها حينئذ والحال أني في ضلال من الجهل بجهة المصلحة فيه والحق الذي يجب أن يتبع هناك فأقدمت على الدفاع عمن استنصرني ولم أعلم أنه يؤدي إلى قتل الرجل ويؤدي ذلك إلى عاقبة وخيمة تحوجني إلى خروجي من مصر وفراري إلى مدين والتغرب عن الوطن سنين.

و. ومن هنا يظهر ما في قول بعضهم: إن المراد بالضلال الجهل بمعنى الإقدام على الفعل من غير مبالاة بالعواقب كما في قوله:

ألا لا يجهلن أحد علينا...فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وكذا قول بعض آخر: إن المراد بالضلال المحبة كما فسر به قول بني يعقوب لأبيهم: ﴿تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ أي في محبتك القديمة ليوسف، فالمعنى: فعلتها حينئذ وأنا من المحبين لله لا ألوي عن محبته إلى شيء.

• أما الوجه الأول ففيه أنه اعتراف بالجرم والمعصية، وآيات سورة القصص ناصة على أن الله سبحانه آتاه حكما وعلما قبل واقعة القتل وهذا لا يجامع الضلال بهذا المعنى من الجهل.

• وأما الوجه الثاني ففيه مضافا إلى عدم مساعدة السياق: أن من الممتنع من أدب القرآن أن يسمي

محبة الله سبحانه ضلالا.

ز. وأما قول القائل: إن المراد بالضلال الجهل بمعنى عدم التعمد وأنه إنما فعل ذلك جاهلا به غير متعمد إياه فإنه عليه السلام إنما تعمد وكز القبطي للتأديب فأدى إلى ما أدى.

ح. وكذا قول القائل: إن المراد بالضلال الجهل بالشرائع كما فسر به بعضهم قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾

ط. وكذا قول القائل: إن المراد بالضلال النسيان كما فسر به قوله تعالى: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وأن المعنى فعلتها ناسيا حرمتها أو ناسيا أن الوكز مما يفضي إلى القتل عادة.

ي. فوجوه يمكن أن يوجه كل منها بما يرجع به إلى ما قدمناه.

٤. ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً﴾:

أ. متفرع على قصة القتل، والسبب في خوفه وفراره ما أخبر الله به في سورة القصص بقوله: ﴿وَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى قالَ يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١]

ب. وأما الحكم فالمراد به، كما استظهرناه، إصابة النظر في حقيقة الأمر وإتقان الرأي في العمل به.

ج. سؤال وإشكال: فإن قلت: صريح الآية أن موهبة الحكم كانت بعد واقعة القتل ومفاد آيات سورة القصص أنه عليه السلام أعطي الحكم قبلها، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوى آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾ [القصص: ١٥]، ثم ساق القصة وذكر القتل والفرار، والجواب:

- إنما ورد لفظ الحكم هاهنا وفي سورة القصص منكرا وهو مشعر بمغايرة كل منهما الآخر وقد ورد في خصوص التوراة أنها متضمنة للحكم، قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمُ التَّوْراةُ فِيها حُكْمُ اللهِ﴾ [المائدة: ٤٣]، وقد نزلت التوراة بعد غرق فرعون وإنجاء بني إسرائيل.
- فمن الممكن أن يقال: إن موسى عليه السلام أعطي مراتب من الحكم بعضها فوق بعض قبل قتل القبطي وبعد الفرار قبل العود إلى مصر وبعد غرق فرعون، وقد خصه الله في كل مرة بمرتبة من الحكم

حتى تمت له الحكمة بنزول التوراة، وهذا بحسب التمثيل نظير ما يرزق بعض الناس أوان صباه سلامة في فطرته قلما يميل معها طبعه إلى الشر والفساد ثم إذا نشأ يعطى اعتدالا في التعقل وجودة في التدبير فينبعث إلى اكتساب الفضائل فيرزق ملكة التقوى والصفات الثلاث في الحقيقة سنخ واحد ينمو ويزيد حالا بعد حال.

• ويظهر بما تقدم عدم استقامة تفسير بعضهم الحكم بالنبوة لعدم دليل عليه من جهة اللفظ ولا المقام.

• على أن الله سبحانه ذكر الحكم والنبوة في مواضع من كلامه وفرق بينهما كقوله: ﴿أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، وقوله: ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام: ٨٩]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [الجاثية: ١٦] إلى غير ذلك.

٥. ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾:

أ. جواب عن الاعتراض الأول وهو استغراب رسالته واستبعادها وهم يعرفونه، وقد شاهدوا أحواله حينما كانوا يربونه فيهم وليدا ولبث فيهم من عمره سنين، وتقريره أن استغرابهم واستبعادهم رسالته استنادا إلى سابق معرفتهم بحاله إنما يستقيم لو كانت الرسالة أمرا اكتسابيا يمكن أن يحدس به أو يتوقع حصوله بحصول مقدماته الاختيارية، وليس الأمر كذلك بل هي أمر وهبي لا تأثير للأسباب العادية فيها وقد جعله الله من المرسلين كما وهب له الحكم بغير اكتساب هذا ما يعطيه التدبر في السياق.

ب. وأما ما ذكروه من أن قوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً﴾، مسوق للمن على موسى عليه السلام دون الاستغراب والاستبعاد كما ذكرناه، فالآية في نفسها وإن لم تأب الحمل على ذلك لكن سياق مجموع الجواب لا يساعد عليه، وذلك أن فيه إفساد السياق من حيث يتعين أن يجعل قوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ﴾، جوابا عن المن وهو لا ينطبق عليه، ويجعل قوله: ﴿فَعَلْتُها إِذاً﴾ جوابا عن الاعتراض بالقتل، ويبقى قوله: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فضلا لا حاجة إليه فافهم ذلك.

٦. ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ﴾:

أ. جواب عن منه عليه وتقريعه بأنه من عبيده وقد كفر نعمته وتقرير الجواب أن هذا الذي تعده نعمة وتقرعني بكفرانها سلطة ظلم وتغلب إذ عبدت بني إسرائيل والتعبيد ظلما وتغلبا ليس من النعمة في

شيء.

ب. فالجملة استفهامية مسوقة للإنكار و﴿أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ بيان لما أشير إليه بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ والمحصل أن الذي تشير إليه بقولك: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ﴾ من أن لك علي نعمة كفرتها إذ كنت ولي نعمتي وسائر بني إسرائيل، أو إذ كنت ولي نعمتنا معشر بني إسرائيل، ليس بحق إذ كونك وليا منعما ليس إلا استنادا إلى التعبيد، والتعبيد ظلم والولاية المستندة إليه أيضا ظلم وحاشا أن يكون الظالم وليا منعما له على من عبده نعمة وإلا كان التعبيد نعمة وليس نعمة، ففي قوله: ﴿أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ وضع السبب موضع المسبب.

ج. والقوم حللوا كلام فرعون: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ﴾، إلى اعتراضين، كما أشرنا إليه، المن عليه بتربيته وليدا وكفرانه النعمة وإفساده في الأرض بقتل القبطي فأشكل عليهم الأمر من جهتين، كما أشرنا إليه:

- إحداهما: صيرورة قوله: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فضلا لا حاجة إليه في سوق الجواب.
- والثانية: عدم صلاحية قوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ جوابا عن منه على موسى عليه السلام بتربيته في بيته وليدا.

د. وقد ذكروا في توجيهه وجوها:

- منها: أنه مسوق للاعتراف بأن تربيته لموسى كانت نعمة عليه وإنكار أن يكون ترك استعباده نعمة وهمزة الإنكار مقدرة فكأنه يقول: أوتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل ولم تعبدني هذا، وأنت ترى أن فيه تقديرا لما لا دليل عليه من جهة اللفظ ولا إشارة.
- ومنها: أنه إنكار لأصل النعمة عليه لمكان تعبيده بني إسرائيل كأنه يقول: إن تربيتك لي ليست نعمة يمن بها علي لأنك عبدت قومي فأحبطت به عملك فقوله: ﴿أَنْ عَبَّدْتَ﴾ في مقام التعليل للإنكار هذا، وهذا الوجه وإن كان أقرب إلى الذهن من سابقه لكن هذا الجواب غير تام معنى فإن تعبيده لبني إسرائيل لا يغير حقيقة ما له من الصنيعة عند موسى في تربيته وليدا.
- ومنها: أن المعنى أن هذه النعمة التي تمن بها علي من التربية إنما سببه ظلمك بني إسرائيل بتعبيدهم فاضطرت أمي لذلك أن ألقتني في اليم فأخذتني فربيتني فإذ كانت هذه التربية مسببة عن ظلمك بالتعبيد فليست بنعمة هذا والشأن في استفادة هذا المعنى من لفظ الآية.

• ومنها: أن الذي رباني أمي وغيرها من بني إسرائيل حيث استعبدتهم فأمرتهم فربوني فليست هذه التربية نعمة منك تمنها علي لانتهائها إلى التعبيد ظلما هذا، وهذا الوجه أبعد من سابقه من لفظ الآية.

• ومنها: أن ذلك اعتراف منه عليه السلام بنعمة فرعون عليه والمعنى وتلك التربية نعمة منك تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل وتركت تعبيدي هذا وأنت خبير بأن لا دليل على ما قدره من قوله: وتركت تعبيدي.

٥. جدال فرعون في ربوبية الله واتهامه لموسى بالجنون:

المقطع [٥] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٦٦»:

١. ﴿قالَ فِرْعَوْنُ وَما رَبُّ الْعالَمِينَ﴾:

أ. لما كلم فرعون موسى عليه السلام في معنى رسالته قادحا فيها فتلقى الجواب بما كان فيه إفحامه أخذ يكلمه في خصوص مرسلة وقد أخبره أن الذي أرسله هو رب العالمين فراجعه فيه واستوضحه بقوله: ﴿وَما رَبُّ الْعالَمِينَ﴾؟ إلى تمام سبع آيات.

ب. واتضاح المراد منها يتوقف على تذكر أصول مذاهب الوثنية في أمر الربوبية وقد تقدمت الإشارة إليها في خلال الأبحاث السابقة من هذا الكتاب كرارا.

ج. فهؤلاء يرون أن وجود الأشياء ينتهي إلى موجد واجب الوجود هو واحد لا شريك له في وجوب وجوده هو أجل من أن يحده حد في وجوده وأعظم من أن يحيط به فهم أو يناله إدراك، ولذلك لا يجوز عبادته لأن العبادة نوع توجه إلى المعبود والتوجه إدراك.

د. ولذلك بعينه عدلوا عن عبادته والتقرب إليه إلى التقرب إلى أشياء من خلقه ذوي وجودات شريفة نورية أو نارية، هي مقربة إليه فانية فيه من الملائكة والجن والقديسين من البشر المتخلصين من ألواث المادة الفانين في اللاهوت الباقين بها ومنهم الملوك العظام أو بعضهم عند قدماء الوثنية وكان من جملتهم فرعون وموسى وبالجملة كانوا يعبدونهم بعبادة أصنامهم ليقربوهم إلى الله زلفى ويشفعوا لهم

بمعنى أن يفيضوا إليهم من الخير الذي يفيض عنهم كما في الملائكة أو لا يصيبوهم بالشر الذي يترشح عنهم كما في الجن فإن كلا من هؤلاء المعبودين يرجع إليه تدبير أمر من أمور العالم الكلية كالحب والبغض والسلم والحرب والرفاهية وغيرها أو صقع من أصقاعه كالسماء والأرض والإنسان ونحوها.

هـ. فهناك أرباب وآلهة يتصرف كل منهم في العالم الذي يرجع إليه تدبيره كإله عالم الأرض وإله عالم السماء وهؤلاء هم الملائكة والجن وقديسو البشر، وإله عالم الآلهة وهو الله سبحانه فهو إله الآلهة ورب الأرباب.

و. إذا عرفت ما ذكرناه بان لك أن لا معنى صحيحا لقولنا: رب العالمين عند الوثنيين نظرا إلى أصولهم إذ لو أريد به بعض هذه الموجودات الشريفة الممكنة بأعيانهم فهو رب عالم من عوالم الخلقة وهو العالم الذي يباشر التصرف فيه كعالم السماء وعالم الأرض مثلا ولو أريد به الله سبحانه فهو رب عالم الأرباب وإله عالم الآلهة فقط دون جميع العالمين ولو أريد غير الطائفتين من الرب الواجب الوجود والأرباب الممكنة الوجود فلا مصداق له معقولا.

ز. فقوله: ﴿قالَ فِرْعَوْنُ وَما رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ سؤال منه عن حقيقة رب العالمين بيانه أن فرعون كان وثنيا يعبد الأصنام وهو مع ذلك يدعي الألوهية، أما عبادته الأصنام فلقوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، وأما دعواه الألوهية فللآية المذكورة ولقوله تعالى: ﴿فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى﴾ [النازعات: ٢٤]

ح. ولا منافاة عند الوثنية بين كون الشيء إلها ربا وبين كونه مربوبا لرب آخر لأن الربوبية هو الاستقلال في تدبير شيء من العالم وهو لا ينافي الإمكان والمربوبية لشيء آخر وكل رب عندهم مربوب لآخر إلا الله سبحانه فهو رب الأرباب لا رب فوقه وإله الآلهة لا إله له.

ط. وكان الملك عند الوثنية ظهورا من اللاهوت في بعض النفوس البشرية بالسلطة ونفوذ الحكم فكان يعبد الملوك كما يعبد أرباب الأصنام وكذلك رؤساء البيوت في بيوتهم، وكان فرعون وثنيا يعبد الآلهة وهو ملك القبط يعبده قومه كسائر الآلهة.

ي. فلما سمع من موسى وهارون قولهما: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ تعجب منه إذ لم يعقل له معنى محصلا إذ لو أريد به الواجب وهو الله سبحانه فهو عنده رب عالم الأرباب دون جميع العالمين ولو أريد به

بعض الممكنات الشريفة من الآلهة كبعض الملائكة وغيرهم فهو أيضا عنده رب عالم من عوالم الخلقة دون جميع العالمين فما معنى رب العالمين.

ك. ولذلك قال: ﴿وَما رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ فسأل عن حقيقة الموصوف بهذه الصفة بما هو موصوف بهذه الصفة ولم يسأل عن حقيقة الله سبحانه فإنه لوثنيته كان معتقدا بوجوده مذعنا له وهو يرى كسائر الوثنيين أنه لا سبيل إلى إدراك حقيقته كيف؟ وهو أساس مذهبهم الذي يبنون عليه عبادة سائر الآلهة والأرباب كما سمعت.

٢. ﴿قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾:

أ. جواب موسى عليه السلام عن سؤاله: ﴿وَما رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ وهو خبر لمبتدإ محذوف، ومحصل المعنى على ما يعطيه المطابقة بين السؤال والجواب: هو رب السماوات والأرض وما بينهما التي تدل بوجود التدبير فيها وكونه تدبيرا واحدا متصلا مرتبطا على أن لها مدبرا، ربا، واحدا على ما يراه الموقنون السالكون سبيل اليقين من البرهان والوجدان.

ب. وبتعبير آخر مرادي بالعالمين السماوات والأرض وما بينهما التي تدل بالتدبير الواحد الذي فيها على أن لها ربا مدبرا واحدا، ومرادي برب العالمين ذلك الرب الواحد الذي تدل عليه وهذه دلالة يقينية يجدها أهل اليقين الذين يتعاطون البرهان والوجدان.

ج. سؤال وإشكال: فإن قلت: لم يطلب فرعون من موسى عليه السلام إلا أن يعرفه ما هذا الذي يسميه رب العالمين؟ وما حقيقته؟ لكونه غير معقول عنده فلم يسأل إلا التصور فما معنى قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ واليقين علم تصديقي لا توقف للتصور عليه أصلا، على أنه عليه السلام لم يأت في جواب فرعون بشيء غير أنه وضع لفظ السماوات والأرض وما بينهما موضع لفظ العالمين فكان تفسيرا للفظ الجمع بأسماء آحاده كتفسير الرجال بزيد وعمرو وبكر فلم يفد بالأخرة إلا التصور الأول ولا تأثير لليقين في ذلك، والجواب:

• كون فرعون يسأله أن يصور له ﴿رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ تصويرا مسلم لا شك فيه لكن موسى بدل القول بوضع ﴿السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا﴾ مكان العالمين وهو يدل على ارتباط بعض الأجزاء ببعض والاتصال بينها بحيث يؤدي إلى وحدة التدبير الواقع فيها والنظام الجاري عليها ثم قيده بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ

مُوقِنِينَ﴾ ليدل على أن أهل اليقين يصدقون من ذلك بوجود مدبر واحد لجميع العالمين.

• فكأنه قيل له: ما تريد برب العالمين؟ فقال: أريد به ما يريده أهل اليقين إذ يستدلون بارتباط التدبير واتصاله في عوالم السماوات والأرض وما بينهما على أن لجميع هذه العوالم مدبرا واحدا وربا لا شريك له في ربوبيته لها وإذ كانوا يصدقون بوجود رب واحد للعالمين فهم يتصورونه بوجه تصورا إذ لا معنى للتصديق بلا تصور.

• وبعبارة موجزة: رب العالمين هو الذي يوقن الموقنون بربوبيته لجميع السماوات والأرض وما بينهما إذا نظروا إليها وشاهدوا وحدة التدبير الذي فيها.

• والاحتجاج بتحقق التصديق على تحقق التصور قبله أقوى ما يمكن أن يحتج به على أنه تعالى مدرك بوجه ومتصور تصورا صحيحا وإن استحال أن يدرك بكنهه ولا يحيطون به علما.

د. وقد ظهر بذلك كله:

• أولا: أن الجواب إنما هو بإحالته في مسئوله إلى ما يتصوره منه الموقنون إذ يصدقون بوجوده.

• وثانيا: أن الذي أشير إليه من الحجة في الآية هو البرهان على توحيد الربوبية المأخوذ من وحدة التدبير إذ هو الذي يمسه الحاجة قبال الوثنية المدعين للشركاء في الربوبية.

هـ. وبذلك يظهر فساد ما ذكروا أن العلم بحقيقة الذات لما كان ممتنعا عدل موسى عليه السلام عن تعريف الحقيقة بالحد إلى تعريفه تعالى بصفاته فقال: ﴿رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا﴾ وأشار بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ إلى دلالتها بحدوثها على أن محدثها ذات واحدة واجبة الوجود لا يشاركها في وجوب وجودها شيء غيرها.

و. وجه الفساد ما عرفت أن الوثنية قائلون باستحالة العلم بحقيقة الذات وكنهها، وأن الموجد ذات واجبة الوجود لا يشاركها في وجوب وجودها غيره، وأن الآلهة من دون الله موجودات ممكنة الوجود كل منها مدبر لجهة من جهات العالم وهي جميعا مخلوقة لله فما قرروه في معنى الآية لا يجدي في مقام المخاصمة معهم شيئا.

٣. ﴿قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ﴾:

أ. أي ألا تصغون إلى ما يقول موسى؟ والاستفهام للتعجيب يريد أن يصغوا إليه فيتعجبوا من

قوله حيث يدعي رسالة رب العالمين، وإذا سئل ما رب العالمين؟ أعاد الكلمة ثانيا ولم يزد على ما بدأ به شيئا.

ب. وهذا تمويه منه عليهم يريد به الستر على الحق الذي لاح من كلام موسى عليه السلام فإنه إنما قال إن جميع العالمين تدل بوحدة التدبير الذي يشاهده أهل اليقين فيها على أن لها ربا مدبرا واحدا هو الذي تسألني عنه، وهو يفسر كلامه أنه يقول: أنا رسول رب العالمين، فإذا سألته ما رب العالمين؟ يجيبني بأنه رب العالمين.

ج. وبما تقدم بأن عدم سداد قولهم في تفسير هذا التعجيب أن مراده أني سألته عن الذات فأجاب بالصفة وذلك أن السؤال إنما هو عن الذات من حيث صفته على ما تقدم بيانه، ولم يفسر موسى الذات بالوصف بل غير قوله: ﴿رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ فوضع ثانيا قوله: ﴿السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ مكان قوله أولا: ﴿الْعالَمِينَ﴾ كأنه يومئ إلى أن فرعون لم يفهم معنى العالمين.

٤. ﴿قالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾:

أ. جواب موسى عليه السلام ثانيا فإنه لما رأى تمويه فرعون على من حوله وقد كان أجاب عن سؤاله ﴿وَما رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ بتفسير العالمين من العالم الكبير كالسماوات والأرض وما بينهما عدل ثانيا إلى ما يكون أصرح في المقصود فذكر ربوبيته تعالى لعالمي الإنسانية فإن العالم الجماعة من الناس أو الأشياء فعالمو الإنسان هو الجماعات من الحاضرين والماضين ولذلك قال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾

ب. فإن فرعون ما كان يدافع في الحقيقة إلا عن نفسه لما كان يدعي الألوهية فكان يحتال في أن يبطل تعلق ربوبية الرب به في ضمن تعلقه بالعالمين لاستلزام ذلك بطلان ربوبية الأرباب وهو من جملتهم وإن كان يرى أنه أعلاهم وأهمهم كما حكى الله تعالى عنه: ﴿فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى﴾ [النازعات: ٢٤]، ﴿وَقالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]

ج. فكأنه كان يقول إن أردت برب العالمين الله تعالى فهو رب الأرباب لا غير وإن أردت غيره من الآلهة فكل منهم رب عالم خاص فما معنى رب العالمين؟ فأجاب موسى بما حاصله أن ليس في الوجود إلا رب واحد فيكون رب العالمين فهو ربكم وقد أرسلني إليكم.

د. وكان محصل تمويه فرعون أن موسى لم يجبه بشيء إذ كرر اللفظ فأجابه موسى ثانيا بالتصريح

على أن رب العالمين هو رب عالمي الإنسانية من الحاضرين والماضين وبذلك تنقطع حيلته.

٥. ﴿قالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾:

أ. قول فرعون ثانيا وقد سمى موسى رسولا تهكما واستهزاء وأضافه إلى من حوله ترفعا من أن يكون رسولا إليه، وقد رماه بالجنون مستندا إلى قوله عليه السلام: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ﴾

ب. كأنه يقول: إنه لمجنون لما في كلامه من الاختلال الكاشف عن الاختلال في تعقله يدعي رسالة رب العالمين؟ فأسأله ما رب العالمين فيكرر اللفظ تقريبا أولا ثم يفسره بأنه ربكم ورب آبائكم الأولين.

٦. ﴿قالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾:

أ. ظاهر السياق أن المراد بالمشرق جهة شروق الشمس وسائر الأجرام النيرة السماوية وطلوعها وبالمغرب الجهة التي تغرب فيها بحسب الحس، وبما بينهما ما بين الجهتين فيشمل العالم المشهود ويساوي السماوات والأرض وما بينهما.

ب. فيكون إعادة لمعنى الجواب الأول بتقرير آخر وهو مشتمل على ما اشتمل عليه من نكتة اتصال التدبير واتحاده فإن للشروق ارتباطا بالغروب والمشرق والمغرب يتحققان طرفين لوسط بينهما، كما أن للسماء أرضا ولهما أمر بينهما وهذا النوع من الاتحاد لا يقبل إلا تدبيرا متصلا واحدا، وكما أن كل أمة حاضرة لها ارتباط وجودي بالأمم الماضية ارتباط الأخلاف بالأسلاف فالنوع واحد والتدبير واحد فالمدبر واحد.

ج. وقد بدل قوله في الجواب الأول: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ من قوله هاهنا: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تعريضا له حيث قال لمن حوله: ﴿أَلا تَسْتَمِعُونَ﴾ استهزاء به وإهانة له، ثم رماه ثانيا بالجنون واختلال الكلام فأشار عليه السلام بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إلى أنهم هم المحرومون من نعمة التعقل والتفقه ولو كانوا يعقلون لفهموا أن جوابه الأول ليس بتكرار غير مفيد ولكفاهم حجة على توحيد الرب وأن القائم بتدبير جميع العالمين من السماوات والأرض وما بينهما مدبر واحد لا مدبر سواه ولا رب غيره.

د. وقد تبين بما ذكر أن الآية أعني قوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ﴾، تقرير آخر لقوله في الجواب الأول: ﴿رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا﴾ وأنه برهان على وحدة المدبر من طريق وحدة التدبير وفي ذلك تعريف لرب العالمين بأنه المدبر الواحد الذي يدل عليه التدبير الواحد في جميع العالمين، نعم البيان الذي يشير إليه هذه الآية أوضح لاشتماله على معنى الشروق والغروب وكونهما من التدبير ظاهر.

هـ. وقد ذكروا أن الحجج المودعة في الآيات حجج على وحدانية ذات الواجب بالذات ونفي الشريك في وجوب الوجود وقد تقدم عدم استقامته البتة.

٦. تهديد فرعون لموسى وطلبه الآية:

المقطع [٦] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٩ـ٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٧٢»:

١. ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾:

أ. تهديد منه لموسى عليه السلام لو دام على ما يقول به من ربوبية رب العالمين مدعيا أنه رسول منه وهذا دأب الجاهل المعاند إذا انقطع عن الحجة أخذ في التهديد وتشبث بالوعيد.

ب. واتخاذ إله غيره كناية عن القول بربوبية رب العالمين الذي يدعو إليه موسى وإنما لم يذكره صونا للسانه عن التفوه باسمه، ولم يعبأ بسائر الآلهة التي كانوا يعبدونها استكبارا وعلوا، وكأن السجن كان جزاء المعرضين عنه المنكرين لألوهيته.

ج. والظاهر أن اللام في ﴿الْمَسْجُونِينَ﴾ للعهد، والمعنى: لو دمت على ما تقول لأجعلنك في زمرة الذين في سجني على ما تعلم من سوء حالهم وشدة عذابهم، ولهذا لم يعدل عن هذا التعبير إلى مثل قولنا: لأسجننك مع اختصاره.

٢. ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾:

أ. القائل هو موسى عليه السلام والمراد بشيء مبين شيء يبين ويظهر صحة دعواه وهو آية الرسالة التي تدل على صحة دعوى الرسالة من مدعيه فإن الآية المعجزة إنما تدل على صدق الرسول في دعواه الرسالة وأما المعارف الإلهية التي يدعو إليها كالتوحيد والمعاد وما يتعلق بهما فالسبيل إلى إثباته الحجة البرهانية وعلى ذلك كانت تجري سيرة الأنبياء في دعوتهم وقد تقدم كلام فيه في الجزء الأول من الكتاب.

ب. والمعنى: قال موسى: أتجعلني من المسجونين ولو أتيتك بشيء يوضح صدقي فيما ادعيت من

الرسالة.

٣. ﴿قالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ القائل فرعون وقد فرع أمره بإتيانه على استفهام موسى المشعر بأنه يدعي أن عنده شيئا مبينا ولذا قيد الأمر بالإتيان بقوله: ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي إن كنت صادقا في أن عندك شيئا كذلك.

٤. ﴿فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ هاتان الآيتان اللتان أوتيهما موسى ليلة الطور، والثعبان: الحية العظيمة وكونه مبينا ظهور واقعيته بحيث لا يرتاب فيه، والمراد بنزع يده نزعه من جيبه بعد وضعها فيه كما في سورتي: النمل [الآية: ١٢] والقصص [الآية: ٣٢]

٥. ﴿قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَما ذا تَأْمُرُونَ﴾:

أ. القائل فرعون وقد قال لموسى: ﴿فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ رجاء أن يأتي بأمر فيه موضع معارضة ومناقشة فلما أتى بما لا مغمض فيه لم يجد بدا دون أن يبهته بأنه ساحر عليم.

ب. ولذا أتبع رميه بالسحر بقوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ﴾ إغراء لهم عليه وحثا لهم على أن يتفقوا معه على دفعه بأي وسيلة ممكنة.

٦. ﴿فَماذا تَأْمُرُونَ﴾:

أ. لعل المراد بالأمر الإشارة عليه لما أن المشير يشير على من يستشيره بلفظ الأمر فالمعنى إذا كان الشأن هذا فما ذا تشيرون علي أن أعامله به حتى أعمل به وذلك أنه كان يرى نفسه ربهم الأعلى ويراهم عبيده ولا يناسب ذلك حمل الأمر على معناه المتعارف.

ب. ويؤيد هذا المعنى أنه تعالى حكى في موضع آخر هذا الكلام عن الملإ أنفسهم إذ قال قالَ: ﴿الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَما ذا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١١٠]، وظاهر أن المراد بأمرهم إشارتهم على فرعون أن افعل بهما كذا.

ج. وقيل: إن سلطان المعجزة بهره وأدهشه فضل عن عجبه وتكبره وغشيته المسكنة فلم يدر ما ذا يقول؟ ولا كيف يتكلم؟

٧. ﴿قالُوا أَرْجِهْ وَأَخاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾:

أ. القائلون هم الملأ حوله وهم أشراف قومه، وقوله: ﴿أَرْجِهْ﴾ بسكون الهاء على القراءة الدائرة

وهو أمر من الإرجاء بمعنى التأخير أي أخر موسى وأخاه وأمهلهما ولا تعجل إليهما بسياسة أو سجن ونحوه حتى تعارض سحرهما بسحر مثله.

ب. وقرئ ﴿أَرْجِهْ﴾ بكسر الهاء و(أرجئه) بالهمزة وضم الهاء وهما أفصح من القراءة الدائرة، والمعنى واحد على أي حال.

٨. ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ﴾:

أ. المدائن جمع مدينة وهي البلدة والحاشر من الحشر وهو إخراج إلى مكان بإزعاج أي ابعث في البلاد عدة من شرطائك وجنودك يحشرون كل سحار عليم فيها ويأتوك بهم لتعارضهما بسحرهم.

ب. والتعبير بالسحارون الساحر للإشارة إلى أن هناك من هو أعلم منه بفنون السحر وأكثر عملا.

٧. جمع السحرة ووعدهم بالأجر والتقريب:

المقطع [٧] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٣٨-٤٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٧٤»:

١. ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ هو يوم الزينة الذي اتفق موسى وفرعون على جعله ميقاتا للمعارضة كما في سورة طه ففي الكلام إيجاز وتلخيص.

٢. ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ﴾ الاستفهام لحث الناس وترغيبهم على الاجتماع، قال في الكشاف، ما حاصله أن المراد باتباع السحرة اتباعهم في دينهم، وكانوا متظاهرين بعبادة فرعون كما يظهر من سياق الآيات التالية، وليس مرادهم بذلك إلا أن لا يتبعوا موسى لا اتباع السحرة، وإنما ساقوا كلامهم مساق الكناية ليحملوا به السحرة على الاهتمام والجد في المغالبة.

٣. ﴿فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ قالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾:

أ. الاستفهام في معنى الطلب، وقد قالوا: ﴿إِنْ كُنَّا﴾ ولم يقولوا، إذا كنا نحن الغالبين ليفيد القطع

بالغلبة كما يفيده قولهم بعد: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ﴾ بل ألقوه في صورة الشك ليكون أدعى لفرعون إلى جعل الأجر.

ب. وقد أثر ذلك أثره حيث جعل لهم أجرا وزاد عليه الوعد بجعلهم من المقربين.

٨. إلقاء السحرة وتلقف عصا موسى لما يأفكون:

المقطع [٨] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ٤٣ـ٤٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٧٥»:

١. ﴿قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا﴾ إلى قوله: ﴿تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ﴾ الحبال جمع حبل، والعصي جمع عصا، واللقف الابتلاع بسرعة، وما يأفكون من الإفك بمعنى صرف الشيء عن وجهه سمي السحر إفكا لأن فيه صرف الشيء عن صورته الواقعية إلى صورة خيالية، ومعنى الآيات ظاهر.

٩. إيمان السحرة وتهديد فرعون وصلبهم وإيمانهم:

المقطع [٩] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٤٦ـ٥١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٧٥»:

١. ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ رَبِّ مُوسى وَهارُونَ﴾ يريد أن السحرة لما رأوا ما رأوا من الآيات الباهرة بهرهم وأدهشهم ذلك فلم يتمالكوا أنفسهم دون أن خروا على الأرض ساجدين لله سبحانه فاستعير الإلقاء لخرورهم على الأرض للدلالة على عدم تمالك أنفسهم كأنهم قد طرحوا على الأرض طرحا.

٢. ﴿قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾ فيه إيمان بالله سبحانه إيمان توحيد لما تقدم أن الاعتراف بكونه تعالى رب العالمين لا يتم إلا مع التوحيد ونفي الآلهة من دونه.

٣. ﴿رَبِّ مُوسى وَهارُونَ﴾ فيه إشارة إلى الإيمان بالرسالة مضافا إلى التوحيد.

٤. ﴿قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ القائل فرعون، والمراد بقوله: ﴿آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ آمنتم من دون إذن مني كما في قوله تعالى: ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي﴾ وليس مفاده أن الإذن كان ممكنا أو متوقعا منه كما قيل.

٥. ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ بهتان آخر يبهت به موسى عليه السلام ليصرف به قلوب قومه وخاصة ملإهم عنه.

٦. ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد لهم في سياق الإبهام للدلالة على أنه في غنى عن ذكره وأما هم فسوف يعلمونه.

٧. ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ القطع من خلاف أن تقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو بالعكس والتصليب جعل المجرم على الصليب، وقد تقدم نظير الآية في سورتي الأعراف وطه.

٨. ﴿قالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ﴾ الضير هو الضرر، وقوله: ﴿إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ﴾ تعليل لقولهم: لا ضير أي إنا لا نستضر بهذا العذاب الذي توعدنا به لأنا نصبر ونرجع بذلك إلى ربنا وما أكرمه من رجوع.

٩. ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾:

أ. تعليل لما يستفاد من كلامهم السابق أنهم لا يخافون الموت والقتل بل يشتاقون إلى لقاء ربهم يقولون: لا نخاف من عذابك شيئا لأنا نرجع به إلى ربنا ولا نخاف الرجوع لأنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا بسبب كوننا أول المؤمنين بموسى وهارون رسولي ربنا.

ب. وفتح الباب في كل خير له أثر من الخير لا يرتاب فيه العقل السليم فلو أن الله سبحانه أكرم مؤمنا لإيمانه بالمغفرة والرحمة لم تطفر مغفرته ورحمته أول الفاتحين لهذا الباب والواردين هذا المورد.

١٠. إخراج موسى بني إسرائيل وإغراق فرعون وجنوده:

المقطع [١٠] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ﴾

[الشعراء: ٥٢-٥٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٧٦»:

١. ﴿وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ شروع في سرد الشطر الثاني من القصة وهو وصف عذاب آل فرعون بسبب ردهم دعوة موسى وهارون عليه السلام و، قد كان الشطر الأول رسالة موسى وهارون إليهم ودعوتهم إلى التوحيد، والإسراء والسري السير بالليل، والمراد بعبادي بنو إسرائيل وفي هذا التعبير نوع إكرام لهم.

٢. ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ تعليل للأمر أي سر بهم ليلا ليتبعكم آل فرعون وفيه دلالة على أن الله في اتباعهم أمرا وأن فيه فرج بني إسرائيل وقد صرح بذلك في قوله: ﴿فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤]

٣. ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ﴾:

أ. قصة غرق آل فرعون وإنجاء بني إسرائيل في أربع عشرة آية وقد أوجز في الكلام بحذف بعض فصول القصة لظهوره من سياقها كخروج موسى وبني إسرائيل ليلا من مصر لدلالة قوله: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي﴾ عليه وعلى هذا القياس.

ب. ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ أي فأسرى موسى بعبادي فلما علم فرعون بذلك أرسل ﴿فِي الْمَدائِنِ﴾ التي تحت سلطانه رجالا ﴿حاشِرِينَ﴾ يحشرون الناس ويجمعون الجموع قائلين للناس ﴿إِنَّ هؤُلاءِ﴾ بني إسرائيل ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ والشرذمة من كل شيء بقيته القليلة فتوصيفها بالقلة تأكيد ﴿وَإِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ﴾ يأتون من الأعمال ما يغيظوننا به ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ﴾ مجموع متفق فيما نعزم عليه ﴿حاذِرُونَ﴾ نحذر العدو أن يغتالنا أو يمكر بنا وإن كان ضعيفا قليلا، والمطلوب بقولهم هذا وهو لا محالة بلاغ من فرعون لحث الناس عليهم.

٤. ﴿فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ﴾ فيه قصورهم المشيدة وبيوتهم الرفيعة، ولما كان خروجهم عن مكر إلهي بسبب داعية الاستعلاء والاستكبار التي فيهم نسب إلى نفسه أنه أخرجهم ﴿كَذلِكَ﴾ أي الأمر كذلك ﴿وَأَوْرَثْناها﴾ أي تلك الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم ﴿بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ حيث أهلكنا فرعون وجنوده وأبقينا بني إسرائيل بعدهم فكانوا هم الوارثين.

١١. إدراك فرعون لموسى ويقينه بهداية ربه:

المقطع [١١] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٠-٦٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٧٧»:

١. ﴿فَأَتْبَعُوهُمْ﴾ أي لحقوا ببني إسرائيل ﴿مُشْرِقِينَ﴾ أي داخلين في وقت شروق الشمس وطلوعها ﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ﴾ أي دنا بعضهم من بعض فرأى كل من الجمعين جمع فرعون وجمع موسى الآخر، ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى﴾ من بني إسرائيل خائفين فزعين ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ سيدركنا جنود فرعون.

٢. ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿كَلَّا﴾ لن يدركونا ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ والمراد بهذه المعية معية الحفظ والنصرة وهي التي وعدها له ربه أول ما بعثه وأخاه إلى فرعون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ وأما معية الإيجاد والتدبير فالله سبحانه مع موسى وفرعون على نسبة سواء، وقوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي سيدلني على طريق لا يدركني فرعون معها.

١٢. انفلاق البحر وإنجاء موسى وإغراق فرعون وجنوده:

المقطع [١٢] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٦٣-٦٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٧٨»:

١. ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ والانفلاق انشقاق الشيء وبينونة بعضه من بعض ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾ أي قطعة منفصلة من الماء ﴿كَالطَّوْدِ﴾ وهو القطعة من الجبل ﴿الْعَظِيمِ﴾ فدخلها موسى ومن معه من بني إسرائيل.

٢. ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ﴾ أي وقربنا هناك ﴿الْآخَرِينَ﴾ وهم فرعون وجنوده ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ بحفظ البحر على حاله وهيئته حتى قطعوه وخرجوا منه، ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ بإطباق البحر عليهم وهم في فلقه.

٣. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ظاهر السياق، ويؤيده سياق القصص الآتية، أن المشار إليه مجموع ما ذكر في قصة موسى من بعثه ودعوته فرعون وقومه وإنجاء

بني إسرائيل وغرق فرعون وجنوده، ففي ذلك كله آية تدل على توحيده تعالى بالربوبية وصدق الرسالة لمن تدبر فيها.

٤. ﴿وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾:

أ. أي وما كان أكثر هؤلاء الذين ذكرنا قصتهم مؤمنين مع ظهور ما دل عليه من الآية وعلى هذا فقوله بعد كل من القصص الموردة في السورة: ﴿وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بمنزلة أخذ النتيجة وتطبيق الشاهد على المستشهد له كأنه يقال بعد إيراد كل واحدة من القصص: هذه قصتهم المتضمنة لآيته تعالى وما كان أكثرهم مؤمنين كما لم يؤمن أكثر قومك فلا تحزن عليهم فهذا دأب كل من الأمم التي بعثنا إليهم رسولا فدعاهم إلى توحيد الربوبية.

ب. وقيل: إن الضمير في ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ راجع إلى قوم النبي ﷺ والمعنى: أن في هذه القصة آية وما كان أكثر قومك مؤمنين بها ولا يخلو من بعد.

٥. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ تقدم تفسيره في أول السورة.

١٣. حوار إبراهيم مع قومه حول عبادة الأصنام:

المقطع [١٣] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٦٩ـ٧٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٨٠»:

١. ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ﴾ غير السياق عما كان عليه أول القصة ﴿وَإِذْ نادى رَبُّكَ مُوسى﴾، لمكان قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ فإن المطلوب تلاوته على مشركي العرب وعمدتهم قريش وإبراهيم هذا أبوهم وقد قام لنشر التوحيد وإقامة الدين الحق ولم يكن بينهم يومئذ من يقول: لا إله إلا الله، فنصر الله ونصره حتى ثبتت كلمة التوحيد في الأرض المقدسة وفي الحجاز، فلم يكن ذلك كله إلا عن دعوة من الفطرة وبعث من الله سبحانه ففي ذلك آية لله فليعتبروا به وليتبرءوا من دين الوثنية كما تبرأ منه ومن أبيه وقومه المنتحلين به أبوهم إبراهيم عليه السلام.

٢. ﴿إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما تَعْبُدُونَ﴾:

أ. مخاصمته ومناظرته عليه السلام مع أبيه غير مخاصمته مع قومه واحتجاجه عليهم كما حكاه الله تعالى في سورة الأنعام وغيرها لكن البناء هاهنا على الإيجاز والاختصار ولذا جمع بين المحاجتين وسبكهما محاجة واحدة أورد فيها ما هو القدر المشترك بينهما.

ب. ﴿ما تَعْبُدُونَ﴾ سؤال عن الحقيقة بوضع نفسه موضع من لا يعرف شيئا من حقيقتها وسائر شئونها وهذا من طرق المناظرة سبيل من يريد أن يبين الخصم حقيقة مدعاه وسائر شئونه حتى يأخذه بما سمع من اعترافه.

ج. على أن هذه المحاجة كانت من إبراهيم أول ما خرج من كهفه ودخل في مجتمع أبيه وقومه ولم يكن شهد شيئا من ذلك قبل اليوم فحاجهم عن فطرة ساذجة طاهرة كما تقدم تفصيل القول فيه في تفسير سورة الأنعام.

٣. ﴿قالُوا نَعْبُدُ أَصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ﴾:

أ. ظل بمعنى دام، والعكوف على الشيء ملازمته والإقامة عنده، واللام في ﴿لَها﴾ للتعليل أي ندوم عاكفين عليها لأجلها وهو تفريع على عبادة الأصنام.

ب. والصنم جثة مأخوذة من فلز أو خشب أو غير ذلك على هيئة خاصة يمثل بها ما في المعبود من الصفات، وهؤلاء كانوا يعبدون الملائكة والجن وهم يرون أنها روحانيات خارجة عن عالم الأجسام منزهة عن خواص المادة وآثارها، ولما كان من الصعب عليهم التوجه العبادي إلى هذه الروحانيات باستحضارها للإدراك توسلوا إلى ذلك باتخاذ صور وتماثيل جسمانية تمثل بأشكالها وهيئاتها ما هناك من المعنويات.

ج. وكذلك الحال في عبادة عباد الكواكب لها فإن المعبود الأصلي هناك روحانيات الكواكب ثم اتخذ أجرام الكواكب أصناما لروحانياتها ثم لما اختلفت أحوال الكواكب بالحضور والغيبة والطلوع والغروب اتخذوا لها أصناما تمثل ما للكواكب من القوى الفعالة فيما دونها من عالم العناصر كالقوة الفاعلة للطرب والسرور والنشاط في الزهرة فيصورونها في صورة فتاة، ولسفك الدماء في المريخ، وللعلم والمعرفة في عطارد وعلى هذا القياس الأمر في أصنام القديسين من الإنسان.

د. فالأصنام إنما اتخذت ليكون الواحد منها مرآة لرب الصنم من ملك أو جن أو إنسان غير أنهم يعبدون الصنم نفسه بتوجيه العبادة إليه والتقرب منه ولو تعدوا عن الصنم إلى ربه عبدوه دون الله سبحانه.

هـ. وهذا هو الذي يكذب قول القائل منهم: إن الصنم إنما هي قبلة لم تتخذ إلا جهة للتوجه العبادي لا مقصودة بالذات كالكعبة عند المسلمين وذلك أن القبلة هي ما يستقبل في العبادة ولا يستقبل بالعبادة وهم يستقبلون الصنم في العبادة وبالعبادة، وبعبارة أخرى التوجه إلى القبلة والعبادة لرب القبلة وهو الله عز اسمه وأما الصنم فالتوجه إليه والعبادة له لا لربه ولو فرض أن العبادة لربه وهو شيء من الروحانيات كانت له لا لله فالله سبحانه غير معبود في ذلك على أي حال.

و. وبالجملة فجوابهم عن سؤال إبراهيم: ﴿ما تَعْبُدُونَ﴾ بقولهم: ﴿نَعْبُدُ أَصْناماً﴾ إبانة أن هذه الأجسام المعبودة ممثلات مقصودة لغيرها لا لنفسها، وقد أخذ إبراهيم قولهم: ﴿نَعْبُدُ﴾ وخاصمهم به فإن استقلال الأصنام بالمعبودية لا يجامع كونها أصناما ممثلة للغير فإذ كانت مقصودة بالعبادة فمن الواجب أن يشتمل على ما هو الغرض المقصود منها من جلب نفع أو دفع ضر بالتوجه العبادي والدعاء والمسألة والأصنام بمعزل من أن تعلم بمسألة أو تجيب مضطرا بإيصال نفع أو صرف ضر ولذلك سألهم إبراهيم بقوله: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾

٤. ﴿قالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾:

أ. اعترض عليه السلام عليهم في عبادتهم الأصنام من جهتين:

• إحداهما: أن العبادة تمثيل لذلة العابد وحاجته إلى المعبود فلا يخلو من دعاء من العابد للمعبود، والدعاء يتوقف على علم المعبود بذلك وسمعه ما يدعوه به، والأصنام أجسام جمادية لا سمع لها فلا معنى لعبادتها.

• والثانية: أن الناس إنما يعبدون الإله إما طمعا في خيره ونفعه وإما اتقاء من شره وضره والأصنام جمادات لا قدرة لها على إيصال نفع أو دفع ضرر.

ب. فكل من الآيتين يتضمن جهة من جهتي الاعتراض، وقد أوردهما في صورة الاستفهام ليضطرهم على الاعتراف.

٥. ﴿قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ﴾:

أ. كان مقتضى المقام أن يجيبوا عن سؤاله عليه السلام بالنفي لكنه لما كان ينتج خلاف ما هم عليه من الانتحال بالوثنية أضربوا عنه إلى التشبث بذيل التقليد فذكروا أنهم لا مستند لهم في عبادتها إلا تقليد

الآباء محضا.

ب. ﴿وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أي ففعلنا كما كانوا يفعلون وعبدناهم كما كانوا يعبدون، ولم يعدل عن قوله: ﴿كَذلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ إلى مثل قولنا: يعبدونها ليكون أصرح في التقليد كأنهم لا يفهمون من هذه العبادات إلا أنها أفعال كأفعال آبائهم من غير أن يفقهوا منها شيئا أزيد من أشكالها وصورها.

١٤. إعلان إبراهيم البراءة من الأصنام وتوحيد الرب:

المقطع [١٤] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٥ـ٨٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٨٢»:

١. ﴿قالَ أَفَرَأَيْتُم ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لي إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ﴾:

لما انتهت محاجته مع أبيه وقومه إلى أن لا حجة لهم في عبادتهم الأصنام إلا تقليد آبائهم محضا تبرأ عليه السلام من آلهتهم ومن أنفسهم وآبائهم بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾

أ. فقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُم ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾ تفريع على ما ظهر مما تقدم من عدم الدليل على عبادة الأصنام إلا التقليد بل بطلانها من أصلها أي فإذا كانت باطلة لا حجة لكم عليها إلا تقليد آبائكم فهذه الأصنام التي رأيتموها أي هذه بأعيانها التي تعبدونها أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنها عدو لي لأن عبادتها ضارة لديني مهلكة لنفسي فليست إلا عدوا لي.

ب. وذكر آبائهم الأقدمين للدلالة على أنه لا يأخذ بالتقليد كما أخذوا وأن لا وقع عنده عليه السلام لتقدم العهد، ولا أثر للسبق الزماني في إبطال حق أو إحقاق باطل، وإرجاع ضمير أولي العقل إلى الأصنام لمكان نسبة العبادة إليها وهي تستلزم الشعور والعقل، وهو كثير الوقوع في القرآن.

ج. ﴿إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ﴾ استثناء منقطع من قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾ أي لكن رب العالمين ليس كذلك.

٢. ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾:

أ. لما استثنى رب العالمين جل اسمه وصفه بأوصاف تتم بها الحجة على أنه تعالى ليس عدوا له بل

رب رحيم ذو عناية بحاله منعم عليه بكل خير دافع عنه كل شر فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي﴾ (إلخ) وأما قول القائل: إن قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي﴾ استيناف من الكلام لا يعبأ به.

ب. فقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ بدأ بالخلق لأن المطلوب بيان استناد تدبير أمره إليه تعالى بطريق إعطاء الحكم بالدليل، والبرهان على قيام التدبير به تعالى قيام الخلق والإيجاد به لوضوح أن الخلق والتدبير لا ينفكان في هذه الموجودات الجسمانية التدريجية الوجود التي تستكمل الوجود على التدريج فليس من المعقول أن يقوم الخلق بشيء والتدبير بشيء وإذ كان الخلق والإيجاد لله سبحانه فالتدبير له أيضا.

ج. ولهذا عطف الهداية على الخلق بفاء التفريع فدل على أنه تعالى هو الهادي لأنه هو الخالق.

د. وظاهر قوله: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ وهو مطلق، أن المراد به مطلق الهداية إلى المنافع دنيوية كانت أو أخروية والتعبير بلفظ المضارع لإفادة الاستمرار فالمعنى أنه الذي خلقني ولا يزال يهديني إلى ما فيه سعادة حياتي منذ خلقني ولن يزال كذلك، فيكون الآية في معنى ما حكاه الله عن موسى إذ قال لفرعون: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، أي هداه إلى منافعه وهي الهداية العامة.

هـ. وهذا هو الذي أشير إليه في أول السورة بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ وقد مر تقرير الحجة فيه.

و. وعلى هذا فما سيأتي في قوله: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي﴾ من الصفات المعدودة من قبيل ذكر الخاص بعد العام فإنها جميعا من مصاديق الهداية العامة بعضها هداية إلى منافع دنيوية وبعضها هداية إلى ما يرجع إلى الآخرة.

ز. ولو كان المراد بالهداية الهداية الخاصة الدينية فالصفات المعدودة على رسلها وذكر الهداية بعد الخلقة، وتقديمها على سائر النعم والمواهب لكونها أفضل النعم بعد الوجود.

٣. ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾:

أ. هو كالكناية عن جملة النعم المادية التي يرزقه الله إياها لتتميم النواقص ورفع الحوائج الدنيوية، وقد خص بالذكر منها ما هو أهمها وهو الإطعام والسقي والشفاء إذا مرض.

ب. ومن هنا يظهر أن قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ توطئة وتمهيد لذكر الشفاء فالكلام في معنى يطعمني ويسقيني ويشفين، ولذا نسب المرض إلى نفسه لئلا يختل المراد بذكر ما هو سلب النعمة بين النعم، وأما

قول القائل: إنه إنما نسب المرض إلى نفسه مع كونه من الله للتأدب فليس بذاك.

ج. وإنما أعاد الموصول فقال: ﴿الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي﴾، ولم يعطف الصفات على ما في قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ للدلالة على أن كلا من الصفات المذكورة في هذه الجمل المترتبة كان في إثبات كونه تعالى هو الرب المدبر لأمره والقائم على نفسه المجيب لدعوته.

٤. ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ يريد الموت المقضي لكل نفس المدلول عليه بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وليس بانعدام وفناء بل انتقال من دار إلى دار من جملة التدبير العام الجاري، والمراد بالإحياء إفاضة الحياة بعد الموت.

٥. ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾:

أ. أي يوم الجزاء وهو يوم القيامة، ولم يقطع بالمغفرة كما قطع في الأمور المذكورة قبلها لأن المغفرة ليست بالاستحقاق بل هي فضل من الله فليس يستحق أحد على الله سبحانه شيئا لكنه سبحانه قضى على نفسه الهداية والرزق والإماتة والإحياء لكل ذي نفس ولم يقض المغفرة لكل ذي خطيئة فقال: ﴿فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللهِ حَقًّا﴾ [يونس: ٤]، وقال في المغفرة: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ [النساء: ٤٨]

ب. ونسبة الخطيئة إلى نفسه وهو عليه السلام نبي معصوم من المعصية دليل على أن المراد بالخطيئة غير المعصية بمعنى مخالفة الأمر المولوي فإن للخطيئة والذنب مراتب تتقدر حسب حال العبد في عبوديته كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين وقد قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾

ج. فالخطيئة من مثل إبراهيم عليه السلام اشتغاله عن ذكر الله محضا بما تقتضيه ضروريات الحياة كالنوم والأكل والشرب ونحوها وإن كانت بنظر آخر طاعة منه عليه السلام كيف؟ وقد نص تعالى على كونه عليه السلام مخلصا لله لا يشاركه تعالى فيه شيء إذ قال: ﴿إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ [ص: ٤٦]، وقد قدمنا كلاما له تعلق بهذا المقام في آخر الجزء السادس وفي قصص إبراهيم في الجزء السابع من الكتاب.

١٥. دعاء إبراهيم:

المقطع [١٥] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٣-٨٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٨٥»:

١. ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾:

أ. لما ذكر عليه السلام نعم ربه المستمرة المتوالية المتراكمة عليه منذ خلق إلى ما لا نهاية له من أمد البقاء وصور بذلك شمول اللطف والحنان الإلهي أخذته جاذبة الرحمة الملتئمة بالفقر العبودي فدعته إلى إظهار الحاجة وبث المسألة فالتفت من الغيبة إلى الخطاب فسأل ما سأل.

ب. فقوله: ﴿رَبِ﴾ أضاف الرب إلى نفسه بعد ما كان يصفه بها أنه رب العالمين إثارة للرحمة الإلهية وتهييجا للعناية الربانية لاستجابة دعائه ومسألته.

٢. ﴿هَبْ لِي حُكْماً﴾ يريد بالحكم ما تقدم في قول موسى عليه السلام: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً﴾ [الآيَة: ٢١] من السورة وهو، كما تقدم، إصابة النظر والرأي في المعارف الاعتقادية والعملية الكلية وتطبيق العمل عليها كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وهو وحي المعارف الاعتقادية والعملية التي يجمعها التوحيد والتقوى، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ وَكانُوا لَنا عابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وهو وحي التسديد والهداية إلى الصلاح في مقام العمل، وتنكير الحكم لتفخيم أمره.

٣. ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾:

أ. الصلاح على ما ذكره الراغب، يقابل الفساد الذي هو تغير الشيء عن مقتضى طبعه الأصلي فصلاحه كونه على مقتضى الطبع الأصلي فيترتب عليه من الخير والنفع ما من شأنه أن يترتب عليه من غير أن يفسد فيحرم من آثاره الحسنة.

ب. وإذ كان ﴿بِالصَّالِحِينَ﴾ غير مقيد بالعمل ونحوه فالمراد به الصالحون ذاتا لا عملا فحسب وإن كان صلاح الذات لا ينفك عنه صلاح العمل، قال تعالى: ﴿الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: ٥٨]

ج. فصلاح الذات كونها تامة الاستعداد لقبول الرحمة الإلهية وإفاضة كل خير وسعادة من شأنها أن تتلبس به من غير أن يقارنها ما يفسدها من اعتقاد باطل أو عمل سيئ وبذلك يتبين أن الصلاح الذاتي من لوازم موهبة الحكم بالمعنى الذي تقدم وإن كان الحكم أخص موردا من الصلاح وهو ظاهر.

د. فمسألته الإلحاق بالصالحين من لوازم مسألة موهبة الحكم وفروعها المترتبة عليها فيعود معنى قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ إلى مثل قولنا: رب هب لي حكما وتمم أثره في وهو الصلاح الذاتي.

هـ. وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠] كلام له تعلق بهذا المقام.

٤. ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾:

أ. إضافة اللسان إلى الصدق لامية تفيد اختصاصه بالصدق بحيث لا يتكلم إلا به، وظاهر جعل هذا اللسان له أن يكون مختصا به كلسانه لا يتكلم إلا بما في ضميره مما يتكلم هو به فيئول المعنى إلى مسألة أن يبعث الله في الآخرين من يقوم بدعوته ويدعو الناس إلى ملته وهي دين التوحيد.

ب. فتكون الآية في معنى قوله في سورة الصافات بعد ذكر إبراهيم عليه السلام: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٨]، وقد ذكر هذه الجملة بعد ذكر عدة من الأنبياء غيره كنوح وموسى وهارون وإلياس، وكذا قال تعالى في سورة مريم بعد ذكر زكريا ويحيى وعيسى وإبراهيم وموسى وهارون: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠] فالمراد على أي حال إبقاء دعوتهم بعدهم ببعث رسل أمثالهم.

ج. وقيل: المراد به بعث النبي ﷺ وقد روي عنه أنه قال: أنا دعوة أبي إبراهيم، ويؤيده تسمية دينه في مواضع من القرآن ملة إبراهيم، ويرجع معنى الآية حينئذ إلى معنى قوله حكاية عن إبراهيم وإسماعيل حين بناء الكعبة: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ إلى أن قال ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]

د. وقيل: المراد به أن يجعل الله له ذكرا جميلا وثناء حسنا بعده إلى يوم القيامة وقد استجاب الله دعاءه فأهل الأديان يثنون عليه ويذكرونه بالجميل.

هـ. وفي صدق لسان الصدق على الذكر الجميل خفاء، وكذا كون هذا الدعاء والمحكي في سورة البقرة دعاء واحدا لا يخلو من خفاء.

٥. ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ تقدم معنى وراثة الجنة في تفسير قوله تعالى: ﴿أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠]

٦. ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ استغفار لأبيه حسب ما وعده في قوله: ﴿سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [مريم: ٤٧]، وليس ببعيد أن يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، أنه دعا لأبيه بهذا الدعاء وهو حي بعد، وعلى هذا فمعنى قوله: ﴿إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أنه كان قبل الدعاء بزمان من أهل الضلال.

٧. ﴿وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾:

أ. الخزي عدم النصر ممن يؤمل منه النصر، والضمير في ﴿يُبْعَثُونَ﴾ للناس ولا يضره عدم سبق الذكر لكونه معلوما من خارج.

ب. ويعلم من سؤاله عدم الإخزاء يوم القيامة أن الإنسان في حاجة إلى النصر الإلهي يومئذ فهذه البنية الضعيفة لا تقوم دون الأهوال التي تواجهها يوم القيامة إلا بنصر وتأييد منه تعالى.

٨. ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ﴾:

أ. الظرف بدل من قوله: ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ وبه يندفع قول من قال: إن قول إبراهيم قد انقطع في ﴿يُبْعَثُونَ﴾ والآية إلى تمام خمس عشرة آية من كلام الله تعالى.

ب. والآية تنفي نفع المال والبنين يوم القيامة وذلك أن رابطة المال والبنين التي هي المناط في التناصر والتعاضد في الدنيا هي رابطة وهمية اجتماعية لا تؤثر أثرا في الخارج من ظرف الاجتماع المدني ويوم القيامة يوم انكشاف الحقائق وتقطع الأسباب فلا ينفع فيه مال بماليته ولا بنون بنسبة بنوتهم وقرابتهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقال: ﴿فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]

ج. فالمراد بنفي نفع المال والبنين يوم القيامة نفي سببيتها الوضعية الاعتبارية في المجتمع الإنساني في الدنيا فإن المال نعم السبب والوسيلة في المجتمع للظفر بالمقاصد الحيوية، وكذا البنون نعمت الوسيلة

للقوة والعزة والغلبة والشوكة، فالمال والبنون عمدة ما يركن إليهما ويتعلق بهما الإنسان في الحياة الدنيا فنفي نفعهما يوم القيامة كالكناية عن نفي نفع كل سبب وضعي اعتباري في المجتمع الإنساني يتوسل به إلى جلب المنافع المادية كالعلم والصنعة والجمال وغيرها.

د. وبعبارة أخرى نفي نفعهما في معنى الإخبار عن بطلان الاجتماع المدني بما يعمل فيه من الأسباب الوضعية الاعتبارية كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾

٩. ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾:

أ. قال الراغب: (السلم والسلامة التعري من الآفات الظاهرة والباطنة)، والسياق يعطي أنه عليه السلام في مقام ذكر معنى جامع يتميز به اليوم من غيره وقد سأل ربه أولا أن ينصره ولا يخزيه يوم لا ينفعه ما كان ينفعه في الدنيا من المال والبنين، ومقتضى هذه التوطئة أن يكون المطلوب بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ بيان ما هو النافع يومئذ وقد ذكر فيه الإتيان بالقلب السليم.

• فالاستثناء منقطع، والمعنى: لكن من أتى الله بقلب سليم فإنه ينتفع به، والمحصل أن مدار السعادة يومئذ على سلامة القلب سواء كان صاحبه ذا مال وبنين في الدنيا أو لم يكن.

• وقيل: الاستثناء متصل والمستثنى منه مفعول ينفع المحذوف والتقدير يوم لا ينفع مال ولا بنون أحدا إلا من أتى الله بقلب سليم.

• وقيل: الاستثناء متصل والكلام بتقدير مضاف، والتقدير لا ينفع مال ولا بنون إلا مال وبنو من أتى (إلخ)

• وقيل: المال والبنون في معنى الغنى والاستثناء منه بحذف مضاف من نوعه والتقدير يوم لا ينفع غنى إلا غنى من أتى الله بقلب سليم، وسلامة القلب من الغنى فالاستثناء متصل ادعاء لا حقيقة.

• وقيل: الاستثناء منقطع وهناك مضاف محذوف، والتقدير لا ينفع مال ولا بنون إلا حال من أتى (إلخ)

ب. والأقوال الثلاثة الأول توجب اختصاص تميز اليوم بمن له مال وبنون فقط فإن الكلام عليها في معنى قولنا: يوم لا ينفع المال والبنون أصحابها إلا ذا القلب السليم منهم وأما من لا مال له ولا ولد فمسكوت عنه والسياق لا يساعده، وأما القول الرابع فمبني على تقدير لا حاجة إليه.

ج. والآية قريبة المعنى من قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف: ٤٦]، غير أنها تسند النفع إلى القلب السليم وهو النفس السالمة من وصمة الظلم وهو الشرك والمعصية كما قال تعالى في وصف اليوم: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾ [طه: ١١١]

د. قال بعضهم: (وفي الآيتين تأييد لكون استغفاره عليه السلام لأبيه طلبا لهدايته إلى الإيمان لاستحالة طلب مغفرته بعد موته كافرا مع علمه بعدم نفعه لأنه من باب الشفاعة) وهذا على تقدير أخذ الاستثناء متصلا كما ذهب إليه هذا القائل مبني على كون إبراهيم عليه السلام ابن آزر لصلبه وقد تقدم في قصته عليه السلام من سورة الأنعام فساد القول به وأن الآيات ناصة على خلافه، وأما إذا أخذ الاستثناء منقطعا فقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ بضميمة قوله تعالى: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، دليل على كون الاستغفار قبل موته كما لا يخفى.

١٠. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ قال: هو أمير المؤمنين عليه السلام.

• أقول: يحتمل التفسير والجري.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن يحيى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: ولسان الصدق للمرء يجعله الله في الناس خير، من المال يأكله ويورثه، الحديث.

ج. وفي الدر المنثور في قوله تعالى: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي﴾ أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة: في قوله: ﴿وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ قال: ذكر لنا أن نبي الله ص قال: ليجيئن رجل يوم القيامة من المؤمنين، آخذا بيد أب له مشرك، حتى يقطعه النار ويرجو أن يدخله الجنة، فيناديه مناد أنه لا يدخل الجنة مشرك، فيقول: ربي أبي ووعدت أن لا تخزيني، قال: فما يزال متشبثا به حتى يحوله الله، في صورة سيئة وريح منتنة في صورة ضبعان، فإذا رآه كذلك تبرأ منه وقال: لست بأبي، قال: فكنا نرى أنه يعني إبراهيم وما سمى به يومئذ.

د. أخرج البخاري والنسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة،

وعلى وجه آزر قترة وغبرة، يقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجليك؟ فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار.

• أقول: الخبران من أخبار بنوة إبراهيم لآزر لصلبه وقد مر في قصص إبراهيم من سورة الأنعام أنها مخالفة للكتاب وكلامه تعالى نص في خلافه.

هـ. وفي الكافي، بإسناده عن سفيان بن عيينة قال: سألته عن قول الله عز وجل: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قال: السليم الذي يلقى ربه وليس فيه أحد سواه، قال: وكل قلب فيه شرك أو شك فهو ساقط، وإنما أرادوا بالزهد في الدنيا، لتفرغ قلوبهم إلى الآخرة.

و. وفي المجمع: (وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال: هو القلب الذي سلم من حب الدنيا، ويؤيده قول النبي ﷺ: حب الدنيا رأس كل خطيئة.

١٦. تقريب الجنة للمتقين وبروز الجحيم للغاوين:

المقطع [١٦] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء: ٩٠-٩٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٩٠»:

١. ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ الإزلاف التقريب والتبريز الإظهار، وفي المقابلة بين المتقين والغاوين واختيار هذين الوصفين لهاتين الطائفتين إشارة إلى ما قضى به الله سبحانه يوم رجم إبليس عند إبائه أن يسجد لآدم كما ذكر في سورة الحجر ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إلى أن قال ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥]

٢. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ أي هل يدفعون الشقاء والعذاب عنكم أو عن أنفسهم، والمحصل أنه يتبين لهم أنهم ضلوا في عبادتهم غير الله.

٣. ﴿فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَالْغاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾:

أ. يقال: كبه فانكب أي ألقاه على وجهه وكبكبه أي ألقاه على وجهه مرة بعد أخرى فهو يفيد تكرار

الكب كدب ودبدب وذب وذبذب وزل وزلزل ودك ودكدك.

ب. وضمير الجمع في قوله: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ﴾ للأصنام كما يدل عليه قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وهؤلاء إحدى الطوائف الثلاث التي تذكر الآية أنها تكبكب في جهنم يوم القيامة، والطائفة الثانية الغاوون المقضي عليهم ذلك كما في آية الحجر المنقولة آنفا، والطائفة الثالثة جنود إبليس وهم قرناء الشياطين الذين يذكر القرآن أنهم لا يفارقون أهل الغواية حتى يدخلوا النار، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ إلى أن قال ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩]

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن محمد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام: في حديث ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ جنود إبليس ذريته من الشياطين، قال: وقولهم: ﴿وَما أَضَلَّنا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ إذ دعونا إلى سبيلهم، ذلك قول الله عز وجل فيهم إذ جمعهم إلى النار: ﴿قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ، رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ﴾ وقوله: ﴿كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها، حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً﴾ برىء بعضهم من بعض ولعن بعضهم بعضا، يريد بعضهم أن يحج بعضا رجاء الفلج، فيفلتوا جميعا من عظيم ما نزل بهم، وليس بأوان بلوى ولا اختبار، ولا قبول معذرة ولا حين نجاة.

ب. وفي الكافي، أيضا بسندين عن أبي بصير عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَالْغاوُونَ﴾ هم قوم وصفوا عدلا بألسنتهم ثم خالفوه إلى غيره.

• أقول: وروى هذا المعنى القمي في تفسيره، والبرقي في المحاسن، عن أبي عبد الله عليه السلام، والظاهر أن الرواية كانت واردة في ذيل قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ﴾ لما بعده من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ﴾ وقد وقع الخطأ في إيرادها في ذيل قوله: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيها﴾، وهو ظاهر للمتأمل.

١٧. اختصام أهل النار وندمهم وتمنّي الكرة:

المقطع [١٧] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ

حَمِيمٍ فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩٦-١٠٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٩٠»:

١. ﴿قالُوا وَهُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ﴾ الظاهر أن القائلين هم الغاوون، والاختصام واقع بينهم يخاصمون أنفسهم والشياطين على ما ذكره الله سبحانه في مواضع من كلامه.

٢. ﴿تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ اعتراف منهم بالضلال، والخطاب في قوله: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾ للآلهة من الأصنام وهم معهم في النار، أو لهم وللشياطين أو لهما وللمتبوعين والرؤساء من الغاوين وخير الوجوه أولها.

٣. ﴿وَما أَضَلَّنا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ الظاهر أن كلا من القائلين يريد بالمجرمين غيره من إمام ضلال اقتدى به في الدنيا وداع دعاه إلى الشرك فاتبعه وآباء مشركين قلدهم فيه وخليل تشبه به، والمجرمون على ما يستفاد من آيات القيامة هم الذين ثبت فيهم الاجرام وقضي عليهم بدخول النار قال تعالى: ﴿وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٦]

٤. ﴿فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾:

أ. الحميم على ما ذكره الراغب القريب المشفق.

ب. وهذا الكلام تحسر منهم على حرمانهم من شفاعة الشافعين وإغاثة الأصدقاء وفي التعبير بقوله: ﴿فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ﴾ إشارة إلى وجود شافعين هناك يشفعون بعض المذنبين، ولولا ذلك لكان من حق الكلام أن يقال: فما لنا من شافع إذ لا نكتة تقتضي الجمع، وقد روي أنهم يقولون ذلك لما يرون الملائكة والأنبياء والمؤمنين يشفعون.

٥. ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تمن منهم أن يرجعوا إلى الدنيا فيكونوا من المؤمنين حتى ينالوا ما ناله المؤمنون من السعادة.

٦. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً﴾ إلى آخر الآيتين أي في قصة إبراهيم عليه السلام ولزومه عن فطرته الساذجة دين التوحيد وتوجيه وجهه نحو رب العالمين وتبريه من الأصنام واحتجاجه على الوثنيين وعبدة الأصنام آية لمن تدبر فيها على أن في سائر قصصه من محنه وابتلاءاته التي لم تذكر هاهنا كإلقائه في النار ونزول الضيف من الملائكة عليه وقصة إسكانه إسماعيل وأمه بوادي مكة وبناء الكعبة وذبح إسماعيل

آيات لأولي الألباب.

٧. ﴿وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي وما كان أكثر قوم إبراهيم مؤمنين والباقي ظاهر مما تقدم.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: وفي الخبر المأثور عن جابر بن عبد الله قال سمعت النبي ﷺ يقول: إن الرجل يقول في الجنة: ما فعل صديقي؟ وصديقه في الجحيم، فيقول الله: أخرجوا له صديقه إلى الجنة فيقول من بقي في النار: ﴿فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾

ب. وروي بالإسناد عن حمران بن أعين عن أبي عبد الله عليه السلام قال: والله لنشفعن لشيعتنا ثلاث مرات حتى يقول الناس: ﴿فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي رواية أخرى حتى يقول عدونا.

ج. وفي تفسير القمي: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: من المهتدين قال: لأن الإيمان قد لزمهم بالإقرار.

• أقول: مراده أنهم يؤمنون يومئذ إيمان إيقان لكنهم يرون أن الإيمان يومئذ لا ينفعهم بل الإيمان النافع هو الإيمان في الدنيا فيتمنون أن يرجعوا إلى الدنيا ليكون ما عنده من الإيمان من إيمان المهتدين وهم المؤمنون حقا المهتدون بإيمانهم يوم القيامة وهذا معنى لطيف، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [سجدة: ١٣] فلم يقولوا فارجعنا نؤمن ونعمل صالحا بل قالوا فارجعنا نعمل صالحا فافهم ذلك.

١٨. قصة نوح ودعوته وتكذيب قومه وإغراقهم:

المقطع [١٨] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ

رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٠٥-١٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٩٥»:

١. ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾:

أ. قال في المفردات: (القوم جماعة الرجال في الأصل دون النساء، ولذلك قال: ﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ الآية، قال الشاعر: أقوم آل حصن أم نساء، وفي عامة القرآن أريدوا به والنساء جميعا) ولفظ القوم قيل: مذكر وتأنيث الفعل المسند إليه بتأويل الجماعة وقيل: مؤنث وقال في المصباح: يذكر ويؤنث.

ب. وعد القوم مكذبين للمرسلين مع أنهم لم يكذبوا إلا واحدا منهم وهو نوح عليه السلام إنما هو من جهة أن دعوتهم واحدة وكلمتهم متفقة على التوحيد فيكون المكذب للواحد منهم مكذبا للجميع ولذا عد الله سبحانه الإيمان ببعض رسله دون بعض كفرا بالجميع قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥١]

ج. وقيل: هو من قبيل قولهم فلان يركب الدواب ويلبس البرود وليس له إلا دابة واحدة وبردة واحدة فيكون الجمع كناية عن الجنس، والأول أوجه ونظير الوجهين جار في قوله الآتي: ﴿كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ وغيرهما.

٢. ﴿إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ المراد بالأخ النسيب كقولهم: أخو تميم وأخو كليب والاستفهام للتوبيخ.

٣. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي رسول من الله سبحانه أمين على ما حملته من الرسالة لا أبلغكم إلا ما أمرني ربي وأراده منكم، ولذا فرع عليه قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فأمرهم بطاعته لأن طاعته طاعة الله.

٤. ﴿وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ﴾:

أ. مسوق لنفي الطمع الدنيوي بنفي سؤال الأجر فيثبت بذلك أنه ناصح لهم فيما يدعوهم إليه لا يخونهم ولا يغشهم فعليهم أن يطيعوه فيما يأمرهم، ولذا فرع عليه ثانيا قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾

ب. والعدول في قوله: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ عن اسم الجلالة إلى ﴿رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ للدلالة على صريح التوحيد فإنهم كانوا يرون أنه تعالى إله عالم الآلهة وكانوا يرون لكل عالم إلها آخر يعبدونه

من دون الله فإثباته تعالى ربا للعالمين جميعا تصريح بتوحيد العبادة ونفي الآلهة من دون الله مطلقا.

٥. ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ قد تقدم وجه تكرار الآية فهو يفيد أن كلا من الأمانة وعدم سؤال الأجر سبب مستقل في إيجاب طاعته عليهم.

٦. ﴿قالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾:

أ. الأرذلون جمع أرذل على الصحة وهو اسم تفضيل من الرذالة والرذالة الخسة والدناءة، ومرادهم بكون متبعيه أراذل أنهم ذوو أعمال رذيلة ومشاغل خسيسة ولذا أجاب ع عنه بمثل قوله: ﴿وَما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾

ب. والظاهر أنهم كانوا يرون الشرف والكرامة في الأموال والجموع من البنين والأتباع كما يستفاد من دعاء نوح عليه السلام إذ يقول: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَساراً﴾ [نوح: ٢١]، فمرادهم بالأرذلين من يعدهم الأشراف والمترفون سفلة يتجنبون معاشرتهم من العبيد والفقراء وأرباب الحرف الدنية.

٧. ﴿قالَ وَما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الضمير لنوح عليه السلام، و﴿ما﴾ استفهامية وقيل: نافية وعليه فالخبر محذوف لدلالة السياق عليه، والمراد على أي حال نفي علمه بأعمالهم قبل إيمانهم به لمكان قوله: ﴿كانُوا يَعْمَلُونَ﴾

٨. ﴿إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾:

أ. المراد بقوله: ﴿رَبِّي﴾ رب العالمين فإنه الذي كان يختص نوح بالدعوة إليه من بينهم، وقوله: ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ مقطوع عن العمل أي لو كان لكم شعور، وقيل: المعنى لو تشعرون بشيء لعلمتم ذلك وهو كما ترى.

ب. والمعنى: بالنظر إلى الحصر الذي في صدر الآية أنه لا علم لي بسابق أعمالهم وليس علي حسابهم حتى أتجسس وأبحث عن أعمالهم وإنما حسابهم على ربي ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ فيجازيهم حسب أعمالهم.

٩. ﴿وَما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ الآية الثانية بمنزلة التعليل للأولى والمجموع متمم للبيان السابق والمعنى: لا شأن لي إلا الإنذار والدعوة فلست أطرد من أقبل علي وآمن بي ولست أتفحص عن سابق أعمالهم لأحاسبهم عليها فحسابهم على ربي وهو رب العالمين لا علي.

١٠. ﴿قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ المراد بالانتهاء ترك الدعوة، والرجم هو الرمي بالحجارة، وقيل: المراد به الشتم وهو بعيد، وهذا مما قالوه في آخر العهد من دعوتهم يهددونه عليه السلام بقول جازم كما يشهد به ما في الكلام من وجوه التأكيد.

١١. ﴿قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً﴾، هذا استفتاح منه عليه السلام وقد قدم له قوله: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ على سبيل التوطئة أي تحقق منهم التكذيب المطلق الذي لا مطمع في تصديقهم بعده كما يستفاد من دعائه عليهم إذ يقول: ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً﴾ [نوح: ٢٧]

١٢. ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً﴾:

أ. كناية عن القضاء بينه وبين قومه كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧]

ب. وأصله من الاستعارة بالكناية كأنه وأتباعه والكفار من قومه اختلطوا واجتمعوا من غير تميز فسأل ربه أن يفتح بينهم بإيجاد فسحة بينه وبين قومه يبتعد بذلك أحد القبيلين من الآخر وذلك كناية عن نزول العذاب وليس يهلك إلا القوم الفاسقين والدليل عليه قوله بعد: ﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

ج. وقيل: الفتح بمعنى الحكم والقضاء من الفتاحة بمعنى الحكومة.

١٣. ﴿فَأَنْجَيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أي المملوء منهم ومن كل زوجين اثنين كما ذكره في سورة هود.

١٤. ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ﴾ أي أغرقنا بعد إنجائهم الباقين من قومه.

١٥. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً﴾ إلى قوله: ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ تقدم الكلام في معنى الآيتين.

١٦. أحاديث وآثار:

أ. في كتاب كمال الدين، وروضة الكافي، مسندا عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام في حديث: فمكث نوح ألف سنة إلا خمسين عاما، لم يشاركه في نبوته أحد، ولكنه قدم على قوم مكذبين للأنبياء، الذين كانوا بينه وبين آدم، وذلك قوله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني من كان بينه وبين آدم إلى أن) انتهى إلى قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

ب. وقال فيه، أيضا: فكان بينه وبين آدم عشرة آباء كلهم أنبياء، وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ قال: الفقراء.

ج. وفيه، وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ المجهز الذي قد فرغ منه ولم يبق إلا دفعه.

١٩. قصة هود مع عاد وهلاكهم:

المقطع [١٩] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللهَّ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللهَّ وَأَطِيعُونِ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٢٣ـ١٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٢٩٩»:

١. ﴿كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾:

أ. قوم عاد من العرب العاربة الأولى كانوا يسكنون الأحقاف من جزيرة العرب لهم مدنية راقية وأراض خصبة وديار معمورة فكذبوا الرسل وكفروا بأنعم الله وأطغوا فأهلكهم الله بالريح العقيم وخرب ديارهم وعفا آثارهم.

ب. وعاد فيما يقال اسم أبيهم فتسميتهم بعاد من قبيل تسمية القوم باسم أبيهم كما يقال تميم وبكر وتغلب ويراد بنو تميم وبنو بكر وبنو تغلب.

ج. وقد تقدم في نظير الآية من قصة نوح وجه عد القوم مكذبين للمرسلين ولم يكذبوا ظاهرا إلا واحدا منهم.

٢. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ إلى قوله: ﴿رَبِّ الْعالَمِينَ﴾:

أ. تقدم الكلام فيها في نظائرها من قصة نوح عليه السلام.

ب. وذكر بعض المفسرين أن تصدير هذه القصص الخمس بذكر أمانة الرسل وعدم سؤالهم أجرا

على رسالتهم وأمرهم الناس بالتقوى والطاعة للتنبيه على أن مبني البعثة هو الدعاء إلى معرفة الحق والطاعة فيما يقرب المدعو من الثواب ويبعده من العقاب وأن الأنبياء عليهم السلام مجتمعون على ذلك وإن اختلفوا في بعض فروع الشرائع المختلفة باختلاف الأزمنة والأعصار، وأنهم منزهون عن المطامع الدنيوية بالكلية) انتهى

ج. ونظيره الكلام في ختم جميع القصص السبع الموردة في السورة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ففيه دلالة على أن أكثر الأمم والأقوام معرضون عن آيات الله، وأن الله سبحانه عزيز يجازيهم على تكذيبهم رحيم ينجي المؤمنين برحمته، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في الكلام على غرض السورة.

٣. ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾:

أ. الريع هو المرتفع من الأرض والآية العلامة والعبث الفعل الذي لا غاية له، وكأنهم كانوا يبنون على قلل الجبال وكل مرتفع من الأرض أبنية كالأعلام يتنزهون فيها ويفاخرون بها من غير ضرورة تدعوهم إلى ذلك بل لهوا واتباعا للهوى فوبخهم عليه.

ب. وقد ذكر للآية معان أخر لا دليل عليها من جهة اللفظ ولا ملاءمة للسياق أضربنا عنها.

٤. ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾:

أ. المصانع على ما قيل: الحصون المنيعة والقصور المشيدة والأبنية العالية واحدها مصنع.

ب. ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ في مقام التعليل لما قبله أي تتخذون هذه المصانع بسبب أنكم ترجون الخلود ولولا رجاء الخلود ما عملتم مثل هذه الأعمال التي من طبعها أن تدوم دهرا طويلا لا يفي به أطول الأعمار الإنسانية، وقيل في معنى الآية ومفرداتها وجوه أخرى أغمضنا عنها.

٥. ﴿وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾:

أ. قال في المجمع: (البطش العسف قتلا بالسيف وضربا بالسوط، والجبار العالي على غيره بعظيم سلطانه، وهو في صفة الله سبحانه مدح وفي صفة غيره ذم لأن معناه في العبد أنه يتكلف الجبرية)

ب. فالمعنى: وإذا أظهرتم شدة في العمل وبأسا بالغتم في ذلك كما يبالغ الجبابرة في الشدة.

ج. ومحصل الآيات الثلاث أنكم مسرفون في جانبي الشهوة والغضب متعدون حد الاعتدال

خارجون عن طور العبودية.

٦. ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ تفريع على إسرافهم في جانبي الشهوة والغضب وخروجهم عن طور العبودية فليتقوا الله وليطيعوه فيما يأمرهم به من ترك الإتراف والاستكبار.

٧. ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَعُيُونٍ﴾ قال الراغب: (أصل المد الجر، قال: وأمددت الجيش بمدود والإنسان بطعام قال: وأكثر ما جاء الإمداد في المحبوب والمد في المكروه، قال تعالى: ﴿وَأَمْدَدْناهُمْ بِفاكِهَةٍ﴾ ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا﴾)

٨. ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ﴾:

أ. في معنى تعليق الحكم بالوصف المشعر بالعلية أي اتقوا الله الذي يمدكم بنعمه لأنه يمدكم بها فيجب عليكم أن تشكروه بوضع نعمه في موضعها من غير إتراف واستكبار فإن كفران النعمة يستعقب السخط والعذاب قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]

ب. وقد ذكر النعم إجمالا بقوله أولا: ﴿أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ﴾ ثم فصلها بقوله ثانيا: ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾

ج. وفي قوله: ﴿أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ﴾ نكتة أخرى هي أنكم تعلمون أن هذه النعم من إمداده تعالى وصنعه لا يشاركه في إيجادها والإمداد بها غيره فهو الذي يجب لكم أن تتقوه بالشكر والعبادة دون الأوثان والأصنام فالكلام متضمن للحجة.

٩. ﴿إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ تعليل للأمر بالتقوى أي إني آمركم بالتقوى شكرا لأني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم أن تكفروا ولم تشكروا، والظاهر أن المراد باليوم العظيم يوم القيامة وإن جوز بعضهم أن يكون المراد به يوم عذاب الاستئصال.

١٠. ﴿قالُوا سَواءٌ عَلَيْنا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ﴾:

أ. نفي لأثر كلامه وإياس له من إيمانهم بالكلية.

ب. قيل: الكلام لا يخلو من مبالغة فقد كان مقتضى الترديد أن يقال: أوعظت أم لم تعظ ففي العدول عنه إلى قوله: ﴿أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ﴾ النافي لأصل كونه واعظا ما لا يخفى من المبالغة.

١١. ﴿إِنْ هذا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾:

أ. الخلق بضم الخاء واللام أو سكونها قال الراغب: (الخلق والخلق، أي بفتح الخاء وضمها، في الأصل واحد كالشرب والشرب والصرم والصرم لكن خص الخلق، بفتح الخاء، بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص الخلق، بضم الخاء، بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وقرئ ﴿إِنْ هذا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾)

ب. والإشارة بهذا إلى ما جاء به هود وقد سموه وعظا والمعنى: ليس ما تلبست به من الدعوة إلى التوحيد والموعظة إلا عادة البشر الأولين الماضين من أهل الأساطير والخرافات، وهذا كقولهم: ﴿إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾

ج. ويمكن أن تكون الإشارة بهذا إلى ما هم فيه من الشرك وعبادة الآلهة من دون الله اقتداء بآبائهم الأولين كقولهم: ﴿وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ﴾

د. واحتمل بعضهم أن يكون المراد ما خلقنا هذا إلا خلق الأولين نحيا كما حيوا ونموت كما ماتوا ولا بعث ولا حساب ولا عذاب، وهو بعيد من السياق.

١٢. ﴿وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ إنكار للمعاد بناء على كون المراد باليوم العظيم في كلام هود عليه السلام يوم القيامة.

١٣. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْناهُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً﴾ إلى قوله: ﴿الرَّحِيمُ﴾ معناه ظاهر مما تقدم.

١٤. أحاديث وآثار:

أ. في كتاب كمال الدين، وروضة الكافي، مسندا عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام في حديث: وقال نوح، إن الله تبارك وتعالى باعث نبيا يقال له هود، وإنه يدعو قومه إلى الله عز وجل فيكذبونه، وإن الله عز وجل يهلكهم بالريح، فمن أدركه منكم فليؤمن به وليتبعه، فإن الله تبارك وتعالى ينجيه من عذاب الريح، وأمر نوح ابنه سام أن يتعاهد هذه الوصية، عند رأس كل سنة ويكون يوم عيد لهم، فيتعاهدون فيه بعث هود وزمانه الذي يخرج فيه، فلما بعث الله تبارك وتعالى هودا، نظروا فيما عندهم من العلم والإيمان، وميراث العلم والاسم الأكبر وآثار علم النبوة، فوجدوا هودا نبيا وقد بشرهم أبوهم نوح به، فآمنوا به وصدقوه واتبعوه فنجوا من عذاب الريح، وهو قول الله عز وجل: ﴿وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً﴾ وقوله: ﴿كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾

ب. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ أي ما لا تحتاجون إليه لسكناكم، وإنما تريدون العبث بذلك واللعب واللهو، كأنه جعل بناءهم ما يستغنون عنه عبثا منهم، عن ابن عباس في رواية عطاء، ويؤيده الخبر المأثور عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ خرج فرأى قبة فقال: ما هذه؟ فقالوا له أصحابه: هذا لرجل من الأنصار، فمكث حتى إذا جاء صاحبها فسلم في الناس، أعرض عنه صنع ذلك مرارا، حتى عرف الرجل الغضب به والإعراض عنه، فشكا ذلك إلى أصحابه وقال: والله إني لأنكر نظر رسول الله ﷺ، ما أدري ما حدث في وما صنعت؟ قالوا خرج رسول الله ﷺ فرأى قبتك فقال: لمن هذه؟ فأخبرناه فرجع إلى قبته فسواها بالأرض، فخرج رسول الله ﷺ ذات يوم فلم ير القبة فقال: ما فعلت القبة التي كانت هاهنا؟ قالوا: شكا إلينا صاحبها إعراضك عنه، فأخبرناه فهدمها، فقال: إن كل ما يبنى وبال على صاحبه يوم القيامة، إلا ما لا بد منه.

ج. وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ قال: تقتلون بالغضب من غير استحقاق.

٢٠. قصة صالح مع ثمود وهلاكهم:

المقطع [٢٠] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٤١-١٥٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٠٤»:

١. ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى قوله: ﴿عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قد اتضح معناها مما تقدم.

٢. ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ﴾:

أ. الظاهر أن الاستفهام للإنكار و(ما) موصولة والمراد بها النعم التي يفصلها بعد قوله: ﴿فِي

جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾، و﴿هاهُنا﴾ إشارة إلى المكان الحاضر القريب وهو أرض ثمود و﴿آمِنِينَ﴾ حال من نائب فاعل ﴿تُتْرَكُونَ﴾

ب. والمعنى: لا تتركون في هذه النعم التي أحاطت بكم في أرضكم هذه وأنتم مطلقو العنان لا تسألون عما تفعلون آمنون من أي مؤاخذة إلهية.

٣. ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ﴾ بيان تفصيلي لقوله: ﴿فِي ما هاهُنا﴾، وقد خص النخل بالذكر مع دخوله في الجنات لاهتمامهم به، والطلع في النخل كالنور في سائر الأشجار والهضيم، على ما قيل، المتداخل المنضم بعضه إلى بعض.

٤. ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ﴾ قال الراغب: (الفره، بالفتح فالكسر صفة مشبهة، الأشر، وقوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ﴾ أي حاذقين وقيل: معناه أشرين) انتهى ملخصا، وعلى ما اختاره تكون الآية من بيان النعمة، وعلى المعنى الآخر تكون مسوقة لإنكار أشرهم وبطرهم، والآية على أي حال في حيز الاستفهام.

٥. ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ تفريع على ما تقدم من الإنكار الذي في معنى المنفي.

٦. ﴿وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾:

أ. الظاهر أن المراد بالأمر ما يقابل النهي بقرينة النهي عن طاعته وإن جوز بعضهم كون الأمر بمعنى الشأن وعليه يكون المراد بطاعة أمرهم تقليد العامة واتباعهم لهم في أعمالهم وسلوكهم السبل التي يستحبون لهم سلوكها.

ب. والمراد بالمسرفين على أي حال أشراف القوم وعظماؤهم المتبوعون والخطاب للعامة التابعين لهم وأما السادة الأشراف فقد كانوا مأيوسا من إيمانهم واتباعهم للحق.

ج. ويمكن أن يكون الخطاب للجميع من جهة أن الأشراف منهم أيضا كانوا يقلدون آباءهم ويطيعون أمرهم كما قالوا لصالح عليه السلام: ﴿أَتَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا﴾ [هود: ٦٢]، فقد كانوا جميعا يطيعون أمر المسرفين فنهوا عنه.

د. وقد فسر المسرفين وهم المتعدون عن الحق الخارجون عن حد الاعتدال بتوصيفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾ إشارة إلى علة الحكم الحقيقية فالمعنى اتقوا الله ولا تطيعوا

أمر المسرفين لأنهم مفسدون في الأرض غير مصلحين والإفساد لا يؤمن معه العذاب الإلهي وهو عزيز ذو انتقام.

هـ. وذلك أن الكون على ما بين أجزائه من التضاد والتزاحم مؤلف تأليفا خاصا يتلاءم معه أجزاؤه بعضها مع بعض في النتائج والآثار كالأمر في كفتي الميزان فإنهما على اضطرابها واختلافها الشديد بالارتفاع والانخفاض متوافقتان في تعيين وزن المتاع الموزون وهو الغاية والعالم الإنساني الذي هو جزء من الكون كذلك ثم الفرد من الإنسان بما له من القوى والأدوات المختلفة المتضادة مفطور على تعديل أفعاله وأعماله بحيث تنال كل قوة من قواه حظها المقدر لها وقد جهز بعقل يميز بين الخير والشر ويعطي كل ذي حق حقه.

و. فالكون يسير بالنظام الجاري فيه إلى غايات صالحة مقصودة وهو بما بين أجزائه من الارتباط التام يخط لكل من أجزائه سبيلا خاصا يسير فيها بأعمال خاصة من غير أن يميل عن حاق وسطها إلى يمين أو يسار أو ينحرف بإفراط أو تفريط فإن في الميل والانحراف إفسادا للنظام المرسوم، ويتبعه إفساد غايته وغاية الكل، ومن الضروري أن خروج بعض الأجزاء عن خطه المخطوط له وإفساد النظم المفروض له ولغيره يستعقب منازعة بقية الأجزاء له فإن استطاعت أن تقيمه وترده إلى وسط الاعتدال فهو وإلا أفنته وعفت آثاره حفظا لصلاح الكون واستبقاء لقوامه.

ز. والإنسان الذي هو أحد أجزاء الكون غير مستثنى من هذه الكلية فإن جرى على ما يهديه إليه الفطرة فاز بالسعادة المقدرة له وإن تعدى حدود فطرته وأفسد في الأرض أخذه الله سبحانه بالسنين والمثلات وأنواع النكال والنقمة لعله يرجع إلى الصلاح والسداد قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]

ح. وإن أقاموا مع ذلك على الفساد لرسوخه في نفوسهم أخذهم الله بعذاب الاستئصال وطهر الأرض من قذارة فسادهم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال: ﴿وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، وقال: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وذلك أنهم إذا صلحوا صلحت أعمالهم وإذا صلحت أعمالهم وافقت النظام العام وصلحت بها

الأرض لحياتهم الأرضية.

ط. فقد تبين بما مر:

• أولا: أن حقيقة دعوة النبوة هي إصلاح الحياة الإنسانية الأرضية قال تعالى: حكاية عن شعيب: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]

• وثانيا: أن قوله: ﴿وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ﴾، على سذاجة بيانه معتمد على حجة برهانية.

ي. ولعل في قوله: ﴿وَلا يُصْلِحُونَ﴾ بعد قوله: ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ إشارة إلى أنه كان المتوقع منهم بما أنهم بشر ذوو فطرة إنسانية أن يصلحوا في الأرض لكنهم انحرفوا عن الفطرة وبدلوا الإصلاح إفسادا.

٧. ﴿قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أي ممن سحر مرة بعد مرة حتى غلب على عقله، وقيل: إن السحر أعلى البطن والمسحر من له جوف فيكون كناية عن أنك بشر مثلنا تأكل وتشرب فيكون قوله بعده: ﴿ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا﴾ تأكيدا له، وقيل: المسحر من له سحر أي رئة كأن مرادهم أنك متنفس بشر مثلنا.

٨. ﴿ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا﴾ إلى قوله: ﴿عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ الشرب بكسر الشين النصيب من الماء، والباقي ظاهر وقد تقدمت تفصيل القصة في سورة هود.

٩. ﴿فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ﴾ نسبة العقر إلى الجمع، ولم يعقرها إلا واحد منهم، لرضاهم بفعله، وفي نهج البلاغة: أيها الناس إنما يجمع الناس الرضا والسخط، وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد، فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضا، فقال سبحانه: ﴿فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ﴾

١٠. ﴿فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ﴾ لعل ندمهم إنما كان عند مشاهدتهم ظهور آثار العذاب وإن قالوا له بعد العقر تعجيزا واستهزاء: ﴿يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]

١١. ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ﴾ إلى قوله: ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ اللام للعهد أي أخذهم العذاب الموعود فإن صالحا وعدهم نزول العذاب بعد ثلاثة أيام كما في سورة هود، والباقي ظاهر.

٢١. قصة لوط وتكذيب قومه وهلاكهم:

المقطع [٢١] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قالَ

لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٦٠-١٧٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٠٩»:

١. ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى قوله: ﴿رَبِّ الْعالَمِينَ﴾، تقدم تفسيره.

٢. ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والذكران جمع ذكر مقابل الأنثى وإتيانهم كناية عن اللواط وقد كان شاع فيها بينهم، والعالمين جمع عالم وهو الجماعة من الناس.

٣. ﴿مِنَ الْعالَمِينَ﴾:

أ. يمكن أن يكون متصلا بضمير الفاعل في ﴿تَأْتُونَ﴾ والمراد أتأتون أنتم من بين العالمين هذا العمل الشنيع؟ فيكون في معنى قوله في موضع آخر: ﴿ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]، [العنكبوت: ٢٨]

ب. ويمكن أن يكون متصلا بقوله: ﴿الذُّكْرانَ﴾ والمعنى على هذا أتنكحون من بين العالمين، على كثرتهم واشتمالهم على النساء، الرجال فقط؟

٤. ﴿وَتَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ﴾:

أ. ﴿تَذَرُونَ﴾ بمعنى تتركون ولا ماضي له من مادته.

ب. والمتأمل في خلق الإنسان وانقسام أفراده إلى صنفي الذكر والأنثى وما جهز به كل من الصنفين من الأعضاء والأدوات وما يختص به من الخلقة لا يرتاب في أن غرض الصنع والإيجاد من هذا التصوير المختلف وإلقاء غريزة الشهوة في القبيلين وتفريق أمرهما بالفعل والانفعال أن يجمع بينهما بالنكاح ليتوسل بذلك إلى التناسل الحافظ لبقاء النوع حتى حين.

ج. فالرجل من الإنسان بما هو رجل مخلوق للمرأة منه لا لرجل مثله والمرأة من الإنسان بما هي امرأة مخلوقة للرجل منه لا لامرأة مثلها وما يختص به الرجل في خلقته للمرأة وما تختص به المرأة في خلقتها

للرجل وهذه هي الزوجية الطبيعية التي عقدها الصنع والإيجاد بين الرجل والمرأة من الإنسان فجعلهما زوجين.

د. ثم الأغراض والغايات الاجتماعية أو الدينية سنت بين الناس سنة النكاح الاجتماعي الاعتباري الذي فيه نوع من الاختصاص بين الزوجين وقسم من التحديد للزوجية الطبيعية المذكورة فالفطرة الإنسانية والخلقة الخاصة تهديه إلى ازدواج الرجال بالنساء دون الرجال وازدواج النساء بالرجال دون النساء، وأن الازدواج مبني على أصل التوالد والتناسل دون الاشتراك في مطلق الحياة.

هـ. ومن هنا يظهر أن الأقرب أن يكون المراد بقوله: ﴿ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ﴾ العضو المباح للرجال من النساء بالازدواج واللام للملك الطبيعي، وأن ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ أَزْواجِكُمْ﴾ للتبعيض والزوجية هي الزوجية الطبيعية وإن أمكن أن يراد بها الزوجية الاجتماعية الاعتبارية بوجه.

و. وأما تجويز بعضهم أن يراد بلفظة ﴿ما﴾ النساء ويكون قوله: ﴿مِنْ أَزْواجِكُمْ﴾ بيانا له فبعيد.

٥. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ﴾ أي متجاوزون خارجون عن الحد الذي خطته لكم الفطرة والخلقة فهو في معنى قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]

٦. وقد ظهر من جميع ما مر أن كلامه عليه السلام مبني على حجة برهانية أشير إليها.

٧. ﴿قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ أي المبعدين المنفيين من قريتنا كما نقل عنهم في موضع آخر: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾

٨. ﴿قالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقالِينَ﴾ المراد بعملهم، على ما يعطيه السياق، إتيان الذكران وترك الإناث، والقالي المبغض، ومقابلة تهديدهم بالنفي بمثل هذا الكلام من غير تعرض للجواب عن تهديدهم يفيد من المعنى أني لا أخاف الخروج من قريتكم ولا أكترث به بل مبغض لعملكم راغب في النجاة من وباله النازل بكم لا محالة، ولذا أتبعه بقوله: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾

٩. ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾:

أ. أي من أصل عملهم الذي يأتون به بمرأى ومسمع منه فهو منزجر منه أو من وبال عملهم والعذاب الذي سيتبعه لا محالة.

ب. وإنما لم يذكر إلا نفسه وأهله إذ لم يكن آمن به من أهل القرية أحد، قال تعالى في ذلك: ﴿فَما

وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦]

١٠. ﴿فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ إلى قوله: ﴿الْآخَرِينَ﴾ الغابر كما قيل الباقي بعد ذهاب من كان معه، والتدمير الإهلاك، والباقي ظاهر.

١١. ﴿وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً﴾، وهو السجيل كما قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤]

١٢. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً﴾ إلى قوله: ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ تقدم تفسيره.

٢٢. قصة شعيب مع أصحاب الأيكة وهلاكهم:

المقطع [٢٢] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَذَبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٩١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣١٢»:

١. ﴿كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾:

أ. الأيكة الغيضة الملتف شجرها، قيل: إنها كانت غيضة بقرب مدين يسكنها طائفة وكانوا ممن بعث إليهم شعيب عليه السلام، وكان أجنبيا منهم ولذلك قيل: ﴿إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقل: أخوهم شعيب بخلاف هود وصالح فقد كانا نسيبين إلى قومهما وكذا لوط فقد كان نسيبا إلى قومه بالمصاهرة ولذا عبر عنهم بقوله: ﴿أَخُوهُمْ هُودٌ﴾ ﴿أَخُوهُمْ صالِحٌ﴾ ﴿أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾

ب. وقد تقدم تفسير باقي الآيات.

٢. ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ الكيل ما يقدر به المتاع من جهة حجمه وإيفاؤه أن لا ينقص الحجم، والقسطاس الميزان الذي يقدر به من جهة وزنه واستقامته

أن يزن بالعدل، والآيتان تأمران بالعدل في الأخذ والإعطاء بالكيل والوزن.

٣. ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾:

أ. البخس النقص في الوزن والتقدير كما أن الإخسار النقص في رأس المال.

ب. وظاهر السياق أن قوله: ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ﴾ أي سلعهم وأمتعتهم قيد متمم لقوله: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ كما أن قوله: ﴿وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ قيد متمم لقوله: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ وقوله: ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ تأكيد للنهيين جميعا أعني قوله: ﴿لا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ وقوله: ﴿لا تَبْخَسُوا﴾ وبيان لتبعة التطفيف السيئة المشئومة.

٤. ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ العثي والعيث الإفساد، فقوله: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكد وقد تقدم في قصة شعيب من سورة هود وفي قوله: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [الآية: ٣٥] من سورة الإسراء كلام في كيفية إفساد التطفيف المجتمع الإنساني، فراجع.

٥. ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾:

أ. قال في المجمع: (الجبلة الخليقة التي طبع عليها الشيء)، فالمراد بالجبلة ذوو الجبلة أي اتقوا الله الذي خلقكم وآباءكم الأولين الذين فطرهم وقرر في جبلتهم تقبيح الفساد والاعتراف بشؤمه.

ب. ولعل هذا الذي أشرنا إليه من المعنى هو الموجب لتخصيص الجبلة بالذكر، وفي الآية على أي حال دعوة إلى توحيد العبادة فإنهم لم يكونوا يتقون الخالق الذي هو رب العالمين.

٦. ﴿قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ﴾ تقدم تفسير الصدر، و﴿إِنْ﴾ في قوله: ﴿إِنْ نَظُنُّكَ﴾ مخففة من الثقيلة.

٧. ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ﴾، الكسف بالكسر فالفتح، على ما قيل، جمع كسفة وهي القطعة، والأمر مبني على التعجيز والاستهزاء.

٨. ﴿قالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ﴾ جواب شعيب عن قولهم واقتراحهم منه إتيان العذاب، وهو كناية عن أنه ليس له من الأمر شيء وإنما الأمر إلى الله لأنه أعلم بما يعملون وأن عملهم هل يستوجب عذابا؟ وما هو العذاب الذي يستوجبه إذا استوجب؟ فهو كقول هود لقومه: ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ [الأحقاف: ٢٣]

٩. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾، يوم الظلة يوم عذب فيه قوم شعيب بظلة من الغمام، وقد تقدم تفصيل قصتهم في سورة هود.

١٠. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً﴾ إلى قوله: ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ تقدم تفسيره.

١١. أحاديث وآثار:

أ. في جوامع الجامع في قوله تعالى: ﴿إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ وفي الحديث أن شعيبا أخا مدين، أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة.

ب. وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ قال: الخلق الأولين، وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ قال: قوم شعيب ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ قال: يوم حر وسمائم.

٢٣. تنزيل القرآن بالروح الأمين على قلب النبي:

المقطع [٢٣] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣١٥»:

١. ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾:

أ. الضمير للقرآن، وفيه رجوع إلى ما في صدر السورة من قوله: ﴿تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ﴾ وتعقيب لحديث كفرهم به كما في قوله بعد ذلك: ﴿وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ، فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ الآية.

ب. والتنزيل والإنزال بمعنى واحد، غير أن الغالب على باب الإفعال الدفعة وعلى باب التفعيل التدريج، وأصل النزول في الأجسام انتقال الجسم من مكان عال إلى ما هو دونه وفي غير الأجسام بما يناسبه.

ج. وتنزيله تعالى إخراجه الشيء من عنده إلى موطن الخلق والتقدير وقد سمى نفسه بالعلي العظيم والكبير المتعال ورفيع الدرجات والقاهر فوق عباده فيكون خروج الشيء بإيجاده من عنده إلى عالم الخلق والتقدير، وإن شئت فقل: إخراجه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، تنزيلا منه تعالى له.

د. وقد استعمل الإنزال والتنزيل في كلامه تعالى في أشياء بهذه العناية كقوله تعالى: ﴿يا بَنِي آدَمَ قَدْ

أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ﴾ [الزمر: ٦]، وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقوله: ﴿ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥]، وقد أطلق القول في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]

هـ. ومن الآيات الدالة على اعتبار هذا المعنى في خصوص القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]

و. وقد أضيف التنزيل إلى رب العالمين للدلالة على توحيد الرب تعالى لما تكرر مرارا أن المشركين إنما كانوا يعترفون به تعالى بما أنه رب الأرباب ولا يرون أنه رب العالمين.

٢. ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾:

أ. المراد بالروح الأمين هو جبرئيل ملك الوحي بدليل قوله: ﴿مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [البقرة: ٩٧] وقد سماه في موضع آخر بروح القدس: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقد تقدم في تفسير سورتي النحل والإسراء ما يتعلق بمعنى الروح من الكلام.

ب. وقد وصف الروح بالأمين للدلالة على أنه مأمون في رسالته منه تعالى إلى نبيه ﷺ لا يغير شيئا من كلامه تعالى بتبديل أو تحريف بعمد أو سهو أو نسيان كما أن توصيفه في آية أخرى بالقدس يشير إلى ذلك.

٣. ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ﴾:

أ. الباء للتعدية أي نزله الروح الأمين وأما قول من قال: إن الباء للمصاحبة والمعنى نزل معه الروح فلا يلتفت إليه لأن العناية في المقام بنزول القرآن لا بنزول الروح مع القرآن.

ب. والضمير في ﴿نَزَلَ بِهِ﴾ للقرآن بما أنه كلام مؤلف من ألفاظ لها معانيها الحقة فإن ألفاظ القرآن نازلة من عنده تعالى كما أن معانيها نازلة من عنده على ما هو ظاهر قوله: ﴿فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٨]، وقوله: ﴿تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ [آل عمران: ١٠٨]، [الجاثية: ٦]، إلى غير ذلك.

ج. فلا يعبأ بقول من قال: إن الذي نزل به الروح الأمين إنما هو معاني القرآن الكريم ثم النبي ﷺ كان يعبر عنها بما يطابقها ويحكيها من الألفاظ بلسان عربي.

د. وأسخف منه قول من قال: إن القرآن بلفظه ومعناه من منشئات النبي ﷺ ألقته مرتبة من نفسه الشريفة تسمى الروح الأمين إلى مرتبة منها تسمى القلب.

هـ. والمراد بالقلب المنسوب إليه الإدراك والشعور في كلامه تعالى هو النفس الإنسانية التي لها الإدراك وإليها تنتهي أنواع الشعور والإرادة دون اللحم الصنوبري المعلق عن يسار الصدر الذي هو أحد الأعضاء الرئيسة كما يستفاد من مواضع في كلامه تعالى، كقوله: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، أي الأرواح، وقوله: ﴿فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، أي نفسه إذ لا معنى لنسبة الإثم إلى العضو الخاص.

و. ولعل الوجه في قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ دون أن يقول: عليك هو الإشارة إلى كيفية تلقيه ﷺ القرآن النازل عليه، وأن الذي كان يتلقاه من الروح هو نفسه الشريفة من غير مشاركة الحواس الظاهرة التي هي الأدوات المستعملة في إدراك الأمور الجزئية:

- فكان ﷺ يرى ويسمع حينما كان يوحى إليه من غير أن يستعمل حاستي البصر والسمع كما روي أنه كان يأخذه شبه إغماء يسمى برجاء الوحي.
- فكان ﷺ يرى الشخص ويسمع الصوت مثل ما نرى الشخص ونسمع الصوت غير أنه ما كان يستخدم حاستي بصره وسمعه الماديتين في ذلك كما نستخدمهما.
- ولو كان رؤيته وسمعه بالبصر والسمع الماديين لكان ما يجده مشتركا بينه وبين غيره فكان سائر الناس يرون ما يراه ويسمعون ما يسمعه والنقل القطعي يكذب ذلك فكثيرا ما كان يأخذه برجاء الوحي وهو بين الناس فيوحى إليه ومن حوله لا يشعرون بشيء ولا يشاهدون شخصا يكلمه ولا كلاما يلقى إليه.

ز. والقول بأن من الجائز أن يصرف الله تعالى حواس غيره ﷺ من الناس عن بعض ما كانت تناله حواسه وهي الأمور الغيبية المستورة عنا:

- هدم لبنيان التصديق العلمي إذ لو جاز مثل هذا الخطإ العظيم على الحواس وهي مفتاح العلوم الضرورية والتصديقات البديهية وغيرها لم يبق وثوق على شيء من العلوم والتصديقات.
- على أن هذا الكلام مبني على أصالة الحس وأن لا وجود إلا لمحسوس وهو من أفحش الخطإ

وقد تقدم في تفسير سورة مريم كلام في معنى تمثل الملك نافع في المقام.

ح. وربما قيل في وجه تخصيص القلب بالإنزال إنه لكونه هو المدرك المكلف دون الجسد وإن كان يتلقى الوحي بتوسيط الأدوات البدنية من السمع والبصر، وقد عرفت ما فيه.

ط. وربما قيل: (لما كان للنبي ﷺ جهتان: جهة ملكية يستفيض بها، وجهة بشرية يفيض بها، جعل الإنزال على روحه لأنها المتصفة بالصفات الملكية التي يستفيض بها من الروح الأمين، وللإشارة إلى ذلك قيل، ﴿عَلى قَلْبِكَ﴾ ولم يقل: عليك مع كونه أخصر) وهذا أيضا مبني على مشاركة الحواس والقوى البدنية في تلقي الوحي فيرد عليه ما قدمناه.

ي. وذكر جمع من المفسرين أن المراد بالقلب هو العضو الخاص البدني وأن الإدراك كيفما كان من خواصه:

- فمنهم من قال: إن جعل القلب متعلق الإنزال مبني على التوسع لأن الله تعالى يسمع القرآن جبرئيل بخلق الصوت فيحفظه وينزل به على الرسول ﷺ ويقرؤه عليه فيعيه ويحفظه بقلبه فكأنه نزل به على قلبه.
- ومنهم من قال: إن تخصيص القلب بالإنزال لأن المعاني الروحانية تنزل أولا على الروح ثم تنتقل منها إلى القلب لما بينهما من التعلق ثم تنتقل منه إلى الدماغ فينتقش بها لوح المتخيلة.
- ومنهم من قال: إن تخصيصه به للإشارة إلى كمال تعقله ﷺ حيث لم يعتبر الوسائط من سمع وبصر وغيرهما.
- ومنهم من قال: إن ذلك للإشارة إلى صلاح قلبه ﷺ وتقدسه حيث كان منزلا لكلامه تعالى ليعلم به صلاح سائر أجزائه وأعضائه فإن القلب رئيس سائر الأعضاء وملكها وإذا صلح الملك صلحت رعيته.
- ومنهم من قال: إن ذلك لأن الله تعالى جعل لقلب رسوله ﷺ سمعا وبصرا مخصوصين يسمع ويبصر بهما تمييزا لشأنه من غيره كما يشعر به قوله تعالى: ﴿ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى﴾ [النجم: ١١]

ك. وهذه الوجوه مضافا على اشتمال أكثرها على المجازفة مبنية على قياس هذه الأمور الغيبية على ما عندنا من الحوادث المادية وإجراء حكمها فيها وقد بلغ من تعسف بعضهم أن قال: (إن معنى إنزال الملك القرآن أن الله ألهمه كلامه وهو في السماء وعلمه قراءته ثم الملك أداه في الأرض وهو يهبط في المكان

وفي ذلك طريقتان: إحداهما أن النبي ﷺ انخلع من صورة البشرية إلى صورة الملكية فأخذه من الملك، وثانيتهما أن الملك انخلع إلى صورة البشرية حتى يأخذه النبي ﷺ والأولى أصعب الحالين) وليت شعري ما الذي تصوره من انخلاع الإنسان من صورته إلى صورة الملكية وصيرورته ملكا ثم عوده إنسانا ومن انخلاع الملك إلى صورة الإنسانية وقد فرض لكل منهما هوية مغايرة للآخر لا رابطة بين أحدهما والآخر ذاتا وأثرا وفي كلامه مواضع أخرى للنظر غير خفية على من تأمل فيه.

ل. وللبحث تتمة لعل الله سبحانه يوفقنا لاستيفائها بإيراد كلام جامع في الملك وآخر في الوحي.

٤. ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾:

أ. أي من الداعين إلى الله سبحانه بالتخويف من عذابه وهو المراد بالإنذار في عرف القرآن دون النبي أو الرسول بالخصوص، قال تعالى في مؤمني الجن: ﴿وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، وقال في المتفقهين من المؤمنين: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ [براءة: ١٢٢]

ب. وإنما ذكر إنذاره ﷺ غاية لإنزال القرآن دون نبوته أو رسالته لأن سياق آيات السورة سياق التخويف والتهديد.

٥. ﴿بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾:

أ. أي ظاهر في عربيته أو مبين للمقاصد تمام البيان والجار والمجرور متعلق بنزل أي أنزله بلسان عربي مبين.

ب. وجوز بعضهم أن يكون متعلقا بقوله: ﴿الْمُنْذِرِينَ﴾ والمعنى أنزله على قلبك لتدخل في زمرة الأنبياء من العرب وقد ذكر منهم في القرآن هود وصالح وإسماعيل وشعيب عليه السلام وأول الوجهين أحسنهما.

٦. ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾:

أ. الضمير للقرآن أو نزوله على النبي ﷺ والزبر جمع زبور وهو الكتاب والمعنى وإن خبر القرآن أو خبر نزوله عليك في كتب الماضين من الأنبياء.

ب. وقيل: الضمير لما في القرآن من المعارف الكلية أي إن المعارف القرآنية موجودة مذكورة في

كتب الأنبياء الماضين، وفيه:

• أولا: أن المشركين ما كانوا يؤمنون بالأنبياء وكتبهم حتى يحتج عليهم بما فيها من التوحيد والمعاد وغيرهما، وهذا بخلاف ذكر خبر القرآن ونزوله على النبي ﷺ في كتب الأولين فإنه حينئذ يكون ملحمة تضطر النفوس إلى قبولها.

• وثانيا: أنه لا يلائم الآية التالية.

٧. ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرائِيلَ﴾:

أ. ضمير ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ﴾ لخبر القرآن أو خبر نزوله على النبي ﷺ أي أولم يكن علم علماء بني إسرائيل بخبر القرآن أو نزوله عليك على سبيل البشارة في كتب الأنبياء الماضين آية للمشركين على صحة نبوتك وكانت اليهود تبشر بذلك وتستفتح على العرب به كما مر في قوله تعالى: ﴿وَكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٨٩]

ب. وقد أسلم عدة من علماء اليهود في عهد النبي ﷺ واعترفوا بأنه مبشر به في كتبهم، والسورة من أوائل السور المكية النازلة قبل الهجرة ولم تبلغ عداوة اليهود للنبي ﷺ مبلغها بعد الهجرة وكان من المرجو أن ينطقوا ببعض ما عندهم من الحق ولو بوجه كلي.

٨. أحاديث وآثار: في الكافي، بإسناده عن الحجال عمن ذكره عن أحدهما عليهما السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل: ﴿بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ قال: يبين الألسن ولا تبينه الألسن.

٢٤. لو نزل القرآن على أعجمي لما آمنوا به:

المقطع [٢٤] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٨-١٩٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٢١»:

١. ﴿وَلَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾:

أ. قال في المفردات: (العجمة خلاف الإبانة والإعجام الإبهام، إلى أن قال، والعجم خلاف العرب والعجمي منسوب إليهم، والأعجم من في لسانه عجمة عربيا كان أو غير عربي اعتبارا بقلة فهمهم عن العجم، ومنه قيل للبهيمة عجماء والأعجمي منسوب إليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ على حذف الياءات)

ب. ومقتضى ما ذكره، كما ترى، أن أصل الأعجمين الأعجميين ثم حذفت ياء النسبة وبه صرح بعض آخر، وذكر بعضهم أن الوجه أن أعجم مؤنثه عجماء وأفعل فعلاء لا يجمع جمع السلامة لكن الكوفيين من النحاة يجوزون ذلك وظاهر اللفظ يؤيد قولهم فلا موجب للقول بالحذف.

ج. وكيف كان فظاهر السياق اتصال الآيتين بقوله: ﴿بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ فتكونان في مقام التعليل له ويكون المعنى: نزلناه عليك بلسان عربي ظاهر العربية واضح الدلالة ليؤمنوا به ولا يتعللوا بعدم فهمهم مقاصده ولو نزلناه على بعض الأعجمين بلسان أعجمي ما كانوا به مؤمنين وردوه بعدم فهم مقاصده.

د. فيكون المراد بنزوله على بعض الأعجمين نزوله أعجميا وبلسانه، والآيتان والتي بعدهما في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لولا فُصِّلَتْ آياتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]

هـ. وقال بعضهم: (إن المعنى ولو نزلناه قرآنا عربيا كما هو بنظمه الرائق المعجز على بعض الأعجمين الذين لا يقدرون على التكلم بالعربية فقرأه عليهم قراءة صحيحة خارقة للعادات ما كانوا به مؤمنين مع انضمام إعجاز القراءة إلى إعجاز المقروء لفرط عنادهم وشدة شكيمتهم في المكابرة)، قال: (وأما قول بعضهم: إن المعنى ولو نزلناه على بعض الأعجمين بلغة العجم فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين فليس بذاك فإنه بمعزل من المناسبة لمقام بيان تماديهم في المكابرة والعناد)، وفيه أن اتصال الآيتين بقوله: ﴿بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ أقرب إليهما من اتصالهما بسياق تمادي الكفار في كفرهم وجحودهم وقد عرفت توضيحه.

و. ويمكن أن يورد على الوجه السابق أن الضمير في قوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ راجع إلى هذا القرآن الذي هو عربي فلو كان المراد تنزيله بلسان أعجمي لكان المعنى ولو نزلنا العربي غير عربي ولا محصل له، ويرده أنه من قبيل قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، ولا معنى لقولنا: إنا جعلنا العربي عربيا فالمراد بالقرآن على أي حال الكتاب المقروء.

٢. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾، قال الصادق عليه السلام: لو نزلنا القرآن على العجم ما آمنت به العرب، وقد نزل على العرب فآمنت به العجم، فهذه فضيلة العجم.

٢٥. القرآن والقلب والعذاب البغتة:

المقطع [٢٥] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٠-٢٠٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٢٣»:

١. ﴿كَذلِكَ سَلَكْناهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾:

أ. الإشارة بقوله: ﴿كَذلِكَ﴾ إلى الحال التي عليها القرآن عند المشركين وقد ذكرت في الآيات السابقة وهي أنهم معرضون عنه لا يؤمنون به وإن كان تنزيلا من رب العالمين وكان عربيا مبينا غير أعجمي وكان مذكورا في زبر الأولين يعلمه علماء بني إسرائيل.

ب. والسلوك الإدخال في الطريق والإمرار، والمراد بالمجرمين هم الكفار والمشركون وذكرهم بوصف الاجرام للإشارة إلى علة الحكم وهو سلوكه في قلوبهم على هذه الحال المبغوضة والمنفورة وأن ذلك مجازاة إلهية جازاهم بها عن إجرامهم وليعم الحكم بعموم العلة.

ج. والمعنى على هذه الحال، وهي أن يكون بحيث يعرض عنه ولا يؤمن به، ندخل القرآن في قلوب هؤلاء المشركين ونمره في نفوسهم جزاء لإجرامهم وكذلك كل مجرم.

د. وقيل: الإشارة إلى ما ذكر من أوصاف القرآن الكريمة والمعنى: ندخل القرآن ونمره في قلوب المجرمين بمثل ما بينا له الأوصاف فيرون أنه كتاب سماوي ذو نظم معجز خارج عن طوق البشر وأنه مبشر به في زبر الأولين يعلمه علماء بني إسرائيل وتتم الحجة به عليهم وهو بعيد من السياق.

هـ. وقيل: الضمير في ﴿سَلَكْناهُ﴾ للتكذيب بالقرآن والكفر به المدلول عليه بقوله: ﴿ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ هذا وهو قريب من الوجه الأول لكن الوجه الأول ألطف وأدق، وقد ذكره في الكشاف.

و. وقد تبين بما تقدم أن المراد بالمجرمين مشركو مكة غير أن عموم وصف الاجرام يعمم الحكم، وقال بعضهم: إن المراد بالمجرمين غير مشركي مكة من معاصريهم ومن يأتي بعدهم، والمعنى: كما سلكناه في قلوب مشركي مكة نسلكه في قلوب غيرهم من المجرمين.

ز. ولعل الذي دعاه إلى اختيار هذا الوجه إشكال اتحاد المشبه والمشبه به على الوجه الأول مع لزوم المغايرة بينهما فاعتبر المشار إليه بقوله: ﴿كَذلِكَ﴾ السلوك في قلوب مشركي مكة وهو المشبه به وجعل المشبه غيرهم من المجرمين وفيه أن تشبيه الكلي ببعض أفراده للدلالة على سراية حكمه في جميع الأفراد

طريقة شائعة.

ح. ومن هنا يظهر أن هناك وجها آخر وهو أن يكون المراد بالمجرمين ما يعم مشركي مكة وغيرهم بجعل اللام فيه لغير العهد ولعل الوجه الأول أقرب من السياق.

٢. ﴿لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ﴾ إلى قوله: ﴿مُنْظَرُونَ﴾ تفسير وبيان لقوله: ﴿كَذلِكَ سَلَكْناهُ﴾ هذا على الوجه الأول والثالث من الوجوه المذكورة في الآية السابقة وأما على الوجه الثاني فهو استئناف غير مرتبط بما قبله.

٣. ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ﴾ أي حتى يشاهدوا العذاب الأليم فيلجئهم إلى الإيمان الاضطراري الذي لا ينفعهم، والظاهر أن المراد بالعذاب الأليم ما يشاهدونه عند الموت واحتمل بعضهم أن يكون المراد به ما أصابهم يوم بدر من القتل، لكن عموم الحكم في الآية السابقة لمشركي مكة وغيرهم لا يلائم ذلك.

٤. ﴿فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ كالتفسير لقوله: ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ﴾ إذ لو لم يأتهم بغتة وعلموا به قبل موعده لاستعدوا له وآمنوا باختيار منهم غير ملجئين إليه.

٥. ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ كلمة تحسر منهم.

٦. ﴿أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ توبيخ وتهديد.

٢٦. التمتع لسنين ثم مجيء العذاب لا يغني عنهم شيئاً:

المقطع [٢٦] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٢٤»:

١. ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ سِنِينَ﴾ إلى قوله: ﴿يُمَتَّعُونَ﴾:

أ. متصل بقوله: ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ ومحصل المعنى أن تمني الإمهال والإنظار تمني أمر لا ينفعهم لو وقع على ما يتمنونه ولم يغن عنهم شيئا لو أجيبوا إلى ما سألوه فإن تمتيعهم أمدا محدودا طال أو قصر لا يرفع العذاب الخالد الذي قضي في حقهم.

ب. وهو قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ سِنِينَ﴾ معدودة ستنقضي: ﴿ثُمَّ جاءَهُمْ ما كانُوا يُوعَدُونَ﴾

من العذاب بعد انقضاء سني الإنظار والإمهال ﴿ما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ أي تمتيعهم أمدا محدودا.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن علي بن عيسى القماط عن عمه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أرى رسول الله ﷺ في منامه بني أمية، يصعدون على منبره من بعده، ويضلون الناس عن الصراط القهقرى، فأصبح كئيبا حزينا، قال: فهبط جبرئيل فقال: يا رسول الله ما لي أراك كئيبا حزينا؟ قال: يا جبرئيل إني رأيت بني أمية في ليلتي هذه، يصعدون منبري من بعدي، يضلون الناس عن الصراط القهقرى، فقال: والذي بعثك بالحق نبيا إني ما اطلعت عليه، فعرج إلى السماء، فلم يلبث أن نزل عليه بآي من القرآن يؤنسه بها، قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ سِنِينَ، ثُمَّ جاءَهُمْ ما كانُوا يُوعَدُونَ، ما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ وأنزل عليه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ جعل الله ليلة القدر لنبيه ﷺ، خيرا من ألف شهر ملك بني أمية.

ب. أخرج ابن أبي حاتم عن أبي جهضم قال: رئي النبي ﷺ كأنه متحير فسألوه عن ذلك فقال: ولم ورأيت عدوي يلون أمر أمتي من بعدي، فنزلت ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ سِنِينَ، ثُمَّ جاءَهُمْ ما كانُوا يُوعَدُونَ، ما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ فطابت نفسه.

• أقول: وقوله: ولم ورأيت.، فيه حذف والتقدير ولم لا أكون كذلك وقد رأيت..

٢٧. إهلاك القرى بعد إنذارها وعدل الله:

المقطع [٢٧] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨-٢١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٢٤»:

١. ﴿وما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَها مُنْذِرُونَ ذِكْرى﴾، الأقرب أن يكون قوله: ﴿لَها مُنْذِرُونَ﴾ حالا من ﴿قَرْيَةٍ﴾ وقوله: ﴿ذِكْرى﴾ حالا من ضمير الجمع في ﴿مُنْذِرُونَ﴾ أو مفعولا مطلقا عامله ﴿مُنْذِرُونَ﴾ لكونه في معنى مذكرون والمعنى ظاهر، وقيل غير ذلك مما لا جدوى في ذكره وإطالة البحث عنه.

٢. ﴿وما كُنَّا ظالِمِينَ﴾:

أ. ورود النفي على الكون دون أن يقال: وما ظلمناهم ونحو ذلك يفيد نفي الشأنية أي وما كان من شأننا ولا المترقب منا أن نظلمهم.

ب. والجملة في مقام التعليل للحصر السابق والمعنى: ما أهلكنا من قرية إلا في حال لها منذرون مذكرون تتم بهم الحجة عليهم لأنا لو أهلكناهم في غير هذه الحال لكنا ظالمين لهم وليس من شأننا أن نظلم أحدا فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥]

٣. وضع هنا مبحثا حول [معنى نفي الظلم عن الله تعالى]، خلاصته:

أ. الظلم هو فعل الفاعل وتصرفه فيما لا يملكه من الفعل والتصرف، ويقابله العدل (فعل ما يملكه)، وأفعال الفواعل التكوينية من حيث هي مملوكة لها تكويناً لا يتحقق فيها معنى الظلم، لأن صدور الفعل عن فاعله تكويناً مساوق لكونه مملوكاً له.

ب. لله سبحانه ملك مطلق منبسط على الأشياء من جميع جهات وجودها، لقيامها به تعالى من غير غنى عنه واستقلال دونه، فأي تصرف تصرف به فيها ليس من الظلم في شيء، بل هو عدل بمعنى ما ليس بظلم.

ج. الإنسان يملك الاختيار (إمكان الفعل والترك معاً) تكويناً، لكن اضطراره إلى الحياة الاجتماعية اضطر العقل أن يغمض عن بعض حريته (المحرمات والمعاصي) التي تخل بأمر المجتمع، وجعل نوعاً من الجزاء على المخالف، والأجر على المطيع، وانتصب من يجري القوانين.

د. القوانين الاجتماعية يجب أن تكون من عند الله، وهي أحكام إنسانية تهدي إليها الفطرة وتضمن سعادة الحياة، ومقتضى تشريعه تعالى أنه أوجب على نفسه إيجاباً تشريعياً (لا تكوينياً) أن لا يناقض نفسه، ولا يتخلف بإهمال جزاء يستوجبه خلاف، ولا يعمل جزاء لا يستحقه عمل، وإلا كان ظلماً منه.

هـ. الظلم مقدور لله لكنه ليس بواقع لأنه نقص كمال يتنزه عنه، والآيات (كقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً﴾) نافية للظلم، وليست من قبيل السالبة بانتفاء الموضوع.

و. ترك عقاب العاصي جائز في الجملة لأنه من الفضل، لكن ليس بالجملة لاستلزامه لغوية التشريع، وثواب الأعمال من الفضل بالنظر إلى أن عمل العبد لله، لكن لا ينافي فضلاً آخر منه باعتبار عمله ملكاً له، وقد قال: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]

٤. ﴿وما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ﴾ إلى قوله: ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾:

أ. شروع في الجواب عن قول المشركين: إن لمحمد جنا يأتيه بهذا الكلام، وقولهم: إنه شاعر، وقدم الجواب عن الأول وقد وجه الكلام أولا إلى النبي ﷺ فبين له أن القرآن ليس من تنزيل الشياطين وطيب بذلك نفسه ثم وجه القول إلى القوم فبينه لهم بما في وسعهم أن يفقهوه.

ب. فقوله: ﴿وما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ﴾ أي ما نزلته والآية متصلة بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ ووجه الكلام كما سمعت إلى النبي ﷺ بدليل قوله تلوا: ﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ﴾ إلى آخر الخطابات المختصة به ﷺ المتفرعة على قوله: ﴿وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾، على ما سيجيء بيانه.

ج. وإنما وجه الكلام إلى النبي ﷺ دون القوم لأنه معلل بما لا يقبلونه بكفرهم أعني قوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ والشيطان الشرير وجمعه الشياطين والمراد بهم أشرار الجن.

٥. ﴿وَما يَنْبَغِي لَهُمْ﴾:

أ. أي للشياطين، قال في مجمع البيان: (ومعنى قول العرب: ينبغي لك أن تفعل كذا أنه يطلب منك فعله في مقتضى العقل من البغية التي هي الطلب)

ب. والوجه في أنه لا ينبغي لهم أن يتنزلوا به أنهم خلق شرير لا هم لهم إلا الشر والفساد والأخذ بالباطل وتصويره في صورة الحق ليضلوا به عن سبيل الله، والقرآن كلام حق لا سبيل للباطل إليه فلا يناسب جبلتهم الشيطانية أن يلقوه إلى أحد.

٦. ﴿وَما يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي وما يقدرون على التنزل به لأنه كلام سماوي تتلقاه الملائكة من رب العزة فينزلونه بأمره في حفظ وحراسة منه تعالى كما قال: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ﴾ [الجن: ٢٨]، وإلى ذلك يشير قوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ﴾

٧. ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ أي إن الشياطين عن سمع الأخبار السماوية والاطلاع على ما يجري في الملإ الأعلى معزولون حيث يقذفون بالشهب الثاقبة لو تسمعوا كما ذكره الله في مواضع من كلامه.

٢٨. النهي عن الشرك وإنذار العشيرة وخفض الجناح:

المقطع [٢٨] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣-٢١٥]،

وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٢٨»:

١. ﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾:

أ. خطاب للنبي ﷺ ينهاه عن الشرك بالله متفرع على قوله: ﴿وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ﴾، أي إذا كان هذا القرآن تنزيلا من رب العالمين ولم تنزل به الشياطين وهو ينهى عن الشرك ويوعد عليه العذاب فلا تشرك بالله فينالك العذاب الموعود عليه وتدخل في زمرة المعذبين.

ب. وكونه ﷺ معصوما بعصمة إلهية يستحيل معها صدور المعصية منه لا ينافي نهيه عن الشرك فإن العصمة لا توجب بطلان تعلق الأمر والنهي بالمعصوم وارتفاع التكليف عنه بها أنه بشر مختار في الفعل والترك متصور في حقه الطاعة والمعصية بالنظر إلى نفسه، وقد تكاثرت الآيات في تكليف الأنبياء عليهم‌السلام في القرآن الكريم كقوله في الأنبياء عليهم‌السلام: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وقوله في النبي ﷺ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، والآيتان في معنى النهي.

ج. وقول بعضهم: إن التكليف للتكميل فيرتفع عند حصول الكمال وتحققه لاستحالة تحصيل الحاصل خطأ فإن الأعمال الصالحة التي يتعلق بها التكاليف من آثار الكمال المطلوب والكمال النفساني كما يجب أن يكتسب بالإتيان بآثاره ومزاولة الأعمال التي تناسبه والارتياض بها كذلك يجب أن يستبقي بذلك فما دام الإنسان بشرا له تعلق بالحياة الأرضية لا مناص له عن تحمل أعباء التكليف، وقد تقدم كلام في هذا المعنى في بعض الأبحاث.

٢. ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ في مجمع البيان: عشيرة الرجل قرابته سموا بذلك لأنه يعاشرهم وهم يعاشرونه) انتهى، وخص عشيرته وقرابته الأقربين بالذكر بعد نهي نفسه عن الشرك وإنذاره تنبيها على أنه لا استثناء في الدعوة الدينية ولا مداهنة ولا مساهلة كما هو معهود في السنن الملوكية فلا فرق في تعلق الإنذار بين النبي وأمته ولا بين الأقارب والأجانب، فالجميع عبيد والله مولاهم.

٣. ﴿وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾:

أ. أي اشتغل بالمؤمنين بك واجمعهم وضمهم إليك بالرأفة والرحمة كما يجمع الطير أفراخه إليه بخفض جناحه لها، وهذا من الاستعارة بالكناية تقدم نظيره في قوله: ﴿وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

[الحجر: ٨٨]

ب. والمراد بالاتباع الطاعة بقرينة قوله في الآية التالية: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فملخص معنى الآيتين: إن آمنوا بك واتبعوك فاجمعهم إليك بالرأفة واشتغل بهم بالتربية وإن عصوك فتبرأ من عملهم.

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان وفي الدلائل عن أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشا وعم وخص فقال: يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا، يا معشر بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا، يا معشر بني قصي أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا، يا معشر بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا،يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لك ضرا ولا نفعا، ألا إن لكم رحما وسأبلها ببلالها.

ب. أخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ جعل يدعوهم قبائل قبائل.

ج. أخرج سعيد بن منصور والبخاري وابن مردويه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ورهطك منهم المخلصين) خرج النبي ﷺ حتى صعد على الصفا فنادى يا صباحاه، فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد، فاجتمعوا إليه، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهب وقريش فقال ﷺ: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي، تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾

د. أخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي أمامة قال: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ جمع

رسول الله بني هاشم فأجلسهم على الباب، وجمع نساءه وأهله فأجلسهم في البيت، ثم اطلع عليهم فقال: يا بني هاشم اشتروا أنفسكم من النار، واسعوا في فكاك رقابكم وافتكوها بأنفسكم من الله، فإني لا أملك لكم من الله شيئا، ثم أقبل على أهل بيته فقال: يا عائشة بنت أبي بكر ويا حفصة بنت عمر، ويا أم سلمة ويا فاطمة بنت محمد، ويا أم الزبير عمة رسول الله، اشتروا أنفسكم من الله واسعوا في فكاك رقابكم، فإني لا أملك لكم من الله شيئا ولا أغني، الحديث.

• أقول: وفي معنى هذه الروايات بعض روايات أخر وفي بعضها أنه ﷺ خص بني عبد مناف بالإنذار فيشمل بني أمية وبني هاشم جميعا.

• والروايات الثلاث الأول لا تنطبق عليها الآية فإنها تعمم الإنذار قريشا عامة والآية تصرح بالعشيرة الأقربين وهم إما بنو عبد المطلب أو بنو هاشم وأبعد ما يكون من الآية الرواية الثانية حيث تقول: جعل يدعوهم قبائل قبائل.

• على أن ما تقدم من معنى الآية وهو نفي أن تكون قرابة النبي ﷺ تغنيهم من تقوى الله وفي الروايات إشارة إلى ذلك، حيث تقول: لا أغني عنكم من الله شيئا، لا يناسب عمومه لغير الخاصة من قرابته ﷺ.

• وأما الرواية الرابعة فقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ آية مكية في سورة مكية ولم يقل أحد بنزول الآية بالمدينة وأين كانت يوم نزولها عائشة وحفصة وأم سلمة ولم يتزوج النبي ﷺ بهن إلا في المدينة) فالمعتمد من الروايات ما يدل على أنه ﷺ خص بالإنذار يوم نزول الآية بني هاشم أو بني عبد المطلب، ومن عجيب الكلام قول الآلوسي بعد نقل الروايات: وإذا صح الكل فطريق الجمع أن يقال بتعدد الإنذار.

هـ. وفي المجمع: (عن تفسير الثعلبي بإسناده عن براء بن عازب قال: لما نزلت هذه الآية جمع رسول الله ﷺ، بني عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلا، الرجل منهم يأكل المسنة ويشرب العس، فأمر عليا برجل شاة فأدمها ثم قال: ادنوا بسم الله فدنا القوم عشرة عشرة، فأكلوا حتى صدروا، ثم دعا بعقب من لبن فجرع منه جرعا ثم قال لهم: اشربوا بسم الله فشربوا حتى رووا، فبدرهم أبو لهب فقال: هذا ما سحركم به الرجل، فسكت ﷺ يومئذ ولم يتكلم، ثم دعاهم من الغد على مثل ذلك من الطعام والشراب،

ثم أنذرهم رسول الله ﷺ فقال: يا بني عبد المطلب إني أنا النذير إليكم، من الله عز وجل فأسلموا وأطيعوني تهتدوا، ثم قال: من يواخيني ويوازرني، ويكون وليي ووصيي بعدي، وخليفتي في أهلي ويقضي ديني؟، فسكت القوم فأعادها ثلاثا كل ذلك يسكت القوم، ويقول علي أنا فقال في المرة الثالثة: أنت، فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب: أطع ابنك فقد أمر عليك.

و. قال الطبرسي: وروي عن أبي رافع هذه القصة وأنه جمعهم في الشعب، فصنع لهم رجل شاة فأكلوا حتى تضلعوا، وسقاهم عسا فشربوا كلهم حتى رووا، ثم قال: إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي ورهطي، وإن الله لم يبعث نبيا إلا جعل له من أهله أخا، ووزيرا ووارثا ووصيا وخليفة في أهله، فأيكم يقوم فيبايعني على أنه أخي ووارثي ووزيري، ووصيي ويكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ فقال علي: أنا فقال: ادن مني، ففتح فاه ومج في فيه من ريقه وتفل بين كتفيه وثدييه، فقال أبو لهب: بئس ما حبوت به ابن عمك، أن أجابك فملأت فاه ووجهه بزاقا، فقال ﷺ ملأته حكمة وعلما.

ز. وروى السيوطي في الدر المنثور، ما في معنى حديث البراء عن ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي في الدلائل من طرق عن علي وفيه: ثم تكلم النبي ﷺ فقال: يا بني عبد المطلب، إني والله ما أعلم أحدا في العرب، جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأيكم يوازرني على أمري هذا؟ فقلت وأنا أحدثهم سنا: إنه أنا، فقام القوم يضحكون.

ح. وفي علل الشرائع، بإسناده عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ أي رهطك المخلصين، دعا رسول الله ﷺ بني عبد المطلب، وهم إذ ذاك أربعون رجلا، يزيدون رجلا وينقصون رجلا فقال: أيكم يكون أخي ووارثي ووزيري ووصيي، وخليفتي فيكم بعدي، فعرض عليهم ذلك رجلا رجلا كلهم يأبى ذلك، حتى أتى علي فقلت: أنا يا رسول الله، فقال: يا بني عبد المطلب هذا وارثي ووزيري، وخليفتي فيكم بعدي فقام القوم يضحك بعضهم إلى بعض، ويقولون لأبي طالب، قد أمرك أن تسمع وتطيع لهذا الغلام.

• أقول: ومن الممكن أن يستفاد من قوله عليه السلام: أي رهطك المخلصين أن ما نسب إلى قراءة أهل البيت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ رهطك منهم المخلصين) ونسب أيضا إلى قرآن أبي بن كعب كان

من قبيل التفسير.

٢٩. البراءة من أعمال الكافرين والتوكل على الله:

المقطع [٢٩] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٦ـ٢٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٢٩»:

١. ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وإن عصوك فتبرأ من عملهم.

٢. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾:

أ. أي ليس لك من أمر طاعتهم ومعصيتهم شيء وراء ما كلفناك فكل ما وراء ذلك إلى الله سبحانه فإنه لعزته سيعذب العاصين وبرحمته سينجي المؤمنين المتبعين.

ب. وفي اختصاص اسمي العزيز والرحيم إلفات للذهن إلى ما تقدم من القصص ختمت واحدة بعد واحدة بالاسمين الكريمين، فهو في معنى أن يقال: توكل في أمر المتبعين والعاصين جميعا إلى الله فهو العزيز الرحيم الذي فعل بقوم نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وقوم فرعون ما فعل مما قصصناه فسنته أخذ العاصين وإنجاء المؤمنين.

٣. ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾:

أ. ظاهر الآيتين، على ما يسبق إلى الذهن، أن المراد بالساجدين الساجدون في الصلاة من المؤمنين وفيهم رسول الله ﷺ في صلاته بهم جماعة، والمراد بقرينة المقابلة القيام في الصلاة فيكون المعنى: الذي يراك وأنت بعينه في حالتي قيامك وسجودك متقلبا في الساجدين وأنت تصلي مع المؤمنين.

ب. وفي معنى الآية روايات من طرق الشيعة وأهل السنة سنتعرض لها في البحث الروائي الآتي إن شاء الله.

٤. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ تعليل لقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ وفي الآيات، على ما تقدم من معناها، تسلية للنبي ﷺ وبشرى للمؤمنين بالنجاة وإيعاد للكفار بالعذاب.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ قيل: معناه وتقلبك في الساجدين الموحدين،

من نبي إلى نبي حتى أخرجك نبياً، عن ابن عباس في رواية عطاء وعكرمة وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام قالا: أصلاب النبيين نبي بعد نبي، حتى أخرجه من صلب أبيه، عن نكاح غير سفاح من لدن آدم.

• أقول: ورواه غيره من رواة الشيعة، ورواه في الدر المنثور، عن ابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي نعيم وغيرهم عن ابن عباس وغيرهم.

ب. وفي المجمع: روى جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: لا ترفعوا قبلي ولا تضعوا قبلي، فإني أراكم من خلفي كما أراكم من أمامي، ثم تلا هذه الآية.

• أقول: يريد ﷺ وضع الجبهة على الأرض ورفعها في السجدة ورواه في الدر المنثور، عن ابن عباس وغيره.

٣٠. تنزل الشياطين على كل أفاك أثيم:

المقطع [٣٠] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٣٠»:

١. ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ إلى قوله: ﴿كاذِبُونَ﴾:

أ. تعريف لمن تتنزل عليه الشياطين بما يخصه من الصفة ليعلم أن النبي ﷺ ليس منهم ولا أن القرآن من إلقاء الشياطين، والخطاب متوجه إلى المشركين.

ب. فقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ في معنى هل أعرفكم الذين تتنزل عليهم شياطين الجن بالأخبار؟

٢. ﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾:

أ. قال في مجمع البيان: (الأفاك الكذاب وأصل الإفك القلب والأفاك الكثير القلب للخبر عن جهة الصدق إلى جهة الكذب، والأثيم الفاعل للقبيح يقال: أثم يأثم إثما إذا ارتكب القبيح وتأثم إذا ترك الإثم)

ب. وذلك أن الشياطين لا شأن لهم إلا إظهار الباطل في صورة الحق وتزيين القبيح في زي الحسن

فلا يتنزلون إلا على أفاك أثيم.

٣. ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ﴾ الظاهر أن ضميري الجمع في ﴿يُلْقُونَ﴾ و﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ معا للشياطين، والسمع مصدر بمعنى المسموع والمراد به ما سمعه الشياطين من أخبار السماء ولو ناقصا فإنهم ممنوعون من الاستماع مرميون بالشهب فما استرقوه لا يكون إلا ناقصا غير تام ولا كامل ولذا يتسرب إليه الكذب كثيرا.

٤. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ﴾:

أ. أي أكثر الشياطين كاذبون لا يخبرون بصدق أصلا وهذا هو الكثرة بحسب الأفراد ويمكن أن يكون المراد الكثرة من حيث التنزل أي أكثر المتنزلين منهم كاذبون أي أكثر أخبارهم كاذبة.

ب. ومحصل حجة الآيات الثلاث أن الشياطين لابتناء جبلتهم على الشر لا يتنزلون إلا على كل كذاب فاجر وأكثرهم كاذبون في أخبارهم، والنبي ﷺ ليس بأفاك أثيم ولا ما يوحى إليه من الكلام كذبا مختلقا فليس ممن تتنزل عليه الشياطين ولا الذي يتنزل عليه شيطانا، ولا القرآن النازل عليه من إلقاء الشياطين.

٥. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن أبي سعيد قال: بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ إذ عرض شاعر ينشد، فقال النبي ﷺ: لئن يمتلئ جوف أحدكم قيحا، خير له من أن يمتلئ شعرا.

- أقول: وهو مروي من طرق الشيعة أيضا عن الصادق عليه السلام عنه ﷺ.

ب. وفي تفسير القمي، قال: يعظون الناس ولا يتعظون، وينهون عن المنكر ولا ينتهون، ويأمرون بالمعروف ولا يعملون، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ﴾ أي في كل مذهب يذهبون ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ﴾ وهم الذين غصبوا آل محمد حقهم.

ج. وفي اعتقادات الصدوق سئل الصادق عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ﴾ قال: هم القصاص.

- أقول: هم من المصاديق والمعنى الجامع ما تقدم في ذيل الآية.

٣١. اتباع الغاوين للشعراء وضلالهم في كل وادٍ:

المقطع [٣١] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٣٠»:

١. ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ إلى قوله: ﴿لا يَفْعَلُونَ﴾:

أ. جواب عن رمي المشركين للنبي ﷺ بأنه شاعر، نبه عليه بعد الجواب عن قولهم إن له شيطانا يوحي إليه القرآن.

ب. وهذان أعني قولهم إن من الجن من يأتيه، وقولهم إنه شاعر، مما كانوا يكررونه في ألسنتهم بمكة قبل الهجرة يدفعون به الدعوة الحقة، وهذا مما يؤيد نزول هذه الآيات بمكة خلافا لما قيل إنها نزلت بالمدينة.

ج. على أن الآيات مشتملة على ختام السورة أعني قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ ولا معنى لبقاء سورة هي من أقدم السور المكية سنين على نعت النقص ثم تمامها بالمدينة، ولا دلالة في الاستثناء على أن المستثنين هم شعراء المؤمنين بعد الهجرة.

د. وكيف كان فالغي خلاف الرشد الذي هو إصابة الواقع فالرشيد هو الذي لا يهتم إلا بما هو حق واقع والغوي هو السالك سبيل الباطل والمخطئ طريق الحق، والغواية مما يختص به صناعة الشعر المبنية على التخييل وتصوير غير الواقع في صورة الواقع ولذلك لا يهتم به إلا الغوي المشعوف بالتزيينات الخيالية والتصويرات الوهمية الملهية عن الحق الصارفة عن الرشد، ولا يتبع الشعراء الذين يبتني صناعتهم على الغي والغواية إلا الغاوون وذلك قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾

٢. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ﴾:

أ. يقال: هام يهيم هيمانا إذا ذهب على وجهه والمراد بهيمانهم في كل واد استرسالهم في القول من غير أن يقفوا على حد فربما مدحوا الباطل المذموم كما يمدح الحق المحمود وربما هجوا الجميل كما يهجى القبيح الدميم وربما دعوا إلى الباطل وصرفوا عن الحق وفي ذلك انحراف عن سبيل الفطرة الإنسانية المبنية على الرشد الداعية إلى الحق، وكذا قولهم ما لا يفعلون من العدول عن صراط الفطرة.

ب. وملخص حجة الآيات الثلاث أنه ﷺ ليس بشاعر لأن الشعراء يتبعهم الغاوون لابتناء

صناعتهم على الغواية وخلاف الرشد لكن الذين يتبعونه إنما يتبعونه ابتغاء للرشد وإصابة الواقع وطلبا للحق لابتناء ما عنده من الكلام المشتمل على الدعوة على الحق والرشد دون الباطل والغي.

٣٢. استثناء الشعراء المؤمنين من الغواية:

المقطع [٣٢] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَّ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٣١»:

١. ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً﴾:

أ. استثناء من الشعراء المذمومين، والمستثنون هم شعراء المؤمنين فإن الإيمان وصالحات الأعمال تردع الإنسان بالطبع عن ترك الحق واتباع الباطل ثم الذكر الكثير لله سبحانه يجعل الإنسان على ذكر منه تعالى مقبلا إلى الحق الذي يرتضيه مدبرا عن الباطل الذي لا يحب الاشتغال به فلا يعرض لهؤلاء ما كان يعرض لأولئك.

ب. وبهذا البيان يظهر وجه تقييد المستثنى بالإيمان وعمل الصالحات ثم عطف قوله: ﴿وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً﴾ على ذلك.

٢. ﴿وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا﴾ الانتصار الانتقام، قيل: المراد به رد الشعراء من المؤمنين على المشركين أشعارهم التي هجوا بها النبي ﷺ أو طعنوا فيها في الدين وقدحوا في الإسلام والمسلمين، وهو حسن يؤيده المقام.

٣٣. سوء منقلب الظالمين:

المقطع [٣٣] من سورة الشعراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٣١»:

١. ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾:

أ. المنقلب اسم مكان أو مصدر ميمي، والمعنى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم المشركون على ما يعطيه السياق، إلى أي مرجع ومنصرف يرجعون وينصرفون وهو النار أو ينقلبون أي انقلاب.

ب. وفيه تهديد للمشركين ورجوع مختتم السورة إلى مفتتحها وقد وقع في أولها قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا

﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبُؤُا ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾

٢. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: إن من الشعر حكما وإن من البيان سحرا.

• أقول: وروى الجملة الأولى أيضا عنه عن بريدة وابن عباس عن النبي ﷺ وأيضا عن ابن مردويه عن أبي هريرة عنه ﷺ ولفظه: إن من الشعر حكمة، والممدوح من الشعر ما فيه نصرة الحق ولا تشمله الآية.

ب. وفي المجمع: عن الزهري قال: حدثني عبد الرحمن بن كعب بن مالك: أن كعب بن مالك قال: يا رسول الله ما ذا تقول في الشعراء؟ قال: إن المؤمن مجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأنما تنضخونهم بالنبل، قال الطبرسي وقال النبي ﷺ لحسان بن ثابت: اهجهم أو هاجهم وروح القدس معك: رواه البخاري ومسلم في الصحيحين.

ج. أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي الحسن سالم البراد قال: لما نزلت ﴿وَالشُّعَراءُ﴾ الآية، جاء عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك، وحسان بن ثابت وهم يبكون فقالوا، يا رسول الله لقد أنزل الله هذه الآية، وهو يعلم أنا شعراء أهلكنا؟ فأنزل الله ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ فدعاهم رسول الله فتلاها عليهم.

• أقول: هذه الرواية وما في معناها هي التي دعا بعضهم إلى القول بكون الآيات الخمس من آخر السورة مدنيات وقد عرفت الكلام في ذلك عند تفسير الآيات.

د. وفي الكافي، بإسناده عن أبي عبيدة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من أشد ما فرض الله على خلقه ذكر الله كثيرا، ثم قال: لا أعني، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وإن كان منه ولكن ذكر الله عند ما أحل وحرم، فإن كان طاعة عمل بها وإن كان معصية تركها.

• أقول: فيه تأييد لما تقدم في تفسير الآية.